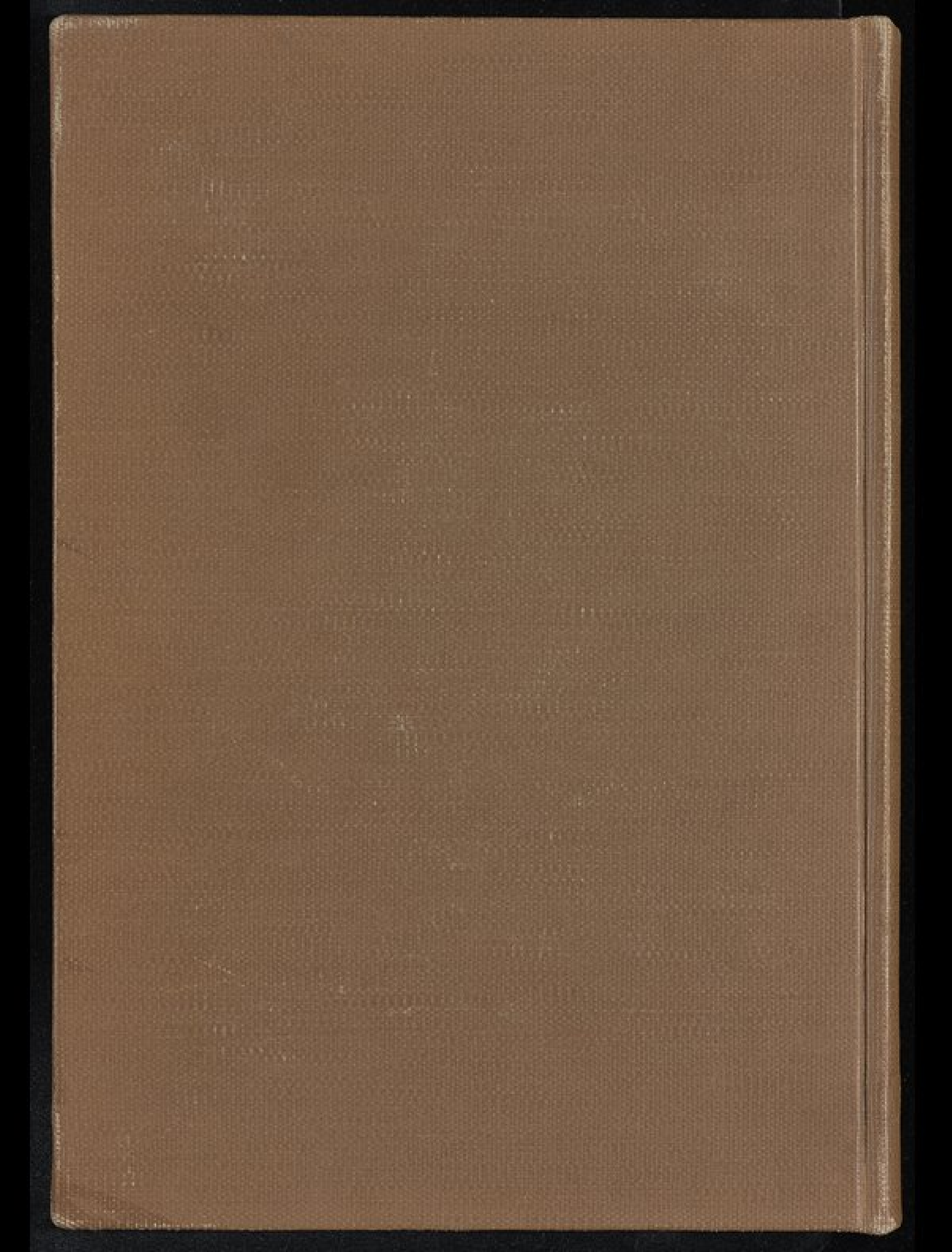
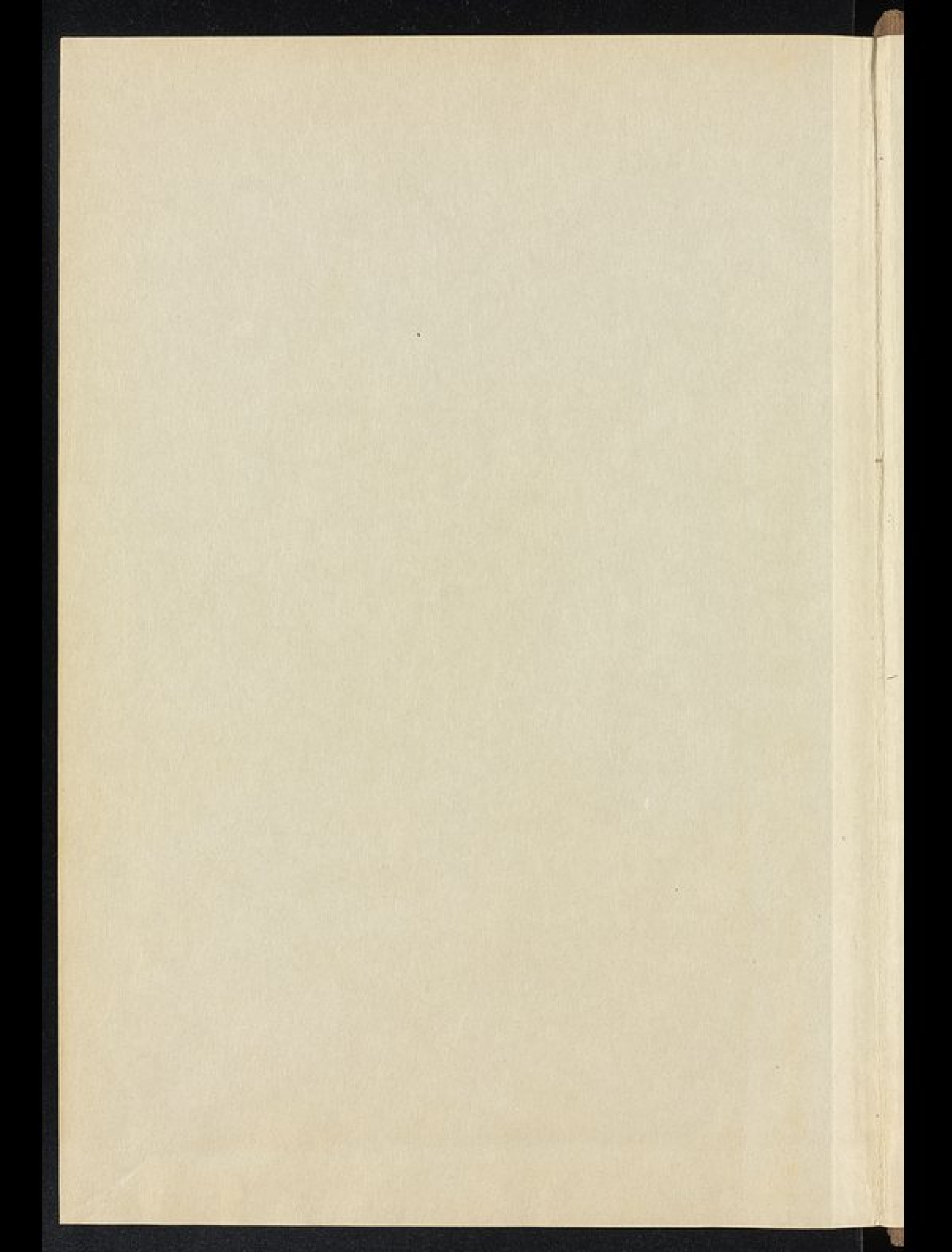
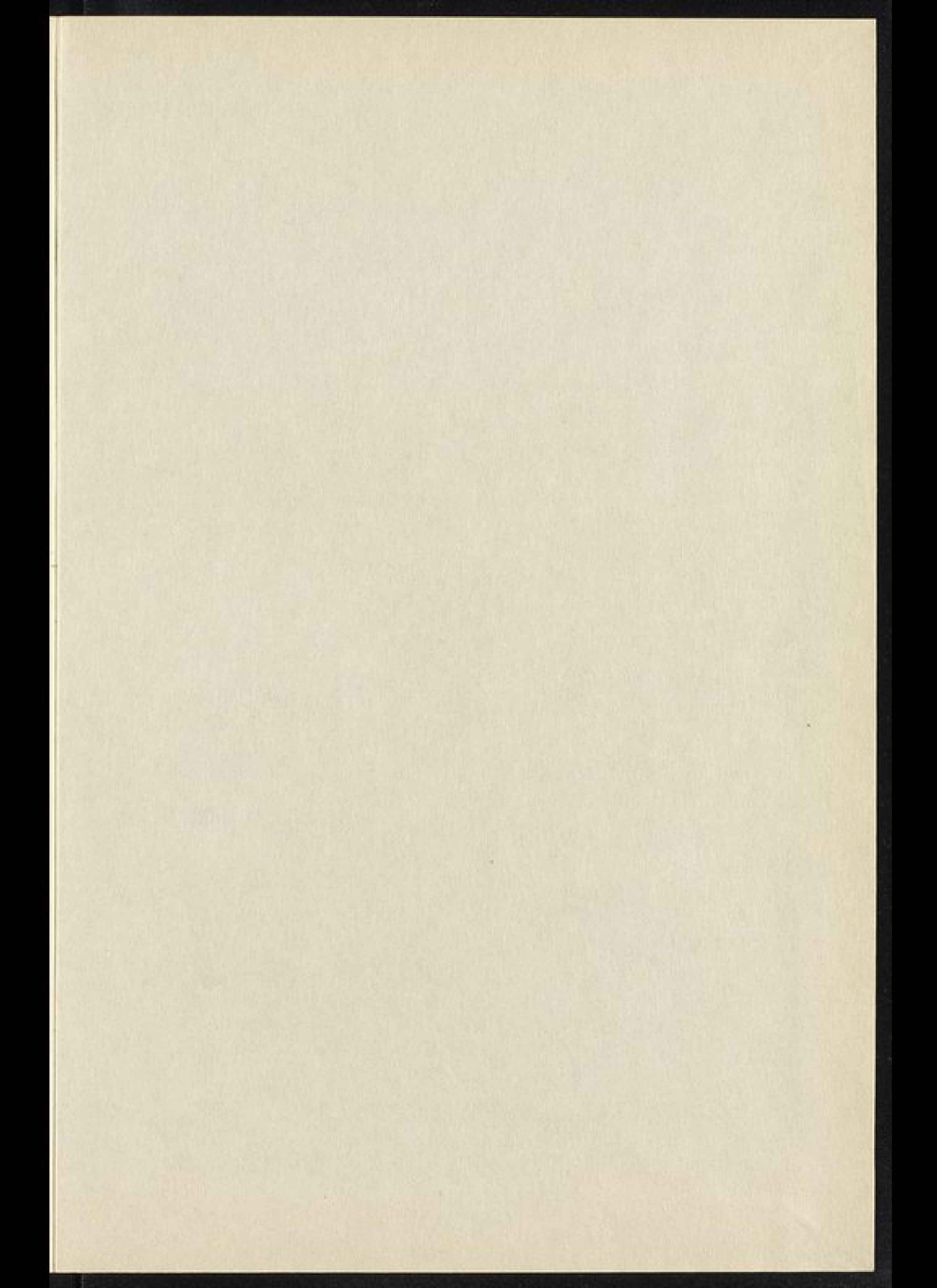
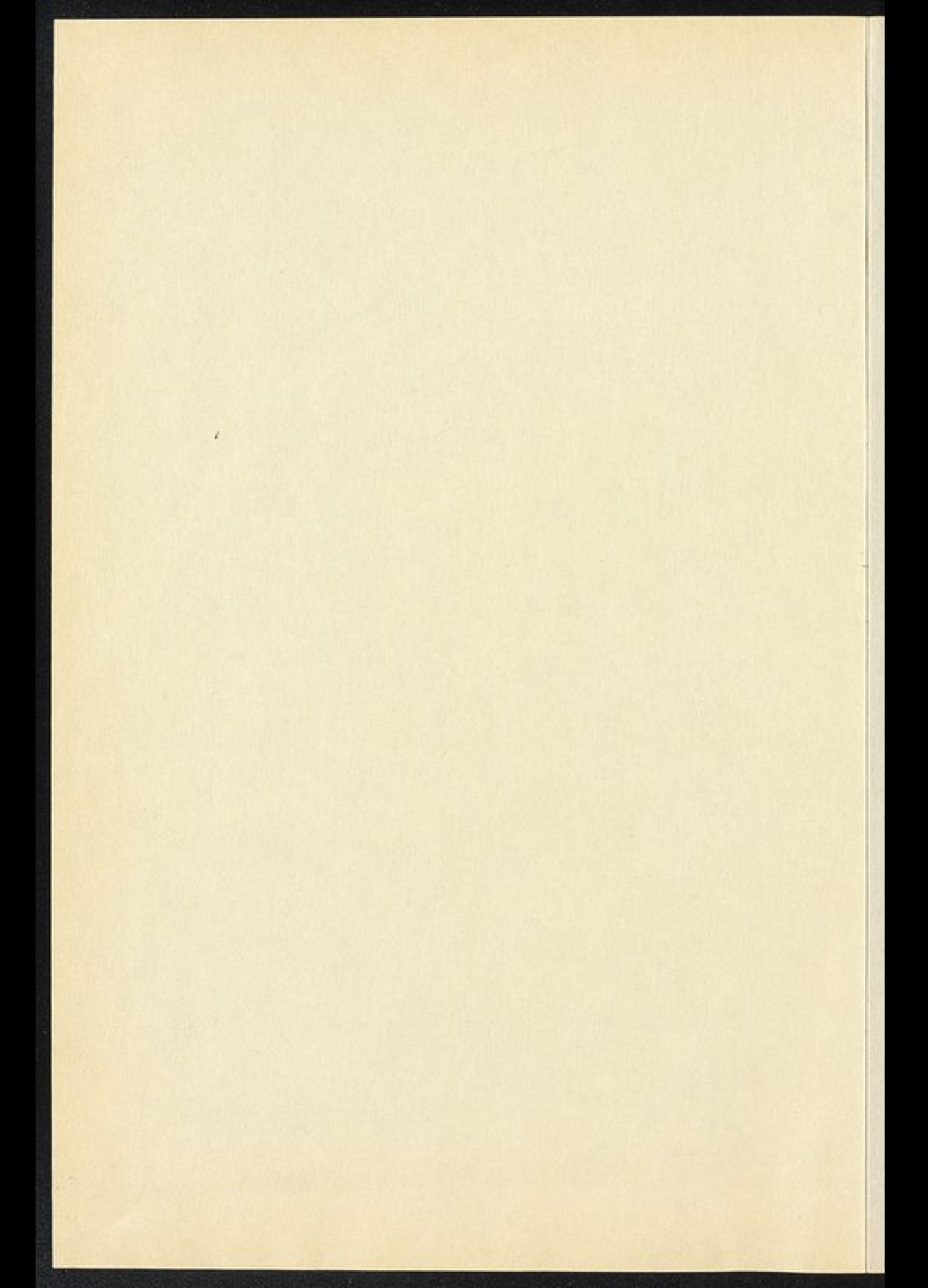
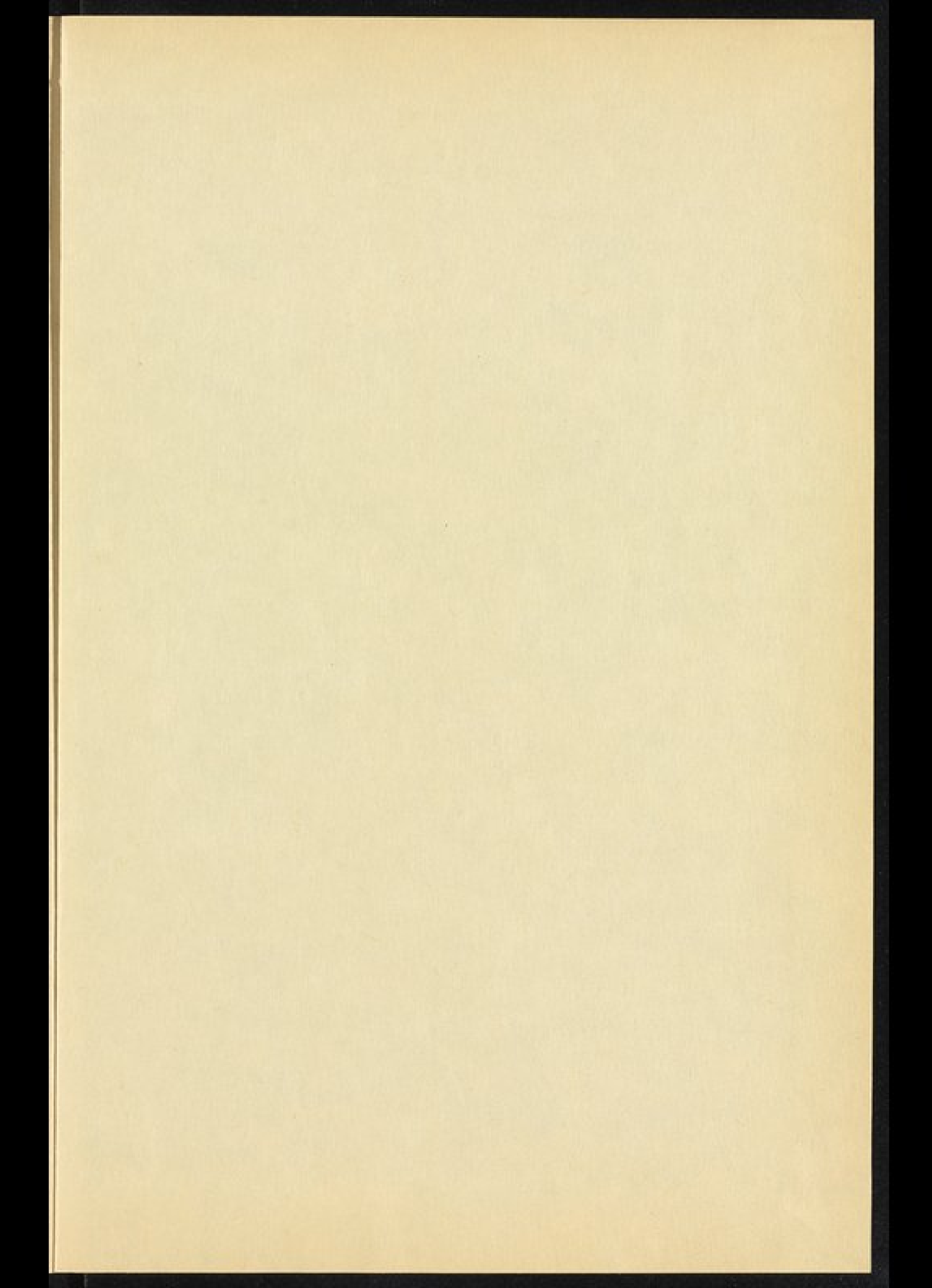



SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI









حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الرابع

القاهرة — ١٣٥٢ — هجريه

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

فهرست

المجلد الرابع

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هى القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيراً فى تطوّر الشرق فى هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لا بل تتدفق على كل بلاد وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرب [1] من أكبر عوامل التبدل والانقلاب فى العالم الاسلامى ، حتى وفى الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة . وسنبسط الكلام فى موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوربية من التأثير الشديد فى تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحترازَ الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوربية هى السبب والعامل فى جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة فى العالم الاسلامى . فقد سبق لنا الكلام مبسوطاً ، مبيناً فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامى ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالا شديداً ، فيدثر منها ما يدثر ، ويستجد فيها ما يستجد ، وتتلاشى قوىً وتتولد أخرى ، وذلك جميعه ، على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، انما هو بحد ذاته تجددٌ قائم فى الباطن ، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره

---

(١) مرادنا « بالتغرب » Westernism التخلق باخلاق الفرنجة والتشبه بهم وأخذ أخذهم فى طراز المعيشة وأساليب الحياة . ويشمل ذلك المحسوس كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقتباس الأفكار والآراء الاجتماعية والسياسية . والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة . « المعرب »

« م ١ – رابع »

مما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدد عنه . وعلى ذلك فا هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب ألا يعتبر مجرد محاكاةٍ للغرب وتشبه به فحسبُ ، بل انما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشئٍ جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى . ويجب فوق ذلك ألا يغيب عن الاذهان ان الشعوب الاسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين ليست ، كما يقول بعضهم ، شعوبا متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالى ، حضارة هى نتاج اسلامى صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم . ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالى ، وفروع ذروات المجد فيما مضى ، أمنا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل فى العالم الاسلامى تجدداً حقيقياً ، صحيحا رائعا ، ولا غرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران .

ان سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها فى التاريخ من حيث العظامة والخطورة ، والمدى والمجال . فما كان لليونان ورومية من قبلُ من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم ، لا يعدُّ بالاضافة الى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكوراً . والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق ، والمسالك الحديدية ، والبُرُدُ ، والبرق ، والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوع جديد الآراء والافكار المتوالية الازدياد فى كل مصر شرق . وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق وترسو فى كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفرَ البضاعات والارزاق الغربية فى كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعا . فالامم والشعوب التى ظلت حتى منتصف القرن الخالى تحيا حياة الثلاثين قرناً التى كرت من قبلُ ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائى فى مغداها ومراحها ، وانتسخت العادات والافكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساخاً كاد يكون تاماً ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبدلا كبيراً . وسنفصل الكلام

فى الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامى من جميع وجوهها : جاعلين الكلام فى هذا الفصل تمهيداً لما سيجئ فنقول : —

ان عوامل التغرّب هى أكثر تغلغلا وانبثاثاً فى الأقطار الاسلامية الطويلة العهد فى الحكم الأوروبى، منها فى سائر الأقطار . وهذا الأمر ظاهر مثاله فقد كان انتشار الحكم المعروف بحكم « الراجا » فى المقاطعات الهندية السحيقة ضرباً من العجائب ، فسيادة الحكم والادارة فى الهند قاطبة انما كان على يد مسكوكات النقود ، والبرد ، والقطر الحديدية ، ومحاكم القضاء ، والمساعدة على نشر التعليم والتهذيب ، والاغاثة عند نشوب المجاعات وغير ذلك . ولم يكن انتشار عوامل التغرب فى الأقاليم حيث السلطة الاوروبية اسمية بطيئاً ، فلذلك لم يمض غير اليسير من الزمن حتى بدلت العادات القديمة تبديلا ، وشاعت أسباب الرفاهية الغربية ووسائل التبسط فى شؤون الحياة كمصابيح الغاز والمطارز وما أشبه شيوعا عاما ، ونشأت بطبيعة الحال على أثر ذلك حاجات اقتصادية حديثة لم تكن تعرف من قبل ، وتحسنت حالات المعيشة تحسنا مذكوراً ، وعلى الجملة فقد كان التطور كبيراً شاملاً .

وكان الارتقاء العقلى والخلق والتهذيبى مشرباً روح التغرب ، وقد سبق لنا الكلام فأبنا مبلغ ما كان للآراء وروح الحضارة الأوروبية من التأثير العميق فى نفوس الأحرار من المصلحين المسلمين . غير أن الأمم الاسلامية فى الشرق على العموم لم تقبل على انتحال الأفكار والآراء الغربية انتحالا شديداً مأخوذاً به الى حد امتزاجه بطبائعها وأخلاقها ، مثل إقبالها على استعمال الادوات المادية للحضارة الغربية ، ولا سيما ما كان شأنه من هذه الادوات لتوفير الرفاهية والرخاء ، فشيوع التبغ مثلا انما كان سريعاً فى كل أمة شرقية وفى مدة نصف قرن باتت مصابيح الغاز مستعملة فى كل صقع اسيوى ، حتى فى أواسط آسية والصين . وأما العادات الغربية كتلك التى فى أزياء الملابس والتعليم وما أشبه فقد كان الاقبال عليها قليلا ، الا عند طبقة معروفة . وما اتخذ واقتبس من هذه العادات لم يتلق بحذافيره على صورته الاصلية بل كانت مقتضيات البيئة تغير منه ما تغير حتى تذهب بصفاته وخواصه الغربية وتجعله على ايلاف للبيئة . وما زال الشرق الاسلامى يعترف بتفوق الغرب ومبلغ ما بلغه من ضروب التفنن والاكتناه ، لكن قابلية الامم الاسلامية

للأخذ عن الحضارة الغربية قد ونت وضعفت ، وكاد الميل الى اقتباس مبتكرات الغرب من الآراء والافكار يضمحل ، فتلا ذلك روح عدائية شديدة للحضارة الاوروبية وأبنائها .

وأظهر ما يكون التغرب فى الطبقتين العليا والوسطى ، ولا سيما فى أولئك المتهذبين على الطراز الغربى ، وهم الاقلون فى كل بلد من بلدان المسلمين ، وعددهم ومبلغ مالهم من السلطة ونفاذ الكلمة فعلى تفاوت فى موضع موضع : يقولون باقتباس الافكار والآراء الغربية ، ولكنهم يختلفون فى القدر الذى يقتضى الحصول عليه . فنهم من يقول باقتباس الفضائل الغربية الصحيحة مضافة الى ما فى تراث آبائهم وأجدادهم من الفضائل العليا والفلسفة السامية بحيث يكون لهم من هذا وذاك مزيج جامع بعناصره ومواده لمحاسن الحضارتين الشرقية والغربية ، ومنهم من يقول باهمال هذا التراث ولو كان شأنه حسناً مهما كان ، وبالاندفاع للتغرب والانكباب عليه بأوسع نطاق ومنهم من يتظاهر بالتغرب تظاهراً من ورائه المقت والشنأة للحضارة الغربية .

يؤخذ من هذا التغرب ان غالبه هو فى الظواهر . فالهندى مثلا ، والتركى والمصرى الحائز اجازة جامعة غربية والذى يفصح التكلم بعدة ألسنة أوروبية والامير والباشا والمثرى المقتنى عدداً من السيارات ومن عادته أن يؤم حامات أوروبة كل عام ، جميع هؤلاء انما يبدون للعين فى أول الامر كأنهم غربيون ، فيرتدون الأثواب الغربية ، ويتناولون على موائدهم الاطعمة الغربية . ولكن وراء هذه المظاهر والاعراض تفاوتا فى أسلوب الحياة ، تفاوتا تظهر عنده الخواص والميزات الخلقية ، فتبتدأ هذه المظاهر باهرة مغشاة بتعشق التغرب ، ثم تأخذ بالتلاشى حتى تنتهى عند مقته وكرهه .

على أن هذه الصور المختلفة للتغرب لا ترى مستقلة متمايزة فى طبقة معينة ومكان معلوم ، بل انها فى كل طبقة من طبقات الأمة وفى كل بلد شرقى فلذلك ترى الشرق من أقصاه الى أقصاه سائراً فى سبيل تحول عجيب ، عظيم الماهية ، سريع الحصول ، حتى حد الطفرة ، مما لم ير الغرب له مثيلا فى جميع ما مضى من الأدوار . ان حضارتنا الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها . نشوءاً طبيعيا متدرجاً ، مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء . أما الشرق فهو فى كثير من مواضع الانقلاب

يطفر فى تحوله طفوراً ، اذ ان ما يأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة ان غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالاعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشؤون بعضها قبل أوانه وبعضها الآخر بعد أوانه : وفى مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلى والخلقى تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . فصارت الآباء لا تفهم أغراض أبنائها والابناء تتنكر لآبائها . وأنشأ التناحر يشتد بين القديم والجديد ، بين المولّى الفانى والحديث الطريف ، وربما قام الفرد على نفسه فقاتلت سجيته سجيته وخلقه خلقه . وقد وصف السر ڤالنتين تشيرول هذا العراك الهائل فى الهند بقوله : « أمواج وغمارٌ تتلاطم وتتكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وآراء وأفكار غريبة تتدفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت أجيال طوال . فبعض يأخذ ولا يحسن الأخذ ، وبعض يعرض ويلعن ، وعقائد تتبدد ثم تعود فتحيا ونظم صناعية مضطربة ، ومناهج تعليم وتهذيب غير مستمسكة ، ومبادىء غريبة فى أفق الادارة والتدبير والقضاء تنتشر فى مجتمع متنافر الوحدات ، وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارتها على الحالة الأولى من السذاجة ، وتصادم عنيف مستمر لا بد منه بين أقوام السكان ، والحكام الغرباء ، وحروب مستديمة الانقاد . وبعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقى جبار فى الشرق الأقصى » .

ان هذه الكلمات وان كان قائلها قد عنى بها وصف الحالة فى الهند على الخصوص ، فهى تصح أن تتخذ تمثيلا لصفة الحال فى كل بقعة من بقاع الشرقين الأدنى والاوسط . قال أحد كتاب الفرنسيس فى هذا الشان : « الحق أن الشرق على العموم ، والعالم الاسلامى على الخصوص ، لفى دور من الانتقال عظيم . يجوز الشرق اليوم برزخاً فيه يعارك الماضى الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

هذا هو السبب فى تنكر اخلاق الكثير من متغربة الشرقيين « كالبابو » الهندى و « الأفندى » التركى . ولا جرم ، فكل انقلاب عظيم وتحول كبير لا بد من أن يرافقه قدر من المفاسد والسموم ، فتغرّب الشرق اليوم هذا التغرب الذى سيقف بالضرورة عند

حد ، انما فيه حسنات وسيئات . والاصلاح والانقلاب فى أمة ، ولو اقتضتهما الضرورة أشد اقتضاء ، ان هما فى الواقع الا القضاء على القديم وادخال الجديد الذى لا يخلو من البذور الفاسدة التى لم تكن من قبل . وقد قال اللورد كرومر فى هذا الصدد : « انه ليرتاب فيما اذا كانت هذه الشعوب الشرقية المتدلية تعترف بالثمن الذى ينبغى أن يؤدى لقاء ما هو منقول اليها من الحضارة الغربية . أما المنافع المادية التى أصابها أهل الشرق من الحضارة الغربية فهى عظيمة بلا جدال . وأما المنافع المعنوية فلا يستطاع حتى اليوم الوقوف على مبلغ تأثيرها فى الفرد والمجموع »

وسيئات التغرب وحسناته ظاهرة ظهوراً بيناً فى طبقة الاقلين الذين يعرف فيهم التهذيب الراقى . أما هؤلاء فبعضهم يرتاحون كل الارتياح الى الروح الغربية ، والبعض وهم أكثر عدداً ، قد أدركوا برزخ التنازع بين القديم والجديد فذهبوا فريسة القوتين المتناصرتين . قال اللورد كرومر يصف متغربة المصريين : « انهم مسلمون وليس فيهم خواص اسلامية ، واوربيون وليس فيهم خواص اوروبية » . وقال كاتب انكليزى واصفاً ماهو منتشر فى الهند من مظاهر التغرب : « قصور مغولية فخمة مزدانة بالمتاع والأثاث المجلوب من بريطانية . . . . . هذا جميع مااستطعنا عمله فى الهند ، فاننا لم نحمل الهندى على أن يمقت حضارته الشرقية وينبذها نبذاً فحسب ، بل حملناه فوق ذلك على اتخاذ الاعراض والغث من حضارتنا بديلا منها ، فبات الهندى وحالته العقلية تمثل مزيجاً من مجموع عناصر ضارة ، بعضها أسيوى باق وبعضها الآخر أوروبى مجلوب . وليس ذلك بالمستغرب وقد أصبحت حضارة الهند خليطا لامثيل له فى العالم ماضياً وحاضراً ، بحيث انقلب الهندى اليوم متطوحاً واستمسك بأمور عدها فضائل وليست من الفضائل بشىء ، وغرته الخدع وأخذت بلبه الاعراض . . . نحن حاولنا أن نرقى بالعقل الشرقى الى مستوى الكمال الغربى والبيئة الغربية ، فخبطنا دون ذلك شر خبوط ، اذ قد أفضينا به الى حالة عقلية أدبية الفساد يغشاها وعوامل الخلل والدخل ضاربة فيها » .

فهذه المفاسد الناشئة عن تيار التغرب انما هى من الأسباب الكبرى فى انتشار روح البغضاء والكره فى أصقاع الشرق لكل شىء غربى ، وقد عمت هذه الروح حتى شملت الكثير من أولئك الواقفين على طبائع حضارة الغرب وعمرانه حق الوقوف ، فساعد ذلك

كله على ازدياد الروح الرجعية المقاومة لسيطرة الغرب السياسية .

حقاً ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق لهى الأمر الشاغل من الخطورة والشأن أكبر مكان . وقد أتينا فيما أسلفنا من الكلام على بيان موجز فى فتح اوروبة للشرقين الأدنى والأوسط خلال القرن الماضى ، وكيف كان العالم الاسلامى اذ ذاك متدلياً لاحول له ولا قوة حيال ذلك السيل من الفتح السياسى والاقتصادى . وفى الواقع ، فان ذلك الفتح الاقتصادى قد كان العامل الأكبر فى سرعة تقدم اوروبة و بلوغها أوج الكمال وقنة العظمة أما أمر اخضاع البلدان الشرقية فقد كان بعضه يتم على يدى القوى العسكرية كحملة فرنسة على الجزائر ، وفتح روسية لأواسط آسية ، وغزوة ايطالية لطرابلس الغرب ، و بعضه الآخر على يد الوسائل الاقتصادية الصرفة وذلك ماهو معروف بـ « الفتح السلمى » أعنى به القبض على خناق بلاد شرقية مستقلة استقلالا مخترق السياج ، برؤوس الأموال الغربية تمد بها الدولة الفاتحة تلك البلاد على شكل القروض والامتيازات ، ومتى ماتم ذلك أخذت السيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً حتى تنتشر انتشاراً يطبق البلاد ، وعلى هذه الطريقة تم فتح مصر ومراكش و بلاد العجم ، بينما كانت الهند من قبل ذلك تستعمرها « شركة الهند الشرقية » بوسائل تجارية بحتة . على ان خطورة هذا الفتح السلمى لايعتبر قدرها على الغالب حق الاعتبار .

فلننظر فى شىء من وسائل هذا الفتح وهو امتيازات القطر الحديدية ، فقد قال الدكتور ا . ج . ديولون الرجل الخبير بالسياسة الدولية فى هذا الشان : « القطر الحديدية اليوم باتت من أفضل الوسائل لانتشار الاستعمار وامتداده ، إذ متى ماأنشئت هذه الشرايين فى جسم بلاد منحطة وتغلغلت فى أحشائها وأطرافها ، لاتلبث أن تنقلب أذرعاً حديدية خناقة حول عنق البلاد ، ممتصة من دماها وسالبة من قواها مااستطاعت » .

ليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نخوض فى البحث هل كان الغرب على حق أو باطل فى تسلطه على الشرق هذا التسلط الاقتصادى الهائل ، فقد بحث الباحثون فى هذا الموضوع واستقصوه من جميع وجوهه ، والقارىء الكريم مطلع على مثل هذه المباحث مما نحن بغنى عن ذكره . غير ان هناك أمراً لايحتمل الجدال ، وهو ان هذا التسلط انما كان مما لابد منه ولا حيدة عنه . فقد طلع القرن التاسع عشر على العالم والشرق والغرب

شتان ماهما تقدماً وعمراناً ، و بأساً وقوةً ، الغرب جبار عنيد ، شديد البأس ، مجدول الساعدين ، يتدفق قوة ونشاطاً ونمواً ، يتخطى حاملاً على منكبيه أكبر حضارة عرفها الانسان سائراً بها نحو معقل الغاية العليا ، والشرق متثاقل متخامل ، قليل المنة ، سليب العزم . فكان المتوقع انقضاض الأول على الآخر و إنشاب مخالبه فى كل موضع من مواضعه وما يعنينا جدّ العناية بهذا المقام الا اعتبار ماهية التأثير الذى كان للسيطرة الغربية السياسية فى مجرى انقلاب الشرق على العموم ، ومبلغ تأثر الشرق بتلك العوامل المتسلطة عليه . ومما لاشك فيه ان السبب الأكبر فى مبلغ هذا التأثر انما هو التغرب على ماسبق وصفه . وقد كان من ديدن الحكام والمتسلطين الغربيين انهم متى قبضوا على أعنة الحكم فى بلاد شرقية يشرعون بمقتضى الضرورة فى نشر المؤثرات والعوامل الغربية جاهدين فى تقريب متناولها وفى ذلك أسباب . ففى المقام الأول كانت الدولة المتسلطة ترى من مصلحتها أن تحمل السكان على طأطئة رؤوسهم لها وانقيادهم الى حكمها وأمرها ، وأن تسعى فى توفير أسباب العمران المادى ، وصيانة السلم والأمن ، لكيما يتسنى لها بذلك كله الانتفاع واستدرار الخيرات وابتزازها ، وذلك لايتم لها الا بالقضاء على الحكومة الأهلية المستبدة القليلة الحول والطول وأن تقيم مقامها حكومات استعمارية منيعة الجوانب ، شاكية السلاح ، شديدة الشكيمة ، فتقوم هذه بتثبيت النظام وتمهيد سبل الصناعة ، وانشاء أسباب العمران كقطر الحديد والبرد والمعاهد الصحية وغير ذلك . ولكن هذه الحكومات الغربية لم تقصر همها على الترقية المادية فحسب ، بل سعت فى سبيل ترقية الأمم الداخلة فى حكمها الترقية الاجتماعية والعقلية والأدبية .

فبهذا الاعتبار قد عرفت فى الدول الغربية التى شيدت ممالك الاستعمار خلال القرن التاسع عشر روح أرقى من تلك التى عرفت من قبل فى الدول الاستعمارية السابقة من اسبانية والبرتغال وهولندة وشركة الهند الشرقية الانكليزية وهى روح الجشع والنهم والاستنزاف . ففى القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخذت تشعر شعوراً حقيقياً عميقاً بالغاية الفضلى المثلى وهى « واجب الانسان الأبيض » ، وكان بناة الممالك الاستعمارية فى القرن الماضى يشتملون فى نفوسهم على عواطف حب المصلحة وابتغاء المعالى والمطامح فى سبيل اعلاء شان الوطن ، وفوق ذلك على شعور أنبل وأشرف الا وهو الشعور

بالواجب الكبير ، واجب ترقية الشعوب والأمم التى دانوها لهم وأدخلوها فى حكمهم ، يحملهم على ذلك سبب كونهم حملة مصابيح العلم والعرفان ، فشرعوا ينشرون أسباب الحضارة الغربية ويعممون طرق فوائدها ، معتقدين الاعتقاد الراسخ كله ان امتداد السيطرة السياسية الغربية انما هو الذريعة الفضلى ، وربما الوحيدة ، لانهاض الجانب المنحط المتدلى من العالم وللأخذ بنصرته فى سبيل التجدد والارتقاء .

وقد وصف العلامة « رمسى موير » وهو من كرماء أرباب مذهب التوسع الامبراطورى ، هذه الحقيقة بقوله : « من الحق الذى لايمارى فيه ان توسع الأمم الاوروبية التوسع الاستعمارى ، كاد يكون الذريعة الوحيدة التى انتشرت على يدها الحضارة الغربية فى جميع رقاع العالم المعمور ، فبات على أثر ذلك وحدة اقتصادية كالحلقة المفرغة ، وأمست جميع شعوبه وأممه تسير على نظم سياسية أدناها صائر الى مماثلة أرقاها . وهذا مما يحملنا على الاعتقاد أن العالم بأسره هو مسوق الى الانضواء تحت نظام عالمى عامّ ، قائم على طراز شامل لم يحلم بمثله المتقدمون . فلولا الفتوح الاستعمارية الغربية لظلت الاميركتان واسترالية وجنوب أفريقية بلداناً مقفرة يضرب فى أرضها شتات الهمج ، ولبقيت الهند وغيرها من بلدان منابت الحضارات القديمة ومناشئ العمران السالف ، عرضة لدواهى الاجتياح والتدويخ ومستقراً للبغى والاستبداد على نحو ما كانت الحال عليه فى الحقب المتطاولة فى القدم ، ولكان العدل والقسط والقانون والحرية السياسية شيئاً غير مذكور ، ولأمست الشعوب التى كانت متدلية تتخبط حتى اليوم فى معاثرها ، مستغرقة فى حالة البربرية . فاذا غدونا نرى اليوم فى الشرق هذه العقائد السياسية الغربية ، عقائد الجنسيات والاستقلال والحكم الذاتى هائجة غالية المراجل ــ مما هو فى الواقع من خير نتاج الحضارة الغربية وثمراتها الطيبة فما ذلك لعمرى الا نتيجة من نتائج فتح أوروبة الاستعمارى » :

وقد أصاب اللورد كرومر فى وصفه أدب الاستعمار الحديث بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة . ويجب أن تكون أصول أحكامنا التى هى الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة فى حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسىّ والاقتصادى والأدبى ، قواعدَ صحيحةً سليمةً منزهةً عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية فى بناء الامبراطورية . ان المبرّر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جليا فى حسن

التصرف بما فى أيدى هـذه الامبراطورية من القوى . فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء ، ولينا وجوهنا شطر المستقبل رفيعى الجباه لانخشى أن يعرونا ماعرا الامبراطورية الرومانية من قبل من الفساد والدخل ، وان لم نستطعه فكنا فيه من الجهلاء الأغبياء ،فقد استحقت الامبراطورية البريطانية الانهيار من عل ، ولسرعان ماتتناثر حلقاتها وتتبدد بعد الاجتماع ».

على هذه القواعد قامت مبررات الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر . وسواء أكان مقدراً لهذا الاستعمار البقاء طويلا أم التلاشى فالاضمحلال ، فما لاريب فيه أن امتداد سيطرة الغرب السياسية وانتشارها فى آفاق الأرض قد ساعدا على انتشار المؤثرات الغربية مساعدة كبيرة . على ان الأمر الذى يُتساءل فيه هو هذا : هل كان الشرق يستطيع بنفسه ، فيما لو ترك حراً من هذا الخناق الشديد والسلطان القاهر والسيطرة المكرهة ، أن ينهج مناهج الغرب ويأخـذه إخذهُ فى النهوض والارتقاء ؟ فعلى التسليم بهذا ، يجب ألا يغرب عن البال أن الشرق لو ترك وشأنه لكان حتى اليوم مابرح بطئ التحدى والأخذ عن الغرب متثاقل النهوض . زد على هذا أن الزمان ليأبى كل الاباء أن يوسع أمة فى يومها على حساب غدها ، فعلى هـذا من قال انه كان على الغرب الشديد النامى ، الآخـذ سلطانه فى الامتداد والانتشار مشرقاً ومغرباً فى القرن التاسع عشر ، ان يربأ بنفسه فيتنكب طريق التسلط على الشرق ، بل يتركه وشأنه ينفعل كيف شاء قدر ماشاء بالمؤثرات والعوامل الغربية فيقبل ويرفض ، يجذب ويدفع ، يحب ويكره ، يتقبل الأرزاق والبضاعات غير مؤد لأثمانها يستقرض القروض المالية ويبذرها تبذيراً ، يدعو الغربيين اليوم الى دياره وغداً يهب لطردهم أوحز غلاصمهم ، فمن قال هـذا ، فانما قوله لاتجيزه المثبتات الصادقات من حقائق التاريخ ، ولا تؤيده سنة العمران البشرى .

فالحق أن الضغط الغربى انما كان من أحكام الزمان القاضية بسيطرة القوى على الضعيف . وهذا الضغط العميم العنيف الذى طال عهده قد دك أسوار جود الشرق دكاً ، وحطم سلاسل رق الشعوب الشرقية تحطيماً ، وهز المشرق من أقصاه الى أقصاه فاهتز وتناثرت منه باليات أثوابه ، وأخرجه من الظلمات الى النور ، وساقه فى طريق العمل ، وأراه من الحقائق فى اليقظة غير ما كان يراه من أضغاث الأحلام فى الهجعة . واننا سنفصل

الكلام في الفصول التالية على ما كان لسيطرة الغرب على الشرق من التأثير في نفوس الأمم الشرقية فأخذت تنفعل وتتبدل وتتحول طيلة جميع القرن الخالي . ولكننا في هذا المقام نسير في مجمل المراد من القول قاصرين الكلام على السيطرة الغربية في دورها الحديث الذي وليه انقلاب الشرق بعامل رد التأثير مقاوماً معادياً للغرب .

ان الضلالة الكبرى والمزاعم الباطلة التي اشتملت عليها نقود النقدة في شأن سيطرة الغرب على الأقطار الشرقية ، انما هي ناجمة بجملتها عن عدم التمييز والفرق بين ماهية استعمار القرن التاسع عشر واستعمار القرن العشرين . أما استعمار الأول فقد كان ضرورة لابد منها ولامندوحة عنها ، وقد أتى غالبه بنفع وخير كما قدمنا الكلام على هذا . وأما استعمار هذا القرن فلا يمكن أن يحمد مسيره ولا مصيره . ما كادت تطلع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافةً قد نفضت عنها خلقانها ، وبددت غيهب جهلها وتعصبها ، وحطمت عقال خمولها ، وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة التي لم تحو غير آثار حضارات مندرسة ومدنيات منقرضة ، وأنشأت تمهد لها مهيعاً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء . وكان الشرق قد أكمل تلقي دروسه ، وأنهى أخذها عن الغرب ، فشرع من بعد ذلك في تطبيق العلم على العمل لايهاب ولا يوجل فكان يجب على الغرب ، من قبل العقل والمنطق ، أن يوقن ان هذه الشعوب الشرقية ذات التواريخ المجيدة الحافلة بصور المجد والمعالي ، والتي قد استيقظت الآن فهبت تواقةً متعطشةً لاستعادة ماضي شأنها وغرر سالف أيامها ، يجب الرفق بحالها ، واقامة الوزن لنهضاتها ، وانتهاج المناهج الفضلى في مراعاتها ، واعتبار الفرق بين بارحتها ويومها وكراها ويقظتها ، وان شئت فقل كان يجب على الغرب من حسن النظر والحكمة أن يبدل موقفه على مقتضى تبدل الأحوال ، فيزيد في توسيع نطاق الحرية الصحيحة لأمم الشرق وشعوبه فيكون لهن في سيرهن وجهادهن نصيراً ، لا حائلا دون مبتغاهن وعدواً لآمالهن .

ان الشرق قد تبدلت شؤونه ، غير ان سياسة الغرب الجائرة لم تتبدل . بل ان مبادئ الحرية التي سادت في الغرب ، ونودي بها غالب القرن التاسع عشر ، هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فزقتها شر ممزق وبددت صورها كل مبدد . اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب

الكونية العظمى . وكانت قد اشتدت نهمة أوروبة وجشعها للتوسع فى الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثيل . فنجم عن ذلك أن باتت سيطرة الغرب على الشرق فى صدر القرن العشرين غاية مابعدها غاية فى الارهاق وشد الخناق ، من حيث يجب اللين والرهو ، وطفقت أوروبة تتجهم فى وجه الشرق المستيقظ الناهض ، وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروحه الهائجة ، فأساءت اليه بذلك فى سنوات معدودات اساءة تفوق جميع ماناله منها من الشر والهوان طيلة مئتى سنة خلت . وكانت السياسة التى جرى عليها ساسة أوروبة الحدثاء فى مناجزة نهضات الأقطار الشرقية المجاهدة فى سبيل الاصلاح والذود عن حياض استقلالها كتركية و بلاد فارس ، عاراً وشناراً على الساسة الأحرار السابقين الذين كانوا منذ جيل مضى ، وجناية كبيرة على الأحرار المعاصرين ، كما تشهد بهذا كلمات خالدات قالها الكاتب الانكليزى الشهير « سدنى لو » سنة ١٩١٢ وهى :—

« ما أشبه غالب الدول النصرانية فى سلوكها هذا الذى ما برحت سالكته منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية ، بعصابة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل ، فيثخنون فيهم ثم ينقلبون بالغنائم والاسلاب . مابال هذه الدول لا تنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة فى سبيل النهضة ، وعلام هذا العسف الذى تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الكلبي لانتياش ما بين أيدها وما خلفها . ان هذه الدول الغربية النصرانية هى بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة أن القوى الشاكى السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة . أجل ، ان هذه الدول قد تجردت عن كل حسنة فى معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشد الجيوش الشرقية همجية فى الزمن القديم .

« ان أعجب ما رآه تاريخ العالم خلال الخمس والعشرين سنة الماضية هو يقظة آسية هذه اليقظة الكبرى ، بعد رقدة استغرقت فيها قروناً . قد استفاق الشرق مذعوراً فأخذ يجهد الغرب ويزحمه فى حلبة العمران ، وكانت اليابان أولى الأمم الشرقية المنبرية الى هذا الميدان ، فكان انبراؤها هذا ــ لحسن طالعها ــ فى عهد ما بلغ فيه الجشع

الاستعماری مبلغه الیوم ، وکانت حقوق الأمم والمعاهدات ما برحت تحترم بعض الاحترام . فعلی ذلك لما هبّ ساسة الیابان الدهاة فی القرن التاسع عشر یشیدون و یبنون ، ویذودون و یزاحمون (١) لم تذعن أوروبة لهم ولم تبادر لسد السبل فی وجوههم ، بل اننا نحن الغرب رأینا الی النهضة الیابانیة بعین الرضی والارتیاح ، والاعجاب والاعظام ، فترکنا أبناء « نیون » وشأنهم یغامرون الصعاب و یذللونها فی سبیل الحیاة . غیر انه لمن الیقین الثابت لو استأخرت ثورة النهضة الیابانیة ثلاثة عقود من السنین ، لکان نبأ الیابان لدینا الیوم غیر نبأ ، ولکانت الیابان الحدیثة وهی اذ ذاك فی ابان مخاضها ، قد أحاطت بها من کل جانب الدول الغربیة العظمی المسلحة احاطة السوار بالمعصم ، ومدت کل منها یدها الی شیء من المتاع تغتصبه اغتصابا . حقا انه قد کتب للیابان السلامة والنجاة من مخالب الاستعمار الذی انتشب فی العالم بعیدئذ ایما انتشاب ثم لما أخذت الاقطار الشرقیة الاخری تهب جاهدة لاقتفاء أثر الیابان واحتذاء حذوها ، طفقت تلقی جداً عاثراً وحظاً منحوساً ، وفی خلال العشرین سنة الخالیة ثارت ثائرة الاستعمار فی أوروبة ، وهبت عواصف الحضارة المادیة الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولیة تقویضاً ، وخلعت وزارات المستعمرات العذار ترید التهام العالم التهاما ، فأحدث ذلك رد فعل أسوأ ما یکون فی الامم الشرقیة المجاهدة مشتعلة بنار الیأس لانشاء النظم الدستوریة واقامة سلطان الشوری . وما کان ذنب هذه الامم التی انهالت علیها حملات أوروبة المنکرة سوی أنها أخذت تسعی فی أن تقوم بالارشادات والتعلیم التی ظل المستشارون والحکماء الغربیون النصاری یلقنونها الشرق تلقینا طیلة سلسلة من الاجیال .

«وان الفرد لیخال عند الوهلة الاولی أن متی ما أخذت هذه الشعوب والامم الحافظة لتعالیم أوربة عن ظهر القلب ، تسیر فی سبیل الاصلاح والترقی مع الشدائد الصعاب تسارعت الحکومات الاوروبیة للأخذ بنصرتها وشد أزرها والارتیاح الی نهضتها ، أو علی الاقل ترکها وشأنها تغالب ما تغالب وتجاهد ما تجاهد فی سبیل تشیید بنائها بأیدیها ، غیر أنه ما کان أبعد هذا عن الواقع ، إذ أنشأت الدول الغربیة الواحدة تلو الاخری تنقض عند ما

(١) اقرأ ماحررناه فی الرد علی مقالة « مجلة باریز » فی عرض الاستشهاد من کلام ذلك الوزیر الیابانی لعثمان نظامی باشا مما یؤول الی کون الغرب لایعرف سوی القوة (ش)

تلوح لها سانحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتنتاش بلاداً ثم تجعلها حانية عنقها الى نير الاستعمار » .

وقد أسلفنا كلاما فى موضعه بينا فيه كيف كانت تتوالى حملات الاستعمار على العالم الاسلامى آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكيف محت دول الحلفاء الظافرة استقلال ما كان لم يزل باقيا من الممالك الاسلامية عند ختام الحرب العامة ، وكيف أشعلت أوروبة بذلك نار غضب المسلمين فباتت قلوبهم مكتواة تحتدم غيظا وحنقا ويأسا من الغرب ومقتاله . وقد تقدم الكلام مسهبا فى الفصل السابق على نشوء الجامعة الاسلامية وعملها وتأثيرها فى نفوس المسلمين . وفى الفصول التالية سنبسط الكلام على نشوء العصبيات الجنسية الشرقية. غير أنه يجب ألا يتبادر الى الذهن أن هذه الحركات السياسية الدينية انما هى جميع الصورة التى تتجلى فيها روح عداء الشرق للغرب : إذ أن هناك غير ما ذكرنا تطورات اقتصادية واجتماعية ، ونشوء حركات قومية ذات تأثير عميق . ولبيان طبائع عداء الشرق للغرب هذا العداء المسوق اليه الأول بعامل رد التأثير نأتى للكلام على هذا موجزاً فنقول :

ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضى تشتد فى مكان ومكان على تفاوت . ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام فما برح الكره للغرب شائعا عمما ، بيد أنه – على توالى الأيام – صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان . وقد كان الأحرار المسلمون فى بادىء الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول . وقد أسلفنا الكلام فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التى جرى عليها الغرب فى تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساساً للقيام بما أنشأوه من الاصلاح الاسلامى باعتبار جهتيه الدينية والمدنية فقد جهد ساسة تركية الاحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة فى الربع الاخير من القرن الماضى جهداً كبيراً للقيام بالاصلاح فى السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم فى الاقطار الاسلامية الاخرى فى سبيل الغاية عينها . وخير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا فى سبيل اصلاح تونس ، والى القارىء الكريم لباب الخبر : ان هذا القائد المقدام ، الجركسى الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباى ، ويتمكن عنده تمكنا كبيراً ، فاستوزره وسلم اليه مقاليد الأمور . وفى سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا

بسياحة الى أوروبة فطاف فى ممالكها وشاهد صور عمرانها وحضارتها، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه، وإذ اقتنع بتفوق أوروبة وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل الى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعيناً بها لانهاض البلاد واسعادها، واعتقد ان هذا العمل سهل القيام به قياما يتلوه تجدد تونس فى عهد قريب.

ولم يكن خير الدين بغيضاً للغرب، غير انه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذى سيحيق بالعالم الاسلامى، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب اذا اتوانت الممالك الاسلامية فى الاصلاح الصحيح، فراح خير الدين يبتغى شديد الابتغاء، وملء صدره الوطنية الصادقة، وكله عزم أكيد، أن يسوق أهل بلاده و بنى قومه فى طريق التجدد والعلى والارتقاء ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمى كيانها وتقوم بالذياد عن حياض حريتها واستقلالها.

واقتنع الباى كل الاقتناع بآراء خير الدين وخطط مشروعاته، ففوض اليه تنظيم شؤون البلاد وأطلق يده لاتعلوها يد فى القيام بضروب الاصلاح فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع فى هذا السبيل مذللا جميع مالقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين، غير أن منيته عاجلته باكراً فانتقل الى جوار ربه تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسة فبسطت سيطرتها على تونس. وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة، منها انه ألف كتابا قيما موسوما بـ «أقرب المسالك فى معرفة أحوال الامم والممالك»[1] استنهض فيه همم أبناء بلاده

---

(١) يوجد شيء من النقص فى تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسى الذى كان من أوائل المصلحين الاسلاميين فى القرن الماضى. وكتابه أقوم المسالك هو من خيرة ماألف لكسر قيود الجمود الضار القاتل وحطم سلاسل التقليد الاعمى المنهى عنه فى الشرع وايقاظ المسلمين الى انهم ان لم يبادروا الى التسلح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل فجاءت دعوة خير الدين متأخرة اذا كان تكالب أوربا شديداً وضربها وحياً وسبات الاسلام لايزال عميقاً فتم جميع ماتكهن به خير الدين. ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين الى الاستانة وولاه السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى متندبا اياه لاصلاح المملكة الا انه لم يعمل برأيه فانتهى الأمر باقالته وبقى فى الاستانة الى أن توفى وذلك فى نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك وهو من الأدباء الافاضل وصالح باشا الدماد الذى شنقه الاتحاديون بتهمة السكون بمؤامرة قتل المرحوم محمود شوكت باشا وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم لكونه زوج ابنة أخيه أى صهر الاسرة المالكة فلم تثمر شفاعته ولخير الدين باشا أيضاً ولد سمه محمد بك وهو وأخوه طاهر الآن بتونس. (ش)

واستفزهم الى التجدد والترقي وحذرهم من سوء عقبى التوانى . فكان لكتابه هذا أعظم تأثير فى نفوس الأحرار ورجال الاحزاب الوطنية فى الشرق الأدنى عامة وافريقية الشمالية خاصة حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر اذكان باعثاً قويا على استيقاظ العصبية الجنسية . ففيه استصرخ خير الدين بنى قومه لتحطيم الاغلال القديمة ، و بسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضى افتخاراً بالغاً حد القعود بهم عن استئناف طلب العلى طريقاً ، ودعاهم للوقوف على مافى العالم الغربى من وسائل التقدم وذرائع العمران . ومما أكده فى كتابه هذا أن ارتقاء أوربة وحضارتها فى هذا العصر ليسا نازلين عليها عفواً بلا نصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم فى الفنون والعلوم واكتناه أسرارها اكتناهاً توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الأرض واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا انما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما فى افاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامى فى الأجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان فى بحبوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط فى الدجنات ، ومازال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التى كانت فيه من قبل — روح الحرية والعمل والارتقاء .

اننا قد آثرنا ايراد ذكر خير الدين باشا التونسى على ذكر غيره من أحرار الترك وسائر المسلمين مثالا لكلامنا لأن فى هذا المثال تتجلى الصفة العامة التى كان عليها سائر أحرار المسلمين فى منتصف القرن التاسع عشر للأخذ عن الغرب ، وقد كانوا حتى عهدئذ بعداء من البغض له . غير انه على توالى الأيام انقلب كثير من الأحرار اعداء أشد للغرب لأسباب عديدة أهمها توالى الاعتداء الاوربى السياسى ، فباتوا بسبب ذلك يكرهون ويمتقون روح الحضارة الغربية بأسرها .

وقد اشتدت روح العداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالى . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة [١] فى هذا الصدد : « ان هذه الدواهى التى دهتنا والنوازل التى نزلت بالعالم الاسلامى خلال العشر السنوات الأخيرة . قد جددت فى أعماق جميع المسلمين عواطف التآخى والتوائق الاسلامى ، من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرهاً وعداء للبغاة المعتدين علينا »

---

(١) حزيران سنة ١٩١٤

وللدلالة على مبلغ الكشاحة والعداوة اللتين اتقدت نارهما فى قلوب المسلمين نورد كلمة قالها أحد كبار كتاب الترك بعيد ان وضعت الحرب البلقانية أوزارها : « أجل ! اننا قد بؤنا بالكسرة والحيف ، بعد ان هب العالم بأسره يجالدنا ويقاتلنا ، والسبب فى ذلك انما هو لاننا قد صرنا الف التأنى فى آرائنا نبتغى تهذيب عقائدنا متقربين من الحق معرضين عن الباطل فى سبيل الحضارة والانسانيــة . ان الجيش البلغارى قد علمنا درسا لاننساه ، وهو انه يجب على كل جندى فى ساحة الحرب أن يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذبيحاً ، ويسلب وينهب السكان الآمنيــن ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم ، وعلى ذلك فلنبح هراقة الدماء والبغى ، ثم نصرخ من بعد ذلك : الوحشية الوحشية ! كما فعل جيش الملك فرديناند . لسرعان مايلتفت العالم المتمدن الينا [١] ويرعى من كرامتنا ويعلى من مقامنا ويحبنا حباً جماً [٢] !! »

ولما نشبت الحرب العامة هلل كثير من المسلمين وكبروا فرحاً وابتهاجاً بأن الدول الغربية قد أدركت اليوم الذى فيه انبرت تفنى بعضها بعضا ، وتلق جزاء عجبها وغطرستها ، وتجبرها وبغيها ، وقــد وصفت صحيفة من كبرى الصحف التركية الدول الاوربية فقالت : « ان الدول الأوربية لا يحلو لها أن تتفقد معايبها وشرورها ومفاسدها فتصلحها . ولكنها غيور علينا حتى التناهى ، فلا قلب يطيب لها الا بمعالجة شؤوننا ولا عين تقر لها الا بالقيام على طرق اصلاحنا ، فلذا نجدها على الدوام تتدخــل فى كل حال من أحوالنا وأمر من أمورنا ، بل لاتنى تأمرنا وتنهانا ، وفى كل يوم تنشب مخالبها فى حق من حقوقنا وشطر من مملكتنا وتغرس مباضعها فى لحوم أجسامنا الحيــة وتقتطع منها ماشاءت كيف شاءت ،

(١) أرسلت احدى الجمعيات الاميركية بعثة الى البلقان للفحص عما روى من الفظائع التى ارتكبها البلغار واليونانيون والصرب بالمسلمين سنة ١٩١٢ فثبت لديها كل ماقيل بل زيادة على ماشاع وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك كانوا ارحم جداً وأرأف وأشرف فى حربهم من الأمم البلقانية المسيحية . لكن الصحف الاوربية لم تنشر هذا التحقيق ولا اشارت اليه وكان اكثر الأوربيين ينظر ونالى ماحل بمسلمى الروملى بنظر شماتة ونادر منهم من قبح تلك الفظائع أو احتج عليها . (ش)

(٢) احمد امين كتابه « ارتقاء تركية الجديدة مقيسا بارتقاء صحافتها » نيويورك ١٩١٤
The Development of modern Turkey as measuret by its press ·

ونحن حيال ذلك نكظم غيظنا ونحبس على ما فى نفوسنا من روح الثوران والجيشان ونثنى بعض سواعدنا على بعض وندمدم والنار تكوى جوانحنا : عسى الله يسلط بعض هذه الدول على بعض شر التسليط ! فتتذابح وتتناجز ! وها انظروا ـ هاهى الدول الغربية النصرانية تنهش بعضها بعضاً كما ابتغى التركى » .[١]

وليس الساسة ورجال الصحف هم وحدهم المتضرّمة صدورهم عداء للغرب ولسيطرته السياسية ، بل ان هـذا العداء عميم فى كل أمة اسلامية على اختلاف الطبقات من الأمراء حتى السوقة . وكل طبقة على أسباب فى هـذا ، أما الأمراء والحكام الوطنيون فانهم وان استبقوا على عروشهم ومناصبهم ، وأعليت مظاهر كرامتهم ومنزلتهم ، وحفظت مرتباتهم ومخصصاتهم فانهم مع ذلك كله لم ينفكوا يحنون الى سابق عهدهم وسالف حالهم ، ويندبون خسارةً خسروها هى ذهاب ما كان فى أيديهم من أزمة الرق والعبودية والاستبداد . قال أحد « راجوات » الهند آسفا منفعلاً بألم الذكرى : « أتعلم يا صاح ! انى لقد فقدت جميع ما كان فى يدى من السلطة ، فبت اذا شئت اليوم ابتياع قلم لدواتى أو نصل لرمحى وجب على ان أستأذن المندوب المقيم عندنا فى هذا الأمر » . وحقاً ما أشبه هذه الكلمة بأخرى قالها ذات يوم الخديوى توفيق باشا الى أحد وزرائه فى أوائل عهد الاحتلال ، وكان يشهد استعراض الجنود البريطانية : « أتحسبنى أنى مرتاح الى هذا المشهد ؟ انى والله ما رأيت قط خفيراً بريطانياً فى سوق من أسواق هذه المدينة الا حدثتنى نفسى بالوثوب من مركبتى خارجا والانقضاض عليه فلا أنفك عنه حتى أخنقه بكلتا يدى خنقا »

وأما أهل الطبقة العليا فهم على مذهب أمرائهم وملوكهم ، ولا جرم فانهم يأسفون للعهد المنقضى وقد كانوا فيه أصحاب الكرامة والمناصب والخطط فى الحكومة والدولة . وأما المتهذبون تهذيباً غربياً وهم أهل الطبقة الراقية فانما يشاركون غيرهم فى العداء للغرب ، لأنهم يعتقدون أنهم أنفسهم أرباب الحق الجذر بتولى مناصب الحكومة ، فلذلك يمقتون شر المقت ان يروا المناصب الادارية الكبرى يشغلها الغربيون الأجانب ويتقاضون عنها

(١) مجلة « ليترارى دجست The Literary Digest » ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٤ نقلا عن جريدة (طنين) التركية الصادرة فى القسطنطينية . والحق يقال ان هذه الحال التى تمثلت فيها جميع صور المقت والكره للغرب عند شبوب الحرب العامة لم تكن مقصورة على المسلمين فحسب ، بل شملت العالم وجميع الشعوب غير البيضاء .

فاحش المرتبات . وهناك عدد من الأحرار العارفين الذين يعتبرون قيمة التدريب المكتسب من السيطرة الأوربية حق الاعتبار ، ويتلقونها مع فقدان الاستقلال الى أجل ما ، على أمل انه متى مارسخت أصول الادارة والتدبير فى الحكومة ، واستقامت مجاريها ، واتسق سننها اتساقاً يكفل معه رد الفعل والفوضى ، انتهت هذه السيطرة وانقضى عهدها خلت محلها الحكومة المنتظمة المقتدرة وسدت جميع فراغها . غير أن هؤلاء الاحرار هم الأقلون فلا يستطيعون امتلاك الكلمة النافذة فى المجموع ، وهم فوق جميع هذا مكروهون ومعيرون انهم عشاق الزلفى من الأجانب ببيع الشمم والاباء ، دائرون مع الأيام كيف دارت دون استقرار على حال ، ولذلك باتوا على شقة خلاف متسعة بينهم وبين الكافة والسواد الأعظم .

وربما يتبادر الى الأذهان عند أول وهلة ان الكافة من المسلمين لبرتاحون ويطمئنون الى السيطرة الغربية ، ولا سيما عند مايقارنون بين عهد ماض وعهد حاضر ، بيد أن الواقع على خلاف هذا ، اذ أنه مع ماأتت به السيطرة من الفوائد الاقتصادية فنجا أهل الطبقة العاملة فى الأقاليم والمدن من استبداد الأمراء والطبقة العليا ، فأصبحوا من بعد ذلك فى بحبوحة من الدعة والأمن ، والنظام والعدل ، بحيث عادوا لايخشون أحداً ينازعهم مافى أيديهم وثمرات تعبهم ، فانهم مع كل هذا ينفرون من الغربيين وينظرون اليهم شزراً على أنه ليس من العدل أن يقال ان المسلمين أجمعين لايقدرون قدر شئ من فوائد السيطرة فالواقع انهم يفعلون ذلك ولكنهم عند مايراد اعتبار صلاتهم المعنوية بأرباب السيطرة فهم لايعدون حد احترام الحكام الغربيين الذين بين ظهرانيهم احتراماً قليلا ، وهم عن حبهم حباً بعداء كل البعد مالاح صبح وذر شارق . زد على جميع هذا ، فان الأيام تذهب على التوالى بأهل الجيل الذين كانوا على نعم فى العهد الماضى ، ثم يخلف من بعدهم خلف يتناولون خيرات العصر على غير مانصب ، ثم يشكون من نقائص النظام الحالى ، ويعيرون الوطنيين الهائجين آذاناً صاغية ، ويتشاركون ويتواثقون جميعاً على طلب الاستقلال ، ويندبون عزاً غاب ومجداً فات .

وحقيقة الأمر ان الشرق على العموم لم يزل يحن الى منهج حياته القديم ، وعلى كونه يعترف بحسنات العصر الحديث وفوائد مستحدثاته ، فانه ليتوجد للماضى ويحي

ذكرياته ماستطاع . فالمثل المشهور عند المسلم من هذا القبيل هو : الحاكم المسلم ظالما خير من الحاكم الأجنبي « الكافر » عادلا . فعلى هذا لابد لكل حكومة استعمارية ، ولو كانت منورة مهما كانت ، من أن تصطدم اصطداماً عنيفاً بمقت المسلمين للحكم النصراني . قال أحد الحكام الروسيين فى أواسط آسية ينبه الحكام الأوروبيين عامة الى أمر : ان المسلم الورع لايطيق حكم الكافرين[1]

زد على هذا ان الكثيرين من الشرقيين قد يعترفون بفائدة تذكر من الحكم الأوروبى ، واذا اعترفوا بذلك حسبوه أشبه بالغرم يفوق الغنم أضعافاً . على ان الأشياء التى كثيراً مانفتخر باعطائها للشرق – راحة ونظاماً وعدلا وأمناً – لايعتبر الشرق قيمتها حق الاعتبار ، ومايبزلها المنزلة العليا من الشأن كما نخال نحن . ذلك ليس لأنه لايبالى جد المبالاة بهذه الأمور ، بل لأنه يؤثر نيل الأقل منها على يد الحكام الوطنيين من أبناء قومه الذين يشاطرونه سراءه وضراءه ، وبؤسه ونعيمه ، على الكثير منها بنيله على يد المتسلطين الأجانب . ولنعتبر شأن «العدل» وهوأساس الحكم : قال كاتب انكليزى بهذا الصدد : ان الاسيوى لا تطيب نفسه بالعدل من حيث ان العدل تطيب به النفوس ، فهو لايعبأ بهذا كثيراً متى ماستطاع أن ينال عوض العدل عطف الحاكم عليه ، عطفاً مفهوماً عنده كالعدل غير المفهوم . . . هذا هو السبب الحقيقى فى كون الأسيوى يؤثر كل الايثار حكم حاكمه الوطنى وان سيئاً على حكم الأجنبي وان بالغا حد الكمال . فانه متى ما كان فى حكم أبناء وطنه شعر بكونه محكوماً من قبل حكام يحسنون تفهم شؤونه وأحواله عن كثب ، ويعتبرون بعين العطف الأسباب والدواعى التى حملته على ارتكاب الذنب والجناح وان أنزلوا به أليم القصاص .

ولننظر فى شأن النظام أيضاً ، ان الشرق على العموم لايعتبر مافى حياتنا هذه من السير المنظم المنسق ، بل هو ينفر من ذلك نفوراً . والسبب فى ذلك انما العهد الذى ظل طيلته فيما مضى القا لحياة التوانى والكسل والفتور ، تلك الحياة التى وان كان فيها الظلم

(١) لم يصادف الى الآن ان أمة غير مسلمة تولت أمور أمة مسلمة بالعدل والإحسان لنعلم كيف يكون شعور المسلمين بازائها ونظن انه لو وفقت أمة غير مسلمة الى ذلك لهان الأمر جداً وساد الوئام وتحابت هاتان الأمتان تحابا تاماً فان العدل يغلب كل الموانع ولكن أين هذا العدل ... (ش)

والجور فقد كان فيها العطف والشفقة . بسبب ذلك هو لم يبرح حتى اليوم يكره النظم المستحدثة كقوانين الصحة والأمن العام كرهاً غريزياً ، بل يريد أن يبقى على منهجه القديم العهد ، وان ناله من ورائه مانا له من الضرر ، ضرر يستطيع دفعه عنه بالرشوة والاستعطاف تارة والمكابرة والاستقصاء طوراً . قال أميركى مرة لأحد أهل الفيليبن فى عرض حديث جرى بينهما فى شأن الاستقلال :

ـ ماذا ترى تستطيع عمله مستقلا مالا تستطيع عمله الآن تابعاً محكوماً ؟

فأجابه :ـ لوأردت أن أبنى بيتى فى وسط هذه الجادة لاستطعت ذلك مستسهلا .

ـ وان هب جارك لمعارضتك فى مرادك واستطاع أن يحول بينك و بينه ؟

ـ لأوقعتُ به

ـ وان أوقع بك ؟

فأجاب بهز منكبيه .

فسواد الشرقيين مابرحوا ، بالرغم مما يتدفق على الشرق من الغرب منذ أول القرن الماضى من الأفكار والآراء والمناهج والاساليب والمؤثرات والعوامل المختلفة ، يرتاحون الى البقاء على القديم البالى ، وانهم يعتقدون فوق هذا أن من أكبر مبتغيات الحكم الغربى حلهم على التغرب عادات ومجتمعاً ، وعلى تبديل الموروث من منازعهم وأساليب معايشهم ، الأمر الذى يحملهم على مقاومة التيار الغربى مااستطاعوا الى المقاومة سبيلا . وكلما أتت الحكومات المستعمرة اليهم بشئ جديد وأمر مستحدث قاموا فى وجهها يفسدون ذلك عليها بالعناد والمشاقة . من ذلك على سبيل المثال أمر التلقيح الاجبارى الذى ظل أهل الجزائر يقاومونه عدة سنوات ، وقد كانت الحكومة الفرنسية تبسط لهم منافع التلقيح وفوائده اتقاء من سريان وباء الجدرى فيهم ، فكانوا يجيبونها انها انما تريد بتلك الحيلة المصطنعة تعقيمهم لاتلقيحهم ، بحيث يتناقص عددهم على التوالى ويكثر سواد المستعمرين الفرنسيين . فأخذت الحكومة تبين لهم فساد وهمهم مستدلة بارتفاع مستوى المواليد الأهلية ارتفاعا غير مسبوق المثيل ، ومستعينة بأرقام الاحصاء ، فهزوا مناكبهم مستهزئين ،

وظلوا على المقاومة مثابرين [١]

وقد وصف الكاتب الفرنسي « لويس برتران » [٢]، العالم الخبير بشؤون الأقطار الاسلامية، مثل هذه الحالة بقوله : —

« ان جميع هذه الشعوب، ولها من شعائرها الموروثة وعاداتها وفواعل البيئة كثير من المنفرات التي تحملها على استنكار فضائلنا الاجتماعية، فلا تطيقن احتمال شيء من أعباء أنظمتنا وادارتنا ولا من أي نوع من أنواع الحكومة المنظمة ولو كانت عادلة وشريفة مهما كانت. وظاهر السبب في ذلك ان الشعوب هذه قد أنقذت فجأة من عهود المظالم والشقاء والفوضى فما برحت باعتبار صفاتها النفسانية على مستوى ليس أرفع من مستوى سوقة بلادنا، وما زالت تنفر من النظام وتحاول ان تلوذ بالفرار من رجال الدرك والضابطة. فانه لضرب من العبث كما حاولنا اقناع عرب افريقية الشمالية أن الفضل في انجائهم من عمال الترك المستبدين القاهرين انما هو عائد للحماية الفرنسية اذ باتوا في ظلها من بعد ذلك لايخشون منهبة ولا مذبحة ولاثار نزاع تؤرث فيما بينهم، أعرضوا عنا وأساءوا ظنهم فينا. والأمر الذي يحارون عند فهمه أكثر من سائر الأمور هو : دفع الضرائب في سبيل أمور وشؤون لا يعرفون لها من قيمة. وما كان أعظم السخط الذي اشتعلت ناره في المدن الجزائرية عند ما أصدرت دائرة الصحة قانونها الموجب القاء الكناسات في مواقيت مضروبة. وقد لاحظت شيئاً من حال على هذه الصفة في القاهرة عند ساقة الحير والعجلات المسوقين بقوانين الشرطة البريطانية.

« على أنه ليست أنظمتنا البلدية والادارية هي جميع مالا قبل لهذه الشعوب باحتماله، بل ينطوي تحت ذلك جميع عاداتنا، بل جميع النظام السائد في حياتنا المدنية. مثال هذا : يسير القطار بين يافا والقدس ويقف في مسيره عند محطة بالقرب منها قبر أحد الأولياء. والقطار لايستطيع بحكم القانون ان يطيل موقفه عند هذه المحطة اكثر من دقيقة. فلما

---

(١) هذا شأن كل عامة جاهلة ولا أظن الا أن عامة الافرنج لأول عهد حضارتهم قد قاوموا هذه التدابير النافعة كما قاومها الجزائريون في هذا العصر . (ش)

(٢) كتاب : « السراب الشرقي » (باريس ١٩١٠) Louis Bertrand, „Le Mirage Oriental"

وصلنا اليها دهشنا اذ رأينا جميع الركاب المسلمين قد هبطوا من القطار فافترشوا البسط فأخذوا فى السجود والركوع فأخذ مدير المحطة يناديهم بصفارته ، وتلاه مسير القطار يستصرخهم مشيراً اليهم انه سائر بدونهم ، فلم يبالوا بجميع ذلك أقل المبالاة ، فاضطر نفر من عملة القطار الى النزول مستشاطين غضباً وأرجعوا المصلين الورعين قسراً الى القطار . فدام الأمر ربع ساعة على عناء ومشقة (١) .

« هذا مثال شوهد اتفاقا . فالغريب فى أمر هذه الشعوب انها لم تفقه معنى رقابة النظام ولا ألفت فى حياتها سيراً منظما بعد » .

ان هذا الكلام انما لوصف السواد الجاهل ، ولكنه يدل على تلك الصورة العقلية النوعية التى مابرحت ترى فى سائر الطبقات من الشعوب الشرقية على تفاوت . لأن العادات التى عرفت قرونا عديدة لايستطاع تبدلها سهلا . ويجب ألا يغرب عن البال ، ان الطبقات العليا كانت مستطيعة ، فى الادوار السابقة قبل ان أخذ الشرق ينقلب ويتحول ، ان تستمتع حق الاستمتاع بالحرية الذاتية « أو الحرية الشخصية » المملوءة تخيلات ووساوس. فلذلك وان كان أهل هذه الطبقات اليوم اكثر من غيرهم استعداداً لاعتبار قيمة مايجب أخذه عن الغرب ، فهم من حيث اضافة حاضرهم الى ماضيهم ، يحسبون انهم خاسرون شيئاً كثيراً .

فالشرقيون كافة على اختلاف الطبقات ، مابرحوا اذا ماجرت على ألسنتهم ذكريات الماضى السعيد ، أسفوا لفواته وتوجدوا على انقضائه ، وقالوا نعمة فاتت وسعادة طويت . فكل من الامير والباشا والنديم يعد الحياة على نحو ما كان يستلذها فردوساً شرقيا . وفوق جميع هذا كان الامير على الدوام معرضاً ليحوق به بلاء سلطانه القاهر أو ملكه العاتى قتلاً أو ذبحاً ، وكان الباشا لايعلم متى يصدر أمر مولاه بأن تنتزع روحه من بين جنبيه ، وكان النديم يلقى شر التعذيب عند ماتهب فى رأس سيده عاصفة الهوى . ومع كل هذا فقد كانت « الحياة الشرقية » حياة غبطة وحبرة وكان كل فرد من هؤلاء متميز المرتبة عن سواه

(١) فى هذه الحكايات مبالغات واطلاقات لاصحة لها وانما يبتغون بها تبرير سياسة تسلطهم على الشرقيين . ولكن من الجهة الاخرى لها أصل كاف لأن ينفر منه ذوو الاسلام الصحيح الذى ينهى عن العبادة عند القبور لاسيما اذا كان القطار على وشك المسير . (ش)

باخلاقه وصفاته و بماله من الذكر فى ابناء بلاده ، فكان من على هذه المرتبة التى لاشبيه لها فى أوربة باستطاعته أن ينتهك حرمة القانون ، فيركب رأسه فى كل ماالشتهى وابتغى أخيرا أم شراً ، ودأبه الملق والمداجنة والمداهنة الاسيوية ، والخنوع المقرون بالطاعة العمياء لعاتٍ كبير لايرى لنفسه من سعادة غير سعادة التحكم بالرقاب واستذلال النفوس . وكان حول كل متسلط قاهر لفيف من العشراء والجلساء يشاطرونه فى نعمه وترفه ، ومستلذاته ومنغمساته . وكانت سلطة السيد على المسود والحاكم على المحكوم سلطة معلقا بها حبل الموت العاجل أو الحياة المفعمة قلقاً وجزعاً . وكان اقتناء الخطايا من أشبع ضروب مشتهيات الحياة ، وكان تقبيل الذيول وحنو الاعناق ، والتذلل وبذل ماء الوجوه مما لاحد له ولا قياس .

ولرب سائل يسأل كيف كانت حال الطبقة الدنيا ، الفقيرة المسكينة ، بين أيدى هؤلاء المستبدين الجائرين ؟ كان الفقير الضعيف فى غالب أحواله على لاشئ ولكنه كان يستطيع أن ينال كل شئ ، اذ أن الحياة الماضية فى الشرق كانت ماتأتى به القرعة ويجود به البخت والطالع ، فكان كل فرد وان صعلوكا يستطيع ان ساقه الجد والحظ لاسترضاء سيد غطريف ، أن يصيب نعمة بعيدة الصفوة وشهرة جوابة . وهذا فى الواقع مما يتقبله الشرق تقبلا ملائما لطبائع مزاجه . ولا جرم فالحظ وسرعة تقلبه ودوران دولابه فى الشرق انما هو أمر مألوف شائع مرغوب فيه ، وله من الشأن ماليس للثبات والاقدام الموقن فيه والطمأنينه فى الغرب [١] .

وأحب السير فى الشرق تلك التى تقص فيها أحاديث السعود والنحوس التى نجمت أو غابت على حين غرة ودارت دورتها فى ليلة وضحاها ، كصعلوك استوزر أو وزير تصعلك . وما برحت الكثرة الغالبة فى الشرقيين تعتبر أن الحياة انما هى تقلبات الأيام ، والزلفى من ذوى الجاه ، وسعود الحظوظ ونحوسها ، وليس المعول فيها على الاعتماد على النفس وحسن القيام بالأمور على أمانة وكفاية . هذه هى صور الحياة التى كان يغتبط بها الشرقيون من قبل ، غير أنه بعد انتشار التغرب بدأت الحياة الشرقية تنتقل من دور البخت والحظ الى دور العمل الذى لا يصح فيه الا الصحيح . قال أحد كتاب الانكليز عانيا

---

(١) مع الأسف نقول ان أكثر مايصفه المؤلف هنا صحيح وهو السبب الأول فى انحطاط الشرق عن الغرب واستيلاء الغرب على الشرق . (ش)

شان مصر الحديثة : « قد يمكن أن يكون حكمنا وافيا بيد أن الشرقيين يستثقلونه ويتبرمون منه . كان الحكم القديم أشبه بثوب خلق بال من أى موضع جذبته تناثر قطعاً ، ولكن الشرقيين كانوا يحسبون نفوسهم أنهم به مختالون ، وكان متقلباً كريشة فى مهب العاصفة ولكن كانت فيه قوى سحرية تأخذ بالالباب ، مرة قال مصرى لأحد حكام الانكليز : « نعم ! ولكن فى الدور الماضى كان المتسول يقف على باب أحد العظماء فان رأته سيدة ذات شأن ومال فهويته ، جعلته فى اليوم التالى أميرا يجر مطارف النعم الكبرى والسعادة العظمى ، فالماضى — ماضى التملق والمداهنة — كانت تحل فيه المراءاة محل العدل ، وكانت الحياة كثيرة النحوس والسعود فى مصر ، بلاد يوسف وهرون الرشيد واسماعيل باشا » [١] .

واذ قد بات كثير من الشرقيين يخشون ضياع جميع ما فى أيديهم من العزيز الغالى ، فليس من الغرابة فى شئ أن نرى المحافظين وهم كثر يندبون الماضى ويبكون « عصراً ذهبيا » ودوراً كان فيه من الخير أكثر من جميع ما أتاهم الغرب به ، وان تراهم وقد ارتبطت عروتهم بعروة فريق الأحرار ، فباتوا جميعاً ناقمين على التغرب أشد النقمة ، فهبوا الى قتاله ومقاومته ومناهضته بسلاح الرجعية وأسباب رد التأثير . فكانت النتيجة استقواء روح العداء لكل شئ غربى ، وظهور هذه الروح احياناً مظاهر الغلو والتشدد البالغ الحد . قال « لويس برتران » الآنف الذكر : « حضرت يوماً مجلساً من مجالس أهل القاهرة فسمعت فيه خطيبا يقول فى الناس ان فرنسة هى مدينة للاسلام بثلاثة أمور ذات شأن : (١) بحضارتها وعلومها ، (٢) بنصف مواد معجمها ، (٣) بجميع ما هم عليه الفرنسيون من الفضائل الخلقية والعقلية ، اذ يحتمل أن يكون جميع المصلحين الذين جاهدوا فى سبيل الحرية منذ الأجيال الوسطى حتى عهد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ — مثل الالبيجيين والكلفينيين وسواهم — من نسل عرب الأندلس . وعلى ذلك فلم يبق سوى أن تلحق فرنسة بمراكش . وقد بات غلاة الوطنيين من أهل مصر مشغوفين بزيارة اسبانية للطواف فى حدائق قصور اشبيلية وقصر الحمراء فى غرناطة والبكاء على عز الاسلام الدفين

---

(١) هـ . سبندر : « انكلترة ومصر وتركية » تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦
H. Spender, "Contemporary Review"

ومجد العرب الفقيد في ربوع هاتيك البلاد » .

أضف الى ذلك أن شأن الهندويين (الهندوس) في هذا الأمر كشأن المسلمين . فهم أيضاً يتفجعون حزناً على « عصرهم الذهبي » الفائت ، بل يفوقون جيرانهم مغالاة واغراقاً في هذا . اذ يعتقدون الاعتقاد الراسخ كله ان هندستان انما هي منشأ جميع الأديان الصحيحة ، وموطن ضروب الفلسفة والتهذيب والحضارات والعلوم والاختراعات وغير ذلك ، ويحتمون القول بانه متى ما انقضى عصر الانكساف الحالي في الهند (هذا الانكساف الناشئ بطبيعة الأمر عن الحكم البريطاني) عادت الهند مشرقة الشموس وهاجة الضياء رافلة بحلل المجد الزاهر ، مجاهدة في سبيل تنجية العالم باسره ، وانه مامن شئ جديد تحت الشمس . أما السبب في هذا الغلو فهو أنهم على مازعموا قد عثروا في الكتب الڤيدية المقدسة وغيرها من كتب الهنود الدينية على بينة لا تدحض ولا تنقض ما لها أن حكماء الهند الأقدمين قد سبق لهم فأنبئوا بمستحدثات هذه العصور الجديدة . ومن ذلك ما هو حديث الانشاء كالطيارات التي تلقي القنابل المفرقعة من عل ، وكعصبة الأمم الممثلة لجميع شعوب الدنيا وأممها .

على ان جميع هذا التبجح بفخر زائل وعز منقض ليس من شانه أن يجدي أهل الشرق نفعاً وأن يعود عليهم بطائل . فالشرق مثل الغرب ، له فضائل وحسنات ، وشرور وسيئات ، غير أن هذه الأخيرة قد ظلت طيلة الالف السنة الأخيرة تمتد بأفقها فوق أفق الأولى حتى أمسى الشرق متعثراً متخبطاً في مهاوي الانحطاط . أما اليوم ، وقد تغلغلت فيه المؤثرات الغربية من كل صوب أبعد متغلغل فانتشى ريح الحياة ثانية . فأخذ يستيقظ وينهض . على أن نتيجة هذا لن تكون ان الشرق سيتغرب تغربا تاماً مشتملا على التحدي الكلي والانقلاب المطلق العام . فليعلم العلم اليقين أن الشرق شرق ثم شرق ، متميز بما في أمزجة شعوبه من الطبائع والعناصر ما كر الملوان وتعاقب الجديدان . غير انه لابد لهذه الأمزجة من التطور تطوراً مؤالفاً لروح العصر والبيئة وذلك بالضرورة لما هو متسلط عليها من الطوارئ الغربية ذات الفواعل والعوامل والمؤثرات . فعلى ذلك اذا مابرح الرجعيون على حالهم من الرد والمقاومة للأفكار الغربية ، كانوا بعملهم هذا كأنهم يطيلون

عهد انحطاط الشرق ووهنه ، ويجذبون بأطراف الأمم الشرقية الى الوراء فيوقفونها عن السير والتقدم .

ليس أمر هـذه الروح الرجعية بالغريب . فان عوامل التغرب ، أعنى عوامـل التجدد التى فى عالم الفعل لاعالم القوة لتتغلغل فى بيئات فيها الداثر والبالى مرغو بين فيهما والخلق والمتلاشى مستمسكا بهما ، فالرجعية لابدمنها فى دور مثل هذا الدور ، حتى ولو كانت السيطرة الغربية خيراً كل الخير وكان الغربيون المتسلطون ملائكة من نور . غير ان التغرب لهسيئات تصاحبه لأن ذلك من طبيعة الانقلاب . أضف الى هذا أن الفساد قد تسرب وانتشر فى تلك البواعث التى كانت تحمل حملة الألوية للحضارة الغربية على خدمة الانسانية والأخذ بنصرة المستضعف . وهذا الأمر مما قوى ساعد الرجعيين فزادوا فى ادلاء الحجة الأدبية قائلين هذه معايبكم مكشوفة تكذبكم فيما تدعون . وفوق جميع هذا فان الانتقال من دور الى دور لابد له من أن يجتاز مخاضاً شديداً ، ولاسيما متى ما كان التطور اقتصادياً واجتماعيا . وقـد يطرأ عليه من الأسباب والقواعد الخارجيـة ماليس فى الحسبان فيزيده ذلك ألما وشـدة . ان مجرد وجود الغربى فى الشرق متسلطاً بغاشم قوته وباهر تقدمه وعجيب آلاته وأدواته ، لداعية دائمة تنغص على الشرق عيشه ، وتغضبه وتثير منه ماتثير ، فينقلب يريد لنفسه العزة ، وكيف ينالها وهو كيف مادار دارت معه أغـلال الذل وقيود الاستعباد . هذا هو الواقع . ولـكن لعل وجود الغربى هكذا هو من شروط الضرورة فى تجدد الشرق كما أن ذلك مما لامندوحة عنه بسبب انحطاط الشرق وقلة ماهو عليه من القوة والحول . على ان السيطرة بجملتها لم تبرح علة النقمة والهياج والاضطراب ولوكان فيها من نفع وفائدة وخير مهما كان . واليك السبب : ان الأوروبيين فى الشرق من شأنهم أن يشوبوا كل شئ ويغـيروا صورته ، ويبدلوا العادات تبديلاً متـدرجاً ، ويرقوا المعايش فيرتقى مستوى الحياة ، ويبنوا المنازل والمساكن فى النواحى المعتزلة عن سائر المدائن والحواضر ويقيموا فيها متنعمين ولهم من قوانين الاستثناء والامتيازات والاعفاء مايكسبهم الميزة العليا على أهـل البلاد . ففى قلب القاهرة مدينـة انكليزية ، وفى الجزائر المزخرفة بالنقوش المغربية الشرقية « باريس الصغرى » ، « وبيرا » الأوروبية فى القسطنطينية تباهى القسم المعروف باسلامبول التركية . فلم لا يكون ذلك من أسباب التـبرم فالغضب فالاضطراب ؟

وأما الهند فرصعة ترصيعا بالضواحى البريطانية ، وما الحواضر الكبرى مثل كلكتة وبومباى ومدرس سوى مدائن أوربية مختطة فى بلاد هندية فيها جميع الأبنية الفخمة الغربية الطراز والاسلوب ، دون بعض الأبنية الحديثة التى أخذ يظهر فيها الأسلوب العربى الهندى . وأما الشوارع والجواد فجميعها معروف باسماء انكليزية ، أسماء نواب الملك ومن سلف من الحكام والمتسلطين والقواد الذين شهدوا فتح البلاد [1] ، والذين اشتركوا فى اخماد الثورة — أبطال تقع العين على تماثيلهم المنصوبة فى كل ساحة ومنعطف وثنية . والبيوت التجارية هى انكليزية وجميع من فيها من المدبرين من الانكليز . والاوراسيويين (مزيج الأوربيين والاسيويين) يتجرون بالبضاعات الانكليزية والمركبات والسيارات الانكليزية تنساب رائحةً جائيةً فى أسواق المحل المعروف « بانكلترة القديمة » . وحيثما بحث المستقصى فى سائر دوائر الحياة وجد مساعى الانكليز وافرة وجهودهم كبيرة لاحداث أسباب الانقلاب الاجتماعى على حسب ما يستصلحون لشؤونهم ويريدون لحياتهم وأما الهنود فكلهم الا القليل يقيمون فى النواحى القديمة القذرة ، كتلك المعروفة فى مدرس « بالمدينة السوداء » . أضف الى هذا ان ليس هناك من الوسائل والأسباب مايسهل الاختلاط الاجتماعى بين الانكليزى الغريب والهندى الوطنى ، سوى القليل الذى لا كبير شأن له كالأندية الرياضية البدنية حيثما يتلاقى هذان كلاهما على مستوى واحد من المنزلة الاجتماعية . أما غير هذه الأسباب النزرة فيكاد يكون معدوما . وقليل من الغرباء من يلذ له التجوال فى الأسواق الوطنية اللهم سوى المبشرين ورجال جيش الانقاذ والسياح الذين مرادهم رؤية كل غريب . وأما سواد الغربيين المقيمين فى الهند فقد أمسوا لا يحفلون البتة برؤية تلك الأقوام الهندية السمراء .

وهذه الحال فى الحواضر والمدن تشاهد على صفتها هذه فى جميع الأقاليم وسائر المقاطعات بنطاق أضيق ولكن مع قيام الميزة واعتبار الفروق . فعلى ذلك ، الاوربى فى أى قطر من أقطار الشرق إنما هو غريب أجنبي دخيل ، حياته مختلفة عن حياة أهل البلاد وفى الامر موضع للنكاية وهو أن هذا الاوروبى المختلف بأسلوب حياته وطراز معيشته ،

(١) كما سموا شوارع بيروت باسم المارشال فلان والجنرال فلان ممن غلب على البلاد العربية وابتزها استقلالها ؛ وهذا منتهى الحقارة لاهل البلاد (ش)

المنفرد بمنزله ومجتمعه ، غريب دخيل وحاكم متسلط معاً ، وظاهر أبداً مظهر السيد المطاع والآمر الناهى . ومن تدبر الأمر وجد ان ذلك ناشئ عن طبيعة الحال ولا مرد له . ومن المعلوم ان هناك كثيراً من الأوروبيين الذين يعدون من فسدة الأخلاق وأردياء الطباع والسجايا ، ولكن أمر هؤلاء لا يحمل على الرجوع عن تقرير السبب الحقيق وهو : أن الأوروبى قد استطاع ، وان كانت الليالى حبالى يحملن من الأجنة ما يحملن ، أن ينشئ سيطرته وسلطانه فى الشرق لهبوط هذا عن مستوى الغرب وقصوره عنه قصوراً كبيراً ، وما دامت هذه حال الشرق فالأوروبى فى ربوعه لا يبرح الحاكم فيه المتسلط عليه . ولكن يجب على هذا المتسلط الغريب أن يحكم حكماً حكيماً عادلاً ويقيم وزناً سياسيا حقا لارتفاع مستوى الشرق فى التقدم والعمران والارتقاء ، وأن يدأب فى نفث القوة فيه وشد أزره حتى تكتمل قوة شعوبه وأممه ، الى حد تمسى عنده جديرةً باطلاق حبلها على غاربها والقيام على شؤون حكم نفسها بنفسها فالغربى ما دام فى الشرق فهو فيه الحاكم السياسى المسيطر والا فليس له سوى أحد الامرين اما الحكم حكما صالحا هذه صفته واما زم الحقائب والرحيل . زد على هذا يجب على الغربى ما دام فى الاقطار الشرقية أن يحكم بحسب حكمته الخالصة ومداركه الصحيحة ونيته الصالحة ، راعياً لشعوب أهل البلاد الشعور القومى المزداد ، معتبراً للعاطفة الجنسية ومنزلها المنزلة اللائقة . فكلمة اللورد كرومر التى قالها فى هذا الصدد وتجاوبت أصداؤها فى جميع آفاق الحكومات الاستعمارية لن تنسى وهى : « فى حال حكم الشعوب الشرقية يجب فى المقام الاول إتباع ما هو خير وصالح لهذه الشعوب ، ولكن ليس من الضرورة على الدوام اتباع ما تخاله هى لنفسها خيراً ومصلحةً » .

أجل ، لم يكن بدٌّ مما كان وهذه الحقيقة لا تحتاج الى زيادة ايضاح . ومع هذا فان كثيراً من متهذبة الشرقيين لايعدون السيطرة الغربية سوى دواء مر المذاق تعافه النفس وتنقبض منه شديداً ، بينما كثير سواهم لا يحسبون السيطرة سوى أداة للاذلال والهوان والاصغار ، والحكم القاهر الذى لا يطيقون النزول عليه . وليعتبر فى هذا المقام ان بعض ما هو عليه الغربى من الفضائل انما هو من جملة الأسباب التى تحمل سواد الشرقيين على استثقال وطأته والنفور منه . قال مرديث طونسند [١] : « ان مثل الغربى فى آسية مثل

(١) Meredith Townsend .

رجل شأنه أبداً أن يدعو جاره ليعمل على أثر تناول الطعام ، وليكون شديد اليقظة عند اشتداد الوسنة ، وليقوم على شؤون واجبة ميقات الطرب ونهب اللذات ـ هذا هو الغربى فى آسية وهو مع ذلك الحاكم المتسلط » .

أضف الى ما تقدم من الاسباب التى من أجلها يلقى الغربى فى الشرق كرها ومقتا ، سبباً آخر هو من الخطورة بمكان : ان هذا المسيطر الغريب الدخيل الحالّ بين ظهرانى القوم هو المتسلط القاهر من حيث كونه غريباً عنهم جنساً ودما وعرقا . ان لهذه القضية الجنسية شأنا كبيرا لا يستهان به ، وهى على خطورتها التى لاريب فيها مستعجمة المذاهب الى حد بعيد . اذ أن غالب شعوب الشرق الادنى والاوسط التى نعنى بشأنها فى هذا البحث هى على الجلة من الصنف المعروف « بالصنف الاسمر » من أصناف البشر . ولكن هذا ليس بالصحيح كل الصحة عند من يريد التعمق والاستقصاء فى علم الاجناس البشرية ، لانه لا يسعنا باعتبار حقائق هذا العلم أن نعد جميع العروق التى يتألف منها النوع الاسمر عروقا سمراء من حيث الأرومة والاصل ، متمايزة بفوارقها وخواصها ، ونطلق عليها اسم « الجيل الاسمر » ، كما يسعنا أن نفعل ذلك فى قضية العروق التى يتألف منها « الجيل الأبيض » أو تلك التى يتألف منها « الجيل الأصفر أو المغولى » فى الشرق الاقصى ، والسبب فى ذلك أن أقطار الشرقين الأدنى والاوسط لم تبرح على كرور الازمنة المضطرب الكبير الذى أخذت تختلط فيه عروق الاجيال المختلفة اختلاطا متواليا شديداً ، لان كثرة الفتوح والهجرات كانت على الدوام سببا فى تدفق العناصر الجديدة الغريبة على هذه الأقطار والامصار ، فكثرت تباينات الاصول واختلطت عروق الانساب ، وتعددت طبائع الامزجة المكتسب بعضها عن بعض ، فعلى ذلك غدت شعوب الشرقين الادنى والاوسط اليوم متشابهة الالوان . فمنها ما غالب لونه اسود كالهنود الجنوبيين وعرب اليمن ، ومنها ماغالب لونه أصفر كشعوب بلاد حملايا وأواسط آسية الذين يجرى فى عروقهم كثير من دم الشعوب الصفراء فى الشرق الاقصى ، وقد كان من شأن هذا الاختلاط المتباين انه نفى نشوء مثال جامع لتمام الحقيقة والاوصاف التى ينبغى أن تشاهد فى عروق « الجيل الاسمر » الضاربة فى الشرقين الادنى والاوسط ، كما يشاهد مثل ذلك فى عروق الشعوب البيضاء والصفراء ، ولما كان المثال على هذه الصفة معدوما فى هذه العروق ، ومثله كائنا فى الجيلين الآخرين ، فلم

ينشأ بطبيعة الحال مثال من الحضارة ونموذج من التهذيب جامعين للعناصر والفوارق التي تتميز بها العروق السمراء عن سواها . على أن هناك نزعة عصبية قد قامت مقام ذلك المثال العنصري المعدوم ، نزعة دينية رابطة لجميع الشعوب السمراء بعضها مع بعض انما هي الاسلام وجامعته المتماسكة وعروته الوثقى . ولكن الاسلام في الهند وهي أكبر مضطرب للشعوب السمراء لا يدين به هناك أكثر من خمس السكان . ولما كانت حدود العالم الاسلامي قد ما شت في الغالب الحدود الاثنولوجية لعالم الشعوب السمراء ، فقد أخذت من بعد ذلك أمواج بحر الاسلام تمتد الى جهات غير تلك فطما الاسلام على بعض الشعوب البيضاء الصرفة في شرق أوروبة وكثير من الشعوب الصفراء البحتة في الشرق الاقصى ، وأقوام لا عد لها من زنوج افريقية

بيد أن قولنا على الاصطلاح « الجيل الاسمر » أو « العالم الاسمر » لا يبرح دالا على حقائق ثابتة من حيث أصلية هذه الشعوب ومنحدرها ، حقائق يعترف بها العلم وتقر بها السياسة على ما هناك من تكاثر الامتزاج والاختلاط . اذ أنه لمن المقرر أن هناك صلة امتزاج متبادلةً فيما بين هذه الشعوب السمراء ، صلة ترد الى أصلها الأول ومنشأها الأقدم ، وهي وان كانت مستعجمة الصفات لبعد متغلغلها ومستسرة الآثار لتنكر مسالكها ، فكائنة حية متى ما تهيأت لها الأسباب بدت بارزة عن ظل الاشكال وظهرت آذنة بالجلاء . وأوضح مظاهر هذه الصلة في جميع شعوب الشرقين الأدنى والاوسط انما هو انسياق جميع الشعوب بفعل الطبع والغريزة الى الاعتقاد في نفسها والتبادل فيما بينها انها مؤلفة من سلسلة من الشعوب الاسيوية متصلة الحلقات متوائفة الأجزاء . ولو كان هناك ما كان من التعادي بين قبيل منها وآخر . وما برح هذا الشعور الاسيوي الذي بات من العوامل المستقرة في عناصر الامزجة يراقبه المؤرخون ويشيرون اليه منذ أكثر من عشرين مئةً من السنين ، وهو ما انفك حتى اليوم كما كان في الأمس صحيحاً ثابتاً ، حياً نامياً .

فهذه الاختلافات الكبرى في عروق الأجيال البشرية انما هي الاختلافات التي هي أعرق قدما وأبعد أساسا ومنشئا ، وأبقى عهداً وتاريخا ، وأشق استئصالاً اذا أريد استئصالها وأشد مقاومة لكل طارئ عليها ، في جميع هذا الوجود الانساني والعمران.

الاجتماعى . وليس أمرها مقصوراً على اختلاف ألوان البشرة فحسب ، فان السحنة وطول القامة وتكوين الشعر وغير ذلك انما هى اختلافات ظاهرة مرئية وليست عند الاعتبار حق الاعتبار الا رموزاً الى الاختلافات العقلية والذهنية والنفسانية الباطنة ، الدالة على اختلاف فى الطبائع والأمزجة والمدارك والآراء ، ذلك الاختلاف الذى غدا بسببه كل جيل مكتسبا من الفوارق والخواص مايتميز به عن سواه تميزاً ترى معه شقة البون والفرق قصية بين هذا وذاك .

إذاً فالفوارق التى تفرق بين الشرق والغرب انما هى فوارق عرقية جيلية عنصرية دموية . وعلى الجملة فان الشرقين الأدنى والأوسط اللذين يتألف منهما « العالم الأسمر » هما يختلفان اختلافاً هذه صفته عن « العالم الأبيض » مامن سبيل البتة لازالته ومحوه . أما محاولة القضاء على هذا الاختلاف بوسائل الاختلاط الدموى والالتحام النسبى كما يتوهم بعضهم فهو ضرب من الجنون والمستحيل الذى لايدرك . ان الشرق والغرب ليستطيعان تقارض المعاونة والأخذ بنصرة بعضهما بعضاً وأمر ذلك متيسر بالمفاهمة وحسن الوقوف على الآراء والمقاصد والغايات . الشرق والغرب كلاهما قد خدم بنى الانسان والحضارة فيما مضى من الدهر خدمة جليلة باقية ، وكلاهما مستطيع بعد خدمة أوفى وأجل فى المستقبل . غير ان ذلك ليس بالمستطاع الا إذا روعيت الشريعة الكبرى وهى أن يظل الشرق شرقاً والغرب غرباً ، عنصراً ومزاجاً . فان الاختلاط الاثنولوجى النسبى مفسدة لنفسانية كل منهما فيتلو ذلك فساد دموى هائل لابد من أن يعقبه انحطاط فسقوط .

ان الشرق والغرب كلاهما يعلم هذا الأمر حق العلم بسائق الطبع والغريزة والدليل المؤيد لهذا هو هذا الاستهجان الذى يظهره كل منهما لما هو مشاهد بعض المشاهدة اليوم من اختلاط الجيلين الشرقى والغربى الاختلاط الدموى المعروف نسله بالنسل «الاوراسيوى» قال مرديث طونسند : « انشقة الاختلاف بين الانسانين الأسمر والأبيض لتفوق القياس والحد ، وقد كانت طيلة جميع ما كر من العصور فارقاً عظيما وما برحت هكذا حتى اليوم . فالرجل الأبيض لايتزوج المرأة السمراء والأسمر لايتزوج البيضاء مالم يكره على ذلك اكراها لاقبل له بدفعه » .

وما تقدم من موجز الكلام على الاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والجبلية بين الشرق والغرب كاف لتمثيل الفوارق المتباينة الناشئ عنها التباين فى العلاقات بين العالمين ، والتى من شأنها أن تعمل عملها حائلة دون الاقتباس من الغرب ، الاقتباس الذى ما انفك سائراً سيره . واننا سنبين فى الفصول التالية مجال هذا الاقتباس ومبلغ ماوصل اليه حتى اليوم . غير ان عوامل الاختلافات المذكورة تدل عند تدبر ماهيتها حق التدبر على امكان حصول الرجعية ورد الفعل شديدين بحيث يستطاع بهما الوقوف على مبلغ مايؤخذ عن الغرب ويقتبس منه بعض الوقوف .

بقيت الحقيقة الثابتة يجب أن تقال : ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق ، وان طال أمدها ماطال وتبدلت صورها وأشكالها ماتبدلت ، هى قائمة على أساس متداعى الأركان متضعضع الجوانب سريع التقوض والتزلزل . وما دام المتسلطون الغربيون فى الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئاً من الود والمحبة والاخلاص ، ولاغرابة فى الأمر ماظلت منزلتهم أبداً منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المكروه . زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربى والسيطرة الغربية يتناقصان ويتقلصان ظلا ويخفان وطأة ، بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها فى الارتقاء . ولا يغربن عن البال ان الذى كان عند أهل جيل سالف داعية للرضى والارتياح ، قد غدا عند أهل الجيل التالى ، سبباً للتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال الى ماهو خير منه وأفضل . هذا هو من أسباب الانقلاب السريع فى الشرق .

على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهى ، واخذت أوصالها تتفكك ، وبناؤها يتداعى ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزداداً ، وفسادها يظهر ، جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية . فقد كان لتلك الحرب فى نفوس المشارقة قاطبة من التأثير المعنوى الشديد مالا يستطاع وصفه ولايعلم حده . وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولا قوة حيال أوروبة المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبنى أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشؤوماً . غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخضدت شوكتها ودقت عنقها دقاً ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم فى كل جانب من جوانب

المشارق ورقعة من رقاعها ، فمادت آسية وأفريقية من اقصاهما طرباً ، وجرت فى عروقها نشوة الظفر وحبا النصر ، وعدوا الانتصار اليابانى العجيبة العظمى والآية الكبرى [١] ، وصف مبشر اسكتلندى ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير فى نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وابتهاجاً ، وترنحت ترنح الثمل الجذلان ، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر اليابانى فى حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلا ، طوافين الليل كله حول المعابد والهياكل . وقد قال لى أحد شيوخهم فى تلك الغضون : لم تلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ اليابانى منذ الثورة الهندية . وأخبرنى قنصل عثمانى أقام طويلا فى آسية الغربية ان الأهالى فى داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم وجعلوا لايهتمون بأمر سوى ارتقاب الانباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها . أجل ! مادت آسيـة من أقصاها الى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظاً فاستيقظت الحياة ثانية فى الشرق تواقة لمغامرة الأهوال فى سبيل بقائها ، وهبت آسية هبة أخرى لتسطر لها فى التاريخ ذكراً جديداً ونبأ حديثاً » .

ومما لايحتاج الى برهان ان الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة فى الشرق ، الروح الممتدة أصولها الى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه انما كانت وسيلة عارضة لاعلة فى تنبه آسية وافريقية تنبه الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الواثق بنفسه ، الساعى فى مطلب أمر لايلوى على شئ دونه ، وبسبب هـذه الحرب طفقت الافـكار التى كانت تتمخض فى أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضاً لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة الى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لايسع مكابراً انكارها عـلى

---

(١) للاطلاع على ما كان للحرب الروسية اليابانية من شديد التأثير العجيب فى نفوس الشرقيين على العموم والمسلمين على الخصوص اقرأ :ــ

«اليابان والاسلام» تشرين الثانى ١٩٠٦ — F. Farjanel, " Le Japon et L' Islam" (Revue du Monde Musulman)

« اليابان والعالم الاسلامي » نيسان ١٩٠٥ — A. Vambéry, " Japan and the Mohammedan World" (Nineteenth Century and After)

اختمار الأسباب والعوامـل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جـديدة فى الشرق ـ هى حركات التجدد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف الى ماتقدم ان هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيراً عميقاً فى قضية الشرق وتطورها ازاء سلسلة حملات الاعتداء الاوروبى التى استؤنفت منـذ ذلك الحين استئنافا شديداً . ومن الغريب العجيب انه بعيـد ان ظفر الشرق الأقصى فى رد عادية الاعتـداء الاوربى عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ماأخذت حملات الاعتداء الاوربى تتوالى على الشرقين الادنى والاوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شر ممزق . وقد وصفنا فى ماتقدم من الكلام تلك الزأرة الهائلة التى زأرها العالم الاسلامى متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الادبية الفريدة المثال ، عند ماأنشأت السياسـة الاوروبية الحديثة تنقلب غاية فى الجشع والنهم . فلذلك جدير بنا الآن ان نعـلم علما صحيحاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير فى هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة فى جميع الاقطار الشرقية . من المعلوم ان الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الغـلاة أصحاب مـذهب الفتح والتوسع الاستعمارى بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ ، انما كان فى دور عصيب . قال ارمينيوس ڤامبارى بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سديداً : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب فى العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثاقة ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة احكاما بين الامم والشعوب الاسيوية عـلى اختلافها ، ورسخت روح التعصب عـلى أوروبة والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك فى قرارات صدور المشارقة أيما توغل . أمن العـدل والحصافة فى شىء ياترى أن نرى نار العداء تزداد تأريثاً وايقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التى ماأنزل الله بها من سلطان ، وان نستعجل العالمين الشرقى والغربى للاشتباك فى نضال هائل ومعمعان رائع ، وان ننفث سماً زعافا فى برعم الحضارة الاسيوية الجـديدة ، هذا البرعم الذى أخذ يتفتح عن اكمامه فى اقطار المشرق كافة ؟ »

ومما لامشاحة فيه ان الحرب الكونية العظمى قد أفضت بالحالة الى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، اذا التفت الشرق سنة ١٩١٤ فرأى الامم الاوربيـة التى كانت مابرحت حافظة لشىء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية ، قد انبرت تتناحر فى سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناجز مدفعة بعضها بعضاً نحو

المجزرة الهائلة والنيران الجهنمية . ورأى وحدة الجيل الابيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية والنقائص الادبية فزعزتها وهدمتها تهديماً ، فوقفت كل أمة من الاخرى و بينهما غور سحيق وهوة بعيدة . ولم يكن لدى الامم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجائحة الكبرى سوى ذلك البيان الحر الذى نقش ساسة الحلفاء حروفه فى أعلام دولهم ورايات جيوشهم . ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الاسرار تنفضح ، فذاع للأكافة انه فى الحين الذى كان فيه اقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون الى انحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التى فى سبيلها آثرت دولهم الانغماس فى الحرب الزبون ، غاية تحرير الشعوب المستعبدة واطلاق الامر للأمم المستضعفة فى اختيار حكمها وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الاقطاب والساسة فى الوقت عينه يتفاوضون و يعقدون و يبرمون فيما بينهم سلسلةً من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الادنى ، مدفوعين الى ذلك بروح الجشع الكلبى ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها من مثيل فى تاريخ الانسان [1] . ولما حان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب ، أتى بطائفة تلك المعاهدات ، لابالخطب الحرة التى أذاعها الاقطاب والساسة ، وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤداها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الادنى والاوسط اخضاعاً تاماً ، واقتيادهما بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ماأفظعها .

فاشتعل الشرق حنقا وغلت مراجل غضبه غلياناً هائلاً ، وطفق يهتاج اهتياجاً جاوز فيه فى وقت قليل حدود الشكوى الاسمية الكلامية التى كانت من شأنه قبل الحرب ، الى المقاومة العملية الفعلية ، وشق عصا الطاعة على المستعمرين ، وعمد الى الوقوف فى وجههم موقفاً ما سمع بمثله من قبل . وما هى الا فترة حتى انقلب ثوران الشرق قتالا وجدالا جلاداً قد أكرها الدول الأوربية على التقليل من غلوائها ومطامعها الاشعبية ، ومما لا ريب فيه أنها ستكره من جراء هذا القتال أيضا للاقلاع عن سائر مطامعها عما قريب . واننا سنفصل الكلام على هذا الثوران المتأجج النار اليوم فى الشرق فى ما يتلو من

(١) من جملة هذه المعاهدات اتفاق فرنسا وانكلترة سرا على اقتسام سورية وفلسطين بينما انكلترة تعاهد صاحب الحجاز على استقلالهما من جملة البلاد العربية (ش)

الفصول ، مجتزئين بصفوة القول فى هـذا المقام أن الحرب الـكونية العظمى قـد مزقت السيطرة الأوروبية فى ربوع المشرق شر ممزق ، وكشفت عن عيون الشرقيين فرأوا تضعضع الغرب ووهن عظمـه . حقاً قـد اقتبس الشرق من الحرب العامة طائفة من بليغ الدروس والعظات . نذكر على سبيـل المثال أمراً واحـداً وهو أن قد جندت الملايين من المشارقة والزنوج من كل صقع من أصقاع آسية وأفريقية ، وسيقت مقاتلة وعملة الى ميادين الحرب التى أشعل نارها أبناء الجيل الأبيض . ومع أن غالب هـذه الـكتائب قد استخـدم للقيام باعمال فى المستعمرات ، فقـد أتى باكثر من مليون منها الى ساحات الحرب فى أوروبة ، حيثما اشتركوا فى تقتيل أبناء الجيل الأبيض ، وهتكوا حرمات النساء البيضاء ، وذاقوا لذة الشرف الوطنى الذى يتنعم به أبناء أوروبة ووقفوا على مواطن الوهن والضعف فيهم ثم قفلوا الى أوطانهم يخبرون أبناء قومهم عما شاهدوا وخبروا ، ويتلون عليهم النبأ العظيم من أوله الى آخره [1] وقد عرفت آسية وافريقية اليوم ما كانتا لا تعرفانه من قبل ، ومن الثابت الذى لا يرتاب فيه انهما ستحسنان كل الاحسان الانتفاع من هـذه المعرفة الثمينة . والأمر الأعظم شأناً وخطورة فى جميع القضية أن الشرق قـد بات يوقن شديد الايقان أن سلم مؤتمر فرسايل ، تلك السلم الموهومة التى من مزاعمها أنها بسطت الطمأنينة والراحة فوق أوروبة ، ليست بسلم البتة ، ولـكنها الجشع وحب الذات والأنانيه والطمع يتبرأ منها العدل وتنـكرها السياسة الرشيدة ، جميع ذلك مما أبقى الجروح القديمة على فسادها فلم ينلها برء ولا شفاء ، وفوق ذلك كله جرح الشرق جروحا جـديدة راحت أمم الشرق وشعوبه من بعدها تزف ترى بعينيها دماءها سيالة . فأوروبة اليوم وهى على حالها هـذه

---

(١) من أراد التوسع فى الاطلاع على ما كان للحرب العامة من التأثير فى شعوب آسية وافريقية فليطالع : —

« انحطاط اوروبة » (باريس ١٩٢٠) A - Demangere, "Le Déclin de L' Europe"

« يقظة آسية » (نيويورك ١٩١٩) H . M . Hyndman, "The awa Kening of Asia"

«الثورة الصامتة فى الهند» (نيويورك ١٩١٩) A.B. Aishes, "India' s SilentRevolution"

كتاب المؤلف : " Rising Tide of colour against white world souprenaecy ,,

مضطجعة على فراشها مساوبة القوة ، متململة من شدة الآلام والبرحاء ، وآسية وأفريقية واقفتان حيالها موقفا كثرت فيه العوامل والأسباب التى تحملهما على تمزيق ما هو حائق بهما من الأطماع الاوروبية ، واقصاء البلاء النازل المنتشر والداهية الحالة الشاملة .

هذه هى الحالة اليوم : الشرق يهتاج ويتنازعه عاملا القديم والجديد مواجهاً الغرب المتقطع المتقسم المتعثر فى اذيال خزيه وعاره . وربما ما اجتازت علاقات العالمين الشرقى والغربى فى يوم سالف مأزقا حرجا كانت فيه معرضة مستهدفة لخطر عميم مثـل هذا المأزق المجتاز اليوم وهو منـذر بالنوازل اذا قدر لها النزول لا سمح الله كانت البلاء العام طباق الدنيا . والأمر الذى يجب ألا يغرب عن البال بعـد جميع ما تقدم أن هذا الشرق الجديد العجيب القائم فى وجهنا اليوم انما غالب السبب فى قيامه هذا هو السيطرة الغربية المنتشرة فيه انتشاراً لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة خلت . ولبيان العوامل الكبرى فى انتشار هذه السيطرة ونتائجها ننتقل للكلام على ذلك فى الفصل التالى

الفصل الرابع

في

التطور السياسى

سنن الشرق وتقاليده السياسية الفاسدة انما هى الآفة التى كانت وما برحت ناخرة فى عظمه . فلم ينفك الاستبداد منذ العصور الاولى والحقب القدمى أغلب صفة ، وأبرز صورة فى آفاق الحكومات المشرقية ـ أعنى به استبداد الحاكم الفرد ، والسلطان المطلق ، مسترقا للرعية ، متصرفا فى شؤون الناس ومتاعهم وحطامهم وجميع ماملكت أيديهم ، وممتهنا لشرف نفوسهم وكرامتهم ، وجاسوسا على حياتهم حركاتها وسكناتها فى مغداهم ومراحهم ، كما شاء و بغى . ولم يكن هناك غير الدين زاجرا للاستبداد ومنهنها عن التمادى فى بعض المواضع . و بعض النقدة من أهل العلم يضيفون العادة الى الدين و يعتبرونها عاملا مشتركا معه فى كف المستبدين وردعهم ، غير ان ذلك ولولم يخصص بالذكر فانه مما ينطوى تحت الدين ، لأن العادة فى الشرق من شأنها دائمـا أن تتخذ لها من الدين كنفا ومتقى ، ومن المعلوم أن المقصود برجال الدين هم جميع الوزعة والخدمة الدينيين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم بحيث يتألف من مجموعهم طبقـة من الناس لها امتيازات ، وحقوق مستثناة ، ولكن الاستبداد الشرقى ، مع كل ما كان للدين من قوة حائلة دون طغيانه ، لم يقف عند حد وما عرف له قياس ، اذ كان فى استطاعة العاتى المستبد مادام خاضعا لمعتقد الدين ومحترما لرجاله ، ان يفعـل ما شاء متى ما شاء من الافاعيل على غير حساب . هـذا ، واننا نرى فرعون فى فجر التاريخ يرهق المصريين أشد الارهاق كيما تطيب نفسه وتقر عينـه برؤية قبور الاهرام الضخمة العظيمة . وما برحت الحياة الشرقية فى جميع أدوار التاريخ حياة الذل والاستعباد والرق السياسى .

على أن الاختبار البشرى قد أفاد الافادة التامة ، الجامعـة المانعة ، ان الاستبداد

لشر مطيـة تمتطيها الحكومة المستبيحة لنفسها التطوح فى البغى والجور والعتو . ولـكن بعضهم يقول هناك « المستبد العادل » النازل من الرعية منزلة الأب من الأسرة ، يحيط به المشيرون الحكماء والأعوان الحصفاء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بكلمة تجرى على لسانه أو يجرى بها قلمه انما جميع ذلك وهم وخيال لا ظل لهما من الحقيقة اذ قليل ثم قليل هو « المستبد العادل » الذى صدق خبره خبره ، وأقل منـه من يخلفه خلافة تعمت الخلافة . فالمستبد العادل له فى الغالب ولد فاسد الخلف والتربية لا يروقه شئ فى جميع ملك أبيه سوى الفخمية والعجب والزهو ، وحفيد أسوأ خلقاً وأشد فسادا ركبت فيـه طباع الذأم والمنكر ، فيأخذ كل منهما بدوره فى ارهاق الرعية وسومها ضروب الذل والهوان حتى يوردها بالتالى موارد الدهورة والتهلكة . وكثيرا ما شوهدت الثلاثيات المشؤومة ـ داود فسليمان فرحبعام ـ تتكرر تاليا بعضها بعضا فى جميع العصور التاريخية

زد على ذلك فان المستبد العادل ، ولو كان على حسن عمل واستقامة مسلك فلا يكون خالصاً من طائفة من العيوب والشوائب . والبليـة فى جميع المستبـدين ، الصالحين والطالحين ، ان أعز مراد يملكه كل منهم هو أن يحكم فرداً مطلقاً سيداً مطاعاً ، منه العفو اذا شاء ، وله الأمر والنهى فى جميع الأمور . وربما افتتن بغانية أو حبيب معشوق فى ليلة تهب فى رأسه سورة الهوى ، أو أصابه سوء هضم أفسد عليه تصوره ، أو عرته سـويداء ذهبت بصفوه وحبرته فراح راكبا رأسه فى متطوح فاسد ، تاركا عرشه ومملكته عرضة للسقوط والانهيار

الحق أننا معشر الغربيين ، لم نذق شيئا من مر الاستبداد كالاستبداد الشرقى ، فى عصر من عصورنا الخالية ، حتى ولا ذاق أجدادنا القدماء شيئا من مثـل ذلك فى عهد الأمبراطورية الرومانية . فلذلك يصعب علينا أن نتصور الاستبداد بجميع طبائعه تصوراً تاما وتتمثل أهواله تمثلا كاملا . اننا فى جارى العادة متى ما ذكرنا سير المستبدين العادلين ، جئنا على ذكر الحكام المطلقين المنورين الذين حلت أوربة عروشـهم فى القرن الثامن عشر مثـل فردريك الكبير وأنداده . غير أن هؤلاء لم يكن طراز استبدادهم على نحو ذلك الذى كان عليـه مستبدة الشرق ، فان فردريك مثلا كان ملـكا مطلقا ولـكنه لم يستبعد رعيته ويسترق شعبه ، اذ الشمم والاباء كانا ملء نفس كل ضابط وأمير ونائب من

الخاصة حتى وكل فرد من أفراد العامة ، فلم تكن طاعتهم العمياء لفردريك انما لسبب كونه ملكا عليهم فحسب ، بل لأنه كان أبعد أهل بروسية همة وأشدهم عزما وأنفذهم حزما وأبلغهم مناداة فى سبيل الذياد عن سياج الوطن والدولة . فلو اعوج يوما من الأيام والتوى عن القصد بحيث انقلب ملكا مستبدا كسولا ، عاتيا باغيا ، لهب البروسيون الأباة الطائعون ، ومشوا اليه يقوّمون اعوجاجه بسيوفهم ويقيدون سلطته وسلطانه .

اما الحالة فى الشرق على خلاف هذا . ففيه قد كتبت شريعة موجزة فى جبهة كل شرقى ، شريعة ليس لها مثيل « فى الوصايا الأوربية العشر » وهى : « عليك أيها الشرقى أن تجلّ الرجل الذى يقيمه الله عليك ملكا ، وتقدسه وتعبده . فاذا أحبك أحبه ، واذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهاد فأحبه على ذلك أيضا ، واياك أن تحول عن هذا له لأنه سيدك وأنت عبده ، ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الاداة بأداته[1] ان الملك الشرقى من شأنه أن ينقبع فى زاوية من زوايا قصره على كثير من حرمه ، تاركا شؤون الدولة واعباءها على كاهل وزير من وزرائه مطلق اليد والمشيئة ، فاعل ماشاء فى مصالح الرعية وحياة أفرادها . وقد يحدث فى ذات ليلة أن يبتغى الملك أو السلطان استرضاء راقصة من الراقصات الواقفات بين يديه فى مقصورة من مقاصير حرمه ، فيبعث الى وزيره زنجيا خصيا شاكى السلاح ، واذ يصل هذا الى الوزير ويبلغه أمر مولاه لسرعان ما يهبّ الوزير فيخلع عنه رداء الوزراء ويمد بعنقه ليرشف كأس حمامه خنقاً أو غير ذلك من ضروب الموت . هذا هو الاستبداد الذى عرفه الشرق .

بل هذه هى سنن الشرق وتقاليده السياسية التى حالت دون انتظام حكوماته واستقرار دوله ، فأقصته عن كل سبيل من سبل الارتقاء والعمران ، فتاريخه فى الواقع انما هو تاريخ السعود والنحوس ، والصعود والهبوط ، والظهور والاختفاء ، مابين غمضة عين وانتباهتها . فالرجل المقدام هو الذى كان يقارع غيره فى ساعة يشتد فيها الاضطراب والقلق ، لنيل

---

(١) الشريعة المحمدية لاتعرف شيئاً من هذه الاوصاف للملوك ولا للخلفاء . ومثال الخلفاء الراشدين كاف لبيان أحكام هذه الشريعة . وان كون السلطان هو ذاتاً مقدساً غير مسؤول ليس هو من أوضاع الاسلام فى شىء بل أخذه الترك عن الافرنج . وان الامة العربية خليصة هى من فطرتها : لا تقيم على الضيم ، ولا تعرف الذل للملوك والسلاطين ، ولا يبهر أعينها التاج والصولجان . وقد أوضح كل ذلك ستودارد فيما يلى . (ش)

منصب يستطيع به القبض على وسائل السلطة ، فان أحجم جبانا هيابا ، سبقه خصيمه الى نيل ماقصر هوعنه . ثم يأخذ هذا الفائز الظافر يقوم بشؤون الحكومة والدولة على أساليب مضطربة فاسدة ، مستحثاً من كان فى أمره من العمال والموظفين على حسن العمل منذرا إياهم بشديد العقاب عند وقوع شئ من التفريط أو الخيانة ، عقاب كسرى فارس الذى أتى بأحد مرازبته الظالمة حياً فسلخ جلده ثم جعل الجلد شيئاً من فراش الأريكة التى دعا مرزبانا آخر عادلا للجلوس عليها وأمره بأن يقضى فى مصالح الرعية .

وما دام الملك حياً فالأمور سائرة هذا المسير . ولكن بعدموته يخلفه ابن يتظاهر فى أول أمره بأنه مقتف لآثار أبيه اقتداراً وعدلا ، وهمة وحسن سيرة ، ثم لايلبث أن يبرح خفاؤه عن صريحه فيكون فاسد التربية والخلق . ولاغرابة فى شأنه اذقد ربى وترعرع فى مقاصير الحرم ومن حوله حاشية من اذلاء العبيد وسيدات الغوانى ، فألفت نفسه العجب والزهو ، وأطلق لهواه العنان ، فنشأ رضيع الاستبداد منغمساً فى المآثم والمفاسد ، فولدٌ هذه خلاقه وطراز تربيته وتثقيفه أيستطيع خلافة والده وانتهاج منهجه فى تدبير الأمور وسياسة شؤون الدولة ؟ اذ بعيد مايطبق الموت جفنى والده ثم يستولى هو على العرش الموروث لن يلبث أن يدهم الملك فساد يفضى به الى الوهن والتفكك . والأمر طبيعى لا يمكن أن يكون بخلاف هذا ، لأن الملك الراحل لم ينشئ حكومة صحيحة منتظمة متماسكة القوى ، سائرة بذاتها بفعل نظامها ، نامية نمو الجسم السليم الأعضاء ، كما هو شأن الحكومات فى الغرب . فضباط الجيش مثلا كانوا يؤدون خدمتهم عهد الملك السابق يحملهم على ذلك داعى الخيفة والرهبة ، أوالود والاخلاص ، لسبب ماقد يكون بين سيد ومسوده ، ولكن ليس قياماً بواجب يحمل عليه الشعور القومى والروح الوطنية . ومتى جاء دور الحفيد بلغت الأمور منتهى الفساد ، فذهبت بقية السلطة من بين يديه الواهيتين ، وخرج عليه كثير من الأمراء المستبدين فى أنحاء مختلفة وتقدم أعظمهم وأشدهم بأساً للجلوس على كرسى الملك المتضعضع المتزلزل ، وتقلد أزمة الأحكام ، مدعياً أن ذلك هو خير للملكة وأفضل من أن تتلاشى كل التلاشى فتغدو عرضة لجائحة غارة أجنبية ، وهكذا دواليك ، حلقات تكر الواحدة تلو الأخرى ، وكل مؤلفة من داود فسليمان فرحبعام .

هذا هو تاريخ الشرق السياسى على الايجاز . غير أن الشؤون والأحوال أخذت

تتبدل وتستقيم ، والاعوجاج يقل ويقوّم . ذلك نتيجة فعل العوامل السياسية الناحية منحى الحرية ، وثمرة الصدمات الضاربة فى مقاتل الاستبداد . وهذه الصدمات المقاومة بعضها بعضاً ناشئة عن عوامل داخلية و بعضها ناشئ عن عوامل غريبة طارئة من خارج .

على أن الواقع أحرى بأن يعلم ، فالشرق لم يدن جميعه فى يوم من ماضيه مستقراً للاستبداد ومنبتاً للظلم والجور . بل ان بعض شعوبه وأممه فى بعض الأصقاع (وغالبهم بدو ومن أهل الجبال) قدعافت نفوسهم الضيم وأبت الخنوع لحكم الاستبداد . وقد كان العرب دائما هم الأمة الشرقية الحرة التى احتفظت حريتها وصانتها بدماء مهجها على توالى العصور .

وقد سبق لنا فى مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة فى عهدها الأول على أساس الشورية والشريعة الدينية وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامى وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورية ملكاً عضوضاً ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب ـ عشاق الحرية والاستقلال ـ يعودون أدراجهم الى الصحراء غضاباً متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقى معظم ذكريات خلافة الراشدين ، والمعتزلة الحرة ، حية فى زوايا الأدمغة وألواح الذاكرة ، مستعدة استعداداً طبيعيا غريباً للظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يذود عنه كل عربى ذياد قرّح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء . وهناك فى شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والاسلام اسلاماً . فمن ترى يستطيع أن يتعامى عن القول الذى قاله صاحب الرسالة : « انما المؤمنون إخوة » و « المسلمون أحرار » وعما هو مدّون فى صحف التاريخ الاسلامى فى غرر أنباء صدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السعادة » . أو لم يظل المسلمون الأحرار النازعون نزعة الاستقلال، حتى فى أشد الليالى حلكا ، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبى بكر التى خطبها فى العرب بعيد مبايعته بالخلافة :

« قد وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم فاذا استقمتُ فأعينونى واذا زغتُ فقوّمونى »

فالاسلام فى عهده الأول انما كان شمس الحرية مشرقة وهاّجة ، ودينا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الاسلامى فيما بعد من الوهن والتدلى

يحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفاته . فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليبار : « انما هي ديموقراطية شوروية جوهراً واصلا ، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجمل ڤامباري هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله . « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسية الغربية الى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب في ذلك انما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي ، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا في انتحال التأويل القرآنية انتحالاً منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية ، وتشددوا في الدين تشدداً باطلا برؤ منه الاسلام [1] وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء فقضوا على جميع ذلك قضاء ، فحالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية [2] » .

---

(١) من أكبر المسؤولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء ، فانهم الا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا وجعلوا ديدنهم التزلف الى الأمراء بتسويغ جميع مو بقاتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلما أتى أحد الملوك أو الأمراء المستبدين عملا منكراً الا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها وتحريف الكلم عن مواضعه ورواية الضعاف والموضوعات الى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلفى والجائزة . وما زالوا يتمادون في غيهم هذا — والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا — حتى صاروا يتقربون بهذه الأشياء نفسها الى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها خراب الاسلام وهلاكه ، فكلما سقطت مملكة اسلامية في يد دولة أجنبية أو نهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة الأجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لاغراضها المفتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى اهوائها . وحسبك ان عدداً عديداً من علماء سورية افتوا أثناء الحرب العامة ببغي الشريف حسين أمير مكة تقرباً الى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب واحتلوا سورية بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسيناً الذي كان عندها من قبل باغياً خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيس الشام نقضت ايديها ثانية من صاحب الحجاز وجعلت تفتي بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسينا أجنبياً . أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون وكلما عاتبهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : انما هذه تقية نبتغي بها النجاة من الظلام . والصحيح ان عذرهم غير مقبول وان عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وان دعواهم مداراة الظلام هي باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفاسف ، وطلاب وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا وذاك مفتياً وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضائه نقداً دراهم معدودة ، ولا نعلم الى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعممين ، و ينظرون الى العزائم لا الى العمائم . (ش)

(٢) سنة ١٩٠٦

وقد أبنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه فى القرن التاسع عشر ، و بسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصوراً على الاصلاح الدينى فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسى أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمرائه وملوكه وسلاطينه العسفة الظلمة . ونقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسى الحر سائراً مسيره على اتساع فى الحركة والانتشار فاذا بتيار سياسى جديد قد هب عليه من جو أوروبة فاعترض سبيله وقام فى وجهه . وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين ، وقد أيقنوا بمحال تضعضع الشرق الاسلامى وتشتت أمره حيال تقدم أوروبة وشدة حولها و بأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح متذرعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذ راموا صدق المسعى وابتغوا التجدد الحقيقى فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الاسلامى انما غالبها مستقرٌ فى حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم . وشارك الأمراء الحكام ، أهلَ الفكر وطلاب الاصلاح فى هذا ، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية واكتناه أساليبها والوقوف على جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها وتنجيتها من شر المهالك ، ثم سوقها فى سبيل التقدم والارتقاء . وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركية ومحمد على فى مصر خير مثالين ظهرا بالطراز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه فى أوائل القرن التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه الى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطا بين حالة المستبدين العادلين الأوروبيين والمستبدين الشرقيين . وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين ، طالبى التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك تنظيماً صحيحاً خاليا من المفسدة والعيب ، كيما يتسنى للحكومة هذه أن تسير ـ بنفسها وفعل نظامها ـ سيراً مطرداً كسير الحكومات الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون بواجب الاخشية العقاب .

وثابر محمود الثانى ومحمد على ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج

هذه السياسة الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذي بدئ بعاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ولا جرم ، فانه قد كان في استطاعة السلطان أو الأمير ابتناء القلاع وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبي ، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والاحكام المتزيين بازياء غربية ، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لان معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا عجزة عن القيام بالاعمال على الطريقة الغربية الصحية ، لانه ليس فيهم الكثير الكافي من روح الاقدام والمضي في العمل ، ولا هم يقبلون من أنفسهم غيراً على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ولا ألفوها بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الاعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لامر مولاهم وسلطانهم . هكذا كانت الحالة في بدء الامر : بيد أنه على توالي الايام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثتين . وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلاً فظل أمرها مقصوراً على اكتساب المظاهر الغربية من خارج ، لانها لم تنل كثيرا من أسرار المعاصرة والجدة التي هي شرط لازم في حال كون كل حكومة منظمة راقية .

أضف الى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرازاً عمن سبق ذكرهم يقومون أحزاباً مؤلفة ، وغايتهم انما هي اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال . وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً متوالياً من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكاراً وآراء غربية اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعليم والتهذيب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي . وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءاً محسوساً . وفي سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عالياً وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور .

بيد انه قد عقب هذا الفلاح الذى نيل على يد الأحزاب الاسلامية السياسية الحرة ، دور ظهر فيه رد الفعل ، اذ بات الحكام المسلمون الجالسون على أرائك عروشهم يخشون كل الخشية عقبى انتشار المنازع الحرة فى رعاياهم ، فوطنوا نفوسهم على استبقاء سلطتهم المطلقة فى أيديهم ، لا ينزلون عنها ، ولا يرغبون فيما دونها . فلهذا لما ارتقى السلطان عبدالحميد العرش لم يلبث أن فض البرلمان العثمانى وقوض بناءه تقويضاً ، ثم طفق يضطهد الأحرار ويتناولهم بكل ضرب من ضروب التعذيب ، حتى تسنى له استرداد معظم السلطة المطلقة فعض عليها بالنواجذ . وظهرت فى بلاد العجم حركة سياسية حرة فأضمر الشاه لها المناهضة تخنقها وليدة فى مهدها ناهجاً بذلك منهج عبد الحميد . وفى مصر كان حكم الخديوى اسماعيل اسرافا وتبذيراً ، فجاء خاتمة للحياة السياسية الوطنية فى مصر ، فآل الأمر الى التدخل الأوروبى فى شؤون البلاد ، ثم بسط الاحتلال الانكليزى ، وظلت حتى ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ ، أمارات المنازع السياسية الحرة تظهر ظهوراً بيناً فى هذه الأقطار الاسلامية التى كانت بعد محتفظة استقلالها ، وكانت الحركات الاصلاحية سائرة سيراً حسناً وراء ستار من الخفاء . وأخذ الشبان المسلمون المتمشية فى عروقهم روح الوطنية يفرون الى ديار الغربة سعيا وراء غرضين : طلب العلم ، وانشاء الدعوات السياسية الحرة المنظمة . فلجأوا الى أكناف عديدة مثل سويسرة ، واتخذوا فيها ملاذاً لهم . ثم شرعوا ، وفيهم شبان « تركيا الفتاة » و « ايران الفتاة » يصدرون مئات النشرات والكتب الأدبية الثورية ، ويبعثون بها خفية الى أبناء أوطانهم المسومين الذل والهوان ، فيتلوها هؤلاء باشتياق ملتهب .

وما انفكت أصوات طلب الحرية تتعالى على توالى الأيام ، وتشتد قوة وبأساً ، وتجوب البلاد وتخترق الآفاق ، وتعم طبقات الناس . فقد قال أحد شعراء الترك ، شادياً باسم الحرية فى ذلك العهد : « ان ما نجل ونعظم من جميع ما نراه من نتاج التهذيب الأوروبى والحضارة وثمرة العلوم والفنون انما هو الحرية . كل شىء يستمد نوره من كوكب الحرية المنير . الأمة المسلوبة الحرية فلا حول لها ولا أمل فى ارتقاء معارج العمران . السعادة بلا الحرية مستحيل لايدرك والوجود الانسانى والحياة الصحيحة بلا سعادة تكفلها الحرية انما هى وهم باطل وخيال خادع . عش أبداً يا كوكب الحرية ماالتهبت القلوب شوقاً اليك وتراحت أنفس عشاقك على فدائك » .

ومنذ ختام القرن التاسع عشر أخذ كبار أهل الرأى الصحيح والنظر السديد من الاور و بيين يراقبون الحركات السياسية الحرة تضطرب كالبحر جاشت غوار به من جانب الى جانب ، تحت وجه الاضطهاد وسطح الاستبداد . ولمازار المستشرق الكبير ارمينيوس ڤامبارى القسطنطينية ثانية سنة ١٨٩٦ دهش دهشاً عظيماً لما استبانه من التطور السياسى الحر الذى حصل خلال الحقبة المنقضية بين زيارته الأولى منذ أر بعين سنة من قبل ، وهذه . ومع ان القسطنطينية كانت مباءة الاستبداد الحميدي ، فقد كتب ڤامبارى فى شأنها ما يأتى : « قد انقضى المنزع القديم الذى كانت عليه تركية من قبل للحكم المطلق . كانت تبلغ مسامعنا ونحن فى أور و بة أشياء عديدة عن حزب تركية الفتاة ، وعن حركة دستورية ونضال سياسى ونفى وابعاد ، ونشرات وكتب ثورية . ولكن الأمر الذى يفوق خبره خبره هو هذا الاضطراب الهائل والتطور العظيم المنتشر اليوم فى جميع الطبقات الاجتماعية المختلفة ، مما يحملنا على الايقان ان التركى قد شرع يسير سير التقدم والارتقاء ، بعد أن انقضى الدور الذى كان فيه كل فرد من أفراد الرعية طينة بين يدى الخزاف العاتى المستبد وحزب « تركية الفتاة » وما أدراك ؟ انما هو الشعب بأسره والملة قاطبة [1] » .

وجدير بنا فى هذا الصدد أن نلاحظ بعين الاعتبار شأن الاضطراب الذى كان فى هذه الآونة يشتد اشتداداً سريعاً فى الأقطار الشرقية الخاضعة للسيطرة السياسية الأوروبية . عند ختام القرن التاسع عشر كانت الممالك الاسلامية الكبرى — المستمتعة بشئ من الاستقلال بمنجاة من السيطرة الغربية — أربعاً : تركية ، والعجم ، ومراكش ، وأفغانستان أما هاتان الأخيرتان فقد كانتا على جانب من الانحطاط والتدلى بحيث كادتا لاتعدان فى مصاف البلاد المتمدنة . وأما الأوليان فكانتا أرقى حالا ، ولذلك غدتا المضطرب الوحيد الذى يتوقع فيه نشوء الاضطراب وحركات الانقلاب السياسية الحرة المقاومة للاستبداد والجور . وأما البلدان الاسلامية الأخرى الخاضعة للحكم الأوروبى مثل الهند ، ومصر ، والجزائر ، فقد كانت بلغت من التهذيب والثقافة والارتقاء مستوى عالياً فيه من الكفاية مايبعث على القيام بالحركات السياسية الحرة المنتظمة ، والسعى وراء تحقيق المطامح الوطنية والآمال القومية ، ولكن يرافق جميع ذلك كره الأجنبى الشديد الشائع فى جميع الطبقات على السواء .

---

(١) سنة ١٨٩٨

وقد كان من أمر الحركات التى كانت قائمةً يومئذ فى تركية والعجم مقاومةللاستبداد أنهـا هاجت المطامح الحرة وأشعلتها اشعالاً فى نفوس المسلمين . بيدانه يجب الفرق التام بين أفقين كبيرين ظهرا فى العـالم الاسـلامى ابانئذٍ ، فرقاً هو من حيث اعتبار ماهيـة الحركات الوطنية والاطوار التى اجتازتها والغايات التى اتخذتها أهدافاً لها . أما جوهر السبب ومرماه فى الاضطراب السياسىّ الناشئ يومئذٍ فى تركية والعجم فقد كان حركات وطنية غايتها الاصـلاح الحرّ . وأما جوهر السبب ومرماه فى اضطراب الهند ومصر والجزائر فقد كان حركات وطنية غايتها الاستقلال . ولـكن لم يكن هناك من خطةٍ معينة مقررة تبين شـكل هـذا الاستقلال والصورة التى يراد أن يكون عليها بعـد مايتم الحصول عليه . وقد كانت هـذه الحركات الأخيرة بحقيقة الواقع أقرب الى أن تـكون قوميةً جنسيةً منها الى أن تـكون مكتسبة لصفة الاصـلاح الحركما فى الأولى ، فلذلك سنتـكلم عليها مسهباً فى فصل العصبيه الجنسيةالتالى . فجميع مايجدر بنا أن نعلمه ونعتبره فى هذا المقام هوأن القائمين بهذه الحركات هم فى الواقع أحزاب مؤتلفة متفقة على حطم النير الأجنبى ، والتحرر من رق الغرب . وكان رجال هـذه الأحزاب على مذاهب سياسية عديدة متشعبة ، يشتملون على الاحرار ، ودعاة العصبية الجنسية ، والجامعة الاسلامية ، والرجعيين ، حتى وعلى زعماء من العامة صلاب العود ، يؤثرون الرجوع الى عهد الاستبداد على البقاء فى حكم الأجنبى ومن المعلوم أن أتباع مذهب العصبية الجنسية مافتئوا ينادون بالـكلمة المألوفة « الحرية ! الحرية ! » المعنىّ بها عندهم التحرر من « ربقةالأجنبى » أو ان شئتَ فقل «الاستقلال» وفى هذا الموضع من البيان يجب ألا يغرب عن بالنا ان ليس هناك من صلة جوهرية تصل بين مذهب « الوطنية » ومذهب « الحرية » صلةً قريبة الجوار منهما . فأهل الطبقة العامة من الاسبانالذين صاحوا : الحرية الحرية ! لما هبوا يقاتلون جيوش نابليون ، عادوا فرحبوا بملـكهم الطاغية المزدرى ترحيباً ملؤه الحماسـة والغيرة المشتعلة ، واستقبلوه ، وهو يبجل الاستبداد ، بصراخ بلغ عنان السماء « لتحى السلاسل ! لتحى الأغلال ! »

واستمرّ دور ردّ الفعل الاستبدادى الذى أناخ بساحة تركية والعجم منذ أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٨ اذ انتهى سنتئذ آخر قسم من هذا الدور الذى اشتمل على ضروب الارهاق وصنوف البلايا . فانفجر فى كلا البلادين بركانالثورة ،

خلع الترك عبد الحميد المستبد ، وخلع أهل فارس محمد على شاه الطاغية الذى « جمع كثيراً من مشائن الفساد والجبن والحطة ، ولطخ عرش العجم بفاحش العار » . وحطمت الثورة فى البلادين أغلال الجور وقيود الاستعباد ، فانطلقت قوة الأحرار التى كانت تمتد وتشتد على التوالى تحت سطح الاستبداد ، فى الدور المنقضى ، وانتقلت كل من تركية والعجم الى دور جديد بزغت فيه شموس جديدة ، فأنشئ الدستور ومجلس النواب وسائر الأجهزة السياسية اللازمة لكل من الدولتين على الطراز الغربى الحديث .

أما التساؤل فيما يمكن أن يكون لهذين الانقلابين من حقيق الأمر وصحيح العمل فى تبديل الحال والانتقال بها من دور الى دور ، والقيام بتدبير شؤون الدولتين والنهج بهما على المناهج الحديثة التى يقدر لها أن تكون فى جارى الحال خالية من مفاسد الاضطراب الضار وطوارئ الحدثان . فهو ضرب من الجدال الفارغ لايفضى بصاحبه الى ادراك حقيقة يصح الاطمئنان اليها ، والسبب فى ذلك انه منذ شبوب نار الثورتين التركية والفارسية ، وقلب النظام الاستبدادى واعلان الدستور فيهما ، أخذ جوّ السياسة العامة يعتكر ويربد بالسحب السوداء ، وتتراكم فيه منذرات السوء ، وما زال هذا كالح الجبين حتى قصفت الرعود فأخذت نيران الصواعق تتساقط من سماء الحرب الكونية العظمى مطبقة العالم بأسره فلم يكن لتركية ولا للعجم بعد انقلابهما السياسى متسع تستطيعان فيه مراس التطور السياسى مراسا حقا ، ومؤالفة الحياة الجديدة . وفوق ذلك فقد وقف لهما الدهاة الغربيون بالمرصاد يتحينون عثارهما الذى لاجرم اذا عثرتاه ، والدور دور جديد يقتضى كثرة المران عليه . فكان غرض هؤلاء الدهاة المتنكرين بأثواب الساسة أن يرقبوا زلة الدولة بعض الشئ ، حتى اذا كان ذلك انقضوا عليها بنفوس شرهة ، وأفسدوا عليها عملها مااستطاعوا .

فلما فتقت الحرب العامة كان فتوقها فى الواقع انما هو تتمة للاعتداء والجور الغربيين اللذين كان قد بدئ فيهما منذ عدة سنوات .

فلذلك اذا اعتبرنا عدم استقرار الحال ، وأقمنا الوزن لتوالى الطوارئ العدائية على غير انقطاع ، أصبح البحث بدون قيمة جوهرية له تكشف عن حقيقة المسألة الكبرى التى أمعن البحثة فيها وقلبوا وجوهها ، وهى : أجديرة شعوب الشرق الأدنى والأوسط يا ترى أو ليست بجديرة بنيل الحكم الذاتى ، أعنى بأن تنشئ النظم الدستورية وتحيا الحياة

السياسية الحرة ؟ وقد اختلفت آراء البحثة فى هذا اختلافاً كبيراً . أما نحن فلم نذهب الى أن نبسط رأياً خاصاً ، بل آثرنا ايراد طائفة من الآراء والأقوال النافية والمثبتة ، دون أن نجنح الى تقرير خلاصة ما . بيد اننا قبل الشروع فى ايراد مانورده من الآراء المختلفة علينا أن نسترعى شديد الانتباه الى اعتبار ماهناك من الفرق والاختلاف بين حال الشعوب الاسلامية والشعوب الهندوية غير الاسلامية فى الهند . فان المسلمين قاطبة ، فى كل قطر من أقطارهم ، مثالهم فى الديموقراطية والشورى السياسية مثال أهل بلاد العرب ، اذ لهم دينهم الاسلامى الدينى ، باعتباره على الأقل فيما يختص منه بأبنائه ، دين منير يشتمل على المنازع الحرة العديدة . أما الهندويون فلا شىء من هذا فى دينهم ، فان تقاليدهم السياسية لم تبرح الى اليوم منغمسة فى حمأة الاستبداد الشرقى ، وخير ماسطره التاريخ بين دفتيه لهم هو قيام بعض الدول فيهم فى الأزمنة الخالية ، وهى دول استطاعت أن تحكم نفسها بنفسها حقبة قصيرة على نطاق ضيق محدود السلطان والسيطرة ، ثم مالبثت هذه الدول الهندوية أن ذهبت ريحها ، وأدال الله لغيرها منها ، فأدركها التلاشى والاضمحلال . وأما البرهمية ، أعنى دين الهندويين فالراجح انها أضر معتقد نشأ فى الارض ، بعيداً من الحرية الصحيحة التى يجب أن يكون عليها الانسان منفرداً ومجتمعاً ، وقصياً عن المساواة الاجتماعية ، فكان بلية حلت ببنى الانسان ، قاسماً المجتمع الى سلسلة لانهاية لها من الطوائف والطبقات المتقاطعة بفوارق لا تحصى ، المحرم على جميعها الاختلاط والامتزاج بعضها مع بعض فباتت كل طائفة تعد من دونها من الطوائف الأخرى غاية فى الدنس والرجس تكاد لا تفرق بينها و بين الأنعام السائمة . فالمعتقد الهندوى اذاً هو عائق كبير من شأنه أن يجعل أمر الحكومة الذاتية أصعب انشاء ومنالا فى الشعوب الهندوية منه فى الشعوب الاسلامية . فعلى القارىء الكريم أن يستوعب هذه الحقيقة ذاكراً لها فى سياق مايأتى من الكلام .

نعتبر الآن فى المقام الأول مقالات الذين يعتقدون أن شعوب الشرقين الادنى والاوسط ليست بجديرة اليوم ولا فى المستقبل القريب بنيل الاستقلال والحكم الذاتى على صحيح ما لهما من المعنى عند أهل الغرب . واللورد كرومر فى طليعة الفريق الذاهب فى الاعتقاد هذا المذهب ، لأنه يرى أن التقاليد الاستبدادية القديمة متأصلة فى الشرق ، صعب أمر استئصال شأفتها ، ولا سيما اذا ابتغى ذلك تاماً وريم حصوله فى مدة قريبة من الزمن ،

فقال : « ما برحت السياسات الشرقية منذ فجر التاريخ تعتورها الآفات القاتلة وينخر فيها سوس الفساد ، فلذلك لا يسعنا القول بامكان تلاشي الاستبداد واضمحلال طبائعه وأصوله في مدة قليلة ، لشدة تمكن ذلك في تربة الشرق قرونا وعصوراً . فبعيد هو اليوم الذي تصبح فيه عقائد الحرية المنظمة ، الواسعة النطاق ، حالة حلولا راسخاً في شعوب الشرق وأممه : لأن التطور والانقلاب لا يمكن أن تجنى ثمارهما الناضجة في عدة عقود من السنين بل في قرون .... فالواجب علينا اذا في المقام الأول أن نجتنب الاتيان بالأنظمة والقوانين الحرة ، الرحبة المجال ، الواسعة المدى ، لشعوب لا تستأهل جميع ذلك ، فتتمكن بسببه الفئة القليلة في كل شعب من الاستئثار بالحكم الجائر الفاسد ، فتعود الحالة شراً من قبل ، بل يجب علينا أن ننشئ نظاماً فيه من الخير والكفاية ما تستطيع كل طبقة أن تنال منه قسطها ، نظاماً قائماً على قواعد شريعة الاداب النصرانية . فلو افترضنا أنه من الممكن انشاء مجلس نواب مصري ، أعضاؤه منتخبون انتخاباً حراً ، لكان من الغالب أن هذا المجلس لا يتناول فيما يتناول من الاعمال اشتراع القوانين وسنّ الانظمة لمنع الاسترقاق على جميع ضروبه . ولو افترضنا أيضاً انشاء مجلس « الراجبوت » في الهند ، فهذا المجلس لا يكون من شأنه الاهتمام بالقضاء على العادة الكريهة ، عادة اقدام الأرامل على الموت في نار ذات لهب ، قياماً بعهد الوفاء لازواجهنّ . يؤخذ من هذا أنه يجب على الحكومة الصالحة أن تمهد الطريق وتقوّم السبيل أمام الشعوب الشرقية للوصول الى غايات وأغراض ممكن الحصول عليها على توالي الايام . فعلى الشرقيين أن يجتازوا كثيراً من التطور الصحيح المتدرج في أدوار الحياة السياسية ، قبلما يقتربون من أفق الحكم الذاتي التام ، مدركين غاياته وفضائله ومثله العليا حق الادراك » . وقال اللورد كرومر متشائماً : « يصلح الشرق للحكم الذاتي متى صلحت خيوط العنكبوت لتتخذ نسيجا يلبس » .

وبعد الثورتين التركية والفارسية ، كتب الكاتب الانكليزي الشهير الدكتور « ديلون [1] » يبين من الآراء ما يشبه كل الشبه تلك التي بينها اللورد كرومر في هذا الشأن ، فأعرب عن قليل أمله في أن تبنك الثورتين آتيتان بثمار طيبة ، وسخر بالمتفائلين قائلاً : « كأن الروح القدسية ستهبط على الحكومتين الدستوريتين الجديدتين من الملأ

(١) نيسان ١٩١٠ E.T. Dillon

الأعلى » ثم قال « ترى أتستطيع دساتير الحرية ولو سنتها أعظم قوة بشرية فى بلاد لا أثر للصناعة فيها ، أن تزحزح شيئا من جبلات أهل تلك البلاد وتغير من غرائزهم وأخلاقهم وتقاليدهم الموروثة منذ الحقب المتطاولة تغيراً ذاهباً بالقديم الفاسد وآتيا بالجديد الصحيح ؟ اللهم لا . فجميع ما فى الأمر أن هذا الانقلاب فى تركية وفارس لم يشتمل بحقيقة واقعة على شئ سوى تبادل طلئ الأقوال وبهرج الكلام وأنيق الخطب ، الأمر الذى ليس به تنقلب الحال الراسخة منذ القديم انقلابا لامراء فى حصوله بالحقيقة والفعل . وتدل الدلائل الظاهرة على أن فارس ليست على شئ من الخلقة والجدرة لنيل الحكم الذاتى » ثم قال فى موضع آخر : « وصفوة القول أن غاية ما حصل انما كان مقصوراً على اتخاذ طائفة من الأسماء الجديدة بديلا من غيرها لبعض الاشخاص والمسميات بحيث يتراءى للناظر أن هناك شيئا جديداً وما هناك فى الواقع سوى القديم المعهود . أما الفوضى فما برحت ضاربة أطنابها الى ما شاء الله وأما قضية القيام باعانة الحكومتين الجديدتين الاعانة المالية فليس بالمستطاع ، لأن المتمولين الأجانب لا يرون من الحكمة فى شئ أن يقرضوا أموالهم ليبذرها العابثون الذين هم فى بلاد غير مستقرة الحال كتركية وفارس أشبه بفقاقيع الماء تطفو لحظة ثم لا تلبث أن تختفى وتتلاشى . »

وكتب موظف استعمارى من الفرنسيين (١) يصف أهل الجزائر وغيرهم من المسلمين فى مستعمرات افريقية الشمالية الخاضعة للحكم الفرنسى يقول : « ينبغى لهذه الشعوب التى فى مستعمراتنا أن يحكمها غيرها ، لأنها صبية دون اليفاع فلا تستطيع ادارة شؤون نفسها بنفسها . فيجب علينا أن نقودها السبيل قيادة ثابتة شديدة ، وألا نتخلى عنها تاركينها وشأنها لئلا تعثر عثرة كبيرة ، وألا نتوانى لحظة فى سحق من فيها من المفسدين وأهل الكيد والسجس (٢) ، من حيث يجب علينا أيضا أن نحميها ونذود عنها ونقوم على تدريبها قيام الوالد على شؤون أولاده فنتناولها بالسطوة والسيطرة بيد ، وبالترقية والتعليم بالأخرى ، ونكون لها مثالا حسناً فى التفوق الأدبى الصحيح . وفوق كل هذا يجب علينا الاقلاع عن التمويه الباطل والمزاعم الفارغة الخلابة . فليكن رائدنا

---

(١) أ . مرسيه . كتابه « القضية الوطنية » باريس ١٩٠١ E. Morcier - "La Question Indigène"

(٢) الفساد والكدر (الناشر)

الاخلاص فى سبيل مصلحة فرنسة ومصلحة أهل البلاد كذلك . »

وقد استاء كثير من أهل الرأى ، وجلهم من الموظفين الأجانب فى الحكومات المستعمرة مما شاهدوه من النهج المختل الذى ينهجه الشرقيون فى الطور الأول من الحكم الذاتى ، طور المران والمراس على يد التجربة ، وذلك كالمجالس الاستشارية التى تجيز الحكومات الأوربية لأهل البلاد انشاءها ، فيتخذونها ميادين سياسية يتذرعون بها لانتياش السلطة من أيدى المسيطرين انتياشاً مجاوزين فى ذلك حدود نطاق ما أعطى لهم قال اللورد كتشنر فى تقريره الموضوع سنة ١٩١٣ فى شأن مصر : « ليس فى المستطاع تنشئة الهيئات النيابية وترقيتها خير ما يكون ، مالم تؤكد صفة الحال الراهنة ان هذه الهيئات هى من الاقتدار الصحيح بحيث تستطيع القيام بوظائفها التى بين يديها حق القيام وان هناك كبير رجاء فى أنها كلما اتسع نطاق الاعباء الحكومية أمامها وانفسح لها مجال لمراس الشؤون الخطيرة الحيوية ، ازدادت حنكةً وخبرة واقتداراً ، فلذلك ان وجدت الحكومات النيابية وهى على أبسط أشكالها وفى أول أطوارها غير مقتدرة على العمل والاجراء ، وغير متنكبة المداحض والمعاثر ، قل الأمل اذ ذاك فى أن تكون من الجدارة بحيث تحسن القيام بمهمتها الكبرى ، متى ما غدا مجال شؤونها أوسع ونطاق المهمات أبعد مدًى . فعلى هذا الاعتبار ليس من حكومة وفيها مسكة من العقل تعتزم توسيع نطاق المجالس الاستشارية وتخويلها سلطة أقصى أمداً وأبعد نفاذاً من بعد مابدا من قصور هذه المجالس عن احسان القيام بما قلدته من الوظائف والأعمال احساناً داعياً للرضى والارتياح » .

أما الذين يقومون باشعال الاضطرابات الوطنية فى بدء الأمر فأهل الطبقات العالية من أهل البلاد والمتهذبون على الطراز الغربى ، ثم يأخذ الجمعان معاً يهيجون سواد الشعب الجاهل ويلهبون صدوره إلهاباً ، فى حين انه كثيرا ما يكون على حال من الهدوء والسكينة راضياً عن شأنه مكتفياً بما يتناوله من المرافق والمنافع فى ظل الحكم الأوروبى [١] . منذ

---

(١) لا والله قلما يكون هذا الشعب راضياً عن الحال التى هو فيها تحت الحكم الاوربى ولكن العامة لا تقدر أن تقوم بشىء من نفسها مالم يتقدمها النبهاء والطبقة الراقية . فمن عادة الأوروبيين المستعمرين ان يزعموا فى مثل هذه الحالة ان الشعب كان راضياً ساكناً ساكتاً مغتبطا لا يطلب سوى استمرار الادارة التى هو تحتها ، فجاء نفر من الأعيان أفسدوا قلوب العوام والفلاحين وحملوهم على الثورة أو النفرة ، فان

سنوات معدودات قال أحد كبار المبشرين الاميركان (١) فى الهند بعد اختبار طال معظم حياته فى تلك البلاد : « يغلب أن يكون الشعب الهندى اليوم أكثر ارتضاء بحكومته منه فى أى يوم خال . أما العلة الحقيقية فى استثارة روح السخط والغضب انما مصدرها الطوائف والطبقات العليا . فلو ترك المستثيرون عامة الشعب وشأنهم ، وكفوا عن هياجهم وتحريضهم ، وجلبهم واستصراخهم ، لبات أهل الهند أشد شعوب الأرض إخلاصا ووفاء . غير أن أهل الطبقات الراقية المتهذبة المشتعلة صدورهم بنار المطامح السياسية الحديثة ، الذين لن يناموا بعد على ما ناموا عليه من قبل ، ولن يكون لهم قبل باحتمال الضعة والا كتفاء بالمراتب الدنيئة الحقيرة التبعة ، وبالوظائف القليلة الشأن والمنفعة . . . . فهم يكادون لا يعتبرون شيئاً من قدر الحكومة التى تسلم اليهم مقاليدها ويولون مناصبها وكراسيها على التوالى . بعد جميع ذلك فليس من مرادهم الوقوف عند حد الا كتفاء بنيل الأنظمة الدستورية النيابية التى توسع نطاق اشتراكهم فى حكومة بلادهم ، بل انهم اذ ذاك لطلاب الاستقلال بشؤون حكومتهم بأسرها استقلالا تاما لا يعتريه نقص ولا يشوبه شائبة . فالبرهمى (والبراهمة خمسة فى المئة من مجموع السكان) كان يعتقد انه هو ذو المقام الأعلى وابنُ الطائفة التى اختيرت من لدن الاله لتحكم البلاد ، فيحمله ذلك على أن يمسك عن الآخرين حريتهم ومالهم من الحقوق على اختلافها . و « السودرا » (أهل الطبقة الرابعة الدنية) كانوا لا يرضون بأن ينتخبوا أحداً من أهل طبقة « البارياه » (سفالة أهل الهند) . ومازالت الحال هكذا حتى جاءت الحكومة البريطانية فقضت بالتساوى فى الحقوق والواجبات وجعلت أهل الهند عامة وخاصة دون اعتبار الطوائف والطبقات على مستوى اجتماعى متماثل ، هذه هى الحالة حتى اليوم » . عند هذا تبدو المحاذير جة باعثة على

كان هؤلاء الأعيان من شيوخ الدين أو الطبقة المسلمة المتدينة ، كان هذا من أثر التعصب الاسلامي ، والحرب المقدسة وتعليم القرآن أو دعوة الشيخ السنوسى أو التيجانى أو الشاذلى الخ ، وان كانوا من طبقة المتعلمين بأوربا والناشئة الجديدة الذين لا يمكن اتهامهم بالدعوة الدينية كانوا من أولئك الطامحين المتطالين الى الوظائف ذوى الاغراض الشخصية ، أو من الوطنيين الذين قد « قرأوا أشياء أساءوا هضمها » تلك الجملة المخصصة ــ فى لغة الاستعمار ــ لكل فئة شرقية متعلمة على النسق الأوربى لكنها متمسكا باستقلال وطنها . (ش)

(١) سنة ١٩١٠

الاختشاء . ذلك أن يعود الاستبداد الاوليفارقى [١] فينشر فى الهنـد متى ما حررت من الحكم البريطانى تحريراً تلاه قيام البراهمة وقبضهم على أزمة الأحكام . ولم ينفرد أرباب الرأى الغربيون فى تصـديق هـذه المحاذير ، بل شاركهم فى ذلك عـدد كبير من أبناء الطبقات الهنـدوية الدينيـة المعروف مجموعها « بالطبقات المضطهدة » فأخـذوا يقاومون الحركة الوطنية الهندية خشية أن يضيعوا ما هم متمتعون به اليوم من الحماية والرعاية فى ظل حكم «الراجا» البريطانى ، وهم على اعتقاد ان الهند لم تبرح قاصرة عن نيل الاستقلال الصحيح ، فيجب عليها أن تدأب أجيالا فى سبيل العـلم والتهذيب والارتقاء والاصـلاح الاجتماعى دأباً متوالياً حتى تغدو من بعده جديرة بنيل الحـكم الوطنى « هوم رول » [٢] وقد أنشأوا لهم جمعية كبيرة سموها « الناما سدرا » غايتها موالاة التاج البريطانى ومقاومة الحركة الوطنية .

قال الدكتور « ناير » [٣] زعيم هذه الجمعية مبينا غايتها وغرضها : «الديموقراطية باعتبارها كلمة سائرة وعبارة مألوفة ، قد ذاعت فى الهنـد قاطبة وجرت على لسان كل انسان ، غير أن مدلول الـكلمة ، أعنى روح الديموقراطية الصحيحة ، لم يزل مجهولا فى هذه البلاد جهلا شديداً . فلذلك ليس من المتوقع أن نرى فى مدة قليلة الديموقراطية بحق معناها قد نشأت فى الهند نشوءها فى الغرب ، لأن تعصب الطوائف ذلك التعصب القاتل هو حائل دونها الى ما شاء الله . . . ليس من مرادى ان اتهم طائفة مخصوصة دون أخرى بمضايقة الطوائف الوضيعة والازدراء بها ، بل جميع الطوائف والطبقات العليا انما هى فى هذا الأمر المستنكر سواء . فالبرهمى لن ينفك يضايق كل من ليس ببرهمى ، وكذلك شأن كل فرد من أهل الطبقات العليا غير البراهمة الذين لم يعدلوا عن مقت جميع من دونهم طائفة وطبقة ... نحن نبتغى ديموقراطية صحيحة لا حكم طبقة ممتازة مستبدة ، اذ عن هذه الأخيرة نحن معرضون ، ولها مقاومون ، ولو رفلت مارفلت بحلل من مزخرفات الأقوال والعبارات فان قيض لها أن تعود فتنشأ ثانياً فهى باقية من بعد ذلك الى الأبد . . . اننا وايم الحق لنؤثر الديموقراطية الآجلة البعيدة على نيل هذه الاوليفارقية العاجلة . ونحن أ كثر ثقة

---

(١) حكم تستأثر به فئة مخصوصة من الأمة (٢) Home Rule

(٣) تشرين الأول ١٩١٨ Dr. Madavan Nair

بالحكم البريطانى منا بالاوليفارقية المستبدة التى شأنها معروف فى أهل الطبقات العليا الذين كانوا على الدوام قائمين على مضايقتنا والنيل منا ، وهاهم اليوم يسعون فى سبيل الرجوع الى ماضيهم لولا الحكومة البريطانية فموقفنا هذا اليوم هو موقف دفاع عن كياننا ، وذياد عن بقائنا ، لا يخدعنا عنه أمل كاذب ولا مرتجى خير بعيد المنال »

وهناك كثير من المسلمين والهندويين الذين يعلمون أن الهند لم تغد للآن نضيجة للحكم الذاتى ، وانه اذا ماأخذ ظل السلطة البريطانية يتقلص ، سواء فى المستقبل البعيد أم فى المستقبل القريب ، لأصاب الهند من جراء ذلك شر بلوى . فلذلك لايتردد المسلمون الموالون للتاج البريطانى فى الدعاء على القائمين بالحركات الوطنية بالويل والثبور ، لأسباب جلاها أحد زعمائهم السيد « خوجه بوخش »[1] بقوله : « سواء كنت أحسنت صنعاً أم أسأت ، فانى لم أبرح معتزلا مزاولة الشؤون السياسية لهذه المدة الأخيرة . غير انى لم أحل عن اعتقادى قيد شعرة انه يجب علينا أن نجهد فى سبيل ترقية مستوانا الاجتماعى والعقلى والأدبى أضعاف مانجهد فى سبيل تحقيق ماتبتغيه من الغايات والمطامح السياسية . إنى لشديد الاعتقاد ان فى انصرافنا عن السياسة الى ترقية سائر أحوالنا وشؤوننا الضرورية لنا بطبيعة هذا العصر ، لخدمةً جليلة فى سبيل مصلحة بلادنا . . . . ليست جميع قضيتنا مقصورة على أن يكون فى الهند فئة قليلة هى وحدها مسلحة بسلاح العلوم والتهذيب الغربى ، بل قضيتنا بجملتها تقتضى أن يكون سواد الشعب على مختلف المراتب والدرجات من العلم بماهية مصالح البلاد والشعور بخطورة أمرها بحيث يكون له من ذلك حامل صحيح على خدمتها والمفاداة فى سبيل صيانتها وترقيتها . فان الفئة المتهذبة الراقية ، وهى أقل من القليل ، لايتألف منها ذلك السواد الذى يجب علينا أن نقوم بترقيته وتهذيبه ، وتربيه وتثقيفه ، ورفعه الى المستوى الذى تصبح عنده عقائد التضحية الوطنية راسخة فى النفوس إننا ، وأمرنا ظاهر ، لم نبلغ هذا المستوى بعد ، ومادمنا دونه وغير والجبن أبوابه لجميع مافى صدورنا من الآمال ، وما نجهده فى المواضع الأخرى ، هو طلب باطل وسعى على غير ماجدوى . زد على هذا أن الفئة القليلة المتهذبة فينا لم تبرح وليدة فى المهد من حيث ماهى عليه من المران السياسى الحديث . أجل ، يجب علينا أن نتعلم قدسية المبادىء الوطنية

(١) محاضراته : « الهند والاسلام » لندن ١٩١٢

وتسديد الخطى فى نهج المناهج الصادقة . وليس لنا من مرتجى فى ترقيـة مستوى آدابنا الخاصـة والعامة ، مادمنا لانربأ بنفوسنا عن افناء المصلحة العامة ، وتضحيتها فى سبيل المصلحة الخاصة » .

لحرى بمثل هـذه الأقوال والتصريحات التى يوافق عليها كثير من أهل البلاد أن تسترعى سمع عدد كبير من رجال الرأى ، حـتى من عظماء الأحرار الانكليز المزاولين للشؤون السياسية الهندية ، وأرباب الاعتقاد الراسخ أن الهند تزداد استعداداً متوالياً للحكم الوطنى ، حتى يأتى يوم تغدو فيه جديرة بنيل الاستقلال التام . قال أحد هؤلاء الأحرار ، « ادوين بيفان[1] » : « متى ماقام أرباب الحركة الوطنية من أهل الهند يطالبون بالحرية فما يعنون بهذا الا الحكم الذاتى الذى يبتغون على يده التحرر من ربقة الأجنبي . فينبغى أن نجيبهم كما أجبناهم[2] : نعم حكما ذاتياً ستعطون و به ستتمتعون ، انما ذلك على شريطة واحدة ، هى أن تكون الديموقراطية مصاحبة للحكم الذاتى . اننا لنتخلى لكم عن الحكم عند مانرى فيكم شعباً هندياً يستطيع أن ينزل أمراءه وحكامه الوطنيين على أمره وكلمته . ولكننا لن نتخلى لكم عن الحكم هـذا مادمنا نعلم ان من ورائه نشوب الاوليغارقية وانتشارها . هذه علة الخلاف بين من يقولون بوجوب منح الهند الحكم الذاتى عاجلا ، ومن يقولون بأن الهنـد غير نضيجة له حتى اليوم ولكنها آخذة بالاستعداد المتزايد لتصبح يوماً جديرة كل الجدارة بنيل الحكم الذاتى والاستقلال التام . أما الفريق الأول فيعنى بالحكم الذاتى أن يحكم الشعب الشعبَ وهو يرى من الواجب أن تمنح الهند حكما ذاتياً فى المستقبل القريب . ويقول الفريق الآخر : اذا ارتفع الحكم الأجنبي وزال للحال ، نشأت عـدة حكومات على أثر ذلك على جانب من العيوب والنقص ، فتعود الفوضى والاضطراب منتشرين فى الهند ، وفوق ذلك ان تكون هـذه الحكومات ديموقراطية بل استبدادية يجور فيها القوى على الضعيف »

هـذه صفوة آراء النقـدة الغربيين والشرقيين الذين لايقولون باستئهال شعوب الشرقين الأدنى والأوسط اليوم ، ولافى المستقبل القريب ، للحكم الذاتى . ثم نأتى الآن على

(١) E. Bevan من مقال له « الاصلاح فى الهند » ١٩١٠

(٢) أى توسيع نطاق الحكومة الذاتية الممنوح للهند على مقتضى تقرير « مونتاغو ــ شلمز فورد » .

ايراد آراء الفريق الآخر وأربابه من أهل الانصاف والتفاؤل ، الذين يقولون ، مؤيدين قولهم بالحجة والبرهان : ان المنازع الحرة فى الاسلام انما هى خير أساس يصح أن تبنى عليه الأنظمة السياسية الحديثة تامة الأجهزة وافية بمقتضيات الحضارة والعصر . قال الحجة الثقة أرمينيوس ڤامباري : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية ــ الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فان كان العالم قدشهد حقاً ، منذ أول عهد العمران البشرى الى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » وقال محقق انكليزى كبير[١] خبير فى شؤون الشرق الأدنى :

« ان بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار[٢] فى شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم ان تركية لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابة بعد الثورة . انما ذلك وهمٌ شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة الى انشاء الحكومة النيابية وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، ان النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركية انما هى أفضل اس يشيد عليه الحكم النيابى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترىء بعضهم بعضاً فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هى ديموقراطية وشورية بطبائعهاوجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . وباعتبارها شريعة أساسية ، فن شأنها اذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها اغراقاً فى التدلى من ادراك معنى الشورى والدستورى والنظام النيابى » . ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم «ديوان» وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء

---

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) A. H Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة ، وامداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلا حتى أنشئ فى العهد الاخير مجلسان الاول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء [1] ، زد على هذا فقد أنشئ مجلس نواب مرتين الاولى فى سنة ١٨٧٧ والاخرى فى ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا اذ قضى عليهما الاستبداد الحميدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النيابى . » وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : «فلذلك يجب الا يعتبر اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن الى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شصطر الأميركى ليقوم بتنظيم الشؤون المالية فى بلادها فلم يطل مقامه فى فارس الى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الادارى الكبير مبيناً استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسى لانشاء النظام الدستورى وهو متفائل فى ذلك كل التفاؤل :

« انى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيباً لأمة مثل مايحوى من ذلك للأمة الفارسية التى انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة الى دور الحكم الدستورى النيابى ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يدل على أن أمة ذات مقام عال فى الحكمة السياسية وفى معرفة أصول الاشتراع الى حد يكاد لايصدق [2] أما أعضاء المجلس

---

(١) كنا مرة نطوف فى قصر طوب قبو (مقر السلاطين فى الاستانة قبل بناء طولمه بغچه و يلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراؤه كل يوم للنظر فى أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم فى هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحدهم . فدخل مرة زعيم قادم من الاناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكار مزكيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لاتزال الى الآن (ش)

(٢) ومن فى الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسية واستعدادها للرقى ، وهى الأمة المتمدنة منذ آلاف من السنين التى اوتيت فى العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله أمة من الأمم (ش)

النيابى الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشئ المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً فى تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله فى حرز حريز من طوارئ الاستبداد . . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع مايسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء .

« وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى اعرف اعضاءه معرفة شخصية صحيحة ، فما كان على كل حال ليعد فى رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الامبركى . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، فى بلاد استطالت رقدتها اجيالا ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدبير أمورها على نمط تضاهى به الحكومات التى انقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقاً . لاينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج الى كثير من المعارف الاكتناهية فى كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة ، بيد ان الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف معتبراً هو أن هذا المجلس النيابى الفارسى يمثل حقاً رأى الامة الفارسية ، وبه نوطة جميع أمانيها ومبتغياتها التى تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم والرأى السديد والشجاعة الحقة . يحنون أضلاعهم على قلوب تتضرم اخلاصا ووطنية ، يبحثون بجد وعزم فى كل مقترح وطنى وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص فى الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية واذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخلص ، يمحضونهم الود ويجعلونهم موضع ثقتهم ومحقق آمالهم ويفوضون اليهم أمور التنظيم ، هذا اذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكايد السياسية والرشوة ومبادلة الامة الفارسية الود والاخلاص ، والصدق فى الاقوال والأعمال

« وليس من العدل ولا الانصاف فى شئ أن يقال ان المجلس النيابى الفارسى قاصر عن المجاراة الحقة فى ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الازر وامته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يبتغى جواز نطاقها بغير حق ، واعضاؤه أبداً على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة فى سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها واعلاء شأنها .

« اما الامة الفارسية فليست على مستوى تتناوله صفة عامة . فالسواد الاعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة فى الممالك الراقية فيعدون بالمئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والاخذ عن الحضارة الاوروبية . وهم هم الذين قاموا بدك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديموقراطية خفاقاً ، بعد ان ذللوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدى الحكومة التى انشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفى من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير لارتشاف العلوم والترقى خلال السنوات الخمس الاخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وانشئت الصحف الحرة فانبرى حذق الكتاب شارعين اقلامهم يهدون الامة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر فى الامة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والادبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الامة بامرها بتلك الروح الاسيوية التى ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة الى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعا فى انشاء الجمهورية الصينية »

ثم انهى المستر شسطر كلامه قائلا : « قد صاح الكاتب الأشهر (رديارد كبلنغ) ناصحاً مراراً ان الشرق لن يطيق بعد المناخس معملة فى جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوماً مقاومة رجعية عظيمة . ولكن باستطاعة رجال الغرب ، اذا تذرعوا بالفضائل الغربيـة وغايات الحضارة الأوروبيـة الصحيحة أن يستسرعوا الشرق فى سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون ان ذلك هو لخيرهم ومصلحتهم. على ان الحق الذى لايمارى فيـه ان روح التضامن الأدبى والعزة القومية والعصبية الجنسية جميع ذلك قد غدا شـديداً فى الشرق شـدته فى الغرب ، فبات الشرقيون بسبب ذلك صعاب المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا مادامت أوروبة سائقة لهم فى سبيل واحـد غايته ابتزازهم لملء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها[1] »

حقاً ، يعتقد كثير من الأحرار الغربيين ان التسلط الأوروبى ليس من شأنه أن

(١) shuster كتابه : « خنق العجم » The Strangling of Persia

يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتى والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهما كان [١] بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار ان الطريقة الوحيدة المثلى التى أهل الشرق أحرى بتعليمها والتدرب عليها ، هى أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرّج ذاتها بذاتها عليه ، وقد أجاد « ليونل كرتس [٢] » الكاتب الانكليزى الذائع الصيت ايما اجادة فى جلاء هذا القول وتصريحه فى كلام له فى شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التى جاء بها الحكم البريطانى ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطرا كبيرا و بلية ايجابية ، مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً . ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتيـة الا فى حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافى حيز النظر والتصور والخيال .

« قد يقول بعضهم انى لجوج فى طلبي الذى يبنت فيـه انه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلا صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية الى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة الى هـذه الحكومة الفتية وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لاعطف الظئر المأجورة التى سـواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ماأريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتى وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى . فان لم

---

(١) جميع المسيطرين الاورو بيين فى الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدنيوى وان يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون الفنون التى فيها . وان ماجاهدته مصر فى أمر توسيع الميزانيـة لوزارة المعارف وتـكثير المدارس بعلمه الخاص والعام ، ومع هـذا فـكان المحتلون يقيمون فى وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . اما فى الجزائر فابقاء الاهلين فى الجهل وحرمان أطفالهم من الـكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك

(٢) كتابه : « رسائل الى أهل الهند فى شأن الحـكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)
Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government..

يكن هذا ، فليس من سبيل اذاً لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بانها مسؤولة لدى الشعب الذى هو من ورائها حتى ولا الشعب يستطيع على هذه الحال ان يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء ارادته حكماً ذاتياً لايتسنى له الوصول الى غرضه السامى وغايته الكبيرة الا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال وربما الى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

«انى لأفخر فخراً كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى الى الهند من الخير والنفع ، من انشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بان الحكومة المنتظمة ماأعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لاأعتقد ان النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد ، دون أن ينقلب الى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى الى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ماحملناه على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص .

«يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لايتم الا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل الى نطاقهم نقلاً مزداداً . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوساً على المقاعد .

«لاوصول الى الغاية التى بينها حديثاً وزير الهند [1] الا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول الى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ، والانتهاء الى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الالتئام مع ماهو معروف لنا من التقاليد . وان مابقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا » .

---

(١) اشارة الى الغاية المبينة فى تقرير مونتاغو ــ شلمزفورد من منح الحكم الذاتى

ان كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ماهو واقع اليوم فى الهند كما فى سائر الأقطار الشرقيــة . ان الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا مقبض أوروبة على الشرق مسترخياً استرخاء متوالياً يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لامردّ له ولا مدفع ، ممـا يدل على انه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغـدو غالب الدول الاسلامية فى الشرقين الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه . اما التساؤل أتسئ هذه الشعوب التى ستصبح حرة ، اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أو تفلح حقاً عالية الجبين فى انشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هـذه فى طريق التقدم والارتقاء ذلك أمر سيكشفه المستقبل . واذ قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق التطور السياسى ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر فى هذا الدور دور التحول . وننتقل للـكلام على العصبية الجنسية .

اللورد كرومر

للأمير شكيب

ان هذا الرجل المسمى باللورد كرومر [١] يصح أن يكون مثالا للاوربى المستعمر المتسلط الذى تنحصر سياسته فى تذليل جميع العقبات القائمة فى وجه استيلاء أمته على قطر من الأقطار الشرقية ، ولما كان ميدان عمله مصر وكان لايمكن أن يجرى فيها من ضروب الاستبداد الاستعمارى بقوة السلاح مايجرى فى السودان أو الصومال مثلا ، لجأ فى الاستئثار بأمر مصر الى الجدل واقامة الأدلة على كون مصر وكل بلاد شرقية أو اسلامية لاتصلح للحكم الذاتى ، ولا يجوز أن تخلو فى يوم من الأيام من السيطرة الأوربية . ولأجل أن يعلل وجوب هذه الديمومة الاستعمارية التى لانهاية لها ، حال كون كثير من المستعمرة الأوربيين يجعلون الأمد بينهم و بين حرية البلاد التى استولوا عليها وصول هذه الى درجة الكفاية والأهلية للحكم الذاتى كان يزعم هو أنه لايمكن وصول شعب مسلم الى درجة كهذه أبداً لموانع قائمة فى طبيعة الاسلام نفسه ، وكان مقام اللورد كرومر فى انكلترة بسبب كونه هو الآخذ بزمام مصر يجعل له كلمة نافذة وقولا مسموعا،فكان كل سنة يصدر تقريراً ينطف سما على مصر وعلى الشرق وعلى روح الاسلام ، ويتلقى الناس ذلك منه أنه نتيجة خبرة طويلة ومعاركة دهر فى بلاد الشرق،ويحفلون بكلامه ويتخذونه دستوراً.والحق انه لم يكن الا عبارة عن رجل مستعمر مستبد عدو للشرق عموماً وللاسلام خصوصا يتأجج بغض الاسلام فى قلبه نظير ماكان عليه غلادسطون ، وأخيراً ظهر عدوانه هذا بكل جلاء فى حادثة « دنشواى » التى تغلب فيها هواه على مهارته ، فكانت سبب سقوطه وصرفه عن مصر ، فانتقم لنفسه بتأليف كتاب خاطرات حمل فيه على الاسلام حملة شديدة . وان جميع مايدعيهذا الرجل وأمثاله من عدم قابلية الشعوب الشرقية للرق ، ان هو الا من الاستدلالات الاستعمارية التى مرماهم فيها معروف ، وهو أن يجعلوا حكمهم لهذه الشعوب سرمداً ،

---

(١) انظر صفحات ٥١و٥٢ وما بعدهما من هذا الجزء

لانه صار يصعب عليهم ترك هـذا الحـكم برضاهم بعد أن ذاقوا لذته وجنوا ثماره . جاءنى مرة وأنا منذ سنتين فى برلين اثنان من سفارتين من سفارات الانـكليز الـكبرى فى أوروبا يريدان أن يباحثانى فى المسائل الشرقية ، فـكان من جملة ماقال لى أحدهما : قل لنا بشرفك هل تعتقد كون هذه الشعوب الشرقية القائمة كلها يطالب الاستقلال هى أهلا له . فأجبته : قل لى بشرفك هل بلاد اليونان منذ قرن والبلغار منـذ ٤٠ سنة والجبل الاسود والصرب كانت أرقى مما هى مصر وسورية وتونس الآن ؟ فلماذا يطلب لتلك الاستقلال مع مساعدة جميع أوروبا وأثناء تصفيقها وابتهاجها وينـكر على هذه بحجة أنها لم تصل الى درجـة الـكفاءة . . . .

قال الانـكليزى : أفـلا تعترف بعوننا أقدر على ادارة مصر من أهلها وان وجودنا فيها أضمن لمرافقها المادية . قلت له : أفلا تعترف بأن النمسا أقدر على ادارة يوغوسلافيا من الصرب وانها أرقى بدرجات من الصرب ؟ أفلا تعترف بأن النمسا هى التى هذبت ورقت مستوى جميع تلك الامم التى انسلخت عنها بمساعدتـكم ؟ أفلا تسـلم بكون الرومان الذين كانوا فى المجر هم أرقى من رومان نفس رومانيا وان حكومة بودابست هى أعـلى مراراً من حكومة بخارست ؟ أفلا تقر بكون الالمان هم أقدر من البولونيين عـلى ادارة سليزيا العليا ؟ وان مرافق سليزيا العليا تـكون تحت ادارة المانية مضمونة أكثر مما تـكون تحت ادارة بولونية ؟ فلماذا اذا سلختم يوغوسلافيا عن اوستريا وترانسيلفانيا عن المجر وقسما من سيليزيا عن المانية ؟ ربما تقولون لملاحظات أخرى وطنية واعتبارات قومية لابد منها اذ كل أمة لها حق فى أن تدير نفسها بنفسها فلماذا هذه الاعتبارات القومية والوطنية تبقى مرعية مادامت فى أوروبا فاذا كانت المسـألة فى الشرق لم يبق هناك من سبب يجب اعتباره سوى حسن الادارة ؟ قلت له : أنا لا أشـك فى انه لو استولت المانية على استونيه أو ليتوانيـه أو لتونيه لادارتها أحسن مما يديرها أهلها اليوم ، ولو استوليتم أنتم عـلى البرتغال لـكانت حال البرتغال المالية والادارية أحسن منها فى أيدى البرتغاليين وهـلم جرا ، أفتسمح أوربا لالمانيه بحجة عـلوية الادارة أن تستولى على بلاد البلطيك أولـكم بأن تستولوا عـلى البرتغال ؟ لاأظن ذلك . فلماذا بحجة أفضلية الادارة تتمسكون بالبقاء بمصر ولا تنظرون الى ماهنالك من العوامل القومية والوطنية ؟ ولماذا جمهورية اريفان الارمنية تستحق الاستقلال

وكرجستان هي أهل للحرية ، ومصر وسورية لاتستحقان الاستقلال ولا الحرية؟ أترى اريفان هذه بل كرجستان أرقى من مصر أو سورية أو العراق أو تونس ، كلا . فلماذا تحلونه عاما وتحرمونه عاما . وأغرب من هذا أن آذر بيجان التي هي أرق جداً من اريفان لم تجد دولة من دول أوربا طلبت لها الاستقلال وهن باجمعهن يطلبنه لاريفان . مع أن اذر بيجان أربعة ملايين واريفان أربعمائة ألف وأذر بيجان متمدنة واريفان بجانبها تعد متوحشة . وكذلك جميع الدول مهتمة بدفع البولشفيك عن اريفان وكرجستان وليس من واحدة تطلب دفعهم عن اذر بيجان والطاغستان هل في ذلك سبب الا كون الأولين مسيحيتين والاخريين مسلمتين ؟ افبمثل هذا العدل وهذه المساواة تطمع أوربا أن يكون بينها و بين الاسلام سلام ؟ فلما لم يجد على كلامي جوابا يليق برجل عاقل دخل في واد آخر وقال : طالما قيل لنا عن ذكائك وقوة حجتك الخ (وأخذ بالتقريظ والاطراء) فالآن صدق الخبر الخبر . وبالجملة فلا يظنن ظان أن كلام اللورد كرومر وأمثاله هو كلام ناقد خبير مجرب في ادارة الشرق يتكلم بخلوص نية ونقي للغرض بل هو كلام ناقد خبير بادارة الشرق على الاسلوب الذي يضمن بقاء السلطة الاوربية و يزيد دخل الاستعمار المالي ويقتل العواطف الوطنية ، ويقوى حس الافتتان بالتفرنج و يصرف الشرقيين عن المطالب القومية . والذي يقال دائما هو أن اللورد كرومر خدم أمته أجل خدمة وأنا أقول انه مهما جلت خدمته بالاخلاص لقومه فخدمته للشرقيين بما ظهر من تعصبه وسوء نيته كانت أجل وأعظم

العرب ديمقراطيون

الأمير شكيب

ليس من عادة العرب قديما ولا حديثا التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لامرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لايخاطبونهم بالالقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التى يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم الا بمجرد اسمائهم . وانما كانوا فى أيام الخلفاء بدأوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لاغير . فكل مادخل فى العربية والعرب من ألقاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم. ولا يزال أهل البادية ـ الى يومنا هذا ـ ينادون شيوخهم وأمراءهم بمجرد اسمائهم، فاذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : ياأبا فلان . هكذا يخاطبون الملك ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل بن الحسين مؤخرا وهو بدمشق فيخاطبونه دائما : ياأبا غازى . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هى الديموقراطية الصحيحة . وكانوا فى العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب : «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» . وكان الاحنف يقول لمعاوية : «والله يامعاوية ان السيوف التى قاتلناك بها لهى فى اغمادها» . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال : «أيها الناس اتقوا الله». فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له :«اذكرك الذى ذكرتنا به» . فاجابه الخليفة : « سمعا سمعا لمن ذكر بالله »

نعم ان كان فى الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لايزالون فرقاً وحزقاً ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم ، اجابه النعمان : ان الاعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوسا وأحمى أنوفاً من أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الاصلية فى تحاسد هذه الامة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض

مما آل الى فقدها الملك العظيم الذى كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التى كانت آفة على سلطان العرب فى كل مكان ، والسبب فى وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الاندلس وغربى أوربا

ان العرب لم تجتمع كلمتها الا بدعوة دينية هى دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديموقراطية بما فى الاسلام من سنن المساواة والاخاء والحرية . قال عمر بن الخطاب : لسنا فى كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفر قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

وأما المشاورة فالى اليوم لايعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لابل فرض اوجبه الله فى كتابه قال تعالى : «وشاورهم فى الأمر» . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يعملون كل شئ عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى احدى خطبه : « ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر » . لذلك جميع الحكومات الاسلامية هى شورية ديموقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

الفصل الخامس
في
العصبية الجنسية

العصبية الجنسية أعظم مظهر من مظاهر المجتمع البشرى فى هذا العصر ولا مراء فى ذلك . نشأت فى أوروبة أول منشأها خلال القرن التاسع عشر ، ولما اشتد ديب فعلها فى العروق ، و بلغت أعظم مبلغ من التأثير فى الامزجة ، لم تلبث أن غدت عامل التغيير والتبديل والانقلاب فى القارة الاوروبية ، حتى بات القرن الحالى يعرف على الغالب بعصر القوميات أو العصبيات الجنسية . غير أن العصبية الجنسية ليست بالظاهرة الاجتماعية التى نشأت فى الأفق الاوروبى ولزمت حدود هذا الأفق لا تجوزها ولا تتعداها ، بل انها التيار العجيب الذى بدأ فى أوروبة ثم أخذ ينتشر فى الارض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة فى الشرق والغرب ، وما زال على جدّ فى مسراه ومتغلغلاً فى الشعوب والأمم ، يفتح طريق الانقلابات الكبرى و يمهد سبيل التطورات العظمى فى هذا المجتمع الانسانى .

واذا غدت العصبية الجنسية على ما هى عليه من بعد الخطورة وعظم الشأن ، وأصبح عاملها أكبر عامل فى تطور الأمم ومسيرها ومصيرها ، كان لا بدّ للباحث أن يسأل ، ما هى العصبية الجنسية ؟ سؤال لم يبرح مبحثاً واسع المجال لأهل العلم والاستقصاء ، فتعددت فى ذلك آراؤهم ، وتنوعت أقوالهم ، واختلفت مذاهبهم . فحددت طائفة منهم العصبية باللغة ، وطائفة أخرى بالتهذيب متناولا الطباع والسجايا ، وغيرها بالجنس والعرق ، وغيرها بالوحدة السياسية ، وغيرها بالاقليم الجغرافى ، وغيرها بالوحدة الاقتصادية ، وغيرها بالدين . فجميع هذه التحديدات على اختلافها ، ور بما ينطوى تحتها غير ذلك ، يمكن اعتبارها على الجملة عوامل ممهدة ، وأسباباً وتحليلاً تُعد بفعلها وتأثيرها ما تعد ، مفضية الى خروج العصبية من عالم القوة الى عالم الفعل،ولكن من رام اكتناه سر هذه العصبية رآها تبدو فى أفق أعلى وأسمى ، أفق تتجلى فيه صورتها مزاجاً معنوياً جامعاً لمفعول جميع العناصر التى

تتكون منها تلك العصبية . فالعصبية الجنسية ليس فى شأنها غامض لا يستبان أو سر لا يدرك ، وذلك على مختلف المذاهب التى ذهبها أهل العلم فى تحديدها وتبيين ماهيتها ، فهى بحقيقة معناها حالة وجدانية عقلية ، انما هى معتقد مشترك عند عدد كبير من الناس يعقدون عليه قلوبهم وضمائرهم انهم يؤلفون « جنسية » متمايزة عن سواها ، انما هى شعور بكيانهم أمةً متضامنة متماسكة [1] وهذه الأمة ، باعتبار ما هو قائم من معناها بفكر أبنائها ، ومتصور من شخصها بعين العقل والذهن لديهم ، هى شعب أفراده مشتركون مجتمعا ومنظمون حالا فى ظل حكومة واحدة ، ويسكنون معا بلاداً معينة . ومتى ما أدركنا ماهية العصبية ومرماها وغايتها ، وتقرر ذلك جليا ، حصل ما هو معروف عند أهل العلم « بالجسم السياسى » أعنى به الدولة . غير أنه لا يندنّ عن البال بتة أن هذه « الدولة » ان هى الا المظهر المادى الذى تجسمت فيه غاية سامية ومنزع شريف ليسا بحديثى النشأة بل هما على الغالب ذلك المطمح القومى الذى ما انفكت نفوس القوم تشره اليه حقبا وعصورا متطاولة ، وهو اذ ذاك فى عالم القوة مجرداً عن شرطه المحسوس وصفة المادة كالعرش والسلطان والحدود الجغرافية . وأيضا لا يندن عن البال أمر آخر ، وهو أن الدولة ليس من شرطها أن تكون أمة . وشاهدنا على ذلك امبراطورية « أوستريةهنغارية » الهبسبرغية . التى كانت مجموعا من الجنسيات المتنافرة الاجزاء المتضاربة المنازع ، فلما فتقت ريح الحرب العامة مزقت من هذه الجنسيات مجموعها شر ممزق ، وفككت جملة أوصالها ، وقوضت بنيانها ، ونثرت حلقاتها .

على أن الحرب العامة كانت درساً بليغاً كشف عن كثير من الحقائق فى ماهية ظواهر العصبيات الجنسية فى هذا العصر ، ولا سيما العصبيات الاوروبية ، الأمر الذى نقض كثيراً من فاسد المذهب وباطل القول مما شاع من قبل فى تحديد طبائع العصبية . ولنا مثال على هذا سويسرة البلاد التى يدحض اعتبار شأنها تلك المذاهب والأقوال المختلفة ، فى

---

(١) الفيلسوف رنان يقول ان الأمم لا تجتمع باللغة لأنه طالما اتحدت أمم باللغة ولم تشأ أن تجتمع فى الحكومة . ولا بالدين لأن أمماً كثيرة متحدة فى الدين هى مختلفة فى السياسة . ولا بالجغرافية لأنه قد توجب مواقع البلاد وحدة أقوام تراهم متفرقين دولا متعددة . ولا بالمرافق لأنها ليست جامعة فى كثير من الأحيان . ولا بالجنس لأنه كم من أمة مركبة من عدة أصول تجدها متحدة وأخرى أصلها واحد من جهة الدم تجدها متجزئة . انما الرابطة الوحيدة بين الناس هى ارادتهم أن يتحدوا . (ش)

جعل نصاب العصبية الدين أو التهذيب أو لاقليم الجغرافي وغير ذلك ، اذ قد هاجت روح العصبية الجنسية في سويسرة هياجاً شديداً رائعا بسبب الحرب العامة ومحنها وأهوالها .

هذه حقائق جلية شائعة ، تعلمها الخاصة ولا تجهلها العامة ، مما لسنا بحاجة الى تقريره واقامة الأدلة عليه . غير ان هناك أمراً جوهرياً حرياً بالتقرير والتبيين ألا وهو : الفرق بين العصبية و بين الجنس أو العرق . اذ من أسباب الأشكال وعلل الالتباس ان قد استعملت هاتان الكلمتان في غير مواضعهما بلا تدبر ولا احكام ، بل ربما استعملت الاولى في موضع الأخرى مع اعتبار العكس ، فغدا معناهما على جانب من الاشتباه والاستبهام عند ما يراد التعبير عنهما في جاري العادة ومطلق البيان . وفي الحقيقة والواقع ان كل كلمة منهما لتدل على معنى بعينه لا تدل عليه الأخرى . فالعصبية انما هي مزاج معنوي ، وشعور وجداني نفساني « بسيكولوجي » ، والجنس انما هو شيء جسماني كائن محسوس « فسيولوجي » يحدده العلم تحديداً محكماً ، ويعرفه تعريفا صحيحا ، ويفرق بين أنواعه وأجناسه وصفاته ، كما هو الأمر في شكل الجمجمة وتركيبها ، وتكون الشعر ، ولون العينين والبشرة وغير ذلك . ذلك بعبارة أخرى ، فالجنس انما هو الشعب أو الأمة المقرر الاصل والحقيقة تقريراً علميا انثروبولوجيا ، والعصبية هي ما يعتقده ذلك الشعب أو الامة في شأن حقيقة أصله ومتسلسل تحدره اعتقاداً سياسيا .

وفي هذا الموضع من الاعتبار يبدو لنا تناقض بالغ منتهى الغرابة بلا ريب . فما لا يحتمل الجدال انه عند اعتبار شان الجنس والعصبية ، فالاول هو ما ينبغي عدّه الاساس المعوّل عليه والذي يصح الركون اليه ، لانه الأبعد عرقا واصلاً ، والاشد شأنا وخطورة على كل حال وطور . اذ ليس بمستور بعدُ ان ما يكون في الانسان من الاستعداد النفساني الفطري انما هو ما يتحدر اليه بالوراثة من آبائه وأجداده ، وينتقل اليه من متواصل الارحام وتسلسل الانساب ، ولا مذكور أمر للبيئة مهما كانت فواعلها شديدة ، فالانسان هو ابن الوراثة ، ذلك الواقع لامراء فيه ، لا ابن البيئة ولا ابن الوسط الذي ينشأ فيه . غير أن الناس قلما يعتبرون شأن الجنس حق الاعتبار وقلما يقيمون له من الوزن الصحيح بل تراهم على الضد من هذا يقومون ويقعدون للعصبية الجنسية الهائجة منها نفوسهم حتى

أعماقها . والسبب الاكبر فى هذا ـ على ما هو ظاهر ـ هو ظهور علم الاجناس البشرية حديثا ، بعد استسراره عهداً طويلاً حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، العهد الذى منذ تاريخه شرع اقطاب العلم يوقنون بماهية حقيقة الجنس وخطورة شأنه وأصله ومبلغ ماله فى الواقع من بالغ التأثير فى حال المزاج . زد على هذا أن الحقائق التى يكشف عنها العلم ، ويثبت دعامتها ، يقتضى لها مدة من الزمن ليست بالقليلة لتندرج فى مستقر موسوعات علم الكافة ، وتلابس أفق الجمهور والعوامّ من الناس . وما من سبيل لارتسام هذه الحقائق فى اجرياء الافراد وطبائعهم ، مؤثرةً فى مناهج سلوكهم وتعاملهم ، الا بعد أن ينقضى على تقريرها العلمىّ ردح طويل من الدهر . واعتبر فوق هذا أن عقيدة العصبية وهى أقدم عهداً وأبعد منشأً وأصلاً ، قد تغلغلت فى آفاق الانفس من الناس كافة ، وانتقشت فى أذهانهم ، ودارجت طباعهم ، ولابست حالات أمزجتهم ، حتى غدت مرئية الآثار المحسوسة فى جميع ما يأتونه من الاعمال والحركات . فلذلك ما برحت حياتنا السياسية على الجملة اليوم خاضعة خانعة لعوامل العصبية الجنسية لا لحقيقة الدم والجنس ، وأيضا ما انفكت السياسة العملية الواقعة مسيرة تسييرها المشهود هذا بعوامل العصبية ، أعنى ليس بعامل العلم بحقيقة الأصل . بل بعامل ما يعتقده القوم من حقيقة أصلهم اعتقاداً سياسيا لا أكثر .

انما لنا عبرة فى الحرب العامة ، الحرب التى عرفت على الغالب « بحرب الأجناس » الأمر الذى كان يزيد حقاً فى انبعاث الاقران لقتال الاقران ، وهول المجزرة وانتثار الاشلاء فى المعمعان الاكبر . ومع هذا كله فان الحرب لم تكن فى الحقيقة والواقع مقصورة على شئ من معنى حرب الاجناس فحسب ، بل على شئ أكثر من ذلك . فقد أجمع أئمة البحث فى علم أصول الاجناس البشرية على أن أوروبة انما يسكنها اليوم ، ما خلا بعض الاقوام المختلفة من العصر الحجرى القديم و بعض بقايا المجتاحين الاسيويين فى زمن التاريخ ثلاثة عروق : (١) العرق الشمالى الاصهب اللون المستطيل الرأس . (٢) العرق الجنوبى المدوّر الرأس . (٣) العرق المتوسط المفلطح الرأس أسمر اللون أو حنطيه . غير أنه قد انتشرت هذه العروق وتفرقت ، واختلط بعضها ببعض اختلاطا رحيا ، فتوشجت متحدرات الأنسال جيلاً بعد جيل ، بحيث غدت كل أمة من هذه الأمم الأوروبية اليوم مؤلفة

على الاقل من عرقين من هذه العروق الثلاثة ، فضلاً عن أن كثيراً من هذه الامم أيضا مؤلف من العروق الثلاثة معا ، جامع لها فى جيل واحد . فبهذا الاعتبار لم تكن الحرب العامة فى أوروبة ، عند احكام القول وتحريه ، حرب أجناس كما قال القائلون فحسب ، بل حربا أهلية بين عيال وأسر ذات قربى واشجة وصلات رحمية مشتبكة .

وقد عرف كثير من الاوروبيين أهل العلم الصحيح هذه الحقيقة حق المعرفة وأيقنوا بها وانتحلوا عقيدتها قبل سنة ١٩١٤ بعهد طويل . بيد أن ذلك لم يكن له شئ من التأثير فى تدارك الجائحة الكبرى ودرئها ، أو على الأقل فى التخفيف من هولها بعد وقوعها . والسبب فى ذلك أن الكثرة الساحقة والسواد الأعظم من أهل أوروبة ما برحوا يعتقدون انهم انما متسلسلو العروق من أجناس مختلفة وأصول صحيحة الأرومة ، سليمة من الاختلاط . فهذا الجنس يقول بأنه متحدر من أصل « توتونى » ، وذاك من أصل « لاتينى » ، وآخر من أصل « سلافى » ، وآخر من أصل « انغلوسكسونى » . والحقيقة أن هذه الأصول المعروفة بهذه الأسماء ليست بكائنة كيانا صحيحا كما يزعم الزعمة الأوروبيون ، لاختلاط أنسابها اختلاطا ذهب بسلامة العرق وصحة أصله ، وما هذه الفوارق الظاهرة سوى اختلافات تاريخية ناشئة عن اختلاف اللغات والتهذيب فقط . ولكن من لنا بمؤمن بهذه الحقيقة إيمانا صحيحا . فالأوروبى يمكنه أن يدرك هذه الحقيقة المقررة إدراكا عقليا نظريا ، ولكنه ما دام لا يتعدى بذلك حدود هذا الحيز الوهمى التصورى ، الى الحيز الفعلى العملى ، فليس إذاً لادراكه هذه الحقيقة شئ من عامل التأثير المحسوس فى نفسه . وهو لذلك ما برح يعتقد من صميم قلبه انه يتحدر من أصل « لاتينى » أو « توتونى » أو « انغلوسكسونى » أو « سلافى » ، بحيث انك اذا استفززته بداعى دمه الجنسى ، الدم الجارى فى عروقه والمتحدر اليه من اصلاب أجداده الأولين ، وأسلافه الأقدمين ، لم يبد لك سوى الزراية والمهزأة ، وليس هو كذلك اذا استفززته بداعى عقيدة عصبيته فانه ليقتحم الموت اقتحاما مستعذبا ورد الردى . وأيضا فانك اذا استفززته بداعى نصرة بنى أصله الشماليين ذوى الرؤوس المستطيلة ، أو الجنوبيين ذى الرؤوس المفلطحة ، فلا تهيجه من ذلك هيعة ولا ينفر له صيد . ولكن الأمر يكون على الضد من هذا اذا استنصرته للذياد عن حمى « التوتونيـة » أو « السلافية » فانه يهتاج ويثور ويشتعل ويهرق دم

مهجته مستبسلا . وصفوة القول ، إن الشعوب والأمم اليوم هى عصبية لعوامل حقيقة أصلها وما هيته . من حيث هى طيعة لعوامل ما تعتقد من حقيقة ذلك الأصل وماهيته اعتقاداً .

قد يستغرب القارىء بداهة أن أوروبة اليوم تسودها عقيدة الجنس النظرية ، وتقتادها اقتياد الراعى للسائمة ، من حيث أن لاشأن مقيداً ما كان لعقيدة الأصل وحقيقته المقررة بالعلم الصحيح وللأرومة الجنسية الثابتة بالدم المتحدر من أصلاب الأسلاف الأولين انما فى ذلك أسباب جمة وجيهة فان عقيدة الجنس النظرية لم يقصر أمرها على كونها بحد ذاتها أكبر عامل فى تطور أوروبة الحديث فحسب ، بل قد طغى سيلها وطبق تيارها الأعمى حتى جرف فى سبيله تلك العقيدة الوليدة التى كشف عنها العلم حديثا أعنى حقيقة أصول الاجناس، وكاد يخنقها خنقا قاضياً . واعتبر أيضا أن عقيدة الجنس النظرية قد ظلت حتى عهد قريب عقيدة مستقلة واسعة المضطرب رحبة الحيز، تدل غالبا على متقارب الوحدة فى التهذيب والثقافة واللغة والماضى التاريخى.وقد كان ذلك بجملته نتيجة منطقية ناشئة عن ضيق وقصر فى مرمى المدارك الاوروبية وأفهام أهل النظر.ولا بدع فان منشأ هذه العقيدة الجنسية النظرية يمتد الى حقب بعيدة العهد ، حقب الاجيال الوسطى ، حيث كانت الحدود الجغرافية والاقطاعية والاختلافات فى اللهجات اللغوية تعتبر من أسباب التمييز بين أمة وأمة ودواعى الفرق بين شعب وشعب.وما برحت هذه العقيدة الجنسية حية نامية حتى منتصف القرن التاسع عشر، فاذ ذاك تطورت حالها، واتسع مضطربها، وامتد أفقها ، حتى طما على القارة الاوروبية لا بل العالم بأسره . فباتت وقد انتقلت من دور الى دور ، أبعد مرمى وأوسع مدى ومجالا ، يقصد بها تماسك الاقوام التى يجمع بعضها مع بعض أواصر القربى اللغوية ، وصلات التهذيب والتقاليد التاريخية، ولو كانت هذه الأقوام على شقة بعيدة ما بين الطرفين ما كانت . فاقتضى الامر عندئذ أن يختار تعبير يؤدى المعنى ويدل دلالة كافية على متآلب العروق المتحدرة من أصل واحد ، المتماسكة بعصبية جنسية شاملة ، فقيل « الجامعة الجرمانية » و « الجامعة السلافية » ، و« الجامعة الانكليزية » و « الجامعة اللاتينية » وغير ذلك من الجامعات الجنسية المتعددة . على أنه من المعلوم المقرر ، كما قدمنا ذلك ، أن هذه الجامعات ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار أنها ترجع الى أصل صحيح الارومة ، خالص

من الاختلاطات، وبرىء من شوائب الالتحامات النسبية ، إذ ما هى فى الواقع سوى عصبيات قومية عنصرية ، متطورة ظاهرة مظهراً عصريا . ولكن ما دامت أمم أوروبة وشعوبها مشتعلة بنار هذه العصبية فانى لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هى الجامعات الجنسية الخالصة التى لاريب فيها . فلذلك ترى السياسة العملية قد أصبحت فى هذا الدور الجديد للعصبية ، مغشاة الظاهر بأغشية جامعات يخالها أربابها أنها مشتملة على عروق سليمة التحدر من الارومة على حين أن هذا ليس الصحيح ، ولن تزال هذه السياسة جارية هذا المجرى ماقيض للعصبية البقاء .

وهذا الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه فى بدء التطور شاملاً للبلاد الأوربية المعدودة انها المواطن القديمة للحضارة ، ثم مالبث أن أخذ أفق هذا المضطرب يمتد ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية ، حتى غدا بالغاً أقصى الأقطار الأرضية مشرقا ومغرباً . فلما وصل الى البلقان مثلا تولدت فى هذه الأقطار للحال الدعوات النزّاعة العرق الى الاصل ، الراقية الى التألب العنصرى والاستمساك بعصبية الجنس ، فنشأت الجامعة الاغريقية أو اليونانية ، والجامعة السربية وغيرها . فغدت البلاد البلقانية قاطبة من بعد ذلك مربدة الجواء بقاتم السحب لايسمع فيها سوى قاصفات الرعود ولشدّ ماانقلبت بعد ذلك معمعانا رائعاً ومثاراً هائلا .

ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبة وبلغت الاقطار الاسيوية ، وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً ، فنشأت حركة « تركية الفتاة » و « مصر الفتاة » وحركات وطنية أخرى فى أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر وايران والهند وجميع هذه النهضات الوطنية العنيفة انما كانت أدلة صادقة بينة على أن آسية قد اختمرت شديد الاختمار بعوامل التنبه القومى والعصبية الجنسية . وما كاد يطلع القرن العشرون حتى أبدت صادقات الأدلة وواقعات الحال أن العصبية الجنسية فى آسية كما فى البلقان من قبل ذلك ، قد اجتازت مخاضها ودخلت فى دورها الثانى أعنى دور عصبية التئام العروق وتألبها الجنسى ، فنشأت جامعات جنسية عديدة « كالجامعة الطورانية » و « الجامعة العربية » وأخرى غاية فى الخطورة هى « جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية » التى ترمى الى وحدة المعمور الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وانضوائه تحت لواء اسلامى عام .

— ١ —

ونشرع الآن فى الكلام على كيفية نشوء العصبيات الجنسية وقيام النهضات القومية فى الشرقين الأدنى والأوسط ، متتبعين ماقد اجتازته هـذه العصبيات من مختلف الحالات والأدوار ، وجاعلين البيان فى هذا الفصل الذى أمامنا متناولا شأن كل عصبية فى رقاع العالم الاسلامى رقعة رقعة ، ماعدا الهند ، إذ أننا قد أفردنا للعصبية الهندية فصلا مستقلا بذاته . والسبب فى هذا الافراد هو أن رجال العصبية فى الهند غالبهم من غير المسلمين ، أضف الى هـذا أن النهضة الوطنية فى تلك البلاد لمشتملة على عناصر وفواعل وصفات لم تشتمل على مثلها عصبية فى قطر آخر من الأقطار الاسلامية .

كان العالم الاسلامى ـ قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر ـ هاجعاً هجعته التى قدتقدم الكلام عليها ، بعيداً من التنبة القومىّ وثورة العصبية الجنسية وكان غالبه منقسما الى امارات متناثرة ولكن قوية المراس شديدة الشكيمة . وان ما كان فى نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية انما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحوالحالة التى كان عليها سلاطين الترك العثمانيين . غيرانه كانت مظاهر العزة القومية ، ومبادىء الشمم والاباء جلية فى غالب العناصر كالأمة العربية ، «أمة الرسالة » اذ فى العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان فى الظهور وقوة فى الانفعال والنمو ، ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيما كافلا لائتلاف المزاج الذى تغدو به العصبية عاملة فعالة . أما الشعب الاسلامى الفذ الذى كان حقاً يتمشى فى عروقه ماينبغى لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده وعاشق موطنه القديم . وأماسائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شئ من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية ، والروح النزاعة الى الوحـدة والتضامن ، وكانت هـذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة .

على ان فى الأمر اعتباراً آخر . ان الاسلام قد نهى فى مواضع عديدة عن العصبية فلما انتهت الشعوب الاسلامية الى هـذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسـلام على المؤمنين أن يكونوا إخوةً متضامنين متساوين لافرق بين عربيهم وعجميهم ، وأضحت الغاية السياسية المقصودة فى الاسلام من وحدة « الامامة » الكبرى ،

أو الشورى الشرعية العامة ، أمراً مقاوماً بطبيعة الدور والزمن بسبب انشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة فى الملة الاسلامية ، كما كانت الحال فى مبدإ عصر النهضة فى أوروبة اذ كانت النهضات القومية فى مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية و « المملكة الرومانية المقدسة » .

لهذا ليس من الغرابة فى شىء أن نرى المنازع القومية والمطامح الوطنية فى الشعوب الاسلامية تنشأ فى أول عهدها نشوءاً يعروه الابهام والالتباس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . فلم تنجل عقيدة العصبية الجنسية الافى خلال النصف الآخر من القرن اذظهرت المنازع الجنسية الرامية الى التضامن القائم على الاعتبارات العنصرية فى تعاليم جمال الدين الافغانى(١) وظهرت أيضاً روح العصبية الجنسية فى المصلحين الترك فى منتصف القرن الماضى لتشربهم المبادىء الغربية واقتباسهم الآراء والافكار الأوروبية فى الجنسية ، مما كان السبب فى ظهور العصبية الجنسية فيهم قبل ظهورها فى سواهم من الشعوب الاسلامية وقداستطاع أولئك المصلحون من رجالات الترك ، بمعاناتهم الصعاب وتفانيهم فى سبيل خدمة سلالتهم وعنصرهم ، و بظهورهم مظهر المدلين المعجبين بصفة اعتبارهم العنصر الذى فى يده زمام الحكم والسلطة على غيره من العناصر الخاضعة له من نصارى ومسلمين ، أن يلقوا نجحاً كبيراً فى نشر دعوتهم وفلاحاً عظيماً فى القيام بنهضتهم .

وقد بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها من نوعها فى أوروبة ، وذلك على الجملة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن اسفار العز والمجد ، و بتجديد اللغة على مقتضى حاجة العصر . فقد ظل الترك العثمانيون حتى نصف القرن الذى خلا يكادون لايعرفون شيئا من ماضيهم وتاريخهم ، وأصلهم ومنتسبهم بل كانوا اذا تذكروا المجد العسكرى الذى شيده أجدادهم ، وتلوا صحف تاريخ ملكهم الضخم الذى قد زال معظمه ، فعلوا ذلك على غير مانشوة تصيب مزاج أرواحهم ، وتهيج منهم نفوسهم ، وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم وصحف آبائهم وأجدادهم ، اذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والأحاديث عن مجمل ماضى الاسلام ، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أنباء انتشار الفتوح العثمانية فى القارات الثلاث . فلما انبرى رواد الاصلاح من أرباب النهضة يوقظون

(١) وهو من حيث اعتبار فلسفته صلة الوصل بين الجامعة الاسلامية والعصبية الجنسية الاسلامية

أبناء قومهم ، ويرددون على مسامعهم أنباء مجدهم التاريخى وذكريات عزهم الخالى ، استيقظت الأمة التركية بأسرها وأخذت تنتشى رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طماحة .

وقد كان شأن اللغة التركية منحطاً كشأن الأمة . فلما قام رجال الهمة يبتغون النهضة ابتغاء صحيحاً ، وجدوا اللغة على شطرين : الأول التركية الرسمية وهى خليط مضطرب جامع بين خشن الألفاظ التركية الأصلية ، و بين مأنوس التعبيرات المأخوذة من اللغتين العربية والفارسية ، فكانت هذه اللغة الرسمية المبرقعة رطينى غير مفهومة عند العامة من الأمة . والآخر هو التركية القديمة المحدودة المادة ، المنقسمة الى عدة لهجات تستهجنها الطبقة المتهذبة الراقية وتتجافاها لحوشية ألفاظها وخشونة تعابيرها . فلما شرع رجال النهضة فى العمل ، بدلوا هذا تبديلاً ، واذ آثروا السهولة وتوخوا قرب التأدية فى اللسان التركى أخذ العلماء الترك الغير من رجال النهضة الذين حصلوا علم اللغات فى أوروبة ، يضعون لساناً تركياً جديداً ، مهذباً مأنوساً ، نهجوا فى وضعه نهجا غربياً . فلم ينقض على شروعهم فى هذا العمل مايقرب من ثلاثة عقود من السنين حتى استطاعوا أن أخرجوا للناس لغة تركية ، مشتملة على السلاسة وسهولة المتناول ، فأقبل أرباب الأقلام من الكتاب والشعراء على ارتياد نجعتها و ورود شرعتها ، فشاعت فى حقبة قليلة شيوعاً كبيراً عاماً فى المجتمع التركى على اختلاف طبقاته ، وغدت اداةً يتنافس فى اقتنائها ، وحلية ظرف يتجمل بها[١]

من المعلوم المقرر أن معظم السبب فى النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على التئام العروق العنصرية ، انما كان جور أوروبة على تركية جوراً سياسياً شديداً . لذا كان الترك كلما ازدادت الحلات الاوروبية على الأقطار العثمانية تقتطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حبا لوطنهم وتفانياً فى سبيله ، وذياداً عنه وحرصاً على مستقبله ، كأنما ذلك الاعتداء كان للترك مستحثا يسوقهم فى سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد . وقد كان من غاية الترك فى عصبيتهم الجنسية تتريك جميع العناصر التى

(١) من أراد زيادة الوقوف على تطور النهضة الوطنية التركية يجد مراده فى كتاب «تركية منذ أربعين سنة حتى اليوم » وكتاب « التهذيب الغربى فى الأقطار الشرقية » للمستشرق الكبير ارمينيوس ڤمبارى :
" La Turaquie D'aujourd'hui et D'avant Quarant ans,, ."Western Culture in Eastern Lands,,

تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف النحلة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع ممتزج بعضه ببعض هو الأمة التركية صبغة ولسانا وتفانيا فى الوطنية التركية

فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداما كبيراً بالعصبيات الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه أسبق ظهوراً) فى المملكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التى كانت قد شرعت تظهر ظهوراً بينا لامراء فيه فى هذا العهد. أضف الى ذلك أن السلطان عبدالحميد كان مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتا بطبيعته وغريزته مقتا كبيراً لكل عصبية جنسية اية كانت ماهيتها ، لانه كان يخشى من وراء ذلك خسرانا لسلطانه المستبد المطلق ، أو على الاقل قسراً له ليكون فيه مقيداً ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبيات أن تحول بينه وبين الوصول الى غايته الكبرى وهى الجامعة الاسلامية التى ولى وجهه شطرها ، واتخذها له قبلة ولسياسته أساسا يقوم عليه ذلك البناء الذى جهد فى تشييده . جميع ذلك حمله على أن يكون مرتابا شديداً فى رجال النهضة التركية ، على معالنتهم اياه بالاخلاص وصدق الولاء فنفى واضطهد جميع الذين نادوا بالمنازع الحرة وطلبوا الشورى والديموقراطية .

على أن ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت اركان الاستبداد الحميدى دكاً ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقالها وانشأت تشتد وتستقوى ، وبات جميع رجال « تركية الفتاة » ، على اختلافهم فى شؤون أخرى ، يدعون الى هذه العصبية وهم فى سبيلها مغامرون مستبسلون . غير أن تلك الاستماتة الكبرى التى قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر فى حلول ما حل بساحتهم من البلايا التالية وحاق بهم من الفواجع اللاحقة . فقد اندفع رجال « تركية الفتاة » اندفاعاً كانوا فيه بعداء من التروى والحكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسى الأعمى ، محاولين تتريك المملكة قاطبة فى فترة من الزمن يسيرة . فهاج هذا الأمر الهائل ابناء العصبيات الأخرى هياجاً كبيراً حملهم على التنكر لثورة سنة ١٩٠٨ ، وبه سنحت للدول البلقانية النصرانية الفرصة فاهتبلتها فاخذت تكر على تركية المتضعضعة كرات عنيفة ما برحت تتوالى حتى سنة ١٩١٢

وحقيقة الواقع أن العصبية الجنسية التركية انما كانت تنتشر فى أفق غير أفقها ، وتبتغى أن تمور فى مضطرب غير مضطربها ، فكان بينها وبين سائر العصبيات مصطدم

هائل ، فاشتعلت نار العداء بين العنصر التركى من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر . وفى هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثانى ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المتشعبة من أرومة واحدة ، فبعد أن كان مضطربها لا تجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايتها تتريك سائر العناصر غير التركية فى المملكة فحسب ، باتت ترمى الى غاية أرحب مجالاً وغرض أبعد مدًى ، وتنزع الى فروع الجنس وعروق الارومة ، فنشأت على أثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » وسنتكلم على شأن هاتين الجامعتين فى غير موضع من هذا الفصل ، أما الآن فاننا نسوق الكلام على مناشئ العصبيات الجنسية فى الاقطار الأخرى من العالم الاسلامى ، ونتتبع معتبرين كيفية اجتياز هذه العصبيات للدور الأول .

بعيد أن أنشأت تباشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تتبدى فى الترك ، أنشأت أيضا تباشير مثل تلك تتبدى فى العرب ، فيقظوا يقظة كان شأنها شأن كل يقظة مثلها يبتغيها شعب محكوم ، أعنى كان غالبها بطبيعة الحال انتقاضاً على الترك وقياماً فى وجههم . وقد عرفنا فيما تقدم من الكلام أن تلك البلاد العربية الصحراوية (نجد) لم تبرح محتفظة استقلالها وحريتها ، وان سائر الأقطار العربية من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها للحكم التركى ، متجهمة فى وجه الترك ، نافرة غضبى ، موغرة الصدر عليهم ، لأن أهلها العرب وهم من « أمة الرسالة » ، قد بات من شق الأنفس عندهم ان يظلوا خاضعين لنير التركى الغريب ، وهو فى عينهم مثال الفظاظة . وقد انقضى ألف سنة منذ أخذ الترك يدخلون فى العرب ويمدون عليهم سلطانهم ، وعلى هذا كله فقد ظل العنصران على عداء ونفور لتضادّ المزاجين تضاداً بعيداً لا يستطاع معه تآلف الطباع ولا التقارب ومحض الود . وقد وصف الكاتب الفرنسى « فيكتور برار [١] » مبلغ ما هما عليه العربى والتركى من اختلاف المزاج والسجية بقوله : « هكذا ترى شقة البون بعيدة بين اللغتين كما بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية . فالتركى من أدرنة أو اطنة يظل بعيداً أقصى البعد شمالا ويظل العربىّ فى سائر الاقطار وعلى مختلف الحالات بعيداً أقصى البعد جنوباً ، فهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان . فان العربى الدمث الخلق

(١) كتابه : Le Sultan l'Islam te Ie Puissance , 1907

اللين العريكة ، الرحب المدارك ، المتفنن فى شأنه ، النزاع الى الديموقراطيـة ، المغرق فى احتفاظ حريته الفردية الى حـد الفوضى ؛ من التركى البطئ المتثاقل ، الميال الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية . لذلك ظل التركى الحاكم المتسلط يحتقر على الدوام العربى ويزدريه لما هو عليه هذا من حب الفن والابتكار والرشاقة ويكره فيه اباءه لرقابة النظام ، من حيث ظل العربى يرى التركى هجعاً جلفاً ، ويحسب هـدوءه واطمئنانه بلادة وجهلا وخمولا ، واحترامه القانون ذلا ، وانغماسه فى الرخاء المادى فجورا ، ووحشية . وما انفك العربى يزرى على التركى وينعى عليه فقدانه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هـذ كما كان أحمق جاهلا غبياً » (١)

أضف الى هـذا ان العرب باتوا يحسبون الترك متنكبين عن النهج السوى فى ملة الاسلام ، ولذلك لاجرم ان كان شأن العرب على الدوام شأن المتأهب للانتقاض ، المتحفز للخروج على الحاكم الغريب . وقـد أسلفنا الكلام فى غير موضع كيف نشأت الحركة الوهابية وما كانت تقصده وتبتغيه من تقويض الحكم التركى وتحرير الأماكن المقدسة . ومع ان الوهابيين قد سقطوا دون أمنيتهم فقـد ظلت صـدور العرب موغرة يريدون الانتقاض والثورة . نحو سنة ١٨٢٠ كتب السائح بركهردت الالمانى فى شأن بلاد العرب كلمة مأثورة . « متى أخـذ الحكم التركى يولى وينحل ويتضعضع فى الحجاز يهب العرب آخذين بالثأر (٢) » . وبعد ذلك الحين بما يقرب من عشرين سنة قال شريف مكة لسائح فرنسى :«ماأشقها علينا من حال ان نكره اكراها، ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة، على حناية رؤوسنا لهؤلاء « الباشوات » الأدنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبداناً نصارى ، فما استطاعوا بلوغ كراسى الحكم وتقلد أزمّة الأعمال الا بأحط الذرائع وأشين الوسائل (٣) » . وكانت تركية طيلة القرن التاسع عشر كلما خاضت حربا فى أوربة وخرجت

---

(١) فى كلام فيكتور بيرار هذا مبالغة شديدة زينها له حب الانقسام بين هاتين الأمتين ، ومن أحب شيئاً تجسم له فى خياله ، فلا العرب ينظرون الى الترك ولا الترك ينظرون الى العرب بكل هذا المقت وكل هذا الاحتقار ، وان كان هناك تباين بين الفريقين فى خلائق كثيرة (ش)

(٢) برار ـ كتابه المذكور . (٣) برار ـ كتابه المذكور.

منها مقهورة مفتوتاً فى عضدها ، عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها ، أو انتقاض تشب ناره فى قطر من الأقطار العربية .

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من توالى الثورات غير المنتظمة التى لم تعد نطاق الانتقاضات والاختلافات فى موضع موضع ، حلت عليها النعرة الدينية أو عوامل الوراثة والاقليم ، أو شعور ثائر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقررة عقدعليها الرأى ، ووضعت لتنظيم العمل فى سبيل غاية قومية ومطمح جنسى . الا انه فى خلال العقود الستة بعد منتصف القرن الخالى طفقت الروح الجنسية والشعور القومى يظهران ويشتدان فى العرب . وقد كانت سورية منشأ هذه الروح وذلك الشعور . فلم يكن هذا الأمر غريباً بل متوقعاً ، لأن سورية هى القطر العربى الخاضع لتركية عهدئذ ، والأكثر من سائر الأقطار العربية تعرضاً لتلقى الروح الغربية والمؤثرات الأوربية . بيد ان هذه الحركة الأولى التى قام بها العرب فى سبيل جنسيتهم وعصبيتهم لم تأت بالثمرة الطيبة ولا أدركت بها الغاية لأن الذين قاموا بها انما كانوا عصبة قليلة العدد ، والعزم والحزم ، فاستطاعت الحكومة التركية إخماد الحركة والقضاء عليها دون كبير مشقة .

فلما نشبت الحرب الروسية التركية عاد العرب ينفخون فى الضرم . فظلت الأقطار العربيـة تقوم وتقعد ويستطار منها الشرر عدة سنوات . فانبرى رجال النهضة وأهل العصبية يرفعون عقيرتهم وينادون بتحطيم النير التركى وانشاء مملكة عربية متحدة الأقطار اتحاداً قائماً على استقلال كل قطر فى داخله (كونفدراسيون) تشمل جميع الأقطار العربية وعلى رأسها زعيم دينى كبير غلب أن يكون شريف مكة . وأمر هذه الحركة كان ظاهراً ، اذ كان من شأنها أن تسلك مسلكا بين العصبيه الجنسية بمعناها الغربى وبين المنزع التقليدى الذى لم يبرح العرب ينزعون اليه منذ القديم غايته الرجوع الى الشورى الشرعية التى كانت عليها حكومة الخلفاء الراشدين ، وظهرت ثانية فى الحكومة الوهابية فى نجد .

وقد كانت هذه الحركة العربية الثانية فى سبيل النهضة والعصبية مثل سابقتها نشوءا ونموا ، اذ كان السلطان المستوى على العرش العثمانى عهدئذ هو داهى الدهاة عبد الحميد الذى اقتضت سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية أن يستميل العرب ويوطئ لهم أكنافه ويحسن اليهم صنعاً ، وقد أفلح بذلك حقاً ، فغدت رجالات العرب تفد على القسطنطينية

لاقية من دار الخلافة كل رحب وسعة ، ومنزلةً منزل الاجلال والاكرام ، وطفق عبد الحميد يغدق كثيراً من نعمه وآلائه على أمراء العرب وأشرافهم ، وزعمائهم وسراتهم ، ويجهد كل المستطاع لزيادة إرضاء الأمة العربية وطمئنة بالها وتطييب نفسها ، وفى الوقت هذا كانت المسالك الحديدية التى تفى بأغراض عسكرية عند الحاجة تنشأ فى سورية والحجاز ، فسهل ذلك على الحكومة التركية أن ترسخ قدمها وتعز موقفها وشأنها فى الأقطار العربية اعزازاً ماعرفت مثله قط من قبل من حيث كان للعرب فى أمر إنشاء المسالك الحديدية خير وبركة [1] ، فزادت أسباب التواصل بين الأقطار العربية بعضها مع بعض ، فتوفرت وسائل الثورة وكثرت عدتها . زد على هذا ان عبد الحميد عند قيامه بالدعوة فى سبيل الجامعة الاسلامية وضع نصب عينيه إيقاظ الشعور الاسلامى لانشاء وحدة اسلامية بين العرب والترك كيما يستطيع بذلك مقاومة الغرب النصرانى . وحقاً جاء جهد عبد الحميد هذا الجهد الكبير بثمرة طيبة فكانت كل حملة من حملات الاعتداء الغربى على الشرق الأدنى عبرة كبيرة وعظة بالغة للترك والعرب تحملانهم على أن ينسوا أو على الأقل يتناسوا الأمر الذى يتنازعون فيه ، وينصرفون عنه للوقوف جنباً الى جنب ، وجمعاً الى جمع ، ازاء العدو الخارجى المشترك

على انه قد ظل جانب كبير من العرب أهل غضب ونفور ، على مااستطاعه عبدالحميد من التوفيق والاستمالة والارضاء. فعند أواخر القرن التاسع عشر عادت الحركة العربية فظهرت مظهراً جديداً دلّ على شدة سخط العرب وشنأنهم للترك ، فسارعت الحكومة التركية للحال فى اضطهاد رجال الحركة الوطنية وأهل العصبية من العرب شر اضطهاد ، وأكثرهم من السوريين فنفتهم وأبعدتهم لتأمن من شرهم ، فاستقر حال بعضهم فى مصر (وهى فى الحكم البريطانى) وبعضهم الآخر فى غربى أوروبة ثم شرعوا جميعهم ينظمون القيام بدعوة ثورية . فأنشأوا « الجمعية الوطنية العربية » فى باريز سنة ١٨٩٥ وكان ذلك مبدأ رسمياً لعملهم الذى اعتزموا على إنجازه .فانقضى عقد من السنين ودعوتهم تنتشر انتشاراً غامضا ملتبساً ولكن مؤثراً تأثيراً ظاهراً ، ففى سنة ١٩٠٥ شبت نار الفتنة المسلحة فى

---

(١) كانت السكة الحديدية الحجازية من خير ماأنشئ لفائدة العرب لاسيا أهل سورية ، وكانوايقدرون ماتستفيده دمشق وحدها من هذه السكة بمائة وخمسين ألف جنيه سنويا (ش)

القطرين العربيين الحجاز واليمن ، الفتنة التي لم يخمد أجيجها كل الجمود مع جميع ماقد تكبدته الحكومة التركية من بالغ العناء والمشقة لتسكين ثائرها وقمعها ، بل ظلت الثورة مضطرمة النار اضطراما متقطعاً سنة بعد أخرى ، فقدمت تركية خسارات المال والنفوس مما كان له كبير شأن وتأثير فى ضعف تركية المالى واستنزاف قوتها عند مانزلت بها نازلةطرابلس الغرب والبلقان سنة ١٩١١ – ١٩١٢ .

ورن صدى الثورة العربية المشبوبة النار سنة ١٩٠٥ رنيناً هائلا فى الاندية السياسية الخارجية . فانتبه العالم إذ ذاك لشأن « القضية العربية » وعند ذلك افترص رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة فأخذوا يجهدون ماستطاعوا فى تقوية دعوتهم بثها ونشرها فى جميع الممالك العربية . ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربية تكتسب شأناً خطيراً فى عالم السياسة ، إذ وقفت دول أوروبة حق الوقوف على يقظة « الأمةالعربية الفتاة » وأدركت جلياً آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم . وكان من خير الوسائل لاسماع الدول الغربية صوت العرب وايقافهم على حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الأمة العربية » أخرجه للناس أحد قادة الحركة الوطنية [1] ، فكان له كبير وقع وتأثير فى المقامات السياسيةالغربية . ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » فى باريس سنة ١٩٠٦ منشوراً موجهاً الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبييناً غايات العرب وأغراضهم التى يبتغونها ، وقد جاء فيه : –

« ان انقلاباً سامياً هائلا حادث عما قريب فى تركية . والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين فى إرهاقهم وتفريق حزمتهم تفريقا دينياً ليتسنى لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافاً وطنياً وقومياً وتاريخياً ، وهم يرغبون الآن فى الانسلاخ عن الأرومة العثمانيـة النخرة لينشئوا لهم دولةً مستقلةً ، وهذه هى الأمبراطورية العربية التى تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادى دجلة والفرات الى قناة السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربى ذو حكومة دستورية حرة . واما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينة المنورة فيتألف منها مملكة

---

(١) وضعه بالفرنسية نجيب عازورى وطبع فى باريس ١٩٠٥
"Le Reveil de la Nation Arabe".

مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكاً وخليفة جميع المسلمين ، وبهذا تحل العقدة الكبرى فى الاسلام وهى التفريق بين السلطتين المدنية والدينية » .

وفى المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بنى وطننا الأعزاء : كل منا يرى بأم عينيه عظم ماصار يلقاه العربى الشريف الكريم من المذلة والزراية اليوم حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الأجانب ولا سيما الترك . وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، فى عهد ظلم هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسية الوسطى . فبلادنا ، وهى جنة الله فى أرضه ، قد أصبحت اليوم خاوية على عروشها . فلما كنا أمة حرة فتحنا العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا فى أمم الأرض مختلف العلوم والفنون والأداب ، وظللنا عدة قرون حماة الحضارة وممهدى سبل العمران . ولكن منذ أنشبت مخالب ارطغرل فينا واغتصبت الخلافة منا غدونا نقيم على القهر والذل ، فخربت بلادنا واقفرت أرضنا وتضعضعت حالنا تضعضعاً مارأى مثله شعب آخر فى الأرض » (١)

غير ان البلاد العربية لم تنل إذ ذاك استقلالها ، فظلت الثورة لاتعدو نطاقا معلوما ، وظلت تركية قابضة على أزمة الحكم فى غالب الأقطار العربيـة . ولكن وقوع الاضطراب والاختلال كان يتوالى على غير ما انقطاع . وفى أواخر عهد عبد الحميد كانت الأقطار العربية قد أصبحت على حال من القلق شديدة يتنازع قواها عاملان : عامل الفتنة والثورة فى سبيل النهضة القومية والجنسية العربية ، وعامل الجامعة الاسلامية المقتضية جمع كلمة المسلمين لمقاومة الاعتداء الأوروبى .

فلما كانت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيراً كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الأقطار العربية كسائر أقطار المملكة العثمانية فرحاً وحبوراً بانهيار صرح الاستبداد وتقوضه حتى الاساس . ونظر العرب الى المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الأمانى وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم فى « البرلمان » العثمانى ليسوا بالقوم القليل العدد ، فطلبوا أن يمنحوا قسطاً معلوماً من الاستقلال الداخلى « اللامركزى » ، فرفض رجال تركية الفتاة مطلب نواب العرب رفضاً باتاً دون أن يجيبوهم الى شئ منه ،

---

(١) يمكن الاطلاع على كامل هذا المنشور فى كتاب E. Jung :
" Les Puissances devant la Revolte Arabe :
La Crise mondiale de Demain ,, (Paris 1906)

ذلك لشدة ما كانوا موطنين أنفسهم عليه من القيام بتتريك العناصر فى جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر ان أدرك العرب وأيقنوا محق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتداداً بالغاً فى الأقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع ويشتد ، رامياً الى الانفصال على ان هناك أمراً حرياً بالاعتبار التام وهو ان جميع الحركات والمساعى التى طفق العرب يجهدون فى القيام بها فى سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشيةً على خطة أوسع مجالا ونطاقاً ، وأبعد أفقاً ومرمىً ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبية العربية فى أقطارهم الخاضعة لتركية على صلة وثيقة تصل بينهم و بين أمثالهم من رجال النهضة القومية فى مصر وأفريقية الشمالية الخاضعة لفرنسة ، تلك الأقطار العربية التى أقل مايقال فيها ان بعض ساكنيها هم عرب دماً وعرقاً وأصلا. لذلك بعد ان كان ذكر العصبية العربية همسة تفرغ فى الأذن أو سراً يتناجى ، صار صوتاً عالياً وصرخة جوابة الآفاق رنانة الأصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطمح كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع أقطار العالم العربى شاملة شمال أفريقية وجنوبى آسية ، وممتدةً من الاوقيانوس الاتلنديكى حتى الاوقيانوس الهندى . وهنا شرعت العصبية الجنسية العربية كالعصبية الجنسية التركية ، تجتاز دورها الثانى دور العصبية النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الأرومة .

وقبل أن نتوسع فى الكلام على الجامعة العربية توسعا عاما يجدر بنا أن نبسط كلمة نبين فيها الجرى الذى جرته العصبية الجنسية فى المملكة العثمانية وذلك أنه فى الحين الذى أثار فيه الأعتداء الغربى سنة ١٩١٠ – ١٩١٢ العاطفة الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومى العربى يهتاج اهتياجا شديداً متوالياً دون انقطاع بسبب ما أنشأت تركية الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتتريك العناصر ، فثار ثائر الاستقلال فى العرب ولكن كان رائعا هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم الجنسية أكبر تمثيل . ففى سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر عربى فى باريز وضع أعضاؤه خطة وشرعوا فى القيام على مقتضاها بدعوة ثورية واسعة النطاق . فلما نشبت الحرب العامة فى السنة التى تلت كانت الأقطار العربية الخاضعة للحكم التركى تقوم وتقعد مضطربة أشد الاضطراب ، فأربد الجو بقاتم

السحب المنذرة بزلزال الثورة [1]. فخشيت الحكومة العثمانية شبوب النار فاحتاطت للامر احتياطا تاما وأعدت له عدته الكاملة ، فسجنت من سجنت وشنقت من شنقت من زعماء العرب وكبرائهم وأحرارهم القائمين بالنهضة القومية العربيـة ، الذين استطاعت القبض عليهم . فعلت ذلك بينما كانت تنفخ فى نفير الجهاد مستنفرة المسـلمين للذب عن بيضة الاسلام ، ذلك الاستنفار الذى حل جانباً من الرأى العام العربى على الجنوح الى الترك ، ولا سيما لما كان فتح مصر يحسب متناولا قريبا وممكنا من الممكنات . بيد أنه لما طبقت الحرب وأخذت فى الاستمرار كالحة الجبين مكشرةً عن الأنياب ، عادت عوامل العصبية الجنسية تثور قاذفة حمم السخط والغضب . ففى سنة ١٩١٦ قدح شريف مكة زناد الثورة العربية ، فكانت ثورةً منـذرةً بانهيار الحـكم التركى مفوضة له تقويضاً ، وقـد كانت بريطانية العظمى ظهيرة الثورة العربية هـذه تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء ، فسارعت الاقوام العربية العـديدة فى نصرة الثورة وتأريث نارها قوة وعملا . ولما كانت العرب قـد هاجتهم وعود الحلفاء ايما هياج : وعود تقرير المصير ، والاسـتقلال الداخلى ، والاستقلال التام ، وهى غاية فى الاغراء والتغرير ما بعدها غاية ، انبعثوا يقاتلون الترك قتال الاستماتة والاستبسال فـكانوا العامل الأكبر فى تبدد الجيش العثمانى وتلاشيه فى خريف سنة ١٩١٨ [2]

---

(١) بيان واف فى مساعى العرب وجهودهم لنيـل الاستقلال متضمن فى مقال ممتع نشره الـكاتب الثقة فى الشؤون الاسلامية « X» موسوماً « بالسياسة الجارية فى العالم العربي » فى « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية . كانون الاول سنة ١٩١٣

Les Courants politiques dans les monde Arabe, " Revue du Monde musulman "

واقرأ كتاب . ج . و . بورى

Arabia Infelix , or the Turks in Yemen · لندن ١٩١٥

(٢) للاطلاع الوافى على أعمال العرب خلال الحرب العامة اقرأ : —

« الاستقلال العربى والثورة الواقعة » للـكاتب جنج فى « المجلة » الفرنسية آب ١٩١٦

E . Jung , " L'Indère rendance Arabe et la Revolte actuelle " " la Revue "

« العرب ضد الترك » للـكاتب لفين « مجلة المجلات الأميركية » . كانون الأول ١٩١٦

I . D . Levine , " Arabes versus Turks " American Reviw of Reviews "

كتاب أ . موزيل ١٩١٨ (ليبزيك)

A . Musil , " Zur Zeitgeschichte von Arabien

وقبل أن نشرع فى تتبع الحوادث المهمة التى حدثت فى الأقطار العربية المنفصلة عن تركية منذ سنة ١٩١٨، نؤثر أن نسوق الكلام على النهضات القومية والحركات الوطنية فى اقطار العالم العربى الغربى، أقطار شمالى افريقية، بادئين فى الكلام على القطر الأخطر شأناً الا وهو مصر.

ان السواد الأعظم فى الشعب المصرى لهذا العهد كما فى عهد الفراعنة، متحدرو السلالة من المصريين القدماء، من الارومة النيليـة (نسبة الى النيل) القدمى. واذ كان هذا السواد من «فلاحة» المصريين على خلق البطء والقناعة، فقد خضعوا لعديد الفاتحين الغرباء الذين ملكوا مصر على التوالى فى أدوار مختلفة. وكاد يكون خضوع المصريين هذا الخضوع أشبه بسلسلة متصلة الحلقات، الا ما كان يتخلل ذلك فى بعض الفترات من ثورة ينفجر بركانها أو فتنة تشب نارها، ولكن عجلان ما تعود العاصفة فتهدأ والنار فتخمد، ثم تبتدئ حلقة من الخضوع جديدة. وهناك فوق سواد المصريين المتحدرين من الأرومة « النيلية » طبقة قليلة العدد أرفع منزلة وشأناً، أكثرها متحدر من ذرارى أواخر الفاتحين الأسيويين، العرب والكرد والجركس والألبانيين والترك. زد على هذا أن هناك بجانب هذه الطبقة العلية التى ظلت حتى الاحتلال البريطانى صاحبة الحكم والسلطان، والأمر والنهى، ومحتجنة جميع السلطة السياسية، عددا « من المستعمرات » الأجنبية المتمتعة « بحقوق الاستثناء »، وأيضا عنصراً نصرانيا قديم الارومة هم الاقباط الذين لم يدينوا بالاسلام عند طمو الفتح العربى، وعددهم اليوم يبلغ العشر من مجموع قطين مصر.

فبلاد مثل مصر، مختلط لمختلف الاجناس والاصول والعقائد وصنوف الثقافة

كتاب « الجامعة الاسلامية » لبورى لندن ١٩١٩ "Pan - Islam ,,

«الحالة السياسية والدينية فى بلاد العرب» ميلريا مجلة «العالم الاسلامى» الانكليزية تموز (يوليو) ١٩١٩

S. Mylrea, " The Politico — Religious s ituation in Arabia ,, " The Moslem World ,,

« لورانس : روح الثورة العربية » ل. توماس مجلة « آسيا » نيسان وايار وحزيران ١٩٢٠

L. Thomas, " Lawrance : The Soul of the Arabian Revolution," "asia"

والتهذيب ، كرّت عليها أزمان متطاولة وهى حانية عنقها للغريب حتى لابستها تقاليد الخضوع ورُمّت الانقياد ، قد تبدو بادئ الرأى كأنها ليست بالبلاد الصالحة البيئة والمضطرب لنشوء العصبية الجنسية . على أننا اذا اعتبرنا شأن مصر ومن وجه آخر ، رأيناها البلاد التى ما برحت أكثر أقطار الشرق الأدنى تعرضاً لتيار المؤثرات الغربية ولواقح الحضارة الأوروبية . وقد كان للفتح النابليونى عند ختام القرن الثامن عشر تأثير شديد فى وادى النيل . ولما نهض محمد على ، البطل الالبانى المقدام ، وسود نفسه على مصر بعد زوال الحكم الفرنسى ، أيقن من ذاته بأن أوروبة فائقة غيرها فى عالم العمران بحذق المنهج وحسن الأسلوب ، فشرع يأخذ عنها ويقتبس منها ، وينتهج طرقها انتهاجا وان كان عرضيا فقد كانت نتيجته انبثاث الأفكار الغربية وذيوع الآراء والمؤثرات الأوروبية ، وقد سار خلفاء محمد على على أثره وسننه من بعده فى هذه السياسة ، غير أن الخديوى اسماعيل المبذر المنفاق الذى كان اشتطاطه فى عقد القروض المالية مع الدول الأوروبية السبب الأكبر فى التدخل الأوروبى ، كان فخوراً كبيراً ومختالا عظيما متظاهراً بالروح الأوربية التى لا تجاوز العرض والقشور ، ومغاليا فى ذلك كل المغالاة ، فأكثر من حوله من الأوروبيين حتى بات عددهم كثيراً .

وظهرت الحركة الاولى التى تبدت فيها باديات العصبية الجنسية المصرية ، ظهوراً صورته احتاجٌ ونقمةٌ على اغراق الخديوى اسماعيل فى تشرب « الاوروبية » اغراقا مشؤوما يضر البلاد ويرهقها ويفقرها ، وأيضا على اكثاره من البطانة المضياعة للمال . فبات عقلاء المصريين وحكماؤهم فى هذه الحال على اختشاء مزداد لنهج اسماعيل ذلك النهج الوخيم العاقبة ، القائم على رهن استقلال مصر الذى بات معرضا للمحق والزوال ، بسبب ما عقده الخديوى من القروض المالية الاوروبية الكبرى المستنزفة لدم البلاد بالضرائب الفادحة الباهظة الاعباء . واذ كان أولئك القوم الصادقون قد تشربوا على وعى أم غير وعى منهم العقائد الاوروبية « كالجنسية » و « الوطنية » ، فقد أزمعوا أن يقفوا اسماعيل عند حد فى نهجه الجارّ لمصر كبير البلاء ، وأن يجعلوا مستقبل مصر فى مأمن من طوارق الحدثان ، وفوق ذلك فانهم لم يقصروا سعيهم وجهدهم على مقاومة أولئك الارهاط من الأوروبيين أهل الابتزاز والانتفاع على طرق فيها حذق ودهاء ، أولئك الذين كان دأبهم استغواء

الخديوى والتزيين له فى تبديد المال واستدراجه من مغرق مالى الى آخر ، بل أراد القوم أيضا مقاومة « الباشوات » المتملقين من ترك وجركس ، والمرابين من الارمن والسوريين الذين كانوا جيعا آلة اسماعيل ومواليه ومصطنعيه . هذا هو مبدأ الحركة الوطنية والنهضة القومية فى مصر ، احتجاج « وطنى » عنيف وصرخة شعبية شديدة على جميع الذين كانوا يجرون بالبلاد الى شر المهالك ، سواء أ كانوا من الاجانب أم من أبناء البلاد ، وفى مطلع هذه الحركة ظهر شعار مصر ينادى به القوم الحاضون الوطنيون ، الشعار الذى لم يسمع فى مصر من قبل ، الا وهو : « مصر للمصريين ! » .

وفى ابان مثار هذه الحركة الوطنية الوليدة ، التى طفقت فواعلها تقوى وتشتد ، ظهر جمال الدين بسلطانه النفسانى الهائل وروحه الاجتماعية الكبرى يوقظ مصر ويستثيرها بتعاليمه ، حتى غدت نفوس القوم مترعة بنشوة الانفعال . على أن جمال الدين ، هذا الرجل القطب الفرد ، لم يتجل من سلطانه ويبد من بالغ تأثيره وعظم منزلته ما تجلى وبدا منه فى مصر . وليس من المغالاة أن نقول انه هو حقاً أبو جميع ما فى مصر اليوم من نهضة وطنية ويقظة جنسية . فهو قد استطاع حق الاستطاعة أن يحكم بسلطانه ويستولى بشدة عارضته ليس على كبراء المحرضين الوطنيين مثل عرابى باشا فحسب ، بل أيضا على المصلحين المحافظين مثل الشيخ محمد عبده المصلح الكبير الذى أدرك وهن مصر وضعف أمرها فانشأ يعمل ويجد ثبت الجنان رابط الجأش فى سبيل الاصلاح ، متوخيا وسائل الترقية وذرائع التنشئة على سنن التدرج للوصول الى الغاية المطلوبة وادراك الغرض المنشود .

وفى هذه الآونة ظهر رسل الدعوة الثورية يؤدون واجبهم الذى أخذوا نفوسهم به ففى سنة ١٨٨٢ انفجر بركان الثورة يرأس القائمين بها عرابى باشا ، وهو ضابط من ضباط الجيش ومن عامة الشعب ، فكان هو أول رجل متحدر من أهل مصر القدماء ، من الأرومة « النيلية » [١] نهض ليسود مقدرات مصر فى هذه العصور الحديثة ، وما أسرع ما لبى نداءه أهل الثورة الهائجون ، وهم يصرخون « مصر للمصريين » يحاولون طرد « الاجانب » من أوروبيين وأسيويين ، من مصر بلاد الفراعنة . لكن حبطوا فى مسعاهم وسقطوا قبل الوصول الى الغاية المبتغاة ، وحدثت مذبحة الأوروبيين فى ثغر

---

(١) سمعت عن عرابى أنه عربي صميم وانه ينتسب الى النبعة الفاطمية (ش)

الاسكندرية فكانت للحال داعيا للتدخل الأوروبى . فنزل جيش بريطانى الى البلاد وقاتل الثوار فبدد قوتهم فى واقعة « التل الكبير » ، وبعد هذه الوقعة التى جرت بين أهل مصر وجيش الاحتلال ، خضعت مصر المشتتة الاحوال الفارغة الخزانة من المال للحكم البريطانى الحكم الذى تمثل كل التمثل بأفالين بارنغ أعنى اللورد كرومر . وأبقيت السلالة الخديوية على أريكة العرش ، من حيث روعى شكل الحكومة الوطنية ، لكن جميع السلطة النافذة الحقيقية قد استقر نصابها فى « المستشار المالى » البريطانى ، الناطق بلسان الامبراطورية البريطانية فى مصر والقائم بالغاية الاستعمارية .

وحكم اللورد كرومر مصر خمسا وعشرين سنة . وتاريخ هذا الحاكم المقتدر الحازم يكسبه أبداً مقاماً رفيعاً فى مستوى أعاظم رجال الادارة والتدبير وولاية الأحكام فى العالم فانه قد استطاع حقاً أن ينقذ مصر بساعديه القويتين من مأزق الافلاس ويرقى شأنها الى ذروة النجح والفلاح . غير ان الرخاء المادى ، ولو بلغ فى مصر مهما بلغ ، ما كان ليطفئ فيها جذوة القومية واعتلاج روح العصبية الجنسية . فاذ كانت بذور النهضة قد بذرت فى بلاد الفراعنة قبل الاحتلال البريطانى ، فقد أخذت هذه البذور تنمو نمواً بطيئاً ولكن نمواً ماضياً مضياً مستمراً فى تربة وادى النيل الممرعة الخصبة ، وطفق الشعور القومى فى المصريين ، وقد كان عهد واقعة « التل الكبير » وليداً ، يزداد نمواً ويشتد قوة واستقراراً وايغالا فى النفوس على توالى الأيام ، حتى بات عند نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر أثراً محسوساً بيناً جليا ، يوقن به أهل النظر وأرباب الادراك من المستطلعين الأوروبيين ولما عاج المستكشف الافريقى « شوينفرت »[١] على مصر سنة ١٨٩٥ ، راعه حقا ماشاهده من مبلغ التطور النفسانى الذى حدث فى وادى النيل خلال المدة المنقضية منذ زيارته الأولى فما قال : « ان التنبه القومى واليقظة الجنسية ينموان فى مصر نمواً بطيئا ولكن مستمراً . ان المصريين وان كانوا مابرحوا على بعد من العصبية الجنسية الصحيحة فان طلائع ذلك قد بدت ولا تلبث أن تتكامل » .

وفى مطلع القرن العشرين أخذت الواقعات تحقق ماكان قد سبق لأهل النظر الصادق وأولى الألباب الثاقبة فانبأوا به ، فتطورت الحال تطوراً فجائيا كبيراً وانقلبت

(١) Georg Schweinfurth

مصر بؤرة تغلى فيها مراجل العصبية الجنسية ، وقد كان فى القائمين بهذه الحركة القومية التى بعثت بعثا جديداً ، حزب معتدل مؤلف من المحافظين مثل الشيخ محمد عبده مصلح جامعة الأزهر والصديق الصفى للورد كرومر[١] ، المصلح الذى جاهد حق الجهاد فى سبيل تعليم أبناء بلاده وأمته ان أقرب الوسائل وأوفى الذرائع لبلوغ غاية الحرية الصحيحة التى تنشدها الأمة المصرية انما أمرها لايتم الابتنوير الأذهان وتثقيف الألباب ، وتربية النفوس التربية الصحيحة ، والترقية العلمية . أما الحركة المصرية الجديدة فقد كانت على الجملة احتجاجا شديداً عنيفا على استمرار الحكم البريطانى فى مصر وطلبا لجوجا لامنصرف عنه لنيل الاستقلال العاجل . ولعل الأمر الأحرى بالاعتبار والأجدر بالتدبر فى جميع القضية ، ان المصريين قاطبة كانوا ، وقد تغلغلت فى نفوسهم نشوة العصبية ، على اختلاف أحزابهم من محافظين وغلاة ، متفقين اتفاقا تاما على أن لايعتبروا مصر قطراً تابعا للامبراطورية تبعا دائما ، وقد كان لرجال النهضة والحركة أساس قانونى ، مشروع صحيح ، يبنون عليه حججهم وبراهينهم فى وقوفهم فى وجه بريطانية ، وذلك فى الواقع أن الحكم البريطانى انما قام على أسس سياسية واهية متضعضعة غير ثابتة باعتبار أن بريطانية قد انبرت تتدخل فى شؤون مصر من تلقاء نفسها ، جاعلة ذاتها كأنها « منتدبة » لرعاية المصالح المالية الأوروبية . فكان عملها هذاموضوع خلاف بعيد الشقة ، وسبب تشاد شديد فى أوروبة ولا سيما بين بريطانية وفرنسة . فلما أيقنت الأولى باشتداد الأمر وتفاقم الخطب عمدت الى تسكين ثائر الحال فأعلنت مراراً وتكراراً أن احتلالها مصر انما كان على صفة موقتة لاصبغة دائمة له . والواقع ان سخط المصريين السخط البالغ الحد ، قد كانت فرنسة من الهائجين لثورته والموقدين لناره وذلك على عمد منها . وما انفك هذا شأنها حتى عقدت عروة الود والمصافاة بينها وبين بريطانية سنة ١٩٠٤ ، مع هذا كان العطف الذى تعطفه فرنسة على الآمال المصرية عاملا كبيراً فى ترقى النهضة الوطنية فى مصر ، فعظمت مكانة فرنسة فى وادى النيل ، من الجهة الأدبية التهذيبية ، حتى بات نسيج التعليم الفرنسى فى أعين المصريين أجمعين أصلا ، وجميع ماعداه من أنساق التعليم الأوروبى نسخا عنه

(١) الذى ظهر فيما بعد من خاطرات كرومر أن المرحوم الأستاذ كان يصانع اللورد مصانعة لينال منه بعض المساعدات لوطنه . والذى يعرفه هذا العاجز من نفس الأستاذ أن قلبه كان يلتهب تحرقاً على حالة مصر . (ش)

ومحاكاة له . فجعلت الناشئة المصرية تأخذ العلوم عن أساتيذ فرنسيين ، سواء أفي مصر أم في فرنسة ، ولما كان هؤلاء الاساتيذ على الغالب من أهل المقت لبريطانية ، كانوا لايفترون عن اهتبال كل سانحة لبذر بذور الشنأة للانكليز في نفوس الطلبة المصريين وحملهم على أن يقوموا بالمناوءة والمناهضة للمحتلين.

وقد كان رجال النهضة وأهل العصبية من الغلاة يرأسهم فتى من فتيان وادي النيل هو مصطفى كامل . كان هـذا الفتى الفرد مقيم مصر ومقعدها ، زعيم المحرضين والهائجين دون منازع ، لوذعياً حديد الفؤاد ، شديد العارضة ، متوقد الجنان وطنية ، خطيباً مصقعاً ساحر البيان ناريّ الكلام ، يقتاد سامعيه وقرّاءه متى شاء وأنى شاء والى ماشاء . وفوق ذلك كان ناشراً مقداماً من الطراز الأول لدعوة العصبية الجنسية ، لاينى له عزم ولا يفل له حزم ، وكان يقوم بتحرير طائفة من الصحف والمجلات معاً حتى اذا ماعطلت له السلطة البريطانية واحدة منها اعتاض عنها في الحال بسواها بحيث لايقف سعيه ولا ينقطع جهاده وعلى الجملة فانه كان لانظير له في العصبية الجنسية المصرية ، ويمكن الاطلاع على شيء من روحه في ذلك بالوقوف على بعض ماكتبه ، فما دبجه يراعه أوائل سنة ١٨٩٦ ، متخذاً شعاره « المصريون لمصر ومصر للمصريين » مايلي : —

« ان الحضارة المصرية لن يستوي لها ساق في المستقبل ولن يشيد لهـا بناء الا اذا قامت على سواعد أهل مصر واشترك فيها كل مصري وعلم الفلاح والتاجر والأستاذ والطالب ان الانسان ذو حقوق معنوية مقدسة ، وانه ماخلق ليكون آلة مسخرة في يد غيره بل ليحيا حياة عقلية انسانية راقية ، وان حب الوطن لأسمى عاطفة تشرف بها النفس وتعتز وتفخر ، وان أمة غير مستقلة لهي والعـدم سيان ! انما بالوطنية ارتقت الأمم من دركات الانحطاط الى ذروة العلى وسارت سريعة الخطى في سبيل الحضارة والمجد والقوة والسلطان . انما بالوطنية يتكون الدم الجاري في عروق كل أمة حية. انما بالوطنية يحيا كل مخلوق عاقل»

وماكان احتقار الانكليز في مثل هذه المقالات قليلاً . والى القارىء كلمة من إحدى فراتح « اللواء » : « نحن المغتصب حقهم والانكليز هم المغتصبون . نحن نطلب حقاً مقدساً والانكليز هم أعداء هذا الحق . لهذا اننا على ثقة بالفوز عاجلا أم آجلا ، ومتى كان امرؤ ذا حق فلا بد أن يناله ، وليس بينه وبين ادراكه الا شطر من الزمن » .

على ان مصطفى كامل كان فى رحابة صدره و بعد مطمحه وآماله ، طلاّعاً الى الجواهر لاتأخذ بلبه الاعراض ، درّاكاً للحقائق لايسع نظره الأوهام ، فأيقن وهو الرجل الحكيم بان ليس من المستطاع ولا سيما فى ذلك الحين إكراه الانكليز على الجلوة عن وادى النيل ، لهذا هو لم يحاول معالنتهم بالعداء أو مصارحتهم بالمناهضة الأمر الذى علم من ورائه جر البلوى الى نفسه وأبناء أمته . وانتقل الى جوار ربه فى أوائل سنة ١٩٠٨ غضاً رطيباً فى الرابعة والثلاثين من عمره ، فوقع رداؤه من بعده على مريده الزعيم محمد فريد بك . أما هذا الرجل فلم يكن ندّ مصطفى طرازاً ، فحاول أن يغنى عما كان يعوزه من بلاغة الخطابة وسحر الكلام ، بشدة التنديد ومرارة الطعن [١] ، ويمكن ادراك الفرق والتفاوت بين نسيج الزعيمين بالتنظير بين الفواتح التى حبرها كل منهما فى صحيفة « اللواء » فقد جاء فى مقال بقلم محمد فريد بك نشر فى ايلول سنة ١٩٠٩ مايلى : —

« بماذا نذكرك أيها اليوم ، وفيك تدنست هذه الأرض بأقدام الانكليز ، وتلوثت بجرائمهم ، وتلطخت بفظائعهم ، فقضوا على دستورنا ، وبكموا أفواهنا ، وعقدوا ألسنتنا ، وحرقوا الأحياء منا ، وشنقوا الأبرياءَ من أهلنا ، وجاءوا شيئاً اداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً » [٢]

ففى هذا الدور الذى بات فيه العنف أشد وأعظم ، ازدادت الأسباب المشجعة لرجال النهضة الوطنية وتضاعفت جرأتهم واشتد اقدامهم ، وذلك لعدة أسباب : منها ان اللورد كرومر زايل كرسيه سنة ١٩٠٧ فخلفه من بعده السر « ألدون غورست » . وإذ كان هذا الحاكم الجديد من حزب الأحرار الانكليز الذين كانوا عهدئذ أصحاب الحول والطول والسلطة القائمة فى الدولة البريطانية ، أخذ فى التمشى على قواعد مذهبه الانكليزى الحر متوخيا دائماً تسكين هائج مصر وتهدئة ثائرها بالرفق والاستمالة والتوفيق ، لابمثل ما كان يتمشى

---

(١) كان المرحوم محمد فريد ممن يشار اليهم بالبنان بين زعماء النهضة الشرقية ، وكانت فيه مناقب عديدة تستحق له حرمة كل من عرفه. (ش)

(٢) هذا مقتبس من مقال نشر فى « اللواء » الصادر فى ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ تحت عنوان (ذكرى اليوم العصيب . الحداد أيتها الأمة !) بتوقيع « امين الرافعى المحامى » ، وخلاصة المقال دعوة الأمة المصرية للحداد احتجاجاً على الاحتلال الانكليزى الذى كان مضى عليه سبعة وعشرون عاماً . (المعرب)

عليه اللورد كرومر من الاتوقراطية غير المتحيزة ، ومنها ان ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ قد كسبت المصريين صولةً هائلة وحدَّةً شديدة ، فازداد صراخهم وبلغت أصواتهم عنان السماء ، يريدون حكومة دستورية شوروية نيابية . ومنها ان اعزاز ميثاق الود والولاء بين فرنسة وبريطانية كان قد محق أمل المصريين محقاً ، ذلك الأمل الذى كثيراً ماعللوا أنفسهم بتحقيقه وهو ان تكره بريطانية إكراهاً بقوة السلاح على الجلوة عن وادى النيل قياماً بتحقيق عهودها السياسية . وفى هذا الموضع أدرك المصريون حقيقة الحال والواقع فازدادوا اعتمادا على نفوسهم ، وانقلبوا يضاعفون جهودهم واثقين أن لاناصر لهم سوى أنفسهم ولا حاكّ لجلدهم غير ظفرهم .

ولما بلغت الحال هذا المبلغ من اشتداد روح القومية والعصبية الجنسية بات من المتوقع حبوط سياسة التوفيق ، والاخفاق فى نهج الاستمالة ، لأن السر ألدون غورست ، وان كان ذا اقتدار على التأليف والاستمالة فى فرعىّ الأمور وجزئىّ الشؤون ، فلم يكن يستطيع أمراً واحداً هو غاية الغايات عند رجال النهضة ومرادهم فوق كل مراد ومبتغاهم فوق كل مبتغى ، وذلك أن يقطع للمصريين وعداً باعطائهم الاستقلال ومنحهم الحكومة النيابية الدستورية . قد رفضت بريطانية هذا الأمر برمته بل أبت طرحه على بساط البحث والمناقشة ، وغدا الانكليز قاطبة مقتنعين اقتناعاً راسخاً ان مصر مع قناة السويس انما هما الصلة الحيوية بين قسمى الأمبراطورية البريطانية فى الشرق والغرب ، وان بقاء الحكم البريطانى من حيث هذا الاعتبار قد غدا ضرباً من ضروب الضرورة الكلية التى لامندوحة عنها فى أى وجه من الوجوه ، فنشأ عن ذلك عقبة سياسية تورطت عندها الأمور ، بين سياسة حب التوسع الأمبراطورى البريطانى وبين مطلب المصريين الشديد ، لهذا أخفقت سياسة أحرار الانكليز التى قد يرجى نيل الائتلاف على يدها ، بل عدت عقما مابعده من عقم ، وقد اعترف السر ألدون غورست نفسه بهذا فى بياناته الرسمية ان الاذعان فى القضية المصرية من جانب بريطانية انما بات دليل العجز وبرهان الضعف .

ثم باتت الحكومة البريطانية من بعدئذ تتوقع نزول النازلة وسوء العقبى على أثر ما استحال عليها من حوص الشق ، ورأب الصدع ، فاقتنعت أن لاذريعة لها لدفع الخطر الداهم ودرء الخطب المقبل الا باتخاذ وسائل الاحتياط الشديد لقمع كل حركة تبدو فى وادى

النيل ، فاستبدلت سنة ١٩١١ بالسر ألدون غورست اللورد كتشنر – اللورد الذى جاء نذيراً صارخاً فى ملأ رجال النهضة الوطنية فى مصر ان الفتنة ان غلى مرجلها قمعتها تلك اليد الحديدية واستأصلت شأفتها ، اليد التى سحقت الخليفة وجوعه من الدراويش عند « أم درمان » سحقاً . ووصل كتشنر الى مصر معلناً مبيناً انه انما جاء لاقرار الأمن والنظام فى نصابهما حتى يستتب الأمر وتصفو الحال ، وحقاً فان اللورد كتشنر قد أنجز القيام بهذا بدقة واحكام وبلغ المصريين تبليغاً صريحاً ان بريطانية لاتنوى الجلوة عن وادى النيل ولا تعد أهل مصر أهلا للحكومة الشورو ية النيابية حاضراً ولا فى مستقبل معلوم الميقات . وأنذر المصريين إنذاراً ان الأجدر بهم أن ينصرفوا عن مزاولة السياسة التى ما كانوا فيها على مزعم الانكليز أبناء بجدتها ، الى الزراعة وهى الفن الذى يجيدونه على مهارة . وأما الدعوة الى الفتنة والثورة فقد استطاع اللورد كتشنر بما خولته القوانين الجديدة التى سنت فى تلك الغضون أن يتناولها بالقضاء عليها متناولا قريباً . زد على ذلك ان الحكومة البريطانيــة عطلت جميع الصحف الوطنية المجاهدة فى سبيل النهضه والاستقلال وشتت شمل زعماء النهضة وقادة الحركة بزج فريق منهم فى غيابات السجون ، واعتقال بعضهم ، ونفى البعض الآخر . وفى الواقع فان الحكومة البريطانية قد جهدت جهداً كبيراً لتصرف الانتباه فى الخارج عن أمر مصر ، وأخذت فى تمويه شؤون وادى النيل على العالم ، وقد انبرت الصحف البريطانية تظاهر الحكومة فى هذا الأمر مظاهرة الاخلاص وتمالئها على تلك المزاعم ممالأة النصير المعين ، فامتد رواق السكينة فى مصر واستتب الحال استتباباً ما كان مثله منذ عقود من السنين .

على أن ذلك كان أشبه بسكون العاصفة لاتلبث أن تتناوح أرياحها فى الجو المربد ، فعادت مراجل الاضطراب فى مصر تغلى مادون أغطيتها غلياناً شديداً ، حمل أرباب التدبر والاستطلاع على الاختشاء البالغ والتشاؤم الشديد . قال سدنى لو الكاتب الانكليزى الذائع الصيت سنة ١٩١٣ بعد استقصائه حال مصر مدقق الاستقصاء ماياتى : « ليس لنا لعمرى شئ من مقام الاكرام والاعتبار عنـد الأمة المصرية ، التى بعضها يخشوننا خشية وبعض يحترموننا احتراماً ، وبعض وهم أقل من القليل يحبوننا حباً [١] »

(١) كتابه « مصر فى دور الانتقال » (لندن ١٩١٤) Egypt in Transition.

وأكثر من هذا صراحة و بياناً مقال موسوم بـ« الظلام المخيم فوق مصر » نشر قبيل انفجار بركان الحرب العامة ، فى احدى مجلات العلوم الكبرى (١) التى يدبج فصولها ومقالاتها العلماء الاختصاصيون النحارير فى شؤون الشرق ، فكان لهذا المقال كبير وقع و بعيد دوى ، ومما جاء فيه قول الكاتب الضليع صاحب المقال : «ان هذا الامساك الطويل ، والانقطاع المديد فى عالم الصحف البريطانية عن كل بحث فى جميع مايتعلق بالشؤون الداخلية فى مصر ، ليس دليلا على حسن الحال وصحتها بل على سقمها واعتلالها ، بل هذا السكون الظاهر البادى ماهو الا السخط مضغوطاً عليه أشد الضغط لئلا ينفجر ، انما هو عدم الثقة بالحكومة البريطانية المحتلة ، و وغر الصدور عليها . وقد كان من شأن الواقعات الحديثة انها شددت الاعتقاد والايقان فى نفوس المصريين ان الحكومة البريطانية انما تعد العدة كلها لاستلحاق مصر بالامبراطورية استلحاقا تاماً باقياً . وليس من شأننا فى هذا المقام ان نتساءل فى مبلغ ماهى عليه هذه الأمور المنسوبة الى الحكومة البريطانية من الصحة والوقوع . انما الحقيقة الجوهرية المشهورة ان حكومة الاحتلال لما تفلح فى اكتساب الرضى والقبول من لدن المصريين ، بل مابرحت على الضد من ذلك ولم تنفك هى مظنة السوء وشاهد العداء بينها و بين أبناء النيل » ويحمل هذا المقال القيم البين على الارتياب الشديد فيما اذا كانت التدبيرات الجائرة التى اتخذها اللورد كتشنر قد أتت بنتيجة ماسوى ان قد سببت استفحال السخط وغليان مراجله غلياناً هائلا تحت اسداد لاتلبث أن تنخرق . و يوضح هذا المقال أيضاً «ماقد بلغته الروح الوطنية والعصبية من الشدة الكبرى فى مصر اليوم ، وذلك على ما هو متخذ من ضروب المحاولة والتذرع للقضاء على جميع الحرية السياسية قضاء تاماً . وكان من شأن كمّ أفواه الصحف الوطنية هذا الكم الخانق ما قد توقعه ارباب النظر الصادق وهو انه قد حمل سواد المسلمين على الانقلاب الى حال هياج داخلى واضطراب هائل ، بل أوصل الاقباط المخلصين للدولة البريطانية الى المجافاة فالمغاضبة ووغر الصدور . قد يمكن أن تكون الحكومة البريطانية عاجزة عن أن تتذرع بذرائع هى أفضل وأجدى مما تذرعت به لاكتساب ثقة الأمة المصرية وحسن نيتها ، فلهذا هى فى مثل هذه الحال ترى أن القضاء العاجل على كل حركة تبدو دليلاً على السخط والمغاضبة

(١) « المجلة الاسيوية » نيسان ١٩١٤ The Asiatic Review

من أفضل الوسائل وأوفاها للذياد عن حوض الاحتلال ، ولكن اذا كان هذا هو الواقع بعينه فانما هو اعتراف صريح بمنتهى ما وصلت اليه الحكومة من التلاشى والوهن ، بل بتضعضع الحكم البريطانى بين أيدينا وتداعى أركانه تداعياً ما له الانهيار » وختام المقال انذار أن القضية المصرية مزدادة تورطاً واعضالا ، ذلك : «أن قضية مصر وان كانت لتختلف عن غيرها اختلافاً بعيداً فى رأى البريطانى ، فان مسلمى الهند مرتقبون مجاريها ارتقاباً شديداً دائماً اذ هم يقومون لها ويقعدون ، وكذلك شأن جميع رعايانا من المسلمين فى المغربين الأفريقيين الأقصى والأوسط ، وهؤلاء هم من أشد مسلمى الدنيا عاطفة دينية وبغضاً للاعتداء الأوروبى وملء صدورهم ونفوسهم الارتياب من جراء الأعمال السياسية التى تقوم بها الدول النصرانية الجادّة فى سبيل الفتح والاستعمار . »

الى هذه الحال كانت قد انتهت النهضة المصرية سنة ١٩١٤ فلما فتقت الحرب العامة كان ذلك سببا فى تعاظم الاضطراب واشتداد الهياج ، فغدا موقف بريطانية فى مصر وايم الحق صعبا ، ومع أن بريطانية قد تقلدت فى الواقع ازمة الحكم تقلداً تاما ، وتشددت فى ولاية سلطانها تشدداً بالغا ، فان مصر كانت ما برحت باعتبارها — من حيث الصفة القانونية — تابعة للمملكة العثمانية ، وكانت بريطانية انما تعتبر فيها دولة محتلة احتلالاً موقتا . وقد بدا من الحال بعد نشوب الحرب أن تركية مائلة الى محالفة أعداء بريطانية لتخوض والدول التوتونيـة المعمعان الهائل جنبا الى جنب ، ووضح أيضا اذ ذاك أن المصريين الاشداء العطف على تركية ، حتى ان الخديوى عباس حلمى ما كان قط ليبطن شيئا من ميوله ونزعته الى الترك . وخلال عدة الشهور الأولى من الحرب العامة ، بينما كانت تركية لم تبرح محايدة فى الظاهر ، غدت الصحف المصرية ، على شدة الرقابة البريطانية ، تنفث سم الفتنة نفثا فى تضاعيف سطورها ، وبات موقف الشعب المصرى ذلك الموقف المتزعزع المضطرب ، وأضحى انتشار السجس الشديد والقلق فى كتائب الجنود المصرية ، دليلا صريحا على قرب هبوب العاصفة وانفجار البركان ، فخشيت بريطانية أمر مصر الخشية الكبرى ، فلما دخلت تركية فى المعمعان فى شهر تشرين الثانى سنة ١٩١٤ ، لم يكن أعجل من بريطانية فى خطوتها الأخيرة فى مصر فخلعت عباس حلمى ونادت بعمه حسين كامل سلطاناً وأعلنت أن مصر باتت بلاداً محمية تابعة للأمبراطورية البريطانية .

فكان ذلك كالسهم أصاب بعض المقتل ، فاشتعل غضب رجال النهضة ايما اشتعال .
أما الفتنة المنظمة فكانت غير مستطاعة لأن البلاد كان قد غمرها طوفان الجيوش البريطانية والاستعمارية التي تدفقت على وادي النيل من كل جانب ، وعلى جميع هذا فقد اشتد الهرج والمرج ونشبت اضطرابات عديدة غير منتظمة لم يستطع قمعها الا باعلان الحكم العسكرى (العرفى) الجائر الشديد وقد وصف مستقص فرنسى هذه الايام العصيبة فى مصر وصفاً محكماً فقال . « ان الجهاد ليهيج روح التعصب على النصارى هياجاً كبيراً ، ذلك التعصب الثائر فى نفس كل مسلم اليوم ، وقد بات المستطلع منذ شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩١٤ يستطيع أن يقرأ تلك السيم التى أخذت تتبدى فى وجوه الطبقة العامة من أهل البلاد المسلمين ، سيم الأمل فى ذبح النصارى ، اذ غدا أهل هذه الطبقة ينظرون شزراً الى الأوروبى العابر فى أسواق القاهرة ، و بعضهم قد هللوا تهليلاً وفرحوا فرحاً عظيما عندما بلغهم أن سلطان تركية قد أعلن الجهاد واستنفر المسلمين للقتال فى سبيله منضوين تحت راية الخليفة . ومع أن السلطة البريطانية كانت تشدد عقاب الجلد الموجع بكل من جئ به الى مقر من مقار الشرط مشكواً انه قد أذاع أنباء فى شأن الجهاد ، فقد ظلت الحال على أشد ما يكون من الاضطراب . ولم يقصر أمر الهياج بسبب الجهاد على العامة فحسب بل تعداهم الى الأزهر . وقد أخبرت أن الأوربى الزائر لهذه الجامعة الاسلامية الكبرى بات عند ولوجه أبوابها لا يسمع سوى اطايب المدائح وغرر النشائد الفخرية فى شأن العرب والمسلمين والجهاد [١] »

وانبرى رجال النهضة الوطنية الذين فى الخارج ينشرون مالا يستطيع أخوانهم نشره فى مصر ، ويجهرون بما لا سبيل الى الجهر بمثله فى وادى النيل فأصدر محمد فريد بك زعيم الحزب الوطنى وكان فى جنيف احتجاجا رسميا على « التغييرات السياسية غير القانونية ولا الشرعية التى أعلنتها بريطانية فى شان مصر فى ١٨ كانون الأول سنة ١٩١٤» جاء فيه : « انه يجب على بريطانية الزاعمة انها انما تحارب المانية دفاعا عن بلجيكا الا تدوس حقوق مصر بقدميها والا تعد صكوك المعاهدات فى شأن مصر قصاصات من الورق لاشأن لها [٢] »

(١) « مصر فى أوائل الحماية » — مجلة العلوم السياسية » ١٥ حزيران ١٩١٥
(٢) محمد فريد بك ـ مقاله « مصر والحرب » « المجلة السياسية الدولية ايار ١٩١٥
L' Egypt et la Guerre,, " Revue politique Internationale

وأخذ هؤلاء القادة الذين خارج مصر يعقدون الصلات الوثق بينهم و بين ألمانيـة كما يستبان ذلك من مقال نشره عبد الملك حمزة أمين الحزب الوطنى فى مجلة ألمانية ذات شأن جاء فيـه ما يلى : « ليس من مصرى الا و يتوسل الى الله عز وجل أن يديل ألمانيـة من أعدائها ويكسر بريطانيـة شر كسرة و يقوض أركان امبراطوريتها تقويضاً . انى لما كنت لم أزل فى مصر فى أوائل الحرب قد وقفت على هذا الشعور الذى يكنه المصريون فى صدورهم وقوفا تاما وشاهدت الحال عن كثب مشاهدة صحيحـة . فان أهل البـلاد طراً سواء أفى المدن أم فى القرى ، من أرفع الخاصة حتى أدنى العامة ليثقون الثقة كلها بصداقة القيصر وولائه للاسلام وخليفة المسلمين ، و يتضرعون الى المولى الكريم أن يمد ألمانية من لدنه بظفر شامل ونصر مبين [١] »

نعود الآن للكلام على النهضات القومية والعصبية الجنسية فى سائر الأقطار الافريقية الشمالية التى لا نرى قطراً منها قـد ظهرت فيه روح العصبية ظهوراً بيناً و برزت فيـه المنازع القومية بروزاً متمايزاً كما هى الحال فى مصر . على أن البغضاء والشنآة للاوربيين لشديدتان كل الشدة حدث عنها ولا حرج ، من حيث ان الحركات الوطنية المشهودة اليوم فى المغربين الأقصى والأدنى انما هى على الغالب ضروب من الشعور العام المنتشر انتشاراً كبيراً بوجوب التضامن القومى الشامل والالتئام الجنسى العام المعروفين «بالجامعة العربية» و « الجامعة الاسلامية » اللتين نسوق الكلام عليهما الآن .

على أن حقيقة السبب فى كون الشعور القومى فى الأقطار الافريقية الشمالية أقـل منه فى غيرها هو أن ليس هناك من بلاد ما عدا مصر كان شعبها فيما مضى أمـة تامة الوحدة . وفوق ذلك فليس هناك اليوم من الظواهر الجلية ما يدل على أن أحد هـذه الشعوب العـديدة سائر فى سبيل يصير بها « أمة صحيحة » ، إذ أن معظم سـواد الشعوب القاطنة سلسلة البلدان بين البحر المتوسط وصحراء افريقية انما هم من البربر القدماء الأصل والأرومة فهم باعتبار الجنس الى الأوربيين أقرب منهم الى الاسـيويين أو الزنوج ، ويعدون أنسباء للشعوب « اللاتينيـة » عبر البحر المتوسط [٢] وأمر هؤلاء البربر شبيه

(١) تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ " Die agyptische Frage,, Aaien

(٢) يكاد يكون محققاً أن البربر من أهل مراكش والجزائر وأهل الزاب فى المغرب الاوسط وقسما

كل الشبه بأمر الألبانيين فى شبه جزيرة البلقان ، بسبب كونهم منقسمين انقسامات عديدة متأصلة فيهم متمكنة منهم فغـدوا قبائل متفرقة كان من شأنها فى بعض الفترات أن ألفت شيئا من الاتحاد ولكن لم يكن من شأنها ترقيـة عوامل العصبية القوميـة الصحيحة (١)

و يخالط البربر فى الأقطار الافريقية كلها العرب الذين جاءوها من آسية مخالطة على أقدار مختلفة . فالعرب قد استطاعوا حقا أن يستعمروا افريقية الشمالية كلها عنـد الفتح الاسلامى أى منذ أكثر من اثنى عشر قرنا ، وأن يجعلوا البربر يدينون بالرسالة الاسلامية و يستعربون تهذيبا وأخلاقا ، ولكنهم لم يستطيعوا تصيير شمالى افريقيـة قسما من العالم العربى ومن رسوخ العروبية و بمكان سورية والعراق ومصر وان تكن هذه الأخيرة دون القطرين الأولين قليلا فى ذلك ، فالجنسان العرب والبربر لم يمتزجا فى شمالى افريقيـة بعضهم ببعض امتزاجا حقيقيا تاما ، ولذلك ظـل البربر على كرور ألف سنة بل أكثر خاضعين للسيادة العربيـة ، ولكن مختلفين متميزين عن العرب عادات وأخلاقاً ، وهم يحتفظون بلغتهم احتفاظاً شديداً . ولم تقع صلات الزواج بين العنصرين الا قليلا ، وظل العرب الصرحاء قبائل كبيرة البطون والأفخاذ حتى اليوم ، ولكن غرباء فى بعض الأحوال والاعتبارات (٢)

لذلك غدت الحياة السياسية فى أقطار شمالى افريقية المختلفة العناصر والأصول حياة اضطراب تعتورها الانشقاقات والانقسامات . وكانت مراكش وما برحت أكثر الأقطار

من أهل تونس وطرابلس وأهل جالو من برقة ثم الطوارق فى الصحراء وأهالى الجزر الخالدات (كنارى) المصاقبة للمغرب الاقصى كلهم من أصل واحد وبعض المؤرخين يضم اليهم بربر النوبة والذين بأعلى أسوان ولم يثبت أصلا ان هؤلاء الاقوام هم من أصل أوربى بل تاريخ أصلهم لا يزال مجهولا . «ش»

(١) ويزجربر — تاريخـه « بيض افريقيـة » يشتمل على بيان واف موجز فى شأن البربر (باريس ١٩١٠)
H . Wejsgerber. " Les Blauce d' Afrique

(٢) للاطلاع على ماهية الفروق بين العرب والبربر اقرأ كتاب « العرب والقبائـل » لمؤلفه كاى دى سانت آمور (باريس ١٩١٩)
Caix de Saint Aymour, " Arabes et Kabyles ,, " Coup d' aeil sur l'Islam en Berberie ,, Paris 1917
وكتاب بل

الافريقية الشمالية وحدة والتئاماً وثباتاً فى مجموعها السياسى ، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوماً الى الجبال التى تقطنها القبائل المختلفــة . وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية ممتدة على طول السواحل وأما البلاد الورائية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوى التام . على هذه البلاد المتبلبلة طفق الفتح الفرنسى يتدفق فبدأ غامراً الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم [١] . ان فرنسة قد أرخت على البلاد سكينة وكسبتها نظاماً ونجحا ماديا [٢] غير ان

(١) اقرأ « الفتح الاوروبى الثانى فى شمالى افريقية » (تموز ١٩١٢)

A . C . Coolidge, "The Europcau Reconquest of North Africa,, "American Historical Reviw ,,

(٢) بينما أنا أحرر هذه السطور قرأت فى الجرائد الفرنسوية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر ، حيث كانوا ذهبوا للاطلاع على حقيقة أحوالها ، فكان من جملة خلاصة تحقيقاتهم ان من الأربعة الملايين ونصف المليون الذين هم مسلمو الجزائر ، أربعة ملايين نسمة لايملكون شيئاً من الدنيا ، بل هم جميعا مزارعون وأجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والمتملكين من المسلمين . وان هذه الملايين الأربعة يكتفون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوأ حال من المعيشة ، ويموت من أطفالهم ٨٠ فى المائة من سوء الغذاء .

ومعلوم أنه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر ، وكان جميع فتكها بالمسلمين ، وفى كل سنة تقول الحكومة الفرنسوية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئاً ، ولا يزال مسلمو الجزائر من سنة ١٩٢٠ الى اليوم يموت منهم الالوف من الجوع ، كأنما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين ألف قتيل التى سقط منهم فى الحرب العامة . . . وأغرب من ترك المسغبة تعمل عملها فيهم ان الجزائر فى حال من اليسر وفيض الموارد التجارية لايقدر الانسان أن يفهم معها كيف أهلها يموتون جوعاً . فقد صرح المسيو ستيغ Steeg والى الجزائر العام فى لجنة المكوس ان تجارة الجزائر تزداد بسرعة فائقة ، حتى انها ارتفعت من ٦٠٠ مليون فرنك الى مليار وستمائة مليون فرنك سنة ١٩٢١ ، فصارت واردات جمارك الجزائر تفوق واردات المستعمرات الفرنسوية كلها مجتمعة . وصرح الحاكم المشار اليه أيضاً ان مستعمري الجزائر الفرنسويين (الكولون) اكتتبوا فى قرض سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٢٠ بمبلغ قدره مليار و ٧٦٦ مليون فرنك . فبعد هذا لاعجب أن يموت الوطنيون جوعاً اذ عند ما يكون ثلاثمائة أو أربعمائة ألف فرنساوى قادرين ان يكتتبوا فى بعض القروض الفرنسوية بنحو ثمانين مليون جنيه ، أى بمثل ايراد الدولة المصريه السنوى مرتين ، فماذا يكون لعمرى مجموع ثروة هؤلاء المستعمرين ! ولا غرو بعد هذه البراهين الحسابية التى لاتقبل أدنى جدال ، أن يبقى أربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك لايملكون شروى نقير ويعيشون باجرة عملهم اليومى أو بالأحرى لايعيشون . . .

هذه المنافع والفوائد التى أتت بها السيادة الأوروبية فى هـذه الأقطار الافريقية كما فى غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعاً حديثاً من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعاً على مستوى متماثل فى الاجماع على شناءة الفاتح الأوروبى ، وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الأجنبية بتة . لذلك قد شهـد العالم خلال الجيـل الماضى نشوء «الجزائر الفتاة» و «تونس» وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتى والحرية [1]

أما المتجه الذى تتجه هذه الأقوام فى نهضتها فهو بغايته أميل الى انشاء الوحـدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم الى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا ، منه

ان الاحصاء المتقـدم الذى كنا ذكرناه فى الطبعة الأولى لمسلمى الجزائر هو احصاء قديم وناقص جداً عن الحقيقة . وقد علمنا فيما بعد أن مسلمى الجزائر يناهزون ستة ملايين نسمة

وبينما نحن نتحرى لنعرف الحقيقة اذ ظهر كتاب «الجزائر» بقلم الوطنى الفاضل المحقق السيد أحمد توفيق المدنى المقيم اليوم بمدينة الجزائر ـ بأمر الحكومة الافرنسية التى أبعدته من تونس ـ وهذا الـكتاب قد جمع كل مايلزم معرفته من شؤون الجزائر بحيث لايصح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط ومن جملة هذه المعلومات التى كفلها هذا الـكتاب النفيس احصاء الاهالى

فتجد جدول احصاء مدققاً لـكل عمالة من عمالات الجزائر ولـكل بلد من كل عمالة شاملا جميع أصناف الاهالى مأخوذة كلها من دفاتر الاحصاء الرسمى سنة ١٩٣١

وبحسب هذا الاحصاء العام يكون عدد مسلمى عمالة قسنطينة مليونين ومائتين وواحـداً وسبعين ألف نسمة . وعدد مسلمى عمالة الجزائر مليوناً وستمائة وأربعة وتسعين ألفاً . وعدد مسلمى عمالة وهران مليوناً وستين ألفاً وثمانمائة وستين نسمة . وعدد مسلمى الجزائر الجنوبية خمسمائة وستة وستـين ألفاً . فمجموع مسلمى القطر الجزائرى خمسة ملايين وستمائة واثنان وعشرون ألفاً وأربعمائة وثلاث وأربعون نسمة

وأما الاوربيون فى القطر الجزائرى ففى قسنطينة ١٨٩و ١٨٩ نسمة وفى الجزائر ٣٥٠٠٤٥ وفى وهران ٩٠٢ ٣٥٥ وفى الجـزائر الجنوبية ٨٥٨٩ وجملة الاوربيين تسعمائة وثلاثة عشر ألفا وأربعمائة وتسع وسبعون نسمة (ش)

(١) لزيادة الاطلاع على النهضات الوطنية فى الاقطار المغربية الخاضعـة لفرنسة اقرأ : — « العصبية الجنسية الاسلامية» (قسنطينة والجزائر ١٩١٣) A. Servier, "LeNationalisme musulman,,

الحضارة التونسية (باريس ١٨٩٨) P . Lapie, " Les Civilezations tunisienne ,,

«الجزائر الفتاة » (تشرين الثانى ١٩١٣) P . Millet , " Les Jeunes — Algeriens ,, " Revue de Paris ,,

الى انشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية . ولا يغربن عن البال ان جميع هذه الشعوب والأمم انما هي على صلات شديدة وروابط متواثقة تواثقا كبيراً مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

واذا استوفينا الكلام على النهضات الوطنية والحركات القومية للدور الأول في مختلف الأقطار العربية والمتعربة ، بقي علينا أن نبسط الكلام على مركز خطير آخر من مراكز العصبية الجنسية في العالم الاسلامي ألا وهو بلاد ايران أو فارس أو العجم . ايران انما هي البلاد التي يتوقع فيها نشوء النهضة القومية الصحيحة توقعاً عظيما لأن الايرانيين مابرحوا منذ أجيال متطاولة يعرفون بشدة حب الوطن ، فائقين في ذلك كل شعب سواهم من شعوب الشرق الأدنى .

وقد انحطت ايران خلال القرن التاسع عشر انحطاطا كبيراً وتدلت تدلياً عظيما حتى غدا تشتت حالها الظاهر وتبدد حولها وقوتها ، واستغراقها في الوهن والضعف ، هائجاً فعالا هاج من روسية القيصرية في المقام الأول ومن بريطانيـة في المقام الثاني جشعهما الاستعماري الهائل ونهمتهما الكلبية في حب التوسع والفتح . غير أن قادة الفكر من الايرانيين قد انتبهوا انتباهاً صحيحاً لما سيحل بالبلاد من ضروب البلاء ويحوق بها من الدواهي الدهماء من جراء استفحال الخطب واشتداد الوهن والانحطاط في الدولة ودنو المخاطر الآتية من خارج ، فشرعوا يجاهدون في سبيل الاصلاح داعين موقظين ، ومحذرين منذرين ، فحدثت الفتن الاصلاحية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وأولها الحركة البابية (البهائية) في أوائل القرن التاسع عشر ، وما انفكت البلاد تتمخض في الفتن والاضطرابات حتى شبت ثورة سنة ١٩٠٨[1]

(١) لزيادة الاطلاع على الحركات الاصلاحية الثورية في العجم اقرأ : — « الحال السياسية في ايران للمستشرق العلامة الكبير « X » حزيران ١٩١٤

" La Situation Politique de la Perse ,,

" Revue du Monde Musulman ,,

« التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » للمستشرق العلامة الكبير أرمينيوس ڤمباري

" Western culture in Eastern lands ,,

وقد كان السبب الأكبر فى شبوب نار هذه الثورة واندلاع ألسنتها هو المعاهدة « الروسية البريطانية » المعقودة سنة ١٩٠٧ التى اتفقت بموجبها الدولتان المتعاقدتان على قسمة ايران بينهما الى منطقتى سيطرة ، الأولى لروسية فى الشمال والأخرى لبريطانية فى الجنوب ، يتوسط بينهما منطقة حياد . لذلك كانت الثورة فى غالبها ثورة القنوط والاستماتة قام بها رجال الوطنية الايرانية الأشداء الأبطال ، كيما يصلحوا شأن بلادهم وينظموا أمر حكومتهم ودولتهم ، ويدفعوا عنهم ، ولكن بعد استئخار كبير ، شبح السيطرة الأوروبية الهائل الذى أخذ يدب وينتشر فى البلاد انتشاراً وجفت منه القلوب فرقاً ورعباً . ولم تقصر غاية الثورة على الوقوف فى وجه الاعتداء الأوروبى ودرء المطامع الأجنبية الكاشرة عن الأنياب ، بل انها امتدت الى أبعد من ذلك وهو نزع الملك من السلالة القاجارية الغريبة الأصل وهى الحاكمة فى البلاد حكماً سيئاً فاسداً منذ حقب مديدة ، والتى ليست بايرانية الاصل بل تركمانية ، فانها معما طال من جلوسها على عرش المملكة ، لم تمتزج قط بالايرانيين وهم أهل البلاد ، نسباً ورحماً ، كما تدل على هذا حقيقة الأمر من كون لغة البلاط هى تركمانية فارسية . وعلى الجملة فان مقام السلالة القاجارية فى ايران كان مماثلا كل المماثلة للسلالة المانشوية التى كانت على عرش الصين قبل الثورة . فالثورة الفارسية كانت بماهيتها وجوهرها شبوب نار الوطنية الايرانية شبوبا مقاوماً لجميع القوات الغريبة القاضية على الوطن سواء أكانت شرقية دخيلة أم غريبة طارئة .

وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نزل التدخل الممقوت فى شؤون ايران ، التدخل الناشئ عن نهمة أوروبة فى التوسع الاستعمارى الوحشى ، نزول الصاعقة القاضية على النهضة الوطنية الايرانية فسحقتها سحقاً . وفى سنة ١٩١٢ كانت روسية وبريطانية قد غدتا قابضتين على أزمة السيطرة الحقيقية النافذة تتصرفان فيها كيفما شاءتا تحقيقاً لمطامعهما الشائنة ، فاضطهد رجال النهضة اضطهاداً ، وعذبوا تعذيباً ، وأبعدوا من البلاد ، وظلت ايران تصعد زفراتها مصطبرة على اعتلاج النار بين جوانحها ، مكرهة مكعومة ، ساكنة

« الحركة الاصلاحية فى العجم » للجنرال السر غوردون فى كتاب « اعمال جمعية آسية الوسطى » ١٣ آذار ١٩٠٧

General Sir T. E- Gordon. "The Reform Movement in Persia", "Proceedings of the central asia Society,,

لاتستطيع شيئاً . وقد قال كاتب انكليزى فى هذا الشأن قولا بليغاً هذا بعضه : « ان روسية وبريطانية العظمى هما المتحملتان كل التحمل لجميع التبعة فى تمزيق الآمال الايرانية ، مناهضة للروح الوطنية وقضاء على النهضة القومية ، وأيضاً لتبعة هذه الفوضى المنتشرة فى كل ناحية وجانب فى المملكة ، إذ لابد من أن يأتى يوم تقف فيه هاتان الدولتان الطامعتان لتناقشا الحساب فى جميع ماجنته أيديهما ولتنالا جزاء وفاقاً على مافعلتا . ان الأمل فى تحسين الحال وايم الحق لضربٌ من المهزأة والباطل ، مادامت الحكومة فى ايران مؤلفة من وزارة لاتملك ضراً ولا نفعاً ، وليست بنائلة شيئاً من ثقة الشعب بل ان الحكومة فى ايران إن هى الا وزارة قد قذفت روسية كل روع شديد فى قلبها وكل عرق من عروقها ، وأرتها الموت أشكالا والعذاب ضروباً ، وفوق جميع هذا تريد الدولتان روسية وبريطانية ان تقضيا عليها القضاء الأخير ذلك بجرها إياها الى أزمة مالية ، وهاهى الحكومة الايرانية تستصرخ الملأ فلا تناولها الدولتان المسيطرتان سوى بعض اللقيمات المالية التى لاتدفع غرثاً والجريعات التى لاتنقع غلاً ولا تبرّد صدى ، وذلك على شرائط هى غاية فى الربا الفاحش المهلك ، وتمنعانها عن استخدام النزهاء الكفاة من الخبراء الأجانب مثل المستر شصطر . فكيف يرجى الاصلاح فى بلاد متى ماكان ملكها صبياً ووكيله متخلفاً أبداً عن القيام بواجباته ، وكان مجلسها النيابى معطلاً دائماً ، ورجال الوطنية الأكرمون الأشجعون الأشرفون ، يقتلون تقتيلا أو ينفون نفياً بينما الذئاب المفترسة من الماليين وأرباب الامتيازات التجارية والزراعية ينهشون الفريسة نهشاً ، ويغلغون فى أحشائها الأنياب . حقاً اذا ماقيض لايران الخلاصُ الحقيق وكتب لها النجاة فان ذلك لن يكون الا بأعجوبة سماوية ومعجزة عظيمة (١)

هنا ينتهى كلامنا العام الشامل لوصف أكبر النهضات القومية الوطنية ويقظات العصبية الجنسية فى العالم الاسلامى . على أنه يجب ألاّ ننسى ان النهضة القومية الجنسية فى الهند متمشية وسائر النهضات الاسلامية جنباً الى جنب ، ولكنها مضطربة فى أفق مختلف عما سواه من آفاق النهضات فى سائر العالم الاسلامى . ويجب أن نعلم أيضاً ان هناك نهضات أصغر نطاقاً وأضيق مضطرباً ، قائمة فى الشعوب والأمم الاسلامية غير التى أتينا على ذكرها

(١) و . مورغان شصطر كتابه : « خنق العجم »

كالتتر فى روسية ومسلمى الصين ومسلمى جاوة فى الجزائر الهولندية . وعلينا ان نضع فى البال فوق جميع ما تقدم ان هذه النهضات القومية الجنسية جميعها متصل قليلا أو كثيراً بمجرى الحركة العامة الرامية الى الجامعة الاسلامية وبالدور الثانى للعصبيات الجنسية ، وهى العصبيات النزاعة الى التئام العروق الجنسية المتفرعة من أرومة واحدة ، وها نحن شارعون الآن فى الكلام على هذا .

— ٢ —

قد بينا فى مقدم هذا الفصل ان فى مطلع القرن العشرين شهد العالم اجتياز العصبيات الجنسية لدورها الأول وبلوغها الدور الثانى فى الشعوب الأسيوية ولا سيما فى الأمتين التركية والعربية ، ونحن نرى الآن العصبية الجنسية فى الترك قد اتسع نطاقها الاتساع الأكبر وامتد أفقها الامتداد الأعظم حتى أدركت أرق أطوارها وأسمى حالاتها ، متخذة شكلين بينين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » . وقد أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الأول وهى إذ ذاك لم تجاوز نطاقها العثمانى المحدود كما علمنا ذلك فى موضعه ، وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ . ومنذ ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل فى دورها الثانى ، دور العصبية النزاعة الى عروق الأرومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل فى العالم .

فى هذا الحين أى فى أوائل الدور الثانى للعصبية أخذ الترك العثمانيون يوقنون انهم ليسوا بالأمة الفذة المنفردة المنقطعة عن كل نسيب وقريب فى العالم ، بل انهم فى الصحيح الواقع ، العرق الغربى الأقصى المتفرع من أرومة عظيمة تمتد سائر فروعها وعروقها العديدة مالئة شرق أوروبة وآسية ، من البلطيك حتى الباسفيك ، ومن البحر المتوسط حتى القطب الشمالى . وقد أطلق الاثنولوجيون ، علماء البحث فى أصول الأجناس البشرية على هذا الشعوب اسم (الاورالو ــ ألطايك) ولكن الاسم الأغلب والأشهر لهذه الشعوب المذكورة شاع تعبيره « بالجنس الطورانى » وهو يشتمل على شعوب عديدة متفرقة ــ الترك العثمانيون فى القسطنطينية والاناضول ، والتركمان فى ايران وآسية الوسطى ، والتتر فى جنوب روسية وعبر القوقاس ، والمجر فى هنغارية ، والفنلنديين فى فنلندة وولايات البلطيك وقبائل السكان الأصليين فى سيبيريا ، حتى المغول والمنشوس فى شرق آسية . فهذه الشعوب

على ما بين بعضها والبعض الآخر من الاختلاف فى التهذيب والتقاليد حتى وفى السحن الخلقية هى مشتركة اشتراكاً عاما فى طبائع وسجايا معلومة متشابهة فى كل منها تشابهاً بينا ولغات هـذه الشعوب متشابهة أيضاً ، من حيث ان التركيب الطبيعى والمزاج العقلى فى كل شعب منها يدلان دلالة بينة على النسابة الأصلية العامة الجامعة بين جميع هذه الشعوب الطورانية المشهورة برشاقة البنية وشـدة الأعصاب ، وهى وان كانت على بعض من النقص فى سعة المدارك و بعدها وعلو التصور ، وامتلاك حاسة الشعور الفنى ، الشعور الذاهب الى الابداع والابتـكار ، فهى موهوبة جليل مواهب الصبر والجلد وشدة البأس الى حد الغلظة ، وفوق جميع هذا قد اشتهرت هذه الشعوب اشتهاراً منقطع النظير بالصبر على القتال والجلاد وخوض غمرات الحروب ، و بالاقتدار الفائق على سيادة من يخضع لهـا من الشعوب . ومما لامراء فى صحته ان الطورانيين هم أعظم من شهد الورى وعرف التاريخ من المدوخين والفاتحين فأتلا والهنز ، وار پاد والمجريون ، واسبريتش والبلغاريون ، والب ارسلان والسلجوقيون. وارطغرل والعثمانيون ، وجنـكيزخان وتيمورلنك ، وجيوش المغول التى « لاتغلب » وبابر فى الهند حتى وقبلاى خان ونورهاشو فى كاشاى ، انما جميعهم من نسيج واحـد . وصور الآثار لسنابك خيول الفرسان الطورانيين مابرحت منقوشة فى رقوق التاريخ القـديم الى ماشاء الله .

على انه سواء كان تاريخ الطورانيين مجيداً أم محزناً ، فهو على كل حال هائل عظيم والقارىء قد يتساءل ، أحقاً ثبت هذه الشعوب الطورانية المتفرقة المبعثرة متحدرة من أصل واحد بين ، وجنس ثبت لأهل العلم معرفة منشأه الأول ومتفرعه الأقدم ، وأرومة صحيحة معلومة ؟ اننا قد علمنا علم اليقين فى مقدم هـذا الفصل ان هذا الأمر قد بات مما ليس كبير شأنه عند الشعوب الثملة بخمرة العصبية الجنسية مادامت السياسة العاملية مسيرة تسيراً على الصفة التى أسلفنا الـكلام عليها فى موضعه . فلذلك ان ما بين هـذه الشعوب الطورانية بعضها مع بعض من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية ، وما هى عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية ، الهائجة منها نفوسها ايما هياج ، كاف أن يحملها على الاعتقاد انها متحدرة من أصل واحد ، فيدفعها ذلك الى التعاطف فالتشاكى فالتنبه الجنسى فانشاء بناء العصبية الجنسية البعيدة الآفاق ، الشديدة الصولة والمنعة .

من قبل ثلاثة عقود الى أربعة عقود من السنين ، لم يكن هناك شيء من طوالع هذه الحركة ، ولا مما يدل على ظهورها ، إذ كانت جميع هذه الشعوب الطورانية المتباعدة المتفرقة ، تجهل وحدة ارومتها الطورانية العامة ، جهلاً تاماً ، ولم يكن هذا الجهل مقصوراً أمره على العروق التي شتان مابينها من الصلة والقرابة مثل الفنلنديين في فنلندة وولايات البلطيك والمنشوسيين في آسية الشرقية ، بل ان العروق المتقاربة الأقاليم ، الظاهرة النسابة بعضها مع بعض كالترك العثمانيين في القسطنطينية والاناضول وتركان أواسط آسية ، كان كل عرق منها على جهل من نسابته للآخر ، لا بل يعده غريباً عنه جنساً ، وأدنى وأحط منه شأناً . في ذلك الحين كان الترك العثمانيون لم يزالوا بعداء من روح العصبية الجنسية كبعدهم عن روح القومية والشعور العنصري . وقد أخبرنا ارمينيوس ڤمباري انه لما زار القسطنطينية لأول مرة سنة ١٨٥٦ « كانت كلمة « تركلك » (ترك) تفهم وتعد من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية . « ولما كنت أقدم على تنبيه الناس الى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدّر الجنس التركي (المنتشر من أدرنة حتى الباسفيك) كانوا يجيبونني : ولكن بالله عليك لاتجعلنا في مصاف الكيرغيز وجفاة التتر . . . . وكدت لا أرى الا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية »

وظلت الحقائق وراء الحجاب حتى انبرى الاثنولوجيون الغربيون يستقصون ويحققون وفي طليعتهم مثل أرمينيوس ڤمباري المنغاري وليون كوهين الفرنسي ، اللذين يرجع اليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الارومة الطورانية . فظهر العالم الطوراني من أقصاه الى أقصاه هائلا بعيد الآفاق . وكان لأعمال هذين العالمين القطبين ڤمباري وكوهين أكبر دوي في أنحاء العالم . فطفقت كتب ڤمباري وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني الجديد انتشاراً سريعاً كبيراً ، فاقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للاخذ عنها والاقتباس منها ، العقول الهائجة المتأهبة للتجدد والارتقاء ، ثم سرعان ما أنشأت طوالع الحركة الطورانية تظهر وتتكاثر في أقطار مختلفة ، وكان ظهورها بادئ الأمر في مركزين منفصل كل منهما عن الآخر ، وهما القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور ، و بلاد التتر الروسية على ضفاف الفولكا

غير أن الباكورة السابقة قد كانت فى هذا المركز الأخير قبلما بدت على ضفاف البوسفور.
ان هذه النهضة التترية ، وان كانت أقل شهرة من غيرها ، فهى احدى الخوارق فى تاريخ العصبيات الجنسية . فالتتر الذين كانوا فيما مضى سادة روسية وحكامها ، وقد طال ما طال من العهد على تلاشى حكمهم وانهيار دولتهم وسلطانهم ، قد استطاعوا البقاء والكينونة ، فلم تبتلعهم مبتلعات الأوقيانوس السلافى ، ومع أن بعضهم قد أمسوا خاضعين للحكم الروسى منذ أربعة قرون فما انفكوا مع ذلك محتفظين بوحدتهم فى الدين والجنس والتهذيب ، وقد استطاعوا أن يظلوا ، وغالب مزدحم قطينهم فى ولايات الفولكا ولا سيما فى قطرى « قازان واستراخان » ، وفى أيديهم غالب بلاد القريم ، ويؤلفون أقلية عظيمة فى عبر القوقاس ، مستمسكين بمستقل وحدتهم ومجموعهم بمنجاة من أن يبتلعوا فى يم الامبراطورية السلافية وانهم على تفرقهم فى هذه الاقطار العديدة ، لم يبرحوا الاشداء النشطاء فى المناطق التى هم حالون بها ، ولا عيب فيهم سوى انهم شم الانوف أباة الضيم فلا ينال منهم ولا تغمز قناتهم.

كان تبدّى تباشير اليقظة القومية واستفاقة العصبية الجنسية فى تتر روسية سنة ١٨٩٥ ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نمواً هائلا عجيبا . وكان من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ انها حطمت الاغلال الاستبدادية ، فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة أشرقت فيها شموس الآداب أيما اشراق . فكثر نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة مما ساعد النهضة التترية على النمو المطرد ، فاعتزت اعتزازا كبيراً . ولما كان التتر فى روسية على جانب كبير من الاثراء فقد كان من السهل اعداد جميع ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية فى سبيل النهضة . وحقاً قد قام المتمولون التتر ذوو الملايين فى باكو بقسط وافر عظيم من العمل لتنمية العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة علية ، اذ ما عرفوا التردد قط فى بذل المقادير العظمى من الأموال عن جود وسخاء فى سبيل الغاية المباركة . وقد أبدى التتر الروسيون حنكة ومهارة فائقتين فى عالم السياسة . فغدوا للحال موضع ثقة أبناء أعمامهم التركمان فى أواسط آسية الروسية الذين كانوا قد دبت فيهم أيضاً نشوة العصبية الجنسية ، واشتمل مجلس « الدوما » الأول فى روسية على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا فى جهادهم السياسى عصبة متحدة متعاضدة يشد بعضها بعضا ، لا ينى لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة التترية ، فغالبوا الصعاب مغالبة غاية

فى بذل النفس والدهاء والحنكة ، حتى غدا الرأى العام الروسى على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقل من عدد النواب المسلمين التتركيما يقل بذلك نفاذهم فى دور الحياة الدستورية الجديد [١]

وقد كان المسلمون فى روسية حكماء فى السعى وراء مبتغاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير أن بعضهم كانوا أشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامح التترية الخفية وصرحت عن الآمال التى كان التتر يدأبون جاهدين فى سبيل تحقيقها ، ذلك أنهم أخذوا فى السعى وراء الغاية سعياً حراً فى جو أنقى هواء وبيئة أخصب مرعى وأرحب منزلا أعنى فى القسطنطينية حيث قد قيض حقاً لتتر روسية أن يكون لهم شأن عظيم فى أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية . وفى الواقع أن أول منشئ لجمعية الجامعة الطورانية الأولى من نوعها فى القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلى ، المسلم التترى من أهالى الفولكا . وكتابه القيم المشهور المرسوم بـ« الأنظمة السياسية الثلاثة » غدا أساساً عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومناراً يهتدون به فى جميع ما كتبوا الى اليوم فى شأن الجامعة الطورانية [٢]

وظلت الجامعة الطورانية تكتنفها بعض الغمامات فى القسطنطينية حتى ثورة تركية

---

(١) لزيادة الاطلاع على النهضة التترية اقرأ :—

« المسلمون فى روسية » (كانون الأول ١٩١١)

S. Brobovnikov, " Moslems in Russia,, The Moslem World,.

« تتر القريم » (اب ١٩٠٧)

Févret , " Les Tatars de crimée ,, " Revue du Mond Musulman,,

كتاب « التهذيب الغربى فى الأقطار الشرقية » ذكر قبلا

« الجامعة الاسلامية والجامعة التركية » (آذار ١٩١٣)

"X"," Le Pan - Islamisme et le Pan - Turquisme,,
' Revne du Monde Musulman "

« المسلمون الروسيون » (شباط ١٩١٤)

H. Williams , " The Russian Mohammedans '
" Russian Review

(٢) لزيادة الاطلاع على الجهود الطورانية اقرأ مقالة (X) المذكورة آنفاً وكتاب أحمد أمين بالانكليزية (نيويورك ١٩١٤) :

The Developmen of Modern Turkey - as Measured by its Press

الفتاة سنة ١٩٠٨ اذ أن السلطان عبد الحميد كان ، كما علمنا فى غير موضع من هذا الكتاب مجاهداً كبيراً فى سبيل الجامعة الاسلامية ، ومقاوما شديداً لجميع الحركات الرامية الى العصبيات الجنسية ، فلذلك لم يكن رجال الجامعة الطورانية ، قبل نزول الاضطهاد بهم ، ليلقوا شيئاً من الحظوة عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصبية الجنسية التركية ظهورها الجلى من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدى ، تبدلت الحال غير الحال ، فغدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تتريك العناصر فى المملكة ، يصيخون كل الأصاخة لدعوة الجامعة الطورانية ويجدّون فى سبيل نشرها والتبشير بها انجيلا جديداً ، حتى خرج منهم بالتالى أبطال وقادة يدعون الى هذه العصبية . وجدير بنا فى هذا المقام أن لا ننسى أن تترروسية قد استمروا على جهادهم الأكبر فى سبيل العصبية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك آغايف ، مسلم من تتر الفولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (تورك يوردى) — « الوطن التركى » التى انتشرت فى كل بقعة من بقاع العالم الطورانى ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مستولية على نفوس قرائها نازلة منهم منزلة المقيم المقعد .

على أن قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك آغايف واضرابه الذين امتدت أطماعهم ووضعوا خطتهم لتوحيد العالم الطورانى طراً من فنلندة الى منشورية توحيداً تاماً ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير فى سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة فى مبادىء الأمر على توثيق العرى بين الترك والتتر اللصقاء ، أعنى بين الترك العثمانيين والتتر الروسيين والتركمان فى أواسط آسية وايران . ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب أن الدعوة الطورانية كان لها ما عدا صفتها الجنسية صفة دينية أيضاً تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية فى اعتبارات عديدة . ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الدينى ، ان الحركة التى كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانية لم يعد امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلا .

وجاءت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ — ١٣ فكانت هائجا كبيراً هاج الجامعة الطورانية ودفعها الى الامام دفعة شديدة ، ولم تكن نتيجة هذه الحروب البلقانية أن أخرج الترك

من البلقان فتقلص ظلهم عن تلك الديار فأخذوا بسبب ذلك يتلفتون فقط نحو آسية ، بل كانت النتيجة الكبرى هياج هائج الغضب الشديد في صدور المنغاريين والبلغاريين [١] على الصربيين النصارى ، فطفق الأولون يجاهرون بتحدرهم من الارومة الطورانية ويذودون عن وحدة الجامعة الطورانية ، ازاء التهديد الذي بدا من ناحية الجامعة السلافية الصربية الروسية [٢]

وطفق رجال الفكر العاملون في سبيل الجامعة الطورانية يجدون عن ثقة وايقان في نشر التعاليم والعقائد البعيدة في الاغراق والمغالاة ، سعياً وراء تحقيق مطامعهم الكبرى وآمالهم العظمى ، وباتوا يعظمون كل الاعظام شدة البأس والروع والبسالة المتجلية في جميع الشعوب الطورانية الى حد غدوا عنده يوقنون ايقاناً تاماً أن الجنس الطوراني انما هو الجنس الذي سيسود غداً العالم قاطبة سيادة كاملة دون منازع ، وهب الاقطاب الغير فيهم الراسخون علما في الفلسفة الغربية وفي النشوء والارتقاء والبحث في أصول الشعوب يبسطون آراءهم ونظرياتهم المخصوصة بهم في كيفية ارتقاء الشعوب واعتزازها ، وأسباب انحطاطها وتدليها ، وعلى حسب التعاليم التي يجاهر بها علماء الجامعة الطورانية بان الشعوب والأمم التاريخية في جنوبي آسية ــ العرب والفرس والهند ــ انما هي شعوب على جانب كبير من الانحطاط ، وان الشعوب والأمم الاوروبية قد أخذت تنحدر عن الاوج الذي بلغته منهوكة القوى خائرة العزم مأكولة الحشى بنار الصناعة الحديثة . لذلك على رأي هؤلاء العلماء يجب على الطورانيين الاشداء الاقوياء الذين لم ينغمسوا في الحضارة الغربية ولا دبّت فيهم مفاسدها ولا رئموا مآثمها ، ان يكونوا هم قادة الأمم والشعوب في

(١) كون البلغاريين أو قسم منهم ينتسبون الى أصل طوراني هذا لا ريب فيه . أما كونهم يتمسكون بالجامعة الطورانية ففيه نظر ، فان كانت بدرت من هذا القبيل بعض كلمات اثناء الحروب التي وقعت بين البلغاريين والصربيين حنقاً على الروس الذين كانوا يفضلون الصرب على البلغار دائماً فلم يكن ذلك بالدرجة التي تجعل البلغار عضواً عاملا في الجمعية الطورانية وقلما سمعنا الاتراك يعتمدون في هذه الجامعة على البلغار كما يعتمدون على المجر الذين منهم من يجاهر بالاستمساك بحبل الطورانية . (ش)

(٢) للوقوف على النازع المنغارية والبلغارية للجامعة الطورانية اقرأ مقال « الجامعة الطورانية . »
"Pan - Turanism" , "American Politcal Science Review" (شباط ١٩١٧)

المستقبل . و بعض رجال الفكر من الطورانيين يستغرقون الغاية بمصارحتهم أن من أقدس واجبات الجنس الطورانى اعادة احياء هذا العالم الهرم المتضعضع ، وذلك انما يتم بتلقيحه بالملقحات الطورانية الدموية ، المصلحة المجدّدة ، التى تبعث فيه صحة و برءاً (١) .

وقد أيقن رجال الجامعة الطورانية انه اذا كان مقدرا لهم التأليف فى شئ من مطامحهم التى ذهبوا بها الى ما فوق الاغراق والمغالاة ، فلن يكون ذلك مستطاعاً الا بانهيار الامبراطورية الروسية وتزلزلها ، لهذا بات رجال الحركة الطورانية يرون روسية بقاطنها من التتر والتركمان والكيرغيز والفنلنديين والقبائل العديدة الجامعة صلات الانساب بعضها مع بعض ، ان هى الا بلاد طورانية بحتة يغشى تربتها طبقة من الراسب السلافى متفاوت الرقة والكثافة ، ولذلك كانت الغاية التى رامها الطورانيون ، وهى جعل روسية موطناً طورانياً ، غاية هائلة حقا . ومع هذا فان دعاة الجامعة الطورانية قد حسبوا انهم يلقون عونا على بلوغ غرضهم وتحقيق أمنيتهم من بعض الدول الغربية العظمى فايقنوا أن ألمانية وأوسترية ـ هنغارية انما كانتا تقتربان ـ أكثر فأكثر من ولوج حرب مع روسية ، وانه متى ما اشتدت جائحة هذه الحرب وكشرت عن أنيابها ، سنحت اذ ذاك الفرص الكبرى لادراك الغاية ونيل المبتغى .

ومما لا ريب فيه ان قد كان لهذه المطامح الدائرة حول محور الجامعة الطورانية شأن كبير فى انجذاب تركية الى جانب الدول المركزية وخوضها معهن معمعان الحروب ، ومن المؤكد أن أنور باشا قد كان منذ عهد بعيد يجهد فى سبيل الجامعة الطورانية ويذود عن حوضها ما استطاع (٢) ومن المقرر المعلوم أيضا أن الحكومة التركية كان لقوسها وتران

---

١ اقرأ المقالة المذكورة قبلا للمستشرق «X» . واخرى عنوانها « السياسة الجارية فى تركية المعاصرة كانون الاول ١٩١٢

Les courants Politiques dans La Turquie contemporaine Revue du Monde Musulman

(٢) كان أشد رجال تركيا الفتاة تمسكا بالقضية الطورانية أيام الحرب العامة جمال باشا ، ويليه طلعت باشا ، والدكتور ناظم وضياء كوك آلب ، وشكرى بك ناظر المعارف ، وغيرهم . وكان أقل الناس اهتماما بها هو أنور باشا ، وكان جهاده فى الاتحاد مع الاتراك الذين بالروسية والحرب التى أصلاها فى اذربيجان سنة ١٩١٨ وجلى بها الانكليز عن باكو ، وكسر بها شوكة الأرمن ، وأسس للآذريين دولة مستقلة استمرت مستقلة عدة سنوات ؛ وأرسل ضباطا قادوا مقاتلة الطاغستان الثائرين فى وجه الروس

أرادت أن ترمى عنهما سهاما لنيل غرضين معا . وذلك انها حاولت أن تسوق الجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية معا فى طريق واحد ، عامدة الى استنفار جميع المسلمين الغير الجنس فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى للجهاد المقدس ، من حيث هى لاجئة فى الوقت عينه الى مضاعفة نشر دعوتها للجامعة الطورانية فى الشعوب التركية التترية . وقد بين « تكين الب » الكاتب المشهور هذه المطامح الكبرى التى امتدت اليها أنظار دعاة الجامعة الطورانية فى أوائل كتاب له موسوم بـ« التركى وغاية الجامعة التركية » نشره ١٩١٥ ، ومما قال فيه : « متى ما سحقت بسل الجيوش الألمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسى الغاشم سحقاً ، واستطاع ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ الى ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ من الطورانيين نيل الاستقلال والحرية . ثم يضاف الى هذا العدد ١٠،٠٠٠،٠٠٠ من الترك العثمانيين ، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوى مع الحضارة الألمانيـة فتغـدو هـذه الأمة اذ ذاك شـديدة القوة والبأس ، مستسهلة كل صعب لتوالى الصعود بمعراج الارتقاء ، وستفوق هـذه الحضارة الحديثة فى بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين »

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البولشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامح الطورانية وامتدت فى كل جهة جائزة كل حد . وبات رجال الدعوة الطورانيـة موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خـدودهم على حلفائهم الألمان وسائر الأوروبيين ، كاشفين بهذا عن حفائظ صدورهم تلك الحفائظ التى يكنونها أبداً للغربيين . وقد ذكر ضابط ألمانى من أركان الحرب [1] ، حديثاً جرى على

الى حربه الأخيرة سنة ١٩٢٢ مع الروس فى بخارى وهى الحرب التى سقط فيها رحمه الله شهيدا فى بولجوان شرق بخارى بعد ان كان أشعل الثورة العامة من سواحل بحر الخزر الى حدود كاشغر واضطر الروس البولشفيين الى تسير مئات ألوف من العساكر لاخماد هذه الثورة الكبرى كل ذلك كان منه حركة اسلامية محضة من قبيل جهاده فى طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ثم ارساله اليها أخاه نورى أثناء الحرب العامة مع أن أهالى طرابلس الغرب ليسوا أتراكا ولا طورانيـين وانما يربطـه بهم الاسلام لا غير . وكان يقول لى مرارا ان أتقس الترك والتتر الذين يحنون الينا فى تركستان ويعقـدون آمالهم بنا انما يحنـون الينا لكوننا مسلمين لا لكوننا أتراكا . فلو كنا من الترك الباقين على الوثنية فى سيبيريا ماعرفونا ولا سألوا عنا . (ش)

(١) كان رئيس أركان الحرب فى الجيش العثمانى « ارنست پاراكوين » من مقال له نشر فى « برلينر تاجبلاط » Ernest Paraquin — " Berliner Tageblatt.. (كانون الثانى ١٩٢٠)

المائدة بينه و بين خليل باشا قائد الجيش التركي فى جهة الحرب العراقية ، وهو عم لأنور باشا ، والى القارئ بعض ذلك الحديث : « يجب فى المقام الأول أن يغدو كل عرق يتكلم احدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ، ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبية الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضربا من الضرورة التى لا منتدح عنها ، وهى فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فاذا ماتم هذا كان أساساً منيعا يبنى عليه صرح نخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » فى سيبيرية ، الذين انما يعدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعد العروق التركية الضاربة شرقا ، ويجب على قبائل التتر الغربية اللصيقة المجاورة فى القوقاس أن تندمج فى الأمة التركستانية اندماجا تاما . وذلك يتمُّ بطبيعة الحال . ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الأقلية فى كل قطر من قطريهم أن يندغموا أيضا فى هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره . فان امبراطوريةً تركيةً . ضخمةً منيعة ، مترامية الأطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامى يكون فى استطاعتها حينئذ أن تسيطر بنفوذها وتأثيرها على أفغانستان وايران . . . وفى كانون الأول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رحى الحرب فى الجهة العراقية وضويق الجيش التركي مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لى خليل باشا مازحا جاداً : وافرض مزحا اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المهلكة وتخلينا عنها لجاء اليها الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع أن ننشئ امبراطورية جديدة، لابنى هذا الأصغر ، وكان قد سمى ابنه باسم الفاتح المخرب ــ جنكيزخان [١] »

(١) لزيادة الاطلاع على الجهود التى بذلها الترك خلال الحرب العامة فى سبيل عصبيتهم الجنسية اقرأ : — « رسالة فى الطورانيين والجامعة الطورانية » جمعها الفرع الجغرافى فى قسم الاستخبارات البحرية لأركان الحرب فى امارة البحر العامة (لندن ١٩١٩)

A " Manual on the Turanians and Pan-Turanianism ,, " Compiled By the Geographical Section of the Naval Intelligence Division, Naval Staff. Admiralty ,,

وكتاب « الهلال والصليب الحديدى » (لندن ١٩١٨)

E. F. Benson , " Crescent and Iron Cross ,,

وكتاب « ترك آسية الوسطى : أو بحث فى الجامعة الطورانية » (اكسفورد ١٩١٨)

M. A, czaplicka, " The Turks of Central asia : An Inquiry into the Pan - Turanian Problem ,,

وفى صيف ١٩١٨ اجتاحت العساكر التركية[1] عبر القوقاس وشمالى ايران متخذة آسية الوسطى وجهتها . ثم بعيد ذلك نزلت النازلة الكبرى بالمانية فتضعضعت وتزلزت ، وانتهت الحرب العامة انتهاء جلب على تركية الخراب والتلاشى ، فصرع رجال الجامعة الطورانية صرعة كبيرة ، وحلت بساحتهم الحيرة ، غير انه قد قيض لآمالهم الانتعاش من بعد ذلك بمدة قريبة كما ترى كيفية ذلك فى موضع قريب من هذا الفصل

يجدر بنا قبل أن نأتى على البيان والوصف لمجارى الحوادث فى الشرق الأدنى منذ سنة ١٩١٨ ، الحوادث التى يجب أن تعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، أن نسوق الكلام على الدور الثانى لترقيات العصبيات الجنسية والنهضات القومية فى سائر العالم الاسلامى . وقد سبق لنا العلم بأنه لما كانت العصبية الجنسية التركية تنمو مجتازة دورها الثانى كانت العصبية العربية تنمو معها جنباً الى جنب مجتازة دورها الثانى كتلك ، رامية الى انشاء امبراطورية الجامعة العربية المشتملة ليس على البلدان العربية المعدودة الموطن الاثنولوجى للعرب من شبه الجزيرة وسورية والعراق فحسب بل أيضاً على الاقطار المتعربة من مصر وطرابلس وسائر بلدان افريقية الشمالى الخاضعة لفرنسا وعلى السودان .

على أن الجامعة العربية لم ترقّ الترقية الأدبية كما رقيت الجامعة الطورانية ، مع أن متجهها العام شبيه بمتجه تلك شبهاً يغنينا عن تفصيل مباديها وتعاليمها . انما هناك فرق كبير بين مجرى العصبيتين ، وهو ان الجامعة العربية قد ظهر فى صفاتها وحالاتها من صبغة الدين والجامعة الاسلامية أكثر مما ظهر فى تلك . لان العرب يفخرون بأن مبعث النبى كان فيهم ، و يعدون أنفسهم « أمة الرسالة » التى قدر لها من قبل السيادة على جميع العالم الاسلامى . و ينقص الجامعة العربية التنظيم ووحدة السير والمتجه ، تلك الوحدة التى عرفت

وكتاب « قصة السفير مورغنتو » (نيويورك ١٩١٨)

H. Morgenthau, "ambassador Morgenthau's Story ,,

ومقال « الروح التركية » نيسان ١٩٢٠

a. Mandelstam, " The Turkish Spirit " , " New Europe ,,

(١) صادفت خليل باشا مرة بالاستانة عند تحسين بك والى الشام السابق فسمعته ينادى ابنه الصغير باسم جنكيز . فقلت له : ألم تجد له اسماً غير هذا . فقال لى : سميناه محمدجنكيز ، فجمعنا بين الأمرين . يريد أن يقول بين الاسلام والطورانية . فهززت رأسى لهذا الجواب . (ش)

فى الجامعة الطورانية . ولم تبرح سورية ومصر المركزين المعروفين اللذين تنبعث منهما قوة الحركة للجامعة العربية [١] . وفى الواقع الصحيح ان التدابير والخطط الكبرى للجامعة العربية قد نظمت تنظيماً وأنضجت فى مصر . وأما البرنامج المصرى للجامعة فهو يرمى الى توحيد جميع الاقطار العربية وعلى رأسها الخديوى - وربما صارت هذه الأقطار العربية المتحدة خاضعة للوصاية البريطانية أول العهد ثم بالتالى تنفض عنها هذه الوصاية وتمزقها بمقاومة عامة تقوم بها جميع أقطار الجامعة العربية . ويعزى الى الخديوى عباس حلمى الذى خلعه الانكليز سنة ١٩١٤ تشجيعه لهذه الحركة [٢]

ومما لاريب فيه ان الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجاً شديدا ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من انشاء مملكة عربية مستقلة فى الحجاز ، مدلية بحقوق لها فى سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، وثارت تطلب الاستقلال ، متطلعة نحو اسقاط السيادة الاجنبية ومحوها محواً تاماً ، وهى السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة فى مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الاقطار العربية . وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقاً جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية ،

---

(١) المركز الوحيد الذى يمكن ان تؤسس به الآن دولة كبرى تجمع بين جانب كبير من أفريقية وجانب آخر عظيم من آسية ويستأنف به مجد العرب والشرق أجمع وتحفظ به الموازنة الضرورية لتمكين السلام بين الشرق والغرب هو مصر القاهرة . اذ بمصر جميع مايلزم من مواد بناء الدول الضخمة من وفرة الاهالى ، وخصب الاراضى ، وثروة البلاد ، وتوسط الاقليم وآثار المدنيتين الشرقية والغربية ، وكثرة المبانى الاميرية والمعاهد العلمية والخيرية ، الى غير ذلك من اشراط قيام الدول العظام . وبمصر كانت دول يفتخر بوجودها التاريخ قبل الاسلام وبعده ، ولمصر من الوسائل لتحقيق أمل العرب ماليس لغيرها ولا ينقص مصراً سوى الاستقلال الحقيقى وحسن نية المستعمرين (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على سير الجامعة العربية وترقيها اقرأ : —

A.Musil, " Zur Zeitgeschichte von Arabien . (Leipzig 1918) M Pickthell

« تركية وانكلترة والازمة اليوم » اكتوبر ١٩١٤

" Turkey, England and The present Crisis. (Asiatic Review)

الشيخ عبد العزيز جاويش — مقاله

" Das Machtgebiet der Arabischen Sprache Preussische Jahrbücher

سبتمبر ١٩٦

وان كانت لم تبرح عاملاً شديداً ، غير ظاهرة كما كانت من قبل ، فى صدر البرامج التى فى أيدى رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية .

زد على ذلك ان الجامعة العربيــة مشتبكة النسيج ، كما قلنا قبلاً ، بمبدأين عامين شاملين ، لايختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، ولعل هـذا المبدأ الأخير يبدو لنـا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب ، من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين . ان الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا فى الجنسية والوطنية ، وانتحل ماانتحل من عقائدنا فيهما ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت الى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملأى بصنف آخر من المبادئ والعقائد الرامية الى الوحدة الاسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق ، بحيث نشأ عن ذلك التلابس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف الى حـد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التى نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ، ذهبوا فى فهم معنييهما مذهباً مخالفاً لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التى بيننا و بين الشرقيين ، ماهو شائع فى أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية . خـذ لك مثلا كلمـة « الدولة » ، فان الدولة الاسلامية التى يصح اتخاذها مثالا للمقارنة ، ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحـدة معينة من الناس ، وأرض يسكنونها مقررة الحدود ، وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ فى كل مكان داخل حدود الدولة . بل ان الدولة فى الشرق الاسلامى انما هى كناية عن كتلة ، قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشـكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لهـا نواة مركزية هى مصدر السلطة المنبعثة منها ، انبعاثاً مشتملا على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعتوره آفات الفوضى و يشوبه الاختلال . ومن المعلوم ان غالب الدول الاسلامية مابرحت منذ نصف قرن تجـدّ فى تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها وسائر أحوالها ، ناسجة فى ذلك على منوال الدول الغربيــة . غير ان المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما فى أفغانستان حيث القبائل التى عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهى قبائل أفغانية متملـكة استقلالا عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها فى المـدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانـكليز ،

غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتنصل من تبعتنا تنصلاً انقطع عنده دهاء الانكليز .

والأمر كذلك فى الجنسية عند المسلمين . ليست الولادة فى البلاد ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد أمة اسلامية فى قطر من الأقطار ، متمتعاً حق التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية . فوطن المسلم هو العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية أن ينال للحال أى وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ، ذى المقام والمنزلة بين ظهرانى القوم . فالعبارة : «مصر للمصريين» مثلاً لاتعنى ذلك المعنى بعينه الذى تتصوره نحن فى الجارى المعتاد . فاذا ماأقام مسلم جزائرى أو دمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصرياً وطنياً حراً » بصحيح معنى العبارة . والسبب فى ذلك ان من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، لجميع الأقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التى قاطنها مسلمون ، يجب عليهم باعتبارهم أمةً واحدةً متحدةً ، الذب عن سياجها والذياد عن حياضها وهذا هو السبب فى اننا نرى انه كلما أصاب اعتداء أجنبى طرفا من العالم الاسلامى ، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد ، على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادية يحمله على ذلك ، كأنما المعمور الاسلامى جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء .

ترانا بعد جميع ماتقدم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين المسلمين الجامعين لمبدإ الجنسية الغربية وسنة « دار الاسلام » التقليدية ، الذين قد ألفوا بين هذا وتلك تأليفاً مشتركا نجم عنه مزيج فكرى جديد ومعتقد عام عرفا بجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، وقد بين مسلم هندى متجه هذا المعتقد بقوله : « ان جميع علوم الغرب فى فن الحكومات قائم على قاعدة ان الفروق الجوهرية فى بنى الانسان مقررة على اعتبارات جنسية وجغرافية . على أن هذه القاعدة ليست بمعروفة هكذا عند الشرقيين ، فعندهم أن الفروق الانسانية هى قائمة على اختلاف فى المعتقدات الدينية ، فليست الوحدة لعمرى فى الأمة ولافى الدولة بل فى الملة . ويرى الأوروبيون فى مثل هذه الحال فى الشرق اليوم مثيلا

لتلك الحال التى اجتازتها أوروبة فى القرون الوسطى ، اذ أن العالم الاسلامى ليجتاز دوراً لامندوحة له عن اجتيازه وهو دور التجدد السليم والانتقال الصحيح . وعلى هذا فما أسوأ فهم الغربيين لتلك الصورة الجامعة المتجلية للمسلم فى دينه ! ! ان الغربيين لينسون ان الاسلام ليس مقصوراً على كونه دينا فحسب ، بل انما هو نظام اجتماعى ، ونهج تهذيبى ، تضاف اليهما الجنسية . ان قاعدة التآخى الاسلامى ، وان شئت فقل الجامعة الاسلامية ، هى مقارنة « للوطنية » ومماثلة لها ولكن بينهما فروقا : وهى ان هذه الجامعة الاسلامية وان أدت الحال الى التحاكى فى الشرائع والقوانين والعادات ، فانها ليست (كالجنسية الغربية) قائمة على الوحدة فى الجنس والاقليم والتاريخ ، بل انها قد تلقيت من الله تلقينا توا على حسب معتقدنا »[١].

ان جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، لظاهرة حديثة النشأة ، لم تقرر تعاليمها بعد ، غير انها بادية جلية فى العالم الاسلامى قاطبة ، وهى أبداً تزداد اعتزازاً ومنعة ولاسيما فى أقطار شمالى افريقية والهند حيث لم تكن هناك الوطنية الاقليمية الشديدة لسبب ما مترقية ترقى غيرها فى سائر الأقطار . قال كاتب فرنسى فى هذا الصدد : « ان العصبية الجنسية الاسلامية ليست هياجا موضعيا فى قطر معدوما فى آخر ، أو اضطرابا موضعيا غير منظم ، بل انما هى تيار جارف بعيد الأفق ، وطوفان طام العالم الاسلامى طراً من آسية والهند وافريقية فالعصبية الجنسية انما هى شكل حديث للاسلام له منعة فى ذاته لايقوى على زعزتها الاصطدام بالحضارة الغربية . وهذه العصبية سائرة سيرها مستعينة بكل عامل شديد من الغيرة الدينية ، ومستعدة للامتداد والانتشار ورد الناس الى دين الرسالة ، ونزاعة الى تحقيق وحدتها باشعال تعصب العامة من المسلمين وبالسيطرة على المرامى السياسية التى تدير دفتها الخاصة ، وببذر بذور الهياج الهائل فى كل صقع وقطر[٢] » فجامعة العصبيات الجنسية

---

(١) محمد على رئيس « وفد الخلافة » الوفد الذى أوفده مسلمو الهند الى بريطانيا سنة ١٩١٩ ليحتج على تقسيم الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدات الصلح — من مقال لهذا الرئيس « الحركة الاسلامية فى الهند » (كانون الثانى ١٩١٤)

"Le Mouvement Musulman dans L'Inde ,, (Revue Politique Internationale)

(٢) كتاب « العصبية الجنسية الاسلامية » المذكور قبلا لسرفيه .

الاسلامية ستكون فى المستقبل عاملا أكبر وركناً أعظم ، يقام له ويقعد فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه[١].

— ٣ —

هنا ينتهى وصفنا للعصبيات الجنسية فى العالم الاسلامى . ولعمر الحق ليس من الغرابة فى شئ أن نرى الشرق ، وقد ارتوت نفوس شعوبه وأممه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التى هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها ناراً ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التى نزلت عليه ويلاً عميماً وبلاء شاملا ، مرجلا شديد الغليان فوّاراً ، وبركاناً ثائراً . من المعلوم البين انه قد كان من المستطاع عقد مصالحات سليمة من النقائض والمشاين . وذلك بالجرى على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج . لكن مؤتمر فرسايل السلمى كان ويا للأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة فى الرأى ، ونظر بالعواقب فنجم عن ذلك أن تلك « التسويات » الفاسدة التى وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شر حبوط ، ليس فى ضمان السلم لأوروبة فحسبُ بل كان من شأنه اماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب الحقيقى ازاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذى عادت فظهرت فيه تلك الروح التى عرفت ما قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطورى والجشع الاستعمارى ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانتهاب ما بين أيديها وما خلفها ، واستنزاف دمائها ، وشد الاخنقة على ما حول رقابها . زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العمه ، غير معتبرين شيئا التطورات النفسانية الهائلة التى حدثت فى الأمم الشرقية من جراء الحرب ، فلم يلجأوا الى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، والى انتهاج نهج سياسى خير

---

(١) لزيادة الاطلاع على جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اقرأ بعد مرفيه ومحمد على :ـ « الاسلام فى القرن التاسع عشر » (باريس ١٨٨٨)

a. Le chatelier, L'islam au dix - Neuvième Siècle

« انكلترا والاسلام » (حزيران ١٩١٩)

Sir T. Morison " England and Islam' - " Nineteenth centur and after,,

G.Démorgny, " La Question Persanne ,, (باريس ١٩١٦) « القضية الايرانية »

« عبر القوقاس ماضياً وحاضراً » (اكتوبر ١٩٢٠)

W. E. D. allen, " Transcaucasia. Past and Present ,, " Quarterly Review

من ذلك الذى انتهجوه قبلاً ، بل ظلوا على المضى فى معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التى أنّ من فدح عبئها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ، ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسية ما برحت ذلك الجبار المستغرق فى هجعته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التى قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التى قطعوها لشعوب الشرق الأدنى ، فى تقرير المصير ، خلال المعمعان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منهم فى الحين الذى كانوا فيه يصرحون بالذياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الأمبراطورية العثمانيــة ، إشباعاً لشرههم السكابى ونهمتهم الوحشية ، ممتهنين شر امتهان إرادة أهالى البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة . وكان مؤتمر فرسايل كشافاً عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التى انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخدّاعة التى التزم جانبها المؤتمر فى رفضه قبول وفد ايران الذى أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت مابرحت مستقلة استقلالاً اسميا ظاهراً) . فكان من الأمر أن حمل المؤتمرُ الوفدَ على البقاء فى باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذى يراه المسافر فيحسبه ماء ، بينما كانت الحكومة البريطانيــة تشد الخناق على عنق حكومة الشاه فى طهران الى أن أكرهتها اكراهاً على إبرام « اتفاق » باتت ايران كلها بمقتضاه بلاداً محمية فى كنف الامبراطورية البريطانيــة . وأما المصريون ـ الذين كان دأبهم وديدنهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التى أعلنتها بريطانية منفردة ، من تلقاء نفسها ، فى مصر سنة ١٩١٤ ـ فقد أوفدوا الى باريس وفداً ليبسط قضيتهم فرفض مؤتمر فرسايل الأصاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر انما يعتبر الحماية البريطانيــة فى مصر أمراً قضى وحكما أبرم . فنجم عن جميع ذلك ماعدّ نتيجة من نتائج الحرب ، وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين الأدنى والأوسط قد شدت أطنابها ، وتوطدت عمدها واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

على ان الأمر الأغرب والأعجب فى جميع القضية لم نبسطه بعد . قد يخال بعضهم أن قادة الحلفاء ما كانوا الا ليدركوا أنهم كانوا فى نهجهم هذا النهج يركبون مركباً خشناً ، و يعانون صعباً فى سبيل أمر لايستطيعون بلوغ الغاية منه الا بصف الجانب الى الجانب ، وتعاقد الأيدى على التعاون ، وتقارض شد الأزر ، وسرعة الامضاء . غير ان الواقع كان الضد كل الضد من هذا . إذ انهم لم يكادوا يمدون أيديهم بعضهم لبعض حتى ذعر الشرق إما ذعر ، واجفل إما اجفال ، متقداً حنقاً وغضباً و بأساً . فما كانوا ليقيموا لهذا شيئاً من الوزن والاعتبار ، بل ركبوا رؤوسهم فى طريق السوء وشرعوا يتخاصمون و يتقاتلون على اقتسام الغنيمة ، بحيث صار كل منهم يتهجم للآخر ، ويريد أن يفوز على سائر شركائه بالسهم الأربح والنصيب الأوفر . فانقضت سنتان دون أن تستطيع بريطانية وفرنسة وايطالية الوصول الى إبرام اتفاق بينهن ولو ظاهراً ، يرتضين بمقتضاه خطة فى تقسيم الامبراطورية العثمانية ، بل ظللن طول هذه المدة ينهش بعضهم أقفية بعض ، وتكيد الواحدة المكايد وتلق الأحابيل والاشراك فى سبيل الأخرى . وكذلك كان شأنهن فى جميع الشرق الأدنى . قل الحق ولا تخش لوماً . انما ذلك كان خفة وطيشاً وجنوناً ، فباتت الشعوب التى قضى عليها بأن تكون ضحايا بريئة ، تمزقها مخالب الاستعمار ، تدرك جيداً من وراء ذلك التطاحن الذى شرع يتطاحنه الحلفاء على مشهد منها فى سبيل امتصاص دمائها ، أن السيطرة الاوروبية قائمة ليس فقط على « الافلاس » فى الآداب الصحيحة والأخلاق الكريمة بل فى السياسة أيضاً ، واضحت النتيجة جلية ، وهى أن سيطرة متهدجة مثل هذه السيطرة القائمة على أساس المفاسد والعيوب ، لعجلان ماتزلزل شر زلزلة ، وتقوض تقويضاً يصيرها أثراً بعد عين .

هذه هى الحالة العامة التى يفقهها الشرقيون اليوم ، على أن شعورهم بحولهم وقوتهم و بتضعضع الغرب وتقاطعه وتفكك أوصاله ، لم يكن المهيج الفذ الذى هاج منهم هذه النفوس الثائرة ، بل ظهر لهم هناك حليف جديد وقف من ورائهم وما فتئ يجد فى تشجيعهم على القيام فى وجه الغرب ، يؤرث نار العداء بينهم و بينه ــ ألا وهو الروسية البلشفية ، التى قد قلبت لاوروبة ظهر المجن وانبرت تبتغى نزال الحضارة الغربية . فلما اشتد الخطب واستحكمت حلقاته ، وحرج المأذق بين الشعوب الشرقية والدول الغربية ، وجد القادة

البلشفيون الفرص الكثيرة قد لاحت فى الشرق آخذاً بعضها برقاب بعض ممهدة لهم سبل الوصول الى غاياتهم ، فهللوا لها فرحاً وسروراً ، وشرعوا يبثون دعوتهم المعروفة ، وسنفصل الكلام على المساعى البلشفية والأعمال التى قام بها قادتها فى الشرق فى فصل « القلق الاجتماعى » من هذا الكتاب . غير ان مايعنينا علمه الآن هو ان الدعوة البلشفية انما هى عامل كبير فى هذا الغليان الشديد البعيد الغور ، والثوران الشامل المنتشر فى الشرقين الأدنى والأوسط ، الذى جر فادح البلايا الى بعض الأقطار وجلب عليها الخراب والدمار ، وما زال منذراً بالتزايد والتفاقم فى المستقبل القريب .

اننا لو شئنا التفصيل فى شأن هذا الاضطراب المشهود اليوم فى الشرق لاستغرق ذلك أسفاراً ضخاماً . لذلك نقصر الكلام فى هذا المقام على المراكز الكبرى التى هى مناشئ هذا الاضطراب ومبعثه ومصدره ، عالمين ان هذا الغليان عامّ الطوفان ، مطبق الطمو فى جميع العالم الاسلامى ، من الأقطار الافريقية الشمالية الفرنسية الى أواسط آسية والجزائر الهولندية . وأما المراكز التى نبسط الكلام عليها الآن فهى مصر وايران وتركية والأقطار العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية . وهناك غير هذه المراكز مركز خامس كبير ـ هو الهند . غير اننا سنبسط الكلام على هذا المركز الأخير فى الفصل الذى يتلو .

ان العاصفة الأولى قد عصفت فى مصر . ظلت مصر مدة الحرب وهى مغمورة بطوفان الجيوش البريطانية ، ومصفدة شر تصفيد بالأغلال العسكرية (العرفية) ساكنة هادئة ، ولكن تحت ضغط الجور الهائل وارهاق الحد والقسوة العسكرية ، لاعن طاعة مختارة ولا عن طيب نفس ، وقد علمنا فيما سلف من الكلام فى غير موضع كيف أضحى جمهور متهذبة المصريين عند مطلع القرن العشرين ، متشربين قليلا أو كثيراً لمبادئ القومية والعصبية الجنسية ، من حيث كان جانب كبير منهم يعتقدون نهج مناهج الارتقاء المتدرج ، لانهج العنف والثورة . وكان المعتدلون من المصريين أقوياء الأمل بحسن العقبى والسبب فى ذلك كون الحكم البريطانى ذا صفة موقتة لادائمة . كما أن بريطانية قد أعلنت من ذاتها مراراً انها محتلة مصر « احتلالاً موقتاً » ، مما جعل المصريين يعتقدون ان جميع مايرجون نيله لمستطاع . غير ان اعلان الحماية سنة ١٩١٤ اعلاناً جعلت مصر بمقتضاه قسما من الامبراطورية البريطانية ، كان من شأنه انه بدل بصورة القضية تبديلا تاماً ، ونقض

شكلها نقضاً كلياً ، فأيقن جميع أهل مصر حتى أكثر الوطنيين اعتدالا ان قد قضى على مستقبل مصر بالويل قضاء مبرماً ، وسبق السيف العذل ، وان الأبواب قد أغلقت دون النجح شر إغلاق ، وأوصدت دون بلوغ آمالهم ونيل مطامحهم ، وحيل بينهم و بين ما يبتغون فنجم عن ذلك ان انحاز المعتدلون الى جانب الغلاة و باتوا جميعاً من بعد ما كانوا شتى ، على استعداد للقيام بأعمال الشدة والعنف والمقاومة والمشاكسة عند سنوح الفرصة ولوح النهزة .

وكان غلاة الوطنيين مافتئوا منذ بدء الأمر يوالون احتجاجاتهم على اعلان الحماية ، فعند ختام الحرب العامة أوفدت مصر وفداً مؤلفاً من المعتدلين والغلاة الى باريس ليقوم ببسط القضية المصرية لدى مؤتمر فرسايل ، نخيب المؤتمر الوفد كما ذكرنا ذلك فى موضع قريب ، وأبى الاصاخة لأقواله واستماع شكواه ، معترفاً بالحماية البريطانية فى مصر جزءاً مندمجاً فى التسويات التى بنى عليها عقد الصلح . فرفع الوفد المصرى احتجاجاً رسميا منذراً فيه الحلفاء بنشوء الاضطراب فى مصر ، جاء فيه : —

« لقد قرعنا الباب اثر الباب لكن على غير طائل . وانه بالرغم من العهود المؤكدة والوعود الموثقة ، التى قطعها رجال السياسة الذين كانوا على رأس الأمم التى جنت ثمار الظفر ، بأن فوز الحلفاء انما هو نتيجة لنصر الحق على القوة ، ولتأييد مبدأ « تقرير المصير » بحيث تترك الامم الصغيرة وشأنها تختار لنفسها من أنواع الحكم ماتراه موافقاً لصلحتها ، ـ بالرغم من جميع ذلك ـ فان الحماية الانكليزية على مصر قد أدخلت فى نص معاهدتى « فرسايل » و « سان جرمن » ، دون الوقوف على رأى الشعب المصرى فى أمر موقفه السياسى .

« فنحن ازاء هذه الجريمة الواقعة على أمتنا ، والتى هى فى الواقع خيس بالعهود من قبل الدول التى أعلنت للملأ كافة انها واضعة فى تلك المعاهدة نفسها بناء « عصبة الأمم » ، لابدّ لنا من التحذير الشديد الى أن الشعب المصرى ليعتبر هذا الحكم الصادر عليه فى باريز باطلاً لا وزن له البتة . . . . واذا لم يسمع تحذيرنا هذا فانما ذلك لأن الدماء التى أهرقت من قبل فى سبيل حرية الأمم لاتزال غير كافية لقلب النظام العالمى القديم ، واحلال نظام عالمى جديد محله » .

فما كاد حبر هذا الاحتجاج يجف حتى أخذ الاضطراب ينشأ وينتشر فى مصر . وفى الحين الذى فيه وصل الوفد الى باريس ليبسط القضية ، رفع الوطنيون فى مصر مطالبهم الى السلطة البريطانية ، واشتمل برنامج الوطنيين على مطلب الحكومة الذاتيـة الناجزة لمصر مبقياً لبريطانية حق المشارفة عـلى الديون العامة وقناة السويس . وظهرت قوة الوطنيين مظهراً شديداً مؤيداً ، وذلك ان مطالب البرنامج بجملتها هى مما وافقت عليـه الوزارة المصرية التى عينها الخديوى قبيل ذلك تعييناً نائـلا لرضى الحكومة البريطانية . فطلب رئيس الوزارة المصرية رشـدى باشا أن يؤذن له ولبعض زملائه فى الشخوص الى لندن للمفاوضة مع حكومتها ، فأمست السلطة البريطانية عند هـذا الطلب فى موقف حرج ، لكنها اختارت أن تعتزم التصلب فى موقفها ، وعلى ذلك أجابت أن الحكومة البريطانية ليس فى وسعها أن تتخلى عن التبعة الملقاة على عاتقها وهى التبعـة المقتضية استمرار الأمن والنظام والحكومة الصالحة فى مصر ، وهى البلاد التى أصبحت تحت حماية بريطانية وصارت جزءاً متمماً للامبراطورية لاينفصل عنها ، وان ليس هناك عائد خـير يستفاد من السماح للزعماء المصريين بالذهاب الى لندن حيث يبسطون مطالب غير معتـدلة لايستطاع الاصغاء اليها ولا مما يحتمل وضعه على بساط البحث والاعتبار .

ان موقف الانـكليز فى مصر كان شديداً صلباً ولـكن ما كان موقف الأمة المصرية بأقل منه شـدة وصلابة . فاستقالت الوزارة للحال ولم يكن من المستطاع تأليف وزارة تخلفها ، الامر الذى اكره المندوب السامى البريطانى الجنرال اللنبى على الاخذ بأزمة الحال بيد شديدة على غير هيبة ولا وجل . وفى هذه الغضون جاهر رجال النهضة انهم انما يريدون استفتاء الامـة المصرية استفتاء تعرب فيـه عن مقرر موقفها فى ذلك البرزخ . فأبت السلطة البريطانية على الوطنيين ذلك وشرعت تحول دون نيل مرادهم ، ولـكن على جميع هذا قد استطيع الاستفتاء وان كان غير قانونى ، فـكانت نتيجته على ماأراد رجال النهضة ، وهى تأييد الشعب تأييداً عاما للمطالب الوطنية . فحمل ذلك الموقف ــ الذى وقفتـه الامة متضامنة يشد بعضها بعضاً ــ الحكومةَ البريطانية على ارهاف الحـد والاستعانة بوسائل القسوة والعنف ، فقبضت السلطة البريطانية فى مصر على أكثر القادة الوطنيين وأبعـدتهم الى مالطة فى ربيع ١٩١٩ وزعقت فى آذان الامة المصرية زعقة ما كان أشدها .

على أن مصر أجابت المرعب المهدّد بالانفجار الهائل فالتهبت نار الثورة فى البلاد من أولها الى آخرها وما كان شبوب النار فى موضع أقل منه فى آخر تخربت المسالك الحديدية تخريباً ، وقطعت الاسلاك البرقية تقطيعا ، وهوجت القطر واستلبت استلاباً ، وقتل الضباط والجنود البريطانيون حيث كانوا يثقفون على انفراد تقتيلا ، وفى القاهرة وحدها نهب الغوغاء ألوفاً من البيوتات والمنازل ، وزاد الخوف واشتد البلاء بتدفق عرب البادية مغيرين للغنيمة والسلب ، فظلت مصر فى هرج ومرج تتهدج على شفا جرف الفوضى ، واعترفت الحكومة البريطانية أن مصر انما كانت فى فتنة صماء .

فاستقبلت السلطة البريطانية المأزق الحرج برباطة جأش وشدة مضاء وكان عدد الجنود البريطانية فى مصر كثيراً ، واستقدمت الكتائب السوداء الامينة من السودان . وقام الشرط الوطنيون المصريون ، المدربون تدريباً حسناً ، بطاعة الامر فى الساعة العصيبة . وكانت بضعة أسابيع اشتد فيها الاضطراب واستحرّ القتال ، وعظمت الخسارة فى النفوس والثمرات ، ثم سكنت مصر واقتيدت تحت جناح الحكم .

وأعيد النظام ، غير ان البلاد ظلت ظاهرة مظهراً غاية فى التشاؤم مملوءاً بنذر السوء وشر العقبى ، وما كان حفظ النظام مستطاعاً البتة لولا العدد الكبير من العساكر البريطانية والسودانية ، وما كان التشدد الهائل بتطبيق الاحكام العسكرية (العرفية) الجائرة بحائل لأهل مصر دون القيام بالتظاهرات الوطنية بعضها يتلو بعضاً ، مما كان ينتهى أحياناً بالهرج والمرج ، والاختلال والقتال ، وازهاق الارواح العديدة . غير أن الامر الأهم فى جميع هذه الحالة هو أن أهل الطبقات العليا فى الامة لم يكونوا وحدهم المشتعلين بنار الوطنية والمتعاقدين بعضهم مع بعض على الذياد عن حوض العصبية المصرية ، بل كانت من ورائهم الملايين العديدة من الفلاحين الذين كانوا من قبل معروفين بصدق طاعتهم والاخلاد الى السكينة ، لكن الحرب العامة كانت ألقت بجرانها عليهم وعانوا من جرائها الويل الأكبر ، اذ حملت الضرورات العسكرية الدولة البريطانية على تجنيد مليون واف من المصريين الذين ساقتهم للقيام بالأعمال الاجبارية فى الشرق الادنى حتى وفى أوروبة ، وجمعت بريطانية من مصر المقادير العظيمة من أنواع الحبوب والاعلاف والميرة اللازمة للجيوش ، الامر الذى هاج نقمة الفلاحين ايما هياج ، وأضرم فيهم فى الباطن الشنآءة الكبرى

للحكم البريطانى مما أخذ يظهر بالفعل والحس والعمل فبات ثقات خبر الانكليز المتضلعين من شؤون مصر يتشاءمون من الحال شديد التشاؤم . قال السر وليم ويلكوكس المهندس المشهور ، بعيد الفتنة ، فى بيان عام له : « ان الفلاحين فى مصر كانوا حجر الزواية التى قام عليها الاحتلال البريطانى ، وأما الشيوخ و رجال العمد وأهل الاحكام ورجال الدين فقد كان شأنهم من حيث زعزعة الاحتلال لايؤ به له ، لانه سواء ناصبنا هؤلاء العداء أم لا فقد كان وراءنا ملايين من الفلاحين سنداً للاحتلال كبيراً . بيد أنه مما لاريب فيه البتة اليوم أن الحكومة البريطانية قد اضاعت ولاء هذه الملايين لها وفقدت ثقتهم بها » . وقال السر فالنتين تشيرول فى مقال له نشره فى «التيمس» اللندنية : « ان هناك حقيقة جارحة أمسينا اليوم نراها مصرحة عن محضها ، الا وهى قيام سواد الفلاحين المصريين للمرة الاولى منذ أول عهد الاحتلال ، وهم مدينون لنا بنعمتهم وحسن حالهم أكثر من سائر طبقات الشعب ، ينتقضون علينا وينقلبون لهبة من النار مندلعة يريدون التهامنا . انى أعتقد أن الواقفين حق الوقوف من أبناء قومى حتى من أهل الحل والعقد من أرباب المقامات الرسمية على حقيقة حرج الموقف واشتداد المأزق فى مصر لقليلون جدا . فقد طفح الكيل ونحن عن ذلك غافلون »

وقد راع الشعور الوطنى الشديد أرباب النظر والاستقصاء روعا كبيرا ، وهالتهم ثورة العصبية الجنسية المصرية هولا عظيما ، تلك الثورة التى كان من شأنها أن وحدت جميع طبقات الأمة وألفت بين الاسلام والنصرانية . قال كاتب ايطالى فى شأن التظاهرات الكبرى الهائلة التى أقيمت فى مصر خلال سنة ١٩١٩ معظما مكبراً: «إن هذه المرة لهى الأولى فى التاريخ رأينا فيها الرايات خفاقة والاعلام خطارة فى مصر وقد نسجت خيوطها أهلة وصلبانا ظهرت فى وادى النيل ، فقد ظل العنصران الاسلامى والنصرانى فى مصر حتى العهد القريب متقاطعين متدابرين،ينفر كلاهما من الآخر كما ينفر من اليهود،أما اليوم فقد حدث فى مصر كما حدث فى الهنديين المسلمين والهندوبين،من امحاء آثار التعصب وزوال الانشقاقات الدينية المختلفة . ان المصريين قاطبة قد غدوا يتظللون علماً وطنياً واحداً ، وبات كل منهم متقداً بروح التآخى والتصافى ، شديد الثقة بأنه متحداً مع أخيه وبنى قومه لا بد له

من ادراك الفوز واحراز الفلاح [١] » وقالت سيدة فرنسية قضت فى مصر غالب حياتها « اننا وايم الله قد أصبحنا نشهد العجائب والغرائب فى هذه البلاد التى كانت فيما مضى موطن الانشقاقات المذهبية ومباءة المشاحنات الدينية : فما هذا لعمر الحق ! ! قسيسون أقباط يعظون فى المساجد الاسلامية وعلماء شيوخ مسلمون يعظون فى الكنائس النصرانية طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات ، جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين فى سبيل القضية الوطنية . كل فرد من الأمة يتشوق مثلها غيرةً وطنية الى رؤية بلاده حرة ينبلج عليها الاستقلال انبلاج الصبح المبين ، مفيضا عليها الخيرات والبركات . ان مثلى ممن عرف مصر فى عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد اليوم بعينه من تطور شأن المرأة المصرية هذه السنوات الأخيرة ، هذا التطور الا عجب فى جميع ما حدث من ضروب الانقلاب والترقى فى وادى النيل . ان من كان يعرف صفات حياة المرأة فى مصر ، حياة الاهمال والانقباع فى اكسار البيوت والمنازل بمعزل عن أى شأن تشتم منه رائحة سياسية ، ليدهش دهشاً كبيراً حيال ما قد حدث من التطور فى هذه الأشهر الأخيرة . خذلك مثلا . قامت السيدات فى مصر الصيف الماضى بتظاهر كبير . فاحتشدن وسرن فى القاهرة مواكب جليلة ، فهرعت فرق الجنود البريطانية للحال ، واصطفت نطاقا من حول الموكب مصوبة نحو النساء البنادق وفى رؤوسها الحراب المسددة اللامعة ، واذ هدد جندى سيدة لسرعان مادارت اليه زائرة زأرة اللبوءة تحمى أشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به : اغرس ياجندى حربة بندقيتك فى صدرى فيعرف العالم أن هناك غير واحدة من النساء أمثال الآنسة كافيل » [٢]

فحمل اشتداد هذه الثورة الوطنية التى لم يسبق لها مثيل فى مصر ، رجال الانكليز

---

(١) ٣٠ ديسمبر ١٩١٩ G. Civimini, in the " corriere della Sera

(٢) مدام جهان دى فراى من مقال لها : « فى مصر » ١٥ سبتمبر ١٩٢٠

Madame Jehan d'Ivray, " En Egypte", "Revue de Paris ..

ووصفت هذه السيدة طائفة من الحوادث الرائعة على هذا الطراز . ولزيادة الاطلاع اقرأ « الملحقات للكتاب المصرى الأبيض » المشتملة على شواهد عديدة معززة بالصور ولرسوم مما يدل على المظالم والفواحش والكبائر التى اقترفتها الجنود الانكليزية .

على الانقسام فريقين مختلفين : فريق مثل السر وليم ولكوكس والسر فالنتين تشيرول وانداده‌ما ، ينادون بوجوب الاذعان العاجل ، للمطالب الوطنية التى ينادى بها أهل مصر . وفريق آخر من أرباب الاستقصاء يؤكدون أن الاذعان للمطالب المصرية انما هو دليل الضعف ومجلبة البلاء . قال السر م . مكئيلرايث . « اذا انتقل الحكم من أيدينا الى أيدى الحكومة الوطنية فلا يمضى على ذلك أكثر من خمس سنوات حتى ينتشر الاختلال ويعم الاضطراب . . اننا اذا شئنا ألا ندع مصر تنقلب مستغرقة فى حمأة الافلاس و بؤرة الفوضى اللتين نجيناها منهما سنة ١٨٨٢ وهى الآن محاطة بأهوال البلشفية كما تؤيد هذا الأدلة المشؤومة الآخذة فى الازدياد ، وجب على بريطانية ألا تترك أعنة الحكم فى مصر ولو على وجه الارخاء »[1] ثم اشتدت حالة مصر اشتداداً عظيما قلقت من أجله بريطانية قلقا كبيراً ، ففى صيف سنة ١٩١٩ أعلنت الحكومة البريطانية انها قد عينت لجنة تحقيق برأسها اللورد ملنر لتشخص الى مصر وتتولى القيام بالتحقيق التام فى الشؤون المصرية .

فكان أمر تعيين اللجنة التحقيقية الحكمة عينها . أما اللورد ملنر فهو من أعاظم الرجال الانكليز فى عالم السياسة البريطانية ، كثير الاختبار والحنكة فى معالجة معضلات الامبراطورية ومن جملتها معضلة مصر . وهو ذو مزاج خلق يبعده من آراء الأحرار الخيالية القليلة التحقيق ، ويقصيه عن التشدد تشدد المحافظين بقواعد مذهبهم ، بحيث يجعله وسطاً بين المذهبين على مذهب أهل الحقيقة ، الذين يقولون بأنه لايصح الا الصحيح هذه هى صفة الرجل كما دل عمله على ذلك بعيد حين . فلما وصل وزملاؤه الى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٠ رأوا أنهم ازاء حالة من أكثر الحالات حرجا ، ومأزق من أشد المآزق عناء ، اذ قبل وصولهم كانت الاذاعات قد انتشرت فى وادى النيل تدعو الأمة لايجاب مقاطعة اللجنة . وأجمع الساسة الوطنيون وفيهم رجال الدين على رأسهم مفتى الديار المصرية على رفض الدخول فى المفاوضة والمناقشة فى أى شأن من الشؤون ما لم توافق اللجنة مقدماً على استقلال مصر . فظهر ذلك بجملته عقبة كأداء ، ومعضلة شديدة ، غير أن اللورد ملنر قد استطاع على كل هذا بوافر الحنكة وشديد الصبر أن يفاوض سعد باشا وغيره

---

(١) العصبية الجنسية المصرية » يوليو ١٩١٩

Sir M. Mc Ilwraith, "Egyptian Nationalism" "Edingberg Review,,

« مستقبل مصر » ٦ نوفمبر ١٩١٩

Hon. W. Ormsby-Gore, " The Future in Egypt ,, " New Europe ,,

من القادة الوطنيين أهل الحل والعقد ، مفاوضة حرة ، و يباحثهم مباحثة صريحة طلقة .

ومما لا ريب فيه أن بعض تطورات الحال التى حدثت فى مصر فى تلك الغضون قد كان من شأنها انها كانت للورد ملنر معوانا فى مجاهيده . اذ فى مصر كما فى سائر الأقطار الشرقية كانت الأعراض والظواهر أخذت تبدو جلية دالة ليس على الاضطراب السياسى فحسب ، بل على الاجتماعى أيضاً ، فانبرى كثير من الهائجين وأهل النجس ، أهل الطراز الجديد فى مصر ، ينظرون فى عامة الشعب الآراء والمبادئ الثورية على منتهى الغلو ، فاقلق هؤلاء الفتيان الهائجون بال القادة الوطنيين المتمشين على الخطط المعينة ، والناهجين المناهج المنظمة ، حتى باتوا مهددين من ناحيتين : الأولى من حيث هم زعماء أحزاب سياسية ، والأخرى من حيث هم من أرباب الشأن والمكانة الاجتماعية وعلية القوم . فنجم فى خريف سنة ١٩٢٠ ان اللورد وزغلول باشا توصلا الى الاتفاق على قواعد أساسية دلت على التراضى المتبادل الصحيح . وكانت خلاصة هذا الاتفاق الممهد لما يتلو ، على حسب ما بلغته الصحف وأيدته صفة البيان الرسمي الذى وضعه اللورد ملنر ما يأتى : أن ترفع بريطانية الحماية عن مصر وتعلن أن مصر هى مستقلة ، أن يكون الاستقلال الذى تملكه مصر مساوياً بكفايته لاستقلال « كوبا » ازاء الولايات المتحدة الامريكية ، أن تمنح مصر حكومة ذاتية ناجزة ، أن تسحب بريطانية الحامية البريطانية والموظفين الملكيين ، أن تعقد مصر على كل حال معاهدة محالفة مع بريطانيه العظمى ، أن تتعهد مصر ألا تعقد هى معاهدات مع الدول الأخرى الا برضى بريطانية وموافقتها ، وأخيراً أن تمنح مصر بريطانية موقعاً عسكرياً وبحريا بحيث تستطيع هذه الأخيرة حماية قناة السويس ومصر فى حالة هجوم مفاجئ يقوم به عدو أجنبى على حين غرة . أما قضية السودان المشكلة فقد تركت معلقة موقتاً غير مبتوت فى شأنها .

فهذه المقترحات كانت تحمل الأدلة البينة على الوفاق المرجو له الخير ولكنها لسوء الطالع لم تقترن بنفاذ للحال [١] . فنشأت الاعتراضات الشديدة عليها وكثرت المقاومة لها

(١) للاطلاع على ما نجم عن هذا التأخر من سوء العقبى اقرأ مقالة السرفالنتين تشيرول « السياسات المتضاربة فى الشرق » اول يوليو ١٩٢٠

Sir Valeutine Chirol " Conflicting Policies in the East ,, (New Europe)

فى كلا بريطانية ومصر . أما فى بريطانية فقد ضبط المقاومون السياسيون من أهل السلطة الرسمية تقرير اللجنة حتى شباط (فبراير) سنة ١٩٢١ ، وأما فى مصر فهبّ الوطنيون الغلاة وقالوا : سعد باشا خائن ، من حيث كان المعتدلون يبدون ارتياحاً تاماً الى الذى اتفق عليه . ولما نشر تقرير اللجنة الملنرية بالتالى جاء فيه على التبيين والتصريح ان منح مصر حكومة ذاتية لما لا يستطاع ارجاؤه ارجاءً تكفل معه سلامة العقبى ، وان الروح الوطنية والعصبية القومية لمن المستحيل محوها والقضاء عليها ، وان محاولة حكم مصر حكماً ممزوجاً بالعداء المرّهو « أمرٌ صعب شائن » ، وان التقاعس عن انتهاز الفرصة لاجراء التسوية المرضية هو من الشؤم ونكد الطالع . غير أن الحكومة البريطانية لم توافق على التقرير بجميع مشتملاته ومضامينه ، الأمر الذى حمل اللورد ملنر على الاستقالة للحال . أما زغلول باشا فما برح على مقامه من زعامة الأمة ، وان تكن سلطته قد تزعزعت . هذه هى صفة الحال فى مصر ونحن نكتب هذه السطور ، حال والحق يقال ليس فيها من الفأل ما كان فيها السنة الخالية .

على انه فى تلك الاثناء امتد تيار العاصفة التى هبت هبوبها الاول فى مصر ، الى كل رقعة من رقاع الشرق الأدنى فطبقها . ففى أوائل سنة ١٩٢٠ انتقل مركز العاصفة الى الامبراطورية العثمانية حيث الحلفاء هم أنفسهم الملومون وأهل الجناية فى هذا الخطب الكبير . أجل لا ينكر أن التوصل الى وضع تسوية ايجابية فى شؤون هذه الاقطار الهائجة المضطربة لم يكن من السهل الهين ، غير أنه مع جميع ذلك لم يكن وضع هذه التسوية من المستحيل الذى لا يدرك لو كانت سياسة الحلفاء ملتزمة جانب الصحة والحكمة والعدل . فعند ختام الحرب الكبرى أمست الشعوب المختلفة فى الامبراطورية العثمانية راجية رجاءً كبيراً فى ان الغايات والمقاصد الحرة التى صرح بها علناً ساسة الحلفاء ستحقق تحقيقا لا ريب فيه . أما العرب خاصة فقد كانوا أشد الجميع رجاء والسبب فى ذلك ان الحلفاء كانوا قد أشبعوهم من براق الوعود وخلاب العهود ما أشبعوهم ، ومنوهم بأن يمنحوهم جميع نعمة الاستقلال جميع ذلك انما قد شجب فيما بعد شجباً شائناً كما سترى فى موضعه القريب من حيث أن الترك فى ذلك الحين لم يكن رجاؤهم فى خير المستقبل قد انقطع انقطاعاً تاماً ، اذ كان لديهم ، الى جانب التصريحات العامة الضامنة لحرية الأمم

والشعوب المصوغة فى برنامج « الاربع عشرة مادة » للرئيس ولسون والتى وافق عليها الحلفاء موافقة تامة ، تصريحات أخرى أضمن للغاية وأكفل للقصد ، من ذلك ما قد صرّحه رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج فى ٥ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٨ اذ قال « ... ولسنا بخائضين غمرات هذه الحروب لننتزع من تركية عاصمتها وأقطارها الغنية المشهورة فى آسية الصغرى وتراقية ، تلك الاقطار التى غالبها من العنصر التركى » وذلك بعبارة أخرى أن الترك قد فهموا تفهيما بيناً باتاً انه فى الحين الذى لا بد لحكمهم من التقلص والزوال عن الاقطار غير التركية كالبلاد العربية،فان البلاد التركية فى الامبراطورية لن يراد اخضاعها لسيادة أجنبية ، بل يتألف منها دولة تركية وطنية . ولكن الترك لم يطلعوا على سلسلة من المعاهدات السرية التى عقدها الحلفاء فيما بينهم منذ سنة ١٩١٥ واتفقوا بمقتضاها على تقسيم جميع آسية الصغرى بين الدول المتحالفة . واذلم تنشر سلسلة هذه المعاهدات الا بعد زمن ، فقد ظل الترك هذه المدة راجين خيراً ومرتقبين عدلاً وفراً .

أما العرب فقد كان المجال لمطالبهم القومية أرحب ، ولثوران عصبيتهم الجنسيةأدعى من حيث كان الحلفاء فى سياستهم معهم أشد مخاتلة وخداعاً ، وأفظع مكراً ورياء . وقد قدمنا الكلام على الثورة العربية التى شبت نارها سنة ١٩١٦ فى الحجاز بأمرة شريف مكة ، ثم أخذت ألسنتها تندلع وتنتشر فى جميع الأقطار العربية فى الامبراطورية العثمانية ، فكانت فى الواقع من أكبر العوامل فى هزيمة الجيوش التركية وتمزيقها . ولم تكن الثورة العربيه طفرة على غير هدى ، ولا وثبة غير معدة لها الأسباب والوسائل ، بل قامت على خطط محكمة ، ومناهج موثقة ، مستندة فى غالبها الى مظاهرة الحلفاء وناتى عضدهم ، ومعتمدة على وعودهم وعهودهم . فمنذ أول نشوب الحرب العامةبات رجال العرب الساخطين فى سبيل قوميتهم ، الغاضبين لعصبيتهم ، على صلة مع السلطة البريطانية فى مصر ، التى تلقتهم بالترحيب والكرامة ، وأقبلت عليهم تشجعهم على المضى فى امضاء التدابير وتمهيد الطرق للانشقاق والقيام بالفتنة ، إذ أن بريطانية أيقنت إذ ذاك ايقاناً ان ثورة العرب اذا شبت نارها كانت بلا ريب سنداً وعوناً لها فى الذياد عن مصر وقناة السويس ، دع عنك ماتنيل تلك الثورة الجيوش البريطانية من ذرائع القوة . وتكسبها من وسائل

القدرة على الزحف والفتح فى البلاد العثمانية .

فالعرب اذاً لم يطلبوا المساعدة المادية فقط ، بل طلبو قطع العهود والوعود الباتة التى لاريب فيها بان ثورتهم هذه التى يشبون نارها سيكافأون عليها بانشاء دولة عربية ، يرفع لواؤها على جميع الأقطار العربيــة فى المملكة العثمانيــة . غير انه لمن نكد الطالع ، على ماشرهت اليه نفوسهم من نيل المطامح الجنسيةوتحقيق الآمال القومية ، كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية تنويان فى شأن مستقبل الأقطار العربية الخاضعة لتركية ، أمراً آخر غير ذاك الذى استهانوا هم فى سبيله ، إذ كانت كلتا الحكومتين منذ عهد من الزمن حائزة « منطقة سيطرة أو نفوذ » (١) فى هــذه الأقطار ، فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم ، وكانت المنطقة الفرنسية مشتملة على لبنان وهو كور جبلية فى شمال سورية ممتدة على ساحل البحر المتوسط ، حيث غالب الأهلين من الكاثوليك المعروفين بالموارنة الذين شملتهم فرنسة حقبة مديدة بالحماية السياسـية . ومن المعلوم ان هاتين المنطقتين كانتا من بلاد الدولة العثمانية بالاعتبار القانونى ، مساحة كل منهما قليلة ، بيــد ان « مناطق النفوذ » من شأنها أن تكون متمغطة متمططة ، قابلة للامتداد والاتساع فجأة الى مالا حدّ له ولا نهاية عند الحالات المناسبة . لذلك قد كانت الحرب العامة خير فرصة وأفضل نهزة ، فبادرت وزارتا الخارجية ، البريطانية والفرنسيةفى عقد المواثقات والمصافقات على السلع ، فوقعت الحكومتان فى ٥ آذار (مارس) ١٩١٥ معاهدة سرية ، خولت فرنسا بمقتضى شرائطها و بنودها حق التمتع بالتقدم على سواها فى سورية ، وخولت بريطانية مثل ذلك فى العراق . ولم تقرر الحكومتان إذ ذاك حدوداً معينة ، بل اكتفتا بالتراضى على مطامعهما التى عولتا على تحقيقها باقتسام الأقطار العربيــة الخاضعة لتركية .

على ان عقد هذه المعاهدة السرية قد أوقع رجال السلطة البريطانيــة الذين كانوا فى مصر يفاوضون العرب لايقاد نار الثورة ، فى الحيرة والارتباك . وقد أيقن هؤلاء المفاوضون البريطانيون ان الثورة العربية هى نهزة ثمينة ، ترجو بريطانية من ورائها عوناً كبيراً

(١) منذ أكثر من عشرين سنة نشرت فى بعض المجلات جملا وخواطر منها « لايوجد شىء أشبه بالسل فى جسم ، من منطقة نفوذ فى بلاد »

ورفقاً عظيماً ، فيكون من الخرق ان لم تهتبلها ، بل ان أضاعتها فقد أضاعت سنداً قوياً وخسرت خسارة لاتقدر ، فاستطاعت السلطة البريطانية فى مصر بالتالى وضع خطة مصوغة صوغاً كافلاً لارضاء قادة العرب وزعمائهم . وفى ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ سلم حاكم مصر العام السر هنرى مكماهون ممثل شريف مكة فى القاهرة صك عهد تعهدت بموجبه بريطانية العظمى ، على شريطة قيام العرب بالثورة ، الاعتراف باستقلال العرب فى الامبراطورية العثمانيـة ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضى اتخاذ تدابير مخصوصة فى شأن السلطة الادارية ، وأيضاً فيما عدا المناطق التىليست بريطانية العظمى « حرة فى التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسة » . فكانت هذه العبارة الأخيرة على كل حال ضرباً من المزاح والرقاعة لـكنها قد وفت بالغرض الذى قصد منها ، وإذ كان العرب غير واقفين البتة على المعاهدة السرية ، خالوا ان هـذه العبارة الاستثنائية فى صك عهد السر هنرى مكماهون انما يعنى بها منطقة لبنان الضيقة ، فتهللوا فرحاً وانتشوا سروراً (١) ، ثم انتشروا يبتغون اعداد العدد ، واستـكمال الذرائع والوسائل لقدح زناد الثورة التى شبت نارها السنة التى تلت .

أجل ، نشبت الثورة العربية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ ، بيـد أنه لو كان العرب قد علموا من قبل ماقد تم من عقد المعاهدة السرية فى شهر ايار (مايو) من السنة الخالية بين بريطانية وفرنسة ، لما قدحوا لثورتهم زناداً ، ولا أضرموا لها ناراً . وفى ذلك الشهر الذى شبت فيه الثورة العربية ، عقدت الدولتان المذكورتان معاهدة سرية أخرى ، هى معاهدة سايكس ـ بيكو المشهورة ، اتفقتا بمقتضاها اتفاقاً باتاً على تقسيم الأقطار العربية فى الامبراطورية العثمانية ، تقسيماً مبرماً قائماً على الأساس المبين فى المعاهدة السرية التمهيدية المعقودة بينهما فى السنة التى قبل ، فبات العراق على مقتضى معاهدة سايكس ـ بيكو هذه ، عراقاً بريطانياً لاشك فى أمره ، وباتت سورية من صور حتى اسكندرونة سورية فرنسية لاريب فى شأنها تتبعها الأقاليم الأرمنية وأقاليم شماليـة أخرى من آسية

(١) هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا وانتشوا وفرحوا ليسوا كل العرب . . . بل ان قسماً من العرب كانوا يعرفون ماوراء الاكمة وطالما نبهوا وحذروا قومهم من الوقوع فى الشرك فـلم يجد تحذيرهم فتيلا . وما لنا وما للتذكير بما كل أحد يعرفه ، فما يوم حليمة بسر (ش)

الصغرى . أما فلسطين فقد اعتبرت دولية واعتبرت حيفا مع مينائها البحرى لبريطانيـة ، بحيث ان هذه المطوحة كانت نهايتها صيرورة فلسطين تابعة للمنطقة البريطانية . وأما البلاد الداخلية الواقعة بين العراق وسواحل سورية فقد اعتبرت « بلاداً عربيـة مستقلة تقسم الى منطقتى سيطرة » بريطانية وفرنسية ، فالمنطقة الفرنسية تشتمل على سائر سورية من حلب حتى دمشق ، والمنطقة البريطانية تشتمل على سائر العراق حتى اقليم الموصل . وبعبارة أخرى ان الاستقلال الذى وعد العرب به السر هنرى مكماهون انما غدا بين سمع الأرض وبصرها .

من المعلوم أن هـذه الخدعة الكبرى التى قامت بها بريطانية وفرنسة على مسرح المكر من وراء الستار ، لم يكن للعرب علم بها ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم ، من حيث ان بريطانية جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهياج الآمال الاستقلالية فى صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية فى نفوسهم . فكان ذلك خير وسيلة وانجع ذريعة لاستثارة نخوتهم فى الثورة لجعلوا يتسارعون الى مجال الحرب وينبعثون الى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم . وأنفذت الحكومة البريطانية الى العرب عدداً من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأمير آلاى لورانس الفتى اللوذعى النابه الشأن ، الذى ماأسرع مانال من نفاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم[١] ، مما لاحدّ له ولاغاية ، حتى دعى « روح الثورة العربية »[٢] لكن هؤلاء الضباط الأكفياء العارفين شؤون العرب والمعروفين بميلهم اليهم وعطفهم عليهم ، انما قد اختيروا ليقوموا بما انتدبوا اليه ، من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولااطلعوا على المعاهدات السرية التى عقدت خفية عن العرب . وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لايعرو همة هؤلاء المستشيرين فتور ، ولا انكسار ، ولا يثلم وفاؤهم للعرب بينماهم يستثيرونهم همتهم ويستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لاينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة فى المنشورات والتصريحات التى كانوا

---

(١) سماه لويد جورج ملك العرب غير المتوج . (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على الأعمال التي قام بها لورانس اقرأ سلسلة مقالات « لورانس : روح الثورة العربية » نشرت تباعا فى مجلة « آسية » نيسان (ابريل) ايار (مايو) حزيران (يونيو) تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠

L. Thomas, " Lawrence : The Soul of the Arab revolution,, Asia

يذيعونها آخذاً بعضها برقاب بعض(١) ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فاصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معاً منشوراً أذاعتاه في جميع الاقطار العربية جاء فيه : « ان الغاية التي من أجلها خاضت فرنسة وبريطانية في معمعان الحرب في الشرق الحرب التي أثارتها على العالم المطامع الالمانية ، هي أن تضمنا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك ، تحريرهم من الاستعباد تحريراً تاماً باقياً ، وان تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وارادته المطلقة دون منازع »

فلم يلبث أن برح الخفاء وانجلى المستور وبان الصبح لذي عينين ، فتبدلت الحال غير الحال . عند ماوضعت الحرب أوزارها ورجعت السيوف الى أغمادها ومزق العدو شر ممزق ، وانتهت الرواية وأرخى الستار — الستار الذي تبدّت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشاً جليا ، فقرأها العرب وعاموا الأسرار ووقفوا على بواطن الأمور بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتلّ شاطئ سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة في نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم ولاسيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذي برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال في الحروب ، والذي استطاع الآن أن ينزل من بني قومه منزلة لاينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان ، لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حممه ماالهب البلاد جميعها . لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم انما هو مركب خشن وغاية في الاستهداف والمخاطرة ولاسيما في آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حق الادراك قوة العرب المعنوية والادبية في ذلك الموقف الذي كانوا فيه ، طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوم ببسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد . فقام بهذا الامر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الاقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب والنار تحت الرماد

(١) من ذلك على سبيل المثال منشور اذاعه الجنرال مود General Maud في عرب العراق في آذار (مارس) ١٩١٧

بسط الامير فيصل لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى ، وفصيح منطق ، يحف بموقفه الوقار ، لكنه لقى خيبة فى المسعى . اذ اشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على « الرفق والعطف » ، وذلك : « ان الاقوام المعلومة التى كانت من قبلُ فى الحكم التركى وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلالا معلقا ، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها اذ ذاك على غاربها[1] »

ثم فقه العرب معنى « الانتداب » وا كتنهوا ماهيته وسره . وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجمل الرائقة مثل قوله: «ان العرب قد وفوا حقا بعهودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً أن نقابل الاحسان بمثله فنفى بعهودنا ونبر بوعودنا لهم[2] » . غير أن العرب كانوا قد قرأوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد ، محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى ، اذعاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخدع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالى علم العرب علما مكينا ، انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة سواعدهم ، ومساعيهم ومجاهيدهم وذلك اما فى مجال السياسة واما فى مجال الحرب .

أما فيصل فظل يؤثر المساعى السامية على التهور فى الحرب . ولعل الباعث له على هذا ليس مارأى من الاستهداف وركوب المخاطر فى المقاومة فحسب ، بل ان الحلفاء كانوا حينئذ على حال من التنازع الشديد والمشادة الكبيرة فى كل قطر من أقطار الشرق الادنى ، مما حمل فيصلا على أن يرجو نيل النجح على يد السياسة . وكان التنازع الأمرّ الأشدّ فى جميع ذلك ، هو الذى نشأ بين بريطانية وفرنسة عند ماجاءتا تقتسمان غنيمة الاقطار العربية . والسبب فى هذا الخلاف العظيم منشأوه السخط الذى سخطه الفرنسيون من أجل المعاهدات السرية . اذ لم يكد يكشف الغطاء عن معاهدة سايكس - پيكو فانتشرت وذاعت ، حتى هب جانب كبير ذو بأس من الرأى العام الفرنسى يصرخ أشد الصراخ ان فرنسة انما غبنت فى الصفقة غبنا فاحشاً فلذلك ليست هى بالراضية بهذه القسمة الضيزى .

---

(١) المادة الثانية والعشرون من عهد عصبة الأمم

(٢) من خطاب ألقاه فى ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩

فقد ظل انصار التوسع الاستعماري من الفرنسيين ــ قروناً طويلة ــ يحدجون سورية بانظارهم ويهوون اليها بقلوبهم [١] . فلما نشبت الحرب العامة طفقت الصحف الاستعمارية الفرنسية تقوم بنشر دعوة شديدة تحريضا على استلحاق بعض أقطار الشرق الأدنى بفرنسة ، وكانت «سورية كلها» موضوع الصراخ وغاية الدعوة ، ولم يكن معنى «كلها» مقصوراً عند المستعمرين الفرنسيين على شاطئ سورية الذى أصاب فرنسة على مقتضى معاهدة سايكس ــ بيكو ، بل أرادوا ان يشمل معنى هذه الكلمة فلسطين والبلاد الداخلية من حلب الى دمشق ، ممتدة حتى أقاليم الموصل الغنية بالزيت . وشرع أهل التوسع الاستعماري ينادون ويصرخون ان لفرنسة «حقوقاً تاريخية ثابتة يرجع منشؤها الى عهد الحروب الصليبية ، بل الى عهد شرلمان» تتعلق بهذا القطر الكامل الذى بات يعرف فى المحافل والأندية الاستعمارية «بفرنسة المشرقية» فغدت سورية «الزاساً ثانية» فى هذا الاعتبار ، ومستنداً شديداً لا ينفصل بوجه من الوجوه عن سياسة فرنسة الخارجية ، وقد ظاهرت دوائر الحكومة الفرنسية هذه المطامح الاستعمارية مظاهرة عظيمة وعضدتها عضداً كبيراً . مثال ذلك ما صرحه المسيو ليغ فى مجلس النواب سنة ١٩١٥ اذ قال : «ان محور السياسة الفرنسية لهو فى البحر المتوسط ، قطبه الواحد فى المغرب المشتمل على الجزائر وتونس

---

(١) للاطلاع على ماقام به أنصار التوسع الاستعماري قبل الحرب من نشر الدعاية فى هذا السبيل اقرأ مقالة ج بوانيان «المصالح الفرنسية فى سورية» آذار (مارس) ١ ــ ١٦ ، ١٩١٣

G. Poignant, "Les Intérets Françair en Syrie",

"Question diplo matipues et Coloniales",

ومما جاء على ذكره صاحب هذا المقال تصريح لرئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاره فاه به فى مجلس النواب فى ٢١ كانون الأول (دسمبر) ١٩١٢ منه : «ولست أراني بحاجة الى بيان ما لنا فى لبنان وسورية خاصة من المصالح التقليدية ، وما يجب علينا القيام به لاعزاز هذه المصالح واعلاء شأنها»

واقرأ مقالة ج عطاء الله : «التسويات الثلاث للقضية السورية» تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٣

"Les Trois Solutions de la Question syrienne", "Questions Diplomatiques et Coloniales",

واقرأ كتاب ل . لى. فير «حماية فرنسة للكاثوليك فى الشرق» (باريس ١٩١٤)

L. Le Fur, "Le Protectorat de la France sur les Catholiques d' Orient

مراكش وقطبه الآخر فى المشرق المشتمل على سورية ولبنان وفلسطين [١]

بعد الوقوف على هذه المطامع الكبرى التى قضى على جانب منها بالخيبة والفشل يمكننا أن نتصور مبلغ التأثير السيء الشديد الذى أثرته معاهدة سايكس - بيكو فى نفوس رجال التوسع الاستعمارى من الفرنسيين ، فارتدوا بغضبهم المشتعل ، وذلك بطبيعة الحال على البريطانيين ، فأخذوا فى النيل منهم والقدح بهم وذمهم على جميع الأمور الجارية اذ ذاك فى الشرق ، قائلين ان هياج المطامح العربية وثورة آمالهم وعصبيتهم الجنسية انما ذلك جميعه ناشيء عن السياسة البريطانية ، بل ضرب من ضروب الدعاية الانكليزية . قال كاتب فرنسى فى هذا الصدد : «يحتاج بعض أطباء الأمراض الدماغية الى كتابة الفصول الصويلة فى شأن هؤلاء الموظفين البريطانيين الاستعماريين المنطوية جوانحهم على الأحقاد والضغائن ، المتبجحين المتعظمين ، الذين لاينفكون بياض نهارهم وسواد ليلهم يجدّون فى سبيل خدمة بلادهم ، راكبين رؤوسهم دون ان يبالوا باستشارة حكومة لندن ، والذين دأبهم دوماً القضاء على التفوق الفرنسى فى سورية كما قضوا من قبل على مثاله فى مصر [٢]. فأجاب الكتاب الانكليز على هذا السخط والقذف مستهجنين استهجاناً « جشع فرنسة ونهمتها الوحشية وخبلها» ونهجها نهجاً من شأنه تعريض مكانة بريطانية للخطر

(١) ذكر هذا فلاندرين العضو فى مجلس الشيوخ الفرنسى فى مقال له « حقوقنا فى سورية وفلسطين» ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٥

Senator E. Flandrin. " Nos droits en Syrie et en Palestine " Revue Hebdomadaire ,,

ولزيادة الاطلاع على الدعاية الاستعمارية الفرنسية اقرأ غير ماذكر : ـ

«سورية أو ميدان الحرب السياسية» (شباط «فبراير » ١ ـ ١٥ ، ١٩٢٠)

H, Baudouin. "La syrie : Champ de Bataille Politique" (La Revue Mondiale)

« قضية لبنان» (باريس ١٩١٥) C. G. Bassim, " La Question du Liban"

«سورية الفرنسية» (باريس ١٩١٦) comte cressaty. " La syrie Française "

« فرنسة المشرقية» (اذار «مارس» ١٩١٩)

F. Landet. " La France du Levant ,, " Revue Hebdomadaire ,,

(٢) لزيادة الاطلاع اقرأ مقالة « سورية . أو ميدان الحرب السياسية » المذكورة قبلا

والانهيار ، والانذار بالهاب الشرق اجع الهاباً لايبقى ولا يذر [١] . وعلى الايجاز ان الدولتين بريطانية وفرنسة اللتين قد كانتا من قبل بسنة محالفتين (محالفة مقدسة) باقيـة ، انقلبتا الى المطاحنة والمشاحنة وكيـد المكايد وايقاع النكاية . فكان للعرب من وراء ذلك كله دروس قيمة وعظات بليغة ، فاستقوت آمالهم واشتدت مطامحهم ، وصلبت قناتهم ، ومثـل هذا حدث أيضاً لسائر الشعوب والأمم الشرقية .

فكان هذا التشاحن الشديد السبب الأكبر فى ابطاء الحلفاء طول سنة ١٩١٩ عن القيام بالعمل على الخطة التى كانوا قد وضعوها من قبل بالاتفاق على اقتسام الشرق الأدنى ولكن قد توصلوا فى ربيع سنة ١٩٢٠ الى تدبير محدود ، اذ عقد رؤساء وزارات الحلفاء مؤتمراً فى سان ريمو وضعوا فيه شروط معاهدة الصلح التى راموا حمل تركية على توقيعها ، وبموجبها اتفقوا على اقتسام آسية الصغرى مناطق سيطرة واستثمار ، وعلى اقتسام الأقطار العربية بمقتضى معاهدة سايكس ـ پيكو تلك المعاهدة التى عدت مزخرفة العبارات تذكر هاتين الدولتين فيهما انهما بطبيعة الحال « منتدبتان » من قبل عصبة الأمم [٢] ثم شرعت كل من بريطانية وفرنسة واليونان الشريكة اللاحقة ، فى التأهب والاستعداد للعمل ، فساقت بريطانية القوات العسكرية الى العراق وفلسطين وساقت فرنسة القوات العسكرية أيضاً الى سورية ، وأعدت حملةٌ مشتركة مؤلفة من قوات « بريطانية وفرنسية ويونانية » لاحتلال القسطنطينية ، ووعـد فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية باعـداد جيش يونانى لغزو آسية الصغرى عند ماتدعو الحال . ولم تلق ايطالية دلوها بين الدلاء لأنها رأت خلل الرماد وميض

---

(١) لزيادة الاطلاع على الحملات الانتقادية الشديدة التى حملها الانكليز على فرنسة فى سورية اقرأ ـ « مجازفتنا الهائلة فى سورية » (ايلول) سبتمبر (١٩٢٠)

Beckles Wilson, "Our Amazing syrian Adventure" (Nation Review)

« القضية العربية » (ايلول «سبتمبر » ١٩٢٠)

W. Urinowski, " The Arab cause " Balkan Review

كاتبا هذين المقالين كانا ضابطين فى الجيش البريطانى فى الأقطار العربية .

واقرأ أيضاً مقالات أخرى فى غاية الشدة نشرت فى آب (أوغسطس) وايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ فى مجلة "The balkan Review" بتوقيع "Taira"

(٢) ولم تكن عصبة الأمم قررت يومئذ أدنى شيء بشأن الانتداب فافتأتوا على عصبة الأمم قبل أن تقرر بل قبل أن تجتمع .

نار ، فاعتزمت على ألا تشترك فى الأمر مباشرة . قال « نيتى » رئيس الوزارة الايطالية لصحافى بريطانى عقب مؤتمر سان ريمو : « انكم ستنغمسون فى حرب فى آسية الصغرى ، فايطالية لن ترسل جنديا واحداً ولن تدفع « ليرا » واحدة . انكم قد انتزعتم من الترك أدرنة مدينتهم المقدسة ، وجعلتم سلامة عاصمتهم معلقة على رحمة السلطة الأجنبية وأخذتم منهم جميع موانيهم البحرية والجانب الأكبر من بلادهم ، وأولئك المندوبون الخمسة الذين ستختارونهم سيوقعون معاهدة لن ترضى بها الأمة التركية ولا البرلمان العثمانى » .

كان نيتى رئيس الوزارة الايطالية فى الواقع متكهنا صادقا . فقضى رجال الوطنية من الترك عدة أشهر ، وقد علموا بما خبأه الحلفاء لأمتهم و بلادهم ، يؤهبون الأهب و يعدون العدد و ينشئون الأسباب فى داخل آسية الصغرى للقيام بالمقاومة . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين الأول مثل أنور باشا و زملائه كانوا قد لاذوا بالفرار الى بلاد سحيقة ، كعبر القوقاس وروسية البلشفية . غير أن قادة وطنيين جدداً قد ظهروا فى الأمة ، أشهرهم القائد المقدام المجرب والعسكرى المحنك مصطفى كمال باشا ، البطل المتوقد العزم ، الذى قد استطاع حقاً أن ينظم جيشاً و يثقفه ويدرّبه ، حتى قويت شوكته ، ثم اتخذ أنقرة الواقعة فى قلب آسية الصغرى مقره ، وشرع يناوئ الحلفاء و يناصبهم العداء فأخذت حركته تشتد وتقوى وتشتهر بهجومه على العساكر الفرنسية فى كيليكية (وهى منطقة ساحلية فى آسية الصغرى للشمال من سورية) مبلياً بلاء حسناً ومنزلا بالعدو خسائر فادحة .

وكان العرب أيضا يتأهبون للقيام بالمناوأة والمقاومة ، فعقدوا فى شهر آذار (مارس) « مؤتمراً سوريا عاما » وأعلنوا فيه بالاتفاق استقلال سورية وملكوا عليهم فيصلاً ، فتكهربت للحال جميع الأقطار العربية من جراء اعلان هذا الاستقلال ، فنشبت الاضطرابات الشديدة عداء للفرنسيين فى المنطقة الساحلية التى يحتلها الفرنسيس ، وشبت الفتن فى فلسطين يقوم بها العرب المسلمون والنصارى عداء لليهود الصهيونيين ، وأخذت قبائل العراق توقد نار الثورة غير المنظمة .

فبات موقف الدولتين « المنتدبتين » حرجا مشؤوما منذراً بعظيم الشر ، فلجأتا الى الضرب بسيف القوة العسكرية وتسكين الحال بالحديد والنار ، ولا سيما فرنسة فانها فاقت سواها باتخاذ ذرائع العنف والقسوة . وفى ذلك الحين كان لديها نحو من ١٠٠٠٠٠ جندى

فى سورية وكيليكية بقيادة الجنرال غورو القائد المجرب فى كثير من ميادين الحروب الاستعمارية ، وصاحب الاعتقاد بوسائل « السلاح والحديد والنار »

ففى ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ بعث غورو ببلاغ أخير الى فيصل طالبا منه تسليما تاما ، فاجابه فيصل الى ذلك فى الواقع بعد فراغ جهده السياسى ، معربا عن قبوله بالبلاغ ، غير أن غورو قد أنكر هذا نجاء انكاره خدعة حربيه ، ومشى نحو دمشق بجيش عدده ٦٠،٠٠٠ مقاتل ، فلم يحاول فيصل مقاومة حقيقية ، بل قاتل قتالا طفيفا بعد أوانه ، ثم تسحب الى الصحراء . وفى ٢٥ تموز (يوليو) دخل الفرنسيون دمشق عاصمة ملك العرب ، وخلعوا فيصلا وأسسوا حكما فرنسيا تاما وجازوا العرب على المقاومة التى قاموا بها مجازاة أهول ما كانت من الشدة والعنف ، وغرموا دمشق ١٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك غرامة حربية ، ناسجين فى عملهم هذا فى سورية على منوال الألمان فى بلجيكا ، وزجوا فى غيابات السجون وقتلوا كثيراً من القادة الوطنيين ، وأعلن غورو أن موت « فرنسى واحد أو نصرانى واحد » يعقبه « أخذ الثأر الأهول والانتقام الأفحش » ، بالطيارات الحربية ذات القنابل [1]

فامست سورية من جراء هذه الصاعقة « النابليونية » مهيضة الجناح تضطرب من أثر الرعب . أما الانكليز فى العراق فما كانوا على كل حال ليلقوا إلا حظاً مشؤوما وجداً عاثراً ، اذ ظلت الفتنة دائرة الرحى عدة شهور . وفى شهر آذار (مارس) صرح القائد البريطانى مينا « شدة دهشته من استعداد البلاد للانفجار البركانى » . وفى شهر تموز (يوليو) التهبت العراق من أولها الى آخرها بنار الثورة الآكلة ، ومع أن عدد الجيوش البريطانية كان ينيف على ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، فقد ذاقت بريطانية الأمرين فى تسكين الحال واخماد نار الثورة .

وفى غضون ذلك احتل الحلفاء القسطنطينية يبتغون اكراه تركية على قبول الصيغة التى كانوا قد وضعوها لمعاهدة الصلح . فكان الاحتلال بطبيعة الحال سهلا دون مقاومة ، ولا غرابة فى ذلك فان القسطنطينية انما كانت تحت رحمة أساطيل الحلفاء . غير أن السكون الذى ساد أهل العاصمة الذين كانوا بالألوف المؤلفة متجمهرين بغية شهود الجنود المحتلة

---

(١) للاطلاع عن مظالم الفرنسيين وقسوتهم اقرأ المقالات المذكورة أخيراً .

نازلة الى البر، كان أبلغ وأفصح من ألسنة المفاويه من الخطباء. وقد راقب بعض أرباب الاستقصاء من الحلفاء هذه الحالة، فأوجسوا خيفة وقلقوا بالامنها. قال صحافي فرنسي في هذا الصدد: «ان سكوت الجماهير من الخلق كان وايم الحق أشد تأثيراً من صخب الاحتجاجات البالغة أصواتها عنان السماء. كان الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير، غير أن عيونهم كانت تقدح شرر العداء والبغضاء. وكان بعض القوم من الذين أخذ اليأس من نفوسهم كل مأخذ ورأوا الذل مخيماً فوق مدينتهم، منبثين في أفواج الناس، يرسلون الرسل ويبعثون الدعاة الى جميع الأمم الاسلامية في أقطار العالم الاسلامي لينقلوا اليهم نبأ النازلة الكبرى والداهية الدهماء ففي بضع ساعات تصل الأنباء الى الأناضول، وبعد ذلك بيومين تنتشر في قونية وأنقرة وسيواس، وبعد مدة وجيزة تجوب أنباء هذه الفجيعة جميع الأقطار التي تشملها السيطرة البلشفية حتى القوقاس وعبر القوقاس، وبعد عدة أسابيع تمسي جميع هذه الأقطار الوسطية ملتهبة استعداداً لأخذ الثار، فان آسية وافريقية ستعودان فتوثقان عرى الاسلام توثيقاً لم يعرف مثله من قبل، وسيقوم هؤلاء الرسل النجباء البلغاء بنقش أنباء هذه الغزوة التي قمنا بها، في نفوس العامة والكافة من المسلمين الذين لا يقرأون ولا يكتبون. فهؤلاء الرسل هم دعاة الثورة وهاجة التعصب الديني، متجندون للقيام بهذه الدعاية، متألفون من كل جنس وطبقة من طبقات المجتمع، منهم المتعاممون المتهذبون يتنكرون فيرتدون خلقان الأثواب ويتظاهرون سؤالا ومتشردين ومطرودين ومنفيين، كيما يتسنى لهم بذلك نشر الأنباء في جميع الآفاق واستثارة الهمم والغيرة ابتغاء ايقاد الثورة ذياداً عن بيضة الاسلام» (١)

جرت الأمور في تركية مجاريها التي سبق لنيتي رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها. فاكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة (مصافية)، ففعل السلطان ذلك فشجبت هذه الوزارة حركة مصطفى كمال و(رجاله العصاة) وأوفدت وفداً اختير أعضاؤه اختياراً الى مؤتمر سان ريمو في فرنسة حيث وقعوا بالرضى والتسليم المعاهدة التي أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك (تأييد مرادهم) على قصاصات الورق لا غير، وما كان ذلك بالأمر الغريب لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع

(١) ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ B. G. Gaulis. "L' Opinion,,

هذه الصفقة التى رام الحلفاء عقدها انما هى ضرب من الخبل والجنون ، وان كل فرد من أفراد الحكومة (المصافية) ، من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو الا كمصطفى كمال يلتهب غيرة وطنية ، وان العاصمة التركية الحقيقية انما باتت انقرة لا القسطنطينية وان قوة الحلفاء لا تجاوز فى الواقع غاية مرامى مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال فى شأن معاهدة سيفر : « أمعاهدة صلح تلك ؟ انى مستعد لقتال العالم باسره مشرقاً ومغرباً » .

فبات الحلفاء فى مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانية وفرنسة لا غير . أما ايطالية فلم تشترك فى القاء دلوها فى الدلاء بل فعلت كما قال نيتى ، ولم « ترسل جندياً واحداً ولم تدفع ليرا واحدة » . لذلك لم تستطع فرنسة ولا بريطانية حشد الجيوش الكافية لسحق مصطفى كمال ، فى الحين الذى تتكبدان فيه نفقة ٢٠٠٬٠٠٠ جندى لتسكين الحال فى الاقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوى الكمالية بالأمر السهل ، اذ قدر اركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك ٣٠٠٬٠٠٠ مقاتل تام العدة . على انه قد بقى فى ايدى الحلفاء سلاح آخر هو اليونان . فتقدم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان فى مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة فى مناطق آسية الصغرى ، فقبل ذلك منه و بعد حين نزل جيش يونانى الى ازمير عدده ١٠٠٬٠٠٠ مقاتل ، غير ان هذا الجيش قد لقى الخيبة والفشل اذ ان المئة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغثاء واجتنب مصطفى كمال الاشتباك مع اليونان فى معركة فاصلة ، ولكنه ثابر على مضايقتهم وايقاع الحيف بهم بالحرب غير النظامية ، كما كان شأنه أيضاً مع الفرنسيين فى كيليكية فى الطرف الآخر من الميدان . فتوغل اليونان فى البلاد توغلاً فاحشاً وتورطوا تورطاً شديداً كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا وإشكالاً ، وعلى ما ظهر أن فنزيلوس ظل يبتغى نزال الترك والمضى معهم فى الحرب وذلك بصفة كونه « المنتدب » الثانى من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليونانى أبى عليه ذلك ، لان اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان الى آخر ، حتى نهكت قواهم أشد النهك ، فراموا الاستراحة ولو قليلا . فلما كانت انتخابات تشرين الثانى (نوفبر) اسقطوا فنزيلوس بنحو ٩٩٠٬٠٠٠ صوت ازاء ١٠٬٠٠٠ صوت ثم دعوا ملكهم

قسطنطين الذى كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوأ العرش . فكانت النتيجة الصافية ان اليونان باتت كايطالية خارجة عن ارباب الصفقة . أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه [١] ، فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضاً لذلك الموقف الذى وقفوه فى عهد فنزيلوس . وعلى الجملة فان الحلفاء باءُوا بالخسران فردُ كيدهم فى نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التى حسبوها من الهنات الهينات .

فى ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته فى آسية الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له فى الخارج . ففى المقام الأول كان ينشىءُ علاقات وثيقة مع العرب ، الأمر الذى قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى ان العرب والترك وهما العدوان بعضهم لبعض ينقلبون من العداوة المرة الى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس فى الواقع بالغريب البتة لأن السياسة الفرنسية البريطانية هى التى قد خلقت هذه الأعجوبة وأتت بهذه الخارقة . والسبب الذى من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « روح الثورة العربية » حق الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية فى بيان له نشر فى الصحف البريطانية : « ان العرب قد ثاروا فى وجه الترك خلال الحرب العامة ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً [٢] ، بل لانهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال فلم يخوضوا المعمعة لكى يستبدلوا سادة بسادة ، كأن يخضعوا لبريطانية أو فرنسة ، كلا ، بل لكى ينشئوا لهم دولة عربية » على ان هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب ، وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية [٣] ، فى قالب أبين عن القصد وأفصح عن الغرض ، وذلك فى مقال نشره فى صحيفة

---

(١) قسطنطين لم يكن ليريد الحرب مع الاتراك ، بل كان صرح اولا بان سياسته هى المصالحة معهم . ولكن اشترطت عليه احدى دول الحلفاء متابعة هذه الحرب ان كان يريد ان تساعده فى تبوء العرش ، فاضطر الى ذلك مكرها لا بطلا . (ش)

(٢) ليس من محل احتله الاوربيون بعد الحرب العامة فى الشرق الأدنى وأتوا فيه بادارة تفوق الادارة العثمانية التى كانت قبل الحرب ، بل أتوا فيه بادارة تترقى الى درجة محاكاة الادارة العثمانية ، التى وان لم تكن المثل الأعلى فقد ثبت عند الجميع انها كانت أعدل وأحكم وأعف وأضبط من ادارة الحلفاء فى البلدان التى جاءوا لتنظيم أمورها بزعمهم . . . تقدموا الاتراك بادارتهم هذه أجل خدمة من حيث لايشعرون (ش)

(٣) هذه المقالة هى احدى المقالات التى كنت نشرتها فى جريدة (البوبولار) الاشتراكية الفرنسوية سنة ١٩٢٠ . (ش)

فرنسية راديكالية مقاومة لمطوحة السورية جاء فيه : « ينبغي لفرنسة وبريطانية أن تعلما علم اليقين ان العرب انما هم للترك اخوان فى الدين ، توحدوا واياهم توحداً سياسيا قروناً عديدة ، بحيث هم لايرغبون البتة فى الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين وشركائهم المسلمين وأترابهم المجاهدين الذين واياهم كانوا فى الحروب الخالية يقاتلون العدو جنباً الى جنب وصفاً الى صف ، انشقاقاً ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنير دولة أوروبية ، مهما كان شكل سلطان الحكم الذى تتقلده هـذه الدولة . . . . فلذلك أى جدوى يا ترى من القول الذى يقوله المسيو ميلران : « لم يدر فى خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية » فليس أحد من العرب اليوم يمكن اضلاله بمثل هذا التمويه وأخذه بمثل هذا الخداع . ان الهدنة قد وقعت على حسب الشروط والمبادىء التى أعلنها الرئيس ولسون، ولكن لما تضعضعت المانية وتضعضع احلافها معها ، ديست شروط الهدنة وعهودها، كما ديست الأربع عشرة مادة ، بالأقـدام . على ان النكث الذى أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جازماً لازماً فى منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرار ، قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الاخاء ، فعاد حبل الولاء بينهم بعد التصرم موصولا ، بحيث لم تمض الأشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين . . . . قد تستطيع فرنسة بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠،٠٠٠ جندى فى سورية ، وبتكبدها انفاق الملايين من الفرنكات ، أن تخضع عرب سورية الى ميقات ، بيد ان ذلك ليس جميع ما فى الأمر ولا الضامن لسلامة العقبى ، فحدود سورية مترامية الى مايليها من البلاد التى قطنها عرب وكرد وترك ، وممتدة الى الصحراء الكبيرة . فاذا ما شرعت فرنسة فى قتال الأربعة الملايين من عرب سورية ، لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسبُ بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥،٠٠٠،٠٠٠ عربى ، منتشرين فى جميع الأقطار المشرقية ، غالبهم من القبائل المسلحة ، الشديدة الشكيمة الحمية الأنف الصلبة القناة ، هذا ماعدا الأمم الاسلامية الأخرى ، المتدانية لهم ، الداخلة فى الوحدة المتراصة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك انما هو ارهاق الحلفاء وتوالى ضرباتهم الساحقة على غير رحمة ولا شفقة . فان قال قائل ان فى هذا غلواً ، فما عليه الا أن يواقع الحقائق مواقعة ويراها عن كثب مستبصراً مستقصياً ، ولكن لعمرى أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء

فى الأقطار العربية انهراً وغدراناً [١] » .

وفى الواقع بانت الأدلة على الوفاق التركى العربى مشهودة جلية فى مواضع عديدة . غير ان هذا الوفاق القاضى بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل عن عرشه وجاء من بعد خروجه من دمشق الى ايطالية حيث طفق يوالى القيام بمثاقفات سياسية ، مع هذا فقد اصطف العرب مع الترك جنباً الى جنب فى كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين فى ايقاد الفتن السورية التى ظلت تشب فى موضع موضع . واما ما كان لمصطفى كمال من اليد فى اشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يغنى عن البيان .

وان هذا الوفاق العربى التركى لم يكن جميع مارمت اليه السياسة الخارجية التى اتبعها مصطفى كمال ، فهو فى ذاك الحين عينه كان يبعد بمرمى سياسته الى الشمال الشرقى ، ليتناول التتر فى عبر القوقاس والتركمان فى اذر بيجان الفارسية وكانت القوقاس فى هذا الوقت ميداناً لنزاع شديد وخصام عنيف بين فريق التتر والتركمان المسلمين ، وبين فريق الأرمن والكرج النصارى ، وبين طائفة من الأحزاب الروسية البلاشفة ، مما كاد يحول ذلك القطر الى بؤر شديد السعير . وقد لقى مصطفى كمال فى التتر التركمان ، المختمرين جد الاختمار بالدعوة الطورانية ، أعواناً جماً وأنصاراً غيراً ، ثم لقى نصيراً ثالثاً مد اليه يد العون وهو روسية البلشفية . فالسياسة البلشفية التى قد سبق لنا بيان غرضها وغايتها ، والتى كانت تجهد لاشعال الفتن والثورات فى وجه الدول الغربية فى جميع أقطار الشرق ، قد ارتاحت كل الارتياح لثورة مصطفى كمال وأعظمتها وأكبرتها . أما فى بدء الأمر فلم يكن باستطاعة البلاشفة القيام بعون كبير لرجال الثورة الوطنية التركية ، لأنهم لم يكونوا على صلة مباشرة مع القائمين بها . غير أن الدائرة النازلة التى دارت على جيش « ورانجل » الأبيض فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠ ، واجتياح الجيوش الحمراء على أثر ذلك لروسية الجنوبية بحذافيرها ، قد مهد طريق الصلات المباشرة بين موسكو وأنقرة على طريق القوقاس ، ومن ذلك الحين بات مصطفى كمال مشدود الأزر من قبل البلاشفة بالسلاح والمال وقليل من الرجال .

---

(١) نشر هذا المقال فى Le Populaire فى ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٠

زد على ذلك أن كلا والبلاشفة كانوا جميعاً يوقدون نار الفتنة فى ايران تلك البلاد التى كانت وايم الحق فى حالة يرثى لها . فقد ظلت هـذه البلاد خـلال الحرب العامة ، على كونها محايدة تمام الحياد ، ميدان نزاع بين البريطانيين والروسيين من جانب ، والترك والالمان من جانب آخر . فلما انهارت الروسية انهيارها الأكبر سـنة ١٩١٧ حملها ذلك على أن تجلو جـلاء عسكرياً عن ايران ، فاهتبلت بريطانيـة الفرصة إذ ذاك ، فأعزت سيطرتها وأعلت شأن نفوذها وأيدت كلمتها وكسبت موقفها صفة قانونية بذلك « الاتفاق » المشهور الذى دبرته مع حكومة الشاه فى شهر آب (أغسطس) سـنة ١٩١٩ [١] ولـكن هـذا الاتفاق مع كونه مبرماً وموقعاً على الوجه المرضى قد استنـكرته الأمة الايرانية استنـكاراً وحسبت من جرائه ألف حساب . فانقلبت الحال بذلك فرصة ثمينة لعود الدعوة الباشفية الى العمل والانتشار . فأعلنت الحكومة الباشفية نزولها عن جميع الحقوق التى كانت الحكومة الروسية القيصرية قد اكتسبتها فى ايران ، وجاهرت بولائها ومصافاتها للأمة الايرانيـة ووقفت فى جانبها لمقاومة التوسع الاستعمارى الغربى . فأفلح المسعى حقاً بطبيعة الحال ، فباتت ايران مضطرباً يكثر فيه نشوب الفتن العسكرية . وفى أوائل صيف سنة ١٩٢٠ عبرت قوة بلشفية بحر قزبين ونزلت الى الساحل الايرانى . غير أن هذه القوة لم توغل ايغالا بعيداً فى البلاد إذ لم تـكن بحاجة الى هـذا لأن البلاد بدأت تمور فى بحر من الارغاء والازباد ، مما جعل الموقف البريطانى متزلزلا زلزالا شديداً . فانقضت عدة شهور والاضطراب سائد فى طول ايران وعرضها وما برحت هكذا حتى الحين الذى نـكتب فيه هذه السطور . على أنه ليس هناك من ريب أن موقف بريطانية فى ايران صار بجملته وشيك الانهيار ، وأن بريطانيـة ستـكره لذلك عما قريب حتى تجلو عن البلاد كلها ماعدا القسم الجنوبى الأقصى الذى يمكنها فيه احتفاظ موقفها .

نعود الآن الى خريف سنة ١٩٢٠ حيث موقف بريطانية وفرنسة فى الشرق الأدنى بات ينقلب على التوالى من سىء الى أسوأ . فالدولتان غدا موقفهما منذراً بالويل والثبور ، ولا سيما من بعـد ماتخلت عنهما ايطالية واليونان ، وزحمهما الترك زحمة شديدة ، وثار فى

(١) لزيادة الاطلاع على مجارى هذه الوقعات اقرأ مقالة للمؤلف نشرت (كانون الثانى ــ ديسمبر ١٩٢٠) فى مجلة The Century

وجههما العرب، وانتقض عليهما المصريون والفرس ، وانتشرت الدعوات البلشفية ضدهما فى سائر الأقطار ، فبهظ العبء وثقل الحمل ، ونهكت القوى وشقت الأنفس . ففى العراق وحدها بلغت النفقة التى تكبدتها بريطانية ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية . والحالة لم تبرح متجهمة الجوّ لاتدل على كثير من الانفراج .

لذلك ليس من الغرابة فى شئ فى مثل هذا الأوان العصيب ان غدت السياستان المتبعتان فى الشرق الأدنى هدفاً لسهام الانتقاد المرّ والقذف الشديد ، ولانصباب جام الغضب عليهما من كل قوم وناد فى كل من بلاد بريطانية وفرنسة . أما فى بريطانية على الخصوص فقد بات الانتقاد طوفاناً أعمى يجرف فى سبيله كل شئ حتى عدّت المحاولة التى تحاولها بريطانية فى العراق جناية وخطراً ما أنزل الله بهما من سلطان . مثال من ذلك الانتقاد ما قاله الأمير آلاى لورانس : « لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهياء وصارت حكومتنا أسوأ وشراً من الحكومة التركية البائدة ، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا فى البلاد ويوطدوا الأحكام بنحو ١٤،٠٠٠ جندى من أهل البلاد ، وبقتل عدد من العرب لايزيد على المئتين كل سنة أما نحن فانا نحفظ جيشاً عدده ٩٠،٠٠٠ مقاتل ، تام العدة مجهز بالطيارات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة ، وقد قتلنا نحواً من ١٠،٠٠٠ عربى فى ثورة هذا الصيف [١] » فحملت هذه الانتقادات المرة المؤثرة ، والصفة العامة لمجارى الأمور ، الحكومةَ البريطانيه على تقويم موقفها ، فانفذت الى العراق السر برسى كوكس للمفاوضة مع العرب ، وهو ند للمز ومن طرازه ، لايقيم وزناً الا للحقائق ، كثير الخبرة والحنكة فى معالجة الشؤون الشرقية . ولما كان قد فُوض اليه القيام بالمناقشة والمفاوضة فى شأن اتفاقات كبيرة فقد اجتمع بالقادة الوطنيين على انبساط وحرية ، فكان له فى نفوسهم تأثير كبير . وعند كتابة هذه السطور كانت الحال لم تزل قلقة ، غير أنها تدل على أن بريطانية عاملة على اختطاط خطة جديدة يكون لها بموجبها الحكم المباشر على الطرف الجنوبى الأقصى من العراق حيث رأس الخليج الفارسى ، أعنى على منطقة سيطرتها القديمة المعروفة قبل سنة ١٩١٤ .

وفى تلك الغضون استطاعت فرنسة أن تحفظ شيئاً من النظام فى سورية لكن بطرق

(١) من بيان له نشر فى الصحف آب (اغسطس) ١٩٢٠ .

السلاح والنار ، ومع هذا لم يزل الموقف متزعزعا ، فقد نفت السلطة الفرنسية كثيراً من أبناء البلاد على اختلاف الطبقات فغدا جميع أهالى البلاد ، حتى الموارنة الكاثوليك الذين كانوا يميلون الى فرنسا ميلاً تقليدياً ، يهيجون و يصخبون ، فسكن الجنرال غورو بسرعة هذه الحركة بنفيه القادة والزعماء الى كورسكا . وعلى الجملة فالحقيقة الراهنة التى يجب ان تقال وتعلم هى أن أصدقاء فرنسة الاوفياء فى سورية قد غدوا على فرنسة ساخطين ولها مبغضين . وكل هذا لم يكن ليحمل فرنسة على تقويم سياستها حتى اليوم . قال المسيو ليغ رئيس الوزارة الفرنسية منذ عهد قريب فى شأن سورية : « ان فرنسة ستحتل سورية بأجمعها احتلالاً دائماً » وصرح الجنرال غورو منذ عهد أقرب : « يجب على فرنسة ان تبقى فى سورية لأسباب سياسية واقتصادية ، فلو تخلينا عن البلاد لجرّت علينا النتائج السياسية التى تنجم عن ذلك الرزيئة الفاجعة ، ولقضى القضاء الاخير على مكانتنا وسيطرتنا فى الشرق والبحر المتوسط . زد على ذلك ان المطامح الفرنسية الاقتصادية تدعونا للبقاء فى تلك البلاد ، ومتى ما وفر العمران وعم التقدم والفلاح فى سورية وكيليكية كان لهذين القطرين شأن اقتصادى يضاهى الذى لمصر » .

بيدانه ، مع تصلب الحكومة الفرنسية الشديد لا تزال حملات الانتقاد على « المطوحة السورية » ، من الرأى العام الفرنسى فى ازدياد . وليس الذين يقومون بهذه الحملات هم الغلاة المقاومين للتوسع الاستعمارى فحسب ، بل أيضاً منهم المحافظون الابرياء من كل تهمة وغرض . قالت الصحف السياسية الفرنسية فى هذا الصدد : « ان العرب ، وهم يغارون أشد الغيرة على الاستقلال والحكم الذاتى ، قد تحرروا من النير التركى ، لكن لا يبتغون حكماً أجنبياً جديداً . فالقول اذاً ان سورية تطلب حمايتنا لها ، انما هو كذب واختلاق . ان سورية تريد الاستقلال التام وتطلبه » . ومن عهد ليس ببعيد وقف فكتور برار خطيباً فى مجلس الأعيان وهو من أعضائه و يعد من ثقات فرنسة المشهود لهم بالاضطلاع والخبرة فى الشؤون الشرقية فانتقد سياسة حكومته فى سورية انتقاداً شديداً مراً وكشف الغطاء عن معايبها ومشاينها وصرح تصريحا ان « سورية الحرة » قد أمست قضيتها « قضية مصلحة وشرف معاً » .

وبالرغم من هذا كله فالحكومة الفرنسوية باقية لم يلن جانبها للعرب ، من حيث

انها قد فعلت ذلك ازاء الترك ، فبدلت موقفها عنـدهم تبديلا تاماً ، فضربت بمعاهدة سيفر عرض الحائط ، وأبرمت منذ عهد قريب شروط صالح موقت مع الترك ، موافقة كل الموافقة فى الواقع على اخلاء كيليكية . وقد باتت بريطانية وفرنسة تعلمان جيداً أن معاهدة سيفر صارت عقيمـة لا يستطاع العمل بمقتضاها ، وان امتلاك الترك لآسـية الصغرى من أقصاها الى أقصاها أمر لابد منه ولا مندوحة لهم عن الاعتراف به .

ان فرنسة باتفاقها مع مصطفى كمال لترجو بلا ريب رجاء كبيراً ، ألا وهو حفز مصطفى كمال أن يكر على العرب يوما ، بيد أن ذلك بعيـد ، فان مرامى جميع الحوادث والواقعات تشير اشارة بينة الى صيرورة الوحدة متراصة الجوانب موثقة العرى بين شعوب الشرق الأدنى لمقاومة التسلط الغربى السياسى . وأقوى الأدلة وأعظمها على سير الوحدة هذا السير واتجاهها متجها تتدانى به الشـعوب فى جميع أقطار الشرق الأدنى بعضها من بعض ، هو المؤتمر الاسلامى العام الذى عقـد فى سيواس فى أوائل سنة ١٩٢١ . وكان الغرض من عقده وضع خطة راهنة باتة يستطاع بها توثيق عرى التآخى الاسلامى فى العالم الاسلامى مشارق ومغارب . وقـد حضره الأمراء ، والقادة السياسـيون السنيون من المسلمين ، وأمراء من سائر الملة الاسلامية مثل أمير كربلاء الشيعى ، والامام يحيى [1] ، أمير الزيدية فى اليمن ـ الزعماء الذين لم يكن التعاضد والتقارب مستطاعا بينهم و بين السنيين من قبل ، وأعظم ما فى الأمر هو ما أذاعته الصحف من أن الأمير السنوسى الكبير هو الذى قـد ترأس هذا المؤتمر . ولا جرم فاننا قد عرفنا مما تقدم من الـكلام ان السنوسى لم يبرح دائباً جاداً فى سبيل اعزاز الجامعة الاسلامية والوحدة المحمدية الكبرى فى المعمور الاسـلامى ، لمقاومة التسلط الغربى . هـذه هى صفة الحال اليوم فى الشرق الأدنى ـ حالة عصبية كلها اضطراب ، ومحفوفة بنذر السوء . الا أن هناك أمراً فيه علامات حسنة ، الا وهو انتباه الحكومة البريطانية لحرج الساعة واشتداد المأزق ، انتباهاً يحملها بالتالى على تقويم موقفها . فلذلك ان جهداً يبذله مثل اللورد ملنر والسر پرسى كوكس ، ولو اعترض سبيله كثير من المصاعب والمشاق ، يستبعد أن لا يكون مثمراً ولو بعض الثمار . ان هـذين الرجلين لظاهر فيهما التحدر السياسى من نشا تام ودرهام ، الداهيتين اللذين رفعا عماد

(١) الامام يحى لم يحضر مؤتمراً كهذا ولعل اناساً من جهته حضروا . (ش)

تلك التقاليد السياسية الكبرى التى وسعت جميع شؤون الامبراطورية البريطانية حزماً وتدبيراً فى مآزق مستحكمة الحلقات وأزمات مربدة الجواء .

أما من الجهة الأخرى فلا تزال الحالة مؤذنة الخطر فى الشرق الأدنى حيث فرنسة لم تبرح على عنادها السياسى راكبة فيه رأسها منقادة لهواها ، وما دامت فرنسة مستغرقة فى بحر تقاليدها القديمة ، فهى على هذه الحالة معرضة بسياستها عن مواقعة الحقائق التى لا بد لها أن ترغم على الوقوف عندها بعد حين معتبرة مستبصرة . فلذلك اذا ما انفجر البركان وملأت حممه الجو ، وهو الذى لا مناص من انفجاره ، مالم تقدم فرنسة فى الواقع على تقويم سياستها ، واذا جاء ذلك اليوم الاسود الذى تلتهم فيه سموم العرب الهابة من الصحراء ثلاثين الى أربعين كتيبة من الكتائب الفرنسية ، يقضى حينئذ الكثيرون من المضطلعين بالشؤون الشرقية قضاء عدلا ، بأن : « السياسة الفرنسوية قد نالت جزاء وفاقاً » .

ندع قضية الشرق الأدنى فى هذه الحزة الى أن تبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ، وندخل فى الكلام على المعضلة السياسية الكبرى فى الشرق المتوسط ــ الا وهى العصبية الجنسية والنهضة القومية فى الهند .

المساواة فى الشريعة الاسلامية

الأمير شكيب

ان الشريعة الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول ﷺ خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية التامة بين جميع الأمم[١]، العربى منهم والعجمى، والاحمر والاسود. وترى صورة الاسلام كلها فى هذه الآية « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » يقول تعالى انه خلق البشر كلهم من أب وأم وما جعلهم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض كلا بل ليعرف كل من أى قبيل هو، أما المزية فهى للتقوى فقط. وبهذه الآية انتشر الاسلام، وفتح العرب تحت ظل رأيته الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور، ودخلت الأمم فى الاسلام، ولا تزال تدخل فيه الى يومنا هذا. وقد جاءت الأحاديث النبوية مؤيدة للآية الكريمة فمنها « ليس منا من دعا الى عصبية » ومنها « ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى الا بالتقوى ». ومنها قوله ﷺ « سلمان منا آل البيت » وذلك انه عد سلمان الفارسى نظراً لتقواه من آل البيت النبوى أكرم البيوت ومنها قوله ﷺ لفاطمة ابنته : « اعملى يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئاً يوم القيامة ». أو كما قال. وهذا فى معنى قوله تعالى « لا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيده حضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسنى المغربى نزيل دمشق وهو قوله ﷺ : « ألا ان بعض أهل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك انما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا. ألا انى لاأحل لأهل بيتى أن يفسدوا ماأصلحت » أو كما قال. وليس فى هذه الآيات والآثار مايتصادم مع شئ من الأحاديث الصحاح الواردة فى فضل العرب، ووجوب حب العرب، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربى المبين. كما انه وردت أحاديث أخرى فى فضل غير العرب مثل « لو علق

---

(١) انظر صفحة ٧٨ من هذا الجزء

العلم بالثريا لناله رجال من فارس »

ولا يكون الدين إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحمرها وأسودها وأدناها وأبعدها ، الا اذا كان مؤسساً على مثل هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة . وليس التضامن الاسلامى الذى حار فى أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، الا نتيجة قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » وقد ظهرت فى هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لايريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا انه هو الذى كان منشأ ضرر هذه الأمم . فالذين هم من العرب يعلنون انه لولا اخوة العرب مع الترك بالاسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الاخوة الاسلامية التى فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها فى الذب عن القضية الاسلامية ، بل كانت حصرتها فى الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون مالنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة ، فيجب أن نعود فرساً كما كنا . والجواب على الفئة الأولى ، أنه لولا تلك الاخوة الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة فى صدر الاسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبيهم نبيها . فان كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه الا بتنازعهم وتنافسهم والفتن المستمرة بينهم مما مثاله أمام عيننا الآن ، فلا يلوموا بذلك الا أنفسهم ، ولعل الاخوة الشرعية التى يشكون ضررها قد لطفت الضرر الذى أصابهم من أثر السقوط ، بحيث ان الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الاسلام . فلما أديل منها بدول غير اسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الاسلامية والدول الأجنبية التى خلفتها فى الحكم على العرب . والجواب على الفئة الثانية ان الأواصر الاسلامية لم تضر الترك فى شئ بل أعطتهم ملكا طويلا عريضا ، وجاها كباراً لبثوا يستطيلون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الاتابك والطولونيين الى السلاجقة الى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الاسلامية أى على الرئاسة العليا على ثلثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها وكانت الدولة العثمانية قد طوت جناحيها على جميع البلدان الواقعة بين تلمسان غربا ، وايران شرقا ،

والصومال جنوبا ، والقريم شمالا ، فانضوى تحت هلالها نحو ١٢٠ مليون نسمة من عرب ، وبربر ، ونوبة ، وحبش ، وكرد ، وطاغستانيين ، ولاز ، وأرناؤوط ، هذا عدا الأمم المسيحية كالروم ، والأرمن ، والبلغار ، والصرب ، والمجار ، والفلاخ ، والبغدان ، والخراوت فأنت ترى ان الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة الى المجموع جزءاً يسيراً فى المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الاسلامية التى جمعت بينه وبين العرب والأكراد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الاسلامى تلك الحياطة التى هى عنوان الدولة العثمانية . وليس بصحيح مايذهب اليه بعض الطورانيين من كون الترك لم يحتاجوا لعصبية الاسلام فى فتوحاتهم هذه بل كانوا قادرين أن يقوموا بها سواء كانوا مسلمين أم لم يكونوا . وكذلك ليس بصحيح ان فتوحات السلطان سليم انما اتسقت بحد السيف وحده ، وان الدولة العثمانية لبثت هى الدولة الحاكمة فى بلاد العرب بآسية وأفريقية بحد السيف أيضا . بل لم تتسق تلك الفتوحات للسلجوقيين ولا للعثمانيين الا بقوة الرابطة الاسلامية ، واتخاذهم الدفاع عن حوض هذه الملة شعاراً لهم . اما استشهادهم بفتوحات جنكيز وهولاكو وكونها طبقت الآفاق بدون دعوة اسلامية ، فهذه كانت أشبه بسيل طمى مدة قصيرة ثم قر وما أسرع ماذهب ، وقد علموا هم انه لما شعر أعقاب جنكيز بقلق مركزهم واضطراب حبلهم التجأوا الى الاسلام ودخلوا فيه ، وجعلوا أنفسهم حماته وكفوا به أنفسهم كرة المسلمين عليهم ولولا ذلك لم تثبت فى بلاد الاسلام دولة مغولية . ونحن نعلم ان بعض غلاة الطورانيين شارعون فى تعليم الناشئة التركية تاريخ الشرق على وجه لم يؤرخه عربى ولا تركى ولا فارسى ولا أوربى ، ولكن على الوجه المطابق لسياستهم الجديدة ، مع ان التاريخ علم كسائر العلوم ليس له شغل بالسياسة ، بل لابد فيه من تمحيص الحقائق فقط . وجوابنا على الفئة الثالثة ان الاسلام لم يضر فارس بشىء فى دين ولا فى دنيا ، اما من جهة الدين فانه نقلها عن عبادة النار الى عبادة الواحد الأحد . واما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الاسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل الا قليلا ، لا بل استونت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هى روح تلك الدولة برابطة الاسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها ، ولو جاءت تضع يدها على دولة بنى العباس بقوة فارس المجوسية لأصابها ماأصاب الأفشين الذى عصى الخليفة العباسى فقتل

وأحرقت جثته وقال فيه أبو تمام مشيراً الى نار المجوس :

« صلى لها حيا ومات بحرها وكذاك يدخلها مع الفجار »

هذا ماتراه فى الجواب على هـذه الفرق الثلاث وفيه خطاب لفئة من المصريين أيضا يذهبون الى انه « ليس فيهم شئ غير مصرى » وان المسئلة المصرية ينبغى أن تبقى منفصلة عن كل مسئلة شرقية اسلامية أو غـيرها . ولكننا نضيف اليه أن الوقت زعيم باظهار صحة هذا المنحى فى السياسة وعدمها ، فان هذه الفئات انما هى قادمة على تجارب وليس للانسان أن يحكم على الشئ الجديد الابعد التجربة. فلننتظر نتيجة تجاربهم بسياسة الانفراد ومن رأينا أنه اذا كان مثل هؤلاء لايرون الاستمساك بجامعـة اسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العصرية ، فليعدلوا على الأقل الى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمـة كانوا اذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء فى وجـه القوى ، فليست الجامعة الاسلامية هى العروة الوحيدة التى يقدرون أن يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية اذا اتسقت على الوجه المطلوب فى آسية كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضا توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب . ومما لامشاحة فيه انه لاأمل باستقلال الشرق مادام مفكك الاجزاء

تاريخ نجد الحديث

آل سعود وآل الرشيد

للأمير شكيب

جرى من قبل ذكر الوهابيين[1] وها نحن الآن نسرد زبده تاريخ هذه الفرقة واخبار أمراء نجد الذين قاموا بنشر دعوتها ملخصة من مصادر عديدة : ولد محمد بن عبد الوهاب فى العونية من نجد فى العام المائة والسادسة عشرة بعد الألف الموافق ١٧٠٤ للمسيح ويقال ان جده سليمان وكان منسوبا الى آل البيت وناشئاً فى بنى تميم ، قد رأى فيما يرى النائم ناراً خرجت من سرته فأضاءت البوادى كلها ، فعبر بعضهم هذه الرؤيا بأنه يخرج من صلبه رجل يهدى الأقوام ويؤسس ملكاً كبيراً ، فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

طلب محمد بن عبد الوهاب العلم فى دمشق ، وتشرب مبادىء الامام الحافظ حجة الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وابن عروة الحنبلى وغيرهم من فحول أئمة الحنابلة . ثم رحل الى بغداد والبصرة ، وهناك أيضاً ازداد رياً من موارد المذهب الحنبلى ، وأخذ يفكر فى اعادة الاسلام الى نقاوته الأولى ، عقيدة الصحابة والتابعين . فلذلك الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هناك أنكر الاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنية والأحاديث المصطفوية ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية . وكان فى ذلك الوقت رجل يقال له محمد بن سعود قد أعصوصبت حوله قبائل « العتوب » و « عنزه » وهى القبيلة التى ينتسب هو الى أحد أفخاذها ولد على وتولى زعامتها ولقب بالأمير . فتلقى دعوة ابن عبد الوهاب بالقبول وجعلها شعار امارته واتخذ عاصمة امارته قصبة الدرعية ويقال ان ولده سعود كان شيخاً عليها فكتب كتائب سلحها بالحراب وبنادق الفتيل ، وجعل

(١) راجع صفحة ٨٢ وما بعدها من هذا الجزء .

معها طائفة مراديف أى ركاب الذلل ، مثنى مثنى كل خلف الآخر ، وأخذ بعد ذلك يغزو البلاد المجاورة ويبث الدعوة لعقيدة السلف ، ففى سنة ١١٥٩ استولى على العوينة وحريملة ، ولكن عصت دعوته الرياض التى كان فيها دهام بن دواس فقاتل ابن سعود وقصد المنفوحة من بلاده ، و بقى الفريقان يتصاولان عدة سنين حتى غلب ابن سعود على الرياض . وكان محمد بن سعود قد اصيب بمرض فسلم مقاليد الأمور الى ولده عبد العزيز ، فجد هذا فى غزو جواره و بث الدعوة فكانت الحرب معه سجالا ، وحدث أنه وقعت فى يده أسرى من اليمن فأساء معاملتهم فزحف اليه أحد أمراء اليمن حسن بن هيبة الله ، وانضمت اليه عدة زعماء من الاطراف ومن جملتهم ابن دواس الذى انتقض على ابن سعود فى الرياض ، فحصروا هذا فى الدرعية ، ولكن ابن هبة الله اضطر الى المعاد الى وطنه فلم يقدر ابن دواس على «الدرعية» ، وانتهت الحرب بعقد الصلح . على ان ابن دواس بعد ذلك عانى كثيراً من مقاومة ابن سعود ، حتى اختار الرحيل الى الاحساء ، وتبعه أكثر سكان الرياض فدخلها عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٧٢ فوجدها خاوية على عروشها وكانت الغارات مستمرة بين آل سعود و بنى خالد أصحاب الاحساء و بنى المكرمى أصحاب نجران اليمن وسنة ١٧٦٥ توفى محمد بن سعود تاركا الامارة لولده عبد العزيز الذى كان لايقصر عن أبيه حزما وعزما و بسالة واقداما ، فأخذيجبي من أبناء الدعوة الوهابية العشر للانفاق على الكتائب والسرايا ، واستولى على بلاد وارجاء واسعة من جملتها مدينة الدلم ، ووقعت الوقائع بينه و بين حاكم الاحساء سعدون ، فامتنعت مدينة بريدة من القصيم على سعدون و بقيت فى يد الوهابى .

وتوفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى ٢٩ شوال سنة ١٢٠٦ الموافقة ١٧٩٢ فى الخامسة والتسعين من العمر ، وقد كاد يكف بصره ، وكان قد نسل ١٨ ولداً اذ كان تزوج بعدة نساء ولزم الدرعية عاصمة الدعوة الوهابية ستاً وأربعين سنة .

وسنة ١٧٩٢ تمكن عبد العزيز بن محمدبن سعود من الاستيلاء على الاحساء وخاص من همها وقيل كان ذلك سنة ١٧٩٥ فوجه قوته لقتال الشريف غالب أمير مكة . ولما بلغ الباب العالى استفحال أمر الوهابيين أمر سليمان باشا والى بغداد بتجهيز حملة عليهم ، فسير جيشاً الى الاحساء فلم يفز منهم بطائل بل زحف الوهابيون نحو العراق ، وفى ٢٠ نيسان عام ١٨٠١ دهم منهم ١٥ ألف مقاتل مدينة كربلاء فذبحوا قسما من أهلها ، ونهبوا مشهد

الحسين بن على رضى الله عنـه ، وحازوا كل ما كان مجموعا فيه من النفائس التى تأتى من زوار العجم . ولم يثقل ذلك على ضمائرهم لأنهم ينظرون الى كل من يعظم القبور نظرهم الى الكافر . وقيل كان ذلك سنة ١٨٠٢ و بالحساب العربى فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٢١٦ وان سبب هذه النكبة هو تعدى قبيلة الخزاعل الشيعية على قافلة وهابية . فطبق خبر هذه الفاجعة جميع العالم الاسلامى لاسيما فارس وازمع فتح على شاه تجهيز جحفل عدته مائة ألف مقاتل يغزو به الوهابيين فى عقر دراهم وكذلك سليمان باشا والى بغداد أخذ فى اعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ، ولكن فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة فى بلاد الاكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابى . وفى ذلك الوقت وقعت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين على امارة مكة فتغلب غالب على أخيه واستعان عبد المعين بابن سعود ، فزحف هذا الى الحجاز وهزم الشريف غالبا واجتاح الطائف وتقدم الى مكة وكانت اذ ذاك قافلة الحج الشامى تحت امرة عبد الله باشا والى الشام قد قاربت البلد الأمين فأرسل عبد الله باشا الى ابن سعود يسأله ماذا يريد أن يفعل فأجابه الأمير عبد العزيز ان موكب الحج الشامى له أن يدخل و يقضى مناسك الحج و بعد ثلاثة أيام يمكنه أن يبرح وكان الأمر كذلك . فاستنصر الشريف غالب عبد الله باشا على ابن سعود فلم يقدر أن ينصره لقلة مامعه من القوة ، وما فارق عبد الله باشا البلد الحرام حتى دخل ابن سعود فنصب الأمير عبد المعين مكان أخيه ، وهدم أضرحة الأولياء ، ورفع التحف والنفائس التى كانت مودعة فى الحرم الشريف ، وطرد الباعة من صحنه . و وقع ذلك فى ٨ المحرم سنة ١٢١٨ وفق ٣٠ نيسان سنة ١٨٠٣ أما الشريف غالب فانهزم الى جدة عند القائد شريف باشا فصمد ابن سعود اليهما ، فلم يقدر على فتح جدة ، وظهر الطاعون فى تلك الجهات فكف عن الحصار وانكفأ قاصداً المدينة المنورة فلم يوفق الى أخذها ، فعاد ادراجه الى نجد ولم يبق بمكة غير ٢٠٠ رجل من جماعته فثار بهم أهل مكة وذبحوهم .

وكان رجل شيعى فارسى وقيل من العمادية قتل اولاده فى واقعة كربلاء وعزم على الاخذ بثأرهم فذهب الى ديار ابن سعود وتظاهر بالوهابية و بقى على ذلك سنة وهو يترصد عبد العزيز ابن سعود ليفتك به . وفى ١٨ رجب سنة ١٢١٨ (٣ تشرين الثانى ١٨٠٣) بينما كان الامير عبد العزيز يصلى العصر طعنه الشيعى بخنجر ارداه قتيلا وكان عمره ٨٢

سنة فقبضوا على القاتل واحتزوا رأسه وقيل احرقوه . فقام بالامارة بعده ولده سعود ، فاقتفى أثر أبيه فى الغزو والفتوحات ، فاستولى على البحرين و بلاد الجوازم (١٨٠٤) وغزا بلاد عمان . فراع ذلك الباب العالى ، فصدرت الاوامر الى على باشا والى بغداد بتجهيز حملة على الوهابيين من عرب وكرد ، وشد أزره بعبد الله باشا والى الشام وشريف باشا قائد جدة . وجاء امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية منضما الى الدولة لمقاتلة الوهابيين الا ان التجهيزات الحربية ابطأت ابطاء سئم منه امام مسقط فآب الى بلاده وفى الطريق صادمه قرصان الجوازم فقتلوه . وخيم العسكر الذى جهزه على باشا مدة اشهر فى الحلة لم يقم الا بمناوشات خفيفة ، ثم استدعى الى كردستان لاخماد نار ثورة شبت فيها . فاهتبل الوهابيون هذه الغرة وعادوا الى الحجاز ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الاولياء ، ونهبوا ما فى الحرم الشريف النبوى بالمدينة من الجواهر والتحف وباعوها بالمزاد العلنى ، واذابوا قناديل الفضة والشمعدانات والآنية الفضية كلها ، ووزعوا أثمانها على حامية البلدة الطيبة ووقع ذلك سنة ١٢٢٠ وفق ١٨٠٥ ، ثم توجهوا صوب مشهد على رضى الله عنه فى العراق وكبسوه بيانا فاحس بهم الخفراء فايقظوا أهل البلد فثاروا بهم ودفعوهم عنه وامتد الصريخ الى الاعراب الذين حول النجف فجدوا فى اثر الوهابيين فكسروهم فانقلبوا صوب السماوة ، فلم يكن حظهم فيها اسعد وانصرفوا الى ديارهم ووقع ذلك سنة ١٨٠٧ .

الا انه فى السنة التالية اجتاح الوهابيون عانة على الفرات ، ثم زحفوا الى دمشق وعليها يوسف باشا الملقب بالكنج (الشاب) ، فأخذوه على غرة فاضطر الى مصانعتهم ووعدهم بان يقبل الدعوة الوهابية هو وأهل الحاضرة ، وأدى اليهم مبلغا من المال على شرط أن لا يعارضوا قافلة الحج فى مسيرها ، فقبضوا المال وساروا بخفارة القافلة مسافة ثم لم يلبثوا ان تخاصموا مع الحجاج ، فنهبوا امتعة هؤلاء وعادت القافلة ادراجها وعاد الوهابيون يحاصرون دمشق فكان الوالى فى أثناء ذلك اعد عدة الدفاع فلم يقدروا عليها فنهبوا قرى الغوطة وارتحلوا .

وكان الامير سعود بن عبد العزيز رجلاً ماهراً فى السياسة ، فرأى انه مادام مقاوما للسلطنة العثمانية فلا بد له من ان يصافى اعداءها فتودد الى شركة الهند الانكليزية والى العجم وامر جماعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسى تزلفا الى فتح على شاه ثم كر

الوهابيون على العراق فوجدوا من واليها الجديد سليمان باشا غير ما وجدوه من على باشا من الحزم والقوة وانقلبوا على اعقابهم ، وهزمتهم قبيلة المنتفق فى سوق الشيوخ ، وكذلك غزوا سورية ففشلوا عند حلب و بين حماه وحمص . وكان قرصان الجوازم ملأوا خليج فارس عيثاً فسرح اليهم الانكليز من الهند اسطولاً انضم اليه اسطول مسقط ، فدمروهم وازالوا معرتهم ودمروا رأس الخيمة مرسى مراكبهم

ولما ضاق ذرع الدولة العثمانية بالوهابيين رمتهم بمحمد على باشا أمير مصر ، فجهز هذا جيشاً عقد لواءه لابنه طوسون باشا ، فسار براً الى ينبع ميناء المدينة ومعه الخيالة ووافته الرجالة بالسفن من طريق البحر . وتقدم الجيش نحو المدينة فوصل الى بدر ثم لقى العدو بالجديدة ، فحمل فى البداية حملة صادقة لكنه لم يلبث ان وجد من صعوبة الاماكن وكفاح العدو ما أسأمه فخارت قوته وانهزم تاركا فى يد العدو سبعة مدافع . فارسل محمد على الى ولده مدداً واستمال طوسون من جهته قبائل البدو ولحق به رجل من قواد الوهابيين اسمه ابن شديد كان سفر الجو بينه و بين ابن سعود ، فزحف طوسون الى المدينة النبوية ودخلها (١٨١٢) بعد حصار ٧٥ يوماً . و بعد ان استقرت العساكر المصرية بالمدينة صمدت الى قتال الوهابى بمكة ، فانهزم عبدالله ابن الأمير سعود منها الى بلاده ودخلها الجيش المصرى أيضا وفر أيضاً عثمان المضايفى قائد الوهابيين بالطائف من تلك البلدة ثم أسر . ثم تقدم مصطفى بك قائد الجيش المصرى الى طرابه (التى وقعت فيها الواقعة منذ ثلاث أو أربع سنوات بين الامير ابن سعود والامير عبد الله بن ملك الحجاز وأمير شرقى الاردن اليوم وكانت مشؤومة على عبد الله) فلقى فيصل بن الامير سعود بجيشه فالتحم الجمعان وخرج الوهابيون وامامهم امرأة شيخ قبيلة صبيح وصدقوا الحملة فهزموا المصريين واستولوا على مدافعهم وعدتهم .

فلما رأى محمد على وعورة التجريد ركب بنفسه البحر الى جدة فنزلها فى ١٨ أغسطس عام ١٩١٣ وعزل الشريف غالباً من امارة مكة ، ووضع مكانه الشريف يحيى ابن الشريف سرور بحجة ان غالب اساء السياسة فأرسلت الدولة غالب الى سلانيك حيث توفى سنة ١٢٣١ (١٨١٦) .

ونشبت الحرب بين المصريين والوهابيين فى طرابه ولكن لم يتمكن المصريون من

خضد شوكة هؤلاء بالرغم من تحريض محمد على وانهيال اعطياته وجوائزه للمستبسلين من قواده واجناده وكان الوهابيون قد احتلوا قنفذة بساحل البحر الأحمر فطردهم منها الجيش المصرى لكنهم عادوا فاسترجعوها . وفى ٨ جادى الأولى عام ١٢٢٩ (٢٨ ابريل ١٨١٤) توفى الأمير سعود فى الدرعية عن ٦٨ سنة ، ويقال انه كان شهماً مقداماً عادلا فى الحكومة فقام مقامه عبد الله كبير ولده .

وتقدم عابدين بك بقوة مصرية الى زهران (باليمن) فانهزم . وتقدم الوهابيون ثانية وصاروا على وشك أخذ الطائف وتحرج موقف الأمير طوسون بن محمد على فتقدم محمد على بنفسه ورد فيصل بن سعود الى الوراء ، واسترجعت عساكر مصر قنفذة ، وسار طوسون من المدينة المنورة بألفين وخمسمائة فارس فاستولى على جانب من القصيم ، فالتمس عبد الله بن سعود الصلح فأجيب اليه على شرط أن يعترف بسيادة السلطان ، وتم الصلح على ذلك الشرط وعاد محمد على و ولده طوسون الى مصر . الا ان محمد على طلب من عبد الله بن سعود الذهاب الى الاستانة لعرض طاعته للسلطان فتلكأ ابن سعود عن الذهاب ، فأبى محمد على الا ان يشخصه فعرف ابن سعود أن لابد من استئناف الحرب وأخذ يحصن الدرعية بالمدافع ، وشرع محمد على من الجهة الثانية يتأهب لحملة ثانية يقودها ولده ابراهيم باشا . وفى ٢٨ ايلول سنة ١٨١٦ وصل ابراهيم الى ينبع بحراً وصعد الى المدينة المنورة ، ومن هناك صار بجيشه قاصداً ديار ابن سعود ، فحاصر الرس وفتحها بعد حصار شديد قاتل فيه الوهابيون قتال أبطال ، ثم زحف الى بريدة وعنيزة من القصيم واستولى عليهما ثم على شقرا و بعد أن دوخ جميع هذه الأطراف قصد الدرعية فوافاها فى ٦ نيسان ١٨١٦ وبدأ بحصارها فكانت وقائع وأهوال تشيب الأطفال ، ولكن ابن سعود بعد دفاع طويل طلب الصلح وقدم بفسه على ابراهيم فأكرمه وأرسله الى أبيه بمصر فأرسله محمد على الى الاستانة وقيل انه أوصى الدولة أن لاتقتله ولكن جرى القضاء بخلاف الوصية فقتل فى ساحة ايا صوفيا فى ١٧ كانون الأول سنة ١٨١٨ وقتل معه كاتب سره وأمين خزانته . ولما عاد ابراهيم باشا من نجد وثب مشارى أخو عبد الله ابن سعود على الدرعية واستولى عليها فأرسل محمد على قائداً اسمه حسين بك فظفر بمشارى وقبض عليه وأرسله الى مصر فمات فى الطريق . وهدم المصريون أسوار الدرعية و وضعوا فيها حامية وقائداً اسمه اسماعيل باشا ثم صرفوه وأرسلوا

محله خالد باشا ، وكان هذا عاتياً جباراً أخش فى ظلم النجديين ، فثاروا واعصوصبوا حول تركى بن عبد الله الذى كان مخبأ فى البصرة ، فبرز من مخبئه وتولى القيادة ، وذبح جميع العساكر المصرية التى كانت فى الدرعية وجوارها ، ففر خالد باشا الى القصيم ، وأقام تركى ابن عبد الله بن سعود بالرياض وجعلها كرسى امارته ، و بنى بها قصراً وجامعاً كبيراً وحكم أسوارها وكان الخبر وصل الى مصر عن ثورة نجد الجديدة فسيرت مصر جيشاً بقيادة حسين باشا ، فتسحب الوهابيون الى الوراء ودخلوا صحارى اليمامة ، فتعقبهم حسين باشا الى تلك القيافى نخانه الادلاء فهلك أكثر عسكره من العطش ، ورجع هو بشرذمة من حاشيته . فلما رأى محمد على ماحل بالعسكر سئم قتال الوهابيين وترك تركى وشأنه فبقى هذا فى الرياض أميراً . ونحو سنة ١٨٣٠ أرسل ابنه فيصلا لفتح الاحساء ، فبينما هو سائر اليها ورده الخبر ان أحد أقاربهم مشارى بن عبد الرحمن بن حسن بن مشارى بن سعود طعن والده تركى وهو يصلى فقتله فعاد فيصل أدراجه فوجد مشارى متحصناً بالقصر فقاتله وشدد الحملة الى أن هجم على مشارى عبدالله الرشيد (جد أمراء حائل) فقتله . ولما بلغ الحكومة المصرية ماحدث بالرياض وجدت الغرة لائحة ، فأرسلت خورشيد باشا بقوة أغارت على وادى حنيفه وتقدمت نحو الرياض ، ففر فيصل مسرعاً وأقام المصريون مكانه خالداً أحد أحفاد أخ لعبد العزيز ابن سعود فلما فارق المصريون البلاد طرده عبد الله بن ثنيان فجاء الى جده . أما فيصل فبعد هذه الهزيمة حج البيت الحرام وجاء الى الشام ينافث علماء الحنابلة وظهر منه انه أقلع عن الامارة وزهد فى الحكم الا ان النجديين عادوا فانتدبوه للأمر فعاد الى الرياض وأراد أن يستقر بها واذا بخورشيد باشا دهم الرياض فقبض عليه (٢٥ رمضان ١٢٥٤) وأرسله الى مصر ، فوضعوه فى قلعة بقرب السويس ، وأقام خورشيد باشا مكان فيصل عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم ثنيان بن سعود .

و بعد أن بقى فيصل نحو خمس سنين فى الاعتقال تسنى له الانسلال من القلعة ليلاً لأوائل امارة عباس باشا الأول ، فجاء الى نجد وثارت معه الأهالى ، وكان خورشيد أصبح لايقدر أن يعتمد على الحكومة الجديدة بمصر فجلا عن القصيم وعاد كل شئ الى فيصل وردت البضاعة الى أهلها وقبض على ابن ثنيان فمات فى الحبس واستولى فيصل على الاحساء والقطيف ، وغزا بلاد عمان وكان يقود جيشه ولده عبد الله الا ان المنافسة وقعت بين هذا

و بين أخيه سعود على الامارة فضعف بسبب انقسامهما أمر الدولة الوهابيــة وانتهز هــذه الفرصة آل الرشيد من شمر وأسسوا امارتهم بحائل ، وجاذبوا آل سعود الحبل وصاروا لهم أقراناً ، ثم غلبوا على آل سعود وانتزعوا منهم ملكهم وكادوا يعفون آثارهم ، ثم عاد آل سعود فى هذه السنين الأخيرة فاستأنفوا امارتهم واستردوا جانباً من بلادهم ، فصارت الحرب بين آل سعود وآل رشيد سجالا الى أن أدال الله للسعوديين من الرشيديين أخيراً وعاد الأمر كما بدا .

فتاريخ الدولة السعودية الوهابيــة ينقسم الى ثلاثة أدوار : أولهـا منذ نشأة حكومة الدرعية الى أن احتلها المصريون سنة ١٨١٦ . الثانى منذ تجديد دولة آل سعود على يدى تركى وولده فيصل الى أيام ابن الرشيد الشمرى سنة ١٨٩١ . الثالث منذ استرداد ابن سعود للرياض من يد ابن الرشيد سنة ١٩٠٢ .

ولنتم الـكلام على فيصل بن تركى فانه فى امارته الثانيــة أحسن التدبير وأحسن العلاقات مع الدولة ومع مصر . وفى زمانه كانت سياحة بالغراف الى نجد سنة ١٨٦٢ . وكان مع بالغراف فى تلك السياحة رجل من زحلة بلبنان صار فيما بعد كاهناً ثم مطراناً ثم بطريركا على الروم الـكاثوليك هو البطريرك بطرس الجريجيرى. وقد روى يومئذ انهم دعوا ابن سعود لتأسيس علاقة مع بعض دول أوروبا . . . على ان هــذه تساعده على الدولة العثمانية ، فأجابهم انى وان كنت عدواً لسلطان استانبول فلا أرضى أن أستعين عليه بالأجنبى . . . روى ذلك من سمعه من فم البطريرك الجريجيرى . وكانت وفاة فيصــل بن تركى فى ١٣ رجب سنة ١٢٨٢ (٢ كانون الأول ١٨٦٥) .

تخلفه ولده عبد الله للمرة الأولى فثار عليه اخوته وطردوه فاستنصر الاتراك فاحتلوا الاحساء والقطيف ، واجتهد اخوته أن يسترجعوهما فلم يفلحوا و بقى سعود أخو عبد الله أميراً على الرياض منذ سنة ١٢٨٧ الى سنة ١٢٩١ (١٨٧١ الى ١٨٧٤) إذ مات وتمـكن عبد الله من استرداد ملـكه فاستؤنفت العداوة بينه و بين أولاد أخيه سعود ومنذ ١٨٨٣ صار الخطر الأعظم عليه من الأمير محمد بن رشيد أمير حائل . وسنة ١٨٨٤ وثب على عبد الله أولاد أخيه وخلعوه وتأمر محمد بن سعود بن فيصل فلم يطل أمره وخلع ، وقام بالامارة عمه عبد الرحمن ابن فيصل فبقى الى عام ١٨٨٦ فطرده الأمير محمــد بن رشيد وأعاد الأمير

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة ، فبقى فى الامارة الى ١٨٨٨ إذ توفى وضم ابن رشيد الرياض الى امارته . فأخذ عبد الرحمن بن فيصل يقاتل لاسترجاعها فلم يفلح وسنة ١٨٩١ نصب الأمير محمد بن رشيد أميراً على الرياض محمداً ثالث أولاد فيصل بن تركى فلبث فيها الى أن مات ، فأقام عليها ابن رشيد عاملا من قبله ثم ثار عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل سنة ١٩٠٢ وعاونه الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت ، وانتزع الرياض من يد آل الرشيد ، ونشبت بين الفريقين الحرب فاستعان آل الرشيد بالاتراك ولكن لم ترض الدولة أن تكسر ابن سعود مع محافظتها على ابن رشيد ورغبت فى حفظ الموازنة .

فبقيت امارتا الرياض وحائل متناظرتين لاتكاد الحرب بينهما تخمد وكان أكثر النزاع على بلاد القصيم التى منها مدينتا بريدة وعنيزة . ومما لا شك فيه أنه بعد وفاة محمد ابن رشيد ، أكبر أمير خرج من هذا البيت ، استجد ابن سعود قوته الماضية وصارت امارة حائل تحت خطر ابتلاعه اياها لولا صريخ شمر لابن رشيد والقاء الدولة العثمانية نظرها عليه . وما زال الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل يتقوى وينشط حتى وقعت الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية فاهتبل هذه الغرة واستولى على الاحساء والقطيف ونواحيهما . وكانت هذه من قبل متصرفية تابعة ولاية البصرة . فانتظرت الدولة ريثما انعقدت السلم ، وشرعت تفكر فى أمر استرداد هذه البلاد ، ولو أدى الأمر الى استلال الحسام . وقبل الحرب العامة ببضعة أشهر تولى نظارة الحربية المرحوم أنور باشا ، وكان برنامج سياسته اتحاد المسلمين كما يعلم كل أحد ، فكان يكره سفك الدماء فيما بينهم لا سيما مع الأخطار المحدقة بجميعهم . ولم يكن عنده روح النفاسة لقوة العرب كما كان عند غيره ، فكان يرسل بالاسلحة والعدد الحربية الى ابن رشيد والى الامام يحيى . وقد عذله بعض الأتراك على عمله هذا فقال له : اتسلح رجالاً قد يجىء يوم يستعملون فيه هذا السلاح فى قتالنا . قال له أنور : أترى لو هاجت اليمن أو نجداً دولة أجنبية نقدر أن ندفعها نحن من هنا . قال : لا . قال أنور : اذا كنا لا نقدر أن نحافظ عليهم أفلا نمكنهم على الأقل من المحافظة على أنفسهم . فاخرسه أنور بهذا الجوب . ثم استشارنى مرة فى أمر ابن سعود فأبديت له رأيى وهو أن تصافى الدولة ابن سعود وتجعله من أعضادها بدلا من أن يكون من أعدائها فوجدته متشبعا بهذا الرأى عازما على مصالحة ابن سعود والادريسى ، وكان يريد انفاذ

الأستاذ المرحوم الشيخ صالح الشريف التونسى لمخاطبة الادريسى فى الصلح على أن تبقى بيده المقاطعة التى كان فيها من بلاد عسير، ثم أخر سفره الى عسير نشوب الحرب العامة.
وقبل نشوب الحرب العامة بقليل اتفقت الدولة بسياسة أنور رحمه الله مع الامير عبد العزيز السعودى على اقطاعه الاحساء، والقطيف وسائر لواء نجد، والاعتراف بامارته على ما كان فى يده من قبل وما دخل فيها من بعد، على شرط أن يعترف هو بسيادة الحضرة السلطانية وأحسن السلطان اليه برتبة المشيرية السامية. ورغب الىّ على منيف بك مستشار الداخلية يومئذ فى تحرير كتاب بالعربية الى الأمير عبد العزيز المشار اليه، توضح فيه الدولة خطة سياستها فى نجد وبلاد العرب، فحررته له فكل ما أوصوه به هو اقامة العدل، وتأمين المسالك، ورفع المنازعات من بين المسلمين بدون تمييز بعض على بعض، وان الدولة تمده بكل ما يلتمسه منها لأجل تحقيق هذه المقاصد. ولما اشتعلت الحرب العامة راسلت الدولة الامير ابن سعود فى خوض غمراتها الى جانبها، فلم يجب طلبها لا كرهاً بها بل خوفا على بلاده من الانكليز لا سيما بعد أن رأى تقدمهم فى العراق. على أنه من الجهة الثانية لم يأت عملا تقدر أن تعاتبه الدولة عليه بالرغم من مساعى الانكليز لديه فى ذلك، فكانت خطته فى هذه الحرب التزام الحياد التام، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها جرت وقائع بينه وبين ملك الحجاز لا نرى حاجة لذكرها نظراً لحداثة عهدها، وكنا نود أن تكون كلمة أمراء العرب مجموعة لتمكين هيبة هذه الأمة من قلوب أعدائها، وانقاذها من الورطة التى وقعت فيها بعد الحرب العامة . . . هذا وان ابن سعود استولى على حائل وأزال امارة الرشيد وتلقب الأمير عبد العزيز بسلطان نجد، وهو فى الواقع ممن تنعقد بهم آمال الأمة العربية، فعسى أنه لايخيبها وأن يوفق الى تحقيقها قبل أن تمتد الأيدى الغربية الى نفس الجزيرة ويتسع الخرق على الراقع.

وحيث اننا سردنا هنا تاريخ آل سعود فلا بأس بأن نردفه بخلاصة أخبار آل رشيد حتى يكون تاريخ نجد الحديث كاملاً فنقول :

عبد الله بن على الرشيد من بنى جعفر من قبيلة شمر الكبرى استولى سنة ١٨٣٥ على مدينة حائل، وقتل شيخها صالحا من بنى على الذى كان عاملا على جبل شمر من قبل آل سعود، ولما كانت سبقت لعبد الله المذكور خدمة عظيمة لفيصل بن تركى من

آل سعود بقتله مشارى ابن عمهم الذى قتل تركى غيلة ونزا على ملكهم ، كافأه فيصل باقراره على امارة حائل ، فشرع عبد الله وأخوه عبيد يوطدان دعائم امارتهما حتى أطاعتهما جبع شمر . ولما احتل خو رشيد باشا المصرى القصيم طرد عبد الله الرشيد من حائل فبقى مطروداً الى سنة ١٨٤١ إذ برح المصريون تلك الأرض فرجع عبد الله الى امارته بحائل ، ثم توفى عبدالله نخلفه ولده طلال ، فاستولى هذا على الجوف ، وتيماء ، وخيبر ، وجانب من القصيم ، وأحسن الادارة وأمن الطرق وكف غارات الاعراب ، وفى أيامه تراخت علائق الطاعة منه ومن قومه شمر لابن سعود . وتوفى طلال فى صفر عام ١٢٨٣ وقيل فى ١٧ ذى القعدة عام ١٢٨٤ (١١ آذار ١٨٦٨) قيل منتحراً .

وخلف طلالا أخوه متعب فنزا على هذا ولدا أخيه بندر وبدر فقتلاه فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٨٥ (٢٣ تموز ١٨٦٨) وقيل بل فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٥ (٤ كانون الثانى ١٨٦٩) .

وفى ٢٠ رمضان عام ١٢٨٦ ثار محمد بن عبد الله الرشيد على بندر ابن أخيه فقتله وألحق به اخوته وأبناء اخوته كافة ، وانفرد بالامارة وهو واسطة عقد آل رشيد ، وامتد حكمه الى أطراف العراق والى مشارف الشام ، والى نواحى المدينة ، والى اليمامة وما يلى اليمن وغلب على نجد كلها ، وأدخل ابن سعود فى طاعته بعد ان كان الرشيد تبعاً لآل سعود . وكل هذا التبسط الذى تبسطه فى الملك كان بحزمه وعزمه وسداد رأيه و بعد همته وحسن سياسته ، وكان صارما فى الحكومة لكنه كان عادلا ، فأمنت المسالك فى أيامه بما لم يسبق له مثيل وكانت الأعراب تخشى مجرد ذكر اسمه فأصبح هو سلطان البرية . ومن جلة تدبيره انه تقرب جداً من رضى السلطان عبد الحميد ، وكان من أشد الناس تعلقا بطاعته ، وكل سنة كان يقدم الى السلطان عدداً كبيراً من الجياد العراب فحظى عند السلطان حظوة لم تكن لأحد من أمراء العرب ، وعضدته الدولة العلية عضداً تاما اتسع به ملكه وقويت شوكته . وفى أيام محمد الرشيد زار جبل شمر ونجداً عدة من سياح الافرنجة مثل البارون نولده Nolde و بلونت Blunt وهوبر Huber واوتنغ Euting وغيرهم . ومات محمد فى كانون الأول عام ١٨٩٧ ولم يعقب ولداً .

نخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب وكان سفاكا للدماء سيء الادارة فوقعت الفتنة

بينه و بين جيرانه ، وتألب عليه ابن صباح صاحب الكويت ، وابن سعود ، وأمير المنتفق ، وقاتلوه قتالاً شديداً . وسنة ١٩٠٢ تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود من استرجاع الرياض وما زال عبد العزيز الرشيد فى قتال مع أعدائه حتى قتل فى ١٤ صفر عام ١٣٢٤ (١٣ نيسان ١٩٠٦) .

خلفه ولده متعب ولم يطل أمره أكثر من سنة . وذلك ان سلطان بن حمود بن عبيد بن على الرشيد كان متطالا الى الامارة فذهب الى الاستانة يتقرب الى الدولة ، فأرسل الأمير متعب يخبر الدولة بمقاصد سلطان هذا ، فاعرضت عن سماع كلامه فقفل الى الشام ، و بينما هو بدمشق التمس الأمير متعب من الدولة اعتقال سلطان ، فصدر الأمر لناظم باشا واليها يومئذ بالقبض عليه ، فوجد من أنذر سلطاناً فى الحال ففر مغذاً السير الى جبل الدروز . وأول قرية وصل اليها الصورة الكبرى قرية ابن ظهر الدين من مشايخ الدروز وهى من وادى اللوى على مسافة ٧ ساعات من دمشق . فاسرع ناظم باشا بارسال خيل فى أثر سلطان فلم تدركه الا فى الصورة فى منزل ابن ظهر الدين ، فلما عرف هذا انه هو ابن رشيد طرد خيالة الدولة ، واجتمع الدروز حول سلطان ، وساروا به الى قرية شهبا ، فنزل عند شيخها أبى طلال العامرى ومن هناك ذهبوا الى المقرن القبلى عند صاحبنا مصطفى باشا الأطرش شيخ ذلك المقرن ، فاقام بضيافة مصطفى باشا نحو شهر ، ثم رغب فى أن يعود الى نجد فزوده بما يلزمه وأرسل معه رفاقا يرأسهم الشيخ العبسى رتعان بن ماضى حتى وصلوا به الى نجد . و بعد وصوله بمدة تنزى على متعب فقتله فى ذى القعدة سنة ١٣٢٤ وقيل فى شعبان من تلك السنة وصار أميراً محله لكنه لم يطل أمره ، و بعد أشهر قلائل طرد من الامارة وقام مقامه أخوه سعود بن حمود . ثم ثار على هذا حمود بن سبهان وجلس مكانه ، و بعد ذلك جاء بنو سبهان بسعود بن عبد العزيز الذى كان قاصراً مخبأ فى المدينة المنورة ، فلما بلغ الرشد أجلسوه على كرسى الامارة سنة ١٣٢٦ ، و بقى أميراً الى الحرب العامة فجعلت الدولة عنده البكباشى عزيز بك الكردى معتمداً ، ثم أرسلت المرحوم الشيخ صالح التونسى بمأمورية ، ثم جعلت عبد الحميد بك بن ابراهيم باشا سعيد المصرى ، فبقى أكثر سنى الحرب فى حائل ، يجتهد فى منع الدسائس الأجنبية من التأثير فى ابن رشيد ، لا سيما ان السبهان كانوا باطنا ممالئين للانكليز ، فبقى سعود بالرغم من مساعى اخواله السبهان معتصما بحبل الدولة وقاتل برجاله جماعة ملك الحجاز الحسين بن على حليف دول الحلفاء . وما زال كذلك حتى دارت الدائرة على الدولة ففقد النصير وتنزى عليه اخواله السبهان وقتلوه منذ أكثر من عشر سنوات وضم ابن سعود حائل وتوابعها الى ملكه واعتقل كل من بقى من آل رشيد وطوى بساطهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

الترك أيضا

الأمير شكيب

الترك [١] من أكبر وأشهر الأمم الأسيوية معدودون من الشعوب التورانية . وهم متشابهون فى الخلقة مع الصين والتيبت واليابان . ولاعبرة بما تجده من سحناء أتراك الاستانة والأناضول فان هؤلاء قدتولدوا وتناسلوا فى غربى آسية من قرون متطاولة واختلطوا بالامم الاخرى كالقوقازيين والمكدونيين والارناؤوط والروم والبلغار والاكراد والعرب وبقايا أهالى الاناضول القدماء وتولدت منهم أمة لاتشبه المغول ولا الصين . ولكن الترك الاناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الامم الغريبة يشبهون كثيراً أتراك بخارى وخيوه وكاشغر وهم ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين والتيبت والمغول

كان الترك من على عنق الدهر فى جبل الذهب بين سيبيريا والصين . ثم أخذوا ينتشرون فى الاقطار فهاجروا الى شمالى سيحون وجيحون والى الشرق الشمالى من بحر خوارزم والى الشمال الغربى من الصين والخطا . فكان منهم قسم فى الغرب وهم المجار والفينيون — أهل فنلاندا على البلطيك — والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم الاوراليون . وكان منهم قسم فى الشرق وهم الذين يقال لهم المانشو والتونغوز . وقسم فى الجنوب الشرقى وهم المغول

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الامة الفارسية وقيل ان هيرودتس أبا المؤرخين أشار اليهم تحت اسم تاركيتاوس

وبانى أول دولة منهم أوغوز خان بن قره خان . وكان له ستة أولاد وهم كون خان وآى خان ويلديز خان وكول خان وطاغ خان ودكز خان . فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد فصار لاوغوز خان ٢٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية هكذا قال نسابوهم . ومن البداية انقسم الترك الى قسمين . الساكنين فى شرق تركستان وهم الاويغور والساكنين فى الغرب منها وهم الترك أو التركمان . وكان الاويغور بادىء ذى بدء أرق وأرق وأكثر مدنية . وكان لسانهم لسان

(١) انظر صفحة ١١١ من هذا الجزء

الترك الادنى . وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصّروا بعضهم وعلموهم خطاً مأخوذاً من السريانية . وموجود بهذا الخط كتب تركية الى اليوم

وفى سنة ٨٥ للهجرة غزا قتيبة الباهلى بالمسلمين العرب بلاد الترك وافتتح بخارى ومرو وخوارزم وسمرقند وغيرها واجتمع عليه ملك السغد وملك الشاش وغيرهما فهزمهم وأثخن فى الترك فصالحوه على أموال يؤدونها اليه وكان فى صلحه بيوت الأصنام والنيران فأخرجت الأصنام فسُلبت حليتها وكانوا يقولون ان هناك أصناماً من استخف بها هلك فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول اسلامهم

وفى خلافة هشام بن عبدالملك تولى خالد بن عبدالله القسرى العراق وأخوه أسد بن عبدالله خراسان وغزا أسد بلاد الترك ومنها جبال نمرود فصالحه نمرود وأسلم ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبدالله السلمى فدعا أهل ماوراء النهر الى الاسلام وطرح الجزية عن الذين أسلموا فسارعوا الى الاسلام . ثم لما صارت الخلافة الى بنى العباس وتولى المأمون خراسان وذلك قبل خلافته أخذ يغزو السغد واشروسنة وفرغانة ويقول البلاذرى فى « فتوح البلدان » انه كان مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخل فى الاسلام كاوس ملك اشروسنة بعد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالى تلك البلدان . وكان المأمون رحمه الله بينما هو يغزو الترك من جهة يدعوهم الى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذرى : « كان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ماوراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اه

ولايخفى ان البلاذرى كان قريب العهد من هذه الحوادث لأن الخليفة المعتصم مات سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذرى مات سنة ٢٧٩

وسنة ٣٥٠ أسلم سالور خان سلطان التركمان سلالة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم

معه قومه وجاء إبنه فبنى جوامع وفتح عمه بغراخان كاشغر وأخذ بخارى من السامانية وجاء بعده أحمد خان بن أبى نصر فأكمل اسلام من لم يهتد من الأتراك وازداد تردد الترك الى بغداد وامتلأت منهم العراق وارضروم واذربيجان ووصلوا الى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة واستبدوا بأمورها وصاروا يكتبون بالعربى و بعضهم اتخذ اللسان الفارسى ولم يهتم أحد منهم بلسان الاويغور التركى القديم . ولم يجعلوا التركى لساناً رسمياً الا فى زمان بنى سلجوق فى الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان فى زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق لاسيما فى أيام محمد الفاتح وسليم وسليمان . وفكر سليم فى جعل العربى لسان الدولة الرسمى فلم يطيعوه لكنه بقى لسان الدين والعلم . وأما لسان الاويغور فقد كان فى زمن جنكيز خان ترقى كثيراً لكنه عراه بعد ذلك التوقف . وهو الذى يعرف بجغطاى . ثم بتوالى الزمن تباعد التركى الغربى العثمانى عن التركى الجغطائى كثيراً . ثم هناك تركى تتر القريم وهو متوسط بين الفريقين

وعلماء الالسن يجعلون التركى خمسة أقسام : الأول الاويغورى أو الجغطاى . الثانى التتارى . الثالث القيرقيز . الرابع الياقوتى . الخامس العثمانى . وليس للقيرقيز والياقوت أدبيات فى ألسنتهم . والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لايزالون وثنيين . وقيل ان الياقوتى هو أصل التركى والباقى فروع عنه . و يقول المدققون : ان التركى يشبه فى الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة التورانية وفى الدرجة الثانية لسان المغول وفى الدرجة الثالثة لسان المجار والفنلانديين

هذا والفرقة الانقرية من الاتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم فى مكاتب تركيا مذهباً جديداً فى التاريخ وهو ان أصل الترك الذين فى الاناضول وغربى آسية هم من الحثيين ؟ وان هذه البلدان هى لهم من اربعة آلاف سنة . وهم فى هذا الاكتشاف الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من أصحاب النظريات الجديدة فى اوربة ولكن شيئاً من هذا لم يثبت . وأكثر مؤرخى الاوربيين يقولون ان أصل الحثيين من جهة الدم لم يتحقق بعد . وغاية ما تقرر تاريخاً انهم أخذوا مدنيتهم عن السومريين والاكاديين أهل بابل وقلدوهم فى الكتابة والديانة والشعائر الدينية ومزجوها كلها بمدنيتهم وديانتهم . وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين ان الحثيين هم كانوا الواسطة بين المدنية

السامية والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثيين فى اول عهده ولا تزال العلماء لم تحل الكتابات الباقية عنهم ولا يعلمون هل لغة الحثيين هى هندية اوربية ام قوقاسية ؟ وغاية ما لحظوا ان فيها دخيلاً من لغات أخرى . أما الآكاديون من أهل بابل فانهم ساميون بلا نزاع ولغتهم سامية والارجح انهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين . وأما السومريون فلا يعرف أصلهم وقصارى ما ترجح من أمرهم انهم غير ساميين وانه وجدت مدنية معاصرة لمدنيتهم فى جهات بحر الخزر

ولا يعلم أحد ما فائدة اتراك انقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لا تستند على قواعد متينة . وهل اذا كان ترك الاناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من الف سنة فقط يسقط حقهم بالاناضول ولا بد من ان يثبتوا ان هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من السنين حتى يستحقوها ؟ كل هذا من جملة الغرائب التى ولدت مع الانقلاب الانقرى

الفصل السادس
في
العصبية الجنسية في الهند

الهند بلاد الغرائب والمتناقضات ، تشتمل على وحدةٍ جغرافية طبيعية ، من حيث انها لم يتألف فيها شيء من الوحدة السياسة فى عصرٍ من خاليات عصورها ، اللهم الا ماحصل لها من صبغة الوحدة حديثا على يد حكم «الراجوات» فى العهد البريطانى . ولما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقوام المتحدرة من الأروم المتنازعة والعروق المتقاطعة فى كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقوَ على الوقوف فى وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دوراً بعد دور . وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد المتباينون عرقاً وأرومة لم يختلطوا بعضاً ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لاتحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على مالا نهاية له من الفوارق دماً ولغة وتهذيباً وديناً . فالهند ، وهى تستوى بمساحتها وساكنها مع أوروبة أو الصين ، لم يتألف فيها كما فى هذه الأخيرة من وحدةٍ جنسية عنصرية عامة ذات مستقر ونصاب ، ولا كما فى الأولى من وحدات وطنية تامة الصورة ، مستقلة متمايزة ، بل قد غبر عليها ماغبر من الدهر وهى مبعثرة الحال مشتتة الشأن لاتعرف اطمئنانا ولا سكوناً ، وجل مااستطاعت ان تملك هو شيء من المنزع نحو الوحدة التى لم تدركها قط .

يشتمل تاريخ الهند على ثلاثة فتوح كبيرة : الفتح الآرى وأوله حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م . ، والفتح الاسلامى من سنة ١٠٠٠ ب . م . الى سنة ١٧٠٠ ب . م . ، والفتح البريطانى أوائله سنة ١٧٠٥ ب . م . ثم ماانفك يمتد ويتسع ، وينتشر ويرسخ مدة قرن تال حتى طبق الهند بأسرها ولم يزل قائما الى اليوم .

أما الآريون فشعب صبح البشرة ، من اليقين انهم على الجملة يتحدرون من الأصل الذى نتحدر منه نحن . نزحوا من أواسط آسية مجتازين المعابر الشمالية الغربية ، وهى

المعابر الوحيدة المفضية الى الهند من تلك الجهة وليس هناك من سواها ، لأن جبال حملايا الشامخة العالية الذرى ، هى فاصل للبلاد عما يليها . ولما بلغ الآريون الهند على طريق تلك المعابر فاتحين مجتاحين ، أخذوا يتغلبون على أهل البلاد الأصليين الدراڤيديين السمر البشرة ، ويخضعونهم ، ويقيمون هم فى البلاد سادة حكاما . غير أن هذا الفتح كان فاشيا رقيق الظل من حيث كان غير مطبق للبلاد . فاستقر غالب الآريين فى الشمالى الغربى ، وأما سائرهم وهم أكثر اقداما وأركب للاهوال فقد انتشروا فى سائر شبه الجزيرة بعض الانتشار . واعلم فوق هذا أن قد بقى حتى فى الشمال كور جبلية كبيرة وآجام عظيمة فى أيدى أهل البلاد الأصليين ، بينما الذين توغلوا من الآريين فى جنوب البلاد كانوا نزراً . وعلى الجملة فقد كان الآريون فى غالب الهند الطبقة القليلة ولكن كانوا أصحاب الغلب والحكم على سائر شعوب البلاد وان كانت هذه أكثر عدداً . واذ خشى هؤلاء الآريون لقلتهم أن يبتلعهم الدراڤيديون لكثرتهم ، فقد ابتغوا احتفاظ تفوقهم السياسى وصروحة تحدرهم الجنسى بانشاء نظام الطوائف أو الطبقات ، النظام الذى لم يبرح منذ ذلك العهد حتى اليوم قاعدة الحياة الاجتماعية فى الهند . فانقسم المجتمع الى ثلاث طوائف : البراهمة أو الكهنة ، والمحاربين ، والسفلة أو العملة المعروفين «بالسدراز» واحتاز الآريون الطبقتين الأوليين . وأما الطبقة الثالثة ، السدراز فقد قصرت على الدراڤيديين الخاضعين المحكومين وظلت هذه الطوائف والطبقات بعيدة بعضها من بعض بفوارق عديدة شديدة ، ثم هذه الفوارق ازدادت تأيداً وتمكناً بسلسلة من النواهى والمحرمات الدينية . فغدا التزاوج والاشتراك فى المآكل والمشارب حتى فى الجوار ، وصار اقتراب شخص من آخر بين أهل الطوائف المختلفة والطبقات المتباينة يعد نجاسة لا تزول عن صاحبها فى بعض الأحيان ولو كفر عنها أشد التكفير . وكانت المعصية فى خرق هذه النواهى والمحرمات تقتضى انزال العقاب الهائل بالمرتكب فينبذ نبذاً من مرتبته الطائفية ويدنى ليس الى مرتبة أدنى منها من المراتب المتسلسلة النظام ، بل الى طبقة أدنى من السدراز ، فيعرف اذ ذاك بالعاصى المنبوذ المجرد من المرتبة الطائفية ، ثم يكره على القيام بأحط أعمال الخدمة وليس له من الحقوق حتى ولا ماتلك التى عليها السدراز . فنجم عن ذلك ، ان الشريعة الدينية ذات الطقوس ، لا الشريعة المدنية ، هى التى سادت المجتمع الهندى سيادة تامة ، فبات الدين

الهندى الوليد (أعنى البرهمية) صبغته اجتماعية لا أدبية أخلاقية .

فنتجت عن جميع هذه الأمور النتائج الكبرى . أما فى أفق النسل فان نظام الطوائف لم يكن له كبير شأن يحمل على احتفاظ الدم واللون والسلالة ، اذ أن البرهميين أنفسهم أخذوا على التوالى يختلطون اختلاطاً دموياً ، قليلا أو كثيرا ، بالدرافيديين[١] وذلك على شدة النواهى والمحرمات . وأما فى أفق المجتمع فقد ظل نظام الطوائف يعمل عمله ويسير سيراً غريباً ، فدرجت الطوائف الثلاث الأولى تنقسم ثم تنقسم حتى أصبحت الطبقات الثانوية والتى ما دونها على التتابع مئات وألوفاً ، ففقدت أو كادت تفقد ما كانت عليه فى أول العهد من العزة القومية . ثم ان جميع هذه الطوائف الثانوية أخذت تحتفظ بمراتبها وحقوق مراتبها تشبهاً بالطوائف الثلاث الكبرى ومحاكاة لها ، فنتج عن ذلك أن المجتمع الهندى قد تناثر تناثراً ، وتمزقت وحداته تمزقاً بات معه التعاون بل التفاهم بين أهل البلاد ضرباً من المستحيل . فعدت على التاريخ الهندى من جراء ذلك عادية لا تزال حتى اليوم . قال مؤرخ ثقة من البريطانيين : ـ « كان عاقبة التنابذ والتقاطع الدائمين والاعتزال الاجتماعى المستمر ، أن غدا الشعب بأجمعه مؤلفاً من عناصر متنا كرة كل التناكر ، ولم يقف الأمر عند حد غنى وفقير ، وأمير وصعلوك ، ومدينة ورستاق ، وخادم ومخدوم ، وسيد ومسود ، بل بلغ أكثر من هذا ، اذ بات سكان كل مقاطعة من المقاطعات أو مدينة من المدن مجموعا من مختلف الجنسيات ـ وغالبا من مختلف الأنواع الانسانية ـ لا يتزاوجون ولا يشترك بعضهم مع بعض فى مأكل ولا فى مشرب وفى الخطير من شؤونهم الحيوية تحكم فيهم لجان من قومهم تدبر لهم أمورهم وتقيم أحكامهم . وليس من المغالاة فى شىء أن نقول ان أهل الهند قد غدوا بسبب نظام الطوائف منقسمين الى ما فوق الألفى طائفة ليس بين بعضها مع بعض من الألفة أكثر مما بين ضروب البهائم المتآلفة فى حدائق الحيوانات . »

(١) يقول بعض المؤرخين ان هذا الاختلاط فى الدم والانساب لم يعتم أن ظهر بعيد الفتح الآرى ، والرأى المبنى عليه هذا القول هو أن الآريين الفاتحين لم يكن فيهم ما يكفيهم من النساء من بنات جنسهم وهم لم يزالوا خارج البلاد الشمالية الغربية ، لذا طفقوا يتخذون من النساء الدرافيديات أزواجا وحظايا ، ثم يثبتون حقهم فى تبنيهم أبناءهم غير الشرعيين ، بحيث جعلت ذراريهم تنشأ طائفة واحدة مؤلفة من الاقحاح والاخلاط على التحام فى العرق وامتزاج فى الدم . ثم منعت زيادة الاختلاط ولكن من بعد أن ذهبت بحوتة الأصول والانساب الآرية

لذلك لاعجب اذا غدت الهنـد ، وقد تمزق مجتمعها هذا التمزق وتناثرت وحدتها السياسية الى امارات عديدة ، لاتستطيع الوقوف فى وجه أول فاتح عظيم يكرّ عليها فتسقط بين يديه متضعضعةً متلاشية ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان هذا الفاتح هو الاسـلام . ان المسلمين أخذوا يكرون على الهند من بعد ماتم لهم فتح فارس ، كرات لم يكن لها من الشأن والخطورة فى أول الأمر أكثر من الذى يكون للغارات التى تُشنّ على العدو عند الحدود دون أن يكون لها أثر باق . على أن الفتح الاسلامى الخطير قـد قام به محمود الغزنى الامير الافغانى [١] سنة ١٠٠١ ب . م . ، فسار محمود فى الطريق التى سار فيها من قبله الآريون منذ أجيال وحقب متطاولة ، ودوخ بلاد الهند الشمالية الغربية المعروفـة بالبنجاب حيث رسخت قدم الاسلام رسوخاً ثم طفق القواد المسلمون يوالون توسيع الفتح أكثر فأكثر من جهة الشرق حتى غدا غالب الهند الشمالية فى قبضة أيدى المسلمين . وقـد كان لهؤلاء الفاتحين المسلمين عاملان قويان ساعداهم على هذا الفتح الذى قاموا به ، أولاً انهم كانوا متحدين اتحاداً مشوباً بالتعصب الدينى لقتال عبدة الأوثان ، ثانياً انهم استطاعوا أن يحملوا الكثير من أهالى البلاد على الديانة بالاسلام . فان الاسلام المعطل للبرهمية الجاعل جميع المؤمنين اخوة قد فاز حقاً فى هداية الناس اليه فدخلوا فيه أفواجاً من أهل الطبقات الحقيرة والمنبوذة ، الذين كانوا بعد ذلك يرتقون الى مستوى الفاتحين . وهـذا هو السبب الكبير فى أن المسلمين الذين فى الهند اليوم ليربون على السبعين مليوناً . بحيث ينيفون على خمس مجموع السكان . وهم يتحـدرون ليس من الفاتحين الافغان والترك والعرب والفرس فحسب بل أيضاً من ملايين الهنود الذين دانوا بالاسلام بعد الفتح .

وقد انقضت أجيال عديدة وحكم المسلمين فى الهند مقصور على الشمالى من البلاد . ففى أوائل القرن السادس عشر زحف القائد بابر التركى المغولى الى الهند وأنشأ المملكة المغولية ، ثم دوّخ بابر ثم خلفاؤه من بعـده جنوبى البلاد ووحـدوا الهند توحيداً سياسياً غير مسبوق المثيل . ولـكن هذا التدويخ كان فاشياً كالفتح الآرى من قبل ، ثم إذ شعر البراهمة بانهم مهددون بالخراب والاندثار ، شرعوا يبشرون بدعوةٍ لليقظة الهندية فآل الأمر الى تضعضع سلطان السلالة المغولية ، وفى أوائل القرن الثامن عشر انقرضت المملكة المغولية .

---

(١) اقرأ تعليقا كبيراً فى تاريخ الممالك الاسلامية الهندية فى آخر هذا الجزء — المعرب

عند هده الفوضى الشاملة ظهرت بريطانية الى عالم السلطان صاحبة الحول والطول . ولم تكن فى بدء الأمر هى وحدها فى حلبة الميدان بل كانت فى عداد الدول الاوروبية ـ من البورتوغال وهولندة وفرنسة ـ صاحبات الطارئات الصغيرة المنتشرة على السواحل الهندية وهده الدول الاوروبية لم تكن لتنوى القيام بفتح الهند إذ ذاك مادامت الدولة المغولية فى عالم الكيان . لهذا السبب ما كانت علاقة بريطانية بالهند فى أول العهد سوى مجازفة تجارية عُرفت « بشركة الهند الشرقية » . ولكن لما استفحلت الفوضى فى البلاد اضطر الأوروبيون للحال ، الى ان تكون فى أيديهم سلطة محلية يستطيعون بها حماية مصالحهم ومصانعهم ، ثم من بعد ذلك جعلوا يوسعون مطامحهم ويجترئون على وضع المشروعات التى هى أبعد مرمى وأكبر غرضاً ، وانما كان وهن الحكام الوطنيين هو الباعث لهم على هذا الأمر ، وتضعضع سلطان هؤلاء وفقدانهم الحول والقوة هيئا لهم الأسباب فأخذت بريطانية على التوالى تقهر مزاحماتها الاوروبيات عنوةً حتى استوسق لها الأمر وتمّ لها الغلب السياسى ، فوطدت قدمها وأعزت سيطرتها ، وكان لابد لها ، كلما نشب اختلال وغلى مرجل اضطراب ، من أن تبسط سيطرتها وتوسع سلطانها ، وقد كانت تقوم بهذا فى أول الأمر على الهونى والتؤدة إذ ظلت شركة الهند الشرقية عهداً طويلاً ساعيةً السعى الأكبر وراء غاية تجارية . مدارها جنى الأرباح واكتساب الأموال فكانت فى هذا السبيل أبذل جهداً منها فى سبيل احراز السيطرة والسلطة . بيد انها شرعت تتحول من بعد ذلك الى حكومة تامة الشرط ذات سياسة طماحة ترمى الى الفتح والاستلحاق ، فكان من شأن هذا التحول والانقلاب ان أيقظ الكثير من أهل الهند وأحمى أنوفهم احماءً كان السبب فى انفجار بركان الثورة سنة ١٨٥٧ . ثم أخمدت بريطانية هذه الثورة وألغت شركة الهند الشرقية وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطانى ، ونودى بعد ذلك بالملكة فكتوريا أمبراطورة الهند . فلم ينجم عن جميع هذه التطورات تقوية السلطة السياسية البريطانية فقط ، بل زيادة تغلغل النفوذ الغربى على كل نوع وصفة ، فأنشئت الطرق والمسالك الحديدية والأقنية ، وربطت أجزاء الهند بعضها ببعض فتدانت أطراف البلاد ، وقربت الأبعاد ، وسهل افتتاح ترعة السويس التواصل مع أوروبة ، من حيث بات التعليم والتهذيب على الأصول الحديثة وسيلة لانتشار الآراء والمبادئ الغربية .

ثم بعد هذا الانقلاب الهندى السريع والتطور الحثيث جاء حكم « الراجا » البريطانى فطبق البلاد قاطبة ، وهو ضربٌ من الأنظمة الحكومية فريد النوع فى جميع العالم ، إذ هو حكومة يقوم بأعبائها بضع مئات من الخبراء المدربين أهل الدربة والحنكة ، يعضدهم جيش صغير مدرب فى حكم تلك المئات من الملايين المختلفة ، على ان حكومة « الراجوات » هذه هى إرثية مطلقة ، تنهج فى سلطانها النهج الذى تستصلحه وتراه ملائماً لها وموافقاً ، غير متخذة من التبعة إزاء الشعب أكثر من تلك التى كان يتخذها الحكام الوطنيون المستبدون من قبل . فهذه الحكومة المنشأة على هذا الطراز المحدث قد حكمت حكما حسناً صحيحاً ، وربما كانت حكومة الهند هذه من حيث اعتبار الأمانة والكفاية والشعور بواجب الوظيفة خير مثال من أمثلة الحكومات « المستبدة العادلة » التى عرفها العالم ، فقد نشرت هذه الحكومة فى ربوع الهند الراحة والأمن مكينين ، وترفعت عن المحاباة والغرض وأقامت قسطاس العدل بين جميع الأقوام والطوائف والطبقات المتباينة فى الاعتقاد المختلفة فى المزاج ، وفوق جميع هذا جعلت للهند كينونة سياسية حقيقية لم تعرفها الهند فى جميع ماضى أدوارها . فتوحدت ممالك الهند توحداً وثيقاً للمرة الأولى فى جميع تاريخها فى ظل حكم واحد ـ هو حكم « السلام البريطانى »

على ان حسنات الحكم البريطانى هى هى التى بذرت بذور الاضطراب التى قد نمت نمواً هائلاً ، فوفر الساكن وعمر النسل ونشأت طوائف الناس من أهل البلاد تعيش متسالمة متحابة ، متعارفة بعد التقاطع والتدابر تعارفاً لم تذق طعمه فيما غبر من الدهر ، ناسية ما كان بين بعضها والبعض الآخر من الاحن والشحناء ، قوامة على شؤونها ، غير غافلة عن النقائص الاوروبية . وفوق جميع هذا صارت الهند إلفاً شديدا للآراء الغربية كالحكومة الذاتية والحرية الجنسية . وفى الهند ، شأن سائر أقطار الشرق ، كان لابد حتما من نشوء حركة المقاومة للحكم الغربى والسخط عليه سخطاً متفاوت الدرجات ، من المطالب المعتدلة للحكم الذاتى ، الى مطالب الغلو الناحية منحى الاستقلال التام .

دامت الحال هكذا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والمقاومة السياسية المنظمة لحكم « الراجوات » البريطانى غير معروفة بتة سوى ما كان يقوم به بعض الأفراد القلائل والجماعات النزرة ، من رفع بعض الاحتجاجات المنخفضة الصوت دون أن تلقى صدى

مرجعاً من الشعب . إذ ان معظم سواد الهنود ، الدائبين أبدا فى طلب الرزق ابتغاء الأقوات مما لا يزيد على الكفاف والمؤونة ، قد ارتاحوا الى هذه الحكومة غير الجائرة ولا المستبدة ، والتى هى أعظم كفاية وأقوم على شؤون الرعية من سابقتها البائدة . وعلى الجملة ان ظهور العصبية الجنسية الهندية لم يكن له من أثر قط . حتى ولا مما يدل عليه ، حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

على ان أول أمارة من أمارات المقاومة المنظمة ظهرت فى تأليف « المؤتمر الهندى الوطنى » سنة ١٨٨٥ [١] ومجرد اسم هذا المؤتمر يدل على أن « الراجا » البريطانى المطبق حكمه الهند انما كان هو نفسه الداعى لاستيقاظ العناصر الهندية المختلفة وتنبهها ، ثم تطلعها نحو غايات معينة ومطامح وطنية معروفة . ولكن هذا المؤتمر ماكان ليمثل الرأى العام الهندى تمثيلاً صحيحاً بالمعنى المعروف ، اذ لم يشتمل الا على جانب قليل من الشعب كأرباب الصناعات العالية والصحافيين والساسة ، ممن تم لهم الوقوف الكامل على الآراء الغربية والمناهج الأوروبية ، لأن أساليب التهذيب الغربية التى أتى بها البريطانيون الى البلاد قد أثمرت أطيب الثمار ، فنشأت فى الهند طبقة متهذبة راقية شديدة التضلع من اللغة الانكليزية ، بالغة الارتواء من الروح الغربية .

ولما كان أهل هذه الطبقة الراقية الجديدة على اعتقاد حسن فى الأعمال والغايات الغربية ، وكانوا يقدرون ما لذلك من الشأن والقيمة حق قدره لم يكن لهم مندوحة بطبيعة الحال عن السخط والتغضب على الكثير من صور الحياة الهندية وشؤونها . فلذلك لم يكن الجهد الذى بذله أهل هذه الطبقة أول عهد اليقظة موجهاً نحو غاية سياسية بمقدار ما كان موجهاً نحو غاية الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، كقضية منع الزواج الباكر ، وتزوج الأرامل ، ونشر التعليم والتهذيب . غير انه على توالى الأيام طفقت قضايا الاصلاح السياسى تتكاثر وتشغل مكاناً خطيراً . ولما كان أرباب الفكر من الهنود هم من ذوى الاطلاع الواسع على التاريخ الانكليزى والفلسفة السياسية ، أخذ شعورهم يزداد بما ينقص بلادهم من الحكومة الذاتية ، وشرعوا يطمحون الى منح الهند بركات الحرية التى يعظمها حكام

---

(١) بلغنا مؤخراً من أحد أعضاء هذا المؤتمر الوطنى من البراهمة ان عدد أعضاء هذا المؤتمر ستة آلاف شخص يمثلون جميع الهند وان من هؤلاء ألفين هم من المسلمين (ش)

البلاد الانكليز ويعلون قدرها وينزلونها المنزلة الفريدة . فنشأت فى الهند للحال الصحف الوطنية الصادقة العزم والغيرة تنهج مناهج الارتقاء والتقدم ، مبشرة بانجيل الوطنية الجديد ، حاملة جميع أرباب الفكر على الاتحاد عصبة واحدة ، عصبة الايقاظ والتنبيه ، ومكونة فى فى البلاد رأياً عاماً متماسك الاطراف مشدود الاركان . وقبيل اختتام القرن التاسع عشر أصبحت الطبقة الهندية الراقية تملأ الفضاء صياحاً وتجهر علانية فى سبيل نيل النظم السياسية الحديثة كالمجالس النيابية ، والاستزادة من السلطة التنفيذية ، والاشتراك فى وضع قوانين الضرائب ، وتوسيع المجال لأهل البلاد كيما يتسنى لهم القيام بالخدمة المدنية وغير ذلك . وعند اختتام القرن كان الجاهدون فى سبيل هذه المطالب والمطامح ، كما قلنا قبلاً ، هم رجال الطبقة المنورة المتشبعين بالآراء والمبادىء الغربية ، الذين مع انتحالهم اسم الوطنيين كانوا لم يدركوا بعدُ المستوى الذين يستحقون به ان يطلق عليهم اسم القائمين بالعصبية الجنسية بالمعنى الصحيح . ولم تكن غايتهم ، اللهم الا فى بعض المواضع ، الاستقلال ، ولا محو السيطرة البريطانية الفعالة ، بل بالأكثر القيام بالاصلاح فى أفق الحياة الهندية على المناهج الغربية . وينطوى تحت ذلك توسيع المجال للحكومة الذاتية الخاضعة لمشارفة السلطة البريطانية .

على أنه عند نهاية القرن التاسع عشر تطورت الحال تطوراً كبيراً . فطفقت الهند شأن سائر الشرق تضطرب اضطراباً شديداً وتهيج فيها عوامل الانقلاب والانتقال وتتمخض عن حركات عنيفة ، واستيقظت روح جديدة تدل على التنبه السياسى واليقظة الجنسية والنهضة القومية . وظهرت أدلة وأمائر تؤيد منشأ هذا تأييداً لاريب فيه . فانتدب العلماء والبحثة الهنديون على خزائن الأسفار من تواريخهم البالية وكتبهم المقدسة ينقبون فى بطونها تنقيباً ، ويحيون من بين دفاتها انباءً عن عز الهند التليد ومجدها الغابر وماضيها المجيد ، وقامت بعض الطوائف المصلحة مثل « الآرياسوماج » توجب القيام بالاصلاح ايجاباً دينياً ، ثم انضم الى جماعات أهل الفكر والروية المنتشر بين الروح الغربية ، عناصر أخرى ، فاتحد الجميع معاً وانبروا يدبرون الذرائع والوسائل ليس لبلوغ الاصلاح المتدرج على المناهج الغربية ، بل لاحياء الهند كلها ، الهند الجديدة ، احياء حديثاً من شأنه أن يجدد قواها النفسانية الحيوية تجديداً ، ويحررها من اغلالها وقيودها تحريراً ، فتسير

اذ ذاك فى سبيلها وراء مقاديرها تسوق نفسها بنفسها . ومنذ ذلك الحين ارتفعت الأصوات من جوانب طبقات الوطنيين وهى تردد ترديداً بالغاً عنان السماء « بانديماتارام » - ليحيى الوطن ! !

بيد أن هناك أمراً أحرى بالاعتبار وهو ان هذه النهضة الجنسية الهندية انما كانت لأول عهدها حركة قام بها أبناء الهندوبين أما المسلمون فقد حذروا منها ونظروا اليها بعين الريب أو العداء . وانهم فى الواقع كانوا على حق فى هذا ، لان غاية أولئك الوطنيين الجدد كانت « الهند الآرية» « هند العصور الذهبية » ، وبات شعارهم : « رجوعاً فى الفيدا ! رجوعاً الى الفيدا ! » وهذا بطبيعته يقتضى احياء ذكريات الايام الخالية احياء تندرج تحته يقظة البرهمية الغاشمة . فتطورت حال أهل الطبقة الراقية تطوراً هائلاً اذ ان الرجال الذين كانوا منذ بضع سنوات ينادون بتفوق الآراء الغربية وسمو المبادىء الأوروبية ، ويسخرون من أباطيل عبادة الاوثان وسواها ، باتوا اليوم يشنأون كل شيء غربى ، ثم انقلبوا يقربون القرابين ويقدمون الذبائح للآلهة الهندية ، وأمست « تربة الهند المقدسة » فى نظرهم يجب أن تطهر تطهيراً من الاجانب [١] . والاجانب الذين قد عناهم الوطنيون لم يكونوا الانكليز فقط بل أيضاً المسلمين ، الامر الذى هاجت بسببه الذكريات العتيقة وثارت لأجله روح الانتقام فقد ظل الخلاف الهندوى الاسلامى اجيالاً طويلة شقاً لايستطاع حوصه وصدعاً لا يمكن رأبه ، وما كانت تلك الجروح لتلتئم ، لكن تغشت بغشاء لطيف هو سيادة « الراجا » البريطانية لجميع أهل البلاد الهندية سيادة غير محابية ولا متحيزة : اما الآن فقد تمزق هذا الغشاء فاذا بالمسلمين يرون أنفسهم مهددين بعداء الهندوبين عداء متجدداً وهو العداء الذى كان سبباً فى اضمحلال الدولة المغولية بعد موت الامبراطور « اورنغزيب» منذ مئتى سنة خلت ، ولم يحمل هذا العداء المسلمين على الحذر والخشية فقط ، بل أشعلهم غضباً وحنقاً ، فطفقوا يتذكرون مجد المملكة المغولية ، كدأب الهنود يتذكرون مجد الهند الآرية ، وشرعوا يحسبون أنفسهم سادة البلاد بحق ، ويأبون الخنوع بتة لحكم « عبدة الاوثان » المزدرى بهم . وما كانوا اذ ذاك ليحبوا البريطانيين ، بيد انهم اضطروا الى محبتهم بسبب عود العداء بينهم وبين الهندوبين ،

(١) سبق لنا الكلام على «العصور الذهبية » الهندية ومنازعها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

فوجدوا فى الراجا البريطانى حرزاً حريزاً يتقون به شر تلك العداوة المزمنة الكامنة فى الرماد ، وفوق هذا فالهندويون يفوقونهم عدداً كخمسة الى واحد . لهذا السبب أخذ المسلمون يقاومون النهضة الجنسية الهندية ، و يقبلون على موالاة الراجوات موالاةً شديدةً . وكانوا فى هذا الدور قد أصبحوا على حال من التأثر بروح الاضطراب والقلق المنتشرين فى العالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه ، فدبت فيهم روح العصبية الشديدة التى بسبب كونهم الاقلين عدداً لم تتخذ لها شكل الوطنية الاقليمية ، بل نزعت الى تلك العواطف الاسلامية المتلاطمة الرامية الى الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اللتين قدمنا الكلام عليهما .

فالعصبية الجنسية الهندية فى أول عهدها لم تكن ذات صفة هندوية فقط بل أيضا برهمية يلابسها النزوع الى العرق ، فجعل البراهمة يزدادون حولاً وقوةً فى تسيير الحركة وسوقها فى مجراها يبتغون من وراء ذلك تشييد عزهم ورفع لواء تفوقهم ، فى هند الغد ، حتى يستطيعوا بذلك ان يعيدوا سيرتهم الأولى ، فأثار ذلك خوفَ جانب كبير من المجتمع الهندوى ، فشرعت طوائف كثيرة من الطوائف السفلى والبارياه تخشى ان الهند اذا ما استقلت أو نالت حكومة ذاتيةً يعود الحكم البرهمى الاوليغارقى الطاغى الى الوجود ، ويكون ذلك سبباً فى ان تفقد تلك الطوائف المنافع والفوائد التى هى حاصلة عليها الآن فى ظل الحكم البريطانى (١) . وفوق ذلك فقد هب كثير من الأمراء الهندويين يقاومون فكرة الرجوع الى الحكم التيوقراطى بعامل الوجل من انهم سيسلبون باستقلال الهند جميع ما فى أيديهم من السلطة . لذلك بات الحركة الوطنية الهندية أشبه بتواثقٍ بين البراهمة والطبقة الراقية المتشبعة تهذيباً غربياً ، وهؤلاء جميعاً وضعوا خطةً وجعلوها تشتمل على مطامحهم الرامية الى غاية حكم الهند حكماً مشتركاً .

واذ غدت الحركة الوطنية تهيجها هذه المطامح وتشعلها الغيرة الدينية فقد كان من شأنها فى هذه الحال ان اكتسبت طبائع التعصب واتصفت بشدة المقت والشنأة للغربيين وكل شئ غربى . وقد كانت الحرب الروسية اليابانية العامل الأكبر فى نفخ هذه الروح ففى السنة التى تلت تلك الحرب (١٩٠٥) ظهرت الأدلة منذرةً بقرب هبوب العاصفة ،

(١) ان شأن الطبقات المضطهدة فى الهند قد بيناه فى الفصل الثالث ، واننا نزيد فى بيانه فى هذا الفصل .

وكان ذلك على أثر قرارٍ وضعته الحكومة فى تقسيم البنغال ذلك التقسيم الذى كانت الغاية منه ادارية صرفة مجردة عن كل صبغة سياسية ، فرجال الحركة الوطنية حسبوه أمراً مقيماً مقعداً ، فطفقوا يشعلون نار دعوة كبيرة الهبت الهند كلها ، فعم الاضطراب وساد القلق . وكان زعيم هـذه الدعوة الباعثة على الهياج والفتنة « بال غانغدر هار تيلاك » الذى دُعى بأبى الاضطراب الهندى . فان تيلاك هذا وهو برهمى كان روح الحركة وعرقها النابض ولسانها الناطق ، نال حظاً وافراً من التهذيب والعلوم الغربية ، وكان عدواً شديداً للحكم البريطانى والحضارة الاوروبية ، وداعياً عظيماً يتسلط على القلوب فتنقاد اليـه ، وخطيباً بليغا وارى الزند تثير خطبه سواكن النفوس . وكانت صحيفته « ياغنتار » فى كلكتا تقذف حمم المقت والشنآءة للغربيين قذفاً وتحمل الشعب على الهياج والاغتيال والثورة . فأنتجت طائفة تلك العوامل التى أثارها تيلاك النتائج المحسوسة الأثر للحال ، فاشتد الهرج والمرج وكثرت الفتن وحوادث قتل الانكليز واغتيالهم ، وما كانت « ياغنتار » الا واحـدة من عديد الصحف الوطنية التى نهجت هذا المنهج وكان بعضها يكتب بلغة أهل البلاد والبعض الآخر بالانكليزية وجميعها متبار فى حلبة الهياج والاثارة .

والى القارئ مثال مما كانت تنشره الصحف الوطنية تتبين منه شـدة النقمة وهول الشنآءة . قالت « ياغنتار » : « ان الثورة انما هى الذريعة الوحيدة التى تستطيع بها الأمم المستعبدة المقودة بأغلال الذل والقهر الدفاع عن كيانها والذياد عن ذمارها . ان كنت لاتستطيع يابن الهند أن تكون رجـلاً كل الرجل فى الحياة فاستطع أن تكونهُ بالموت فى سبيل الوطن . ان الأجانب الدخلاء ، يا ابن الهند ، قد هبطوا بلادنا وجاسوا خلال ديارنا ، وحتموا عليك كيف يجب أن تعيش ذليلاً وشـددوا فى ذلك مااستطاعوا ، اما كيف يجب أن تموت فذلك أمره فى يدك فاختر الموت موت الأبطال فداء هـذا الوطن ، هيا بنا أبناء الهند ! أعدوا عددكم وامشوا لاضرام نيران الثورة العامة التى لاتبقى ولا تذر ، تلهب الهند من جانب الى جانب ! ان هذه الشراذم من الشرط والجنود لهى أعجز عن الوقوف فى وجه الثوار يتمورون تمور البحر الزاخر المتلاطم اللجج ، ويملأون الهند السهل منها والجبل . قد يزج الثوار فى المحابس والسجون ، ويحتسون كؤوس الحمام ضروباً وألواناً غير ان ذلك كله ليس بالموهن من عزمنا وحزمنا ولا بالمضعف من شدتنا وبأسنا . يقتل ألف فتنبرى

من بعدهم الآلاف المؤلفة للقيام بواجب الوطن . ايه أبناء هندستان ! عضوا على النواجذ ولا ترهبوا ! ان تربة هندستان مريعة المرابع أبداً بدماء الأبطال . لاتيأسوا ولا تقنطوا ، هـذه أبطالنا وهـذه أموالنا فالمجـد المجـد اقتطفوا ثماره يانعة طيبة . اعلموا ان طائفةً من القذائف رميتم بها العدو قد شقت كبده شقاً . هو الهول والظلم مما ملأ الجواء وغطى السماء فسيروا اُقدُماً وخوضوا بصادق الغشمشمة عباب بحر من الدماء القانية ! » وقد كثرت حوادث الاغتيال كثرةً هائلةفقال « س . كريشنافارما » فى صحيفة « انديان صوسيولجيست » Indian Sociologist . : « ان الاغتيال السياسى لايعد قتلا البتة . إذ ان الاستعمال الحق لمثل هذه القوة انما هو دفاع تجاه قوة معتدية » وقالت « باغنتار » فى موضع آخر : « انما بدل الاشتراك الواجب على جميع قراء هـذه الجريدة هو أن يأتى الينا كل منهم برأس أوروبى » وما كانت النساء والأولاد من الانكليز مستثنيات من الرجال إذقالت « باغنتار » فرحة مبتهجة فى تعليق لها على مقتل سيدة انكليزية وابنتها : « يجب أن تقتل على توالى الأيام عفاريت عديدة من هؤلاء النساء ذوات الأرواح الشريرة الخبيثة ، وتجتث شأفتهن كما تجتث شأفة جنس « الاسوراز » من على وجه الأرض » . واليك كلمة تدل على مبلغ تعصب الرجال الذين طفقوا يدأبون على القتل والاغتيال (وغالبهم من الشبان) قالها شاب هندى قتل موظفاً انكليزياً كبيراً هو السر كرزن ديلى ، وهو على دكة المشنقة : « انى أيها الملأ لأعتقد أن أمة يتحكم فيها الأجانب الغرباء بالحراب اللوامع انمـا هى على حرب مشبوبة النار أبداً . ولما كانت الحرب المنظمة التى تعبأ فيها الصفوف ليست بالأمر المستطاع عند أمة عزلاء من السلاح ، فانى لم أجد بداً من الهجوم على حين غرة . ولمـا لم يكن لدى مدافع أصلى بها العدو صواعق نارية فقد لجأت الى مسدسى وأطلقت منه بعض العيارات انى بصفة كونى هندياً لأشعر أن الاساءة الى بلادى هى الاساءة الى الآلهـة ، وان مصلحة الوطن هى مصلحة « شريرام » ، وخدمة الهند هى خدمة « شرى كريشنا » . على ان من كان مثلى صفر اليدين خالى الوطاب ليس عنده كثير مال ولا غزير عـلم ، فليس بوسعه أن يجود لأمه بشئ سوى دمه الهندى الجارى فى عروقه ، فلذلك انى أسفك دمى هذا قرباناً على مذبحها المقدس . وليعلم سائر بنى أمى أن العظة التى يجب تلقينها فى الهند اليوم انما هى معرفة كيف يجب على الهندى أن يموت ، والوسيلة الوحيدة الفضلى لتلقن هـذه العظة هو

أن أشرب أنا وأمثالي كاس الردى ، فرحباً بهذا الموت الذي ألقاه الآن شهيداً . وهذه الحرب القائمة في ديارنا اليوم ستظل مشتعلة في ربوع الهند مادام الجنسان الهندي والانكليزي على هذا العداء وما لم تتبدل هذه الحالة بأفضل منها »

على ان جواب الحكومة على شبوب هذه الفتنة الهائلة المملوءة بحوادث القتل والاغتيال ، قد كان المبادرة في الأخذ بأسباب الاخماد بيد من حديد ونار . فعطلت الحكومة الصحف الوطنية ، وسجنت رجال الفتنة وقتلتهم تقتيلاً ، وجعلت ترهف الحد بسن قوانين جزائية شديدة ، وكانت بسبب الفتنة قد هاجت الجماعات الاوروبية أيما هياج وقامت وقعدت لما يقوم به الوطنيون من إزهاق الأرواح وسلب النفوس ، فحمل الأمر كثيراً من الانكليز على أن يطلبوا شديداً استرداد الامتيازات السياسية ، وجعل التعليم الجاري على الطراز الغربي لايعدو حدوداً معلومة ، ولا يتخطى حكماً مطلقاً شديد الاستبداد فلما رأى الوطنيون هذا انباعوا الى الفتنة فعادوا يشعلونها في كل موضع ، فلقوا الجزاء الأهول والعقاب الأشد . وفي الواقع ، ان الغلاة من الفريقين ، فريق الوطنيين وفريق الانكليز ، كانوا بغلوهم يزيدون النار وقوداً ، فعمت البلوى وشملت المحنة ، وظلت الهند بضع سنوات تضطرم في جوانبها الفتن ، وما كانت السجون ولا أعواد المشانق ولا النفي ولا الابعاد بالذريعة الكافية لتسكين الحال ومنع الفوران

ثم هدأت العاصفة هدوءاً غير طويل الأمد فتحسنت الحال وجرت مجرى حسناً ، إذ قل عدد الغلاة ، من حيث أخذ أرباب الحصافة والروية من البريطانيين والهنود يبتغون مخرجاً من ذلك المأزق الحرج . وقام القادة المحافظون من الهنود مثل المستر غوكهال وأنداده يشجبون الهول والرعب ، ويدعون أبناء وطنهم للسعي وراء تحقيق أمانيهم الوطنية على المناهج السلمية . ثم ان أحرار الانكليز وهم لم يزالوا إذ ذاك يأبون الأوبة بالفشل والخسران شرعوا يبتغون الوصول الى خطة يتم بها الاتفاق والوئام ، فندب السياسي الحر الكبير جون مورلي وفوض اليه مهمة القيام بتسوية شؤون الهند فأخذ يجهد حتى وصل بالتالي الى وضع « لائحة المجالس الهندية لسنة ١٩٠٩ » وكان مشتمل هذه اللائحة الاقلاع التام عن الحكم البريطاني في الهند ذلك الحكم الشبيه بالمطلق الشديد وتوسيع المجال بالتدريج لأهل الاعتراض من الهنود بحيث يستطيعون بذلك ابداء الرأي والمشورة

والاقدام على النقد والمناقشة . وكان من محتوى اللائحة وضع نظام ذي قيود وحدود لانتخاب الهيئات الاشتراعية التى تنشأ على مقتضى هذه اللائحة . فكانت النتيجة ان الوطنيين المعتدلين ، على كونهم غير مرتضين الارتضاء كله ، قبلوا باللائحة وحسبوها باكورة تتلوها المنح الاستقلالية ، وبرهاناً على حسن نية بريطانية ، من حيث ان أعمال الغلاة القائمة على الرعب والهول والكيد أصابتها صدمة كبيرة ولكنها لم تنقطع انقطاعاً كلياً . وكانت زيارة الملك جورج للهند سنة ١٩١١ سبباً فى مد حبل الولاء والاخلاص ، فارتاحت شبه جزيرة الهند الى هذه الزيارة واتخذتها فألاً تيمنت به .

ولكن كانت سنة ١٩١١ منتهى الفترة التى ساد فيها السكون بعد العواصف التى توالى هبوبها من سنة ١٩٠٥ – ١٩٠٩ . ثم عاد الاضطراب يتجدد شيئاً فشيئاً بعد سنة ١٩١١ لأن التأثير الذى كان قد حصل فى بدء الأمر بسبب لائحة المجلس ، قد ذهب الآن وعفا . فغدا الشعور بالخيبة حاملا على التوسع فى المطامح والتطوح فى الآمال . والحقيقة ان العصبية الجنسية كانت هذه السنوات مطردة الاشتداد ومتوالية الاتساع ، فبعد أفقها ورحب مضطربها ، فرسخ مستقرها واعتز نصابها ، فغدت الحركة الوطنية غير مقصورة الشأن على الفئة القليلة المؤلفة من الغلاة ، بل انضوى تحت لوائها القادة المعتدلون مثل المستر غوكهال وأمثاله الذين اعتزموا العمل فى سبيل ادراك الغاية الوطنية على طرق متدرجة ومناهج على مقتضى الحال ، ولكن على كل حال كان من أمر هؤلاء المعتدلين الالحاح على الحكومة بمساعدات جديدة يتسع بها المجال للوطنيين فى تقلد الأحكام وولاية الأمور . وكانت العلامة الكبرى من علامات تعالى النهضة الهندية هو جنوح جانب من الرأى الاسلامى العام الى الأخذ بنصرة الحركة الوطنية . اذ أن المسلمين كانوا من قبل ذلك الحين أنشأوا « الميثاق الاسلامى الهندى العام » الذى كان يختلف بطبيعته عن منهاج الحركة الوطنية ، لان الغرض من انشائه فى المقام الاول هو الدفاع عن مصالح المسلمين ازاء ما كان يقدر عهدئذ من تفوق الهندويين واستفحال سلطانهم . ولكن على توالى الايام طفق بعض المسلمين يرتجعون عن موقف المقاومة للهندويين . ويقلعون عن المشادة معهم خلافاً لمقتضى الميثاق الاسلامى ، وانقلبوا ينضمون الى معتدلة الوطنيين لكن دون الاشتراك فى ايقاد الفتن والعبث بالأمن ، وكان ذلك الانضمام منهم من بعد ماقطع لهم معتدلة الهندويين

الوعود والعهود وأكدوا لهم وقوفهم الى جانبهم موقف الصديق الصفي . وفى ذلك الحين كان رجال النهضة الوطنية قدانقسموا قسمين : المعتدلين والغلاة . أما الغلاة ، وقد نقم عليهم نظراؤهم ، فقد استمروا على الهياج والاثارة والقيام بحملات العنف والشدة ، وكان أكبر المديرين لوسائل هذه الحركات والأعمال هم القادة الغلاة المنفيين الذين كانوا لايفتأون ، وهم فى البلاد الأجنبية ، يبعثون دعاة الشغب والفتنة الى الهند فيقوم هؤلاء بتحريض أبناء بلادهم واستثارتهم مااستطاعوا الى ذلك سبيلا .

هكذا كانت الحالة فى الهند عند نشوب الحرب العامة ، وهى والحق يقال حالة ليس قليلاً مافيها من الشؤم والخطر ، ولكنها على كل هذا كانت اذ ذاك خيراً منها منذ عدة سنوات خلت . ومن المعلوم أن الحرب قد كانت سبباً فى زيادة القلاقل والأهوال ولكن على مقدار معلوم ، فظلت الهند على الجملة مدة الحرب العامة تجود برجالها وأموالها على غير انقطاع فى سبيل نصر الامبراطورية البريطانية ، فملأت الجيوش الهندية ميادين أوروبة وآسية وافريقية .

على أنه وان كانت الحرب العامة قد انقضت والهند لم تنشب فيها الفتن والثورات المصطلمة العامة ، فلا يؤخذن من هذا ان الحركة الوطنية كانت خامدة ساكنة تماماً أو انه قل السعى وراء توسيع نطاق الحكومة الذاتية ، كلا ثم كلا ، فان الحرب الكبرى ما كانت الالتكسب الحركة الوطنية صولةً وبأساً ، وشدة وعنفاً ، فطفق الصراخ يتعالى واللجاج يتزايد طلباً لانشاء حكومة ليس يجب أن تكون صالحة فقط بل أن تكون بماهيتها وصفتها عند رضى رجال الحركة الوطنية وتنتهى اليهم . ولما كانت الهند قد برهنت فى الواقع على حسن ولائها للامبراطورية البريطانية ببذلها فى سبيلها النفوس والثمرات عن جود وسخاء فقد كان ذلك باعثاً على عود البحث فى منح الهند قسطاً أكبر وقدراً أوفر فى الحكومة الذاتية ، فطفق الرأى العام الهندوى على اختلاف أقسامه وطبقاته يرفع البرامج العديدة الى الحكومة البريطانية فى هذا الشأن ، فكانت جميع هذه البرامج المتنوعة أشبه بمنعكس ظهرت فيه صور العصبية الجنسية الهندية أجلى ظهور ، وكانت غاية الغايات التى رمى اليها الجميع واحدة : هى التحرر من الوصاية البريطانية تحرراً تاماً ، غير ان الاختلاف قد شجر بين أهل البلاد فى كيف ومتى يدرك هذا التحرر . أما أشد المحافظين فقد قصروا

أمرهم على طلب حكومة ذاتية خاضعة للارشاد البريطانى ، بينما غيرهم من الذين هم أوسع مطامح وآمالاً طلبوا نظام الحكم التام المعطى للاملاك المستقلة فى الامبراطورية البريطانية مثل أوسترالية وكندا . وأما أصحاب العنصر الثورى فقد ظلوا بعداء مصرين على أن العنف والشدة هما الوسيلة خير الوسيلة لادراك الغاية الوطنية أعنى بها الاستقلال التام .

ومن مقتضى مطالب المعتدلين القيام بتغييرات كبيرة فى نظام الحكومة الحالى ، والتقليل من السلطة البريطانية الى حد معلوم فى المواضع التى لم تعد عندها الحكومة الهندية الوطنية ناضجة كل النضج . وقد قبلت الحكومة البريطانية هذه المطالب بروح العطف الدال على ابتغاء الاجابة والتوفيق ، والمنبئ باهداء المنح الاستقلالية فى المستقبل القريب . فى هذا الصدد قال نائب الملك فى الهند اللورد هاردنغ سنة ١٩١٦ : « انى لأود الاخذ بنصرة هذا المطلب الذى تطلبونه من حكومة ذاتية فى الهند ، لأن هذا هو غاية وطنية شريفة . ان الحكومة الذاتية لهى مطلب حق صريح يعطف عليه ويشترك فيه جميع المعتدلين ، غير أن الحالة اليوم فى الهند تقتضى بطبيعتها النهج على سياسة عملية بعيدة من الغاية القصية . لذلك ينبغى لنا ان نستمسك جهدنا بما هو واقع محسوس ، ونعرض عن متطوح الآمال التى ليس من نتيجة التشجيع عليها سوى الابطاء والتأخير عوضاً عن سرعة التوفيق والفلاح فى ميدان السياسة . ومعلوم عندى ان هذا هو رأى العقلاء وارباب الحصافة والروية من رجال الهند . وليس هناك من هو أرغب منى فى رؤية آمال الهند الحقة الصريحة محققةً عما قريب ، من حيث انى أحاذر كل خطر ينجم عنه رد الفعل بانشاء النظم الجديدة التى يدل الاختبار على كونها سابقة لأوانها » .

وفى أواخر سنة ١٩١٧ قدم الهند من بريطانية المستر مونتاغو وزير الهند مبتغيا الوقوف التام على الرأى العام فى الهند بشأن قضية الاصلاح الدستورى ، فصرف عدة أشهر يباحث ويناقش ويكتنه ويستبطن ، ويعقد المؤتمرات الممثلة لجميع الاجناس والطبقات والأديان ، وبالتالى وضع تقريراً أودعه نتائج هذا الاستطلاع المدقق ، وقعه هو ونائب الملك فى الهند اللورد « شامزفورد » ، ونشر فى تموز (يوليو) سنة ١٩١٨

واشتمل هذا التقرير على بيان ميثاق يوضح جدارة أهل الهند لنيل المنح الاستقلالية مما يفوق جميع ما قد منحته بريطانية الهند من قبل ، ويبين صريحاً أن تمنح

الهند الحكم المعروف « بالحكم الوطنى » (Home Rule هومرول) فى المستقبل القريب ، وان هذه المنحة ليست تعد النتيجة الناشئة عن الاضطرابات الهندية ، بل عملا بمقتضى « الاعتقاد والوجدان المستقرين فينا » . ثم يتلو ذلك كلمات حق أن تكتب بماء الذهب ، ألا وهى : « اننا نعتقد اعتقاداً راسخاً ان قد حان الوقت الذى أصبحت فيه اطالة حمايتنا للهند لا يستطاع القيام بها دون ان نصيب حياة الهند ، الحياة القومية الوطنية بضرر وخطر ، وان لدينا الآن منحة لأهل الهند هى أثمن من جميع المنح المتقدمة منا لهم ، فان حياة أهل الهند باعتبارهم أمة صحيحة البنيان ، فى كنف الامبراطورية ، ليتمثل فيها شئ هو أنفس حقاً من سائر ما قد اكتسبته الهند فى الماضى ، وان السكون البادى على السواد الأعظم اليوم ليس بالتربة الصالحة التى تنمو فيها حياة الهند الجديدة ، فاستحثاثنا القوم من تلقاء أنفسنا ليتأهبوا لالقاء عصر جديد انما هو الخير كل الخير للهند » .

وصفوة التقرير بيان في أن طراز « الحكومة المشتركة » يصلح اتخاذه قاعدة ومبدأ لتسوية القضية الهندية ، وهذا الطراز انما هو ضرب من الحكومة تقسم بمقتضاه التبعة الحكومية بين مستشارين تعينهم السلطة التنفيذية البريطانية و بين وزراء تنتخبهم الهيئات الانتخابية الاشتراعية ، وعلى هذا الشكل والنظام تتكون الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم . أما السلطة الاشتراعية فينتخب أعضاؤها انتخابا على نطاق تغدو فيه حقوق الانتخابات رحبة وافية الى حد لم يعرف من قبل ، وتخول المجالس الاشتراعية سلطة كبيرة واسعة ، اذ فى الماضى لم تكن سلطة هذه المجالس لتزيد الا القليل على سلطة المجالس الاستشارية ، أما الآن فانها معتبرة بمقتضى التقرير اشتراعية تامة الصفة بالمعنى الغربى الصحيح ، على كون سلطتها لم تزل محدودة فى مواضع أخصها المالية التى ظلت القوة التنفيذية تحتفظها احتفاظا يكسبها الكلمة العليا والقول الفصل فى بعض الشؤون ، وبهذا لا يكون هناك شئ من توازن السلطات ، بل تكون كفة الراجا البريطانى هى الراجحة أبداً على ماسواها . ثم يبين التقرير أن هذا المنهاج الحكومى لن يكون أبدياً ، بل انما هو بدليل شكله وظاهره وسيلة يتم بها انتقال السلطة من الحكومة الراجوية الى الحكومة الوطنية ، أو هو أشبه بمدرسة يتخرج فيها الشعب الهندى المدة المقتضاة ، حتى اذا ما نال

قسطه من الخبرة والمران ، واستوفى ما ينبغى أن يكون عليه من الحنكة والمراس ، واقتبس ما فيه الكفاية من هذه الدروس الأولية فى الحكومة الذاتية ، منح حكومة نيابية تامة الجهاز كاملة الشرط بوسعها وطاقتها ليس الاقتدار على المباشرة والانشاء والاشتراع فحسب ، بل أيضاً القبض التام على أزمة السلطة التنفيذية وتسيير دفتها .

ثم بات التقرير موضوع البحث والمناقشة المدققة فى الهند وبريطانية . وبالوقوف على مادار حول شأنه من مختلف المباحثات وضروب الأقوال ، تتجلى لنا ماهية القضية الهندية مع ما هى عليه من التناقض والتباين . أما رجال النهضة الوطنية فقد ذهبوا حينئذ مذهبين مختلفين الأول مذهب المعتدلة الذين ارتاحوا الى التقرير ارتياحا ووافقوا على محتواه ومقترحاته ، وأبدوا ما تضمنه من المنهاج الحكومى وشرعوا يعضدونه عضد المعاونة والولاء ، والآخر مذهب الغلاة الذين مالبثوا أن فندوا التقرير تفنيداً شديداً وقالوا ان مقترحاته ليست الا احبولة وشركا . وصرح المعتدلة صفة حالهم ببيان أصدروه موقعا من زعمائهم وقادتهم ، وفى طليعتهم الاقتصادى الهندى المشهور « السر دانشو واشا » ، ومما جاء فى هذا البيان : « ان المنهاج المقترح فى التقرير هو أشبه بصورة مركبة الأجزاء بعضها قابل للتحسين والترقية ولا سيما القسم الأعلى منها ، والمنهاج مع ذلك يحسب مشروعا ظاهراً فيه التقدم والتحسن ، ومن شأن الاصلاحات المقترحة فيه أن تمهد السبل للاقاليم الهندية للوصول يوما الى غاية الحكومة النيابية التامة . وعلى الجملة ففى هذه المقترحات من صدق النظر وروح العطف على الآمال الهندية ما يستحق به صاحبا التقرير الكفيان الاشهران ، شكر أهل الهند وامتنانهم » . وكان تفنيد الغلاة للتقرير شديداً جداً ، وقد جهد بهذا زعماؤهم وقادتهم ، فقال المستر تيلاك : « الاعتصام الاعتصام بالغاية التى وضعها نصب عينيه المؤتمر الهندى الوطنى » . وقال المستر بين شندر بال : « ان أحول عن رأيى الصريح وهو أن ما قبل بهذا المشروع المقترح ونفذ فان الحكومة ستصبح يومذاك أشد عنفا واستبداداً منها اليوم » .

ومما هو احرى بالاطلاع عليه هو اعتراضات الاحزاب المقاومة للحركة الوطنية ، ولا سيما الاحزاب الاسلامية والطوائف الهندوية الدنيا ، اذ أن من الأمور الدالة على شدة تعقد القضية الهندية ومناقضة بعض وجوهها لبعض هو خشية الملايين العديدة من الهنود

للحركة الوطنية أشد خشية ، واتخاذهم حكم الراجا البريطاني مجناً يتقون به اضطهاد رجال الوطنية وعسفهم وتسلطهم . أما المسلمون الهنود فكانوا لم يبرحوا على خلاف شديد فيما بينهم في شأن قضية الحكومة الذاتية . وكانت الفئة الكبيرة فيهم تمقت الحركة الوطنية وتحذرها لما اكتسبته بالتالي من الصبغة الهندوية الحاملة على التعصب ، غير ان جانباً منهم أي من المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يجنحون الى مناصرة الحركة والجهد في سبيلها ، كما سبق لنا بيان هذا ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً فاحشاً طول الحرب العامة ، فجعلت العرى بين العنصرين تتوثق ، ولكن ما كان السبب في هذا التآخي الاسلامي الهندوي مقصوراً على رغبة المسلمين في نيل الحكومة الذاتية بل لأنهم فوق ذلك قد ابتغوا مقاومة دول الحلفاء في سياستها التي وضعتها وطفقت تتمشى عليها لاقتسام الامبراطورية العثمانية واشعال الشرقين الادنى والاوسط[1]، لذلك أمسى الوطنيون الهندويون على استعداد شديد لمقاسمة المسلمين شعورهم في الشؤون الاسلامية الخارجية فنجم عن جميع هذا ان استحكمت عرى الولاء بين الهندويين والمسلمين استحكاماً ، وتأكدت روابط الاتحاد بين العنصرين تأكداً ما عرف له من شبه من قبل .

وتدل الحال التي بلغ عندها اعتزاز الطوائف البرهمية بالحركة الوطنية اعظم مبلغ ، على أن المقاومة التي قامت بها الطوائف الهندوية الدنيا للحكم الهندي الوطني (هومرول) هي في الواقع عظيمة . فاشتد وجل هذه الطوائف حتى حسب أهلها انهم كادوا يخسرون الحماية التي هم حاصلون عليها اليوم في ظل الراجا البريطاني ، فتقضي بهم الحال اذ ذاك الى معاناة الذل والاقامة على الضيم والقهر ، وذلك مما لا ريب فيه متى ماعاد الاستبداد البرهمي الى الكيان وهو كما لا يخفى استبداد الطوائف العليا . فدعاهم ذلك كله الى اتخاذ وسائل الذياد عن حماهم ، فالفوا جمعية دعوها « الناماسودرا » وسلموا زعامتها والقيام على شأنها الى رجل كبير مشهور من آحاد رجالهم هو الدكتور ناير[2] ، فاخذت هذه الجمعية تبين وتوضح ما سيقع من البغي والاستبداد البرهمي اذا ماتسنى لأهل الطوائف البرهمية العليا القبض على أزمة الأحكام في البلاد ، مستدلة بما هو واقع في الحال على ما هو

(١) كما سبق لنا بيان هذا في الفصل الخامس .

(٢) ذكر في الفصل الرابع .

متوقع حدوثه فى المستقبل ، مثال ذلك قولها : « ان البرهميين قد أخشوا فى رعب المنتخبين (بكسر الخاء) من الطوائف الدنيا فى عدة مواسم انتخابية وهددوهم شر تهديد بأن ينبذوهم من مراتبهم الطائفية نبذاً ان تقاعسوا عن انتخاب المرشحين البرهميين من الطوائف العليا ، فاذا كانت هذه صفة الحال اليوم فكيف تكون غداً اذا ماتم للبراهمة الاستبداد فى مجال أوسع ونطاق أرحب ، فيفقد « البارياه » المنبوذون اذ ذاك كل حق فى المجتمع الهندوى » .

فهذه الاعتراضات التى قام بها اقسام كبيرة من أهالى الهند مقاومة للحكم الوطنى « هومرول » المقترح فى التقرير ، كان من شأنها انها استرعت انتباه عدد كبير من الانكليز أهل الاضطلاع فى القضية الهندية الذين كانوا قد كشفوا عن قناعتهم واعتقادهم فى استعداد الهند للحكم الوطنى ، من حيث انها قوّت حجج طائفة عظيمة من الانكليز ، ولا سيما أولئك المتهندين [انجلو انديان] القائلين بان الهند ليست الى الآن ناضجةً نضجاً كافيا لنيل الحكومة الذاتية . قال أحد أصحاب هذا الرأى فى مجلة (Round Table) « المائدة المستديرة » : « ان الحشوة من أهل الهند لايحفلون البتة بشؤون السياسة ولا يفقهون شيئا من الحكم الوطنى . بل انهم يؤثرون البقاء فى ظل قضاة الصلح الانكليز على كل شئ سواه وهذا الأمر هو مبتغاهم أبداً ، وهم واثقون كل الثقة بالانكليزى لأنه كان دوماً « حامى الضعفاء » لايحابى هندوياً ولا مسلماً وقد عرف بالنزاهة والأمانة » . وقال اللورد سيدنهام فى نقد مسهب فند فيه مقترحات تقرير موتاغو شلمز فورد : « ان هناك نقائص عديدة فى منهاج حكومتنا فى الهند يحمل على الاصلاح الواجب أن يقدم على قاعدة المصلحة لجميع سكان الهند بدون تمييز . ولكن اذا مانفذت سياسة « استحثاث القوم من تلقاء أنفسنا لكى يتأهبوا للقاء عصر جديد » ، كما يقول نائب الملك فى الهند ووزيرها فى بريطانية ، واذا ماانتشر النبأ فى الزوايا المتهامسة فى الشرق ان تلك السلطة الوحيدة الكافلة لسير القانون والنظام والآخذة للامة الهندية بيد المعونة فى سبيل الارتقاء المتدرج ، قد وهنت وتضعضعت ، قضى بذلك على المصالح العامة القضاء المبرم ، فعادت الاحن والأحقاد تشتعل جديداً ، ثم يكون على الأثر رد فعل عظيم تقوى به البراهمة ـ وتذهب به جميع الترقيات والأعمال الشريفة التى قام بها الانكليز فى الهند » .

على أن هناك كثيراً من ثقات الانكليز المضطلعين فى الشؤون الهندية ، ذهبوا يؤيدون مقترحات التقرير و يبينون ماهى عليه من الحكمة الصادقة و يلحون على الحكومة طالبين أن يشترع البرلمان قانوناً لها و يضع نظاماً لتنفيذها هذا اذا رامت بريطانية حقا اتقاء الاخطار العظمى والبلايا الكبرى . وكان زعماء هذا الرأى والمذهب هم مثل ليونل كرتس والسر فالنتين تشيرول [1] فقال هذا الأخير : « انه لمن عزم الأمور ألا يؤخر العمل على مقتضى مقترحات التقرير ، فلنتعظ ولنعتبر بما قد جرى حتى اليوم فذلك لعمرى كاف أن يحملنا على الانتباه لمخاطر التسويف والارجاء . أيا ترى يغيب عنا بعد جميع الذى جرى ان الزمان اليوم فى الهند كما فى سائر المشرق أصبح أكبر معين وأعظم عامل على انفجار براكين الفتن ؟ . . . ليس بوسعنا البتة ان نأمل التوصل الى توفيق مُرض بيننا و بين الغلاة ، فجل مانستطيع الامل فيه هو ان نطلق لأهل الهند قواهم الحيوية من اغلالها ، تلك القوى المرتقبة يوماً فيوماً الافلات من أسرها ، فتنطلق فى سبيلها وحبلها على غاربها ، فتأخذ بالجد والانكماش فى العمل ولها من نفسها مسيطر عليها » .

و بالتالى قبل البرلمان البريطانى بتقرير مونتاغو شلمز فورد قاعدة للبحث والمناقشة وفى أواخر سنة ١٩١٩ اشترع البرلمان مقترحاته قانوناً رسميا ، بيد انه خلال المدة المنقضية منذ نشر التقرير الى اشتراع مقترحاته ، وهى ثمانية عشر شهراً ، قد تبدلت الحال فى الهند انكد الطالع تبدلا هائلا وانقلبت انقلاباً عظيماً فاربدّ الجوّ وعادت الفتن والثورات تنفجر ونيران الكورات تندلع فى طول البلاد وعرضها ، ففاقت جميع ماعرف من هذا القبيل منذ سنة ١٩٠٩ .

والاسباب فى ذلك جمة . ففى المقام الاول شرعت جميع العناصر الوطنية الشديدة السخط على التقرير تستثير أصحاب المنازع الثورية وتحرضهم على استئناف أعمال الهول والرعب ، ولعل الغرض من هذا كان حمل البرلمان البريطانى على التوسع فى المنح الاستقلالية ونطاق الحكم الذاتى فوق ما اشتمل عليه التقرير من المقترحات والمرامى . وهناك من الاسباب ماهو أعم صفة . ذلك ان سنة ١٩١٨ انما كانت سنة بلايا و رزايا طبقت الهند من أقصاها الى أقصاها ، فاجتاح وباء الحمى الصدرية الهند اجتياحاً ، وفتك بأهلها فتكا

---

[1] Lionel Curtis . Sir Valentine Chirol.

ذريعا وجرف نحواً من ٧،٠٠٠،٠٠٠ نفس . ثم قحطت الهند قحطاً شديداً باحتباس الامطار عنها ، فاضمحلت الحاصلات والغلال ، فانتشرت المجاعة وطغت شقوتها على البلاد . ثم جاءت سنة ١٩١٩ فكانت شراً من أختها الغابرة ، وافدح بلوى وأشدّ قحطاً وسغبا ، وقرر أهل الخبر صيف السنة الماضية ان خلقاً عظيما ذهبوا فريسة المجاعة وان ملايين من الناس سواهم أمسوا على شفا جرف الهلاك . ثم جاءت الحرب الافغانية تزيد البلاء بلاء ، فالتهبت البلاد عند الحدود الشمالية الغربية ، وانقلبت بؤرة شديدة السعير ، فازداد هياج المسلمين وعظمت نقمتهم الى حد يقصر دونه الوصف .

فكانت نتيجة جميع ذلك ان طبقت الهند عواصف الفتن ، وعانت السلطة البريطانية الأمرين من هذه الأحوال . فعينت بريطانية لجنة للقيام بالتحقيق فى ماهية الهياج الهندى العظيم ، فقامت اللجنة بمهمتها ووضعت تقريراً فى صفة الحال موقعاً من رئيس اللجنة القاضى « رولاط » صور فيه عظمة الاضطراب الظاهر مظهر الثورة تصويراً جامعاً مانعاً . ومما ذكر فيه ان العدو الأكبر لبريطانية ليس هم شبان الطبقات العليا المتهذبين المتواثقين بعضهم مع بعض فى إشعال الحركة الفوضوية ، بل ان معظم الجند قد أضحى يخالطهم رجال عسكريون وغير عسكريين يدأبون على القيام بالأعمال الوطنية تحت ستار الجندية ، وذكر أيضا ان الأمر الأخطر هو ان هناك دلالة واضحة على جعل القوى الجندية الوطنية تخرج من طاعة الانكليز فتنحاز الى جانب الوطنيين . ثم بين صاحب التقرير فى النهاية ان جميع ذلك يقتضى سنّ قوانين جديدة تكون غاية فى الحزم والشدة تداركاً للخطر واتقاء للويل .

وإذ أيقنت حكومة الهند باهمية البيان الذى اشتمل عليه تقرير اللجنة ، وضعت مشروعا لسن قانون سمته رسمياً « بقانون الجنايات الثورية والفوضوية » ولكن شاع ذكره باسم « لائحة ارولاط » وخول هذا القانون الحكومة البريطانية سلطة فائقة عظيمة ، كحق التفتيش فى المنازل والبيوت والقبض على من يشتبه بهم أقل اشتباه انهم من أهل الدسجس والاضطراب على غير مبالاة بالتثبت أو اجراء التحقيق .

فهاجت لائحة رولاط هائج الوطنيين فهبوا يقاومونها فزاد المرجل غلياناً وبحر الهرج والمرج ارغاء وازباداً . وقام الغلاة والمعتدلون يفندون اللائحة تفنيداً ويحسبونها رجوع

القهقرى وباعثا على ازدياد الفتنة . ولما جئ باللائحة للبحث فيها فى المجلس الاشتراعى الهندى ، أى المجلس الاشتراعى الامبراطورى ، هب جميع الأعضاء الوطنيين يعارضون اجازة اللائحة أشد المعارضة ، ولكن الحكومة تمكنت بالتالى من اجازتها بعد احتدام الخلاف مستعينة بأصوات الأكثرية الانكليزية المعينين تعييناً . وحسبت الحكومة اجازة هذه اللائحة ضربة لازب لامناص لها منها ، لكى يتسنى لها بها حفظ النظام والأمن. وفى ربيع سنة ١٩١٩ اشترعت اللائحة وصيغت قانوناً رسمياً .

فازدادت الحال شدة . ودعا الوطنيون هذا القانون « بقانون الأفاعى السوداء » ، واشتعل السخط من كل جانب . وطفق الغلاة يقومون بحملات الاحتجاج المستطير من لهب النقمة والعداء . وارّخ أهل الهند اليوم الذى اشترعت فيه هذه اللائحة قانوناً ، وهو السادس من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٩ ، بأنه « يوم الذل الوطنى » . وفيه اجتمعت الخلائق ألوفاً مؤلفة لايحصيها عد اجتماعات كبيرة ، وقام فى الجموع المتراصة الخطباء الوطنيون يستثيرون الناس بالخطب الهائجة المفزعة ويشعلون صدورهم بنار حاسية مستعرة . فكان « يوم الذل » فى الواقع شر يوم عرف باستفحال الفتن الشديدة منذ ثورة العصيان سنة ١٨٥٧ . فعاد الرعب والهول يطبقان الهند ولاسيما فى الأقاليم الشمالية ، فاغتيل الموظفون ورجال الخدمة المدنية من الانكليز ، وانتشر التخريب والتدمير ، كأن ليس لمرجل الهند الغالى من سكون .

ومضت الحكومة تستقبل الخطوب تترى والفتن المتوالية رابطة الجأش . تخمد وتسكن بيد من حديد ونار . فانطلقت بنادق الحكومة البريطانية ومدافعها الرشاشة تحصد الخلائق حصداً ، وطفقت أسراب الطيارات تملأ الفضاء سابحة جيئة وذهاباً تمطر الجماهير سحب القذائف ومزن المفرقعات . ومن أشهر هذه الحوادث الهائلة « مذبحة أمرتسار » حيث هجمت الجنود الانكليزية بالمدافع الرشاشة على جمهور كان محتشداً احتشاد القائمين بالفتنة فحصدت منه النيران ٥٠٠ نفس وجرحت ١٥٠٠ نفس فى لمحة بصر . ولم تستطع الحكومة تهدئة الحال الابشق الانفس ، فعاد النظام الى مجراه وزجت الحكومة قادة الفتنة فى السجون ، فباتت الفتنة ساكنة ولكن سكون النار تحت الرماد . وكان اشتراع البرلمان البريطانى لتقرير موتاغو شامز فورد الاصلاحى أواخر السنة عاملا فى استرخاء حلقات

الضيق والشدة وممكناً من نيران الغضب والسخط ، ومع ذلك فقد ظلت الحال عصيبة اذ لم تمد جميع المياه الى مجاريها ، لأن الحوادث المشؤومة التى حدثت أوائل سنة ١٩١٩ كان من شأنها أن هاجت الاحن والشحناء والأحقاد هياجاً شديداً لا انطفاء له ، فبانت العناصر الثورية من تحت الغطاء أشد عنفاً ومراساً ، وظل المعارضون المقاومون للحكم الوطنى مستمسكين باعتقادهم ان الهند ليست بالجديرة لذلك الحكم اذ متى ما تقلص ظل الحكومة الراجوية المطلقة عادت الفوضى الى الانتشار .

لهذا انقلبت الحال غير صالحة للقيام بتنفيذ الاصلاح المقترح فى تقرير مونتاغو شاملز فورد . فهب الغلاة يقاومون تنفيذ مقترحات التقرير قائلين ان الاصلاح انما هو شرك يجب اتقاؤه ولو عانت الهند فى سبيل ذلك ماعانت . ثم أخذوا يبتغون ادراك الغرض ، ولما كانوا يعلمون أن الثورة المسلحة غير مستطاعة لديهم ولاسيما فى حال مثل تلك الحال ، عمدوا الى الذريعة الجديدة المعروفة «باللاتعاون» ، وهى فى حقيقة معناها مقاطعة شاملة بانة «هائلة» لكل شئ بريطانى أو عليه سمة بريطانية . ولم تقف المقاطعة عند هذا الحد ، اذ تجند لها المنتخبون فقاطعوا الانتخاب للمجالس الجديدة ، والمحامون وأرباب القضايا فقاطعوا المحاكم والمكلفون فامتنعوا عن تأدية الضرائب ، والعمال فاضربوا عن العمل ، والتجار فرفضوا تعاطى البيع والشراء بالبضاعات الانكليزية ، والطلاب فانقطعوا عن المداومة على المدارس والكليات . وكان الغرض من هذه المقاطعة مضايقة الانكليز على هذه الطريقة حتى تتدلى منزلتهم فى الهند فيصبحوا ضرباً من « البارياه » المنبوذين ، فيضيق الأمر بالحكومة البريطانية والجاعات البريطانية من شدة الاعتزال ، ويغدو الراجوات ضعاف القوة والسلطة قليلين بأنفسهم ، فيضطرون الى اجابة الغلاة الى مطالبهم وينزلون على حكمهم فى شأن الحكومة الذاتية التامة .

هذه غاية اللاتعاون . ثم سرعان ما انبرى للسعى وراءها والجهد فى سبيل نشرها زعيم كبير مقتدر هو (موهانداس كارامشودغاندى) الذائع الصيت والذكر المشهور بشدة ورعه وتقواه . فقد استطاع هذا الزعيم العظيم ان الهب الطوائف الهندوية بأسرها ناراً دينية ، مما اعتاد اضرام مثله نساك الهنود ومتقشفتهم الذين على هذا الطراز . ويمكن القارئ أن يقف على ماهية الدعوة التى قام بها غاندى بالاطلاع على هذا المقتبس التالى وهو من احدى

خطبه التى خطبها فى الناس : « انه لمن العجب العجاب بقدر ماهو داع للذل والصغارة ، أن يستطيع أقل من ١٠٠،٠٠٠ من الرجال البيض أن يتحكموا فى ٣١٥،٠٠٠،٠٠٠ من الهنود . أجل ان البريطانيين يستطيعون هذا بالقوة الغاشمة العمياء ، ولكن على الاغلب بما ينالونه منا من التعاون الذى يستفيدونه بالوف الذرائع والوسائل ، وباستنفاد حولنا وقوتنا كيما نصبح عالة عليهم فى كل أمر من أمورنا وشأن من شؤوننا على مضى الأيام وكر السنين . اياكم ثم اياكم الوقوع فى أشراك هذا الاصلاح فتحسبونه سِمَنا وهو ورم وماء وهو سراب . اياكم ثم اياكم الوثوق بهذه المجالس الاشتراعية والمحاكم القضائية وكراسى الأحكام فتبيعون بذلك سلطتكم الحقيقية التى هى نصاب حريتكم واستقلالكم . ان جميع هذه الذرائع التى يتوسل بها الانكليز معنا إن هى الا مستدرجات لاحتلاب قوتكم وأيدكم ، واستنزاف دمائكم وامتكاك عظمكم . ان البريطانيين لا عجز عن ان يحكمونا بعد بالقوة ، فلذلك ترونهم يلجأون من وسيلة الى أختها سواءٌ كانت شريفة أم شائنة ، لكى يتسنى لهم البقاء فى الهند . اعلموا أن الانكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا والتلذذ بثمراتنا والانتفاع بقوة رجالنا واولادنا كل ذلك فى سبيل جشعهم الامبراطورى ونهمتهم الاستعمارية . فاذا كنا ما يجب علينا أن نكون من العصبة المستمسك بعضها ببعض ، وأبينا ثم أبينا امدادهم بما يريدون منا من المال والرجال ، استطعنا ادراك غايتنا الكبرى الاوهى : السوراج [1] والمساواة القائمة على صدق المروءة

على ان الغايات التى قد ابتغاها الغلاة من حركة اللا تعاون لم تتحقق كلها فشرع فى تنفيذ الاصلاح المقترح فى تقرير مونتاغور شلمز فورد ، وأجريت الانتخابات الاولية على مقتضى التقرير أوائل سنة ١٩٢١ . غير ان الظواهر بعيدة بعداً كبيراً من الدلالة على استقرار نصاب الحال ، اذ لم يكد يشرع فى الانتخابات حتى طفقت مؤثرات الحركة اللاتعاونية تظهر عاملة عملها بآلاف من مختلف الوسائل ، تبتدىء باضراب العمال فى المعامل وتنتهى باضراب الطلاب عن المدارس والمعاهد العلمية . فالهند اليوم انما هى فى مخاض شديد ليس فيها الا الفتنة والاضطراب . والامر الاحرى بالاعتبار ان ليس هذا الغليان الهائل مقصوراً على الافق السياسى فقط ، بل يتناول الأفق الاجتماعى كذلك . فان التطورات

(١) معناها الحكومة الذاتية فى مراد الغلاة ثم شاع استعمالها فى الهند بمعنى الاستقلال .

الاقتصادية الكبرى التى لم تنفك تزداد وتنتشر فى الهند منذ نصف قرن الى اليوم ، قد نقضت هيكل المجتمع الهندى نقضاً عاماً فتبدلت الأرض غير الارض . وسنتكلم على هذه التطورات فيما يلى من الفصول ، والأمر الذى ينبغى لنا استيعابه فى هذا المقام هو ان القادة الغلاة لعلى جد فى اضرام الثورة الاجتماعية و بلا ريب على صلة بروسية البلشفية ، زد على ذلك ان عوامل الانشقاق القديمة الأصل لم تضمحل بعد ولا تلاشت ، فان المذبحة الاخيرة التى ذبح فيها المتعصبة من طائفة السيخ أهل الجماعة حجاج السيخ المنشقين عن الجماعة ، والفتنة المثلثة التى نشبت فى تلك الآونة بين الهندو بين والمسلمين والنصارى الوطنيين فى الهند الجنوبية ، جميع ذلك يدل على ان نار التعصب الدينى والجنسى لم تبرح كامنة . وصفوة الكلام ان الهند اليوم هى أشبه بميدان تتصارع فيه قوى التطورات والانقلابات : النشوئية المتدرجة ، والثورية الهائلة . القديم يموت ويفنى ، والجديد يظهر الى الوجود ولكن لم يتكامل بعد : هذه صفة الحال العامة فى الهند اليوم ، جومر بد وانقلاب عظيم ، فول وجهك شطر المستقبل فسبحان علام الغيوب .

الفصل السابع
فى
التطور الاقتصادى

من أعظم الواقعات وأدعاها للعجب فى تاريخ العالم الحديث ، هو فتح الغرب للشرق فتحاً مزدوجاً . فكلمة «فتح» قد شاع استعمالها بالمعنى السياسى بحيث يتصور من ذلك زحف واستيلاء ، وجيوش معبأة وعساكر منظمة تدوخ بلاداً أجنبية وتخضعها لسلطان غريب . وظاهر لايحتاج الى بيان ان مثل هذه الفتوح السياسية قد تكررت فى الشرق وتعددت ، وقد رأينا فيما تقدم من الكلام كيف كانت الممالك المنحطة فى الشرقين الأدنى والأوسط تتساقط خلال القرن الماضى الواحدة تلو الأخرى أمام الدول الغربية ذات الحول والطول والقوى القاهرة المسلحة .

على ان الأمر الذى يجب النظر فيه هو ان هذا الفتح السياسى قد كان يماشيه جنبا الى جنب فتح اقتصادى أتم عدة من ذاك وأوسع مضطرباً وحدوداً ، وقد قدر له أن يكون سبباً فى تطورات جمة أشد فعلاً وأرسخ حالا وصبغة .

وأما السبب الأصلى فى هذا الفتح الاقتصادى فهو بلا مراء الثورة الصناعية فى أوروبة فى القرن الماضى . فانه مثلما اكسبت الاسفار البحرية التى قام بها كولومبوس ودى غاما أوروبة السيادة على الاقيانوس ثم تلت ذلك السيادة السياسة على العالم طراً ، فهكذا قد كان شأن الاختراعات الفنية التى كانت ما بعد القرن الثامن عشر علة الثورة الصناعية ، فانها قد أكسبت أوروبة السيادة الاقتصادية على العالم بأسره . وقد كانت هذه الاختراعات فى الواقع بشيراً بعصر جديد من عصور الرياد والاستكشاف ، ولكن ليس فى مجاهل الأرضين وأبكار الاقطار ، بل فى آفاق العلوم وممالك الفنون . فكانت النتائج فى هذا العصر عصر الاختراعات أعظم وأجل من تلك التى حصلت فى عصر الاستكشافات الجغرافية منذ ثلاثة قرون خلت ، لانها جعلت بنى عرقنا وقومنا ذوى سيادة

فوق قوى الطبيعة بحيث كان من شأن الانقلابات الكبرى التى حدثت فى الحياة الاقتصادية على الاثر ان بدلت وجه العمران تبديلاً تاماً وغيرت صورته من حال الى حال .

ان هذه الانقلابات العظمى هى بلا ريب مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم . فان ارتقاء الانسان المادى كان لم يبرح حتى ذلك العهد سائراً سيرا متدرجاً بطيئاً ، واذا استثنينا البارود الذى كان معروفاً من قبل نرى الانسان كان لم يزل على حال تكاد لم تتغير منذ عصور متطاولة وأحقاب مديدة ، اذ لم يكن هو قد شد الى تذليل القوى الطبيعية رحاله بعد ، ولا استطاع ان يفوق أجداده الاقدمين فى التسلط على قوى المادة ، فالمركبات والعجلات التى كانت شائعة فى عصر أجدادنا لم تكن لتختلف عن تلك التى كانت فى عصور المصريين الاولين ، وأيضاً السفن الشراعية كانت كالسفن التى كانت معروفة فى العالم القديم من قبل الحرب التروادية ، فالصناعة الاوروبية قبل القرن الماضى كانت قائمة على قوة عضل الانسان والحيوان ، وعلى الريح وقوة انحدار الماء ، واذا بالحال تطورت فجأة تطوراً تاماً هائلاً ، فظهر البخار والكهربائية والبترول واللاسلكى ، فبدأ الانسان يكون جباراً يسخر القوى الطبيعية المخبوءة ، ويقرب الابعاد ، ويضع يده على مناكب الكرة الارضية ، ويخرق جبالها ويتغلغل فى احشائها ، ويذللها ويروضها فى سبيل مصالحه ومنافعه ، ولم يزل يصارع قوى الطبيعة حتى ظهر على الكثير منها ، ثم رأى نفسه فاذا هو بعالم مادى جديد ما كان ليعرفه من قبل ، مختلف عن ذاك السابق اختلافاً لم ينحصر فى الحيز والحد بل جاوز ذلك الى النوع والصفة .

نقول الانسان انما بات فى عالم مادى جديد ، ونعنى به انسان القرن التاسع عشر ، أو الرجل الابيض ابن أوروبة هو وجالياته التى انتشرت فى الارض وجعلت تنشئ لها طوارئ ما وراء البحار ، اذ ان المبتدع لاسباب هذا الانقلاب والتطور والاختراع هو ثم هو دماغ الانسان الاوروبى الابيض الذى كان المجلى فى حلبة هذا الميدان والجانى للطيبات والخيرات قبل غيره من سائر الانسان ، على انه قد كان لهذا العصر الجديد ميزتان هائلتان : هما نشوء الصناعة الآلية التى طفقت بها المنتجات الصناعية تتدفق تدفقاً جاوز الغاية واستغرق الحد ، وترقى وسائل النقل وشيوعها ورخص أجورها . فهذان العاملان قد زادا زيادة فاحشة فى القوة الاقتصادية واستفحال الثروة فى أوروبة التى غدت منذ

ذلك العهد مصنع العالم غير منازع . وفى الواقع انما كانت أوروبة خلال القرن التاسع عشر تنتقل من عهد كانت فيه القارة شبه زراعية الى آخر أصبحت فيه معملاً صناعياً هائلا ملؤه الارزاق ورؤوس المال والعمال ، منه أخذت تصدر البضاعات والسلع والامتعة على اختلافها مقادير عظيمه الى كل حدب وجهه فى الارض ، واليه تجلب ارزاق جديدة من المواد الخام لتحوّل وتصنع وتبادل .

هكذا كانت حالة الغرب الثائر ثورته الصناعية لماوقف ازاء الشرق المتقهقر المتضعضع الساكن الحركة فى حياته الاقتصادية فضلاً عن السياسية وفنون الحرب . ولا عجب فالشرق كان إذ ذاك فاقداً للصناعة والتجارة بمعنييهما المعروفين عندنا اليوم ، وما كان له من حياةٍ اقتصادية على الجملة فانما كان قائماً على الزراعة . وبهذا الاعتبار كانت الوحدة الاقتصادية هى القرية أو البلدة القائمة على عول نفسها بنفسها حتى كادت تكون فى عزلة عن غالب جوارها . وأما الصناعات والمهن والحرف فى الشرق فقد كانت يدوية ، يقوم بها قليل من أبناء الفن أو الصنعة يشتغلون فى الأكثر كل بمفرده فى نطاق ضيق الحدود . وكان الجانب الأكبر من منتجاتهم النفيسة النوع فى الغالب ، حاجات كمالية تستنفد فى سبيل التنعم والترف ، تصنع على طرق بطيئة وأساليب قديمة بحيث ان الكمّ المنتج كان على مقدار معروف ، وأسعاره فى السوق غالية بالاضافة اليه . لهذا السبب ما كانت المنتجات الاسيوية ، على نزارة الاجور وقلة النفقة ، لتستطيع مباراة البضاعات الأوروبية والأميركية المصنوعة بوسائل الآلات والزاخرة فى أسواق العالم المختلفة ، بل كانت فوق جميع هذا مخسرة وكاسدة فى الأسواق الشرقية الوطنية .

على أن عدم استطاعة الشرق مباراة الغرب مباراة صناعية لم يكن كل السبب فيه قلة كفاية فى طرق الانتاج وجمود فى أساليب الصناعة ، بل ان ذلك ليشتمل على أسباب أخرى ، وعوامل ليس شأنها بقليل ، كحالة العمال العقلية وقلة رؤوس المال ، إذ أن الحياة الاقتصادية فى جميع الشرقين الأدنى والأوسط كانت قائمة على قاعدة الارتضاء بهذا الحال وابقاء القديم على قدمه . أما القواعد الاقتصادية الغربية فى العقود الكبرى وفى المنافسة والمزاحمة لم تكن فى الواقع معروفة ، فالزارع وذو الحرفة والمتفنن والصانع جميعا كانوا لا يجيدون مصنوعاتهم زيادة على القدر الذى أخذوه عن معلميهم بحيث وهم هذا شأنهم

لا يحيدون قيد فتر عن طريق القفو لآثار أسلافهم ومتقدميهم ، مرددين القول انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . لذلك لم يكن هناك من عامل المزاحمة ولا من داعى التفوق ما يحمل على الاجادة والتحسين و زيادة التعشق والابداع . وقد كادت الاجور تكون دوما لازمة مضطربا لا تعدوه ، فلم يكن من رغبة فى ترقية أساليب الحياة ولا فى طلب المزيد من الرخاء والرفاهية ، وكانت الصناعات جميعها نمطية مماثلة النهج لا تخرج عن حد المشابهة والمحاكاة ، بحيث كان جميع همّ الصانع المتخرج أن ينسج عن منوال مخرجه دون أن يشحذ فكره فى تحسين آلة أو اختراع أخرى أو ترقية أسلوب أو استنباط جديد حتى يتسنى له بذلك تسهيل عمله وتوفير انتاجه ، بل كان عوضا عن أن يجد ليجنى المرابح والمكاسب مما يمهد له طريق التقدم والترقى ، منكباً على اتباع السبيل الذى اتبعه آباؤه وأجداده من قبل ، وفوق جميع هذا كان فى غالب أمره على نزوع الى تقديس هذه السبيل الموروثة تقديسا يكاد يكون دينيا اقتداء بأسلافه الذين هكذا كانت حالهم أعصراً وقرونا ، غير مريد الحيدة عن أخذ اخذتهم ، ولا متحولا عن قفو سبيلهم لازيادة ولا نقصان ، راعيا وكاتما لأساليب صنعته أو فنه حاسباً ذلك كأنه من مقدسات الأسرار ومحرمات الاستار .

أما الفئة القليلة التى اشتملت على الأشداء الأجرئاء المقادم الذين كانوا من الهمة والنشاط بحيث لا يبالون بفسخ العادات العتيقة والأوضاع القديمة البالية ، ويبتغون الخروج مما تقيدوا به حقبا وأجيالا ، فكانت قلة رؤوس المال تحول بينهم و بين مبتغاهم ، وتثنيهم عن ولوج الباب الذى يرومونه لأن رؤوس المال الفياضة، السهلة الانتقال من موضع الى آخر، المرْصدَة للأعمال المدرارة خيراً ، والمشروعات الوافرة ريعا ، لم تكن فى الشرق . لأن الشرق على اختلاف طبقته ، أميراً كان أم صعلوكا ، كان لا يحسب المال وسيلة للجنى والكسب ، أو ذريعة لتقارض المنافع والتعاوض بالأرزاق ، بل كان يحسبه كنزاً ينبغى لصاحبه أن يحرص على خزنه ليوم عصيب يضطر هو فيه فيكون « هذا الدرهم الأبيض لذاك اليوم الاسود » . لهذه العلة الحرية بالاعتبار لم يبرح الشرق مستودعاً للمعادن الثمينة والجواهر الكريمة منذ قدم العصور حتى اليوم . ففى الهند وحدها مقادير عظيمة من الذهب والفضة والجواهر ، بعضها مكنوز فى الصناديق الدفينة فى جوف الأرض و بعضها الآخر مما تتشنف به النساء الهنديات أقراطا و يتحلين به عقوداً ، مما تبلغ قيمته على اليقين

ملايين من الدنانير . فى هذا الشأن قال كاتب حديث : « فيض لى سانحة فأخذت لكى أشاهد السراديب التى فيها الخزائن والدفائن من الجواهر لأحد المهارجات ، فأرسلت ذراعى حتى المنكب فى وعاء ذهبي مملوء بالالماس واللآلئ والزمرد واليواقيت ، ورأيت الجدران مرصعة بالكلاليب الذهبية ، وعلى كل كلابين حزمة من قضبان الذهب طول كل واحد من ثلاثة الى أربعة أقدام وقطره قيراطان وبعض القيراط . ثم رأيت وعاء آخر مملوءاً ألماسا فاحتفنت منه بكلتا كفى حفنة وطفقت أنثرها من بين فرج أصابعى فكانت قطع الالماس تتناثر مؤتلقة ائتلاق قطرات السحاب وقد انعكس عليها نور الشمس . ففى الهند نحو من سبع مئة امارة وطنية على رأس كل منها أمير ، كل أمير له سراديب على طراز هذه السراديب وكنوز على صفة هذه الكنوز زد على هذا أن كل دهقان (زمندار) وهندى وطنى اذا مارام توفير شئ فلا يرومه الا معدنا كريما ، من حيث ان الهندى لايثق بقيمة الاوراق النقدية ولا يحب التعامل بها . أما النقود المعدنية فتارة يسبكها خلاخيل لزوجته وطوراً يكنزها تحت لبنة متزعزعة فى الحائط أو حجر مبسوط من أحجار التنور الارضية ، أو فى حفرة فى موضع معين » .

على أن هذا الوصف انما هو لثراء الهند المعاصرة ، من بعد ما انقضى عليها أكثر من قرن وهى فى الحكم البريطانى ، وبعد أن انتشرت فيها الآراء والمبادئ الغربية التى كما سنرى قد سببت كثيراً من التطور فى البلاد . وينبغى أن لا نغفل أن شنشنة كنز المال لم تكن مخصوصة بأهل الهند دون غيرهم بل هى شاملة لجميع الشعوب المشرقية . فيسهل علينا بعد الوقوف على هذه الحقيقة أن ندرك السبب فى ذلك الافتقار الشديد الذى كان عليه المشارقة الى رؤوس المال الكافية للقيام باستثمار المشروعات الحيوية مما كان الى حد مئة سنة خلت . ونزداد علما بالسبب متى ماعرفنا أيضا أن الاضطرابات السياسية والنواهى الدينية الحائلة دون اداتة المال بالفائدة ، قد وقفت حجر عثرة فى سبيل الافراد الطامحين من ذوى الهمة والنشاط الذين يبتغون استدرار القناطير المقنطرة من أموالهم بوسائل المشروعات الكبرى ذات الربح الجزيل . فلم يبق هناك من وسيلة مستطاعة لاستدرار الاموال غير المراباة التى عمت بها البلوى فأصبحت جميع رؤوس المال الشرقية النزرة تستدر على هذه الطريقة ولكن البلية هى أن رؤوس مال كهذه ، لم تدن للقيام بالاعمال المنتجة

الرابحة والمشروعات القيمة بل للانغماس فى الترف والاسترسال الى الملاذ البدنية ولسد الحاجة ، لكن مع الاسراف والتبذير فكانت مضرة قاتلة ، لا محيية منجحة ، وزادت رؤوس المال على اختلافها اجحافاً .

هكذا كانت حياة الشرق الاقتصادية منذ قرن ومن المحقق أن هذه الحياة المتضعضعة ذات النظام المعتل قد أفضت بالشرق على التوالى الى العجز وفقد القوة والحول امام تيار المزاحمة الهائل الذى اندفع به الغرب الثائر ثورته الصناعية ، فغدا طوفان البضاعات الغربية ، الآلية الصنع ، الرخيصة الاسعار ، يطمو على كل قطر من أقطار المشرق ، جارفاً ما كان أمامه من البضاعات والمصنوعات الوطنية جرفاً . وما كانت الطريقة التى لاشت بها المزاحمة الغربية العظيمة ، الصناعات اليدوية الشرقية القديمة ملاشاة تامة ، كما لاشى قطن « لنكشير » صناعة النسج اليدوية الا مثالاً يقاس عليه انهيار كل ركن من أركان الحياة الاقتصادية فى الشرق . على أنه قد قام بعض الكتاب الشرقيين وقالوا ان هذه الغلبة التى قد نالتها المصنوعات الغربية فى الاسواق الشرقية كانت الأسباب فيها سياسية أكثر منها اقتصادية ، ويستشهد رجالا النهضة الوطنية فى الهند على صدق كلامهم فى هذا الشأن بالمساعى التى تبذلها حكومة الهند فى سبيل توفير الوسائل وتعبيد الطرق لتفوق أقطان « لنكشير » المذكورة ، ويؤكدون القول ان هذا وليس سوى هذا من سبب لاضمحلال صناعة النسج فى بلادهم . على ان هذا القول ليس بصحيح . فان المساعى التى قامت بها السلطة البريطانية قد تكون عجلت فى حصول ما قد حصل من تفوق المصنوعات البريطانية على تلك الوطنية فى الهند ، ولكن هذا التفوق كان بطبيعة الحال والزمن مما لا بد منه بوجه من الوجوه . وخير دليل على انه لم يكن بد لتيار المصنوعات الغربية من التغلب انما هو الطريقة التى تلاشت بها صناعات النسج فى بعض الممالك الشرقية المستقلة مثل تركية وايران ، تلاشياً شبيهاً بذاك الذى حصل فى الهند امام تيار المزاحمة الغربية الجارف .

ونزيد برهاناً آخر على هذا ، وهو تلك الحقيقة الراهنة بأن الشعوب الشرقية اجالاً كان من عجيب أمرها انها طفقت تقبل كل الاقبال على شراء المنتجات والمصنوعات الغربية ، مؤثرة اياها على تلك الوطنية المصنوعة صنعاً يدوياً متقناً . وقد حمل هذا الأمر الذى لا مراء فيه كثيراً من أهل الغرب على الدهش والاستغراب ، اذ كادوا لا

يفقهون كيف ان الشرقيين يقبلون على شراء الرخيص الرديء من البضاعات الغربية المصنوعة صنعاً على طراز مخصوص بالاسواق الشرقية، يرونها أفضل من بضاعاتهم الوطنية من حيث ان هذه بالحق أجود وأجل . فالجواب على هذا ان الشرق بالجملة ليس بالخبير الفني الماهر، وانما هو رجل رقيق الحالة ادركته الخصاصة، فبات يجدّ جداً ليتوفر على عيالة أهله اذ لو توانى بعض التوانى فى السعى وطلب الرزق كادت تنشب به مخالب المسغبة . فهو بهذا السبب ليس يقصد الاسترخاص فقط بل لا مفرّ له من ذلك سواءٌ شاء أم أبى، لأن رخص الأسعار هو العامل القاهر الذى يسوقه الى ذلك . ولا شك ان جدة البضاعة هى أيضاً سبب من الأسباب التى تحمل الشرق على ايثا تلك البضاعة الجديدة . اضف الى هذا ان البضاعة الغربية من حيث الكمّ والمقدار لم تقف عند حد الحاجات والادوات الشرقية التى كان قد اعتاد الشرق استعمالها حقباً واجيالاً بل أخذت تزداد ضروباً وأنواعاً مما لم يعرفه الشرق من قبل . ثم ان ما هى عليه هذه الضروب والانواع الحديثة من التفنن المقترن بسهولة الاستعمال كان مما يدعو الشرق لشرائها والارتفاق بها واستنفادها، فصارت بطبيعة الحال تندمج فى مجموع حاجاته الاقتصادية اندماجاً لا غنى له عنه . وقد ذكرنا فى موضع تقدم كيف قد شاعت المطارز ومصابيح غاز الاستصباح فى الشرق بلداً بلداً، فقس على ذلك سائر الحاجات التى اخضعتها السنن الاقتصادية فشاعت مثل ذلك الشيوع . ان انتشار البضاعات والمصنوعات الغربية كان بلا ريب علة فى تطورات جمة فى كل صورة من صُور الحياة الاقتصادية الشرقية فنشأت بطبيعة هذه التطورات حاجات اقتصادية حديثة لم تكن لتُعرف من قبل بتةً، وتحسن مستوى الحياة تحسناً بيناً، وترقى مقياس النيقة والذوق ترقياً كبيراً . قال عالم اميركى اقام فى الشرق غالب حياته . « ان الاطلاع على المخترعات العصرية، وانواع الاغذية والآنية الحديثة مما لم يكن له وجود من قبل، قد دعا الى نشوء حاجات جديدة ما لبثت ان ساوقت المنازع النفسانية حتى رسخت واستقرت فى أفق الحياة، فالفلاح الصينى بات لا يرتضى بعد ان يسهر ليله على مصباح زيته المستخرج من اللوبياء والفول، بل يبغى غاز الاستصباح بديلا . والاسيوى على الجملة لا ينفك يتطلب المصابيح الحديثة الطراز تطلباً شديداً ورغبته لا تقل فى ذلك عن رغبته فى تطلب الساعات الحديثة أيضاً . وخذلك مثلاً، السورى الطموح الذى بات يستنكف السكنى بيبت سكنه آباؤه

واجداده من قبله مسقوفاً بالروافد والطين وأصبح لا يرتضيه بعد اليوم الا بسقف من الآجر الصقيل الوارد من فرنسة . وفى كل مكان ترى القوم يتطلبون الأدوات والمصنوعات الاجنبية . . . فالاطلاع يخلق الحاجة والشرق لم يزل يزداد اطلاعاً ومعرفة ، لذلك بات يتطلب اليوم مئات الحاجات التى ماكان اسلافه يعرفونها أو يسمعون بها »

وحيثما تقلبتفى أقطار المشرق رأيت هذا التطور والانقلاب على هذه الصفة . قال كاتب اقتصادى هندى ، وهو عدو شديد للحضارة الصناعية الغربية يندب كون ذوى الفنون والمهن باتت أعمالهم لاتجدى نفعاً فطفقوا ينقبلون الى القيام على الزراعة ، وان غاز الاستصباح الوارد من باكو أو نيويورك أمسى يهدد حياة باعة الزيت الوطنى (المستخرج من طائفة من أنواع الخضروات الوطنية) ، وان المصنوعات الحديدية الرخيصة الأثمان ، الصقيلة المزخرفة من الخارج ، الواردة من أوروبة ، قد أخذت تلاشى التجارة الوطنية فى الأوانى والأوعية النحاسية التى ظلت معروفة فى البلاد منذ الحقب القدمى . . . . زد على ذلك ان هناك تطوراً كبيراً فى أذواق المستهلكين على ترق متعال مستمر . فان أهل البلاد قد أقلعوا عن استعمال « الغير » (ضرب من الحلواء) الى السكر الأوروبى ، وعن الأقمشة المصنوعة من النسيج الوطنى الخشن الصفيق الى تلك الغربية الناعمة ، وان جميع الصناعات الأهلية أصبحت على شفا جرف البوار حتى قضى على كثير من أربابها ، وان القرى التى ظلت قروناً عديدةً على مطرد عاداتها ومنساق عرفها انبرت تقلع عن ذلك إقلاعاً سريعاً ، وكثر تعاملها مع كل سوق من أسواق العالم ، وان السفن والقطر الحديدية التى ربطت أنحاء البلاد بعضها ببعض قد أمست فى البلاد شبه شبكة أو عروق واشجة فتدانت القرى وصارت كل قرية على صلة من الأخرى . وصفوة القول ان المزاحمة الغربية التى ظهرت وانتشرت هذا الانتشار الهائل فى عهد ماأقله من عهد ، انما كانت علة تطورات عظيمة تغيرت بها صورة الحياة .

ولم يكن السبب فى هذه التطورات العظيمة هو تدفق الصناعات الغربية فحسب ، بل أيضاً تدفق رؤوس المال الغربية . ذلك لأن الفرص الطيبة لاستدرار الأموال كانت عديدة فأخذت رؤوس المال الغربية تفيض فيضاناً مطبقاً كل قطر من أقطار الشرق . ولما لم يكن للشرق من وليجة عن الاستعانة برؤوس الأموال الاوروبية لمباشرة جميع الأعمال

الاقتصادية والمشروعات النافعة بالمعنى المعروف اليوم ، فقد كثرت القطر الحديدية واستخرجت المعادن ، وأحييت الزراعة على الأساليب الحديثة ، وأنشئت مشروعات أخرى تنمى الثروة . ولا مراء ان أعظم ماأنشىء هو تأسيس معامل صناعية عديدة منتشرة من أفريقية الشمالية حتى الصين ، فازداد عمران « المدن الصناعية » ازدياداً حتى بات دوى أصوات الآلات ودخان المعامل الصاعد فى الفضاء يبشران بان الشرق قد شرع يحذو حذو الغرب فى الحياة الصناعية .

أما النتائج الاجتماعية العظيمة التى حصلت من ديب روح الصناعة فى الشرق دبيباً منتشراً فى كل عرقٍ من عروقه فستتكلم عليها فى الفصول التالية . لذلك نقصر ــ فى هذا الفصل ــ كلامنا على شأن التطور الاقتصادى ونتائجه . زد على ذلك ان هذا الكتاب انما جعلنا موضوعاته مقصورة على شؤون الشرقين الأدنى والأوسط بحيث لا نستطيع التوسع فيه حتى نتناول الكلام على الصين واليابان ، فينبغى للقارىء الكريم أن لاينسى كون تطورات الشرق الأقصى وانقلاباته غالبها سبل ودهاليز لما نحن آتون على ذكره فى هذا المقام .

ان المستحدثات والمنشآت الصناعية جميعها كانت فى بادىء الأمر أشبه بمغروسات غربية صرفة فى تربة شرقية ، قائمة على رؤوس المال الغربية ، تدبر أمورها وتدير شؤونها أدمغة أوروبية ، ذلك الواقع الذى لاريب فيه . وما كان الغربى ذو رأس المال ليغرر بنفسه ولا ليجازف بماله ويضعه فى أيدى ابن الشرق الفاقد معرفة أسرار الصناعة وخفاياها الدائب على الاسراف والتبذير ، الجانح أبداً الى المراعاة والمحاباة ، اللجوج فى مراد جنى الثمار قبل أوانها ، القليل الحنكة فى سبيل الاجادة والخبرة فى طرق المنافسة . بيد أنه على ممر الزمن أصبح للمشروعات الغربية التى ضربت من النجح والفلاح بسهم تأثير شديد فى نفوس الشرقيين مما حمل الطامحين منهم وذوى النظر البعيد فيهم على إبراز رؤوس مالهم والمنافسة بها فى عالم الصناعة ، وقادهم الأمر الى الاطلاع على وسائل النجاح واكتناه أسرار الفلاح وقد وصفنا فى أواخر الفصل الأول من هذا الكتاب ترقى الأعمال التجارية على الطراز الحديث فى العالم الاسلامى وفى الهند عند المسلمين وغير المسلمين . ففى الهند عناصر عديدة مثل المجوس والمرابين الهندويين الذين غدوا اليوم جميعاً غائصين فى لجة الأعمال المالية

والصناعية بالمعنى الحديث . والسبب فى ذلك أن هـذه العناصر الوطنية انما كانت من قبل قائمة على تعاطى الربا وضروب الفائدة . فاكتسبت بذلك على توالى الأيام خبرةً فى طبائع الأعمال أهلتها لولوج هـذه الأبواب الحديثة . ومن غالب هـذه الطوائف ظهرت الجماعات القائمـة اليوم بمشروعات الأعمال الوطنية فى الهند وأكبر هـذه الأعمـال وأعظمها معامل نسج الأقمشة فى كلكتا وبومبى ، ومعامل صنع الأوانى والأدوات الحديديةفى بنغال . وهذه الاعمال جميعها قائمـة على رؤوس مالٍ وطنية يديرها وطنيون خبراء . على أنه لاينكر ان هذه المشروعات كانت تلقى فى ابتداء سبيلها كثيراً من المشقة والعناء . ولكن ممـا لاريب فيه ألبتة ان مغروسات الصناعة الغربية فى تربة الشرق أخذت تتلاشى تلاشياً سيستمرحتى يختنق ظلها الأجنبى من على وجـه المشرق من حيث ان الصناعات الوطنية أخـذت تتأصل وتعرق فى كل تربة صالحة .

ثم نتج عن جميع المشروعات والأعمال الغربيـة والشرقيـة . ان نشأت مراكز صناعية خطيرة فى مختلف الأقطار الشرقية . قال كاتبفرنسى فى شأن مصر (سنة ١٩١٠) « باتت ضفتا النيل مرصعتين بخطوط مؤلفة من معامل السكر والقطن الباسقة المداخن فوق أخصاص الفلاحين وأكواخهم » . وقال السر ثيودور موريسون فى شأن الهند : « فى مدينة بومبىء قد بلغت الثورة الصناعية حـد النجاز والاكتمال . بومبىء مدينـة صناعية حديثـة ، ترى فيها حسنات الحضارة الصناعية الحديثـة وسيآتها ، فيها الأسواق والأزقة المزدحمة غير الجيدة الهواء كما هو الحال فى كل مدينة وحاضرة أوروبية . وفيها طبقات من أهل الثراء ذوى الملايين قدزينوا شوارع المدينة بما أنشأوه وشيدوه من بيوت البر والاحسان فالزائر القادم من الأقاليم ليدهش حقاً من جميع مايراه فى بومبىء من مظاهر الأبهة المنطوية على الاسراف والافراط ، و يفتتن افتتاناً بترقى المقاييس الذوقيـة . اما القرى التى نشأ فيها وترعرع ، والحقول الرحبة الواسعة الأرجاء التى تظلل سماءها وشرب ماءها ، فانها فى نظره اليوم هى الهند الآخذة فى التطور والانقلاب . بومبىء بشير المستقبل الزاهر والغد الباهر »

على أن قرب متناول الثروة الطبيعية وكثرة العمال ونزارة أجورهم جميع ذلك قد حمل أرباب النظر من الشرقيين على التوسع فى المطامح الكبرى والآمال البعيـدة ، حتى قامت طائفة منهم تأمل أن تضم رؤوس المال الغربيـة الى الأيدى الشرقية العاملة ، كما

أوضح هـذا أحد أكابر الاقتصاديين الهنود بقوله : « الأموال الانـكليزية والأيدى العاملة الهندية هما أرخص مافى العالم ». وقامت طائفة أخرى أشد مطمحاً وأبعد غرضاً وغاية تفكر فى تحويل المشرق من أقصاه الى أقصاه ، الى معمل صناعى ، فتنبذ المصنوعات الغربية نبذاً ويحرم الغرب حرماناً من هذه النعم التى يجتنيها فى الأقطار الشرقية . وقد بين هذا المطمح كاتب هندوى فى مقال نشره فى احدى المجلات الهندية قال فيه : « ان الشرق ليهدّد الغرب ويناوئه مناوءة مرة غـير هياب ولا وجل . لأن الشرقيين قد انبروا الى الميدان الصناعى ينازلون ويكافحون ، وقد قدر لآسية الجبارة منذ الآن أن تقوم بحرب تجارية عوان ، لها مثار وليس لها ختام ، تطبق أقطار المشرق قطراً قطراً . فهذه الحالة الشاقة ان تدوم مادام الغربى يركب من الهول ماركب لـكيما يظل قابضاً على أزمة التجارة فى الأسواق الشرقية ، اذ أن الشرق غدا لاقبل له باحتمال ذلك فانبرى لنزال الغربى وصدامه ، وهو لاينفك يصارعه حتى يجند له فى معركة كان الشرق من قبل يسقط فيها للأجنبى غنيمة باردةً . . . زد على ذلك أن الشرق فى زحامه التجارة الغربية اليوم قدأيقن كل الايقان أن الوسائل التى كانت فى يده فيامضى كانت عقيمة لاتجدى أقل نفع ، فأقلع عن استعمال تلك الآلات والأساليب القـديمة وأقام مقامها الآلات الغربية الحديثة الطراز حـتى يتسنى له بذلك قهر عدوه وطعن منازله فى كبده ، لذلك اشتـدت والحق يقال عزيمته وعاد لايرتضى اليوم لنفسه ما كان يرتضيه بالأمس ، وطفق يدرس العلوم والفنون التى هى للغرب ذريعة فلاحه المادى ونجحه الـكبير ، ومانفك يقرن العلم بالعمل ويتمشى على نتائج استقصائه واكتناهه تمشيا صحيحا مطرداً ، ويفرغ الأساليب الغربيـة فى قالب شرقى على مايلائم مطلبه ويوافق شأنه ، ويتفنن فى ترقية هذه الأساليب ترقيةً حسنةً . »

ثم هب كثير من أهل الاستقصاء الغربيين يؤكدون هذه اليقظة الصناعية الـكبيرة فى الشرق . وفى الحين الذى كان فيه الـكاتب الآنف الذكر يدبج مقاله هـذا كان كاتب اقتصادى أميركى مشهور يقوم برحلة استقصاء فى ربوع الشرق ومما كـتبه فى الحالة الاقتصادية قوله :« ان السبب الجوهرى فى فاقة آسية وخصاصتها انما هو ناشىء عن أمرين لاثالث لهما : عجز الحـكومات الشرقية عن تعليم شعوبها ، وعجز هـذه الشعوب نفسها عن توسيع طاقتها لزيادة الانتاج باستعمال الآلات والأدوات الحديثـة . فالجهل اذن وقلة

الآلات هما وحدهما علة افتقار آسية وانحطاطها ، كما أن العلم والآلات الحديثة هما وحدهما علة فلاح أمريكا وارتقائها أوج السعادة والعمران ». ثم يسوق الكاتب كلامه مبيناً انه يجب علينا أن نرتقب نهضة آسية ارتقاباً شديداً ، فان آسية مذ باتت ترى هذه الحقائق الواقعة بعينها انطلقت تجدّ جداً هائلاً لترقية شؤونها وأحوالها ، لذلك « من الواجب علينا أن نستعد أكثر فأكثر لمباراة هذه الشعوب المستيقظة ، الشديدة البأس والأيد بسبب انها تغالب الخصاصة وانها معتادة تذليل الصعاب ، وهى التى قد شمرت عن السواعد لتتذرع بجميع ذرائعنا ، وأعدت العدة للاطلاع على جميع أسرار قوتنا وفلاحنا ، متاهبة للاستفادة من العراك الذى سيكون فى سبيل التفوق الصناعى والاصلاح الجنسى ». وقال مستقصٍ أميركى آخر فى كلامه على الشؤون الاقتصادية فى آسية (سنة ١٩١٤) : « ان جميع آسية من شرقها الى غربها قد امتدت فيها عروق الصناعة الحديثة وأسباب الفلاح الصناعى الحديث ». وقال السر ثيودور موريسون فى شأن مستقبل الهند الاقتصادى : « ان الانقلاب الصناعى الهائل فى الهند قد أمسى على قاب قوسين أو أدنى ، فقد اضمحلت العقبات التى كانت الى اليوم حائلا دون نهج المناهج الحديثة فى الصناعة العصرية ، وانتشرت وسائل النقل انتشاراً عاما فى طول البلاد وعرضها ، وبات استقراض رؤوس المال لشراء الآلات وتشييد المعامل والمصانع أمراً ميسوراً ، اذ يمكن أرباب المشروعات أن يجلبوا الأدوات والمواعين ، واستئجار المهندسين ورجال الادارة والتدبير من أهل الغرب ليقوموا بتخريج ربابنة بحر الصناعة لهند المستقبل . وباتت اللغة الانكليزية وسيلة سهلة للتعامل التجارى فى الأقاليم الهندية بعضها مع بعض ، وبين الهند وغالب العالم الغربى . ومادامت الهند آمنة من أن تفاجأ بفتح أجنبى أو ثورة داخلية فلها من الزمن نصير على القيام بالمشروعات الكبرى على اختلافها . فجميع الأحوال المحيطه ملائمة كل الملائمة لثورة صناعية عظيمة اذا قيض لها الاكتمال وبلوغ الحد زادت فى ثروة الهند كل سنة زيادة فاحشة لم يحلم بمثلها من قبل ».

على أن العامل الكبير الذى ينبغى الاستفادة منه حق الاستفادة لاكمال عدة الشرق فى المواضع التى لم تزل تنقصها الخبرة والحذاقة فى عالم الصناعة ، انما هو كثرة العمال ونزارة اجورهم ، الأمر الذى يبدو لأهل الاستقصاء من الغربيين بالغاً منتهى الغرابة . فلنعتبر

هذا فى شأن مصر والهند على سبيل المثال الذى يصح أن تقاس عليه فى سائر أقطار الشرقين الأدنى والاوسط . كتب الاقتصادى الانكليزى ﻫ . ن برايلسفورد سنة ١٩٠٨ فى أمر مصر يقول : « ولم يكن اذ ذاك قانون للمعامل والعمال فى مصر ، من حيث ان فى البلاد معامل لحلج القطن تستخدم العملة مياومة ليقوموا باعداد القطن للشحن والاصدار ، ويستغرق هذا العمل أربعة الى خمسة أشهر كل سنة . وكانت أجور هؤلاء العمال نزرة تتراوح بين ٧½ و ١٠ بنسات للبالغ و ٦ بنسات للحدث ، وكان البالغون والأحداث يشتغلون فى بعض الاحايين اثنتى عشرة ساعة وفى الغالب خمس عشرة ساعة ، وعند اختلاف المعتاد ست عشرة الى ثمان عشرة ساعة فى اليوم . وفى بعض فصول السنة كان العمال حتى الاحداث يشتغلون اثنتى عشرة ساعة فى المساء فضلاً عن النهار » . والحالة فى الهند شبيهة بهذه الحالة فى مصر . فان أول تحقيق فى شؤون المعامل الصناعية فى الهند قد قامت به لجنة من لجان العمال الصناعية سنة ١٩٠٧ واليك بعض الحقائق التى اشتمل عليها تقرير هذه اللجنة : ان ساعات العمل فى معامل القطن فى بومبىٔ هى من ثلاث عشرة ساعة الى أربع عشرة ساعة على اطراد وانتظام . وفى معامل القنب فى كلكتا يشتغل بعض العمال غالبا خمس عشرة ساعة وفى معامل القطن يجب على العمال أن يشتغلوا سبع عشرة ساعة الى ثمان عشرة ساعة فى اليوم . وفى معامل الارز والمطاحن يشتغل العمال عشرين الى اثنتين وعشرين ساعة ، وفى المطابع يشتغل العمال عند اختلاف المعتاد اثنتين وعشرين ساعة سبعة أيام متوالية . أما الاجور فكانت للعامل البالغ الذى يشتغل ثلاث عشرة ساعة الى خمس عشرة ساعة فى اليوم ١٥ — ٢٠ روبية فى الشهر . وكان العمال الأحداث كثيرى العدد لم تجاوز اسنانهم السادسة والسابعة ويشتغلون فى أحيان عديدة ثمان ساعات فى اليوم . وكانت نتيجة هذ التقرير ان حكومة الهند سنت قانوناً حسنت به حالة العمال بعض التحسين ولا سيما حالة النساء والأحداث . بيد انه فى سنة ١٩١٤ كتب الاقتصادى الفرنسى «البرت ماتان» بعد استقصاء مدقق قام به يقول : ان حالة عمال المعامل لم تتحسن تحسناً مذكوراً اذ فقد القانون الذى وضعته الحكومة مفعوله وما روعى مراعاة صحيحة ، فعاد عدد ساعات العمل فزاد والاجور فنزرت ، وبات العمال الرجال فى بومبىٔ لا يتناولون أكثر من ١٠ الى ٢٠ سنتاً فى اليوم ولم يجاوز الحد

الاعلى لاجورهم ٣٠ سنتاً والحد الاعلى لاجور النساء والاحداث لم يجاوز ١٠ سنتات فى اليوم .

وقد يخيل الى المفكر المتدبر لأول وهلة هذا الحد الذى تبلغه نزارة الاجور ، والمتأمل هذا العدد الكبير لساعات العمل ، أن الشرق لو يسر له رؤوس المال الكافية والآلات والأدوات الحديثة لاستطاع ليس منافسة المصنوعات والمنتجات الغربية فى الاسواق الشرقية منافسة الاغراق فحسب ، بل ربما استطاع غزو الاسواق الغربية فى مواطنها . وقد حمل هذا الأمر كثيراً من كتاب الغرب على الخشية والحذر ، اذ منذ ثلاثة ارباع القرن (سنة ١٨٥٨) تنبأ غوبينو بان آسية ستفتح أوروبة فتحاً اقتصادياً هائلاً . ثم قام من بعده كثير من الاقتصاديين مثل برايلسفورد وغيره ينذرون العالم الغربى بسوء العقبى من جراء تسرب رؤوس المال الغربية الى الاقطار الشرقية حيث جو الاستثمار والعمل جذاب مستهو للنفوس ، على ان هذا الأمر من حيث علاقته بالشرق الأدنى والاوسط لم يتحقق عملياً بعد ولا يوجد ما يدل على ان خبره على قدر خَبَره . فالصين قد يكون مكتوباً لها فى اللوح المسطور ان تقوم بمفاجأة الغرب مفاجأة كريهة يقام لها حقاً ويقعد . وأما العالم الاسلامى والهند فلم تبلغ الصناعة الحديثة فيهما من الترقى مبلغاً رفيع المستوى ظهر فيه الحذق الصحيح والحزامة والمثابرة الى حد يستطاع به اشلال صناعة أوروبة وأمريكة . ففى الهند مثلاً ، البلاد الزاخرة بالسكان المحاويج ، لم تبرح المعامل ينقصها العمال الخبراء الحذّق ممن يتعشقون الصنعة ويبحثون عن اسرار الآلة . قال البرت مانان : « قد يظن بعض القوم متى ما رأوا ساعات العمل عديدة طويلةً والاجور نزرةً ان الصناعة الهندية ستنقلب عما قريب منافسةً شديدةً ومنازعةً قاهرة للصناعة الغربية ، فالامر فى الواقع بخلاف ما يظنون ، والسبب الحائل دون صدق وهمهم هذا انما هو رداءة النوع . فان العمال الذين يتناولون نزر الاجور ويعيشون العيش الشظف ويأكلون الطعام القشف يغدون بسبب ذلك ضعاف المنة قلال الهمة ، فثلاثة منهم يكادون يعجزون عن القيام بعمل يقوم به أوروبى واحد . زد على هذا ان العمال الهنود لا تنقصهم قوة العزم والحزم فحسب بل يعوزهم الحذق ، وشدة الاعتناء ، وحسن القيام والتوفر على العمل ، وتعشق الصنعة . . . وان الهندى ليؤثر القيام بأى عمل آخر على ان يكون عاملا داخل جدران المعمل . فلهذا ترى الذين يؤمونه

المعامل هم من حثالة الطبقة العاملة ، ولا يدخلون فى حظيرة المعمل الا بعد ان تسد فى وجوههم سُبل الرزق وتغلق عليهم أبوابه ولا تبق الا تلك السبيل فيضطرون اذ ذاك الى اللجوء الى المعمل ، ومتى ما فتح له باب الرزق فى مطلب أقرب متناولا وأدرّ خيراً ونفعاً ، برح المعمل الى حيث ابتغى . لذلك لا يتيسر للمعامل الاعتماد على قدر من العمال منتظم ترق به الحال وتتوفق . وقد أخذ بعض الكتاب يتساءلون أبزيادة الأجور يستطاع بأترى تحسين الحال ؟ فيجيب كثير من المستخدمين . كلا . فان العمال متى ما رأوا حالهم قد تحسنت قليلا اسرعوا الى مزايلة المعامل اما الى أجل قصير حتى ينفد موفر دراهمهم وتنضب جيوبهم فيعودون الى المعمل ويكررون شأنهم الأول ، واما الى أجل لا رجوع بعده اذا وفقوا الى عمل أفضل وأفيد . وقد كتب اقتصادى هندى يؤيد هذه الحقيقة فقال : « ان من أكبر الآفات والنقائص التى تعتور انشاء المعامل الصناعية الكبرى فى الهند هو قلة الايدى العاملة وكفايتها للقيام بالعمل فالعمل لقاء نزر الاجور اذا كان خالياً من آثار الثبات والحذق والتفنن والمهارة هو مخسر لا مربح بدون ريب . فالعامل الهندى على الغالب جاهل لم يتناوله التهذيب ولا الثقافة ، فليس هو مكتنهاً لأسرار العمل ولا على صلة قريبة بمستخدمه . وعمال المدن دأبهم التنقل من عمل الى آخر ، وهم على ميلهم الى تعاطى المهن والحرَف والفنون قليلو الثبات والمثابرة على العمل » (من مقال ليوسف على سنة ١٩٠٧)

فلهذا السبب ترى الصناعية فى الهند على نموها هذا النمو الفائق لم تكن عند جميع الآمال التى أملها أرباب النظر لها . فقد ورد فى « الكتاب السنوى » الرسمى عبارة صريحة : « ان الهند بالاختصار انما هى بلاد غنية بالمواد الخام كثيرة الاستعداد للحياة الصناعية ولكن تنقصها المثابرة وحسن القيام على العمل . » ويرى بعض أهل الاستقصاء أن مستقبل الهند الصناعى لن يكون ذلك المستقبل الباهر الزاهر . فقد كتب فى المدة الأخيرة عالم انكليزى خبير فى شؤون الهند يقول (سنة ١٩٢٠) : « قد كان ممكناً منذ عدة سنوات أن الهند تستطيع بتشربها العلوم الغربية واقتباسها وسائل المهارة الفنية فى أجل قريب أن تمارس أساليب الصناعة الحديثة على مايلائم شؤونها وأحوالها فترتقى ذروة عالية من التقدم الاقتصادى . ولم يبرح بعضهم الى الآن ينذر العالم الغربى بالرؤيا الشرقية وهى نهضة الهند والصين نهضة جليلة قائمة على

أفضل التنظيم وأجود التدبير ، مستعينة بالمصادر الكبرى للثروة الطبيعية وباجور العمال النزرة ، بحيث اذا ماتم هذا استطاعت آسية منازعة الغرب وخلعت عليه أسمال الفقر بعد أن جر مطارف الاثراء الفاحش . ان كاتب هذه السطور لايحسب هذه الرؤيا سوى حديث خرافة . فالخطر الأسيوى انما يراه من نوع آخر ليست هذه صفته ، فهو يرى اتساعاً مزداداً فى شقة البون من حيث لايرى ارتقاء مفضياً الى التساوى فى أفق واحد ، و يعتقد أنه كلما خطت الهند خطوة فى سبيل الترقى والكفاية فى عالم الآلة ، خطا الغرب خطوتين ومتى ماشرعت الهند تستعمل الدراجات والسيارات (دون أن تصنعهما) يكون الغرب قد أنجز اصطناع الطيارة والمنطاد وأبلغ فن الطيران حد الكمال وقس على هذا . ان الحرب العامة قد عجلت تعجيلا كبيراً فى ازدياد الاختراعات الجهازية ، كما نعلم هذا حق العلم ، فاجتاز الغرب بذلك مرحلة طويلة ، بينما الهند لم تبرح مكانها منذ الحرب دون أن تعرج فى سلم هذا الارتقاء حتى كأنها اليوم ، بالقياس الى أوروبة فى الأجيال الوسطى ، بلاد لم تنشب صناعاتها وفنونها يدوية محضة . زد على هذا أن الهند لم تستعمل بعد أبسط القوات الآلية وأحقرها فى أعمالها الزراعية . نعم ان عصر العزلة قد انقضى على كل حال ، ولكن شقة المستوى بين الشرق والغرب لم تزل بعيدة ، فما هو مصير أهل الهند الذين يبلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة مليون ياترى ؟ اننا فى الشرق بازاء خطر خطير الا وهو استفحال الآفات الصناعية التجارية مما يقف عنده الباحث مدهوشاً ، ان أهل الهند باتوا حقاً على طريق التهلكة بسبب هذا الخطر الكبير ، والشرق بالجملة يصير فى هذا العصر مزدحماً مختلطاً يستغرق فيه الصحيح والفاسد (كتاب « الهندفى سنة ١٩١٧و١٩١٨ »)

وسواء أأصاب هذا الكاتب المتشائم أم أخطأ ، فما لاريب فيه أن ليس الهند وحدها بل الشرق كله هو فى دور التطور الهائل والانقلاب العظيم وان هذا الدور حقاً لعصيب ضنك وقد استوفينا الكلام الى الآن على شؤون العمال الصناعيين من الطبقات المدفعة فى المدن والحواضر ، غير أن الطبقات الاجتماعية الأخرى قد تأثرت بعامل هذا التطور عينه ، وكان فيها من الانقلاب والتبدل مثلما كان فى غيرها ، ذلك بسنة المجتمع التى لا مدفع لانتشار عواملها . فالتجار وأهل الحرف القديمة والمهن العتيقة الطراز راحوا لاحول لهم ولا قوة عند ظهور الأساليب المحدثة فى التجارة والصناعة ، ولكن غدا سواد الفلاحين أحسن

حالا وأفضل شأناً . ثم لم يكن هذا التطور قاصراً على اكتناه اسرار العمل والوقوف على طرقه الحديثة المؤدية الى الانقان والتجويد ، بل هو فى الواقع أكثر من ذلك : هو انقلاب محض من الأصل فى وجهة النظر واعتبار صور الحياة وفهم ماهيتها وادراك حقيقة شؤونها وأسرارها فى كل أفق من آفاقها . كان من عادة التاجر فيما مضى أن يجلس محتبياً فى حانوته بين طائفة قليلة من البضاعة المبعثرة حواليه ، متكاسلاً خاملاً ، يفنى الوقت فى مساومة عميله مساومة فارغة ، سيان عنده راجت السوق أم بارت . وكان المتفنن الصنّاع اليد يشتغل منفرداً عدداً من الساعات على قدر ماتمده طاقته المتوانية ثم يترك عمله ويذهب الى حيث شاء . وكان الفلاح ينهض مع الفجر لمباشرة عمله فاذا ماجاءت الظهيرة استنام هو وحيواناته الى قيلولة طويلة الى أن يهب نسيم العصر فيستيقظ ويتمطى ثم يستأنف شغله متراخيا بطيئاً .

لذلك ليس من الغريب فى شىء أن يبدو لأهل الشرق فى بادىء الأمر جميع ماهو معروف فى حياتنا الاقتصادية من النظام والسرعة والرقابة والانكماش فى العمل أموراً مستكرهة ممقوتة ، لاقبل لهم باحتمالها كلها معاً والمثابرة عليها ، لأن أمر اكتساب هذه الصفات الجوهرية فى النفس ورعايتها والتمشى عليها فى مجال العمل لايتم الا على بطء وتؤدة ، يرافق ذلك سائق الضرورة والقهر الناجم عن طبيعة الانقلاب . زد على ذلك ان المشارقة ليتألمون حقاً شديد التألم من مزاحمة الأجانب لهم ، وهؤلاء لم يبرحوا منتشرين بين ظهرانيهم بعدّة أفضل وذخيرة أوفر وحنكة أشد فى الميدان الاقتصادى الهائل . وقد وصف السر وليم رمزى وصفاً أجاد فيه كل الاجادة ، كيف طفق الترك فى آسية الصغرى على اختلاف طبقاتهم من السادة والكبراء حتى الفلاحين ومن دونهم ، يتدلون وينحطون طيلة الخمسين سنة الأخيرة إزاء الزحام الاقتصادى الذى أخذوا يعانونه ليس من الاوروبيين خاصة ، بل من قبل العناصر الوطنية النصرانية كالأرمن واليونان الذين قد تشربوا قدراً من حديث الأصول والطرق والأساليب فى فن التجارة الغربية . ففى الأيام القديمة ، قال السر وليم رمزى ، لم يكن فى آسية الصغرى « شىء من التقدم الاقتصادى والترقى التجارى بل كانت شؤون الأعمال على اختلاف ضروبها منحطةً جارية اطراداً مجراها القديم المعروف منذ الحقب المتطاولة . على انه لمن المعلوم أن حياة اقتصادية على هذه الصفة لم

تكن لتقف فى وجه النظام التجارى الغربى البالغ من الترقى مبلغاً عظيماً ، أو تعارض معارضة فعلية تيار الحضارة الغربية الحديثة ، ولكن تلك الحياة وهى على نمطها القديم ما كانت بشاقّة على أهل البلاد ولا بالثقيلة كما انه لم يكن أمر الاثراء وادخار المال مستطاعاً فى عهد مثل ذلك العهد ، ولا كانت الفرص الطيبة سانحة لمثل هذا وكان من المستحيل على الفرد أن يستميل اليه عدداً كبيراً من الناس ويستخدمهم فى عمله ثم يأخذ بالمثابرة على هذا العمل فيوسع نطاقه على التوالى حتى يزداد هو بذلك نجحاً وفلاحاً ، فيجنى من وراء ذلك ثماراً شهية . وانما كان هناك عدد من أرباب الأعمال الفردية يشتغلون فى حيز ضيق لايجدى صاحبه كبير نفع » (١٩١٨) . ثم يسوق السر ولیم رمزى كلامه واصفاً كيف قد تمزق ذلك النظام الاقتصادى القديم المختل كل ممزق . فتبدلت الحال غير الحال وتغير الشأن غير الشأن ، وأخذت تظهر الأساليب التجارية الحديثة المنظمة على الطرز الحديثة ، فشرع العنصر التركى يرقى مستواه ويتقدم فى مضمار التزاحم متفوقاً على من سواه تفوقاً بيناً .

ولأجل الوقوف التام على كيفية ماعانته الطبقات المشتغلة بالزراعة ، من فلاحين ومزارعين وملاكين وأصحاب أرضين من مر الشدائد من جراء هذا التطور الاقتصادى ، عليك بالاطلاع على تاريخ الهند للعهد الحديث المشتمل على أحسن بيان فى هذا الباب . قال الكاتب الفرنسى شلى ، وهو من العلماء الثقات فى الشؤون الهندية : « لم تبرح أقسام كبيرة من أهل الطبقات المشتغلة بالزراعة طوال الخمسة العقود الأخيرة تسلب منها أراضيها أو تضطر هى قهراً الى أن تزارع فى أرض غيرها على خصاصة وضيق ذات يد ثم بانحطاط الطبقات الزراعية هذا الانحطاط نشأت طبقات جديدة أخذت تستولى على الأرضين . . . ان الفلاحين المزارعين والملاك لسواء حقاً فى المصيبة والشقاء ، لأنهم قصروا عن مجاراة التقدم الزراعى على ممر الزمن بل قعدوا عن ذلك وانقلبوا مكاسيل مضاييع للمال ، هذا من حيث ان الفلاح المزارع ، الغريق فى بحر من التقاليد الحية منذ أقدم الأجيال ، هو جاهل لايحسن التدبير ، ولا يعرف الثبات ولا ينظر فى العواقب . واعتبر من وجهة أخرى ان الحال الاقتصادية فى الهند البريطانية كانت فى الواقع علة فى نشوء طبقة من المتمولين الذين طفقوا يبتغون مستثمراً لأموالهم ، فنشأ العراك يشتد بينهم و بين أصحاب الأرضين القدماء ، وكان

هـذا متوقعاً ونتيجته لابد منها . فجعلت الثروة تتسرب أكثر فأكثر الى أهل الطبقة الذين هم أذكى وأنبه ، والأرضين تستولى عليها أيدى سادة جدد ، فكان ذلك على الجملة أشبه بسهم أصاب أهل الطبقات الزراعية فى أشرف مقاتلهم ، فغدا جانب كبيرمنهم حرائين وعمالاً مأجورين ، من بعد ما كانوا سادة الأرضين وأساطين المزارعين (١٩١٠) .

وقد وصف الاقتصادى الهندى « موكرجى » كيف تشتت حال القرية الهندية وتفرق ساكنها فى البلاد فقال : « آراء وأفكار اقتصادية جديدة شرعت تستولى على عقول القرويين وتبلغ من نفوسهم مبلغا كبيراً ، فطفقوا يتركون صناعاتهم وأعمالهم ويضربون فى البلاد ، اما بسبب المزاحمة الأجنبية القاتلة ، واما بغير هـذا السبب فيذرون أشغالهم من تلقاء أنفسهم ويطوفون الجهات . فالبراهمة يهبطون المدن ليطلبوا أسباب معايشهم من وراء الأعمال فى الحكومة أو الاحتراف الحرّ ، وأهل الطبقات الوسطى يبرحون قراهم ويتشتتون فى طول البلاد وعرضها لتحصيل القوت وطروق باب الرزق على ما يكفى سد الخلة ، والفلاحون يزايلون أراضيهم التى ورثوها من آبائهم وأجدادهم فتتألف منهم ، وهم عطل عن العمل ، طبقة من العمال الزراعيين الذين لاأرض لهم . فأصبحت القرى وقد امتصت دماؤها وجفت عروقها خربةً منحطةً الى العدم . على ان هذه الهجرة من القرى الى المدن ليست أهميتها مقصورة على كونها هى السبب فى حصول ثورة اجتماعية فى العادات والأفكار ، بل ان نتائج هذه الهجرة الاقتصادية لأخطر وأجل مما يتصور المتصور لأول وهلة ، فقد جرّت أهل الطبقات الوسطى من أهل بلادنا الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبداناً أقناناً ، وقتلت استقلال الفلاح المزارع قتلا ذريعاً حتى سلبته جميع حوله وقوته ، وفوق جميع هـذا فانها قد عرقلت الأسباب والوسائل التى على يدها تجتنى أقواتنا وهددتها تهديداً عظيماً . وعلى الجملة فالهجرة هى مشحونة بأشد المخاطر القاضية على مهننا وحرفنا ولا سيما الزراعة ـ وهى صناعتنا الوطنية » .

على ان هناك بعض الدلائل الحسنة ، فى عالم الزراعة الهندية على الأفق ، تدل على ان دور الانتقال والتطور أخذت حاله تستقر ، ومفعوله يصطبغ بالصبغة الوطنية ، وان الحالة على الجملة متحسنة عن قريب ومتجهة الى الخير والصلاح . فقد تعاضدت الحكومة البريطانية والأمراء الوطنيون على نشر الأساليب والطرق الفنية الحديثة للزراعة ، ومنذ

شرعوا بذلك أخذ يظهر ان المزارع الهندى هو أكثر استعداداً من سواه من أهل الحرف والفنون والصناعات ، للأخذ والاقتباس . ثم بدأت طبقة جديدة من المزارعين تنشأ على هذا الطراز الحديث وتنمو ، وهى أكثر حذقاً وأشد قدرة على مماشاة الزمن والاستفادة الصحيحة من المستحدثات الفنية . وخير مثال على هذا قيام الجمعيات الزراعية التعاونية التى شرعت الحكومة البريطانية فى انشائها وترقيتها منذ سنة ١٩٠٤ ، وقد أفلحت هذه الجمعيات كبيراً و بلغ عددها فى الهند سنة ١٩١٥ نحو ١٧٠٠٠ جمعية مجموع أعداد أعضائها ٨٢٥٠٠٠ عضو و بلغ ماالديها من مجموع رؤوس المال ٣٠٠٠٠٠٠٠ ريال . ومن دأب هذه الجمعيات أن تقرض أرباب الأعمال الزراعية قروضاً مالية يستعينون بها على شراء الحيوانات والاعلاف والحبوب والأسمدة وحفر الآبار وابتياع المواعين والأدوات الزراعية العربية ، وأن تمدّ المحتاجين وأهل العوز للقيام بأسباب معايشهم عند الأزمة . ومن أعمال هذه الجمعيات التى فى المقاطعات والرساتيق مكافحتها وباء الربا حق المكافحة ، فهبط من جراء ذلك معدل الفائدة الذى كان ٢٠ — ٧٥ بالمئة الى ٩ — ١٨ بالمئة . وانه وان كان لم يزل فى البلاد مقدار من الضيق فالدلائل الظاهرة تدل على مستقبل حسن وافر النعمة والخير .

بيد أن هذا المستقبل الزراعى الباهر لم يزل بعيداً وأبعد منه المستقبل الصناعى ، بينما الشرق لهذا العهد يتطور تطوراً ملؤه الألم والشدة ، والأمر الغريب فى كل هذا ان كثيرين من الشرقيين يقولون ان السبب فى شقائهم وبلائهم ليس منشؤه التطور الاقتصادى الحادث بل الحكم السياسى الآتى من قبل الحكومات الأوروبية مقترناً بالاستثمار الاقتصادى القائم على رؤوس المال الغربية . أما النتيجة التى تنتج عن جميع هذا فاضطراب وقلق وهيجان ، وقيام وقعود ، وارغاء وازباد جميع ذلك للتحرر من ربقة الحكم الغربى اقتصاديا وسياسياً . وقد سبق لنا فبينا فى أواخر الفصل الثانى من هذا الكتاب شأن الحركة المتمشية اليوم فى الأمم والشعوب الاسلامية ، ونعنى بها حركة الجامعة الاسلامية الاقتصادية . إذ قد نشأت حركة شبيهة بهذه فى الهندويين فى الهند وعرفت بالحركة « السوادشية »[1] ويقول اتباع هذه الحركة والقائمون بها ان العلل

(١) « سوادشى » كلمة بنغالية معناها الاصلى المنتجات الوطنية ومدلولها الشائع اليوم مقاطعة البضاعات الأجنبية . وأول ما ظهرت حركة المقاطعة فى أقاليم البنغال . « المعرب »

الاقتصادية فى الهند سببها استنزاف بريطانية العظمى وغيرها من الحكومات الغربية لثروة الهند استنزافاً لا يبقى ولا يذر . وغايتهم التحريض على مقاطعة البضاعات البريطانية مقاطعة ترغم بريطانية بالتالى على أن تمنح الهند حكومة ذاتيـة ، ومتى ماتم ذلك وضعت هـذه الحكومة الهندية الوطنية الضرائب الحامية للاقتصاديات الهنـدية ، ولاشت رؤوس المال البريطانيـة ، وتبدلت بالموظفين البريطانيين الذين يتناولون فاحش المرتبات موظفين وطنيين ، فاستطاعت حينئذ حفظ ثروة الهند للهند

ولو تدبرنا الحجج والبراهين التى يدلى بها أرباب الحركة السوادشية لرأيناها ليست بالصحيحة كل الصحة بل الأولى أن تبنى عليها أسباب علل الهند وأمراضها الاقتصادية ، مما هو فى الواقع ناشىء عن طبائع السير الاقتصادى العام الخاضع لعوامل الدور وسنة الانقلاب أكثر مما هو ناشىء عن النقائص والاضرار التى أتى بها الحكم البريطانى . أجـل ، ان الحكم البريطانى ورأس المال البريطانى ليكلفان نفقة باهظة ، غير أن ماهما عليـه من الجدارة فى حفظ الأمن والنظام وفى الترقية يعد موازياً لتلك النفقـة التى يقتضيها الحكم الوطنى لا جدال فى هذا . قال السرثيودور موريسون : « ان ما تناله الهند من المنافع والفوائد على يد الأسطول البريطانى ورأس المال البريطانى يعدل ما يتناوله الموظفون البريطانيون من مرتبات العجز والمكافئات المالية . . . . ان الهند تتناول فوائد مادية من علاقتها وارتباطها بالأمبراطورية البريطانية . وما هى تلك الفوائد الاقتصادية التى تنالها الهند موازية لما تتكبده من النفقة الماليـة التى تؤديها الى الأجانب مرتبات ومكافئات ؟ فالجواب على هذا هو أن الهند تناول عدداً وأجهزة للصناعة الحديثة ، وادارة منعطفة على الترقية الاقتصادية بثمن ونفقة أقل مما لو كانت الهند هى المباشرة لذلك بنفسها لنفسها » . زد على هذا أن المقارنة بين شأن الهند واليابان فى نفقة الحماية والدفاع ومعدل فوائد رؤوس المال العامة والخاصة كافل لنا جلاء الحقيقة فى حال الهند جلاء مانعاً للشك .

وهناك من الهنود من يعترفون بفساد الحجج والبراهين السوادشية . فقد قال أحد المفندين (سنة ١٩٠٨) : « ان ما يدعونه استنزافا اقتصـاديا قول فارغ من المعنى ، لأن منشأ أكثر الشقاء فى هـذه السنوات الأخيرة هو غلاء المعيشة واستحكام حلقات الضيق وذلك لعمرى طامة مطبقة العالم من المشرق الى المغرب » . ثم يأتى الـكاتب على وصف

الحالة الاقتصادية فى اليابان للبرهنة على هذه الحقيقة . وقال « رمزى مكدونلد » صديق الهنود الحميم ، وزعيم العمال فى بريطانية (سنة ١٩٢٠) : « هناك أمر جلى لامراء فيه ، وهو أن تعرفة الضرائب لن يكون من شأنها ايجاد الوسيلة لتجديد الصناعات اليدوية القديمة الأصل فى الهند ، ولا المساعدة على احياء الصناعات القروية ، إذ أن المعامل والادوات الصناعية الحديثة بوسعها أن تتغلب على جميع الصناعات القديمة ، بحيث يحدث فى الهند مثلما حدث فى لنكشير و برمنهام من قبل » .

وأبين مما تقدم هو الانتقاد الذى نشره الكاتب الهندوى « براماثاناث بوز » إذ قال ان الاستنزاف يسوق الهند الى درك الخراب سوقا ، ولكن هل يجدى الهند مع هذا برنامج « الحكم الوطنى » (هومرول) الذى يبتغيه سواد السوادشيين جداء كبيراً و يبرئها من عللها وأسقامها الاقتصادية ؟ ليعلم من يريد العلم انه متى ماتم أمر الحكم الوطنى واستتب حاله فعل هؤلاء القوم ما يلى : (١) يتبدلون الهنود البريطانيين فى الحكومة . (٢) و يضعون الضرائب الحامية للمنتجات الهندية . (٣) و يحملون الحكومة على أن تقوم بتنشيط الصناعات الهندية والاخذ بنصرتها وشد أزرها . (٤) وأن تشرع فى نشر التعليم الفنى فى البلاد . وعلى تسليم ان كان جميع هذا فماذا عساه أن يحسن فى الحالة العامة شيئا يذكر . أما التبديل بالموظفين البريطانيين واقامة موظفين من البلاد فلن يكون السبب فى تناقص الاستنزاف وتقلصه على مقدار ما يتصور القوم أشياع الحكم الوطنى وأنصاره ، إذ أن الموظفين الهنود أرباب المناصب العالية والخطط السنية قد اعتادوا أساليب المعيشة ومرافقها الحديثة على المستوى الاوروبى والطراز الغربى ، فاذا حلوا محل البريطانيين لزم لهم من النفقة مالا يقل عن النفقة التى تؤدى الى البريطانيين اليوم ، ثم يأخذ إخذهم غيرهم و يقلدهم سواهم ، فيزداد تطلب المواد والبضاعات الغربية على نسبة ما يفشو و ينتشر فى أفق المجتمع من العادات الجديدة بطبيعة الحال . وعلى هذا الاعتبار فالاستثمار التجارى الذى يقوم به الاجانب لايبقى على قدره الحالى بل يزداد و يستفحل . وأما الضرائب الحامية فسيكون من شأنها اجتذاب رؤوس المال الاوروبية الى الهند ، فيتسنى للاجانب بهذه الذريعة الاستيلاء على المشروعات والاعمال و يلتهمون الارباح دون أن يكون للهند نصيب فيها . واعتبر من وجهة أخرى أن الهند لم تظهر الى اليوم من الجدارة لترقية

الصناعات الوطنية الا قليلا . نعم لا ينكر أن جانباً من أهل البلاد ليستطيعون ، حتى فى مثل هذا العهد المعروف بنزارة الاجور ، أن يستثمروا الموارد و يؤثلوا الثروات ولكنهم بالاضافة الى سائر قطان البلاد هم أقل من عشر معشار الملايين الناشبة بهم مخالب المجاعة اليوم . وفوق جميع هذا فان الانغماس فى بحر الصناعة سيجر على البلاد بلايا وشروراً اجتماعية قتالة . وأما قيام الحكومة بتنشيط الصناعات الوطنية فسيكون أكثر اجتذاباً لرؤوس المال الاجنبية من الضرائب الحامية مما يفضى الى النتائج التى ذكرناها . وأما نشر التعليم الفنى فمشروع وايم الحق ذو شأن خطير ، ولكن جاء متأخراً بعد فوات الميقات ، فان الغربيين واليابانيين قد سبقونا أشواطا ومراحل شاسعة فى عالم الصناعة بحيث اننا لو رمنا الآن اللحاق بهم فادراكهم فزاحمتهم بالمناكب شق علينا ذلك أولاً ثم ازداد الامر صعوبة على التوالى بسبب شقة البون بيننا وبينهم .

ثم يسوق المستر بوز الكلام منتقداً جميع نظام التعليم الغربى الذى اتبع فى الهند ، ومبينا ان ليس التعليم العالى ولا الابتدائى هو الدواء الناجع فى سقم البلاد . أما العالى فقد أفضى الى النجح المادى ولكن على نطاق ضيق لم يتناول أكثر من جانب من جمهور الامة فيهم عدة آلاف من المحامين والاطباء وأصحاب الوظائف فى الحكومة . ولكن لما كانت أعمال هؤلاء القوم وصناعاتهم وفنونهم عالة بطبيعة التعاون العمرانى على ما سواها ، وليست على جلتها مما يحسب من موارد الانتاج الكبيرة فى ترقى البلاد ، فقد ظلت قاصرةً عن أن تكون عاملا حيوياً كبيراً فى عداد العوامل التى يقوم عليها ترقى الهند بصفة عامة لذلك جاءت النتيجة على ضد المراد ، لأنه لما كان هؤلاء القوم يتشبهون بالغربيين ذوقاً ورغبة فى اقتناء البضاعات الأجنبية والمرافق الغربية التى يكثر النزوع اليها وتعم بها البلوى على مقدار ازدياد التبسط فى رفاهية العيش وانتشار الرخاء ، فقد كان ذلك كله سبباً فى ازدياد الاستنزاف لافى تناقصه وفى افتقار البلاد لافى ارتياشها . وأما التعليم الأولى فلم يكن منه تثقيف العقول لسواد الناس ولا تحسين مرفق من مرافق الحياة الزراعية ، بل أفقد أهل الفلح والحراثة ما كان فيهم من حزم وكفاية وجدّ ، كما أنه أشبع نفوس أهل الطبقات العاملة المتدلية الذين يتألف منهم جانب كبير من الأمة ، صفاتٍ تبعثهم على النقمة والتذمر ومقت ما هم عليه من تراث آبائهم وأجدادهم المشتمل على طراز المعيشة والصنعة والحرفة ،

ويجعلهم ينزعون الى تطلب المزيد من كل جديد ، ويشتدون سعياً وراء الزخارف والاعراض ، وينصرفون الى الحرف والمهن التى هى بطبيعتها عالة على سواها من الصناعات والأعمال البشرية . فانحطت بسبب هؤلاء الصناعات الوطنية مباشرة وغير مباشرة ، وكانوا هم بلا ريب علة استفحال الضيق الاقتصادى الذى عمهم وسائر الأمة معهم . ومن البلية أن ما كان يبتغيه هؤلاء ، فى أول الأمر هو زيادة الأقوات والأغذية ـ ولكن الهند الجديدة وحكومتها قد أجابتاهم الى مبتغاهم بتجهيزهم بهذا الضرب من غذاء «التعليم» الذى لم يكن له تأثير ولاشأن فى توفير الوسائل التى يستطاع بها التماس العيش وطلب أسباب الرزق ، بل غرس فى نفوسهم صفاتٍ وعاداتٍ فسدبها مزاجهم وكانت السبب فى انقلابهم شعباً كسولا ، تستنزفه رؤوس المال الاجنبية وتمتص دماء عروقه الممتصات الغربية عرقاً فعرقاً . وبهذا الاعتبار لم تكن الأسباب السياسية والاقتصادية هى وحدها الفاعلة فى ملاشاة الصناعات الوطنية لو لم يقترن بها التطور فى العادات والأذواق ، ذلك التطور الذى نشأ عن البيئة الغربية التى كان من أهم عواملها ومؤثراتها « التعليم الاوربى على هذه الصفة التى أرادها الانكليز ».

وصفوة أقوال المستر بوز وآرائه أن ليس فى برنامج الحكم الوطنى من سبيل من سبل الاصلاح المنشود والترقية المبتغاة ما يكفل حقاً شفاء الهند من عللها وابراءها من أوجاعها ، « بل ان الهند ستزداد تورطاً فى أشراك المدنية الغربية وأحابيلها الخداعة ، دون أن تلقى من النفع والفائدة مايعدل معاناتها المشقة والنصب ، وسيشتد خناق الغرب على عنق الهند اشتداداً يضيق أنفاسها تضييقاً » ، فالذريعة الوحيدة للهند ، على مايذهب اليه المستر بوز ، هى أن تدابر كل شيءٍ غربيّ ، وتولى وجهها شطر ماضيها فتنقلب سابحةً فى لجج من تقاليدها وسننها التاريخية ، وتوضح معالم حضارتها المطوية فى سجل الدهر ، وتستثير دفائنها ثم تخلع عليها ثوب البهاء والرونق . وفى هذا الصدد قال المستر بوز : « ان نجاة الهند ليست مرتجاةً فى أفق السياسة ولافى مطمحنا الى أن نصير أمة من أمم الارض العظمى ذات الحول والطول ، والقوة والايد ، بل فى رجوع الهند الى ما كانت عليه قبلاً من منزلة الاتضاع ـ تلك المنزلة الحافلة بجلال العزلة مع العظموت والهيبة . لسنا بالمدركين غايتنا بنحونا نحو الحضارة الغربية ، بل بالاعراض عنها مااستطعنا الى ذلك سبيلا ، ولسنا

بالبالغين غرضنا بزيادة الاشتباك بأشراك تلك الحضارة المزركشة ذات الخيوط اللماعة من الدمقس والابريسم ، بل فى الادبار عنها واجتنابها فى كل طريق تراءت لنا فيه ».

هـذه خلاصة ماأوضحه المستر بوز ، وله من المناصرين فى آرائه عـدة رهط من المفـكرين الخياليين مثل رابندرانات طاغور ومن نسج على منواله . غير أن الامر الذى لامراء فيه هو أن هذه الآراء على ماشتملت عليه من ملذوذ الخيال وبديع التصور ، هى ضرب من العبث والباطل ، اذ أن شعباً بأجمعه يعد بمئات الملايين ليس يستطيع بعد اليوم الانقطاع عنوةً عن سائر العالم ، ويتجلبب جلباب العزلة على نحو ما كان هكذا فى غابر الدهر ، منكراً ماهناك من الصلات والروابط بينه وبين المجتمع الانسانى ، ومنفرداً انفراد النساك فى الصوامع والغيران . ان زمن « عزلة الشعوب » قد انقضى وطويت صفحته ، فلن يعود الى الوجود ولا سيما فى بلاد مترامية الأطراف كالهنـد وهى ملتقى طرق الشرق يحيط بها البحر من أكثر جهاتها . وزد فى الاعتبار أن هذه البلاد قد تغلغلت فيها الآراء الغربية تغلغلاً بعيـداً وانتشرت فى أهلها الأفـكار الاوروبية انتشاراً كبيراً

وكان لتلك الاقوال المضروبة على أوتار التقشف ، الأوتار الحساسة الـكامنة أبداً فى مزاج الهندى وطبائعه ، أكبر تأثير فى نفوس العـدد العديد من أهل الهند حرك من نفوسهم الساكنات ، فباتوا وقد أدركوا امتناع تحقيق آمالهم كلها ، يحاولون أمرين أولهما اتخاذ سبيل وسط يستطيعون به احتفاظ كل شئ ورثوه من النظام القديم مما لا بستهم على كرور الايام صبغته ومازجتهم بفعل العادة طبيعته . والآخر اقتباس الاحسن واختيار الصالح الملائم من الحضارة الغربية ، ثم افراغ ذلك فى القالب الذى يوافق شأنهم ويجارى مستوى حالهم ، موسوماً بميسم هندى ومعلقا عليـه شارة الوطنية الهندية . وعلى هذا الرأى وضع ارباب هذا المذهب برامج لانشاء نظام جديد قائم على مزيجٍ من التصوف الهندى ، ونظام الطوائف ، والصناعة الغربية ، والاشتراكية .

ولـكن هذه البرامج على ما فيها من فائق البراعة وثقوب الرأى ليست بالجامعة المانعة ، اذ لو استبصر واضعوها لعلموا المثـل الغربى انه « لا يستطاع أكل الحـلواء واحتفاظها معاً » . ومتى ما فقهنا شأن الطبائع المتضادة ، والصفات المتخالفة بين الشرق القديم والغرب الحـديث فى نظامهما الاقتصادى ، تبـدى لنا ان كل محاولة يبتغى بها التوفيق بين وجوه

النظامين توفيقاً مقصوراً على المواضع التى كثر التشابه فى صفاتها والتجانس فى طبائعها ومزاياها ، مع عدم النظر فى مواقع النقص وفى الكثير من الاختلافات والمتناقضات ، هى محاولة لمتأليف بين الممتنع تأليفه أو الملائمة بين لونين متخالفين ، لا يجدى ذلك نفعاً أكثر مما تجدى محاولة المريد تربيع الدائرة أو تدوير المربع . وقد قال لوينس دكنسن فى هذا الشأن قولاً حكيماً (سنة ١٩١٤) : « ان الحضارة انما هى جهاز تام كامل ، وكل ما فيها من فن وأسلوب ودين جيعه معلق على صفة النوع الذى يكون به ترقيها فى الاقتصاد وأصول الصناعات . انى لا أكاد أصدق ان أمة من أمم الأرض تستطيع الترقى بأن تأخذ من هذا عند ما تريد وتعرض عن ذاك عند ما تأبى ، كما هو شأن الشرق الذى قد يقول ، انى لآخذ من الغرب سفنه الحربية ، وجواريه المنشآت ، ومعامله الصناعية ، وعلومه الطبية ، ولن آخذ عنه اختلاط مجتمعه وانكماشه وهرعه ونصبه ، وشناعته وقبحه ، وافراطه وطمعه . . . . كلا انى لا أكاد أصدق هذا ، بل أرجو ان الشرق يقتفى سبلنا ويتبع مناهجنا ، اشاء أم أبى ، وهو سيجتاز ما قد اجتزناه نحن من مشقة وعناء ، وسيسير القدمية لا يلوى على شئٍ ، ولا يعرج بين السبيلين حتى يدرك مستوى من الحضارة رفيعاً » .

هذا هو القول الصحيح . فان الشرق باعتبار ما لا يحصى من الشواهد والأدلة الظاهرة على شأنه اليوم ، سيقتفى آثار الغرب فى سبيل هذا التطور الذى سيقف عند حد ، وقد يعرض عن بعض نقائصنا وعيوبنا الظاهرة ، ولكن فى غالب الأمر سيمشى على صراط شبيه بصراطنا . وهذا التطور كما قلنا فى شأنه فى مواضع تقدمت انما هو مكيف لكل أفق من آفاق الحياة الشرقية ، وقد بينا مجارى هذا التطور العظيم من وجهاته الدينية والسياسية والاقتصادية ، وبقى الكلام على الوجهة الاجتماعية التى انتهينا اليها فى الفصل التالى .

الفصل الثامن

التطور الاجتماعى

كفى دليلاً على ماهذا التطور الذى نشهده اليوم فى الشرق من الشأن والعظمة ، ماهو متجلٍ فى أفق الحياة الشرقية من ضروب الانقلاب ، وتجدد المنازع والانتقال من هيئة الى هيئة ، إذ ان المؤثرات الغربية الفاعلة فعلها العظيم فى تحول اشكال الحكومات ، والأوضاع السياسية ، والمعتقدات الدينية ، والتطورات الاقتصادية ، هى فاعلة أيضاً فى أطوار النظام الاجتماعى ، وليس شأنها فى هذا المقام بأقل منه فى سائر مواضع الانقلاب الشرقى . وقد أتينا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب على بيان موجز عما للمؤثرات الغربية من الشأن فى الأطوار والتارات التى تقدم الكلام عليها . وغايتنا فى هذا الفصل أن نبسط الكلام على التطور الاجتماعى الحادث اليوم فى العالم الاسلامى .

لامراءَ فى أن هذا التبدّل خطير عظيم ، على كونه لايخلو من غموض يظهر فى بعض المواضع ، خلافاً لسائر آفاق الانقلاب الآذنة بكل جلاء ووضوح . والسبب فى هذا الاستبهام هو ان للعادات المتأصلة والتقاليد المتمكنة فى حياة الفرد والأسرة والجماعة فى المشرق سلطاناً قوياً وشوكة نافذة ، يحملان غير المتعمقين من أهل الاستقصاء فى شؤون المشرق على أن يجنحوا الى القول المؤكد بأن هذه العادات والتقاليد لم تبرح على حالها القديمة من الرسوخ وشدة التأثير ، بحيث على زعمهم ، لم يتناول التطور الحقيقى داخلها مثلما تناول خارجها ، ولا تغلغلت روح الانقلاب فى باطنها كما أحاطت بظاهرها ، ولو بلغ الانقلاب المادى وتحول ظاهر الحياة مابلغا . على ان هذا الرأى الذى يقول به هؤلاء القوم الذين لايعولون على التحقيق فى المسائل ، هو مما لايجيزه أهل العلم والبحث ذوو النظر النافذ فى أسرار الانقلابات ، وان الشرقيين أنفسهم ليستهزئون بهذا القول وأمثاله ، ويفندونه بالحجة

والبرهان ، و يؤيدون حدوث التطور الاجتماعى وتتابعه بسنة التحول التى لن يجد لها الناس تبلايلاً .

وأهل الشرق لعمرى على حق فيما يقولون و يبينون ، فان قيل ان الشرق صاعد بمعراج الترقى مادياً ، من حيث هو لم يزل على حاله من السكون والجمود والغرارة من الجهة الاجتماعية فانما ذلك تجاهل وتعام عن الواقع ، ومكابرة فى الحقيقة التى بات لايختلف فى ثبوتها من أهل الاستقصاء الصحيح اثنان ، إذ أن الأنظمة الاجتماعية تتبدل أبداً بالمؤثرات المادية الحسية ، تبدلا لايقل عن ذاك الذى يتم بقوة المؤثرات الأدبية المعنوية ، والآراء والمجردات . أيستطيع من ينظر فى مادون العرض الغاشى ، نظر المتأمل المستبصر ، ان ينكر ماللقطر الحديدية والبرُد والأسلاك البرقيــة من قوة العمل والتأثير فى سير الترقى الاجتماعى والأدبى والحضارى ؟ أما من شأن ، اجتماعى ومادى ياترى ، لما يقتبسه الشرق من الغرب و يأخذ عنه من مئات المحدثات والمخترعات ، بين ثمين وتافه ، وخطير وحقير ، وضار ونافع ؟ أيخلو من معنى كون قبر صاحب الرسالة الاسلامية فى المدينــة المنورة غدا كالكوكب تتلألأ فيه المصابيح والأضواء الكهربائيــة ، وان الرقاع البريدية المصورة صارت تباع على أبواب الكعبة المقدســة فى مكة المكرمة ؟ أجل ، قد يستغرب المدقق أول الأمر من أن المؤذّن أضحى يذهب الى المسجد راكباً قطاراً كهربائياً ، وان التاجر المسلم أخذ يخرج من مخدع حرمه فيتناول صحف الصباح فيقف على أنبائها وأخبارها ، ثم يمتطى سيارة الى بيت تجارته ومعه سجادة الصلاة . ثم اذا مافرغ من إقامة الصلاة انقلب تارة الى تلفونه وطوراً الى آلة الاملاء يفرغ فيها نصوص الرسائل والكتب التجارية . فلماذا نحن نسلم بأن للمسجدومخدع الحرم وسجادة الصلاة شأناً مؤثراً فى حياة المسلم وتكييف معيشته على الجملة ، حينما ننكر ما لجميع المحدثات والمخترعات التى أخذها الشرق عن الغرب من التأثير فى تكييف حياة المسلم الاجتماعية ؟ أضف الى هــذه الأسباب الحسية المادية الأسباب الأدبية المعنوية مثل العلوم الطبيعيــة ، والرسائل الغربية الحديثــة ، التى جعلت للتلهى والراحــة ، وتحرر المرأة نوعاً ما ، فتبدو لك للحال أهمية التطور الاجتماعى الحادث اليوم ، واتساع أفقه .

على أن هــذا التطور الاجتماعى قد اتسع نطاقه فى الأقطار الشرقية التى هى أكثر تعرضاً من سواها لتيار المؤثرات الغربية وكان مبدأ ذلك منذ نحو من نصف قرن . لما عاد

المستشرق المنغارى فمبارى الى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ بعد غيبة من الزمن طالت أربعين سنة دهش حقاً مما شاهده من عظيم التحول والانقلاب ، والاستانة عهدئذ راسفة بالأغلال الحيدية ، فقال : « عند ذلك طفقتُ أسائل نفسى أهؤلاء ياترى هم الترك الذين رأيتهم سنة ١٨٥٦ ، وكيف قد تمت جميع هذه التطورات الكبرى ؟ ولشد ما كان عجبى لما أخذت أقلب نظرى فى مظاهر المدينــة وصورها فرأيت المبانى الحجرية الجديدة ، قد قامت مقام الخشبية القديمــة ، والاسواق ، والشوارع ، دبت فيها عوامل الحياة دبيباً ، فجرت فيها المركبات المزينة تجرها الجياد المطهمة ، والقطر الكهربائية تنساب فى جميع الأنحاء ، كل ذلك ممــا لم أره فى مثل هــذه الأسواق والشوارع وهى إذ ذاك مختلط تزدحم فيه الدواب والعجلات القديمة الطراز . وسمعت جلجلة الآلات المتحركة تخالطها أصوات المؤذنين الذين يلجأون الى الله من على رؤوس المآذن . فظهر لى من جميع ماشاهدت وسمعت ، وعرفت وخبرت ؟ ما هو مناقض للقول المأثور ان « لابدعة فى الاسلام » . وقد كان دهشى أشد وعجبى أبلغ لمــا دخلت المنازل والبيوت فلم يكن بوسعى سوى الاعظام والاكبار ، ليس لما شاهدته من كيفيات التحول الظاهرة فقط ، بل أيضاً لما هو أجل قدراً من التطور المعنوى الكبير . فبدا لى ان طبقة الافندية (أى المتهذبة) فى الاستانة قد تبدلت من حال الى حال ، وانتقلت من دور الى دور ، فى مجتمعها وطرازها الخارجى وطرق اتصالها بالغربيين »

ويعظم فمبارى شأن الارتقاء الداخلى كما يعظم شأن الارتقاء الخارجى . فى الطبقات التركية التى تناولها التهذيب والتعليم ، فقال فى هذا المعنى : « قد غدا التركى اليوم يرتاح الى العادات والآداب الغربية ارتياحاً كبيرا مشهوداً ليس فى المظاهر والصور الخارجية فقط ، بل فى أسلوب العيشة المنزليــة أيضاً ، وذلك من صــفة الأثاث والمتاع . وآداب المائدة ، واحترام المرأة ، وغير ذلك . ان هذا الطور الجديد لجليل الشأن ، لأنه معلوم ان الشعب الذى يقبل على تشرب العوامل وقبول المؤثرات الغربيــة السائقة الى الترقى العقلى ، عند مايصفو اعتقاده بأن هذه المؤثرات انمــا هى صالحة له ، لايستطيع الاقلاع عن مألوف عاداته الثابتــة الصبغة ، المتأصلة فى مزاجه وطبيعته ، الا بشق الأنفس . والترك قد لقوا الشدائد فى هــذه السبيل ، فذللوا العقبات ، وتغلبوا على المكاره ، حتى ضربوا من التجدد بسهم وافر . ورأيت ان الشعور الشديد بضرورة ملابسة الحضارة الغربية والتحقق بها ، قد عم

المجتمع التركى بأمره حتى رجال الدين . ولكن جماعة أهل الرأى على اختلاف فى كيفية التطبع وأسلوبه ، فبعضهم يبتغون اعطاء مايودون أخذه عن الحضارة الغربية صفة وطنية وصبغة قومية ، والبعض الآخر على الضد من هؤلاء ، إذ يبتغون انتحال تهذيبنا العقلى على علاته ، ويأبون كل تكييف له ولو قليلا » .

والأمر الأهم هو ماشاهده ڤمبارى من شان النساء المخدرات القابعات فى أكسار بيوتهن ، وقد تغيرت الآن حالهن وتحولت صور حياتهن الى حد يقضى بالعجب . قال ڤمبارى : « وأزيد القول تأكيداً ان المرأة التركية قد تبدلت أساليب حياتها تبدلا شاملاً عفا معه كل أصل قديم خلال الأربعين سنة الأخيرة . ثم ان هذا التطور قد تمّ أمره بسببين : الأول اعتقاد الترك بان التجدد ضرورى لهم فى هذا العصر ، والثانى الضغط الشديد الطارئ من الخارج » . واذ لاحظ ڤمبارى انتشار تعليم البنات وزيادة نصيب المرأة فى القيام بتدبير الحركات الاصلاحية وتنظيم الدعوات وبثها فى هذه السبيل ، قال : « ان هذا الأمر حيوىٌّ للأمة لأنه متى ماشرعت المرأة تقوم بواجباتها فى الحياة المنزلية بصفة كونها عاملاً من عوامل الارتقاء الحديث ، فان الاصلاح الحقيقى لابدّ له من أن يثمر ثمره فى المجتمع والدولة والحكومة » .

ويبين «خوجة بوخش» ، المسلم الهندى الحر ، وهو من أهل الاطلاع الصحيح على شؤون بلاده ، ان الحياة الاجتماعية فى الهند غدت فى تطور كبير وذلك بسبب ماتشربته من المؤثرات والعوامل الغربية ، كما هى الحال فى تركية ، ويوضح خطورة هذه الأدوار الشديدة التى لابد من اجتيازها ، أدوار الانتقال من حال الى حال ، والخروج من القديم والولوج فى الجديد . وهو متشائم من هذا ، لأنه يعترف بأن « دور التطور انما هو بحكم الضرورة الى حد معلوم ، دور فساد فى الآداب ، وانحطاط فى الاخلاق ، وعبث بالدين ، مما قد يحسبونه عرضاً ويزول ، ومرضاً ويبرأ ، ولكن لا مبرئ لهذا سوى كرور الأيام » . ولكن هذا الخبير الكبير ، مع علمه بجميع ماذكر فانه لايقلل من خطورة الدور الحالى الذى أقل مايقال فيه انه هادم لاركان النظام الاجتماعى القديم هدماً فقد قال : « ان أوضح نتيجة لهذا التطور هى تزلزل نظامنا القديم القائمة عليه حياتنا المنزلية ، وعاداتنا الاجتماعية ، وسبب هذا التزلزل انما هو تيار الحضارة الغربية ، وهذا الامر الواقع أظهر ما يكون فى موضعين :

معتقداتنا الدينية ، وحياتنا الاجتماعية . ان النظام القديم ، على جميع عيوبه كان مشتملا على فضائل جمة وافية » . أما اليوم فقد انهار هذا النظام القائم على ضيق المدارك لا بل على التظاهر بخوف الله وطاعته ، وحلّ محله « استقلال فكرى عملى غريب . فعفت صفة احترام الماضى ، واكرام الكبار والشيوخ ، واعتبار قال فلان وروى فلان . كان الأب فى ظل النظام القديم ربّ العترة ووليها الحميم ، وكانت كلمته فيها شريعة مطاعة وأمراً مقضياً ، وكان حارس مقامها وراعى حرمتها ، وحافظ شأنها . أما الآن فقد أصبح مجرداً من جميع المنزلة التى كان عليها من قبل ، وراح أصغر فرد من أفراد الاسرة يبتغى الاستواء معه فى كل شأن من الشؤون ، وينازعه السيادة فى كل أمر من الامور » .

ويأسف المستر بوخش أسفا لما هو منتشر من تيار الاسراف والتبذير والانغماس فى الترف ، وذلك ولاشك ناشئ عن اقتباس عادات الأوروبيين وتقليدهم فى جميع أساليب المعيشة تقليداً أعمى جامعاً للضار والفاسد والغث والسمين . ثم يسائل المستر بوخش نفسه : « ماذا لعمرى ثم فى الهند ؟ اننا قد اتخذنا أزياء أوروبية فى لباسنا ، وأساليب أوروبية فى معيشتنا ، ولم نكتف بذلك بل جاوزناه الى عادات شرب الخمر والمقامرة والميسر ، ولكننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الغربية ، فيجب مداواة العلة قبل استفحالها وتطبيب السقم قبل الاعضال . يجب علينا أن نتعلم من أوروبة ولكن دون أن نهدر فى سبيل ذلك كينونتنا الأدبية ووجودنا المعنوى . اننا لم نتنبه الى الخطر الذى حاق بنا فسرنا فى التقليد سير ضلال ، وجلّ ماحصلناه أننا خضنا خوضة قليلة فى التاريخ الانكليزى والأوروبى ، ثم طفقنا نزدرى ديننا وآدابنا وتاريخنا وتقاليدنا . ولم ندرس ماضينا ولا اطلعنا على انباء حضارتنا ولا بنينا ركناً جديداً ، ولاشيدنا لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً يثبت به غير متزعزع على صروف الدهر وتقلبات الأزمان . وعلى الجملة فاننا قد أفسدنا حياتنا افساداً من حيث لم نباشر لذلك اصلاحاً » .

ويؤكد المستر بوخش القول مثل قمبارى ، ان المرأة الهندية سائرة فى سبيل التحرر ، اذ انقضى العصر الذى كانت هى فيه سلعة تباع وتشترى « فصارت المرأة المسلمة اليوم فى الهند تعلم وتهذب على ازدياد . وغدت تعرف حقوقها وتحسن الدفاع عنها . نعم ان نظام « البردة[١] » لم يزل شائعاً ولكنه ليس من الشدة وإيجاب العزلة كما كان منذ

(١) البردة بلغة أهل الهند معناها الستر يمد للمخدرة فى ناحية من المنزل .

خمسين سنة خلت ، بل انه أوشك يسقط ويندثر ، وشرعت النساء يتدرجن فى نيل حقوقهن الى أن يبلغن اليوم الذى يدركن فيه السوى الكامل لتحرر المرأة الشرقية . كانت نساء بلادنا منذ أربعين سنة موضوع الاحتقار بل خشونة المعاملة من أزواجهن . أما اليوم فقد تبدلت حالهن كثيراً ، وبتن يعملن لنيل جميع حقوقهن ، واعزاز مقامهن .

بهذين البيانين – الموصوف بهما التطور الاجتماعى فى الشرقين الأدنى والأوسط – ندرك ماهية الانقلاب الحادث اليوم فى الشرق . ثم ينبغى لنا أن نذكر أن هذين الكاتبين قد وصفا حال الطبقات الراقية المتهذبة فى المدن والحواضر الكبرى ، والحقيقة أن الاختمار سار سريانا عظيما ومنبث انبثاثا شاملاً ، فى جميع آفاق المجتمع ، متناولاً طبقات الأمة الواحدة بعد الأخرى ، وتراه دائماً على اتساع وامتداد .

ان انتشار التعليم الغربى فى الأقطار الشرقية خلال بضعة العقود الأخيرة ليدعو للاعتبار لأنه قد نقض ماهو معهود فى الشرق منذ القديم من نظم التهذيب والتعليم . فقد كانت أصول فن التعليم الجارية على سنن التقليد فى جميع الشرق ، من مراكش حتى الصين ، لاتخرج عن حد تحفيظ الكتب الدينية والأسفار المقدسة تحفيظاً مقروناً بتعليم فروض الدين وممارسة شعائره . وكان الطالب المسلم أو الهندوى يقضى سنين عديدة يتلو على معلمه أو مدرسه فصولاً من الكتب الموضوعة بالعربية الفصحى أو السنسكريتية ، الكتب التى لايستطاع ادراك معانى عباراتها وتراكيبها ، ولافهم أغراضها ومدلولاتها ، فكان نظام التعليم على هذا النمط حائلاً شديداً دون اتساع المدارك العقلية، فتتبلد القوى الدماغية جميعها ماعدا قوة الذاكرة ، وتذهب قوة الابتكار العقلى .

ولم يبرح هذا النظام الفاسد متبعا حتى اليوم فى بعض الشرق ، وما انفكت الملايين من النشء الشرقى تفنى الأوقات الثمينة فى معاناة التعليم على هذا المنوال الحائل دون نمو القوى العقلية والادراكية . على أن نظاما جديداً شرع يماشى ذاك القديم منازعا له وملاشيا اياه وهو يشيع وينتشر فى جميع المحيط التعليمى ، من كتاتيب الأطفال حتى الجامعات والكليات الكبرى ، فصار الناشئ الشرقى يرتضع أفاويق العلوم على مناهج غربية صحيحة وهذه المنشآت العلمية الحديثة الطراز هى على ضروب مختلفة . فهناك الى جانب المدارس والكليات والجامعات – التى تعلم تعليما حراً وتعد الطلاب للقيام بالخدمة الحكومية أو المهن

الحرة ـ عدد كبير من المدارس الصناعية والزراعية تخرج للشرق حذاق الفنيين والزراعيين والمهندسين ، ومدارس دور المعلمين تعد المعلمين اعـداداً حسنا يتأهلون به لتعليم النشء المقبل وتثقيف عقولهم على الأصول الصحيحة والأساليب السليمة . والمدارس الأميرية والخاصة لاتنى فى توسيع التعليم على الطراز الغربى وفى زيادة نشره فى الشرق وقدكان من شأن جميع الحكومات الأوروبية الأخـذ بنصرة التعليم الغربى فى الأقطار الداخلة فى سيطرتها وحكمها ، ولاسيما الحكومة البريطانية فى الهنـد ومصر ، بينما هناك البعثات التبشيرية النصرانية المختلفة قدانتشرت وانبثت فى آفاق المشرق ، وأنشأت عدداً كبيراً من المدارس والكليات ، وبينما كثير من الحكومات الشرقية مثل تركية والحكومات الوطنية فى الهند باذلة غاية المستطاع لنشر التعليم الغربى فى شعوبها ورعاياها نشراً متواليا مباركا .

على أن النتائج الحاصلة الى اليوم ليست غاية فى الكمال المطلوب . ولا غرابة فى ذلك لأن الدور دور تطور وانقلاب ، وتغير وتبدل ، ولأن التقاليد الفاسدة المتسلسلة من ماضى الأجيال ما انفكت تعترض جهد الأقوام الساعية بجد فى سبيل تحرير التعليم من جميع النقائص التى لم تزل عالقة به لهذا السبب الجدير بالاعتبار نرى سواد الطلاب الشرقيين الى اليوم ، أميل الى الاعتماد على ذا كرتهم وحافظتهم ، منهم الى الاعتماد على عقولهم وقوى مداركهم ، يؤثرون اجتياز عهد الطلب سرعانا حتى يدركوا ماتشره اليه نفوسهم من تقلد الوظائف والأعمال الحكومية ، على التضلع من العلوم والتمكن فى المعارف مما يكسبهم الجدارة للاختصاص بمختلف الفنون والصناعات التى لا بد أن تكون بمقتضى سنة الترقى الصحيح . ولما كانوا على هذه الصفة المتقدمة كانت النتيجة ان أخذ كثير منهم يخبطون دون الوصول الى الغاية فيحل بهم الابتئاس ، ويخفقون سعيا وراء أمانيهم فتشق عليهم الحال ، هذا وقد اجتزأوا ببعض العلم اجتزاء لا يكسبهم القدرة على ضروب الأعمال النافعة والمهن المنتجة . فتراهم يسيرون فى الحياة على غير هدى لايسعون الى غاية مقصودة ولا ينشدون غرضا بعينه . كل ذلك يحملهم على الانقلاب أعداء مبغضين للروح الغربية ، ثم يسوقهم هذا الى بث أسباب الثورة وبذر بذور القلق الفوضوى . فى هذا الصدد أجاد « السر ألفرد ليل » فى وصفه سيئات التعليم الغربى فى ربوع الشرق فقال فى شأن الهند :

« لامراء أن الجهل انما هو علة شرور كثيرة وبلايا عديدة فى دائرة المجتمع ، وقد قام كثير

من الفلاسفة وحملة العلم فى القرن الماضى ينادون أن التعليم الكافل لتثقيف العقول وتنوير الاذهان هو أنجع دواء وأفضل ذريعة لشفاء العالم ونجاته مما هو غارق فيه من بحر الضلال والجهل » ، وقام ساسة خبراء مثل « ما كولى » يبينون للملأ أن التعليم على هذه الصفة هو السبيل الفضلى لخلاص العالم بأسره من المعضلات السياسية ، ومن الحال التى قد استفحل فيها امتهان حرمة القوانين والانظمة والاحكام . فلذلك بات ضربة لازب على الحكومة البريطانية أن تجرب القيام بتحرير الهند تحريراً عقليا ، حاسبة هذا العمل خير مبرر لحكمها تلك البلاد . « على اننا قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك أن التعليم ، مع كونه الدواء الشافى لامراض عديدة وكونه ضروريا لابد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعى الصحيح ، فانه إذا لم تحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تدبيره القسط الأكبر من الاجادة والاحكام ، انقلب بقوة فعله وعمله سماً قاتلا تتولد منه جراثيم الفساد والاضطراب ، بعد أن كان خير دواء يرجى به الشفاء . ولاغرابة فى ذلك لأن التعليم على هذه الحال أخذ مفعوله يسرى وفواعله تشتد اختماراً فى مجتمع متزلزل الأركان متداعى الجوانب . ثم من شأن هذا التعليم أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ، ويهيج ضعاف الادمغة ، ويستثير مساريع الاطماع وبعيدى الآمال مما لايستطاع تحقيقه فى الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراما » .

غير أن بعضاً من الغربيين أهل العناية بشؤون الشرق ، نخص بالذكر منهم رجال الاستعمار ، أخذوا يقومون ويقعدون للمخاطر السياسية والاجتماعية المنبعثة من جانب هذه الطبقات المشتملة على الذين أتينا على ذكرهم من ذى العلم الناقص [1] وأنشأ المستعمرون

(١) كثير من مؤلفى الأوربيين ورجال سياستهم يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم فى المستعمرات ، بحجة أن الغالب على النشء المتعلم هو النزوع الى الثورة ، إذ كانوا يقرأون اموراً « تسىء عقولهم هضمها » ويقيسون اقيسة فاسدة فيتعبون ويتعبون . ومن جملة شواهد ذلك تلك المقالة التى عربناها عن « مجلة باريز » (راجع صفحة ٣٠٤ من الجزء الثانى) والتى صاحبها يشير بامانة اللغة العربية من المغرب واقامة الفرنسوية مقامها بشرط أن يكون التعليم مقصوراً على ما يلزم لامانة هذه واحياء تلك لاغير . والحاصل انهم يريدون قلع العلوم الشرعية من بين المسلمين ، ولكن يضنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية ، لئلا تحيا بها نفوس هذه الأمم ، اذ يعلمون انه لا يجتمع العلم والذل فى محيط واحد سواء كان علما شرعياً اسلامياً أو علماً أوربياً عصرياً أو علماً جامعا للامرين . (ش)

يعزون السبب فى انتشار روح المقاومة للغرب الى التعليم الذى جاءوا بمناهجه وأساليبه . فاللورد كرومر على سبيل المثال ، يرتاب شديد الارتياب فى شان المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية . وقال موظف بريطانى هندى شهير ان علة الاضطراب فى الهندى ناشئة عن « نظام التعليم الذى نشرته بريطانية فى البلاد » .

وهؤلاء المرتابون المتشائمون المستعمرون ، الذين يقولون ما يقولون من أن التعليم هو سبب نشوء الاضطراب فى الشرق ، يغفلون عن انه لا بد لادوار التطور والانقلاب من أن يصحبها شرور وآفات ، وعوارض فاسدة ، بطبيعة الحال دون مرد . ولكن هذه الحقيقة الكبرى لم تخف عن الحكماء من أهل الاستقصاء ، فكان شأنهم فى درس تطور الشرق خلاف شأن أولئك المرتابين ، اذ قالوا ان التبدل والتغير فى أنظمة هذا المجتمع الانسانى لا يكون خاليا من نقائص تعتوره وعيوب تصاحبه ، ومن هؤلاء الحكماء ڤمبارى الثقة الكبير الذى أحاط بالشرق وشؤونه علماً ، وأدرك أن فى الشرق اليوم مستوىً علياً تتجلى فيه جدارة الموظفين الوطنيين ، وبه يظهر صدق أمانتهم ، وهم الموظفون القائمون بأعمال الخدمة المدنية فى حكومة الهند البريطانية وحكومة افريقية الشمالية الفرنسية (وجل هؤلاء الموظفين من الذين تلقوا العلوم الغربية) ، ففى هذا المعنى قال ڤمبارى : « ان الشرقيين المحافظين المتشددين والأوربيين المتعصبين ، ليخالون أن الاتيان بتهذيبنا الغربى الى الشرق قد ذهب بفضائل الاسيويين ، تلك الفضائل الساذجة الفطرية ، حتى غدا الشرق غير المهذب أكثر أمانة وأعز شرفاً وأشد اباء ، وأجدر بالثقة من الاسيوى المهذب على الأساليب الغربية . ان هذا الخيال لأفن وخبال فلعل هذه الأوهام تصدق على أولئك النائلين قسطا قليلا من التعليم والتهذيب ، ولكن لا تصدق على الاسيوى التام التهذيب الذى وقر فى نفسه ان الارتقاء العقلى قائم بجملته على الأساس المكين ، وهو التعليم الوافى الصحيح ، والتهذيب المنظم الطريقة والتثقيف السليم والأسلوب والمنهج » .

ثم مهما كان شأن النقص الذى صاحب أساليب التعليم الغربى فى الشرق ، فالتعليم هو المنهاج الذى لا يستطاع الانهجه ، والباب الذى لا حيدة عن ولوجه . وعلى كل فان ما قد بلغته الروح الغربية فى الشرق من سعة الانتشار وشدة التأثير ، هما من الاهمية بحيث لو أردنا الكلام عليه تفصيلاً استغرق ذلك المجلدات الضخام . ولو سلمنا جدلاً أن

الحكومات الاستعمارية قد كان فى وسعها أن تحول دون التعليم الغربى الصحيح ، أفلم يكن الشرق على كل حال قادراً أن يتعلم ما يتعلمه على طرق أخرى ومناهج شتى . اذن خير للشرق وأفضل ان يتلقى العلوم والمعارف فى كتب مفيدة صحيحة الاسلوب برعاية الاكفياء من المدرسين والمعلمين ، من ان يترك وشأنه يتتبع الأساليب الفاسدة والطرق الملتوية ويخبط خبط عشواء .

وتتضح لنا خطورة التعليم الغربى فى الشرق أحسن اتضاح بما هو ظاهر ومشهود من النتائج الاجتماعية الكبرى ، الا وهى ترقية شأن المرأة واعلاء مقامها ورفعها من تلك الحالة التى كانت عليها . ومعلوم أن تلك الحالة التاعسة التى كانت تنزل بمقامها فى جميع البلدان الشرقية تحتاج الى الاصلاح الحقيقى الذى هو قوام المجتمع الناجح . ان هذه الحالة السيئة فى الاقطار الاسلامية هى اسوأ منها عند الهندويين القوم المنتشر فيهم الزواج الباكر واستعباد الارامل والأيامى (اللواتى كان من العادة أن يحرقن أحياء وظلت هذه العادة شائعة حتى قضى عليها الانكليز بسيف القانون) وتحجب المرأة تحجباً أشد من تحجب المسلمات واثقل وطأة . قال كاتب انكليزى : « نحن فى الغرب نقول السيدات أولاً والرجال ثانياً ، وفى الشرق يقولون الرجال أولا والسيدات ثانياً . ولعل هذا كاف لتبيين مبلغ الاختلاف فى صفات البيئة المنزلية بين الحضارتين الشرقية والغربية » .

وقد يبدو للمتأمل لأول وهلة أن حالة المرأة على هذه الصفة لم تزل تحت تأثير بحيث لم تفش فيها لحد الآن المؤثرات الغربية التى تبعث فى مجتمع النساء روح اصلاح حقيقى . كلا ، فان الأمر على خلاف ما يتبادر الى الذهن ، اذ ان المؤثرات الغربية قد انبثت وذاعت ، وكان لها ما كان من بالغ التأثير فى افق نساء الطبقات العليا ، فانتشر تعليم الاناث انتشاراً كبيراً ، ولكن على نطاق أضيق من نطاق تعليم الذكور . وقد ظهر فى الأقطار الشرقية التى هى أسبق من غيرها ترقياً وعمراناً اجتماعياً مثل القسطنطينية والقاهرة ومدن الهند ، طراز جديد من النساء العصريات ، المتهذبات الراقيات ، ولا سيما من معلمات المدارس اللواتى نزلن منزلة رفيعة فى المجتمع الذى أخذن يعملن فيه .

وقد جاء تطور المرأة المسلمة فى الشرق بنتائج حسنة لم يكن نفعها مقصوراً على النساء فحسبُ ، بل تناول المجتمع بأسره . وكيف لا يكون هذا التطور خطيراً والمرأة

الشرقية ، كما قال قمبارى ، مستغرقة فى الجهل والغباوة ، واذا كانت هكذا . فما أسوأ التربية التى تنشئ بها أولادها الذين على صدرها و بين ذراعيها . وهل من بلية أعظم من هذه البلية التى تحول دون ارتقاء الفتى الشرقى والفتاة الشرقية ارتقاءً عقلياً ، وهما يشبان فى مخادع الحرم على جهل شديد يتضاءل به الاستعداد الفطرى ، وتضيق المدارك ، فهذا الأمر أخذ يحمل الآباء الشرقيين أولى الرأى والمعرفة ، على ارسال ابنائهم الى المدارس أبكر ما يكونون سناً للطلب والتحصيل ، انتشالاً لهم من تلك الحياة التى اذا طالت عليهم وهم فى مخادع الحرم ، أفضت عليهم بالخمول وفتور كل قوة حيوية فيهم . ولكن هذه الوسيلة على الجملة لم يكن من شأنها سوى تخفيف الوطأة الواقرة ، لأن ما ينطبع فى نفس الابن ويرتسم فى لوح ذهنه وهو يرتضع ثدبى أمه فى السن التى يكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه فى سائر العمر لأبقى أثراً من جميع ما يتلقاه الابن فيما بعد عن المعلم . فبهذا الاعتبار ، ما دام نصف الشرق لم تعمل فيه عوامل الارتقاء على الدوام ، فنهضة الشرق الاسلامى على الجملة تظل ناقصة بتراء ، ولا سبيل الى كمالها ما لم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً فى هذا الدور وكل دور مقبل .

ولكن ازدياد عدد النساء الشرقيات المهذبات ازدياداً متوالياً فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، هو الدواء الناجع المبرئ من هذه العلة الكبرى والمتمم للنهضة الشرقية . قال كاتب غربى فى هذا الصدد : « علموا الامهات وهذبوهن تتبدل حالة المشرق تبدلاً تاماً من أقصاه الى أقصاه ، فان الفتيات متى ما تلقين معارف وعلوماً صحيحة مع ما يحفظنه من السور والآى القرآنية استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً ، سواء كن بنات أم اخوات أم أمهات . ولا شك فى أن النساء اللواتى تعلمن القبالة وأصول الطبخ والخياطة وقواعد عامة فى علم الصحة فى مدارس الاقتصاد المنزلى ، كانت حياه المنزل الذى يكن فيه حياة طيبة هنيئة ، فى جو تذاق فيه لذة السعادة البيتية . ان الحياة القديمة التى كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديون لاهية ، لا تعرف شيئاً أكثر من تناول ضروب الحلواء آونة بعد أخرى ، وماجنة مع الخوادم اللواتى حواليها تارة ، وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، قد انقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ، ترى فيها المرأة المهذبة رفيقاً لزوجها وشريكا امينا ، لا عبدة له ولا سلعة بين يديه . وشأن الزوج آخذ فى التبدل من

كونه تجارة خسيسة لتعاوض النساء كما تتعاوض الأمتعة والعروض فى الاسواق ، الى اتحاد زوجى وثيق العروة قائم على احترام المرأة من قبل زوجها وابنائها ، وهى سائرة فى ظل هذه الحياة الجديدة الى أن تكون ربة مقام رفيع وشأن اجتماعى كبير » .

وفى هذا العصر الجديد ترى الرجل والمرأة تتبدل أفكارهما وآراؤهما تبدلاً ظاهر الأثر فى انقلاب مستوى المعيشة ، المستوى الآخذ فى الارتقاء تبعاً لتطور الآراء والأفكار بطبيعة الحال . وهذا جميعه وان كان أظهر ما يكون فى أهل الطبقات المثرية فى المدن والحواضر ، فهو جار مجراه من الشيوع فى جميع طبقات الشعب . فالشرقيون كافةً ، من غنى وفقير ، وقروى ومدنى ، آخذون فى تبديل نمط معايشهم تحدياً بالغربيين ومحاكاةً لهم . وهذا التبديل يصحبه تطور اجتماعى بعيد الافق واسع الميدان . والسبب فى ذلك ان بعض وجوه التباين والاختلاف بين الحالتين المقلع عنها والمنتقل اليها ، لأشد تأثيرا ومفعولا من جارى الحالات المعتادة فى طريق الحياة ، ذلك حق لا ريب فيه سواء كان فى العالم الشرقى الحافل بالتقاليد الموروثة ، أم فى العالم الغربى الحديث . وهذا التباين والاختلاف ليسا ناشئين كل النشوء عن أمر الغنى وبسطة الحال (لان الشرق مثل الغرب من حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع) بل بالاكثر عن وسائل الرغادة والرفاهية بمعنييهما عند أهل الغرب فالشرقى المثرى فى سالف العهد لم يكن غالب دأبه الا فى تبذير ماله فى سبيل الترف الشرقى المشتمل على الأثواب الفاخرة والالبسة الثمينة والجواهر الكريمة والنساء الغوانى ، والخيول المهطمة ، والخدم والحاشية وغير ذلك ، وما كان ليعرف شيئاً من أسباب الرغادة الغربية الحديثة ، لهذا يصح القول فى هذا المعنى ان الشرقى المثرى فيما مضى كانت عيشته المنزلية على مستوى أقل مما يرضى به سواد الغربيين أهل الحرف والصناعات .

غير ان الشرقى اليوم طفق يعتاد أسباب الرغادة الغربية ، ويقبل على هذه الاسباب ما استطاع الى الاقبال سبيلا . فالاشياء العديدة التى جرينا نحن على استعمالها ترفيهاً لحالنا وتوفيراً لراحتنا وهنائنا ، وهى شائعة فى حياتنا شيوعاً لاغنية لنا عنه ، كالمصابيح ، والانوار الكهربائية ، والمطارز ، والساعات ، والجعة ، والمظلات ، وأدوات الصحة ، وكثير سواها ، باتت جميعها عند الشرقى اليوم من ضروراته الجديدة التى لا يطيب له عيش بعدُ الا بها ، وهو لا ينفك يبتغى التمتع بضروبها واشكالها ويطلب المزيد منها . لكن اقباله عليها الى

هذا الحد قد أفضى به بالتالى الى الوقوع فى ضنك شديد ، وان رمت الوقوف على العلة فاعلم أن الشرق ليس الاقتصاد من شنشنته ، ولا التوفير من طبعه ، فلما أخذت حاله تتبدل منتقلا الى دور طافح بالحاجات الجديدة المستطابة والاسباب المستلذة ، كان لابد بالضرورة من ارتفاع سوىّ معيشته ارتفاعا كبيراً ، فكيف يستطيع والحالة هذه أن يتوفر له المال الذى يكفيه نفقته الجديدة ؟ فاذا كان فقيراً تعين عليه أن يقتر على نفسه تقتيراً ، لكى يتسنى له بذلك الحصول على قدر ما يستطيع من حاجاته الجديدة ، واذا كان غنياً شق عليه الاقلاع عن الترف الذى اعتاده ، وصعبت عليه مزايلة ذلك الطراز الذى ورثه من آبائه وأجداده ، فنجم عن جميع ذلك زيادة فى السرف وغلو فى الترف . وفى هذا المقام ينبغى لنا ألا نغفل الحقيقة الراهنة وهى أن شعوب الشرق الادنى والاوسط على الجملة لم تكن يوما بعارفة للاقتصاد من غاية ولا للتوفير من معنى . فالعامة من المشارقة ولو كانوا فقراء الى حد هم مكرهون به على رعاية الاقتصاد فى النفقة ، هم والحق يقال مبذرون مسرفون متى ما تيسر لهم شىء من السعة والوفر . والطريقة التى يبذر بها الفلاح التركى أو الهندوى دراهمه الموفرة لاقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم وما أشبه ذلك ، تبذيراً يجره الى الرزوح تحت اعباء الديون ، مما يدهش له الغربى أيما دهش . أضف الى هذه الحقيقة ان نفقة الضروريات التى لايستغنى عنها أهل الشرق ولا الغرب ، كالطعام واللباس والدفء والكنّ ، قد ارتفع مقدارها خلال العقدين الماضيين ارتفاعاً كبيراً ، نستطيع أن نتصور به مبلغ ما انتهت اليه الحال من الضيق والازمة ، بما يقتضيه ارتفاع نسبة المعيشة فى هذا الدور .

يتضح لنا من جميع ما تقدم أن التنازع فى سبيل البقاء يتضاعف شدة ، والتناحر تزداد حلقاته استحكاماً ، بحيث ان الفلاح فى حقله والعامل فى معمله ، باق فى هذه الحال التى قد ارتفعت فيها أثمان الضروريات المعدودة قوام الحياة ارتفاعاً لا قبل لهما باحتماله ، وأمسيا بعد ما اعتادا صنوفاً من الحاجات العديدة المستحدثة التى ما كانا يعرفانها منذ عدة عقود خلت اعتياداً جعلها من الضروريات ، يقاسيان أعظم مايكون من القلة وضيق ذات اليد ، مماشاةً للحال وجريا مع الدور . قال أحد الكتاب فى هذا الشأن : « إن الأحوال الاقتصادية قد تطورت فى الشرق تطورا كبيرا لم يستطع معه المشارقة حتى اليوم

القيام باعباء جميع الحاجات المستجدة عندهم بسبب هذا التحول ، فازداد غلاء المعيشة ازدياداً أسرع سيراً من نمو الثروة فاتسع البون وطالت الشقة » .

ومن الأسباب الكبيرة فى هذا البحران الاقتصادى السياسى الذى يجتازه الشرق اليوم ، تعاظم عدد القطين (وان كان هذا السبب غير متفق عليه لدى الجميع) فان الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكور قابليتها للتناسل والتوالد . وهذا ليس ناشئاً عن شدة العاطفة الجنسية فحسب ، بل له أسباب اقتصادية كالانتفاع من شغل النساء والأولاد شغلا قاسياً اداً ، وأسباب ناجمة عن التعاليم الدينية الحاملة على الزواج الباكر وكثرة النسل . لهذه العلة كانت الشعوب الشرقية دائماً فى هم ناصبٍ من الدأب وراء مواد المعيشة ولو لم تنل منها سوى الكفاف . وقد كانت فى الزمن الماضى طائفة من العلل الفاعلة من ذاتها فى تقليل عدد القطين ، كالحرب وجور الحكومات ، والاوبئة ، والمجاعات ، جميع ذلك مما كان يجتاح البلاد اجتياحاً فيجرف فى سبيله الخلق الكثير ، بحيث ان عدد الساكن كان على الجملة ، مع ارتفاع عدد المواليد ارتفاعا كبيراً ، على نسبة كادت تكون سوية . ولكن لما كان للمؤثرات الغربية عمل عظيم فى هذا الافق من الحياة الشرقية فقد تغيرت الحال من أساسها . فان امتداد التسلط الأوروبى السياسى فوق الأقطار الشرقية قد كان سببا فى وضع حد للمنازعات الاهلية ، وتقليل ظلم الحاكم ، وكفاح الاوبئة والامراض ، وتدارك وسائل درء المجاعات [1] . وبعبارة أخرى ان العوامل التى كادت تكون من قبل سببا

---

(١) على أن المجاعات المتعددة التى اجتاحت الهند منذ دخلها الانكليز بل فى أيامنا نحن فضلا عن المائة سنة التى خلت من زمان استيلائهم ، هى فوق كل تصور بشري . وقد نشرت احدى المجلات الايطالية منذ سنوات احصاء عن مجاعات الهند بهذا العصر ، وما جرفته من عشرات الملايين من الاناسى ، وتناقلته عنها الجرائد ؛ فكان شيئاً تورث قراءته القشعريرة والتياث النفس . وأكثر السبب فى ذلك هو سياسة الاستعمار المبنية على استئثار المستعمرين بالأرباح والمكاسب واستنزافهم منابع الثروة الوطنية بضاعاتهم وأدواتهم ، وتركهم السواد الأعظم من الهنود عالة عليهم بحيث اذا احتبس المطر قليلا ، أو هبت على الزروع لافحة سموم قبل الحصول ؛ وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الاهالى سوى الموت جوعا أو بالأمراض التى سببها سوء الغذاء ، لان الذى يأخذونه بدل عملهم لا يعود كافيا لشراء قوتهم الضرورى . ولو فحصنا فى تاريخ مجاعات الهند ، أو مجاعات الجزائر التى منها المجاعة الحاضرة المستمرة منذ ثلاث سنوات ، لا نجد انكليزياً فى الهند ولا فرنسوياً فى الجزائر مسه الجوع أو مات سغباً ، فهو دليل كاف على أن الاستعمار هو من أعظم العوامل فى مساغب المستعمرات . (ش)

فى استواء عدد القطنين مستوىً معلوما ، قد تخففت أو تلاشت ، فكانت نتيجة جهد الحكومات الغربية فى درء العوادى الطامة ووقاية الأنفس من الهلاك ، ان قد هبط مستوى عدد الوفيات الذى كان هائلا فيما مضى وحائلا دون نمو عدد الساكن نمواً مطرداً الى حد قريب من مستوى عدد الوفيات ، بحيث صار المستويان متقاربين كما فى أحوال الامم الغربية . على أن الطريقة الى اهباط عدد المواليد الذى ينمو ذلك النمو الفاحش لاعلاقة له بمسئلة الوفيات ، لذا ما برح مستوى المواليد يتصاعد ويتعاظم حتى ضاقت الارض بقطينها على رحبها فى غالب أقطار المشرق الممتد فوقها التسلط الغربى السياسى . ثم ان سائر الاقطار الشرقية التى احتفظت باستقلالها ، وأخذت من الوسائل الغربية بنصيب لوقاية الانفس وصيانة الحياة ، قد زاد عدد ساكنها زيادة كبيرة فى قليل من الزمن كما هو الامر فى غيرها من الاقطار [1] .

والبلاد التى زخر فيها عدد القطنين أكثر من غيرها هى الهند . فهذه البلاد لم يبرح غالبها خاضعاً للتسلط البريطانى مدة تقرب من قرن . وكانت كلها من قبل ذلك العهد كثيفة الساكن ، ثم ازدادوا خلال القرن الأخير ضعفين أو ثلاثة [2] . ومن المعلوم البين ان هناك عوامل كالزراعة الحديثة والرى والقطر الحديدية والآلات الصناعية الحديثة ، كان من شأنها توفير استعداد الهند لكيلا تضيق بزيادة أهلها هذه الزيادة الفاحشة ، وهذا هو السبب الذى جعلها أرحب لقبول الزيادة بعد الفتح البريطانى منها قبله ، ولكن النتيجة واقعة

(١) طالما زعم المستعمرون ان البرهان الساطع على عدم الظلم ، وعلى انتظام الادارة وتوفر الاحتياطات الصحية فى مستعمراتهم ، هو ازدياد عدد الاهالى ، فهذه هى الهند قد ازداد سكانها كثيرا على ما كانوا قبل الحكم البريطانى ، وها هى جزائر الغرب كان أهلها مليوناً ونصف مليون يوم فتح فرنسا لها ، فصار فيها اليوم خمسة ملايين وهلم جرا . والحقيقة فى هذه الزيادة انها نتيجة الشرائع والطبائع وأساليب العيشة التى عليها الأهالى ، بدليل ان هذه الزيادة جري مثلها وأعظم منها فى تركية ومصر وبلاد العرب والافغان وغيرها من الممالك التى لم تتمتع « بنعمة الاستعمار » ولا علا فوقها بساط تلك الرحمه . . فكل أحد يعلم ان مصر لأول حكم محمد على لم يكن فيها أكثر مما كان فى الجزائر من السكان وها أهلها اليوم ١٤ مليوناً . فدعاوى المستعمرين من هذه الجهة ساقطه من ذاتها ، وهى من جملة تمويهاتهم العديدة لتغفل الناس عن حقيقة ادارتهم الغاشمة هناك ومما لاجدال فيه ان أهالى الجزائر لولا الاستعمار كان عددهم ضعف ماهو اليوم ، ولك أن تقول مثل ذلك عن سائر المستعمرات (ش)

(٢) فى أوائل القرن التاسع عشر كان مقدر قطين الهند ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فبلغ ٣١٥،٠٠٠،٠٠٠ على ماأفاد احصاء سنة ١٩١١

على كل حال وهى هذا التعاظم الهائل . وكاد جميع العلماء من أهل الخبرة والثقة يتفقون على هذه الحقيقة التى لاريب فيها . قال «دوق ارغيل» منذ أربعين سنة : « ليست كثرة النسل والولد فى البلاد التى أهلها على قلة بصر بادخار المؤن والأقوات وليس فيها غنى ولا ثروة ، ويعيش أهلها على الكفاف من فصل الى آخر ، دليلاً على الدعة ورخاء العيش » .

وعند آخر القرن الماضى تكلم السر وليم هنطر على قضية تزايد الساكن فى الهند فاطلق عليها اسم «القضية الاساسية الكبرى»وفىهذا الصدد قال : « من نتائج الحكم المدنى فى الهند تعاظم عدد الساكن الى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، حتى بات من الحقيقة التى يؤيدها الاحصاء الهندى كل التأييد ان ازالة النوائب الجتاحة والنوازل الفادحة التى كانت تنتاب الشعوب الاسيوية على التوالى لهو كل البركة والخير » . وقال اللورد كرومر فى كلام له على فاقة الهند : « وليس الأمر كله مقصورا على أن الفاقة لا تستطاع ملاشاتها بسلاح حب الانسانية فحسب ، اذ من الثابت ان حب الانسانية على الاطلاق هو سبب فى تعاظم الشر واستفحال البلوى (ولو بدا هذا القول غليظاً متناقضاً مابدا) . فى عهد « أكبر » و « شاه جهان » كانت الأوبئة من الهواء الأصفر والمجاعات سبباً فى تناقص القطين تناقصاً جعل الحياة عهدئذ حياة تنازع فى سبيل بقاء الأنسب . أما الآن فقد قضى على هذا التنازع والتناحر ، ثم جاء سلاح حب الانسانية ونزل منزلةً من عمران البلاد امتنع معها ذهاب ضحايا الأنفس وهراقة الدماء ، فازداد عدد الساكن زيادةً فائقةً ، حتى بات جانب كبير من أهل البلاد يعيشون على الكفاف بجهد وعناء [1] . الحقيقة أولى ان تعلم ، وهى أن الصعوبة فى حكم الشعوب الشرقية الكثيرة التوالد والتناسل لناشئة عن الحكومة الصالحة المشتملة على عاطفة حب الانسانية ولا ريب فى هذا الأمر الذى تجاهلناه من قبل غير مرة » .

وقد أجاد «وليم البشر» فى تبيان القضية فى جوابه على المسألة : ماهى العلة فى أن ترقى الأحوال الظاهرة لم يفض بالهند الى محجة النجح والفلاح ؟ اذ قال : العلة فى رأيى انما هى بسيطة لاتدعو الى كثير استقصاء . فان المنافع الحاصلة والفوائد المجتناة من الحكومة

(١) فتش فى معيشة الكفاف هذه ــ فى بلاد غنية فى طبيعتها كبلاد الهند ــ عن آفة الاستعمار ، وسحب ثروة البلاد الى الخارج ، لا عن وفرة حب الانسانية . . . . الذى امتاز به المستعمرون . . . والذى لو قدرنا وجوده من جهة لم يسد شيئا من الخرق الذى تخرقه سياسة الاستعمار فى الثروة الوطنية . وهل يوزن الخردل بالجندل ! (ش)

الصالحة هي أشياء لاقيمة لها البتة في بعض المواضع ، اذ شأن الشعب الذى تكون فيه تلك الحكومة ، ان يستعين بها لالترفية مستوى معيشته وتحسين أسلوب حياته ، بل للاكثار من النسل والذرية حتى يغدو ذو العائلة مستغرقاً في العيلة والفقر ، لايصيب من الرزق سوى مايسد الرمق . نعم ، أبان هنرى جورج ان كل فم واحد يخلق في هذا العالم يخلق معه يدان اثنتان . ولكن مع أن هذه الحقيقة الفسيولوجية لاتنكر ، فان الاستنتاج الذى يستنتجه الاقتصادى من هذا القول ، وهو ان مقدار انتاج اليدين يقتضى أن يفوق مقدار ما يستهلكه الفم ، لايصدق من الوجهة الاقتصادية الا في المواضع التى تنطلق فيها اليدان عاملتين عملاً مثمراً نافعاً . . . . ولكن ان زادت الافواه الآكلة على الأيدى العاملة فالمصير هو لامحالة الى فقر مدقع ومسغبة شديدة » .

على انه من نكد الطالع ان المفكرين الذين يوقنون بأن زيادة القطين هذه الزيادة الفاحشة هي السبب الأشد في فاقة الشرق والضيق النازل به ، هم عدد قليل بل جميع أرباب النظر ، يردون السبب المذكور الى العوامل السياسية وبالأخص الى السيطرة الغربية السياسية ولم نعرف الى اليوم سوى مفكر شرقى واحد أزاح النقاب عن محيا هذه الحقيقة فجلاها لبنى قومه بدون محاباة ، وخاض في هذا الحديث مقترحاً بالحاح أن ينشأ نظام يتعين به مستوى المواليد ، وهذا الكاتب الحكيم هو ب . ك . وطّال الهندى ، أحد الموظفين الوطنيين في ديوان المالية في حكومة الهند ، وضع كتاباً ، هو باكورة المؤلفات الشرقية من هذا النوع ، ووسمه « بقضية القطين في الهند [1] » ونهج فيه منهجاً دل على اقتداره وطول باعه وبعد بصره بالأمور . فجاء الكتاب دليلاً على ان المشارقة شرعوا يتنبهون الى قضية هي من جلالة الشأن بمكان ، بل هي من أعظم قضاياهم الحيوية .

استهل المستر وطال كتابه بنداء بنى قومه أن يعيروا الأمر اهتماما ويقدموا على علاجه علاجاً صحيحاً لاتحيف فيه ولا اضرار ، ومما قاله : « اريد أن يعلم كل قارئ ان الغرض المتوخى في هذا الكتاب ليس الطعن في حضارتنا الروحية الشرقية ، ولا إعلاء شأن الحضارة المادية الغربية ، سواء أكان مباشرة أم ضمناً ، بل ان الغاية المقصودة هي أنه يجب

(١) المستر وطال هو من موظفى ديوان المالية في الهند يشغل منصب معاون المحاسب العام . نشر كتابه سنة ١٩١٦ وطبع في بومبىء .

علينا أن نتنبه حد الانتباه الى مسئلة أساسية فنستبطنها ونتحرها علماً ، ونكتنه باطنها ونجلو غامضها ، ألا وهى قضية المعيشة ، وكيف نبتغى أسباب الرزق فى هذه الدنيا . لاينكر اننا شعب فقير ، ولفقرنا هذا الذى نعانيه أسباب عديدة أريد إيضاحها إيضاحاً شافياً كما يطلع عليها كل مواطن من بنى بلادى ، سواءٌ أكان ممن لم تصبهم النائبات يوماً ولا ذاقوا من العذاب فى سبيل المعيشة،أم ممن قد نالهم الضنك بهذا السبب وعضهم الفقر بنابه،ولكن ذلك لحسن الطالع ما كان بالعقبة الكأداء الحائلة دون إدراك النجح والفلاح لأسباب دبرتها العناية . ان هذه القضية لقائمة بذاتها ، وهى حقيقة مشهودة وواقع محسوس ، ولا علاقة لها البتة فى شأن من شؤون السياسة أو الدين . ياقوم ! أإذا كنا قد عانينا الأمرّين من جراء نتائج تلك الخطيئة ، أليس من الواجب علينا بعد ذلك كله أن نبادر للتخفيف من وخامة العاقبة وتدارك الشر قبل استفحاله وقاية لنا ولأولادنا من بعدنا ؟ ان أكبر بلية فى الأرض لهى الفقر والفقر أبو البلايا [١] . أقول هذا صريحاً ، على إجلال وتعظيم لحضارتنا الروحية ، وغير مريد تنقص الحياة الزوجية على الاطلاق ، بل انما غاية غاياتى فى هذا الكتاب أن أنادى بنى قومى أن يحفلوا بهذه القضية الخطيرة الحيوية ، وقد حملنى على ذلك وقوفى التام على ماهو منتشر فى البلاد من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين على كثرة النسل والولد ، وشعورى العميق بما يقاسيه جانب كبير من بنى وطنى ذوى الشأن والمكانة من النصب والمضض فى ابتغاء أسباب الرزق ، لهذا كان من الواجب علىّ أن أبين الكلام بدون محاباة ولا تردد وأوضح أسباب شقاء الناشىء الهندى وما ينتابه من الضيق الخانق والعسر المستحكم ، وهو على هذه الحال لايسعى فى النجاة من ذلك سعياً يرجى به الخير القريب ودرء البلاء » .

ثم يشرع المستر وطال بعد هذا النداء ، بالبحث فيقول ان السبب الكبير فى تعاظم عدد القطين فى الهند هو الزواج الباكر . ففى البلاد الأوروبية لايبلغ هذا التعاظم مثله فى الهند لأن الزواج الباكر ليس معروفاً فى تلك البلاد ، ولأن لنسبة المواليد متراوحاً معلوماً « أما الزواج عند الهندو بين فواجب دينى مقدس لامفر منه ، سواءٌ أكان الزوجان أهلاً له وللقيام بتبعته ، أم كانا غير ذلك دون أن يدركا للحياة الزوجية من معنى ، فالابن الهندوى

---

(١) من الأحاديث النبوية الشريفة . «الفقر الموت الأكبر .» و « كاد الفقر أن يكون كفراً» . (تر)

يجب عليه أن يتزوج وينسل الأولاد العديدة لكى يقوموا بالشعائر الدينية عن نفسه عند موته ، فاذا لم يكن ذلك ، راحت نفسه بائسة شقية تهيم فى الفقر . فان مجرد اسم الابن وهو « بوترا » معناه المخلص لنفس أبيه من جهنم التى اسمها « بوتا » والبنت الهندوية العذراء اذا أدركت سن البلوغ فلم تتزوج بعد ، كانت عاراً وشناراً اجتماعياً على أهلها ولعنةً أبديةً حلت باجدادها وأسلافها . وهذه الحالة فى أمر الزواج تكاد تكون عند المسلمين الذين وان كانوا لايعرفون شيئاً من مثل هذه التعبدات والاعتقادات فانهم يقتدون بالهندويين . وهناك سبب آخر ناشىء منذ زمن بعيد عما كانت قد اقتضته الحالة الاجتماعية أيام الفتوحات الاسلامية إذ كانت الزوجة عهدئذ ضرورة من الضرورات لتقوم بالخدمة البيتية ولتساعد زوجها فى حرث الحقول والأشغال اليدوية » وشر البلية ان الزواج الباكر أعنى زواج الأولاد دون سن الرشد ، لم يزل شائعاً ومتزايداً حتى اليوم ، على جميع مابذل من الجهد الكبير فى الاصلاح الاجتماعى . فقد أفادت أرقام الاحصاء لسنة ١٩١١ ان خلال العقد الأول من القرن العشرين زاد عدد الزوجات الاناث ذوات الأسنان . — ٥ من ١٣ الى ١٤ بالألف ، وذوات الأسنان ١٠ – ١٥ من ٤٢٣ الى ٤٣٠ بالألف وذوات الأسنان ١٥ – ٢٠ من ٧٧٠ الى ٨٠٠ بالألف . وبعبارة أخرى ان فى سنة ١٩١١ كان أكثر من العشر من كل ألف من بنات الهنود متزوجات دون سن العاشرة ، ونحو النصف متزوجات دون الخامسة عشرة وأربعة أخماس متزوجات دون العشرين » .

لهذا السبب ارتفع مستوى المواليد ارتفاعا هائلا . قال وطال : « غير أن هذا الارتفاع ما كان للبلاد أمراً تغبط عليه ولا تسر له . اننا قد عرفنا أسباب ارتفاع مستوى الوفيات فجعلنا نتداركه بوسائل التخفيف ، ولكن هل يعقل أننا نستطيع احتمال هذه الحال طويلا ما دامت جارية هذا المجرى بحيث ان مستوى المواليد يبلغ ٣٠ بالاف ومستوى الوفيات هابط الى حدٍّ يقرب من ذاك الذى فى انجلندة وسكوتلندة ؟ أترحب بلاد الهند بزيادة الساكن ٢٠ بالاف كل سنة ؟ اننا بلا ريب نلقى جزاء مراً على جلبنا الى هذا العالم نسلاً أكثر مما نستطيع حقا بعوله وتربيته . فان رمنا ارتفاع مستوى الوفيات فى البلاد وجب علينا إهباط مستوى المواليد الى الحد الذى يتساوى عنده مع السويات النازلة فى البلدان الاخرى . من هذا يعلم أن ارتفاع مستوى المواليد فى الهند هو علة بلائنا وأصل

شقائنا ، وسبب هذا الخطر الاجتماعي الهائل الحائق بنا . فارتفاع مستوى الوفيات وان كان من دواعي الاسف فهو ناشئ بطبيعة الحال على ارتفاع مستوى المواليد » .

ثم يصف المستر وطال مستوى الوفيات الهائل ، ولا سيما وفيات الاناث مما غالبه ناشئ عن الولادة الباكرة . ويصف أيضاً وفيات الاطفال التي تقشعر منها الابدان اذ نحو ٥٠ بالمئة منها سببه الاسقاط والاجهاض . هذا جزاء الزواج الباكر ، الجزاء الوفاق ولا بد منه .

« اذ يجب على كل شخص في الهند ذكراً كان أم انثى أن يتزوج سواء كان صالحاً لذلك أم لم يكن . لهذا ترى الصبيان والبنات يصبحون آباء وامهات ابكر ما يكون » . على أنه من المعلوم أن الزواج الباكر هو غاية ما بعدها غاية في الضرر ، ومفسدة لضلاعة الجنس وصحة الجرثومة وقاض على سلامة المزاج . وهذا الزواج الباكر هو أشيع ما يكون في العناصر الدنيا من أهل البلاد الاصليين « كالبارياه » والمنبوذين . وقد بات من الواقع أن حيوية أهل الهند على الجملة أخذت تنحط وتتدلى . وتفيد أرقام الاحصاء أن عدد المسنين والشيوخ في تناقص وهبوط . وتؤيد ظواهر الحال هذه الحقيقة ، اذ غدا من يعمرون ويهرمون أقل من القليل في بلاد يبلغ عدد ساكنها مئات الملايين ، قال وطال : « ان الجيل المقبل تعتوره آفات شديدة وهو في طلائع الحياة ، فالاعمار تقصر ، وحبال الحياة تتصرّم ، وشيوخنا اليوم أقل منهم بكثير منذ ثلاثين أو أربعين سنة . فهل تأملنا في جسامة الخطر الحائق بحياة الامة جمعاء ، وتبصرنا في اعداد الوسائل التي نستطيع بها درء ذلك ، ان الوطنيين الشيوخ الذي هم وحدهم يستطيعو بطول خبرتهم وواسع حكمتهم وسديد رأيهم ، تولي مناصب الأمر والنهي ، والقيام بالشؤون العامة الكبرى في البلاد ، بات الموت يختطفهم الواحد تلو الآخر . فغدت مصالح التدبير والقيادة والزعامة والارشاد في بلادنا ، المصالح التي لا يقوم بها في بلاد الغرب غالباً الا اخو النهى الراجحة واصحاب الحنكة العظيمة ، يتولاها عندنا فتية لم تصقلهم التجربة والخبرة ولا كسبتهم الايام حنكة صادقة ولا بصيرة نافذة » .

وبعد أن أنذر المستر وطال ابناء بلاده بأن ترقية الطرق الزراعية ، ونمو الصناعة والهجرة من مقاطعة الى أخرى ، كل ذلك ليس من شأنه انقاذ البلاد من شر هذه الزيادة

فى عدد القطين ، الزيادة التى بات بسببها غالب أهل البلاد لاينالون من الرزق أكثر مما يسد خلتهم وينتشلهم من أنياب المسغبة ، أشار الى ظهور بعض التباشير الحسنة الدالة ، مع شدة رسوخ الدين والعادات ، على أن أهل البلاد شرعوا يدركون خطر الحالة ، وعلى أن هناك أمارات فى بعض البلاد تنبئ بأن مستوى المواليد أخذ يكون عند حد . ومثال لذلك فقد اقتطف المستر وطال من البيان الرسمى لاحصاء سنة ١٩٠١ هذه العبارة المشيرة الى شئ من الهبوط فى مستوى المواليد فى بنغال : « ليس تأخير الزواج هو كل السبب فى تناقص المواليد ، بل من جملة الأسباب الرغبة فى تقليل النسل رغبة ناشئة عن تبصر وروية . . . ومما هو جدير بالملاحظة ان بعض الطوائف فى « أسام » قد شاعت فيهم عادة استعمال الوسائل لاسقاط الحمل ». وجاء فى تقرير اللجنة الصحية فى « أسام » سنة ١٩١٣ : « يظهر أن السبب الخطير فى هبوط مستوى المواليد ناشئ عن اختيار ورغبة فى تقليل النسل » .

على أن هذه التباشير واللوائح الدالة على صيرورة مستوى المواليد متراوحاً فى حدود محتملة انما هى موضعية ، فليست بالوسيلة الكافية لانقاذ الهند من خطر جاوز الحد . فالحالة تدعو الى مزيد التبصر بالعاقبة وتقتضى السرعة فى اتخاذ الذرائع الناجعة . قال المستر وطال : « ان النتيجة لواقعة دون مردّ ، فلا نستطيع بعد التغاضى عن هذه الآفات الاجتماعية التى تقرض جسم الأمة . فلنعلم أن الآلة المحركة قد حلت محل عجلة الثيران فى بلادنا بحيث بتنا بسبب هذا التغير نتنازع البقاء مع الشعوب الأوروبية وهى أشد منا حولاً وأرق سوياً ، فلا نستطيع بعد أن نقول لهذه الشعوب ماقال ديوجينوس للاسكندر « حدْ من شمسى ». ومن الراجح أن سيعود أهل العلم بعد أن تضع هذه الحرب العالمية أوزارها فيبحثون فى مسئلة زيادة السكان ، وربما ذهبوا فى آرائهم الى الرغبة فى تحبيذ الزواج الباكر وتكثير النسل تعويضاً عما اجتاحته الحرب من الأنفس ، ولكن ذلك أولا ليس من طبيعته تسوية قضية الساكن فى بلادنا ، وثانياً سيكون رد الفعل الذى يدعو اليه أهلم العلم قريب الأجل ».

والكتاب حافل بمثل هذه الحقائق الجلية . وعدا ذلك فلا نغفل عن أن الهند وان كانت أكثر البلدان عناء من زيادة عدد الساكن فالحالة فى سائر الأقطار الشرقية مثلها فى الهند ، اذ أن التبصر فى تحديد مستوى المواليد مفقود من الشرق كله . وهناك الى جانب

هـذا الازدياد فى عدد الأهلين ، تلك الشرور الاجتماعية والاقتصادية التى تقـدم الكلام عليها . لهذا نرى فقراً شديداً ، وضعفاً بيناً مرافقين هـذا الدور دور التطور والانقلاب فى جميع أقطار المشرق .

على أن المشارقة جميعاً ، سواء كانوا من سكان المدن أم من أهل الرساتيق والقرى يكادون لايجاوزون فى ابتغاء الرزق حد الكفاف . قال الاقتصادى الانكليزى برايلسفورد يصف حالة الفـلاح المصرى : « ان مناظر الفاقة التى رأيتها فى القرى لم أشاهد مثلها قط فى جبال مكدونية ولافى بقاع دونيغال . . . فهـذه القرى فى مصر انما هى ركام من الاكواخ المبنية من الطين ، لايتخللها أشجار ولاأزهار ولاغياض ولاجنان ، والأكواخ من الداخل ليست مستوية الأرض وليس لها نوافذ فهى أشبه بالسراديب الصغيرة مؤلفة فى الغالب من غرفتين صغـيرتين غير مشيدتين بالجص ولا مفروشتين بالبسط والطنافس . أما الأكواخ التى دخلت اليها فلم يكن فيها من الأثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ وحصير يقوم مقام الفراش وجرة مملوءة من طعام الذرة » . وقال موظف بريطانى من موظفى مصلحة الصحة فى الهند يصف حالة الفلاح الهنـدى . « لابد للرائى أن يرى كل عائلة تسكن مخدعاً صغيراً جدرانه وأرضه من الطين ، مشتملاً على ساحة صغيرة أمامه ، فيها الأقذار كوماً هنا وهناك ، وزريبة الماشية ، وبئر تملأها الأمطار والمياه الجارية اليها من على وجه الساحة الوضرة . وهـذه الأكواخ لصيق بعضها ببعض بحيث تتألف منها قرى ومدن كبيرة على هذه الصفة » .

والحالة فى المدن شر منها فى الأقاليم ، لأن مزدحمات الساكن فى مدن الشرق تفوق تلك التى فى مدن الغرب . وقد وصف الكاتب الفرنسى لويس برتران هـذه المزدحمات فى بعض مدن الشرق مثل القاهرة والقسطنطينية وبيت المقدس وصفاً وافياً يضيق المقام عن ايراده كله فنجتزى بذكر بعضه . قال الكاتب فى شأن مزدحم الساكن فى القاهرة : « لعل الخصاصة والفاقة فى بيوت الطبقة الفقيرة فى القاهرة وسائر بلاد مصر أشـد منها فى سائر الأقطار الشرقية ، فكل هـذه البيوت مؤلف فى الغالب من غرفتين أو ثلاث لانوافـذ لها لدخول نور الشمس والهواء النقى ، متصلة بايوان لايقل ظلمة عنها ، وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن ألواح الجـدران الخشبية النخرة على أرض المسكن الوسخة . والهوام

والحشرات مستقرة على الحصر والفرش » .

وهكذا الحالة فى الهند . قال فيشر : « كانت قد نشأت قضية ازدحام السكان وقد اشتد التشاح على السكنى فى مدن الهند قبلما أخذت الصناعة فى النشوء والنمو المطرد . فلما انتشرت المعامل الصناعية باتت ألوف من العمال والعاملات ، يشتغلون ليل نهار ، بحيث لايستطعون بعد الفراغ من عملهم الابتعاد كثيراً من المعمل للمبيت بسبب نهاكة قواهم وشدة اعيائهم ، فلذلك تراهم يعيشون فى البيوت والمساكن القريبة المطبقة بعضها فوق بعض وهم يزدحمون فيها ازداحاماً شديداً ، وإذ لامتسع لسكنى الجميع فمن منهم لايتيسر لهم المبيت فى هذه البيوت القريبة ، ينتشرون فى الأسواق ويتخذونها بيوتاً ومساكن . وقد بلغ ثمن الفدان الواحد من الأرض حيث الأماكن الغاصة فى كلكتا منذ عشرين سنة (أى منذ سنة ١٩٠٠) ٢٠٠،٠٠٠ ريال » وقال كاتب غربى يصف كلكتا بأنها منقطعة النظير فى سوء الحال فى الشرق « العمال على اختلافهم يعيشون فى المزدحمات الفاسدة الهواء عيشة أشبه بعيشة الخنازير . فالبيوت انما هى منتشر الأبخرة الضارة ، والبلاليع والأفنية ملأى بسوائل الأوضار والفضلات . والطرق متدمنة بما ارتص فوقها من الأقذار . والابقار تشرب من الآبار المستقرة فيها تلك الأوساخ ولبنت الأفران والتنانير بأقل سوءاً من سائر مرافق المساكن » . والحالة فى سائر المدن والمراكز الصناعية فى الهند على غرار واحد . فقد ذكر موظف وطنى من موظفى مصلحة الصحة فى تقرير له بشأن مزدحمات المساكن فى بومبىٔ سنة ١٩٠٤ مايأتى : « فى هذه البيوت والمساكن التى هى منشأ الجرائم المختلفة ، ومرتكب الجرائم ، ومستقر الأمراض والأوبئة والفاقة والرذيلة ، يعيش أناس فيهم المارض والفاجر ومدمن الخمرة والجاهل والغبى ، قطعاناً أشبه بقطعان الحيوانات فى زرائبها ، يزحم بعضهم بعضاً » .

زد على ذلك ان الحالة فى المدن تزداد سوءاً لاتحسناً كما هو ظاهر . يتضح من جميع هذا أن قضية ازدحام المساكن تعظم شأناً أكثر من أية قضية سواها فى الشرق . ففى مفتتح هذا القرن كان الازدحام فى المدن التى هى اليوم مراكز صناعية فى الهند مثل كلكتا وبومبىٔ ولكناو ، على نسبة تفوق نسبة ازدحام لندن ثلاثة أضعاف . ثم جاءت الحرب الكونية العامة فأقامت وأقعدت . وزادت ضائقة السكنى شدةً . وقد كان من شأن هذه

الحرب العامة فى الشرق كما فى الغرب أن سببت استحكام حلقات الضيق حتى تلاشت به أسباب الكسب وضاقت أبواب الرزق ، فتغيرت الحال . فبانت الألوف المؤلفة من الخلق تؤم المدن والحواضر ابتغاء وسائل المعيشة فاكتظت هذه بمن لجأ اليها ، ووقفت أعمال تشييد المنازل والبيوت والمساكن بسبب غلاء الأجور والأثمان والنفقة غلاء فاحشاً غير مسبوق المثيل ، فنجم عن جميع ذلك ارتفاع أجور السكنى الى حد غير محتمل مما وافق هوى أصحاب العقار ، فانطلقوا يستنزفون أموال الناس بهذه الوسيلة وأمثالها . قال فيشر : « قد ارتفعت أجور المساكن ٣٠٠ بالمئة ، ولم تر الحكومة من ذريعة للقضاء على ذلك فاضطرت الى مماشاته بما سنته من القوانين ووضعته من الأنظمة . فاجتمعت ألوف الناس فى بومبيْ يحتجون على هذه الحال ، الأمر الذى حمل الحكومة على اتخاذ التدابير المانعة لزيادة استفحال الأجور ، فعينت الحد الأعلى لها فيما يتعلق بمساكن العمال وأهل الحرف والمهن . ولكن هذا العمل إن هو الا من قبيل تخفيف الوطأة وليس من شأنه أن يزيد عدد المساكن والمنازل » .

ولا يندّن عن البال ان غلاء أجور السكنى هذا الغلاء الفاحش انما هو جزء من جملة الضيق الذى عمت بلواه الحياة بأسرها وهو ماانفك يتصاعد فى الأقطار الشرقية منذ عشرات من السنين ثم شرع يستفحل منذ سنة ١٩١٤ . كتب برتران فى وصف الحال فى الشرق الأدنى منذ بضع عشرة سنة فقال : « أينما كنت أسير فى الشرق الأدنى ، فى القسطنطينية أو أزمير أو دمشق أو بيروت كنت أسمع التذمر من شدة غلاء المعيشة من جميع الجمهور وطنيين وأجانب » . أما الحالة اليوم فأدهى وأمر . قال السر فالنتين تشيرول فى وصفه الحالة فى مصر منذ الحرب : « ان ارتفاع أجور العمال هذا الارتفاع الهائل لم يكن على مقدار متناسب مع غلاء الأسعار ، بحيث ان العامل غدا لايستطيع مماشاة السوق وأصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات المعيشة ، وهذه الحال هى أشد مايكون فى المدن والمراكز الصناعية ، حيث أهل الطبقات الدنيا من عملة وساقة وحوذيين وباعة وغيرهم لاطاقة لهم البتة على احتمالها » . فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخناق ، المستحكمة عرى الضيق ، مظاهر فساد الأخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الاجرام والجنايات . وقامت دلائل عديدة على نشوء القلق الاجتماعى والاضطرابات الثورية والهياج الفكرى ، مما نبسط الكلام عليه فى الفصل الآتى .

الفصل التاسع

القلق الاجتماعي والبلشفية

ان القلق والاضطراب ، هما المصاحبان الطبيعيان للتطورات والانقلابات لاسيما الفجائية منها . فكل انتقال من حالة قديمة الى أخرى جديدة ، وان كان ذلك من القسم المعتاد ومما لابد منه ولا مندوحة عنه ، من شأنه أن يتكيف بالضرورة على مقتضى تلك الحالة الجديدة التي من خصائصها الشعور بالاختلال والاضطراب الى أجل ما ، الى أن يجرى التكيف الى مستقر له وتستحكم صبغته ويثبت لونه . فلذلك ليس فى القلق المرافق للتطور شئ من الغرابة ، ولا ذلك التطور بجملته خارج عن السنة الطبيعية ، بل القلق مستقر فى طبائع كل مجتمع من المجتمعات البشرية التى لم تنته الى الدرك الأسفل من الانحطاط والتدلى بعد . ثم ان هذا القلق اذا كان على مقدار قليل اعتبر دليلاً على الارتقاء الاجتماعى الصحيح وبرهاناً على النمو العمرانى السليم ، ولا يصح أخذه أمارةً من أمارات الاعتلال ولا علة من علل السقم . واعتبر فوق جميع هذا انه اذا كان هذا القلق ضيق الدائرة بحيث لم يجاوز الحد الأدنى ، فلا يعرف فى الغالب هذه المعرفة التى ذكرناها ، ولا يفهم على هذه الصفة ، بل يعتبر عارضاً من جملة العوارض المسببة عن النشوء الطبيعى والارتقاء المعتاد . وفى مثل هذه الحالات يعمل الجهاز الحى فى الجسم الاجتماعى عمله ويقوم بوظيفته ، على حد مايعمل الجهاز الحى فى جسم الفرد الانسانى ، وهى أبداً دون انقطاع فى دثور وتجدد واضمحلال وظهور ، ايلافاً لتطورات الحياة ، وملائمة لبيئتها على مايقتضيه عامل التكيف . ولهذه التحولات على الجملة شأن خطير . وهى من التدرج والسير شيئاً فشيئاً بحيث انها تحدث وتتم على صورة يكاد لايشعر بها ، ووجه لايدركه الا المستبطن الحكيم والعارف اللبيب . فالعضوية الحية السليمة ، الصحيحة العنصر من حيث هى ، الملائمة لمقتضى البيئة ، انما هى على

الدوام قابلة للتكيف والتبدل ، ومستعدة استعداداً طبيعياً لاتخاذ شكل جديد واكتساب صورة غير صورتها المعهودة ، وهى بسائق السنة والهداية تسير فى سبيلها متامسة بمشاعرها التطورات التى تقضى بهـا عليها البيئة ، وتستوى معها بالملائمة وتجانسها بالايلاف ، حتى تكون سالمـةً من شائبـة الاختلال ، ناجية من الفوضى وعواقبها الضارة ونتائجها المفسدة .

ولكن ليست كذلك صفة القلق الناشئ عن التبدل العنيف والتغير المفاجئ . فان التبدل والتغير اللذين من هذا النوع يدلان على تطور سريع ، يحدث ويجرى مجراه ساحياً جارفا ماهو أمامه ، وانقلاب بديه من القديم الفانى الى الجـديد الواقع ، فيعتل التكيف ويختل التلاؤم ، اللذان تقتضيهما عوامل البيئة الجديدة، لقصر مابين الاضمحلال والفناء ، والظهور والكيان . ذلك بعبارة أخرى ، ان القلق العنيف ، الشديدة الحركة ، دليل لامشاحة فى صحته على الاعتلال الاجتماعى ، المنذر بامكان وقوع البحران ، والذى يظهر فى المجتمع على حين غفلة ، ذلك البحران المعروف « بالثورة » .

ان تاريخ الشرق الاسلامى ليصح أن يتمثل فيه معنى المفاجأة الذى تقدم فقد كان عصر تكون الحضارة العربية ونشوئها متصفا بسرعة التطور والانقلاب الفكرى العظيم وتلك فرقة المعتزلة قد اشتملت تعاليمها (١) على ضروب عديدة من منازع الأفكار والآراء حتى ذهب الغلاة من هذه الفرقة فى تعاليمهم الدينية والسياسية والاجتماعية مذهباً تجلت فيه خصائص الانتقال الفجائى ، والاستحالة الثورية العنيفة . غير أن ذلك العصر ، عصر الانقلاب والتغير ، والتطور الى حد بعيـد ، قد كان قصير الأمد . فلمـا تستطع الحيوية العربية والروح الاسـلامية بما فيهما من العوامل ، أن تخمرا ما كان فى الشرق القـديم عهدئذ من القوى النامية المكتنفة بطبائع وأمزجة مختلفة تخميراً باقى الأثر طويلا . لهذا لم تلبث السنن التقليـدية أن عادت فانتشرت وتمكنت ، وعليها غشـاء من أثر التطور العرضى ، والعناصر الاصلية لتلك السنن ظلت على صفتها دون أن يتناولها مؤثر يغير من جوهرها . ثم أخذت الحضارة العربية ، وقد عراها جود وكهامة ، وفشا فيها الانحـلال ، تتقلص وتنقبض ، فتلاشت بواعث التطور وسكنت عوامل التغير وضعفت روح التجدد

---

(١) اقرأ التعليق الوارد على المعتزلة فى آخر هذا الكتاب . (المعرب)

واضمحلت العلامات الدالة على سير الانقلاب ، ولم يبق بعد طموس معالم تلك الحضارة الا تقاليد الغلاة ، تلك السنن التي احتفظ بها في بعض المواضع العربية ، وكانت تنحدر تحدراً خفيا في بعض الاقوام كفرق الخوارج [١] الناهضة من قلب شبه الجزيرة ، ودراويش البكطاشية [٢] غيرأن هذا جيعه لم يزد على كونه من العوارض المستترة ، دون أن يكون لها أهمية كلية .

فلما تبدلت تباشير اليقظة الاسلامية في مفتتح القرن التاسع عشر ، طفقت الدلائل تكثر على تجدد الحركة الاجتماعية ، وظهور ما في الهيئة الاسلامية من القوى بعد هجعتها الطويلة . فنشأت الوهابية ولم يكن غرضها الاصلاح الديني فحسبُ ، بل الاجتماعي أيضا ، فشرعت تنعى على المجتمع الاسلامي المعاصر انحطاطه وتدليه ، وتنزع منزعا شديداً الى القيام بالاصلاحين معا . وفي كثير من حالاتها اتخذت الوهابية الفتنة أو الثورة الاهلية شكلا لخروجها على الحكومات الحاضرة . ومثل هذا كان غرض الحركة البابية [٣] في ايران الحركة المشابهة للوهابية في الغاية ، وبين منشأ الحركتين عهد قريب .

ومن المعلوم أن هذا القلق المتجدد في العالم الاسلامي كان الباعث له والسبب فيه هو تدفق المؤثرات الغربية من آراء وأفكار وأساليب في كل أفق من آفاق الحياة ، وهذه المؤثرات لم تفتأ طيلة القرن التاسع عشر تنتشر في الشرق وتنبث في جميع أقطاره بدون انقطاع . ومن أراد البرهان فليعلم أن ليس هناك من باعث على الاضطراب أشد وأقوى ، وهائج للقلق أمضى وأفعل ، مما هو حاصل اليوم من التطور والانقلاب في الشرق ـ التطور والانقلاب اللذين هما من السرعة والأهمية ، واقتضاء التكيف ، بحيث أن ماهيتهما تدل دلالة صريحة على انهما أطبق على صفة الانقلاب الثوري المفاجئ ، مما هما على شكل النشوء والترقي . وقد بسطنا الكلام وافيا على مجاري هذه التطورات العميقة من جميع وجوهها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى ما يصاحبها بطبيعة الحال من الهياج والحركة في الخواطر ، ومن الأزمة والبحران في كل طبقة من طبقات المجتمع الاسلامي ، في هذا الدور العصيب .

---

(١) اقرأ التعليق الوارد على الخوارج في آخر هذا الكتاب . (المعرب)
(٢) اقرأ التعليق الوارد على البكطاشية في آخر هذا الكتاب . (المعرب)
(٣) اقرأ التعليق الوارد على البابية في آخر هذا الكتاب . (المعرب)

وقد وصف اقتصادى بريطانى كيفية الانقلاب الثورى الحادث فى الهند وصفاً شافيا وأوضح سعة الشقة بين سوى المدن والحواضر، والسوى القروى فقال : « ان أقاليم الهند لم تبرح على حال من بساطة العمران والتأخر المدنى كالتى عرفت فى القرون الوسطى فالمدن والحواضر قد انتشرت فيها أساليب هذا العصر وفنونه حتى باتت أشبه بمدن الغرب وحواضره » . وفى هذه المدن والحواضر الهندية تجد الحياة على الطراز الغربى « مستوفية كل نسق جديد ، مع جميع المرافق المستحدثة ، وذلك ظاهر فى حياة أرباب المصارف والمعامل حتى باعة الحلوى والماعون . فعظم الاختلاف وطالت شقة التباين بين الحياتين ، حياة المدينة وحياة الاقليم . ومن المؤكد الذى لامراء فيه ان هذا البون لم يكن له مثيل قط فى جميع التاريخ الاقتصادى المعروف الى اليوم ، اذ لاتجد بلاداً سوى الهند قد جمعت بين هاتين الحالتين المختلفتين ، حالة المدن والحواضر ، وحالة القرى والاقاليم ، فى أى عصر من عصور التاريخ الاقتصادى فى العالم » . تصور لك دوراً مثل هذا فى أوروبة فيما لو قدر اجتماع أوربى حديث مع آخر قديم من القرون الوسطى ، وكلاهما نقيض الآخر رأيا وفكراً فما أوسع المغايرة بينهما وما أعظم الاختلاف . لكن هذا لا يقع فى أوروبة اذ كان تقدمها الاقتصادى ناشئا بالتدريج يرتقى ارتقاء طبيعياً » . وقد دامت هذه الحال قروناً . وليس كذلك التدرج الاقتصادى فى الهند ، فانه ثورى فجائى .

ومن يستقص طبائع هذا الانقلاب فى الهند اليوم يعلم حق العلم مبلغه من المواثبة والسرعة ويدرك أنه حركة ثورية .

« ان أقاليم الهند وان كانت لم تزل على حال السذاجة ، فقد انتشر فيها كثير من الآراء والأفكار والمبادىء الناقضة لتلك الصبغة الباقية منذ القديم . فلما نشأت الصناعة فى البلاد صارت أجور المنافسة تبارى الاجور المحدودة فى البلاد منذ أزمان طويلة ، وأضحت الأثمان تارة يحددها العرف والعادة ، وتارة تحددها العوامل والأسباب الاقتصادية الحرة . وأخذ العمال الذين لم يكن من شأنهم ولا شأن آبائهم وأجدادهم من قبل ، الانتقال والهجرة ابتغاء أسباب المعيشة ، ينزحون من اقليم الى اقليم سعياً وراء الأجور الحسنة . ثم انتشرت أسباب وعوامل اقتصادية فجأة فى موضع موضع ، وشرعت تعمل عملها فى مجتمع لم تبرحه صبغة السذاجة منذ قرون . هذه هى الحالة فى الاقاليم . اما الحالة فى المدن والحواضر فتكاد

لا تختلف عنها من حيث انتشار العوامل الاقتصادية ، ولكن هناك اختلافاً فى بعض الوجوه . . . ان هذا الانتشار فى المدن والحواضر لم يكن من شأنه الامتزاج بتلك الهيئة القديمة امتزاجاً تاماً . فبات النظامان القديم والجديد يتناحران أشد التناحر .

« فالهند ، وهذه حالها اليوم ، تجتاز ثورة اقتصادية هائلة ، وهذه الثوره متناولة كل طبقة من طبقات المجتمع المتعدد الأوصاف . واعلم فوق هذ ان الدور الوحيد الماضى ، الذى تشبه فيه أوروبة الهندالجديدة بعض الشبه انما هو دور ثورتنا الصناعية التى لم يهدأ ثائرها فى الغرب حتى اليوم ، ولا استقرت حالها استقراراً مكيناً . ولما لم يكن حدوث الحركة الفكرية العقلية التى ظهرت فى الثورة الفرنسية معاصراً لحدوث الثورة الصناعية ، فقد حصل لأوروبة من ذلك لطف عظيم ، اذ لو حدثت الثورتان معاً لكان من المحتمل ان المجتمع الاوروبى قد انهار ودُكت أركانه دكاً حتى الآساس . ولكن بعد أن أضحت الثورة الفرنسية خائرة القوى مسلوبة المنة ، بسبب كثرة الحروب النابليونية ، نشبت الثورة الصناعية فألهبت المجتمع نار سخط مستطيرة. انه لمن المعلوم الذى لاريب فيه ، أنه متى قضى التطور الاقتصادى على شعب كامل ، بأن يبدل على اختلاف طبقاته معيشته تبديلاً رامياً الى التحسين والترقية ، كان لابد لجانب من هذا الشعب من أن يعانى الالم والضنك فيشتعل غضبه اشتعالاً . ثم تظهر على أثر ذلك الحركات السياسية العنيفة ، وتنتشر عوامل الخراب والبوار فى المجتمع . فما نشأ عن الثورة الصناعية ليس ثورة سنة ٤٨ ، فحسبُ ، بل نشأ الحزب الاشتراكى أيضاً .

« على ان تلك الثورة فى أوروبة ، ما كانت جارفةً مثل الثورة القائمة اليوم فى الهند . فان استكشاف البخار واختراع الآلات المحركة فى أوروبة ، كان يتدرج الى الكمال شيئاً فشيئاً طيلة قرون . وخلال هذه المدة كانت التجارة والصناعة على امتداد وانتشار دون انقطاع ، وكانت رؤوس المال تنمو وتتراكم ، وكانت القواعد والأصول الاقتصادية تزداد ثباتاً ورسوخاً . . . أما الثورة الاقتصادية فى الهند فهى أعظم شأناً ، وكان مثارها أوسع مضطرباً من ثورتنا الصناعية . فالمسالك الحديدية قد أنشئت فى طول البلاد وعرضها حتى وصلت بين الأقاليم التى كانت الأسفار فيها من قبل غير مستطاعة والطرق غير معروفة . وشيدت المعامل وملئت بعمال لم يسبق لهم مران على القيام بالأعمال

الصناعية . وطفقت رؤوس المال تتدفق على الهند ، البلاد التى لم تكن على استعداد لأن تستحث هذا الاستحثاث الهائل فى سبيل التقدم والترقى . فاذا كانت نتائج جميع هذا ترى ؟ تفككت أوصال النظام الاجتماعى فى الهند تفككاً تاماً وتقوض بنيانه تقوضاً . وانقضى الزمن الذى كان فيه البراهمة كهنة وسادة ، وفلاحو الهندويين عبيد الأرض وارقاءها ، والمرابون الهندويون أرباب رؤوس المال المحتجنة بين أيديهم . وباتت الآلات المستحدثة تهدد الحاكة اليدويين بالقضاء على صناعتهم ، وصار النحاسون لايستطيعون جنى المكاسب من وراء مهنهم ، فما اعظم هذا الانحلال الذى سببه التطور الفجائى ، وما أكثر الذين حال التطور بينهم وبين الانكماش والجد فى حرفهم الموروثة ، ثم قارن ذلك بما حصل من نوعه فى أوربة ، والثورة الصناعية فى أوروبة كانت أضيق نطاقاً ، تعلم للحال حق العلم ماهية العوامل الكبرى والبواعث العظمى فى هذا الاضطراب السياسى . وليس هذا بداعى العجب بل داعى العجب كون الاضطراب لم يكن أشد وأقوى . انه لو لم تكن الهند لعمرى بلاداً شرقية اسيوية لكانت ثورتها هذه قد اشتعلت نارها من قبل هذا العهد بزمن طويل . »

ان هذه السطور قد دبجها كاتبها الاقتصادى فى مفتتح القرن العشرين قبلما اربد جو العالم بسحب الكارثة العظمى ، وزلزلت الارض زلزالها بهذه الحرب الجارفة ، ونشبت الثورات الاجتماعية الآكلة فى روسية الآسيوية . على أن بعض علماء الشرق الأعلام كانوا قبل الحرب ينذرون العالم بنشوب ثورات اجتماعية لا تبقى ولا تذر فى اقطار المشرق . قال الزعيم الهندوى الوطنى الكبير بيبن شندرا پال : « ان هذا الاضطراب ليس فى الحقيقة سياسياً ، ولكنه بحقيقة جوهره نهضة فكرية عقلية روحانية ، تعد بشير ثورة اجتماعية عظيمة ، يتلوها نظام جديد وفلسفة جديدة فى الحياة » . وقال الكاتب الفرنسى شلى فى شأن الهند أيضاً : « ستحدث سلسلة من الثورات الاقتصادية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وسيصحبها بالضرورة شدة هائلة وألم عظيم يعانيهما الشعب » .

وكأنما الضيق المزداد فى احوال المعيشة قبل الحرب ، مع الاقبال الكثير على انتحال الأساليب الغربية فى الرغادة والنزوع الى ضروب المرافق الجديدة على حسب ما يقتضيه المستوى الجديد ، كل ذلك كان باعثاً على اشتداد المزاحمة بين طبقات كل شعب من

الشعوب الشرقية . فقد كتب خبير صحى بريطانى سنة ١٩١١ يقول : « الفاقة والشقاء هما علة العلل فى الاضطراب السياسى فى الهند » . و بعد أن وصف الكاتب ما تعانيه عامة الهند من البؤس الشديد قال ورب قائل يبتدر القول ان هذه الحالة ليست بحديثة فى الهند بل هذه صفتها منذ الازمان الطويلة ، فلذا ليس من شأنها ان تكون اليوم أبعث على القلق والاضطراب منها فيما مضى . غير ان الحقيقة على ما أرى هى بخلاف ذلك . اذ ان القلق والاضطراب كانا ثائرين على الدوام ثوراناً مستتراً يستبينه كل من تدبر سير الانقلاب قليلاً . زد على ذلك ان عامة الطبقات الدنيئة كانت فيما مضى ، من رقة الحال وشدة الفاقة ، بحيث كادت تكون النسبه بينها و بين غيرها من الطبقات السعيدة ، مفقودة . اما اليوم فتستطيع هذه الطبقات ان تفخر بشأنها وتقارن بين حال مزدحمات ساكنها ومحلاتها الوطنية التى تقيم فيها و بين محلات سكنى البريطانيين وأكثر منازلهم ترتيباً ، بل و بين منازل الموسرين والوجهاء من سائر ابناء البلاد . فتلك الفاقة كانت أبداً سبب الاسباب فى نشوء القلق العام . . . وما الاجتماعات التى يظهر فيها الهرج والمرج والثرثرة السياسية وتصعد منها نفثات الصدور ، الا مظاهر ابتدائية يتلوها اضطراب عميق الغور بعيد المرمى وقلق راسى الجذور رحب الافق » .

لا ريب ان من الاسباب الكبيرة فى حصول هذا التزاحم والتكالب الاجتماعيين الآخذين فى الازدياد والتعاظم ، هو ماينقص المشارقة على العموم من حب التعاون الاجتماعى ، وقلة اكتراثهم بمقاسمة بعضهم بعضاً الضراء ، و بعدهم من التساهم فى تحمل البلاء ، واعراض كل جانب منهم عن مديد النصرة الى الجانب الآخر ، وشأنهم هذا معروف لا سيما حيث لا تجمع أواصر القربى وصلات الارحام بين فريق وفريق ، ولا تربط بينهما مرتبة أو طائفة أو عرف أو عادة . فالتعاون الاجتماعى بمعناه الغربى يكاد يكون مفقوداً فى جميع البلدان الشرقية . على ان بعض العلماء الشرقيين ما كانوا ليغيب عنهم العلم بهذا النقص الذى فى مجتمعهم ، فقد قال كاتب هندى فى كلام له على حياة الهندى فى المدن والحواضر : « ان التعاون الاجتماعى ليس معروفاً عندنا على مقدار يصح القياس عليه ... ان الاصلاح الاجتماعى فى الهند لم يبرح حتى اليوم مقصوراً على نطاق حياة الفرد أو الأسرة ، أما الاصلاح الذى يجب أن يتناول سواد الجمهور بصفة كونه مجتمعاً انسانياً ، وان يتناول أهل المدن

على الخصوص وهم أقل أهل البلاد مروءة صحيحة ، فلم يبشر بانجيله بعد » (من كلام ايوسف على فى كتابه « الحياة والعمل فى الهند » لندن سنة ١٩٠٧) وقال عالم أميركى من علماء العمران الاجتماعى يشير الى تزايد الشرور الناشئة عن حال،زدحمات المساكن فى جميع الاقطار الشرقية التى انتشرت فيها الثورة الصناعية : « ان الخطر الاكبر ناشئ بلا ريب عن عدم شعور الشرقيين شعوراً مثل شعور الغربيين بما لحياة الفرد مجتمعاً مع غيره من الشأن وما عليه من الواجب . فجتمع الشرقيين على الجملة فاقد لتلك الصفات التى يشتمل عليها جمهورنا الراقى الذى ايقظه وهذبه استمرار التنازع الصناعى فى الغرب طيلة قرن . وما دام الشرقيون يجهلون هذا النقص ولا يتلافونه بالدواء الناجع فان الشرور لمستفحلة استفحالاً ما عرف مثله فى الغرب .

ان جميع هذا القلق الاجتماعى المنتشر فى الشرق مستقر فى موضعين حديثى الظهور : الأول الطبقة الراقية المهذبة على الاساليب الغربية ، والآخر الطبقات الدنيا التى منها عمال المعامل الصناعية فى المدن . وقد أسلفنا الكلام على المنازع الثورية التى عرفت بها الطبقات الراقية ولا سيما منها الجانب الناقص العلم ، وهو الجانب ذو الشأن الكبير فى ايقاد نار الثورات والاضطرابات فى الشرق الجديد من شمال افريقية حتى الصين . أما طبقات عمال الصناعة فقد يرى فريق من الكتاب ان ليس هناك كبير أمل فى صيرورتها عاملاً ثوريا مهماً لما هى عليه من الاستمساك بسنن التقاليد والجهل والبلادة ، ولأنه ليس هناك صلات حقيقية تصل بينها وبين أهل الطبقات الراقية ، المنبعث منهم القلق الاجتماعى على قدر جسيم . وممن يذهبون هذا المذهب فى الرأى ، « البرت مانان » الاقتصادى الفرنسى ، فانه قد أبان هذا ابانةً حسنةً فى شأن الهند فقال : « انما قوام النهضة الوطنية هو الطبقات الوسطى ، وهذه الطبقات لا تقوم بشئ يذكر من المقاومة لاصحاب رؤوس المال وأهل المشروعات وأرباب الاملاك ، الذين جميعاً لا ينالهم ضرر من الوجهة الاقتصادية » وأما طبقات العمال الصناعيين : « فلا يأملون ترقية حالهم وتحسين شأنهم بل هم مثل عمال الزراعة ، لا تلمح فيهم أمارة من أمارات الثورة . فالى من يلجأون ترى ؟ أما المراتب الاجتماعية القائمة على سنن التقاليد فمغلقة فى وجوههم ولا مطمح لهم فى الارتقاء اليها . فتراهم اذ لا أمل لهم بمنصب قومى ، يحتقرون من فوقهم من أرباب الحرف والمهن الذين

يعتزون بمراتبهم الطائفية ، ولكن قد قضت الصناعة الآلية على صناعتهم اليدوية . أما الهندوى فيرى ان من اكبر العار عليه ان ينزل الى مهنة العامل الصناعى ، وعمال المعامل لم يبلغوا بعد من عددهم حداً يستطيعون عنده التواثق فيما بينهم على صيانة مصالحهم واعزاز شأنهم ازاء المجتمع القديم . ولا عبرة لما يقومون به من الاعتصاب والاضراب فانهم لم يزالوا بعداء من ان ينهجوا منهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، بُعدَهم من الطوائف العليا التى يستحيل عليهم الارتقاء اليها . وهم بعد كل هذا لا يستطيعون القبض على أزمة مجموعهم وربط بعض حلقاتهم ببعض بحيث يتألف منهم قوة أدبية معنوية لها شأن ومكانة ، لأن النهضة الوطنية ليست قائمة على الطبقات الوضيعة ، وهى ابداً تستفيد قوة من أرباب رؤوس المال .

« يُعلم من هذا أن الصناعة الهندية لم تزل وليدة فى المهد . فالارتقاء المادى الذى تظهر آثاره بتشييد المعامل والمصانع ، والارتقاء الاجتماعى الذى تميز به طبقات العمال ، لم يبرح فى أول دور من أدوار الظهور ، بحيث ان الارتقاء العقلى الذى من شأنه أن يبعث على وضع الخطط المنظمة لنيل المطالب الاجتماعية لم يظهر بعد » .

على أن كثيراً من أهل العلم فى الشؤون الصناعية الهندية لايتفقون مع ألبرت ماتان فيما ذهب اليه . فقد قال زعيم العمال البريطانى ج . رمزى مكدونلد : « أما التصور الذى يتصوره بعضهم من أن العمال الهنود المنحطين سائرون اليوم فى سبيل الارتقاء الى مصاف الطبقات العليا فهو ضرب من الوهم ، غير انى لاأصدق بتةً أن الحال هذه تدوم طويلاً ، والسبب فى ذلك : أن تقدم صناعة المعامل فى الهند قدنشأت بسببه طبقات من العمال الذين لاأرض لهم يملكونها ولاموطن يستقرون فيه ، فاذا تدبرت شأنهم وجدتهم لامثيل لهم بهذا الاعتبار فى أى بلد اقتصادى قامت فيه رؤوس المال . وأما التصور بأن عمال المعامل الصناعية فى الهند سيظلون هكذا بعداء عن أن يكون لهم شأن مذكور ووزن مقام فى السياسة الهندية ، فليس الى احتمال ذلك من سبيل . فالعمال قدأخذوا يجنحون الى انتهاج مناهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، وانشاء جمعيات من هذا النوع ، فاعتادوا القيام بالاعتصاب والاضراب ، ومن مرامى بعض حركات الاصلاح الاجتماعى التى يقوم بها أهل الفكر من الهنود ، انشاء نقابات صناعية وتجارية متواثقة ، ونشر الآراء والأفكار الشبيهة

بآراء دعوة التضامن الصناعي عندنا . فلو قام أرباب رؤوس المال بسياسة مالية لمناهضة العمال ، لم يكن ذلك مستحثاً شديداً لجمعيات التضامن الصناعي فقط ، كما جرى مثل ذلك في اليابان من قبل ، بل لعجزت سياسة مثل هذه السياسة في الهند عن القضاء على نقابات العملة ، ولن تفلح كما أفلحت في اليابان على يد القوانين المسنونة . فالعمال في الهند حالتهم آخذة بالتبدل والارتقاء ، ولن يمضي ردح من الزمن طويل حتى ينظموا شؤونهم تنظيماً صحيحاً ينهجون فيه مناهج العمال في البلاد الاقتصادية الراقية . ومتى مايقظ العمال يقظتهم السياسية كان ذلك بدء السبيل الذي لن يكون لهم وليجة عن سلوكه ، فيدبرون أحوالهم تدبيراً حسنا ويشرعون في اعزاز شأنهم اعزازاً كبيراً » .

ونعود الآن الى الشرق الأدنى . فمنذ أكثر من عقد قال كاتب اشتراكي فرنسي مشيراً الى شدة الوطأة التي يعانيها سواد المصريين في أحوال المعيشة ، ومنبها الى ظواهر القلق الاجتماعي ، ومنذراً باضطراب هائل ، مايأتي : « قد نشأت طبقات من العمال بنشوء الصناعة واتساع نطاقها اتساعا سريعا صحبه النجح العاجل ، أما غلاء المعيشة فقد بلغ مبلغا ماعرفت مصر مثله من قبل . بينما الأجور لم ترتفع الاقليلا ، فاشتدت الفاقة وعمت بلوى الحاجة . فاذا ظلت الحال سائرة هذا السير فسيأتي يوم تثور فيه سواكن هذا الشعب من جراء هذه الشدة المستولية عليه ثوراناً أعمى ، حتى تغدو دلتا النيل الظاهرة عليها آثار الرخاء والنجح في حال غير حال . من الممكن أن تدفق الأجانب على البلاد وتدفق أموالهم معهم يبعد قليلا تلك الساعة من الدنو ، وهي الساعة التي يدرك فيها العامل المصري ، في كل مدينة وريف الحال التي سبق اليها ، وهو لعله اليوم لايدري ماللاشتراكية من القوة التهذيبية . على أن استيقاظه وانتباهه سيكونان في عهد أقرب مما يخاله بعضهم . اذ ليس ذلك الجانب من المصريين أرباب النجاح والفلاح ، هم وحدهم ذوي العقول الزكية والمدارك العالية ، بل ان العمال المصريين أيضاً ، الآخذة أجورهم بالتناقص المتوالي ، لايقلون ذكاء وفطنة عن سائر أبناء بلادهم ، ولذا قد بات من المتوقع الذي لاريب فيه مجيء الساعة لانبثاق الاشتراكية الاسلامية في بلاد المسلمين لأول مرة[1] » . وقال رحالة بلجيكي قبيل الحرب العامة يشير الى تباشير الصباح ليقظة طبقات العمال في الجزائر ، وسرعة انتشار الآراء

(١) اقرأ التعليق الوارد على المبادئ الاشتراكية في الاسلام ، في آخر هذا الكتاب — المعرب

والافكار الغربية : « ان الاسلام ليرى متمزقا تمزق الثوب البالى على أرصفة ثغر الجزائر : فعمال المرفأ ، ونقلة الفحم ، وساقة الآلات البخارية ، على اختلاف جنسيتهم ، عادوا لا يبالون بالاسلام ، بل ترى فيهم صبغة آداب العمال الأوروبيين راسخة ، وهم يشتركون مع زملائهم العمال الغربيين فى السعى وراء الغرض ونيل الغاية ، اشتراكاً قائماً على أساس واحد هو وجوب مقاومة أرباب رؤوس المال ونزاعهم نزاعاً اقتصادياً مراً . فلو كان فى الجزائر معامل مثل تلك التى فى أوروبة ، لاختفى الاسلام السنى من تلك الديار المغربية اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا أمام تيار الصناعة وثورتها الكبرى[1] » .

على أن هناك أمراً لامراء فيه ، على اختلاف ماهية المطامح التى ترمى اليها حركات العمال المنظمة ، الحديثة الظهور ، السريعة النشوء فى الشرق ، هو ان القلق الذى قد انتشر فى غالب أقطار الشرق فى السنوات التى قبل الحرب العامة ، كان اجتماعياً لاسياسياً فقط . قالت صحيفة بريطانية هندية من كبريات صحف الهند أواخر سنة ١٩١٣ متشائمة : « قد هبطنا مهبطاً سافلا أفضى بنا الى الانهيار والخراب . فقد غدت بعض الأقاليم التى كانت من قبل أكثر أقاليم البلاد الهندية قطينا ، يهجرها الاغنياء اليوم لقلة الأمن على متاعهم وحطامهم . وقد اشتد مقت الناس للقانون اشتداداً هائلاً لأنه أصبح ذريعة يستعين بها أهل السجس للاعتداء على الابرياء . وباتت القبائل الافغانية عند الحدود تقترف أهول الفظائع . وكثرت اجتماعات الجماهير ، وانتشر الهرج والمرج بداعى التدخل فى شؤون ليس من شأن الشعب المخلد الى السكينة التدخل فيها . فليس هناك من قضية تدخل فى

---

(١) من قبل الحرب العامة بكثير كان الاشتراكيون الفرنسيس لاسيما الغلاة منهم ينتصرون لأهل الجزائر وتونس وسكان المستعمرات ، وكان للزعيم الاشتراكى جوريس منزلة عالية فى قلوب أهالى تلك الأقطار . ولكن اشتدت هذه الرابطة بعد الحرب العامة كثيراً عن ذى قبل لا سيما بين الشيوعيين الفرنسيس والعملة والفلاحين من المغاربة لأن العملة والاكرة فى المغرب الأوسط هم فى مستوى واحد من الشقاء بسبب تسلط المستعمرين . وقد تأسست نقابات لهؤلاء العملة تجمع الذين منهم فرنسيس الى الذين منهم مغاربة وكذلك ظهرت لهم جرائد فى تونس والجزائر كثيراً ماتعطلها الحكومة الفرنسية وتحذر كبار المغاربة من سوء مغبة الشيوعة ولكنها تتغافل عن ان اليأس الذى يدفع فقراء الجزائر وتونس الى الانضمام الى الفرقة الشيوعية انما هو أثر ظلم الادارة الفرنسوية ونتيجة تحكم المستعمرين فى الأهالى وانه لا يمكن الجمع بين هذه الادارة الغاشمة الاستعمارية وبين منح المبادىء الثورية . (ش)

نطاق السياسة الأجنبية فضلاً عن الوطنية الا ويهب الناس أفواجاً للحال ، يريدون أن يكون لهم فيها يد مشتركة ، على حين ذلك بجملته لايعنيهم . وصار أحقر شأن يؤخذ سببا للاشتكاء والسخط . وغدا الموظفون فى الأقاليم يعانون الشدائد المرة بسبب كثرة الاختلال الناشىء عن اباء الأهالى لطاعة القانون . وقد تألفت جعيات التضامن المختلفة لصيانة المصالح الأهلية . ويشكو صباط الجيش والشرط من أن صنف المجندين الجدد أقل طاعة من الصنف الذى كان قبلهم وأعند عند التدريب وأكثر تعنتا وسخطاً .

ثم جاءت الحرب العامة فزادت فى هياج الشرق زيادةً عظيمةً . فجمعت الحال فى جميع الاقطار ولا سيما غالب الشرق الأدنى ، بين استحكام حلقات الشدة والضيق ، والمطامح الوطنية الكبيرة ، والسخط المشتعل ، فظهر المجتمع الشرقى كأنه على شفا جرف هار . و بينما الشرق هذه مراجله غالية تفور ، اذا بالبلشفية الروسية تدب وتنتشر فى الشرق ، وتمتد الى أقطاره المربدّة الجواء بالسحب السوداء ، وطفقت تهيمن وتسيطر على هذه الحالة ، وتنظم حركات القلق والاضطراب ، وتدبر أسباب الشغب والهياج ، بطرق متسعة وأساليب منظمة ، ابتغاء الوصول الى غرض هو نصب عينها وادراك غاية تتوخاها . ولا غرو فالبلشفية قد قد انبرت الى الميدان على رؤوس الاشهاد تريد ايقاد ثورة عالمية ، ودك أركان الحضارة الغربية دكاً يبقيها أثراً بعد عين . ولتحقيق هذا الغرض لم يكتف قادة البلشفية باثارة الحملات الشعواء على الغرب مباشرةً فحسب ، بل قاموا بأكثر من ذلك ، اذ دبروا أمر القيام بحركات التفاف فى آسية وافريقية ، لأنهم اعتقدوا ان الشرق اذا استطيع الهابه بنار الثورات الآكلة ، كانت نتيجة ذلك ليس زيادة اعزاز البلشفية ورسوخ قدمها واشتداد بأسها فقط ، بل أيضاً القضاء على حياة الغرب الاقتصادية المتزعزعة الجوانب المنهوكة القوى بسبب الحرب العامة ، وذلك قضاءً أخيراً يعقبه تلاشى صناعة الغرب واضمحلالها ، ثم تتقد نار الثورة العمياء فى أوروبة مندلعة الألسنة الى كل جانب من جوانب القارة .

وانتشرت مساعى الدعوة البلشفية فى العالم كله ، فعم نطاقها وانبثت تعاليمها فى كل رقعة من رقاع الكرة الأرضية ، فلم تخلُ زاوية من زوايا الأرض من مكايد دعاة البلشفية ودسائسهم ، وهؤلاء لم يغادروا وسيلةً الا استعانوا بها لبلوغ المأرب الذى اتخذوه قبلةً يركبون فى سبيلها كل مركب . وما كانت تعاليم « الحمر » الرامية الى انهاض طبقات العمال

الدنيا الى مستوى السيادة والحكم فى كل بلاد ، سوى ذريعة من ذرائعهم التى لاتحصى ونوع من أنواع أسلحتهم التى لاتعد . ولما كان مرادهم فى المقام الأول قلب نظام العالم الحالى ، فقد بات كل عمل ، ولو كان بعيداً من التعاليم البلشفية بمقدار ، ولكن من مقتضاه مقاومة ذلك النظام ، أداةً من أدوات البلاشفة يلجأون اليها ويستعينون بها . ثم راح دعاة البلشفية ينبثون فى كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية فى آسية وأفريقية واسترالية والاماركتين فضلاً عن أوروبة ، يهمسون فى آذان الشعوب المغلوبة على أمرها الناقمة الساخطة ، انجيل البلشفية الجديد وآياته الحديثة ، حلاً لهذه الشعوب على الهياج والشغب ، ثم الانتقاض والثورة . فكل حركة وطنية ، ومطمح قومى ، وسخط سياسى ، ومظلمة اجتماعية وتحكم جنس فى جنس ، جميع ذلك من الوسائل التى يتخذها البلاشفةوقيدا لنار الهياج ، فالانتقاض ، فالحرب .

وقد كانت تربة أقطار الشرق الأدنى والأوسط أخصب الأقطار لزراعة البلشفية ، وأكثرها استعداداً لها ، فنمت البلشفية فى هذه الأقطار نمواً كبيراً ، ولبيان ذلك نقول : لما كانت هذه الأقطار الشبيهة بالمرجل الغالى . والتى تتقد فيها نيران الفتن والثورات على اختلافها ، مرامى للاطماع الاستعمارية التى ابتغتها روسية القيصرية منذ عهد طويل ، فقد سبق للدعاة الروسيين من قبل فدرسوا شؤونها درساً وافياً مشتملا على سر الفتح السلمى فلما انهارت أركان روسية القيصرية وقامت البلشفية على أنقاضها ، لقيت البلشفية أمامها مهيعاً معبداً ، وطريقاً ممهداً ، لبلوغ أغراضها . فلما قام تروتسكى ولنين يضرمان نار الهياج والثورة فى تركية وايران وأفغانستان والهند ، تقويضاً لمكانة بريطانية على الأخص لم يحتاجا الى خطط التوطئة وطرق التمهيد ، لأن روسية القيصرية كانت قد سعت فى هذا السبيل عقوداً من السنين طويلة ، فكان من نتائج هذا السعى جمع المعلومات الوافية فى هذا الموضوع وايداعها سجلات الحكومة السابقة فى بتروغراد ، وكان عدد كبير من رجال الحكومة القيصرية الذين انقلبوا للحال يستأنفون أعمالهم السابقة بعد ذهاب روسية القيصرية وانشاء البلشفية ، لم يزالوا يعلمون كثيراً من أمور البلدان المذكورة التى كانت تحوم حولها وفوقها المطامح القيصرية .

على انه يجب علينا عند اعتبار الدعوة البلشفية المنتشرة فى الشرق قاصيه ودانيه

أن نفرق بين الغرضين الأكبرين اللذين يجدّ دعاة البلشفية فى سبيلهما اليوم غاية المستطاع : الغرض العاجل وهو محو التفوق الغربى سياسياً واقتصادياً محواً تاماً . والغرض الآجل وهو بلشفة الشعوب الشرقية ، وما يتلو ذلك من القضاء الأخير على الطبقات العليا والوسطى من أهل كل بلاد ، على نحو ماقد تم فى روسية وما هو مدبر للمالك الغربية . اما فى الدور الأول فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لاحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية فى الشرق . وأما فى الدور الآخر فالأديان ، مثل الاسلام ، فستقوض تقويضاً . وأما قادة النهضات الوطنية ، مثل مصطفى كمال ، فسيرمون من حالق الى رتبة العمال ويوسمون بميسمهم . وهانحن نبين للقارئ الكريم كيف تقوم السياسة البلشفية بمساعيها المتنوعة فى سبيل الغاية التى ترمى اليها .

لما قامت الحكومة البلشفية فى روسية وقبضت على أزمة الأحكام أواخر سنة ١٩١٧ ، سرعان ما بادرت الى وضع الخطط والبرامج لسياستها التى اعتزمت اتباعها فى الشرق . ثم انقضت سنة ١٩١٨ وكانت سنة اعداد وتجهيز . فنظم البلاشفة مشروع الدعوة تنظيماً تاماً وافياً ، قوامه الخبراءُ على صنوف مختلفة . وأتى بعدد من رجال الحكومة القيصرية البائدة من دعاة وساسةٍ راسخين علماً بالشؤون الشرقيـة ، وحُملوا على أن ينتظموا فى سلك الدعوة وقد أمدّ المسلمون الروس ، مثل التتر فى روسية الجنوبية والتركمان فى آسية الوسطى الحكومة البلشفية بكثير من الخبراء العارفين . وكان أنفع الجميع وأخدمهم للغاية ، أولئك الذين فروا الى روسية من تركية وايران والهند عند ختام الحرب العامة ، وفيهم قادة الحكومة التركية الحليفة للدول المركزية ، مثل أنور وجمال وطلعت وكثير غيرهم [١] ، فانهم لجأوا الى روسية هرباً من أن يقعوا فى أيدى دول الحلفاء الظافرة. وكذلك فقد فر الى حكومة لينين عظماء القادة الهنود الذين كانوا مشايعين لألمانية خلال الحرب ويتلقون منها الأموال للقيام بالدعوة . وعند أواخر سنة ١٩١٨ كان ديوان الدعوة الشرقية فى الحكومة البلشفية قد نظم أحسن تنظيم ، فقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية : الأول للأقطار الاسلامية ، والثانى للهند ، والثالث للشرق الأقصى . أما مساعى البلاشفة وأعمالهم وكيفية نشر دعوتهم فى الشرق الأقصى فليس من غرضنا البحث فى ذلك فى هذا الكتاب ، ولكن على القارئ

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن الوارد فى آخر هذا الكتاب على الشهيد أنور ورفقائه — المعرب

أن يعلم خطورة الأعمال التى قام بها البلاشفة فى تلك الأقطار ، وعظم الدور الذى لعبه الصينيون فى تاريخ روسية فى المدة الحديثة . أما القسمان الأولان من أقسام ديوان الدعوة المختصان بالأقطار الاسلامية والهند ، فقد طفق أربابهما يجهدون فى سبيل الغاية جهداً كبيراً فترجموا مئات الكتب البلشفية الى مختلف اللغات الشرقية ، ودربوا عدداً كبيراً من الرواد السريين والدعاة والرسل للقيام بالأمر العظيم ، وانطلقوا يتوسلون بما استطاعوا لاستثارة العناصر الثورية فى تلك الأقطار .

وفى أوائل سنة ١٩١٩ باتت مساعى البلاشفة وأعمالهم منتشرة فى جميع الشرق الأدنى والأوسط انتشاراً كبيراً لاخفاء فيه . وليعلم الحكيم المصنف أن انكار الحلفاء على شعوب الشرق الأدنى حقها فى مصالحها القومية [١] ، ووقوفهم فى وجه نهضاتها الوطنية موقف الصادّ المقاوم ، قد كان وسيلةً من خير الوسائل التى اعتضدت بها الدعوة البلشفية . وقد أسلفنا الكلام فى موضع تقدم كيف أخذت حكومة موسكو تمد يد النصرة والعون الى مصطفى كمال وسائر القادة الوطنيين فى تركية وايران ومصر وغيرها . على أن نجح البلاشفة فى الشرق الأدنى لم يكن أقل منه فى الشرق الأوسط . ولا غرو فقد كانت يد حكومة موسكو ظاهرةً أجلى ظهور فى فوران ذلك التيار من الفتن والانتقاضات ، مما طبق شمالى الهند فى ربيع سنة ١٩١٩ [٢] وليس ذلك جميع ماقامت به الدعوة البلشفية بل قد امتدت الى أكثر من ذلك ، فأنزلت الضربة العظمى ببريطانية ، تلك الضربة التى قصمت ظهر الانكليز فى أفغانستان . فان هذه البلاد التى من شنشنة قطينها الجبليين الشغب والهياج ، والتى هى بجملتها أشبه بالصاعقة المتوقع نزولها أبداً على الحدود الشمالية الغربية ، قد ظلت خلال الحرب هادئةً ساكنةً . وغالب السبب فى هذا السكون وقوف حاكمها الأمير حبيب الله خان موقف الموالاة لبريطانية . بيد أن هذا الأمير اغتيل فى سنة ١٩١٩ اغتيالاً لم يعرف حتى اليوم هل كان للبلشفيين يد فيه أم لا ولكن على كل فقد طفق هؤلاء البلاشفة ينتهزون الفرصة التى سنحت لهم بعد ذلك ، إذ خلف حبيب الله خان أحد أنجاله وهو الأمير أمان الله خان المشهور بشدة عداوته وشنآنه لبريطانية ، والذى كانت له صلات بدعاة الترك والألمان خلال الحرب

(١) راجع الفصل الخامس .

(٢) راجع الفصل السادس .

العامة. فلما تسلم أزمة الحكم، واستقام له الأمر، جعل يباشر إنشاء الصلات بينه و بين موسكو[1] فلم ينقض سوى اليسير من الزمن حتى اهتبل السانحة عند ماطبق الاضطراب وعمت الفتنة فى بلاد البنجاب الهندية ، فأعلن الحرب على بريطانية ، ثم أخذت جيوشه المؤلفه من رجال القبائل الشديدة الشكيمة الحمية الأنف ، تتدفق على الحدود الشمالية الغربية فألهبت جميع تلك البلاد نار حرب ضروس . و بعد أن دارت رحى القتال شديداً مدة من الزمن ، استطاعت بريطانية أن تصد تيار الاجتياح الأفغانى ، فردت جيوش القبائل على أعقابها . فاضطر من بعد ذلك أمان الله خان الى الكف عن القتال ، ثم لم يكن له من وليجة عن عقد الصلح . ولكن ما كانت بريطانية لتجسر قط على التشدد مع الأمير ، بل وافقت على أن له الحق بمقتضى شروط الصلح أن يكون فى حل من القيد الذى كان مقيداً به من قبل ، وهو أن لاينشئ صلات سياسية مع أمة أجنبية ما سوى الهند البريطانية . أما الآن فشرع الأمير يعتز بالاستقلال و يتباهى به ذائداً عنه بقوة تلك الصلات التى عقد عروتها بينه و بين

---

(١) سنة ١٩٢٠ كان جمال باشا ذهب الى موسكو ومعه بدرى بك وذلك أثناء ما كانت أسرى الروس تعاد من المانيا الى الروسية ، فاندسا بين أولئك الاسرى متنكرين خوفاً من أن يعرف أمرهما فيقبض عليهما الانكليز الذين كانت لهم سفائن تفتش عن الركاب الذين يمرون من بحر البلطيك الى جهة الروسية . ولما وصلا الى موسكو اجتمعا فيها مع أنور باشا واتفق الجميع على مفاوضة البلاشفة فى عقد محالفة بين هؤلاء من جهة والاسلام من جهة أخرى ، وأن يكون مرمى تلك المحالفة مقاومة دول الحلفاء لاسيما انكلترة فى آسية . وكان سبق للبلاشفة مداخلات مع أمير الافغان لعقد اتفاق معه ولكن لم يكن تم شئ منه . فارسلت حكومة السوفيت جمال باشا الى افغانستان ممهداً لسياسة الاتفاق مع الاسلام وانجاز المعاهدة التى كان سبق السعى فيها بين الروسية وافغانستان . فذهب أولا الى طاشقند فى التركستان ومنها قصد كابول عن طريق هرات ، ولما وصل الى كابول حظى لدى الامير وبعد وصوله بمدة وجيزة وفق الى تعجيل البت فى أمر المعاهدة مع الروس على شروط ، من جملتها امداد البلاشفه للافغان بمقدار من الأسلحة ، وان تعاد مقاطعة كوشكه الافغانية التى كان الروس اغتصبوها من يد الافغان منذ ٤٥ سنه اذا رضى أهلها بالرجوع الى دولتهم الأصلية ، وان تخول الروسية حق تعيين معتمد فى كابول كما يكون معتمد للافغان بموسكو ، وكذلك تعين الروسية أربعة قناصل فى أربع مدن من افغانستان ، وتعين افغانستان قناصل فى طاشقند وغيرها من المدن التى فى حوزة الروسية ، وان تعترف الروسية باستقلال امارتى بخارى وخيوه داخلا وخارجاً وغير ذلك من الشروط المهمة . وقد كان لهذه المعاهدة بين الروس والافغان وقع عظيم فى انكلترة ، فحسب لها الانكليز الف حساب وأفادت أمير الافغان كثيراً بحيث أسرع الانكليز الى مصالحته وقبول أكثر مطالبه ، كما انها أفادت البولشفيك فى مفاوضتهم السياسية والتجارية مع انكلترة اذ قد رضيت انكلترة بعقد معاهدة تجارية معهم ، اشترطت فيها أن يمتنع الروس عن تسريب السلاح الى الافغان أو غيرها من العالم الاسلامي ، وعن بث الدعوة الشيوعيه فى آسية . (ش)

موسكو . وقد كان البلاشفة في ذلك الوقت قد أنشأوا لهم مركزاً آخر خطيراً في تركستان الروسية لنشر دعوتهم ، وهو لايبعد كثيراً من الحدود الأفغانية ، وكان مرمى هذا المركز الجديد وغاية أعماله ؟ ليس بلشفة أفغانستان فحسب بل أيضاً بلاد الهند المترامية الأطراف .

وخلال سنة ١٩٢٠ غدت أعمال البلاشفة ومجاهيدهم الكبرى أكثر انتشارا ، وأظهر للعيان ، وأعز شأناً في جميع الشرقين الأدنى والأوسط . وقد اطلعنا في موضع تقدم على كيف أخذت روسية البلشفية تقوم بعضد الحركات الوطنية والنهضات القومية في تركية وايران عضداً شديداً . وفي الواقع ان سياسة الحلفاء القائمة على الطيش والخفة وقصر النظر قد كان من شأنها أن حملت العدد الكبير من القادة الوطنيين على الجنوح والانحياز الى لينين ، في حين أن هؤلاء القادة أنفسهم ما كانوا ليروا غايات حكومة موسكو ومنازعها ومراميها البعيدة فيما يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب رائقة لهم . مثال ذلك أن رئيس البعثة الأفغانية التي شخصت الى موسكو ، قد صرح حقيقة الأسباب التي حملت حكومته على التعاهد مع روسية السوفيانية على الصداقة والولاء تصريحاً بيناً ، في مقابلة رسمية ، كما نشرت هذا جريدة « ازفستيا » لسان حال الحكومة السوفيانية ، فقال رئيس البعثة : « اني لست على مذهب الشيوعية ولا الاشتراكية ، انما خطتي السياسية هي طرد الانكليز من آسية ، واني لعدو عنيد لرؤوس المال الأوروبية الاستعمارية في آسية ، التي أعظمها وأشدها استنزافا هي البريطانية . فمن هذا القبيل أوافق الشيوعيين على مبدإهم وأصرح لهم اننا مخالفوهم في هذا السبيل . . . ان أفغانستان ، وشأنها شان الهند ، ليست بدولة في حوزتها رؤوس المال الاستعمارية ، ومن البعيد أن تستقر الأنظمة النيابية فيها في عهد قريب . ومن الصعب الشديد التكهن بكيفية تقلب الشؤون واختلاف مجاريها في المستقبل انما أعلم حق العلم أن النداء المشهور الذي وجهته الحكومة السوفيانية الى جميع الأمم والشعوب مستصرخة اياها لمقاومة رؤوس المال الاستعمارية ودك صروحها دكا (ومعنى كلمة رأس المال عندنا بات مرادفا لمعنى كلمة الأجنبي أو بالأحرى الانكليزي) قد كان له عندنا وقع عظيم وشان كبير . غير أن هناك قضية أحللناها المحل الارفع ألا وهي الغاء روسية السوفيانية لجميع المعاهدات السرية التي عقدتها حكومات التوسع الاستعماري ،

واعلانها الحق واعترافها به لجميع الأمم والشعوب ، دون اعتبار القلة مهما كانت ، فى اختيار حكمها وتقرير مصيرها . هـذا هو السبب الذى حمل جميع الشعوب المستعمرة المستنزفة فى آسية ، حتى الشعوب البعيدة من مذهب الاشتراكية ، على الالتفاف من حول روسية السوفيانية » . (١) ولكننا لما كنا نعلم مبلغ ماهم عليه دعاة البلشفية من المهارة والتفنن فى النشر والبث ، فلا يسعنا التسليم بأن السياسى الافغانى قد صرح حقاً مثل هذا التصريح كما نشرته صحيفة « ازفستيا » البلشفية . ولكن على فرض ان فى هذه المقابلة كذباً واختلافاً ، فان هذا البيان المعزو على صورته هذه الى رئيس البعثة ، انما يفصح عن شعور العدد الكبير من الشرقيين ، ويجلو السبب الأكبر فى نجاح الدعوة البلشفية النجاح العظيم فى الأقطار الشرقية .

ولا غرو البتة ان لقيت الدعوة البلشفية هذا النجاح الكبير حتى غدا الزعماء البلاشفة يجدّون فى سبيل غايتهم وادراك مبتغاهم ، وينادون البدار البدار جهراً وعلانية. فان موسكو فى بادئ الأمر قدوقفت موقف المعين الناصر للشعوب الشرقية لمقاومة التوسع الاستعمارى الغربى ، وكانت توجه صرخاتها الواحدة تلو الأخرى الى أمم تعدها على مستوى لاتفاوت فيه ، وتولى وجه صيحاتها شطر أقوام هى عند البلاشفة لااختلاف منازل وطبقات فيها ، وق اعترفت مراراً بحق كل أمة لتقرير مصيرها ، ووعدت باحترام الآراء والمنازع والأنظمة والقوانين الوطنية . مثال ذلك فقد جاء فى منشور بلشفى بعث به الى الترك أواخر سنة ١٩١٩ موقعاً من لنين مايلى : «يامسلمى العالم !! الذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا استيقظوا !! ان روسية قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ، تلك السياسة الضارة الخبيثة التى كانت تتمشى عليها الحكومة السابقة . ان روسية اليوم تمد يدها اليكم لتعينكم وتنصركم على تحطيم أغلال الاستبداد البريطانى . ان روسية تطلق لكم الحرية الدينية وحق الحكم الاستقلالى ، وتعترف بحدود بلادكم الحدود المعروفة قبل الحرب ، ولن توافق على اعطاء قطعة من البلاد التركية الى الارمن ، وتبقى مضايق الدردنيل فى أيديكم ، وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الاسلامى . ويمنح المسلمون فى روسية الحكم الذاتى التام . انما

---

(١) أقرأ التعليق الوارد فى آخر هذا الكتاب على الأمم الاسلامية ازاء البلاشفة والدعوة البلشفيه . المعرب

جميع مانطلبه منكم لقاء هـذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين الغاشمين الذين دأبهم ومبتغاهم أبداً استنزاف بلادكم وجعلها مستعمرةً لبوناً يحتلبون ضروعها احتلاباً » .

هكذا كان شأن روسية فى توجيهها النداء بعد النداء الى الشعوب الاسيوية ، حتى الى شعبها الذى فى بلادها ، فقـد كانت تسمعه هذه النغمات عينها على مسمع من أهـل الشرق ، فقد جاء فى أمر أصدر الى الجنود الروسية المرابطة فى « پامير » مايلى : « ياجنود فرقة پامير ! ! اعلموا انـكم قد انتدبتم للقيام بعمل جليل وأمر خطير . فان الجمهورية السوڤياتية قد أرسلتكم حراسا الى پامير التى عند حدود البلادين المواليتين وهما افغانستان والهند . ان پامير وسهولها المرتفعة وصعدانها الرحبة هى البلاد الفاصلة بين روسية الثورية والهند تلك البلاد التى فيها أكثر من ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من القطين تستعمرهم فئة قليلة من رجال الانـكليز وتذلهم بجميع وسائل القهر . فعلى تلك الانجاد يجب على رواد الثورة منـكم أن يرفعوا الراية الحمراء ، راية الجيش المحرر من رق العبودية . سيعلم أهل الهنـد الذين يقاتلون الانـكليز المعتدين المغتصبين ، أنـكم أهل النجدة والغوث على مقربة منهم طيبوا أنفساً وقروا عيونا بحبكم لقبائل الهند الشمالية عاشقة الحرية والاستقلال . . . قوّوا روحها بأقوالـكم وانصروا حركتها بأعمالـكم حتى تنطلق فى سبيل الثورة . وأعرضوا عن الأراجيف التىيشيعها عنا والمزات التى يلمزنا بها رواد التحكم واللوردية والصيارفة البريطانيون . ليحيي التحالف الوثيق العرى ، تحالف الشعوب الثورية فى أوروبة وآسية ! ! »

على هذا المنوال كانت تنسج الدعوة البلشفية فى دورها الاول . ثم شرعت تختلف صفة ولونا ، داخلة دوراً جديداً وقد كان من شأنها فى دورها الجديد هذا اثارة الحملات على الاستعمار والاستنزاف الغربى كما فى الدور الأول . ولـكن هناك صرخات مفرغة فى قالب حديث أخذت تسمع ، من حيث كانت هناك صرخات شبيهة بها توجه الى سـواد الأمم الأوروبية ، مشتملة على تحريض الحـكومة السوڤياتية لاهل الشرق حتى يهبوا لمقاومة أرباب رؤوس المال والطبقات العليا والوسطى ، سواء كانوا من الوطنيين أم من الاجانب ، وعلى وعد البلاشـفة المـكرر للطبقات العاملة الدنيا بتحسين حالهم ورفع شأنهم واعزاز مقامهم . والى القارئ بعض ماجاء فى منشور بلشفى وجه الى سواد الترك وعامتهم فى صيف

١٩٢٠ وهو كما يظهر مختلف عن ذاك الذى وجه اليهم السنة التى قبل اختلافاً كبيراً : « ان العمال على اختلاف طبقاتهم وهم أهل النصب والعناء ، ليقاتلون اليوم الاغنياء والمتمولين قتالاً شديداً فى كل قطر و بلاد . فان أرباب رؤوس المال والى جانبهم الأشراف والأعيان يحاولون الآن جهدهم لتصفيد العامل التركى الناصب اللاغب باغلالهم الثقيلة وقيودهم المرهقة . ان الاغنياء والسراة الاورو بيين هم هم الذين قد جروا الويل والبوار على تركية . فيا أيها الزملاء الرفقاء ! هلموا بنا نوحد الغاية والغرض ، ونسعى وراءهما سعياً متحداً فى جميع أقطار العالم . فان لم نفعل ذلك اليوم قضى علينا بالخيبة الدائمة والسقوط الى الدرك الأسفل . أى أبطال الثورة التركية ! البلشفية تمد اليكم يد الاتحاد فدوا يدكم اليها فتجتمع الكلمة ويقوى البنيان . ليحيي المؤتمر الشعوبى الثالث ، وان الله على كل شئ قدير ! ! » .

ولما بلغ شأن موسكو هذا المبلغ ، عادت هى لاتكتفى بالاقوال ، بل شرعت فى انفاذ خطتها الى حيز العمل . وقد كان أهل تركستان الروسية أول أمة شرقية تبلشفت ولبست الحلة السوڤيانية . وخبر ذلك ان البلاشفة لما تسلموا أزمة الحكم أواخر سنة ١٩١٧ منحوا تركستان الحق التام فى تقرير المصير ، فولى أهل البلاد الامراء الوطنيين حكاما عليهم ، وجددوا انشاء وحدات دولتهم السابقة تجديداً فيه شئ من الصلة الاتحادية الواهية التى تربطهم بروسية . وفى سنة ١٩٢٠ وجدت الحكومة السوڤيانية أن تركستان قد غدت ناضجة تمام النضوج لالهابها نار الثورة الاجتماعية ، فخلعت الامراء الوطنيين ونصبت مكانهم حكاما من متبلشفة أهل البلاد ونقلت اليهم جميع السلطة السياسية بعد أن جعلت عليهم مراقبين ومشرفين من الروس ، وسلبت الملكية من أيدى الطبقتين العلياوالوسطى وخضدت شوكة المقاومين الذين كانوا يقاومون بصورة غير منظمة وذلك بأن قتلت بعضاً وعذبت بعضاً ، بحيث قد تجلى فى ذلك كل ضرب من ضروب المحن المشتملة على أهول الفظائع البلشفية . ثم اتقدت نار الثورة الاجتماعية فى القوقاس كما فى تركستان عند ما شرعت حكومة موسكو تبلشف اذر بيجان . فان جمهورية اذر بيجان التترية هذه كانت من قبل جزءاً من بلاد عبر القوقاس الروسية التى أعلنت استقلالها عند تلاشى الامبراطورية القيصرية سنة ١٩١٧ . ولما كانت اذر بيجان واقعة موقعا جغرافياً فى

شرق عبر القوقاس بالقرب من بحر قزوين ، فقد كانت عاصمتها مدينة باكو المشهورة بينابيع زيت البترول ، فتقدمت صناعة هذه المدينة تقدما كبيراً حتى صارت مركزا صناعياً على الطراز الغربي . فكثر ساكنها وعمالها وهم من أصول اسيوية وروسية مختلطة ، واذ وجد البلاشفة متسعاً لانفاذ خطتهم هناك حيث نشأت طبقات من المتمولين والعمال ، قلبوا الحكومة الوطنية فى ربيع سنة ١٩٢٠ وأتوا بقوة روسية بلشفية استعانوا بها على بلشفة اذربيجان وتحويلها جهورية سوفياتية ، ثم جرى ما يصاحب الثورة الاجتماعية بطبيعة الحال : من سلب ونهب وتقتيل لأهل الطبقتين الوسطى والعليا ، ومن نشر الرعب والهول وضبط الاملاك ومصادرة الارزاق والتصرف بها فى سبيل منفعة العمال الصناعيين والزراعيين . على هذا المنوال شرعت البلشفية أوائل سنة ١٩٢٠ تدخل دور العمل فى أقطار الشرقين الادنى والاوسط .

ولما رسخت قدم البلشفية فى الشرق ، وجد السوفياتيون ان قد حان الوقت لحسر اللثام ، والانبراء الى الميدان بدون خوف ولا وجل . فقى خريف سنة ١٩٢٠ عقدت الحكومة السوفياتية الروسية مؤتمراً فى باكو دعته «مؤتمر الشعوب الشرقية» كان الغرض منه ليس تحرير الشرق من رق الغرب فحسبُ بل بلشفته أيضاً دون مرد . ولم يكن السعى وراء هذه الغاية الكبرى على شئ من الاستتار بل كانت الوسائل المتوسل بها لبلوغ الغرض من الغرابة بمكان ، فيجدر بنا الوقوف على بعض منها .

ففى المقام الأول أصدر «المؤتمر الثالث فى موسكو» منشوراً عاماً دعا فيه الشعوب الشرقية الى حضور هذا المؤتمر ، مؤتمر الشعوب الشرقية ، وكان توجيه المنشور هذا الى الفلاحين والعمال فى الأقطار الشرقية ، وهذه صورته : —

« أيها الفلاحون والعمال فى ايران ! ان رجال الحكومة القاجارية فى طهران ، وحكامها وأمراءها «الخانات» ، مابرحوا جميعاً يستلبون أموالكم وامتعتكم واغذيتكم طيلة قرون عديدة . فان الارضين التى هى ملككم بحق صريح على مقتضى الشريعة الاسلامية قد امتلكها لصوص حكومة طهران ، وهم الآن يتصرفون بها ويتجرون على مايهوون ويشاؤون ويرهقونكم بالضرائب الباهظة والمكوس الوافرة . ولما بلغوا من افساد التدبير والادارة والحكم بحيث عادوا لايستطيعون احتلاب البلاد وامتكاك عظمها ،

باعوا ايران السنة الماضية من أرباب رؤوس المال البريطانيين بمبلغ ٢٠٠٠،٤٠٠٠ ليرة بيعا من مقتضاه أن تقوم بريطانية بتنظيم جيش فى البلاد لزيادة استذلالكم واستعبادكم واستنزاف قواكم واستلاب أموالكم بحجة الضرائب اللازمة لحكومة طهران و « خاناتها » . وقد باعوا ينابيع الزيت فى جنوبى ايران حتى ينزلوا بالبلاد الضربة القاضية لاقيام لكم من بعدها .

« أيها الفلاحون فى العراق ! ! قد أعلن البريطانيون ان بلادكم مستقلة ، ولكن هناك ٨٠،٠٠٠ جندى انكليزى يحتلون بلادكم ، وينهبون ويسلبون ، ويقتلون ويجوسون خلال دياركم ، ويهتكون حرمات نسائكم .

« أيها الفلاحون فى الاناضول ! ! ان الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية قد احتلت القسطنطينية وجعلتها تحت افواه المدافع ، وطفقت تمتهن كرامة السلطان وتعامله معاملة أسير رقيق ، وتكرهه اكراها شديداً على النزول على ارادتها ورغبتها فى تجزئة البلاد التركية البحتة ، وفى تسليم مالية البلاد الى أيدى أرباب رؤوس المال الأجانب ، الذين يسهل عليهم اذ ذاك استنزاف دم الأمة التركية المنهوكة القوى من جراء خطوب الحرب التى خضتم غمارها ست سنوات ، وقد وضعت هذه الحكومات أيديها على مناجم هرقلية ، واحتلت موانئكم ، وهى الآن تسوق الجيوش الى بلادكم للاجتياح والتدويخ .

«أيها الفلاحون والعمال فى أرمينية ! كم من الضحايا البشرية التى ذهبت منكم خلال هذه العقود الأخيرة من السنين بسبب مكايد المتمولين الأجانب ودسائسهم ، الذين كانوا يداهنونكم بأقوال واحتجاجات يظهرون بها استهجانهم لقيام الكرد بتعذيبكم وتقتيلكم ، من حيث كانوا يحرضونكم على الانتقاض على السلطان لكيما يتسنى لهم بهراقة دمائكم الحصول على الامتيازات الجديدة والمنافع الاقتصادية الدائمة من السلطان . وقد وعدوكم خلال الحرب العامة بمنحكم الحكم الذاتى ثم جعلوا يحرضون تجاركم وأساتيذكم وقسيسيكم لتطلبوا ضم جانب من بلاد الفلاح التركى الى بلادكم ، والغرض من ذلك انما هو ادامة النزاع بين العنصرين الترك والأرمن ، فيستطيعون بذلك أبداً جنى الثمار والاستفادة من هذا العداء ، الذى مادامت ناره مشتعلة بينكم وبين الترك ، استطاع أرباب رؤوس المال البريطانيون والفرنسيس والاميركيون عرقلة النهضة التركية ، بتهديدهم الحكومة التركية

بانتقاضكم عليها ، كأنهم يتخذونكم مطية لهم فى سبيل مطامعهم الاستعمارية ، بتهديدكم بقيام الكرد عليكم .

« أيها الفلاحون فى سورية و بلاد العرب ! ان بريطانية وفرنسة قد وعدتاكم بالاستقلال التام وهذه جيوشهما اليوم تحتل بلادكم ، والانكليز والفرنسيس يحكمونكم ويسنون لكم الانظمة والقوانين كما يشاءون ، وأنتم الذين تحررتم من السلطان التركى وحكومة القسطنطينية ، قد غدوتم عبيداً ارقاء لحكومتى باريس ولندن اللتين انما تختلفان عن حكومة السلطان بكونهما أشد حولاً وأعظم هولاً وأقدر على استعمار بلادكم واستعبادكم .

« انكم جميعاً أيها الملأ لتعرفون هذا حق المعرفة . فالعمال والفلاحون فى ايران قد انتقضوا على حكومة طهران الغاشمة الخائنةودكوها دكا ، والفلاحون فى العراق يشعلون نار الثورة على غير انقطاع ، ويقاتلون الجنود البريطانية أشد قتال ، وانكم يافلاحى الاناضول الذين قد انضوى بعضكم الى بعض تحت راية كمال باشا لتقاتلوا المجتاح الأجنبي أصدق القتال ، قد سمعنا انكم تبذلون وسعكم لانشاء حزب لكم هو حزب العامة والفلاحين ، يكون على استعداد لمقاتلة كل رأسمالى مستنزف حتى « الباشوات » أنفسهم اذا ما أقدموا على عقد صلح مع المستنزفين الأجانب . ان سورية قائمة قاعدة لا أمن فيها ولا سلم .

« وأنتم يافلاحى الأرمن ، الذين نكث الحلفاء بالوعود التى قطعوها لكم فتركوكم وشأنكم تذهبون فريسة المجاعات والمساغب الفتاكة بكم فتكا ذريعاً حتى ينيلوكم حكماً أصلح ! ! اعلموا وثقوا بأن خلاصكم الذى ترجونه على يد أرباب رؤوس المال الأجانب انما هو ضرب من المستحيل الذى لايدرك . واعلموا زيادة على جميع ذلك أن حكومتكم الطاشناقية ، التى هى صنيعة الحلفاء لتستغيث بحكومة العمال والفلاحين فى روسية وتستمد منها الرفد والسلام .

« أيها الفلاحون والعمال فى الشرق الأدنى ! انكم اذا نظمتم شؤونكم وأنشأتم حكوماتكم ، حكومة العمال والفلاحين ، وذدتم عن حياضكم بسلاحكم ، واتحدتم بالجيش الروسى الأحمر ، جيش العمال والفلاحين، استطعتم أن تقضوا على المستنزفين البريطانيين والفرنسيس والاميركان القضاء الأخير ، وان تناقشوا من بعد ذلك المستنزفين الوطنيين

الحساب ، ووجدتم متسعاً رحباً وانتم اذ ذاك أحرار أن تتحدوا مع جمهوريات العمال فى العالم ، لصيانة مصالحكم وترقيتها ، هذا اذا عرفتم كيفية استثمار بلادكم بأيديكم فى سبيل منافعكم ومنافع الطبقات العاملة فى العالم بأسره تلك الطبقات التى تبادلكم حاصلات بلادكم ومنتجاتها مبادلة النظير مع نظيره والندّ مع ندّه .

« وبعد ، فاننا نود التباحث والتناقش معكم فى جميع هذه القضايا والشؤون ، فى مؤتمر باكو ، فابذلوا غاية مستطاعكم وجهدكم للحضور الى باكو عدداً كبيراً بحيث تكونون فيه فى اليوم الاول من أيلول (سبتمبر) فاستحثوا مطاياكم واستخفوا بمصاعب السفر ومشقة الانتقال ، وجوبوا الصحارى والفياف ، والاغوار والانجاد ، واموا هذا المكان المقدس الذى فيه تستطيعون العمل فى سبيل احياء ماضيكم واحترام شرائع أديانكم . فاسلكوا السباسب والقفار ، وتسلقوا الجبال ، واعبروا الانهار ، واقدموا علينا فاننا نرتقب مقدمكم لنعمل معاً يداً واحدةً فى سبيل نجاتكم وخلاصكم من رق العبودية المرة ، ان كنتم تريدون أن تحيوا حياة الحرية والعدل والمساواة » .

من هذا الخطاب يفهم المتدبر صفة مؤتمر باكو وماهيته . المؤتمر الذى انما كان فى الواقع مؤتمرا لايقاد نار الثورة الاجتماعية أكثر منه لتحقيق الغايات القومية والآمال الوطنية . وقد بلغ عدد أعضاء الوفود التى أمت باكو لحضور هذا المؤتمر ١٩٠٠ عضو ، فيهم ما يقرب من ١٣٠٠ من الشيوعيين . وأكبر الوفود هى التى قدمت من تركية وفارس وأرمينية والاقطار القوقاسية ، ولم تكن وفود بلاد العرب والهند ، حتى وبلاد الشرق الاقصى بالقليلة . وعلى كل فقد كانت الحكومة الروسية السوفياتية هى سيدة المؤتمر تنظم الجلسات وتضبط الواقعات . وقد تضمن الخطاب الذى ألقاه الزعيم البلشفى الكبير زينوفيف ، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الشعوبى الثالث فى موسكو ، خلاصة موضوع المؤتمر ، فقد وقف فى الوفود خطيبا ، وقال : —

« اننا نعتقد أن هذا المؤتمر هو حقاً من الواقعات الكبرى التى يدونها التاريخ لانه ليس برهانا فقط على أن دعوة الايقاظ متمشية الآن فى عالم العمال والفلاحين فى أوروبة واميركا ، بل على ان الاستيقاظ الذى شرع يستيقظه هؤلاء لعظيم ، ونحن نرى ذلك لعهدنا هذا بلا ريب ، وليس عدد هؤلاء الناهضين من أهل طبقات العمال بالقليل ، بل هم

يعدون بمئات الالوف والملايين فى جميع الامم والشعوب الشرقيـة ، منهم تتألف الكثرة الساحقة باعتبار مجموع سكان العالم ، وهم من القوة والبأس بحيث يستطيعون ان يشعلوا بينهم و بين المتمولين حرباً ضروساً يكون بها القضاء الاخير على رأس المال . . . .

« ان المؤتمر الدولى الشيوعى قد صرح للملأ منذ أول انشائه : أن قطين أسية يفوقون بعددهم قطين أوروبة أربعة أضعاف وان قد وضعنا نصب أعيننا تحرير جميع الشعوب وجميع العمال . . . اننا نعلم أن أهل الطبقات العاملة فى الشرق على انحطاط بمقدار ، لكنهم ليسوا بالملومين فى ذلك ، فهم لا يقرأون ولا يكتبون ، يعتقدون بالاساطير والخرافات والارواح الشريرة ، لا يقفون على الصحف ولا يعلمون ماجريات العالم ، ولا يفقهون شيئاً من أصول حفظ الصحة . أيها الرفاق ! قد بحث مؤتمرنا الذى عقد فى موسكو فى امكان القيام بثورة اجتماعية فى جميع اقطار المشرق قبلما تدخل هذه الاقطار فى دور سلطان المال ، وتغدو فريسة تمزقها مخالب المتمولين . ومن معلومكم ان هناك اعتقاداً طويلاً فى الناس ماهيته ان لا بد لكل بلاد من ان تجتاز دور سلطان المال فى حياتها . . . قبلما تولد الاشتراكية وتحيا حق الحياة . اننا على يقين ان هذا الاعتقاد أمسى فاسداً باطلاً . والبرهان على يقيننا فى ذلك انما هو روسية التى امتهدت للعالم السبيل ليقفو أثرها ، ومذ انشأنا نظامنا الحديث أخذنا نتحقق ان الصين والهند وتركية وفارس وأرمينية جميعها قادرة على النسج على منوال النظام السوفياتى من حيث ان ذلك واجب عليها ولو تكبدت فى سبيله ما تكبدت . فعلى هذه البلاد ان تتأهب وتستعد لتكون جمهوريات سوفيانية .

« وانى أقول اننا آخذون بنصرة كل جماعة من الناس وان لم يعتقدوا آراءنا ، بل لو كانوا من مخالفينا فى بعض الأمور والقضايا . وفى مثل هذه الحال قامت الحكومة السوفيانية بعضد كمال فى تركية ، مع اننا لم نكن بالجاهلين ان هذه الحركة التى على رأسها مصطفى كمال ليست شيوعية . هذا نعرفه حق المعرفة . ولدى طائفة من صور المقررات التى وُضعت فى الجلسة الأولى من جلسات المجلس الوطنى فى انقرة ، وقد قال كمال نفسه « شخص الخليفة مقدس معصوم » ، والقصد الذى ترمى اليه الحركة الكمالية هو تنجية

« الخليفة المقدس » من ايدى العدو . هذه غاية الوطنيين الترك فى الاناضول ولكن هل تلتئم مع المبدإ السوڤياتى ؟ كلا . اننا نحترم للجمهور والعامة معتقداتهم الدينية ونعلم الطرق التى يجدر بنا اتباعها فى انتشالهم من متخبط الجهل والغباوة ولكن ذلك لا يتم الا على توالى الأيام وكر السنين

« اننا نحذر أشد الحذر ونبلغ من العناية الغاية ، متى ماأمسينا على مقربة من المعتقدات الدينية المستقرة فى طبقة العمال فى الشرق كما فى غيره . ولكن نرانا فى هذا المؤتمر لامفر لنا من القول انه يجب عليكم ألا تفعلوا ماتفعله الحكومة الكمالية فى تركية . يجب عليكم ألا تأخذوا بنصرة السلطان حتى ولو دعتكم الى ذلك داعيات دينية . يجب عليكم أن تقووا ساعدكم ولا تكونوا من الانقياد الى عدوكم بحيث يجعلكم تسيرون القهقرى رغم أنوفكم . اننا على يقين أن ساعة السلطان قد دنت[1]. فيجب عليكم أن تقاوموا كل سلطة أوتوقراطية فى بلادكم . وأن تقلعوا عن كل ثقة لكم بالسلطان . وأن تجاهدوا حق الجهاد حتى تنالوا نظام الحكم على الطراز السوڤياتى . ان الروسيين كانوا مثلكم فيامضى أشداء الايمان بالقيصر ، ولكن لما فتقت ريح الفتنة وهب الشعب بسلاحه تبدد ذلك الايمان أيما تبدد واضمحل حتى لم يبق منه ذرة . ومثلما حدث فى روسية سيحدث فى تركية وفى سائر المشرق متى ماشرعت ثورة الفلاحين تقذف حمماً فتنشق الأرض ويقول الانسان مالها . عندذلك يفنى ايمان الشعب بالسلطان وبسادته القابضين منه على الرقاب . ثم نؤكد لكم القول ان السياسة التى تتمشى عليها حكومة الشعب فى تركية اليوم ليست متفقة مع سياسة المؤتمر الشيوعى الدولى التى هى سياستنا وقد اتخذناها قبلة لنا . وعلى هذا كله فاننا نصرح أننا على استعدادٍ لعضد كل حركة ثورية يقام بها مقاومةً للحكومة البريطانية .

« أجل ! اننا ننظم جنودنا ونعبئ صفوفنا لصراع متمولة الانكليز حتى نأخذ

(١) من أجل هذا قد قيل ان فصل الخلافة عن السلطنة والغاء مقام السلطنة فى تركية هو منزع بلشفى ، وقد رأيت البلاشفة مغتبطين بهذا الأمر . لكننى لاأعتقد أصلا أن حكومة انقرة اقتلعت السلطنة من بنى عثمان لمجرد الاقتداء بحكومة موسكو ، بدليل أن حكومة أنقرة لاتزال تعارض المبادئ البلشفية ، وتمنع نشرها فى تركية . فمسئلة الغاء السلطنة هى مسئلة قائمة بذاتها ، ليس لها أدنى تعلق بالدعوة الشيوعية .(ش)

برقابهم تحت مواطىء الأقدام . ان الضربة الكبرى يجب أن تنزل بهؤلاء المتمولة قضاء مبرما يجعلهم أثراً بعدعين . ثقوا بهذا وأيقنوا ولكن يجب علينا فى الحين نفسه أن نورد طبقة العمال فى الشرق موارد العلم والتهذيب حتى يهبوا جميعاً لمقاتلة أهل الثروة على اختلافهم لافرق بين طبقاتهم وجنسياتهم . وليعلم مريد العلم أن الغاية فى هذه الثورة القائمة سوقها اليوم فى الشرق ليست هى طرد متمولة الانكليز بحيث تحل محلهم متمولة الترك ، كلا ، ان غايتنا هى تطهير البلاد من كل متمول مستنزف حتى يتلاشى المترفون فينا وأهل الظلم والطغيان ، فيتحرر الشعب ويسود العمال أنفسهم »

وقد كان مؤتمر باكو السهم الأول الذى أطلقه البلاشفة منذراً بشروعهم فى بلشفة الشرق توصلا للغاية التى جعلوا يشدون اليها الرحال فى كل سبيل وقد تلا ذلك كثير من المساعى السوفياتية المشتملة على ضروب الوسائل ومختلف الذرائع . وأكثر ذلك كان فى بلاد القوقاس حيث تمت بلشفة بلاد الكرج وأرمينيا فى ربيع سنة ١٩٢٠ .

على أن هذا النجاح الذى لقيه البلاشفة فى هذه الأقطار ، قدكان من شأنه حمل تلك الأقوام الوطنية الداخلة فى حماية روسية السوفياتية على زيادة السخط والغضب . فان جميع الأحزاب الوطنية الشرقية التى كانت قد تلقت نصرة موسكو لها بعظيم الحماسة والغيرة نكاية بالدول المتحالفة ، شرعت تتحقق الآن أن البلشفية الروسية لايبعد أن تكون ويلاً عليها بل أشد من ويل الاستعمار الغربى ، وكلاهما قاضٍ على المطامح الوطنية والمنازع القومية شر قضاء . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين لم يبرحوا منذ أول الأمر يدركون الغاية الكبرى التى ترمى اليها حكومة موسكو اذ كانوا من القوة والحزامة بحيث جعلوا يتناولون نصرة روسية بلاثمن يؤدونه لموسكو . ولكن تبدلت الحال الآن غير الحال ان تنبه العمال فى الشرق قد يكون على مقدار وقد تكون الفلسفة الشيوعية مما لاتفقهه عقول العمال الشرقيين ولاتعى كنهه مهما كان بسيطاً . على أن وجود روسية السوفياتية لخطر يقام له ويقعد ولاعجب ، مادامت الاقلية الشيوعية التى لايزيد عددها حسب اقرارها على ٦٠٠٫٠٠٠ تتحكم فى ١٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الناس بحكم القهر والاستبداد . أما البلاد الأوروبية الغربية فانها تعوّل فى مقاومة البلشفية على مبلغ التهذيب الذى عليه شعوبها وعلى شدة استمساكهم بتقاليدهم النامية فى ظل الحرية المنظمة وليس للشرق سلاح مثل

هـذا السلاح ، وهو أشبه بروسية من حيث استعداده لقبول البلشفية وتخييم الجهل فوق ربوعه وفقـده الطبقات الوسطى القوية الشكيمة ، وايلافهُ تقاليد الاستبـداد ، وانقياده لحكم الأقلية المرهقة وخنوعه لها خنوعاً أعمى . وقدكان لنا بباشفة تركستان واذربيجان مصداق لذلك . وبالتالى أيقن القادة الوطنيون وزعماء النهضات فى الشرق أن مصيدة البلاشفة جرارة غرّارة يجب الحذر منها كل الحذر .

وترى الحال على هذه الصفة فى سائر المشرق . ففى آسية الصغرى قبضت حكومة مصطفى كمال على رسل الدعوة البلشفية [١] بينما الجنود التركية أخذت تتناوش مع الجنود الروسية عند حدود القوقاس المختلف فيها . وقد مر معنا فى الكلام على مصر كيف كان وجل القادة الوطنيين من ثورة اجتماعية يوقد نارها المحرضون وأهل السجس فى طبقة الفلاحين سببا فى تسهيل التفاهم بين اللورد ملنر والزعماء الوطنيين ، تفاهماً قائما على حب الوفاق . وكتب السر فالنتين تشيرول فى ربيع سنة ١٩١٨ يبين مبلغ العبرة التى اعتبرها الرأى العام الهندى فى انهيار روسية القيصرية وظهور البلشفية ظهورها الرائع ، ومما قاله : « ان عقلاء الهنود ليعجبون كيف عجزت الطبقة الراقية فى روسية (وهى تفوق الطبقة الراقية فى الهند عدداً واستعداداً) عن تدبير شؤون الطبقة الجاهلة وحكمها حق الحكم بعد تمزق الحكومة شر ممزق » . وفى افغانستان أخذ الامير يبدل محبته لحليفه السوفياتى بنفرة متزايدة . فان تدفق سيل المهاجرين من تركستان السوفياتية على افغانستان هرباً من ويل البلاشفة وجورهم ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أمير بخارى ، وهو نسيب لأمان الله خان ، جعل أمان الله يفكر فى سوء العقبى ، وزاد الامر خطراً عصيان الجنود الافغانية عصياناً شديداً على الحدود الروسية طالبين أن يمنحوا الحق بانشاء مجالس عسكرية على الطراز الروسى . قد يبذل البلاشفة جهدهم فى اغراء الامير والتسويل له بأن يقوم بغزو الهند غزوة كبيرة ، ولكنه يكون من الحكمة والبصر بالعواقب أن يعلم ان غزوة الهند اذا قام بها لا تجديه نفعاً مادام هو نفسه معرضا لغزو رعيته العاصية التى ستفتك حينئذ به . ويتضح من جميع ما تقدم ان القادة والزعماء الوطنيين الشرقيين ، وفيهم

---

(١) تقدم لنا ذكر قصة مصطفى صبحى البلشفيكى التركى ورفاقه ، ومؤخراً قبضت الحكومة التركية فى استانبول على بعض أتراك بتهمة البلشفة وزجتهم فى السجن . (ش)

المحافظون وسواهم ، أخذوا على توالى الايام بالتعاقد معاً والاصطفاف جنبا الى جنب للوقوف فى وجه البلشفية والحذر الشديد منها . ولو لم تكن الاقطار الشرقية معرضة لخطر الاستعمار الغربى أى لو كانت بمأمن من غوائل الحلفاء ، لكانت صدت تقدم الجيوش الحمراء صداً ولقنت رسل الدعوة البلشفية درساً ملؤه العبر الكبرى

ولكن من سوء الطالع أن القادة الشرقيين يرون أنفسهم فى برزخ مربد الجو طرفه الأول متصل بهول البلاشفة والآخر بهول الاستعمار الغربى المنقطع النظير ، فكانت النتيجة انهم جعلوا يقاتلون كل فريق بالآخر ، تارة يولون وجوههم شطر موسكو اذ استفحل جور المستعمرين ، وطوراً ينظرون الى الدول الغربية اذ قلب لهم لينين ظهر المجن . هذه حقيقة لاريب فيها . فعلى ساسة الغرب أن يتحققوها ويعلموا العلم اليقين ان ليس زعيم رسل الدعوة البلشفية هو زينوفيف وهو يخطب فى جماهير الوفود فى مؤتمر باكو ، ولكنه هو الجنرال غورو قائد الكتائب السنغالية الذى يحكم فى سورية والبلاد العربية الداخلية حكماً قائماً على طرق « القوة والحديد والنار » .

ومن المعلوم ان انتشار البلشفية فى الشرق انتشاراً واسع النطاق بعيد الأفق ، سيكون بلا ريب جائحةً رائعةً يتزلزل الشرق بها وسائر العالم معا . فاذا كان انتصار البلشفية فى الغرب معناه انتصار البربرية ، فهو فى الشرق الهمجية المطبقة لا تبقى ولا تذر . وان تحرر الطبقات العامة فى الشرق ممن لم يبرحوا فى الجهل والغباوة طفرةً بدون تدريج ، من ربق التقاليد الدينية والعادات القديمة وسائر القيود القاعدة بهم عن النهوض الصحيح ، واغتمار الطبقتين العليا والوسطى فى الثورة الاجتماعية الآكلة الحاطمة من كل جانب ، ذلك من شأنه نسف الحضارة الشرقية والتهذيب الشرقى نسفا ينزل بالشرق أفدح النوازل فيستغرق فى الفوضى استغراقا لا يستقر به على حال أعصراً وقروناً .

خاتمة

هنا ينتهى وصفنا العام للتطور الحادث اليوم فى الشرقين الأدنى والأوسط . فهل هناك شىء أحرى بالتدبر وأجدر بالاعتبار مما جاء فى هذا الوصف الذى أتينا عليه من جميع وجوهه ؟ لا جرم انه تبدل وتغير ، واستحالة وانقلاب . فقد تحرك « الشرق الجامد » أخيراً حتى القرارة القصوى من أعماقه ، وهو اليوم فى أشد ما يكون من الانفعال والهياج والفوران ، وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصور . فالعالم الاسلامى الذى ظلت قواه العقلية والروحانية هاجعةً ما يقرب من ألف سنة ، قد استيقظ مرة أخرى وطفقت قواه تعمل عملها العجيب ـ وغدا المسلمون يعظمون شأناً من جديد ويعلون منزلة فى الأرض .

أما ماذا سيكون ؟ والى أين المصير ؟ ذلك لا يعلمه الا علام الغيوب . فليس منا من يستطيع التنبوء ماذا عسى يكون نتاج هذا التطور الشديد سياسياً واقتصاديا واجتماعيا ودينيا وغير ذلك من أطوار الحياة . بل كل ما نستطيع الجهر به هو أن نعلم علما صحيحا ونصف وصفا سليما مطابقا ، ونحلل مختلف العناصر التى يتألف منها هذا الانقلاب العظيم تحليلا لا نعرف فيه غير الصدق ولا نبغى منه سوى الحق

وهذا حقا ليس بالقليل فان النظر بعين التدبر والعقل فى هذا التحول الحادث الذى لا مثيل له ، وربط مظاهره وصفحاته المتنوعة بعضها ببعض وجمعها تحت صورة عامة تظهر بها الأسباب والنتائج سلسلة آخذاً بعضها برقات بعض ، وتتبع الطرق العديدة التى يسير فيها هذا الانقلاب تتبعا نقف به على أصول كل حالة من حالاته ، ووجه من وجوهه ، انما الغرض منه هو العلم الصحيح بالواقع ، والادراك التام لاهمية ماينجم عن هذا التبدل فى المستقبل .

فالمعرفة تأملٌ وأملٌ ، فاذا عرفتَ فتأملْ وأملْ ـ أ،َلّ ان هذا المخاض الشديد الذى لا يفهم كنهه الا من أوتى علماً كبيراً ، ورزق عقلاً صافياً ، وقلباً واعياً ، ان هو الا مولد لشرق جديد فى عالم جديد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

خداع الاوربيين للعرب والمسلمين

للامير شكيب

طالما نصح عقلاء الشرق الدول المستعمرة بان يقلعوا عن سياسة الفتح والغزو فى الشرق بعد الحرب العامة ، فلم يعر رجال هـذه الدول كلامهم آذاناً واعيـة ، حرصا على الفتوحات وطمعا وشرهاً وجرياً على السياسة القديمة الاستعمارية ، ومن تعود شيئا صعب عليه الاقلاع عنه . ولولا كون الشرقيين لم يزالوا يأملون الخلاص من الاستعمار رأسا بدون واسطة لمد جميعهم أيديهم الى مصالحة السوفييت المسكوفيين ، واقتدوا فى ذلك بالترك والعجم والافغان ، الذين اعتضدوا بالروس بدون اقتباس نار البلشفة . ولـكن الشرقيين ولا سيما العرب فضلوا المطالبة والمراجعة والتوسل بالتدابير القانونية والطرق السياسية ، على المبادرة الى التدابير القصوى . على أن المثل السائر « آخر الدواء الـكى » هو عربى

***

فى هذا المقام يحسن أن ننشر البلاغات التى نشرها الانـكليز فى أيام الحرب متزلفين بها الى العرب ليفصلوهم عن الترك ويأمنوا ثورة المسلمين . وعندما نقرأ هـذه البلاغات ونقابلها بما بدا من الانـكليز وحلفائهم بعد الحرب بحق هؤلاء العرب الذين ادعوا صداقتهم يخطر ببالنا ذلك البيت :

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه حتى قضاه فلا صلى ولا صاما

ولـكن نسى الانـكليز والحلفاء أن من أصح الأحاديث النبوية عنـد المسلمين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

البلاغ الأول من الانـكليز الى العرب ١٣ شباط سنة ١٣٣٤

الى أصدقائنا سكان بلاد العرب

قد علمتم تماما أننا معشر الانـكليز لم نخض غمار هذه الحرب الطاحنة ضد ألمانيا الا

لأنها اعتدت على الممالك الصغيرة المتاخمة لها وهاجتها لغير ما ذنب مع ان ألمانية نفسها قد كفلت ضمان استقلال تلك الممالك بالعهود والمواثيق الأكيدة ولا يغيب عنكم ان ألمانيا لما اكتنفتها الاخطار وأحاطت بها الازمات احتالت بدهائها على الحكومة التركية لتأخذ بناصرها وتشد أزرها وقد استطاعت أن تصل الى مآربها بفضل المبالغ الطائلة من المال والأماني الاكاذبة وكانت ترمى بذلك الى الحصول على أمر بالجهاد من سلطان تركيا ضدنا وضد حلفائنا لان رايتنا تظل الملايين العديدة من المسلمين الذين انضم الى جيوشنا الآلاف المؤلفة منهم وأصبحوا يحاربون معنا ضد الالمان جنبا الى جنب وهى ترجو من وراء ذلك أن ينقلب المسلمون ويكونوا علينا لا لنا ولا شك فى أن كل مسلم صميم ملأت العقيدة الاسلامية قلبه يربأ بنفسه من أن يستخف بعقيدته ويكون ألعوبة فى يد دولة أجنبية تجعله قرباناً على مذابح مطامعها الاشعبية وليس جيع المسلمين من رعايا بريطانيا العظمى وفرنسا والروسية وحليفاتها وحدهم قد أظهروا آيات الاخلاص والولاء بارسال زهرة شبانهم لمساعدتنا فى ميدان القتال ضد تركيا وغيرها بل ان الطبقة الرشيدة من الأتراك سخطت على سوء سلوك تركيا الى هذا الحد ولعل بينكم من يتسأل عن نوايانا بعد أن تطفأ جذوة هذه الحرب فلدفع الالتباس نصرح بما يأتى :

ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند قررت انه عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شرائط الصلح ومواده الرئيسية أن تكون شبه جزيرة بلاد العرب ترفل فى ثياب الحرية وتستعيد رقيها القديم ونضرتها الأولى . بربكم ألم يكفكم ذلك؟ لقد صرح لنا بعض مشايخ العربان برغبتهم فى التخلص من يد الأتراك وبعضهم يشد اليوم أزر جيوشنا بحد سيوفه أما الذين يرغبون فينا منكم ويخافون المجاهرة بما فى نفوسهم فاليهم نسوق حديثنا هذا

لا يداخلكم ريب من جانبنا وترقبوا سنوح الفرصة المناسبة فهى آتية لاريب فيها وعندها تخلعون عنكم رداء الظلم وتنفضون عن كاهلكم غبار الاستبداد وانا لا نألو جهداً فى مد يد المساعدة اليكم كما انا نعدكم وعداً صادقا بأنكم ستصيرون بحول الله وقوته أمة متمتعة بكل معانى الاستقلال . انتم على شوق الى معرفة نوايانا من جهة دينكم الكريم الا فاعلموا ان الديانة الاسلامية قد احترمتها الانكليز أجل الاحترام وأكبرتها كل

الا كبار والتاريخ أكبر شاهد على صدق ماتقول وما فتئنا لهذا السبب نمد يد المساعدة لسلطان تركيا ونزيد آصرة الالفة والود بيننا وبينه تمكينا . وأما الآن فقد حمله بعض وزرائه على نكران كل جميل صانعناه به وعلى مناوأتنا بعدطول الصداقة بيننا وبينه فليس عليه الا أن يرضخ لمشيئتهم ويقبل عاقبة ما كان . ولكن سياستنا سياسة الاحترام والصداقة للاسلام والمسلمين لا يطرأ عليها أدنى تغير وان أقرب برهان على ماذكرنا هو رغبتنا فى مساعدة سكان الاراضى الحجازية بمقادير من الحبوب ولكن ضباط الالمان والاتراك صادروا هذه المقادير حال وصولها الى جدة والجأونا الى عدم متابعة ارسال الحبوب لاعدائنا ليسدوا مابهم من ألم المسغبة فى حين أن الفقراء خماص البطون يتضورون من الجوع . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فالحكومة الانكليزية بعد ماسمعت ما يتكبده الحجاج وسكان بلاد العرب الابرياء من آلام الجوع لندرة المأكولات قد حركتها عوامل الشفقة والصداقة السرمدية نحو العرب أجمع فقرر التسريع بجلب المأكولات الى جدة عن طريق البحر فليتأكد العرب أنفسهم أن هذه المؤن الغذائية هى قوت لهم ولعائلاتهم وليجتهدوا فى منع مصادرتها من هؤلاء الذين يعملون على نقيض القواعد المتبعة ابان الحروب ويخطفون لقمة الجائع من فمه

ملك بريطانيا وامبراطور الهند
جورج الخامس

البلاغ الثانى ٤ ذى القعدة ١٣٣٥

ان الحكومة البريطانيـة تعلن للملأ انه ليس فى نية الدولة البريطانيـة العظمى أن تقوم بأعمال حربيـة لا براً ولا بحراً ضد بلاد العرب أو موانيها الا اذا كانت الأعمال الحربية لازمة لأجل حماية مصالح العرب من اعتداء الاتراك أو غيرهم أو لأجل تأييد العرب الذين يودون أن يتحرروا من نير الاتراك . ثم ان الحكومة البريطانيـة تعلن للملأ أيضا انها تعترض حرية التجارة فى البحر الأحمر لانها من أهم وسائل معاش العرب وانه لم يحصل أقل تغيير فى علائق بريطانية العظمى الودية مع العرب بوجه عام .

ملك بريطانية
وامبراطور الهند
جورج الخامس

البلاغ الثالث ٧ ذى الحجة ١٣٣٥

ان الحرمين الشريفين والمعاهد المقدسة السالفة الذكر ومن ضمنها ثغر جـدة ستبقى أثناء هذه الحرب التى لادخل للدين فيها فى أمان من أى هجوم أو اضرار من جهة القوى العسكرية البرّية أو البحرية حتى لايلحق الحجاج الهنود الذين قصدوا زيارة الحرمين المذكورين مايوجب أذيتهم وبناء على طلب الحكومة البريطانيـة تعهدت الحكومتان الفرنسوية والروسية بمثل ماتعهدت به حكومة جلالة ملك بريطانية .

ملك بريطانية
وامبراطور الهند
جورج الخامس

تاريخ الممالك الاسلامية الهندية

للأمير شكيب

يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنى الذى يقول له مؤرخونا محمود بن سبكتكين ، لم يكن أفغانياً بل تركياً ، و بين الجنسين فرق لايخفى ، لأن الترك تورانيون والأفغان ايرانيون ، وانما يمكن أن يعد أفغانياً باعتبار مملكته لأنه أسس ملكه فى غزنة من بلاد الأفغان ، وأصل هذه القضية أن جد محمود ، وهو المسمى آلب تكين ، وهو بطل تركى ، كان شأنه الغزو والقتال وكان فى خدمة الملوك السامانيين الفرس الذين تولوا خراسان وما وراء النهر ، فحصلت وحشة أوجبت انفصاله عنهم ، فقدم الى مدينة غزنة وهى من أحصن مدن العالم موقعاً ، عدا مالها من الأسوار ، وفيها من الحصون ، وحولها من الخنادق ، وتبوأها نحو سنة ٩٦٢ وتبعه شرذمة من أحلاس الخيل ومغاوير الحروب ، ممن جاءوا معه مما وراء النهر ، فكانوا نواة جيشه ثم انضم اليهم جند وافر من الأفغان الذين يشبهون الترك كثيراً فى الغرام بالقتال ، فانبسطت بهم مملكة البتكين ، ثم مملكة ولده سبتكين الذى خلفه (٩٧٦) وفتح كابول التى هى مفتاح معابر جبال الهندكوش وقندهار قلعة الاسكندر ، وأتم فتح البلاد الأفغانية واستظهر على مغازيه بهذا الشعب الأفغانى الباسل الذى لم يخضع لشعب فى العالم . وساعد على اتحاد الأتراك والأفغان كون الفريقين على عقيدة السنة والجماعة ، حال كون الفرس شيعة متعصبين . ثم انه فى سنة ٩٩٧ أقطع السامانيون سبكتكين بلاد ماوراء النهر ، مكافأة له على نجدته إياهم فى ثورة ثارت عليهم فى بلادهم ، فقوى سلطان سبكتكين وطمع فى غزو الهند مطمح نظره ، وشن الغارات على البنجاب مقدمة الهند ، وما زال يتحرش بالهند حتى احتشدت راجوات لاهور ، ودلهى ، واجمير ، وقنوج ، وكالنجار ، ومشتصوب الأفغان بجميع أفيالها و ١٠٠ ألف من فرسانها ، فنصر الله سبكتكين ومزق الهنود شر ممزق ، ولم يكن للهنود أن يملكوا نظام الترك فى الحروب

---

(١) راجع صفحة ١٨٠ من هذا الجزء

والترك هم الذين ألف على مزاياهم العسكرية الامام الجاحظ شيخ كتاب العرب كتابه المسمى « فضائل الاتراك » فى أيام المأمون ولا أن يقاوموا الافغان وهم هم الذين لم يوجد قوم مثلهم للحرب والضرب،ثم خلف سبكتكين ولده محمود المعدود من أشهر أبطال الاسلام وهو الفاتح الأعظم للهند .

وبدأ غزواته بفتح الملتان سنة ١٠٠٥ مسيحية ، وأراد أن يوغل فى الهند فحشد راجا لاهور عليه جميع عساكر الهند ، متحداً مع راجوات دلهى واجمير وقنوج وكفاليور وكاليجار واوجايين ، فقام العالم البرهمى من أوله الى آخره ، وانتظرهم محمود فى سهل « باتنداه » ودارت رحى الحرب فقضى الله بكسر الهنود بالرغم من تفوقهم فى العدد ، وفرّت أفيالهم لاتلوى على شىء ، وغنم محمود بعد هذه المعركة مالا يحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ونهب هيكل « ناغاركوت » (١٠٠٩) وسنة ١٠١٤ فتح بلاد دواب وسنة ١٠١٩ فتح قنوج وطرد أميرها و وضع مكانه أميراً تابعاً له . وسنة ١٠٢١ فتح كشمير ، ومازال يوالى مغازيه و يلقى الرعب فى قلوب الهنود الى أن تألب عليه ملوك البراهمة مرة أخرى سنة ١٠٢٤ فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل لاهور وخلع سلطانها سقبال بن داتنقبال ، وضم جميع البنجاب الى سلطنته فكانت المحطة الأولى من طريق الاسلام الى الهند . ثم هاجم كاليجارا وكفاليور فالتزم ملوكها أن يؤدوا له الجزية . وقال فى صبح الأعشى : انه فتح بهاضية سنة ٣٩٦ وسار الى بيدا ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة بكاليجار فحاصره فيها حتى صالحه على مال فأخذ المال وألبسه خلعته ، واستعفى من شد وسطه بالمنطقة فلم يعفه من ذلك فشدها على كره . وسنة ١٠٢٥ مسيحية غزا ساحل الكوجرات وهدم صنم سومنات الشهير . و بهذه الفتوحات كلها التى فتحت للاسلام أبواب الهند أطلق عليه الخليفة العباسى القادر بالله لقب سلطان وسماه يمين الدولة و يمين الملة . قال بعض مؤرخى الافرنجة ان محموداً كان اسكندر الاسلام ، فانه فتح الهند كما فتحها اسكندر ، الا ان فتوحات اسكندر ذهبت بذهابه أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت الى اليوم . وكان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد فيه ، وقلع عبادة الأصنام منه ، الا انه مع هذا الفوز المعنوى فاز بغنائم من الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل فى حوزة أحد من قبله .

ويعترف مؤرخو الافرنجة بأن محمود الغزنى لم يكن فاتحاً غازياً على المكانة من الجهة العسكرية فقط ، بل انه كان سلطاناً عاقلاً أديباً كيساً ، ناظماً بين حاشيتى المادة والمعنى ، جامعاً بين دولتى السيف والقلم ، ويعللون ذلك بأن بفتحه العراق العجمى واستيلائه على اصبهان والرى التى انتزعها من بنى بويه ، وعلى نيسابور وطوس وهراة ، فضلاً عما كان بيده من ملك خراسان وأفغانستان ، قد قام بتمثيل دور مدنى يليق بملوك العجم ، وأنه أعطى أبهة الملك حقها ، وفى زمانه حصلت نهضة فارس العقلية وصارت غزنة هذه التى كانت عبارة عن قلعة حربية ، مركزاً للعلم والعرفان ومشرقاً لأشعة الحكمة والآداب ، وامتلأت مدارس وجوامع ومكاتب ، واليها شدت رحالها الحكماء والعلماء والشعراء ، ان لم يكن منهم الا الفيلسوف الأعظم أبو نصر الفارابى ، والشاعر الأكبر هوميروس العجم الفردوسى لكفى . وقد كان السلطان محمود هو المقترح على الفردوسى نظم الشاهنامة ووعده بأن يكافئه على كل دوبيت (بيتين) بقطعة من الذهب ، الا أن ذلك أثار حسد الحساد ، فوشوا به الى السلطان فبدل له الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسى وفرخفية بعد أن فرق الفضة على عبيده وهجا السلطان هجواً مراً . وذهب الى بغداد ثم الى شيراز ، وكان محمود قد أرسل فى أثره من يستعطفه ويبين له ندم السلطان على مافرط منه فكان الفردوسى قد مات . ولزم باب الغزنى من شعراء الفرس أيضاً العنصرى والفروخلى والاسجودى ، وكان هناك العلامة الكبير أبو الريحان البيرونى صاحب الجغرافية ، وفى أيامه نبغ الكاتبان الأعظمان فرقداً سماء البلاغة أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وكان الهمذانى عامل السلطان على هراة . ومن الذين اشتهروا فى ذلك الدور ، وكان اليد اليمنى لابن سبكتكين فى المآثر والمبار والمفاخر الكبار ، وزيره الميمندى . وقد ألف الكاتب العتبى تاريخاً خاصا بمحمود بن سبكتكين ، كما انه مترجم فى تآليف كثيرة من أشهرها وفيات الأعيان لابن خلكان

وخلف محموداً الغزنى بعد وفاته ابنه مسعود (١٠٣٠ الى ١٠٤٠) وفتح من الهند بلاد الأوض ودخل بنارس. وورد فى صبح الأعشى ان ابراهيم بن مسعود فتح أيضاً حصوناً كثيرة فى سنة احدى وخمسين وأربعمائة .

وسنة وفاة محمود على مافى صبح الأعشى بالتاريخ الهجرى هى ٤١١ قال : وملك بعده ابنه محمد بن محمود بعهد من أبيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه أخاه مسعود بن محمود

وملكوه عليهم و بقى حتى قتل فى سنة ٤٣٢ ثم ملك بعده أخوه محمد المقدم ذكره وقتل فى عامه ، وملك بعده ابن أخيه مودود بن مسعود وتوفى سنة ٤٤١ وملك بعده عمه عبدالرشيد ابن محمود وقتل سنة ٤٤٤ وملك بعده فرخذاد بن مسعود بن محمود وتوفى سنة ٤٥١ وملك بعده أخوه الملك المؤيد ابراهيم بن مسعود (السابق ذكره فى الفتوحات) وتوفى سنة ٤٨١ وملك بعده ابنه مسعود بن ابراهيم وتوفى سنة ٥٠٨ وملك بعده ارسلان شاه بن مسعود ثم ملك بعده بهرام شاه بن مسعود ، وملك بعده ابنه خسرو شاه بن بهرام وتوفى سنة ٥٥٥ وملك بعده ابنه ملكشاه بن خسرو شاه بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سبكتكين . ثم انتقل الملك الى الغورية . انتهى

و بعد وفاة محمود بن سبكتكين ظهرت الاتراك السلجوقية على خراسان وانتقصوا ملك أبناء سبكتكين ، فانتقلوا من غزنة الى لاهور فى الهند وما زالت أمورهم فى انحطاط الى أن غلب على ملكهم الغوريون الافغان ، والله وارث الارض ومن عليها .

وهؤلاء الغوريون هم أمراء فيروزكوه أو بيروزكوه وهى قاعدة بلاد الغور على مافى كتاب « تقويم البلدان » والغور (بضم المعجمة) – على مافى (اللباب) – هى بلاد فى الجبال بقرب هراة . وقال فى « المشترك » : ان بيرزكوه هى دار مملكة جبال الغور وهى قلعة حصينة وبها كان مستقراً بنو سام خان ملوك الغور . «وقال فى معجم البلدان»: « بناها بنو سام ملوك الغورية.وقال فى صبح الأعشى : و بلاد الغور وغزنة وما والاها وان عدها فى « مسالك الأمصار » من مملكة التورانيين فانها ليست من أصل مملكة توران وانما تغلب عليها ملوكها من مملكة ايران فلذلك أثبتها فى مملكة ايران » . انتهى

وقال فى « المشترك » ، ومعنى بيروزكوه الجبل الأزرق .

وأول من ملك من الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين ، ملك عند انقراض الدولة الغزنية واستضاف عزنة وما جاورها الى الغور سنة ٥٥٥ ولقب بالملك المعظم . وملك بعده غياث الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين ، ثم ملك أخوه شهاب الدين وفى أيام هذا ، أى فى عهد الستمائة للهجرة ، كان الامام حجة الاسلام فخر الدين الرازى ، وكان يذهب الى هذا السلطان ويعظه . وملك بعده علاء الدين محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين أما الفاتح الأعظم من هؤلاء والذى مكانه فى التاريخ العام ضين مكان ابن سبكتكين

فهو السلطان محمد أبو المظفر بن الحسين الغورى .

وقال « رينه غروسه » صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من التواريخ : « ان الغوريين استولوا على جميع ما كان يملكه الغزنيون ، ومن ثمة كان بدهياً أن يجروا على أثرهم فى غزو الهند . فبعد أن أزال محمد الغورى ملك آل سبكتكين ، زحف نحو الهند فجمع له ملوك البراهمة ثلاثمائة ألف فارس ، وثلاثة آلاف فيل ، فمزق شملها ودخل الهند وكانت معركة فاصلة وفتحاً قلّ أن اتسق مثله للاسلام (١١٩٣ مسيحية) ضمن للاسلام بعدها سلطنة الهند مدة خمسة قرون متوالية ، وأدال الله لمحمد ﷺ من براهما . فدخل محمد دلهى وميرات وآغرا واستضافها الى ملكه رأساً . وفى السنة التالية فتح قنوج (١١٩٤) ومملوكه ايبك فتح بنارس و بلاد أوض ، وسنة ١١٩٦ ضرب الجزية على مملكة كفاليور ، وسنة ١١٩٧ استلحق بلاد كوجرات ، وسنة ١٢٠٢ خلع راجا كاليجار واستضاف الى المملكة الغورية بلاد بوندكهاند . وان أحد رفاق ايبك بختيار قلجى الافغانى انتزع من يد دولة « ماغدها » البوذية بلاد بهار والبنغاله سنة ١٢٠٢ » انتهى قول غروسه ملخصاً .

وقال فى صبح الأعشى : فتح أبو المظفر محمد بن الحسين الغورى مدينة لهاور (أى لاهور) سنة ٥٤٧ (وابن الاثير يقول ٥٧٩ وهو أصح لأن ذلك فى زمان ابن الاثير) واتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، و بلغ من النكاية فى ملوكهم مالم يبلغه أحد من ملوك الاسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دلهى (يقال دهلى ودلهى ودلى) التى هى قاعدة الهند . و بعث ايبك عساكره فملكت من الهند أماكن مادخلها مسلم قبله حتى قاربت جهة الصين . ثم قال : ثم فتح سنة ٥٩٧ نهر واله . وتوالت ملوك الاسلام وفتوحاتهم فى الهند الى أن كان محمد بن طغلقشاه فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوى سلطانه بالهند وكثرت عساكره وأخذ فى الفتوح حتى فتح معظم الهند . انتهى

قال غروسه ان محمود الغورى أسس ملكا عظيماً ثابتاً وطيداً ، تعاقبت عليه الدول الاسلامية التى جاءت بعده من ترك وافغان وطاغلاقيين وسادات ولوديين وتيموريين ، وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة وحق الاسلام فى السلطنة العامة على الهند مما بقى الى

زمان استيلاء البريطانيين . وهو الذى نقل كرسى السلطنة من لاهور الى دلهى لأن لاهور لا تضمن الا ملك البنجاب ، حال كون دلهى تدعو الى ملك جميع سهول القنج وأقاليم الدكان ، ولما كان الغزنيون فى لاهور لم يكونوا الا نظير راجاوات فى أحد أقاليم الهند أما الغوريون فى دلهى ومن ورثهم من آل طاغلاق وآل السيد وسلالة تيمور فكانوا بالفعل سلاطين الهند باسرها .

ثم قال ما محصله : ان امبراطورية الغوريين كانت لم تزل قائمة بالسيف ، وكان الهنود الوطنيون غير طائعين الا بسبب توالى الزحوف من الشمال ، وكان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من المماليك . وكان شأن هؤلاء المماليك فى الهند شأنهم بمصر حذو القذة بالقذة . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة اندمجوا فى الجيش فامتازوا بالبسالة والاقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة الى درجة الى أن ينال الامارة وأحياناً السلطنة كما كان يقع بمصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون ابقاء المآثر والطمع فى تخليد الذكر ، فكما ان سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة ، فالسلطان المملوك فى الاصل ايبك الذى خلف محمد الغورى ، بنى فى دلهى الجامع المسمى « جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » و بنى فى اجمير الجامع المنسوب اليه . وكما هو الشأن فى دول المماليك فلما كان يتولى الابن مكان أبيه بل كان يغلب على الملك مملوك آخر يكون أوفر حزماً ، وأشد عزماً من الولد الذى كان يجب أن يرث أباه ، لهذا لما مات ايبك تغلب على سلطنة الهند مملوك تركى اسمه آلتامش (١٢١١ - ١٢٣٦) فكان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة وأكمل فتح الهند الشمالية بأخذ بلاد المالفا. وأعلى من هذا كله انه حفظ الهند من جائحة المغول ، لانه فى زمان التامش هذا زحف الجنكيزيون على ايران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الامير جلال الدين مانكبردى الخوارزمى شريداً ملتجئاً الى التامش ، فكان من حسن تدبير هذا انه رد غارة المغول على البنجاب ولكنه لم يتهور فى اصراخ جلال الدين الى محاولة اعادة ملكه له وشن الغارة على المغول ، مما لم تكن تؤمن عاقبته . الا أن المغول كروا أيضاً على البنجاب بعد موت التامش فردهم مملوك تركى آخر كان التامش رقاه تدريجاً الى امارة الجيش اسمه « بالبان » فحفظ بالبان الهند من غارة

المغول فكافأته الامة بأن رقته الى السلطنة (١٢٦٦ - ١٢٨٧) .

وسنة ١٢٩٠ مسيحية انتقلت سلطنة الهند من أيدى المماليك الى آل قيلجى الافغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان علاء الدين الذى كسب المسلمين فتوحات جديدة فاخضع بهوبال واجتاح بلاد المهرات (فى بلاد بمباى الحاضرة) وضرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدناً وقفل بغنائم كثيرة . وعام ١٢٩٧ زحف ١٠٠ الف مغولى مما وراء النهر يقودهم امير من ذرية جنكيز قاصدين البنجاب فالتقاهم علاء الدين وهزمهم شر هزيمة بقرب لاهور فعادوا سنة ١٣٠٥ وتقدموا نحو دلهى فكسرهم علاء الدين كسرة اشنع من الأولى ، واسر منهم جانباً رماهم تحت ارجل الفيلة فداستهم . ثم عاد علاء الدين الى اتمام فتح الهند الوسطى، فاستولى على مملكة كوجرات ، ثم غزا مملكة تشيتور ، و بعد حرب ضروس التجأ ملكها الى جبال آرافالى ، فلم يرجع علاء الدين عنه الا بعد أن أقر له بالطاعة . وسنة ١٣٠٨ سير علاء الدين أحد قواده الملك كافور لغزو مملكة دكان ، وامتنع راجا مملكة المهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده وغزا مملكة تلينغانا وفتح عنوة عاصمتها فارانغال ، واستولى على خزائن ملكها . وسنة ١٣١٠ غزا مملكة مايسور واجتاح مدينة هاليبيد العظيمة . ثم فى اثناء ايابه الى دلهى قتل راجا المهرات الذى عاود العصيان ، وضم المهرات الى سلطنة دلهى . اما فتح الدكان فلم يتيسر لا للاسكندر ولا لمحمود الغزنى ولا لمحمد الغورى وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل الى بلاد الدكان فى غزواته .

الا انه فى عام ١٣٢١ تنزى على سلطنة دلهى بنو طغلق الاترك ، وازالوا الدولة الافغانية من هناك ، وظهر من بنى طغلق هؤلاء سلطان اسمه محمد اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معاً ، فانتبذ كل امير فى مملكة واعلن انفصاله عن سلطنة دلهى . فلك فى الدكان ، وملك فى مالفا ، وملك فى البنغال وملك فى كوجرات ، وملك فى أوض . وكلهم اصبحوا مستقلين بانفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهى سوى دواب والبنجاب ، وهذه أيضاً تعرضت لفادحة كبرى وهى غارة المغول . انتهى .

قال فى صبح الاعشى . ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكة سلطان من اقارب اسمه فيروزشاه و بقى فى الملك نحو اربعين سنة ثم تنقلت المملكة فى بيتهم الى ان كان من تمرلنك ما كان من فتح دلهى ونهبها . انتهى .

فان المغول كانوا قصدوا الهند مراراً وصدتهم الهند وانكفأوا عنها خاسرين، الا انهم لما دخلوا فى الاسلام ، وتوطد ملكهم فى فارس والعراق وافغانستان ، و بعد ان كانوا اعداء الاسلام صاروا حماته — ولولا ذلك مارسخت قدمهم فى هذه البلدان خلافا لما يظن بعضهم — جددوا العزم على غزو الهند اقتفاء لأثر غيرهم ممن ملكوا أفغانستان كالغزنيين والغوريين وفى سنة ١٣٩٨ مسيحية زحف تمرلنك بعساكر جرارة على الهند ، فدخل البنجاب ، وصمد الى دلهى فالتقاه سلطانها محمود الثالث فى بانيبات ، فدارت الدائرة على محمود ، ودخل تمرلنك دلهى ظافراً فاتحاً ، وأعلن نفسه سلطاناً على الهند كلها فى الجامع الأعظم ، ولكنه استبقى سلاطين دلهى الأصليين بصفة تبع له ، فسقطت مكانتهم وصاروا كسائر ملوك الهند . فصارت ممالك الهند الاسلامية هى سلطنةدلهى ومملكة الدكان ومملكة البنغالة ومملكة جاونبور ومملكة مالفا ومملكة كوجرات . أما مملكة البنغالة فأسسها بختيار قيلجى الافغانى على انقاض دولة «ماغادها» البوذية و بقى كيانهامحفوظاً مع تعاقب الدول الافغانية والتركية والمغولية على الهند الى أواسط القرن السادس عشر للمسيح . وأما مملكة جاونبور فقد انشأها احد وزراء محمود الثالث سلطان دلهى فى أثناء غزوة تمرلنك ، وكان لها بلاد أوض وولاية بنارس ، وقد تركت مآثر باهرة مثل جامع « اتالا » المبنى سنة ١٤٠٨ والمسجد الاعظم المبنى سنة ١٤٥٠ ولكن لم يطل عمر هذه الدولة ، اذ كان تأسيسها سنة ١٣٩٤ وانقراضها سنة ١٤٧٧ بحرب وقعت مع سلطنة دلهى التى استلحقتها رأساً . وأما مملكة مالفا التى قاعدتها مدينة ماندو ، فقد وضع أساسها رجل افغانى كان والياً هناك سنة ١٤٠١ فى خلال غارة المغول ، فعاشت الى سنة ١٥٣٤ اذ استولى عليها ملك كوجرات . وأما مملكة كوجرات وعاصمتها أحمد آباد فقد أسسها أيضاً واليها فى تضاعيف زحفة تمرلنك . وفى الربع الأول من القرن السادس عشر كان قد وصل البرتغاليون الى الهند بعد أن اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، فحاولوا النزول بكونكان فاستصرخ ملوك كوجرات الاتراك العثمانيين سنة ١٥٠٨ فأرسلوا اسطولهم لينضم الى اسطول كوجرات فى حرب البرتغال ، فكانت الغلبة للاميرال البرتغالى « فرانسز كودالمايده » ونزل البرتغاليون بساحل ديو سنة ١٥١٣ . وأعظم مملكة انشقت عن امبراطورية دلهى هى الدكان ، أسسها الباهمانيون وهم افغان ، وكانت قاعدتها « كولبارغه » بقرب حيدر آباد ، وتشتمل على

ملك نظام حيدر آباد الحالى مضافاً اليه برار و بلاد المهرات . وكان بجانبها مملكتان هنديتان قويتان احداهما «فارانغال» والثانية «فيجاياناغار» الى الطرف الجنوبى من الدكان . فكانت سلطنة الدكان عبارة عن جهاد دائم مع هاتين المملكتين . وسنة ١٤٢٤ افتتح أحمد الأول الباهمانى صاحب الدكان فارانغال ودمرها تدميراً . وكان معظم شوكة الباهمانيين فى زمان محمد الثانى (١٤٦٣ – ١٤٨٢) بهمة وزيره محمود قاوان الذى افتتح بلد « غوا » من مملكة فيجاياناغار وسواحل سيركار من ملك راجا أوريسا . وفى أيامه امتدت سلطة الدكان من خليج البنغالة الى بحر عمان . ولكن بعد موت محمد الثانى الباهمانى تقسمت هذه السلطنة أيدى سبا ، فتشعبت منها خمس دول مستقلة كل عن الأخرى : الأولى دولة باريدشاه فى بيدار (١٤٩٠ –١٦٥٧) وأصل ملوكها كرج . الثانية دولة عماد شاه فى برار (١٤٨٤ – ١٥٧٢) أصلهم هنود وأسلموا . الثالثة دولة نظام شاه فى أحمد ناغار (١٤٩٦ – ١٦٠٠) وهذه أيضاً أصل مؤسسيها من الهنود المهتدين . الرابعة دولة قطب شاه فى غولكوند (١٥١٢ – ١٦٨٧) وهذه أصلها فارسى . الخامسة دولة عادل شاه فى بيجابور (١٤٨٩ – ١٦٨٦) ويقال ان مؤسسها يوسف عادل كان من أولاد السلطان مراد الثانى العثمانى ، ساقته الأقدار بعد اقامة طويلة بفارس الى بلاد الهند حيث استقل بامارة بيجابور وكان متعصباً للفرس وللشيعة بخلاف أهله آل عثمان . فنشر الأدب الفارسى فى مملكته وجعل التشيع دين الدولة الرسمى وخلفه ولده اسماعيل فاحتذى على مثاله .

ومما لايخفى على الناقد البصير ان خمس دول كهذه ، متشعبة من مملكة واحدة أشبه بملوك الطوائف بالاندلس ، أو ملوك مصر والشام بعد صلاح الدين ، أو ملوك ايطالية قبل وحدتها الأخيرة الخ كان بعضها مع بعض فى نزاع مستمر ، والحروب بينهم لاتكاد تنقطع . فكانت الفائدة من ذلك لجيرانهم الهندوس ، وتقوى بخلافهم راجا «فيجاياناغار» واشتدت جرأته مرة الى أن اجتاح مملكة أحمد ناغار بحجة الصريخ لمملكة بيجابور . فغلبت على الملكين المتنازعين حمية الاسلام وتصالحا وانضم اليهما ملكا بيدار ، وغولكوند ، وزحف الأربعة على فيجاياناغار ، ونعشوا هذه المملكة العظيمة ، وقتلوا الراجا فى واقعة تاليكوت ، وأتوا على عاصمته من القواعد (١٥٦٥) . قال المؤرخ رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من منابع التاريخ وعليه اعتمدنا فى أكثر هذا النقل : ان الجهاد

الاسلامى الذى بدأه محمود الغزنى فى نحو سنة ألف للمسيح فى الهند ، انتهى فى أواخر القرن السادس عشر على حدود مايسور ، ولمع الهلال من ثلوج حلايا الى ساحل كرنات » .

ونعود الى سلطنة المغول فى دلهى ، فنقول ان أحد احفاد تمرلنك الشهير واسمه بابر ولقبه ظهير الدين محمد ، قد انتهز فرصة بعض الحوادث التى وقعت بدلهى ، فزحف من كابول ، حيث كان أميراً الى عاصمة الهند . وكان بابر هذا ابن المسمى عمر الشيخ ملك فرغانه ، وبذلك ابن حفيد ميرانشاه ثالث أولاد تيمورلنك وكانت أمه الأميرة قوتلق نيغار آخر من بقى من سلالة جغتاى الجنكيزية ، كما أنه ينتسب الى جنكيز فاتح الدنيا من جهة الأب أيضاً . ومعلوم ان الانتساب الى جنكيز هو فى العالم الطورانى أقصى ما تخيله الامانى لملك أو سلطان أو أمير أو خان من الخانات ، كما هو الشأن عند العرب فى الانتساب الى آل البيت . بل كل منسوب فى المغول أو الترك الى جنكيز أو تيمور يرى لنفسه حقاً شرعياً فى الملك . فكان بابر من ورثة ذلك الحق الشرعى والجد الأثيل . وبعد وفاة والده سنة ١٤٩٤ (٥ رمضان ٨٩٩) آل اليه ملك فرغانة وكان عمره ١٢ سنة ، وسنة ١٤٩٧ ضم اليه مملكة ماوراء النهر ، ولكن غلب عليه محمد الشيبانى خان الاوزبك مؤسس الدولة الشيبانية فى بخارى ، فانهزم الى افغانستان يحاول ملكاً أو يموت فيعذر . فوفق الى امارة كابول سنة ١٥٠٤ واستولى على قندهار سنة ١٥٠٧ وكان نظير محمود بن سبكتكين قد تبعه جماعة من الاتراك من مساعير الحروب ، واعصوصب حوله فئام من الافغان الذين أحلى شئ عندهم القتال والنزال ، فاول شئ كان يخطر ببال مثل هؤلاء وهم فى كابول وقندهار ، هبوط الهند كما هبطها من قبلهم محمود الغزنى ومحمد الغورى . وبينما هم يحفزون بابر على هذه الغزاة التى وراءها الصيت البعيد وخزائن الهند ، اذ لاحت لذلك الغرة فان السلطان ابراهيم الثانى صاحب دلهى وهو من السلاطين اللوديين من سلالة افغانية كان اختلف مع عمه اعلم فالتجأ هذا الى كابول ، وبهذا تسنى لبابر أن يشن الغارة على البنجاب (١٥٢٥) بجيش لايتجاوز ١٣ ألف مقاتل لكنهم جميعاً من المنجذين فى الحروب ذوى البصائر فى القتال ، وقد جر بابر معه المدافع التى لم تكن معروفة يومئذ فى الهند ، فنهد اليه السلطان ابراهيم بمائة ألف مقاتل وألف فيل ، ودارت رحى الحرب فى سهل بانيبات فى ٢١ ابريل (نيسان) عام ١٥٢٦ أو نهار الجمعة ٨ رجب سنة ٩٣٢ فاقام بابر فى وجه الفيلة

حواجز من العجلات المسلسلة بينها المدافع ، بحيث أبطل عمل الأفيال ومن الجهة الأخرى كان عنده رماة بالمدافع يتقنون الرمى على نمط العثمانيين فى القرن السادس عشر . فالقت قذائفهم الرعب فى قلوب الهنود فهلك ابراهيم فى الواقعة وهلك معه ٢٥ ألفا من جنوده وتشتت الباق . ودخل بابر دلهى ظافراً ونودى به ملك ملوك الهند فى جامع دلهى الأعظم ، وسار ولده همايون فاحتل آغرا العاصمة الثانية وغيرها من الحواضر .

فقامت قيامة الهند لهذه الواقعة ، وأخذ راجوات الهندوس يتأهبون للقتال بدعوة رانا (لقب أكبر من راجا) سانغا ملك تشيتور فحشد معه راجا مارفار ، وراجا آمبر ، وراجا أجير ، وراجا كفاليور ، وراجا تشنديرى ، وانضم اليهم محمود اللودى أخو السلطان المقتول فبلغت جيوش الحلفاء مائة ألف مقاتل من أفرس خيالة الشرق والتقى الجمعان فى سهل كانفاها على مقربة من آغرا ، فانتهت المعركة بدبرة الهنود ، وكانت الكلمة للمدفع كما فى المعركة السابقة فمات رانا تشيتور غماً . وزحف بابر يستصفى الممالك فحصر قلعة تشنديرى ، وضيق عليها ، فلما أيقن أهلها بقرب سقوطها كان منهم أن ذبحوا نساءهم وأولادهم أولاً ، ثم قتل بعضهم بعضاً ، بحيث عند مادخلها بابر (سنة ١٥٢٨) لم يجد الا جثثا وأشلاء . أما السلطان محمود اللودى فكان لايزال فى مملكة أوض فقصده بابر فانهزم الى البنغالة ، فانتصر له ملك البنغالة وهو أفغانى مثله فتغلب عليه بابر وأجبره على الدخول فى طاعته . وهكذا بقى بابر خمسة أعوام يجالد ويجاهد حتى دوخ الهند وأسس فيها السلطنة المغولية التى استمرت قرنين فى الهند وكان لها تاريخ طويل عريض .

ومات بابر (سنة ١٥٣٠) بعد أن أبقى ذكراً خالداً ولم يكن بابر سلطاناً فاتحاً فقط ، بل كان على طراز كثير من سلاطين آل عثمان محمد الفاتح أو سليم وأحمد يجمع بين السيف والقلم ولا يكتفى بالحكم دون الحكم . فكان فيه صلابة أجداده الجنكيزيين ، وغرام الترك بالفتوح ، ودماثة أخلاق الفرس وشغفهم بالآداب ، وبالجملة فقد جمع بين شدة البأس ورقة الأدب ، وحرر خاطراته بقلمه فكان لها شهرة عظيمة وترجمت الى اللغات الأوروبية فقال فيها رنان الفيلسوف الفرنسى مايأتى :

« ان هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق فى الرواية ، وعند مايفكر الانسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان السلبق هومؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لايعود قادراً

على ترك الكتاب من يده ، لأنه يحس بذلك تلك الحالة النفسية التى كانت تجيش بتلك السلائل التترية المالكة التى ملأت آسيا وقائعها منذ القرون الوسطى الى أيامنا هذه . فتجد فى تلك الأسطر كلاما معقولاً مع اصالة الرأى ، ورقة الطبع ، وشدة الجلد بدون تعصب دينى ، ومع عدم اهتمام زائد بالاسلام (مما لايصح أن ينساه القارئ أن من الصفات التى ترتاح اليها نفس أكثر الأوربيين هو أن يروا الملك المسلم غير شديد التمسك بدينه هذا هو مقياس الحب عندهم) الا فى أحايين يظهر عليه فيها أثر التدين . وبالاجمال يتجلى من كلامه حرية الفكر ، والدهاء ، والعدل ، وعدم الانقياد للأوهام ، مما لانجده فى فاتح آخر من الفاتحين المسلمين ، فكان أول أولئك السلاطين الحكماء الذين لمع ملكهم كثيراً فى الهند بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر » انتهى كلام رنان .

وكان من حفاظ شعر عمر الخيام ، والحافظ الشيرازى ، وكان هو بنفسه شاعراً فمن قوله :

« ماالطف دخول النيروز وماأطلى كأس الطلاء ولكن أحلى منهما نغمة الحب » .

وفى دائرة المعارف الاسلامية : أن شجاعة بابر واقدامه كانا فوق وصف الواصفين ، وانه لما فتح سمرقند ثانى مرة تسلق السور بمائتين وأربعين رجلا لاغير وقطع الهندكوش فى وسط الشتاء وهو أمر خارق العادة . وكان شاعراً له ديوان بالتركى ، وكتب خاطرات حياته « بابرنامه » وقد طبعت هذه فى قازان سنة ١٨٥٧ وترجمها الى الفارسى عبدالرحيم ميرزا خان ومن النسخة الفارسية نقلت الى اللغات الأوربية .

ولما استقر همايون بن بابر على كرسى السلطنة صمد الى محمود اللودى الأفغانى صاحب اوض فقهره فى معركة لوكنو (١٥٣١) ولكنه عجز عن قهر أمير أفغانى آخر كان فى قلعة تشونار حاكما على ولاية بنارس ، فترك حصار هذه القلعة وانقلب على عقبيه قاصداً قتال بهادر شاه ملك كوجرات ومالفا . فبينما هو فى هذه العزيمة اذ بلغه أن صاحب قلعة تشونار هذا ، وكان اسمه شيرخان ، قد استولى على البنغالة وعلى بهار وأوض وصار ذا دولة وصولة ، يقدر فيها أن يجاذب الدولة التيمورية بحبل . فأغذ السير إلى البنغالة ، وهزم شير خان وتراجع الى مكانه ، لكن شير خان عاد فاسترد جميع المدن التى كان أخلاها ، فعاد همايون اليه وانتصب الميزان بينهما فى بوكسار على القنج شرق بنارس ، فانكسر همايون

(١٥٣٥) ثم جـدد الحملة على شير خان سنة ١٥٤٠ فالتقيا فى قنوج فانهزم ثانية ، وخسر مدافعه ورجاله وكنوزه وفر من الهند شريداً قاصداً جبال افغانستان التى انحدر منها أبوه قبل هذه الواقعة بثلاث عشرة سنة فحاول هناك أن يملك كما كان أولا ، فاذا باخوته يأبون النزول له عن شئ ، فوقعت بينه وبينهم وقائع اضطر أن يلتجئ بسببها الى شاه العجم فسير الشاه معه جيشاً أعانه على فتح قندهار (١٥٤٥) وفتح كابول (١٥٥٠) .

أما شير خان الأفغانى فدخل دلهى وآغرا ، واستصفى ملك بابر وأعاد الدولة الأفغانيـة الهندية ، واستوسق له الأمر الى أن مات (١٥٤٥) فوقع النزاع بين أولاده وأخذ كل يجذب الحبل من جهة ، فرأى همايون صيده سانحاً وحشد ١٥ ألف فارس وهبط بهـا البنجاب . وكان خليفة شيرخان فى دلهى هو اسكندر شاه ، فصمد اليه بثمانين ألف مقاتل و بضع مئات من الفيلة ، فـكان اللقاء فى سهل سيرهند ، بين دلهى ولاهور ، وقضى الله بالنصر لهمايون (١٥٥٥) ودخل دلهى مسترجعاً ملـكه الذى كان فقده قبل ذلك العهد بثلاث عشرة سنة ثم بعد ظفره هذا لم يلبث أن مات ، فدفن بالقبة التى كان بناها لنفسه فى دلهى ، والتى تعد من أعاجيب الدنيا ، وخلف همايون ولده أكبر أبو الفتح جلال الدين محمد وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من العمر ، ولـكنه كان قد نبغ قبل بلوغ أشده وكان مولده فى السند فى ١٥ اكتوبر سنة ١٥٤٢ وتتويجه فى البنجاب سنة ١٦٥٦ و وفقه الله بوزير مجرب اسمه بيرم وكان الأفغان لم يفقدوا فى الهند جميع ملكهم بل كان باقياً بأيديهم نصيب صالح مثل أوض وبهار والبنغالة وكان لدى ملـكهم محمد عادل قائد فائق الأقران اسمه هيمو . فى سنة ١٥٥٦ تمـكن هيمو هذا من استرداد دلهى ، ومطاردة أكبر الى البنجاب . وكان مع هيمو مائة ألف فارس وخمسمائة فيل ، على حين لم يكن بقى مع اكبر ووزيره بيرم الا ٢٠ ألف مقاتل فالتقى الجمعان فى سهل « بانيبات » الذى اشتهر بعدة معارك فاصلة . فـكان من مساعدة القدر لاكبر أن وقع هيمو صريعاً ، فوقع الرعب فى قلوب رجاله التى كانت تتقوى بشخصه وولوا الأدبار على حين كان المظنون ان الدائرة ستدور على اكبر . فعاد هذا الى بلاد « دواب » ودخل دلهى ثم والى الهزائم على الأفغان ، فانتزع من أيديهم أوض وبهار ، وحـمل الملك الأفغانى صاحب البغالة على طاعته . ولـكن بقى عليه تدويخ راجاوات الهندوس الاباة للضيم المعروفين بالشمم العظيم . وكان الفاتحون المسلمون طالما هزموا ملوك الهند ، وضربوا عليهم

الجزى ، ولكن لم يقدروا فى وقت من الأوقات على ملاشاتهم ، ولا على كسب قلوبهم .
ففكر اكبر فى اتقاء خطر هؤلاء القوم باستصلاح قلوبهم ونيل مودتهم ، وحمل من يعاند
منهم على السيف . فجرت بينه و بينهم وقائع استولى بعدها على جفاليور (١٥٥٨) وعلى
اجمير (١٥٦٠) وهاجم سنة ١٥٦٧ رانا ميفار واسطة عقد الراجاوات ، فانهزم الرانا الى
جبال « آرافالى » تاركا الدفاع عن عاصمته تشيتور لقائد بطل من قواده اسمه « جاى مال »
وجاء اكبر بنفسه يضيق الخناق بالمدينة فسدده الله الى سهم رماه هو بيده من جعبته فأصاب
من نفس جاى مال مقتلا ، واختلط بعده أمر المحصورين فذبحوا نساءهم وأولادهم بأيديهم ،
وجعلوا منهم ركاماً أشعلوا فيه النار ، ثم اصطفوا حول تلك النار وفتحوا أبواب المدينة
ينتظرون دخول العدو حتى يبلوا فيه الى آخر نفس من أنفاسهم ، فتذهب أرواحهم غالية
وكان اكبر بحكمته أدرك مرادهم فبدلاً من أن يرميهم برجاله ، و يعرض من هؤلاء للقتل
ألوفاً ساق عليهم أفياله فجعلتهم أشلاء وأجزاء وفتح المدينة (١٥٦٨) . وسنة ١٥٦٩ فتح
راتنابور ثم كالنجار . وسنة ١٥٧٠ قدم له الطاعة راجا مارفار ثم راجا بيكانير . و بعد ذلك
ببضع سنين انتقض راجا مارفار ، فزحفت اليه جيوش دلهى وفتحت قلعة بلاده سيفانا
(١٥٧٦) فانضم كثير من الراجاوات الى رانا تشيتور ، وناشبوا سلطان دلهى الحرب ولم
تبرح نارها متقدة الى سنة ١٦١٤ إذ قدم « آمرا سينغ » بن « برتاب سينغ » رانا تشيتور
الطاعة لسلطان الاسلام فأعيد اليه ملكه . وأعقابه مالكون هناك الى اليوم .

و يقول مؤرخو الهند من الافرنجة ان سلطان دلهى عرف كيف يستولى على راجاوات
الهند و يستأسر قلوبهم لأنه كان شهماً وفيا عالى الجناب ، تام المروءة ، حفيظاً للعهود ،
ملاً كا للأفئدة بشرف خصاله ونبل فعاله . وكانت هذه البيوتات المالكة فى آمبر ومارفار
و بيكانير ، الأمثلة العليا فى النبالة والاصالة وحب المجد و وفاء الذمة ، فلما شاهدوا من
السلطان اكبر ماشاهدوه من المكارم والمعالى ، محضوه خالص الود ، و بايعوه من صميم
القلب ، و بذلوا من دونه أرواحهم ، و وقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم
هو لنفسه ، وعول عليهم فى مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم و بأبنائهم
الأبواب السلطانية ورجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم ردءاً له فى المواقف لاسيما راجا آمبر
المسمى « بيهارى مال » و ولده « باخفان داس » وحفيده « مان سينغ » الذى كان أخاً

لاكبر فى الرضاع . وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » لاكبر اليد اليمنى فى أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنغالة . ولما مات بكاه بكاء الأخ لأخيه . ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار اكبر بزواج بعضهم من بعض . وبدأ فى ذلك بنفسه ، فعقد لنفسه نكاح أخت الراجا باخفان داس ، ولولده جهانكير على حفيدة راجا مارفار . وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة فى بيكانير واجير . ووشج علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية . فتوطدت دولته وأمن شر العواقب وبسبب راحة فكره من جهة الهنود ، أمكنه أن يستصفى ما كان بقى فى الهند من ممالك الاسلام فأسر شاه كوجرات (١٥٧٣) وضم ملكه الى سلطنة دلهى . واستلحق أيضاً البنغالة (١٥٨٠) وكشمير (١٥٨٦) والسند (١٥٩٢) وكانت الدكان لاتزال مقسمة الى خمس ممالك كما سبق الذكر ، الا أن ملك أحمد ناغار فتح مملكة بيدار سنة ١٥٧٢ وضمها الى ملكه ، فنزل عدد تلك الممالك الى أربع ، وصارت مملكة أحمد ناغار قوة خطيرة . فاعتزم اكبر فتحها سنة ١٥٩٥ وكان على رأس هذه المملكة ملكة من خوارق الدهر فى العزم والحزم والاقدام ، وهى السلطانة « شانده » الملقبة « ببيضاء الدكان » وهى بالفعل بيضة الزمان ، فردته عن مملكتها مكفوحاً وأذهبت جميع حملاته سدى ولم يقدر اكبر على أحمد ناغار الا بعد موت هذه السلطانة القهرمانة فاستلحق مملكة أحمد ناغار (١٦٠٠) واضطرب سائر ملوك الدكان خوفاً فأهرعوا الى دلهى مقدمين الطاعة .

وكانت نهاية اكبر سنة ١٦٠٥ بعد أن ملأ الهند مآثر ومفاخر ، وادار السلطنة ادارة قل من سدد لمثلها فى الاوائل والاواخر ، لأنه الى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير متركزة على قواعد ثابتة ، ولا سائرة بانظمة مقررة ، بل كان السيف وحده حكماً ، وكانت الثورات متصلة ، واهواء الاشخاص هى الغالبة . فسير اكبر دولته هذه على اصول ادارة جديدة ، فارسية مغولية ، غاية فى الضبط والدقة ، ورفع استبداد الامراء ، وازال الفوضى من البلاد ، وجذب الى الابواب السلطانية أولئك الامراء والملوك الذين كانوا يستبدون بالرعايا فارضاهم واراح الرعايا من ضررهم ، صنيع لويس الرابع عشر فى فرنسا . وشكل الدولة على النسق الحالى المتبع بهذا الوقت فى العالم فهناك الوكيل أى رئيس النظار (والاتراك الى اليوم يسمون الناظر وكيلا والصدر الاعظم رئيس الوكلاء) ثم الوزير وهو ناظر المالية

وخان قانان أى ناظر الحربية . وكان عنده ناظر البلاط السلطانى (نظير مشير المابين الهمايونى عند آل عثمان) وناظر العدلية وكان اسمه الصدر ، وغير ذلك من المناصب . واما البلاد فكانت ١٨ ولاية كبرى كل منها تنقسم الى ما يشبه اليوم الالوية وهلم جراً . وكانت الادارة الملكية فى ايدى الفرس كما ان الجيش كان بايدى المغول والهنود . وكان عدد الجيش الدائم ١٤٠ الفاً وهذا شئ غير معهود فى ذلك الوقت واما دخل الخزانة السلطانية فكان نحو مليارين أى ١٠٠ مليون جنيه ، وهذا أيضاً شئ هائل بالنسبة الى ذلك الزمن . وعامل اكبر الهنود برفق عظيم ، ورفع عنهم ضروب الاهانات . ويقول مؤرخو الافرنجة ان اكبر لم يبال بما يفرضه الاسلام من اهانة الكافر واذلاله وامتهانه ، وانه نسخ تلك العادات ولم يعامل الهنود معاملة الغالب للمغلوب . ومن جملة من غمزوا الاسلام من هذه الجهة رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية. ونحن نقول ان اكبر احسن صنعاً ، لأنه ما يخدم ملك من ملوك الاسلام ملته بمثل العدل والله تعالى يقول « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا » و يقول « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وظاهر انه ينهى عن ظلم العدو لكونه عدواً ولا يخصص العدل بالحكم بين المسلمين وحدهم ، بل جعل الحكم بالعدل بين الناس . وكلمة الناس تشمل المسلم وغير المسلم كما لا يخفى . فان كان من أمراء المسلمين من لم يعمل بهذه المبادئ فهو اما عن جهل بروح الاسلام ، أو عن هوى واستخفاف باوامر الله ونواهيه ، كما يوجد فى كل الملل وانما نحن نود لو كان رينيه غروسه وأمثاله ينصحون حكوماتهم الأوربية ومن جملتها فرنسا ، بأن لايعاملوا أهالى المستعمرات معاملة الغالب للمغلوب ، ولا يرهقوا الجزائريين ، والتونسيين ، والسودانيين الخ بضروب الاهانة ، ويحرموهم المساواة فى الحقوق مع الاوربيين ، كما لا يقدر أحد أن ينكره . فان فاتحى الهند من ملوك الاسلام وقواده كان عذرهم مهداً نوعاً فى الازدراء بالهنود بعد ما رأوا من عبادتهم للأصنام ، واحراق النساء أنفسهن لموت بعولتهن ، وغير ذلك مما تقشعر له أبدان الذين أشربوا توحيد الحى القيوم ، ولم تتسع لهضمه عقولهم اتساع عقل السلطان أكبر . ولكن ياليت شعرى ماهو عذر الأمم الاوروبية فى تحقير أهالى المستعمرات كالعرب والبربر الذين هم من أكرم الأمم ، ومن أشرف الاعراق الى الحد الذى نراه ، وسن قوانين خاصة بهم كأنهم طبقات دنيا لايليق أن تسوى مع الاوروبيين فى أمر من الأمور حتى قد

قتل أوربي أوربيا آخر في الجزائر ، فعند المحاكمة سئل عن سبب قتله ، فقال كان يرود حول بيتي مساء فظننته لصاً واشتبهت بكونه عربياً . فعد القضاة الفرنسيس ذلك من الأسباب المخففة للجرم . فياليت الحكومات الأوربية المتمدنة العصرية السابقة في حلبة المدنية والمهذب والأدب في القرن العشرين ، تقتدي باكبر الذي كان سلطان الهند في القرن السابع عشر ، وهو ذلك السلطان الآسيوي المغولي ، فتعامل مغلوبيها كما كان ذلك العاهل يعامل مغلوبيه . ويا ليت منتقدي الاسلام من مؤرخي الافرنجة يتأملون قليلا في رد الفيلسوف الفرنساوي غستاف لوبون على المسيو لوروا بوليو Leroy - Beaulieu أحد أساتذة كلية « كوليج دوفرانس » الذي يشير بحمل عرب الجزائر على التفرنس بجميع الوسائل القاهرة . قال غستاف لوبون : وهـذه هي الافكار السائدة في فرنسا فيما يتعلق بالجزائر . ثم قال : وان الطريقة السياسية المتبعة الى هذا اليوم لأجل تفرنس المسلمين أو اكتسابهم من الوجهة الأدبية هي من البربرية بمكان لايقل عن طريقة الاميركيين الأولين مع قبائل الجلود الحمراء التي كانوا ينتزعون منها أراضيها ، ويتركون لها الحرية أن تموت جوعاً . وقد وصف المسيو فينيون Vignion طريقة دحر العرب التي اتخـذتها الحكومة الفرنسوية طريقتها الادارية في الجزائر فقال : ان ولاة الفرنسيس كانوا عنـد كل ثورة في الجزائر يستولون على أراضي الاهالي ويسلمونها للمستعمرين (الكولون) ويطردون الاهالي دحراً نحو الصحراء . فكان يتكاثر عدد الاوربيين في تلك النواحي ، ويضطر الأهالي أن يهجروا تلك الأراضي التي هي مساقط رؤوسهم ، ومواطن أجدادهم ، ويتفرقوا . فكانت نتيجة هذه السياسة التي استمرت ثلاثين سنة ان العرب الذين لم يعودوا آمنين على أراضيهم وأملاكهم تركوا الحرث والزرع وهاموا في البراري . وكيف يمكنهم أن يزرعوا وقد طردوا من الأراضي الجيدة التي تسيل فيها العيون والغدران ، ودحروا الى الأماكن التي لايأمنون فيها أن زرعوا أن يسترجعوا الحب الذي بذوره فحرموا بالسكنى في تلك البراري الزرع والضرع ، وازدادت بذلك البغضاء والاحنة بين العرب والكولون ، وصارت بين الفريقين هوة يتعذر سدها . وكانوا يسمون هـذه الطريقة بطريقة المطاردة أولا ، ثم أطلقوا عليها بالتالي اسما آخر وهو « التملك لاجل المنفعة العمومية » وهـذا الاسلوب يمتاز بعلامتين : الاولى انه لايملك الكولون أرضاً الا من أملاك العرب ، والثانية انه يوجد دوائر يجب ان

تستخلص جميعها للاور بيين حتى من يبقى من الاهالى مالكا يقصى عن تلك الجهات ، بحيث كل ذلك يعود بفقر الاهلين الخ . ثم يعود الاستاذ غستاف لوبون فيقول : وان من أغرب استبدادات الحكومة فى الجزائر مايسمونه بالاستعمار الرسمى ، وذلك انهم ينتزعون الاراضى من أيدى العرب ويوزعونها مجاناً على سفلة سقاط من جميع الاجناس ، بدعوى انهم سيحيونها بالزراعة ، وهم أقرب أن يدرسوا لغة السنسكريت من أن يحسنوا حرثا أو زرعا . فلم تمض مدة على ذلك حتى رأيت تلك المسماة بالقرى الرسمية خاوية على عروشها ، بعد أن كلفت الأموال الطائلة . ولم يكف ذلك رجال ادارتنا درساً حتى قام بعضهم منذ سنوات يقترح التفويض باعطاء ٥٠ مليونا لنزع أملاك العرب ، وتأسيس قرى أخرى غير التى أخفق مشروعها . فلحسن الحظ رد المجلس (البارلمان) هذا الاقتراح الذى كان لو نفذ يحفز المسلمين على الثورة ، عدا مايجشم الحكومة من انفاق الملايين الخ . ثم قال : منذ فتحنا للجزائر لم تبرح سياستنا فيها سائرة بعاملين أحدهما نزع أملاك العرب واقصاؤهم الى الصحراء ، والثانى حملهم على التفرنس باجبارهم على قبول شرائعنا . فلم نفلح لافى ذا ولا فى ذا . أولا لان العرب لم يمكنهم الرحيل الى الصحراء حيث لايوجد شى يقتاتون به فيها ، ولاشك فى ان عدة ملايين لايرضون أن يموتوا جوعاً بدون مقاومة . ثانيا لانهم لا يقبلون أن يتفرنسوا اذ لم يعهد أن أمة نبذت قواعدها العقلية الاساسية واتخذت قواعد أمة غريبة عنها الخ . لا أقدر أن أستوفى تعريب جميع ماقاله بهذا المقام غستاف لوبون المؤلف الفيلسوف الشهير فى كتابه المسمى علم النفس فى السياسة Psychologie Politque وما أوردت الذى أوردته هنا الا من قبيل التمثيل مذكراً أولئك الذين يطرون السلطان أكبر من مؤلفى الانكليز والفرنسيس على تسويته بين المسلمين والهنود فى كل الحقوق ، واقامته العدل فى رعيته كلها، لماذا لاينصحون هم حكوماتهم باتباع ذلك السنن ؟ وهل مايعمله الانكليز فى الهند اليوم وما عملوه من قبل ، مطابق لما كان يعمله أكبر ؟ وهل اتم بسياسة أكبر ذلك القائد الانكليزى الذى رمى منذ ثلاث أو أربع سنوات جماعة من المتظاهرين فى الشوارع بنيران القنابر فقتل منهم مئات أو ألوفاً ثم أجبر الآخرين على الديب على أيديهم بين يديه كما تدب الحيوانات ؟ فهل هذه هى سياسة الامم التى يطنب مؤرخوها بكيفية احتقار المسلمين للهنود ؟ عليك بما عدّده من هذا القبيل مؤخراً الاستاذ العلامة الكاتب الشهير

المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش فى رده على جريدة المورنن بوست الانكليزية التى انتقدت الشرع الاسلامى بعدم انطباقه على العدالة الاوربية .

عود الى تاريخ اكبر خان « وصدرت الاوامر الى جباة الخراج بأن يصبروا على الفلاحين فى استئداء الاموال الاميرية ، بل يقوّوهم من بيت المال فى سنى القحط . كذلك توسل اكبر بوسائل ناجعة فى قتال المجاعات التى تكثر فى الهند فى الاعوام التى يحتبس فيها الغيث . وكان يعاقب الأمراء الذين يظلمون الاكرة الذين هم قائمون بخدمة اراضيهم . ومع شدة ميله الى البراهمة ، ومراعاته لهم ، عارضهم فى قضية احراق النساء اللاتى مات بعولتهن ، وعادة ابقاء النسوة اللاتى تموت ازواجهن وهن فى سن العاشرة أرامل طول الحياة لا يحق لهن ان يتزوجن . ثم منع التبكير فى الزواج فكان لا يسمح بزواج الشاب قبل سن ١٦ ولا بزواج الفتاة قبل سن ١٣ .

وكانت اللغات المعروفة فى الهند ، عدا لغات الهنود الاصليين ، ثلاثاً : العربية لغة الدين الاسلامى ، والتركية لغة الأسرة التيمورية ، والفارسية لغة البلاط والدولة . فوضع اكبر لغة « الاوردو » التى تشتمل على كثير من العربى والفارسى والتركى مع الهندى ؛ فسهل التفاهم بين الامم الهندية واتسعت هذه اللغة تدريجاً حتى انه ليتكلم بها اليوم مائة مليون نسمة . وقالوا ان اكبر فيلسوفاً كان اعظم منه سلطانا ، مع أن اكبر كان من أكبر سلاطين العالم وأحقهم بمكانة عليا فى التاريخ . وأطرى مؤرخو الافرنجة تحوله عن مذهب السنة الى مذهب الشيعة وشدة وطأته على علماء السنة ، والغاءه اللسان العربى من البلاط ، واقامة الفارسى مقامه ، وعدوا ذلك من معالى افكار اكبر ومنزعه الى الحرية . وقالوا انه كان ميالاً الى التصوف ، وان التصوف هو أرقى طريقة اسلامية . وذكروا انه قرب اليه فتح الله الشيرازى من اكابر علماء الشيعة ، جاء من فارس وأوطن فى بيجابور ، فاستدعاه اكبر اليه وصار مستشاره الشرعى . وكذلك حظى عنده العالم الشيعى المسمى مبارك وولداه ابو الفائز ، وكان شاعراً متصوفاً ، وابو الفضل وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية عظيما ، من جملة ما يروى عنه أنه هتف قائلا : « يارب من رأى حكماء المغول ، ونساك جبل لبنان ، ولا ماوات التبت ، وقسوس البرتغال ، وكهنة المجوس ، وعلماء الزندافستا (معناه الكلمة الحية وهى كتب ديانة الفرس والعرب يقولون الايستا كتاب زرادشت) رأى

الناس فى جميع الهياكل تطلبك ، وبجميع الالسنة تستعين بك . التوحيد هو انت . الاسلام هو انت . وكل ديانة فى الدنيا تقول : انت وحدك لا شريك لك . ان كان جامع كانت هناك جماعة تناجيك بالصلاة . أو كنيسة كانت أجراس تقرع لشرفك . ازور احياناً الجامع وآونة الكنيسة وفى كل معبد لا انشد الاك . واصفياؤك ليس لهم علاقة بالسنة ولا بالبدعة لانه ولا واحدة منهما ملكت قدسية الحق. فأنا أترك الديانة لاهل الجماعة ، والبدعة لاهل الفرقة ، ونظير تاجر الطيب ، ترتاح نفسى الى شم جميع الورود »

ويظهر أن اكبر كان على هذه الطريقة . وكانت له عقائد أخرى منها عدم خلود الانفس بالنار ، اذ كان يرى ذلك مخالفاً للعدل الاهى . ومنها تناسخ الارواح الذى أخذه عن البراهمة . وقيل انه كان يبيح الخمر واكل الخنزير (فلا عجب اذا رضى الاوربيون عنه كل هذا الرضى) وأنه أنكر قدم القرآن ومعجزات الرسول ﷺ وأبطل كون الاسلام هو الدين الرسمى للدولة . ثم انه فى سنة ١٥٩٣ أصدر امراً بأن كل من أجبر من الهنود على الاسلام فى مدة أسلافه يمكنه الرجوع الى دينه . وذكر رينيه غروسيه الفرنساوى فى هذا الباب جملة فيها شئ من الانصاف فقال « لا يمكن مقايسة هذا الأمر بالامر المعروف بأمر نانت » يشير الى الأمر الذى أصدره لويس الرابع عشر مانعاً أى دين كان فى فرنسا غير دين الكثلكة . الا أن رينيه غروسه لا يعلم أن اكبر خان بهذا الامر لم يخرج عن الاسلام لأن الشرع يمنع دخول الناس فى الاسلام قسراً (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وأن الاسلام ليس فيه ديوان تفتيش كما كان باسبانية . . . هذا وقد قال الكونت نوير مؤلف تاريخ اكبر « ان اكبر لم يخلق اكبر منه فى الشعور الحقيقى بالانسانية » .

وأمر أكبر بترجمة كتب البراهمة الفيدا ، والراميانه ، والماهباراته ، الى الفارسية وسائر أصول الفلسفة الهندية . وكان يقضى ساعات طوالا من الليل يستفسر البراهمى العظيم «دابى» أحد أعلام الحكمة الهندية عن عقائد « تريمورتى » وكان ميله الى عقيدة الاشراق الصوفية يحبب اليه فلسفة البراهمة . كذلك تبحر كثيراً فى مذهب بوذا وكان يجله و يعظمه والمظنون أن ما كان عليه أكبر من عقيدة المساواة بين جميع الناس وبره بالمخلوقات كلها وتحرجه من أكل لحوم الحيوانات نظير أبى العلاء المعرى انما كان مما رشح الى دماغه من

التعاليم البوذية . ولم يغفل أكبر عن النصرانية ففي سنة ١٥٨٠ أرسل الى رهبان البرتغال الذين كانوا في « غوا » يستقدم منهم من يفقهه في عقيدتهم فلبوا دعوته ، وأرسلوا اليه بانجيل أمر بنقله الى الفارسية ليفهمه . وبعد ذلك عهد الى الرهبان اليسوعيين بتثقيف ابنه مراد . ثم أذن للجزويت بفتح مدارس في آغرا ولاهور وكامباي . وكان يذهب الى كنائسهم ويقول مؤرخوهم انه كان يجثو فيها على ركبه . وكذلك وفق الجزويت الى تنصير أناس كثيرين في كامباي في أيامه . ويقال ان تهافت أكبر على كل دين وأخذه بكل عقيدة ونزوعه الى كل فلسفة كانت فيه حالة نفسية فطرية ناشئة عن شفوف صفحة طبيعته وسرعة انفعاله وكون روحه الى النفس الأخير نظير روح «غوته» شاعر الألمان بقيت تتطلب زيادة الانوار وتتلمس اكتناه الأسرار . وانه كان يعتقد باشراق الالوهية على كامل الوجود وبأن كل دين من الأديان هو عبارة عن بارقة من هذا الحق المنبث في الكون . ولم يبعد عن عقله امكان التأليف بين المذاهب قاطبة ، وتصور عقد مجمع ديني لهذه الغاية ، وأمل أن يوحد بين جميع العقائد الدينية في نقطة عامة ، وهذه النقطة العامة كانت عنده على ما يقال مجوسية فارس . هكذا روى رينيه غروسه في الفصل الثالث من تاريخ آسية الذي لخصه من ستة وثلاثين تاريخا على الهند أكثرها بالانكليزية ، وبعضها بالفرنساوية ، ومن هذا البعض كتاب « مدنية الهند » لغستاف لوبون و « آثار الهند » للعلامة المشار اليه . وجاء في دائرة المعارف الاسلامية الفرنساوية بشأن عقيدة أكبر ما يأتي :

« يمكن أن تكون محبة أكبر للبحث عن الحق أكثر من عبقريته السياسية قد جعلت له كل هذه الشهرة . فانه مما لا مشاحة فيه كونه ترك الاسلام ووضع عقيدة سماها « التوحيد الألهي » وهي اعتقاد مجرد بالاله مما اتفقت عليه كل المذاهب . ولكن لما كان الناس يريدون رمزا . وأكبر تحقق بنفسه أنهم يريدون رمزاً فهو يوصيهم بأن يجعلوا الشمس رمزاً للاله . وعلى الأرض النار التي هي من طبيعة الشمس . فأما مبلغ نجاح هذه الدعوة خارجا عن البلاط السلطاني فلا نعرفه . وانما نعرف من بطانة أكبر ثمانية عشر شخصاً قيدوا أسماءهم في سجل المؤمنين أكثرهم أدباء وشعراء ومنهم أمير اسمه عزيز كوكا ، كان سبب خروجه من الاسلام ما رآه وهو في موسم الحج من الأحوال المؤسفة كتبليص الحاج من أموالهم . وذهب بعضهم الى أن مبارك الناقوري وأولاده ممن كانوا

على فلسفة الصوفية هم الذين أبعدوا أكبر من مذهب السنة والجماعة . وقيل ان مارآه من شدة تعنت أهل السنة نفره منهم . وقيل ان حرية مذهب التصوف أثرت فيه كثيراً وفى بطانته التى كان فيها كثير من الفرس فكان لهم ميل خاص الى عقيدة الشمس الفارسية . ثم قال فى دائرة المعارف الاسلامية : الا أنه لم توجد ديانة شرقية جذبته بمثل ماجذبته النصرانية الكاثوليكية . على أن الشيخ نور الحق الذى لم يكن أسيراً للتقليد نظير أبى الفضل العلامى وعبد القادر الباداعونى يقول فى أكبر : ان السلطان أراد أن يمحص الطيب من جميع الآراء المختلفة ، وانه ما كان هدفه فى ذلك الا الوصول الى الحق . والذى انتهى اليه أخيراً هو قبول مصاص الأديان كلها ، وعقيدة الانسان الأصلية مضافة اليها طريقة سلوك بسيطة» انتهى . تشير دائرة المعارف بهذا النقل الى الشيخ نور الحق صاحب « زبدة التواريخ » والى عبد القادر الباداعونى صاحب « منتخب التواريخ » والى أبى الفضل العلامى صاحب « اكبرنامه » . وممن أخذت عنهم دائرة المعارف ترجمة هذا السلطان محسن فانى صاحب « دابستان المذاهب » وشمس العلماء مولوى محمد حسين صاحب كتاب «دربارى أكبر» وغيرهم . ومن غرائب ما روت عن هذا السلطان الذى كانت كل حياته غرائب أنه كان يجهل القراءة والكتابة . وقالت ان ذلك عجيب فى بيت مثل بيتهم موروثة فيه الكتابة وآداب اللغات خلفا عن سلف . وأعجب منه أنه كان عشيراً لأميرتين من أشهر أديبات زمانهما ، احداهما زوجته سليمة سلطان ، والثانية عمته كل بادان ، ويظهر أنه لما كان أبوه معروفا بضعف العزيمة ، ثم مات وهو يافع ، لم يحسنوا تعليمه الكتابة . وأنه لما بلغ سن الرشد ثم شب واكتهل ، أهمل عمداً تعلم الكتابة ، اذ ليس يمكن تعليل ذلك بصورة أخرى ولعل أكبر آثر التعلم بالمشافهة والكلمة الحية . انتهى

ولقد ترك هذا العاجز الى القراء الحكم على حقيقة هذا السلطان الذى أخذ الى ذلك الأمد بمجامع قلوب الأوربيين ، ولست ممن ينكر أنه مع تخبط الوساوس اياه من الجهة الدينية ، وانطباع قلبه بكل مؤثر يطرأ عليه من الخارج ، يجوز أن يكون من أعاظم السلاطين فى حزمه وسداد ارادته ، ووفور محبته للرعية . ولكن عند ما يقرأ الانسان أنه كان لا يجد بداً من الرمز لوجود الالوهية ، وأن ذلك الرمز يلزم أن يكون الشمس أو النار ، وعند ما يروى غروسه أنه استقدم اليه من كوجرات الموبذان أردجير ليعلمه كتاب آفستا ،

وأنه اتخذ التقويم المجوسى وصار يحتفل بأعيادهم ، وأنه جئ اليه فى قصره بالنار المقدسة المحفوظة بلهيبها من عصر الى عصر منذ أيام رعاة الايرانيين الأقدمين ، فاستقبلها بالتعظيم الفائق فى بلاط الملك الى غير ذلك مما رواه ، يعرف أن الرجل قد تمجس وانتهى النزاع وقضى الأمر ، ولكن تجده من جهة أخرى معجبا بالبراهمية ، وبالبوذية ، ثم بالنصرانية ، ثم بالتصوف ، ثم بالتشيع ، وهذا التشيع كما لا يخفى يقتضى الاسلام لأن الشيعة لم يخرجوا عن كونهم مسلمين . فتعلم أن الرجل وان كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة ، فهو مختلط العقل فى المسئلة الالهية ، والجنون كما قيل فنون . وأما تقييد ١٨ شخصا من حاشيته أنفسهم فى سجل المؤمنين بدعوته ، فقد ذكرنا بذلك الذى روى عنه الشهرستانى فى « الملل والنحل » أنه انفرد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لا غير فبينما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه قال له مناظره : أترى البارى تعالى خلق جنة عرضها السموات والأرض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك . ثم من يدرى هل ثمانية عشر أكبر تبعوه اقتناعا أم تزلفا ؟ فان أكثر بطانة السلاطين معلومة أطوارهم . . . وأما الاعتذار عن أكبر بأنه كان يرى فى الشمس والنار رمز الألوهية ، فياليت شعرى لماذا تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار ، أفليست كل مخلوقات الله تعالى رمزاً وآية ، أو لا يكون تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار مفضيا الى اعتبار ذلك الرمز هو المعبود والعياذ بالله ؟

أما ابنه سليم الملقب بجهانكير الذى خلفه سنة ١٦٠٥ واستمر على كرسى الملك الى سنة ١٦٢٧ فقد نبذ كل ما كان عليه أبوه من التخبط ، واعتصم بمذهب السنة والجماعة ، ولكنه استبقى الفارسى لسانا رسمياً للدولة . وكانت لجهانكير امرأة بارعة الحسن مفرطة الذكاء اسمها « نور محل » فاستولت على قلبه ، وتصرفت بالسلطنة كما شاءت فساءت الأحوال ، وجارت العمال ، وانتقض ملك اسمه ملك عمبر فى الدكان ، ولم يقدروا عليه . ثم خرج على جهانكير ابنه خرّم ومعه قائد اسمه مهابت خان ، وقبضا على السلطان وحجرا عليه ، فأنقذته السلطانة الحسناء بدهائها وبهائها ، واصطلحت مع ولده خرم .

وفى تلك الأثناء مات جهانكير فصعد خرم على كرسى السلطنة وتلقب بشاهجهان . وبدأ بتدويخ الثائرين فى الدكان ، فسير عليهم جيشاً عقد لواءه لولده الثالث اورنغزيب . فقهر هذا العصاة ومهد الدكان ، وكان داهية دهياء فأراد محو السلطنات الثلاث التى كانت

باقيةهناك ، وهي غولكوند ، و بيدار ، و بيجابور ، فقصدها الواحدة بعد الاخرى، ولكن كان كلما قرب فتح كل منها جاءه الأمر من والده بأن يمسك ولا يدخل . وكان الحامل للسلطان على تلك الأوامر هو ولده الأكبر دارا . فوقعت الفتنة بين الاخوة واستمال أورنغزيب أخويه شجاع ومراد فاتحدوا كلهم على دارا الذى كان الأقرب الى قلب أبيه ، وبرزوا للحرب فالتقاهم دارا فانكسر وزحف الاخوة الى آغرا يحاصرونها ، وكان أورنغزيب بدهائه أرسل الى أبيه يؤكد له بأنه اذا مكنهم من دخول البلدة لايتغير عليه شىء فآمن شاه جهان بكلامه ، فلما دخل أورنغزيب قبض على والده وجعله فى إحدى غرف القصر تحت الحجر . ثم فعل ماهو أفحش من ذلك بأن انقلب على أخيه مراد ، إذ اتهمه بخيانة كذباً وميناً ، وأمر بمحاكمته والحكم عليه بالقتل ، وأجرى الحكم وأكمل مكيدته بأن أخذ يبكى على أخيه هذا الذى كان عضداً له . كذلك بعد أن وقع أخوه دارا فى قبضته دق عنقه وأرسل برأسه الى والده المسكين المحبوس فى قصره (١٦٥٩) ثم طرد أخاه شجاع من ولايته فى البنغالة ، ولم يطل الأمر أن مات هذا فبقى ذلك الجبار مستبداً بالسلطنة وحده ، وطال سلطانه من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٧ وكان كما قال مؤرخو الانكليز يقصد غاية قصوى ، وغرضاً بعيد المرمى ، وذلك بجعل حدود السلطنة حدود الهند الطبيعية وكانت بقيت فى الدكان سلطنتان اسلاميتان هما غولكوند ، و بيجابور ، وسلطنة ثالثة هندية براهمية هى سلطنة المهرات ، وكانت هذه الأخيرة تكاشح الاسلام بالعداوة حتى بلغ من جرأة أحد ملوكها « سيفاجى بونسلا » أن نهب قافلة الحجاج وهى على وشك الاقلاع من سورات الى مكة . فساق أورنغزيب عليه جيشاً فخضع أولا ، ثم خرج ثانية واعتصم بجبال « بونا » حيث بقى عاصياً يقاتل الى أن مات . فى سنة ١٦٨٥ زحف أورنغزيب بجيش جرار الى الدكان فاستولى على مملكتى غولكوند و بيجابور وأخذ « سمباجى ابن سيفاجى » ملك المهرات أسيراً وضرب عنقه . وسنة ١٦٦٠ كان استولى على آصام وسنة ١٦٦٦ على آراكان وهما ممالك بين الهند والهند الصينية .

(آصام هذه بلاد واقعة فى شرقى البنغالة استضافها الانكليز الى الهند منذ عهد غير بعيد أى سنة ١٩٠٥ وجعلوها ولاية باسم شرقى البنغال وآصام . وكان عدد سكانها منذ نحو عشرين سنة ستة ملايين و١٢٦ ألف نسمة من أصلهم مليون وخمسمائة و ٨١ ألفاً مسلمون أكثرهم

فى مقاطعة « سيلهت » وفى سيلهت هذا قبر شاه جلال الذى يعظمونه جداً بكونه هو الفاتح المسلم الأول لتلك البلاد وأن أصله من اليمن . أما آراكان فهى مقاطعة فى أقصى الشرق من ولاية بيرمانيا من الهند الصينية كان عدد أهلها سنة ١٩٠١ سبعمائة و ٧٢ ألف نسمة من أصلهم ١٦٢ ألف مسلم).

ولم تبلغ السلطنة الاسلامية المغولية من العز والبسطة ، مابلغته فى أيام أورنغزيب ، فكانت حدودها من كابول الى أراكان ، ومن الحلايا الى الكارنات (أقصى جنوبى الهند) وزاد ارتفاع الخراج العقارى من ٥٠٠ مليون الى مليار ضعف ماكان فى زمان اكبر . وزادت سائر الجبايات والضرائب على مليار . الا أن روايات مؤرخى الافرنجة هى كون أورنغزيب بدأ يخبط الأهالى بعصا عسفه ويفحش فى الجبايات والمكوس ، وأنه آسف البراهمة بحملهم على الاسلام . وتحويل كثير من هياكلهم جوامع لاسيما هياكلهم المعظمة مثل هيكل بنارس . ففى بنارس الآن المسجد الأعظم ذو القباب البيضاء والمناير الشامخة البيضاء التى ترى على ضفة النهر ، قد بنى فى مكان هيكل كان معدوداً أقدس معبد عند الهنود . وكان أورنغزيب أطلق على بنارس اسم محمد آباد . قالوا وانه حبس أرملة راجا جوهبور وأولادها مع أن ذلك الراجا كان من أصدق الأمناء لدولة المغول فانتقضت بلاد جوهبور واوديبور وزحف اليها أورنغزيب فأحرق ودمر وقتل وسبى ، وانتهى الأمر بان أولئك الملوك خضعوا له ، ولكنه كان جرحاً التأم على دغل. قال المؤرخون الأوروبيون وكان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشرى ، فاطماً للشهوات يصوم ويتقشف و يعيش معيشة الزهاد ويراقب آخرته . وكان أورنغزيب آخر العظام من سلاطين المغول فى الهند ، إذ بعد موته استقلت عن امبراطورية دلهى ممالك كثيرة ، فقامت دولة حيدر آباد الدكان (١٧٢٤) ودولة بنغاله (١٧٠٧) ودولة أوض (١٧٢٤) ، ولم يبق للمغول الا دلهى وآغرا و بلاد دواب . وهذه من الدول الاسلامية . كما أنها استقلت من أمم الهند أمة السيك ومملكة المهرات .

أما السيك فهم فرقة من البراهمة يعدهم هؤلاء مبتدعين، لان رجلا اسمه نانالك (١٤٦٩) كان قد تخرج على المصلح الهندى كابير ، فشرع من بعده فى تطهير البراهمية من عبادة الأصنام وتعدد الآلهة ، وقضية الطبقات فى الهيئة الاجتماعية ، و بتقريبها من

الاسلام فى عقيدة التوحيد . وقد ثار السيك على سلاطين المغول لانهم من أشد أمم الارض بأساً . وجرت بين الفريقين محاربات طويلة بطش فيها المغول بالسيك ولكنهم لم يطيعوا طاعة تامة الى أن ضعف شأن دلهى فاستولى السيك على لاهور والبنجاب (١٧٦٤) .

وأما ثورة المهرات التى استمرت مدة طويلة ، فقد انتهت باعتراف سلطنة دلهى باستقلال هذه الأمة . وبعد موت السلطان أورنغزيب توج « ساهوجى بن سامبوجى بن سيفاجى بونسلا » ملكاً على المهرات فى « ساتارا » ولكن انتقل ملك المهرات من أيدى هؤلاء الى أيدى آخرين ، يقال لهم « البشفا » كانوا فى الأصل وزراء عندهم ، فملك البشفا هؤلاء من سنة ١٧١٢ الى سنة ١٧٩٥ وفى أيام أحدهم « باجى راو » انتزعوا من أيدى المسلمين ثلاث ممالك : بيرار ومالفا وكوجرات . فتقاسمها أربعة بيوتات من المهرات وهم « الهولكار » و « السنديا » و « البونسلا » و « الكويكوفار » وتأسست هناك أربع حكومات كلها تعترف بسيادة البشفا الذى كرسيه فى مدينة « بونا » وكان بعضها يقاتل بعضاً الا أن الجميع كانوا يصيرون لبدأً على المسلمين بمجرد مايلمع لهؤلاء نجم ، ففى سنة ١٧٦٠ عند مازحف أحمد الدرانى أمير الأفغان على الهند وفتح دلهى ، حسب البراهمة حساب دولة اسلامية جديدة تستأنف فيهم عمل الغزنيين والغوريين والتيموريين فتألبوا من كل جهة ولا سيما المرات ودارت رحى الحرب فى بانيبات ، فهذه المرة أيضاً كان الفوز للاسلام ودارت الدائرة على الهنود فى ٧ يناير (كانون الثانى) سنة ١٧٦١ .

الا أن الدرانى قفل الى أفغانستان ولم يكمل فتوحاته ، وأبقى نواباً من قبله فى دلهى . وكان فى ذلك الوقت قد ظهر من الأسرة المالكة فى كفاليور واوجايين من بلاد المهرات ملك فى غاية الحزم والدهاء اسمه « مادهافاراو » انتبه قبل جميع ملوك الهند الى تنظيم جيشه على النسق الاوربى ، واتخاذ المدافع ، واستجاد لذلك ضباطا من الفرنسيس والانكليز ، فعظمت شوكته ، واشتدت صولته ، وزحف الى دلهى فطرد منها نواب ملك الافغان ، ومن حسن سياسته أنه لم يحاول حيازة هذه السلطنة ، بل أعاد اليها السلطان أعلم الثانى المغولى حفيد أورنغزيب وصار هو القابض على زمام الأمور فولاه اعلم أمارة الجيوش كلها وأصبحت أمبراطورية المغول بكفالته .

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن غزوة نادرشاه الى الهند سنة ١٧٣٩ قد قصمت

ظهر الدولة المغولية فلم تقم لها من بعدها قائمة . وقد اقتفى أثره أحمد الدرانى صاحب أفغانستان وفتح البنجاب ودلهى وكسر المهرات فى معركة بانيبات الثالثة سنة ١٧٦١ ولكن السلطنة المغولية كان قد حم أجلها . ولما أراد أعلم شاه فيما بعد أن يسترجع البنغالة ، وقعت الحرب بينه و بين الانكليز ، فاضطر بعد وقائع وأهوال أن يترك لهؤلاء ادارة « الديوانى » أى جباية الأموال فى البنغالة و بيهار وأوريسا ، وأن يأخذ عنها مقطوعا مليونين و ٦٠٠ الف روبية . وسنة ١٧٨٨ حصل له حادث زاده خبالا ، وهو أن أحد ضباط جيشه قلع عينيه فأصبح كأنه ألعوبة . وأخيراً عين له الانكليز ٩٠ الف روبية شهرياً ، وتركوا له من السلطنة الاسم فقط . ومات سنة ١٨٠٦ وقام بعده محمد أكبر ابنه (١٨٠٦ الى ١٨٣٧) وخلف هذا بهادر شاه (١٨٣٧ الى ١٨٥٧) وكل منهما لم يكن له من السلطنة الا الاسم مع جراية تؤديها له شركة الهند الانكليزية . الا أن بهادر شاه باشتراكه فى ثورة سنة ١٨٥٧ قبض عليه الانكليز واعتقلوه فى رانغون حيث مات سنة ١٨٦٢ وهو آخر سلاطين دلهى . أما أكثر أمراء المسلمين فى الهند فاما بغضاً بالهنود واما حباً بالمنافع المادية ، واما اعتقادا بأن الانكليز لابد أن تكون لهم الغلبة أخيراً فقد عضدوا الانكليز عضداً مبيناً ، ونصروهم نصراً عزيزاً ، ويعترف الانكليز بأنه لولاهم كان تحرج مركز الانكليز تحرجاً لايعلم أحد عاقبته . فلما انتقل الحكم من الشركة الى المملكة رأساً كوفئ كثير من هؤلاء الملوك باقطاعات جديدة ، وكان أكثر من نصروا الانكليز منهم نظام حيدر آباد وصاحب بهوبال وصاحب رامبور .

انه من سنة ١٢٠٦ مسيحية الى سنة ١٥٢٦ تولى سلطنة دلهى ٣٤ سلطاناً ينتسبون الى خمس دول فدولة المماليك من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٩٠ ودولة آل قالجى من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٢٠ وآل طغلق من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٤١٣ والسادات من سنة ١٤١٣ الى سنة ١٤٥١ واللوديون من سنة ١٤٥١ الى سنة ١٥٢٦ ثم جاءت دولة المغول فاستمرت من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٨٥٧ وسلاطينها كما مارأيناهم بابر ، ثم همايون ، ثم أكبر ، ثم جهانكير ، ثم شاه جهان ، ثم أورنغزيب ، ثم محمد شاه ، ثم شاه أعلم ، ثم محمد أكبر ، ثم بهادر شاه .

أما عظمة تلك السلطنة ومابلغته من البسطة والثروة والشوكة فقد تقدم شئ منه فى

الكلام على أكبر وارنغزيب ومن قبلهما . واقرأ مثالا منه مما جاء فى كتب العرب قال فى « مسالك الأبصار » قال الشيخ مبارك النباتى ــ عند ذكر محمد بن طغلقشاه ــ وأول مافتح منه مملكة تلنك (تلنغا) وهى واسعة البلاد كثيرة القرى عدة قراها تسعمائة الف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكز وبها سبعون مدينة جليلة على البحر . ثم فتح بلاد لكنوتى وهى كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دواكير ولها أربع وثمانون قلعة جليلات . ونقل الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البزى أن بها الف الف قرية ومائتى الف قرية . ثم فتح بلاد المعبر وهو اقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر . وذكر انه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التى فتحها مالا يكاد السامع يصدقه ، فحكى عن الشيخ برهان الدين المقدم ذكره أنه حاصر ملكا على حد بلاد الدواكير ، فسأله أن يكف عنه على أن يرسل اليه من الدواب مايختار ليحمله مالا ، فسأله عن مقدار ماعنده من المال فقال انه كان قبلى سبعة ملوك جمع كل واحد منهم سبعين الف صهريج متسعة من المال . فأجابه الى ذلك وختم على تلك الصهاريج باسمه .

وجاء فى صبح الاعشى نقلا عن الشيخ تاج الدين بن أبى المجاهد السمرقندى أنه غضب على بعض خاناته لشربه الخمر فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جملة ماوجد له من الذهب الف الف مثقال وسبعة وثلاثين الف مثقال . وقال نقلا عن ابن الحكيم الطيارى أن شخصاً قدم لهذا السلطان كتباً فخى له حبة من جوهر كان بين يديه قيمتها عشرون الف مثقال من الذهب . الى غير ذلك .

فلنا هذه روايات أشبه بحكايات قصاصى الأسمار أو أقاصيص الف ليلة وليلة منها بالتواريخ . ومثل هذا التى على روايات مؤلفى العرب والشرقيين عموماً شبه المؤرخين الأوربيين الذين محصوا التاريخ وجعلوا النقد معياره . حتى انه لوجاء المؤلف الشرقى بالرواية الصحيحة لاشتبهوا فيها ، من شدة مااعتادوا مبالغات مؤلفينا الأولين الا من رحم ربك . وقد أطال ابن خلدون امام فلسفة التاريخ فى نقد طريقة التقليد الأعمى هذه ، وتلقف أى خبر مهما كان بعيداً عن العقل ، منقوضاً بالأدلة المحسوسة . ولو قرأ رحمه الله الروايات المتقدمة لأقطعها من نقده مالا يقل عما شرحه فى نقد الروايات التى استشهد بها فى مقدمته . فانه ورد هنا مرتين ذكر مليون قرية (الف الف) أوما يقرب منه . وذلك عن بعض

أقسام من بلاد الهند . والحال أنه لو قدر أن كل قرية لا تحتوى على أكثر من ١٠٠ نسمة كان من ذلك مائتا مليون ، فاذا كان هذا عدد سكان بعض ممالك من الهند فاذا يكون عدد اهل الهند بأسرها يومئذ ؟ مع أنه لا يعقل أن يكون عدد أهل الهند يومئذ أحصى مما هو اليوم . وأما عبارة الصهاريج التى هى سبعون ألفا كلها ملأى بالاموال فهذه لا تليق بان تؤثر فى كتب جليلة مثل صبح الأعشى فأما ما ورد فى مسالك الابصار من كون الجيوش التى كانت عند السلطان محمد بن طغلقشاه عدتها ٩٠٠ ألف فارس ، منهم من هو بحضرته ومنهم من هو فى سائر البلاد يجرى عليهم كلهم ديوانه ، وان عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الاجناس ، فهذا ليس ببعيد عن العقل بل ليس بكثير على سلطنة دهلى فى أيام تلك العنجهية و باشتمالها على جميع الهند . قلنا على أن المبالغة وما تبعها من الغلو والاغراق لا تتعلق الا بما له اصل متجاوز الحد ، ولولا الكثرة الهائلة والعظمة البالغة ما لهجت الالسن بالاعداء التى لا يقبلها العقل والمقادير التى لا تثبت على معيار النقد . فالسلطنة الاسلامية فى الهند قد بلغت من تزخر الجيوش ، وامتلاء الخزائن ، وسعة الفتوحات ، ما يندر أن يعرف مثله التاريخ العام . وان ما قاله قاضى القضاة سراج الدين الهندى من أن السلطان محمد طغلقشاه مع كثرة العطاء ، وسعة البذل ، وما ينفقه فى جيوشه لا ينفق نصف دخل بلاده ، لا يعد من جملة المبالغات . وكذلك ما يقال من أنه كان فى خدمته ثمانون خاناً فأكثر ، وان لكل واحد منهم من الاتباع ما يناسبه ، للخان عشرة آلاف فارس ، وللملك الف فارس ، وللامير مائة فارس ، وللاصفهسلارية دون ذلك ، وان للسلطان عشرة آلاف مملوك اتراك ، وعشرة آلاف خادم خصى وأن له مائتى الف عبد ركابية تلبس السلاح ، وتمشى فى ركابه وتقاتل رجالة بين يديه ، وان له الفا ومائتى طبيب ، والف بازدار تحمل الطيور الجوارح للصيد راكبة الخيل ، وثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد ، وخمسمائة نديم ، والف مملوك لتعليم الغناء ، والف شاعر بالعربية والفارسية والهندية من ذوى الذوق اللطيف ، يجرى على جميع ذلك ديوانه مع طهارة الذيل والعفة فى الظاهر والباطن . هكذا فى صبح الاعشى بالحرف فليس فى هذا شئ مستحيل عرفا ولا يستبعد ذلك الا من لم يتصور عظمة الهند ولا سعة أقاليمها ولا وفور كنوزها وخيراتها ، ولقد عرفنا أن بعض الأمراء فى بلادنا كان عندهم عدد عديد من جملة البزان وكانوا اذا ذهبوا الى الصيد مشى معهم عدة مئات

لتحصيل الصيد . وهم لو قيسوا بسلطان الهند لـكانوا له من بعض الاتباع والخول فما ظنك بسلطان عدد رعيته مئتان أو ثلاثمائة مليون نسمة . فليس بكثير أن يكون عنده الف بازدار ولا ثلاثة آلاف رجل يمشون الصيد واذا وقع فى مخالب البازى يحصلونه .

بعد ايرادنا هـذه الأمثلة على عظمة سلطنة الاسـلام فى الهند ، لنعد الى موضوع الحكومات الاسلامية الحاضرة وقد تقدم لنا فى حواشى كتاب ستودارد هـذا لمحة فيها من ذلك شـدو . ثم آثرنا أن نوضحه هنا قليلا نقلاً عن بعض المؤلفات الخاصة بالهند فنقول : انه يعدّل اليوم مقدار الممالك الهندية التى تديرها أمراؤها ، وليست بتابعة للادارة البريطانية رأساً ، بنحو خمسى الهند ، حال كون الذى تديره انـكلترة رأسـاً هو ثلاثة أخماس الهند . هـذا هو قول الانـكليز الذين قد يعدّون أقل إدارة وطنية امارة ذات حكم ذاتى مهما كان من استئثارهم بجميع أمورها . لذلك اختلفت روايتهم عن رواية بعض أدباء الهند من البراهمة الذين أكدوا لنا أن الممالك التى يصح أن تعد من ذوات الحكم الذاتى لاتزيد على ربع الامبراطورية الهندية . وقد أحصى المؤلفون الانـكليز عدد امارات الهند التى يتولاها الملوك والأمراء الوطنيون تحت حماية بريطانيـة العظمى ٦٩٣ حكومة من أصلها عدد من الحكومات الاسلامية وهى كما يأتى :

حيدر آباد الدكان وعدد سكانها ١٣ مليوناً و ٣٧٤ ألف نسمة ، ودخلها السنوى مليون و٧٦٠ ألف ليرة انـكليزية ، وعلاقتها هى مع حكومة الهند البريطانية رأساً . وليس لغيرها امتياز كهذا بل جميع الممالك والامارات الأخرى فيها نواب من قبل الانـكليز يكونون هم الواسطة بين تلك الحكومات الوطنية وبين حكومة الهند الانـكليزية . ثم كلات من بلوجستان عددها ٣٥٩ ألفا ودخلها السنوى ٥١ ألف ليرة . ثم لاس بيلا وعددها ٦١ ألفاً ودخلها ١٥ ألف ليرة . ثم خيربور وعددها ٢٢٣ ألفا ودخلها ١٠٨٠٠ ليرة . ثم جوناغار وعددها ٤٣٤ ألفا ودخلها ١٧٥ ألف ليرة . ثم بالانبور وعددها ٢٢٦ ألفا ودخلها ٤٨ ألف ليرة . ثم كامباى وعـددها ٧٢ ألفا ودخلها ٣٧ ألف ليرة . ثم جانديرا وعـددها ٨٨ ألفا ودخلها ٤٠ ألف ليرة . ثم راد نهابور وعددها ٦٥ الفا ودخلها ٢٦ الف ليرة . ثم بالاسينور وعددها ٤٠ ألفا ودخلها ٨ آلاف ليرة . ثم ساچين وعددها ١٩ الفا ودخلها ٢٠ الف ليرة . ثم سافانور وعددها ١٨ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . ثم ثلاث حكومات صغيرة تؤدى مالا

سنو يا لمهراج كايكفار وهى « دابها » ودخلها السنوى ٢٦٦ ليرة و « بونادرا » ودخلها ألف ليرة . و « راماس » ودخلها ٢٠٠ ليرة . وأمراء هذه الحكومات الثلاث هم من سلالة راجا اسمه هار زنجى كان فى خدمة محمود بيغارا سلطان كوجرات وأسلم سنة ١٤٨٣ .

وفى الهند الوسطى بهوبال فيها ٧٣٠ ألفا ودخلها ٢٠٠ الف ليرة . ثم جاورا وعددها ٧٥ ألفا والوارد لها ٦٠ الف ليرة . ثم باونى وفيها ٢٠ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . وفى الهند الوسطى ١٥٣ حكومة ذاتية بعضها تحت ولاية أمراء مسلمين مثل كورفاى التى سكانها ١٨ الفا ودخلها ٢٥٠٠ ليرة . وبازودا التى تتبع مهراج كفاليور لكنها فى الواقع لا تدفع له شيئا وكل سكانها ٤٦٣٠ نسمة ودخلها السنوى ١٢٦٦ ليرة [١] . ثم محمد كار وأهلها ٢٨٦٣ نسمة ودخلها ٢٦٦ ليرة . ثم باتارى وأهلها ٣٨٦٦ نسمة ودخلها ٦٠٠ ليرة . ويوجد امارات أصغر من هذه على ماقى دائرة المعارف الاسلامية وياليت شعرى ماذا تكون تلك الامارات التى هى أصغر من هذه ؟ وهل يوجد أصغر من هذه الا الميكروبات ؟ فان مامر من هذه الحكومات التى يقول الانكليز انها متمتعة بالحكم الذاتى هو عبارة عن مديريات نواح أو مشيخات قرى . ولهذا كثر عدد الحكومات الوطنية بحسب احصاء الانكليز وما دامت هذه أقدارها فلا عجب أن تعد بالمئات . ومن الغريب أن أكثر أهالى هذه الامارات التى يليها أمراء مسلمون هم من البراهمة ، والمسلمون بينهم قلائل أحياناً تراهم نحو الثلث وأحياناً الربع وآونة السدس الى العشر . وأكثر مسلمى الهند بالنسبة الى سائر السكان هم فى الحدود الشمالية الغربية ، حيث المسلمون بالنسبة الى مجموع السكان ٩٣ فى المائة . كذلك يكثر المسلمون فى الجهة المقابلة ، أى بلاد البنغالة ، فهناك مجموع السكان ٤٥ مليونا ونصف المليون ومن أصلهم ٢٤ مليونا مسلمون ثم كشمير أهلها ٣ ملايين ومائة وخمسون الفا منهم مليونان و ٤٠٠ الف مسلمون ، وأما فى البنجاب فالمسلمون أكثر من نصف السكان . وتجد بعكس ذلك فى المقاطعات الموحدة التى كانت مركز السلطنة المغولية الأصلى فهناك نيف وسبعة وأربعون مليون نسمة المسلمون بينهم ستة ملايين وستمائة وخمسون ألفا فقط . وأغرب منه مملكة ما يسور التى كان فيها حيدر على وتيبو سلطان من أعظم المجاهدين فى نشر الاسلام فلا يوجد بين الخمسة الملايين والثمانمائة الف التى تسكن تلك المملكة سوى

---

(١) فماذا تقدر أن تدفع لذلك المهراج

٣٠٠ الف و ١٥ الف مسلم . وانما استوى على تلك المملكة حيدر على بفرط بسالته واقدامه وهو رجل ممن يذكر فى تاريخ الهند كان مولده سنة ١٧٢٢ وكان أبوه يدعى فتح محمد خان ولما شب حيدر دخل فى جيش مايسور ، وظهرت شجاعته فى حصار مدينة « دفانهالى » التى أخذها راجا مايسور عام ١٧٤٩ فجعله الراجا قائداً لخمسين فارساً ومائتى راجل ، هكذا كان مبدأ ترقيه ثم صار فوجداراً فى «دنديغول» ثم جاكردارا فى بنغالور . ثم كسب صيتا بعيداً فى ظفرته بالمهرات عام ١٧٥٩ وتلقب بعد ذلك بفتح حيدر بهادر ، واستقطع راجا مايسور بلاداً طويلة عريضة من مملكته ، وصار هو السيد المطلق فى مايسور ، ولما وقع النزاع بين الانكليز والفرنسيس فى الهند انحاز حيدر الى الفرنسيس وجرد جيشه للقتال فى صفهم فانتهز تلك الفرصة « خاندرافا » وزير الراجا للتخلص من حيدر وتغلب عليه أولا ، ولكن حيدر بدهائه واقدامه استرجع مكانته ثم قبض على الوزير وصار هو الألف والياء فى مايسور وأبقى على الراجا فى الصورة فقط و بعد موت الراجا جعل ابنه فى قبضته لا يملك معه شيئاً . وضرب حيدر السكة باسم نفسه ، وفتح بلاداً ضمها الى ما يسور وأسس دار صنعة لبناء السفن ، وجرت بينه و بين المهرات وقائع كثيرة وكذلك بينه و بين الانكليز اذ كان أكثر الوقت ينتصر للفرنسيس عليهم . ومات فى معسكره بآركات فى ٧ ديسمبرسنة ١٧٨٢ وخلفه ابنه تيبو صاحب . وكان هذا لا يقل عن أبيه فى شئ حزماً وعزما وغشمشية ومضاء ، كان مولده سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٧٩٩ وتثقف فى الفنون العسكرية على أيدى ضباط فرنسويين ، وأتقن الرياضة البدنية وامتاز فى الحروب التى وقعت بين مايسور والمهرات من سنة ١٧٧٥ الى سنة ١٧٧٩ كذلك فى الحروب مع الانكليز من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٧٨٤ اذ ظفر بهم فى عدة معارك فأحبه أبوه وقومه حبا جا ، وعند ما خلف أباه عام ١٧٨٢ فتح « بدنور » وبالرغم من ترك الفرنسيس حلفائه قتال الانكليز لم يزل يكافح وينافح حتى انعقد الصلح بينه و بين الانكليز سنة ١٧٨٤ بمعاهدة « مانغالور » وقد رتب أمور بلاده ترتيبا حسنا ، ولأجل أن تدرى جلال قدر هذا الرجل يكفى أن تعلم أنه كان أوصل عدد جيشه الى ١٥٠ الف جندى مع ألفى مدفع وسبعمائة فيل ، وادخر مقداراً طائلا جداً من المؤن والعدد والذخائر الحربية ، وكان يخمن بيت ماله بمليارين من الفرنكات . وروى موريس قال صاحب قاموس الاعلام الفرنساوى أن تيبو صاحب حاول حمل

المسيحيين والبراهمة على الاسلام وأظهر فى ذلك غلظة زائدة ، ولكن أقصى آماله كان طرد الانكليز من الهند ، وكان اللورد كورنفاليس حرك عليه نظام حيدر آباد من جهة والمهرات من أخرى ، فهاجم تيبو مملكة « ترافانكو » سنة ١٧٩٠ فهاجمه الانكليز والمهرات وجيش النظام من أربع جهات فقاتل قتالا نادر المثال فى البطش والمهارة وكسر الكولونل الانكليزى فلويد واجتاح المنطقة الانكليزية وبقى موغلا فى سيره الى جوار مادراس ، حتى اضطر الانكليز أن يسوقوا عليه جحفلاً جرّاراً تحت قيادة اللورد كورنفاليس نفسه فردوا تيبو صاحب الى الوراء ودخلوا بانغالور وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس تيبو صاحب الصلح فأجيب اليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ، ويؤدى غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك ، وتم ذلك سنة ١٧٩٢ الا أن تيبو صاحب بقى حاقداً على الانكليز متحفزاً للاخذ بالثأر ، ولبث يراسل الفرنسيس . ولما قدم بونابرت الى مصر بعث اليه رسله فوجه الانكليز معظم قوتهم لقتاله ، وشهر الوالى الجديد الانكليزى ولسلى عليه الحرب سنة ١٧٩٩ وتقدم الجنرالان هاريس وستوارت فحاصرا مدينة « سرينغاپانام » فمات تيبو صاحب أثناء الحرب من شدة غمه ، واستولى الانكليز بعده على مايسور وعينوا لأولاده جارياً جزيلا فأقاموا بمدينة « فللور » وكان تيبو صاحب وأبوه حيدر على من أعاظم الرجال الذين أنجبهم الاسلام .

ان المدنية الاسلامية فى الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة ، اذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والمغولية ، والصينية ، والهندية ، والبوذية وغيرها . ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الأوفر حتى صارت الهند بواسطة الاسلام كأنها قطعة من ايران . واشتهر من شعراء الفارسية فى الهند الأمير خسرو الدهلوى (١٢٥٣ الى ١٣٢٥) الذى كان يتحدى السعدى والنظامى والشاعر حسن الدهلوى المتوفى عام ١٣٢٦ ، وكان يحذو حذو عمر الخيام والحافظ الشيرازى . ولم يمكن الأدب الهندى أن يجارى الأدب الفارسى فى ميدان ، لا سيما أن ملوك الاسلام لبثوا مترفعين عن الهنود فى هيئتهم الاجتماعية ، منفردين بأنديتهم ومجالسهم الخاصة ، ولم يكن لسان كلسان الفرس يطيب للمجالس الملوكية وأحاديث الخواص ، فاذا استثنيت اللغة العربية لا تجد

فى العالم الاسلامى لغةً وثقافة تضارعان اللغة الفارسية وثقافتها . وان المغول أنفسهم مع كونهم يختلفون عن الفرس أصلاً كانوا بعد أن ولوا بلاد العجم قد تحولوا فى لسانهم وآدابهم فرساً . فلما فتحوا الهند نشروا فيها الهنب الفارسى والأدب الايرانى ، ونبغ فى أيامهم أدباء ومؤلفون وشعراء كالباداعونى وأبى الفضل وأبى فيضى والشاعر عرفى الشيرازى وخوجه حسين وحسنى الأصفهانى وقاسم ايكاهى . وكانوا جميعاً ينظمون وينثرون بالفارسى ويتحدون الجامى والحافظ والنظامى . ثم ان شعراء لغة الاوردو بهذه اللغة الجديدة كانوا ينسجون أيضاً على منوالهم . وهم مثل فالى ، وسآودا ، ومير ، وحاتم وحسن وغيرهم . اما من جهة الطراز المعمارى ، فكان لمسلمى الهند دوران الدور الأول هو الغزنى والغورى ، والدور الثانى هو الدور التيمورى . فأما فى الدور الأول فكان ملوك الاسلام قد اكتفوا بالطراز الهندى المسمى « جاينا » وأضافوا اليه القسى الحادة العربية . فكان يوجد فى نسق البناء شبه كبير بين جوامع السلاطين ايبك والتامش وعلاء الدين فى اجمير ودهلى ، و بين معابد الهنود الا أن المسلمين لم يلبثوا أن نزعوا الى طرازهم المعمارى الأصلى وهو العربى الفارسى ، فان الباب المسمى باب علاء الدين فى دهلى هو بناء فارسى تقريباً . أما فى زمان بنى طغلق فكان الطراز الهندى هو الغالب على الأبنية مع منزع ظاهر الى البساطة . ولكن من بعد فتح بابر التيمورى تولد أسلوب خليط من الطراز الهندى والطراز الايرانى صار قائماً بذاته . وهناك فروق ناشئة من طبيعة البلاد ففى الهند لم يمكن ايجاد صنعة القاشانى الغالبة فى الأبنية الفارسية ، فجعلوا مكان القاشانى المرمر والحجر الصلد . فكانت المبانى المغولية أفخم وأمتن وأثبت على الدهر ، فبينما جوامع اصبهان تتداعى الى الخراب تجد « تاج محل » فى الهند يغالب بمتانته الزمان و يقاوم الحدثان . وجميع مبانى بابر وهمايون كانت على الأسلوب الايرانى وذلك مثل مدفن همايون فى دهلى . أما اكبر فبانيه كانت بين الأسلو بين العجمى والهندى ترى ذلك فى الجامع الأعظم فى فتحبور . ونظيره جامع آغرا وقصر السلطانة التركية . وأما مدفن اكبر فى سيكوندره فاذا تأملت سطوحه المرصوفة بالحجر الأحمر ، والمرمر الأبيض ، وأطنافه وأفاريزه والأشكال الهرمية التى فيه تظن أنك بازاء أسلوب بوذى مطبق على رسم اسلامى . وفى أيام جهانكير بنى مدفن اعتماد الدولة فى آغرا ، وجامع لاهور ، وهذا فيه

قاشاني كثير كأنه من مساجد أصفهان ، أما مدفن اعتماد الدولة فهو طراز نسيج وحده .
وفى أيام شاه جهان بنى القصر السلطانى فى دلهى ذو البهو الأعظم المسمى « بديوان خاص »
الذى قال أرباب الفن من الأور بيين انه آية تبهر الناظرين . وكذلك أنشىء جامع الوزير فى
لاهور والمسجد الكبير فى آغرا والجامع المسمى « جامع مسجد » فى دلهى ، وجامع اللؤلؤة
فى آغرا . وهذا الأخير من أعجب عجائب الهند على كثرة عجائبها ، تدخل اليه من
مربع فيه حياض الوضوء ، ثم تفيض منه الى دهليز معقود بالقناطر ، ممتد من ثلاث جهات
وفى الجهة الرابعة قبالة الباب الأكبر يتجلى لك الجامع بعظمة فائقة الوصف ، قائماً على غاب
أشب من المرمر المنقوش الباهر فى صنعته ، تعلو من فوقه تلك القبة المنقطعة النظير الضاربة
الى العلاء ، تناطح القبة الزرقاء . قال جاكمونت : ان هذا العالم الصغير من المرمر الناصع
يظهر لك كأنه واحة سلام وسكون فى وسط معركة الحياة ، إذ لا ترى من العالم الخارجى
سوى رأس شجرة فينانة جعلها التصادف فى وجه الباب يلعب الهواء بأغصانها تحت أشعة
الشمس . فهذا المسجد هو مشهد سكينة تامة وصفاء لطيف ليس فى محاسن سائر الآثار
العظام التى فى آغرا مايضاهيها ، نعم ان جميع هاتيك المبانى لما يبهر النواظر ولكن لؤلؤة
المساجد تلك شىء آخر .

مع هذا « تاج محل » فى آغرا أشهر من مسجد اللؤلؤة . وكان السلطان جهان شاده
سنة ١٦٣٠ مدفناً لحظيته التى كان قد ملك هواها قلبه « الأميرة ممتاز محل » وكانت قد
ماتت وهى نفساء فى مقتبل العمر فناشدت السلطان الله أن يخلد اسمها فى بناء عظيم الشأن
فبنى لها ذلك المدفن النادر المسمى بالتاج وكاه من الخارج من مرمر ناصع البياض ، ومن
الداخل منحوت منقوش مخرم مرصع بالصنعة التى تحار لها العقول وتذهب بها الألباب ،
مع ماهناك من الفسيفساء وأصناف الرخام والمرمر الأزرق الصافى ، والعقيق اليمانى ، وغير
ذلك من الحجارة النفيسة النادرة . وفوقه قبة لطيفة حولها منابر ضاربة فى السماء ، وعلى
الدائر مشبكات من الحجر تصرفت بها أيدى الصناع بالتخريم تصرف النجارين بالخشب .
وهذا بأجمعه وسط جنة فيحاء غناء ، فيها من الحياض والنوافر المتصاعدة مياهها بين مخارف
السرو ، وتحت ظلال أشجار البرتقال مايتعذر احصاؤه . ومما يذكر من عجائب مآثر الهند

الجامع الأعظم فى بيجابو ر فى الدكان بدأ بعمارته على الأول سنة ١٥٥٧ وقبة السلطان ابراهيم التى انتهى بناؤها سنة ١٦٢٠ وقصر الطباق السبع الذى بناه السلطان محمد ومدفنه وطراز هذه الأبنية كله فارسى . وهذه نبذة ضئيلة عما خلفه ملوك الاسلام من المبانى المدهشة فى الهند فمن شاء التوسع فعليه بكتاب « الهندسة العربيــة » Architecture des Arabes تأليف غستاف لو بون إذ أتى فيه على جمع المآثر الاسلامية فى البناء . وعلى كتاب دراسة الفن المعمارى الاسلامى للمسيو سلادين Saladin وعلى تصانيف كثيرة لكتاب الانكليز على الهند . و بالاجمال فمن شاهد تلك الآثار ، وقرأ هاتيك الأخبار ، يعلم أن الاسلام تحقق بحضارة باهرة ، وعاش أعصراً زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين أن يباهوا بهـا سائر الأمم ، على شرط أن يقتدوا بأوائلهم . هـذا ما آثرنا تلخيصه عن دول الاسلام فى الهند .

فرقة المعتزلة

للأمير شكيب

المعتزلة فرقة[١] من مفكرى الاسلام ، يرى فيهم علماء أوربا دائما طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تتملص من قيود التقليد المشهور فى الاسلام بالشدة ، والباعث بشدته ووقوفه ، غير متقدم ولا متأخر ، الى هذا الجمود الذى رسا عليه المجتمع الاسلامى .

ويقال ان سبب تسميتهم بالمعتزلة ، أن أحد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ أولاً على الحسن البصرى ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها . وهم يسمون أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » أما التوحيد فلأنهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالحياة ، والعلم ، والارادة والقدرة ، وقالوا انه حى بذاته ، عالم بذاته ، مريد بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالأشاعرة وغيرهم حى بحياة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مريد بارادة ، بحيث ان الصفة هى غير الموصوف وأما العدل فلكونهم يقولون ان العبد انما يثاب و يعاقب على طاعته ومعصيته ، لانه هو الخالق لأفعال نفسه ، دون الله تعالى الذى ينزّه عن أن يضاف اليه خلق الشر . واذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنف ، يعنى مستأنف . ولهذا سماهم الناس « القدرية » . ولما سمعوا الحديث المروى عن النبى ﷺ وهو « القدرية مجوس هذه الأمة » أوّلوا الحديث بأن معناه القائلون بسبق القدر . وكان مرة أحد أئمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلى « الحمد لله الذى تنزه عن الفحشاء » . فقال السنى : « الحمد لله الذى لايقع فى ملكه الا مايشاء » . فقال المعتزلى : « أيريد ربك أن يعصى ؟ » فقال السنى : « أيعصى ربك جبراً ؟ » من هذه النكتة تفهم الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال . هذا وان كان جمهور أهل السنة فرقوا بين الكسب و بين خلق الأفعال ، وجعلوا للانسان جزءاً اختياريا هو مناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذى يعصى بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملا على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى . فذهب الى عمله وظلم الرعية وارتكب المعاصى ،

---

(١) راجع صفحة ٢٥٤ من هذا الجزء

فالسلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا أباح له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب فى وصول أذى ذلك العامل الى الرعية لانه لولا تولية السلطان إياه ما تمكن من ظلمهم وهذا هو مثل من الأمثال ، وان كان البحث دقيقاً جداً ، وكان جمهور المتكلمين من المسلمين ، واللاهوتيين من المسيحيين يتفقون على أن الله هو مالك الملك ، خالق الخلق ، يفعل بخلقه مايشاء ، وأنه حر فى أفعاله لايسئل عما يفعل .

وقد اشتهر من أئمة المعتزلة واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وابراهيم النظام ، و بشر بن المعتمر ، ومعمر بن عباد ، وأبو عثمان الجاحظ ، وأبو على الجبائى ، وابنه أبو هاشم والزمخشرى صاحب الكشاف فى تفسير القرآن . وممن كان يقول بأقوالهم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، أخذ ذلك عن الجعد بن درهم من المعتزلة ، فقيل له مروان الجعدى . ويقال ان الصاحب بن عباد كان يميل الى مذهبهم . ثم ان كثيراً من متكلمى الشيعة تعول على كثير من آراء المعتزلة . ومن جملة أقوال المعتزلة ، اذا كان الأمر مفروغاً منه فلماذا يسعى الانسان وفيم يجتهد ؟ وهم يؤولون قوله تعالى « وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » والحديث الشريف « اعملوا فكل امرئ ميسر لما خلق له » .

أما أبو على الجبائى ، فقد كان حامل لواء الاعتزال فى عصره أخذ عن أبى يعقوب يوسف شيخ معتزلة البصرة ، ثم انتهت اليه رئاستهم الى أن مات (سنة ٣٠٣ أو ٩١٥) ، وصنف كتاباً فى الأصول ، وكانت له مناظرات مع الراوندى ، والنظام وغيرهما ، وهو الذى قرأ عليه أبو الحسن الأشعرى ، ثم بعد ذلك ناظره الأشعرى وألف كتاباً فى الرد على أستاذه الجبائى ، واعتزل الاعتزال ، وصار ناصراً للسنة ، حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية فى علم الكلام . واشتهر أبو هاشم الجبائى اشتهار والده بالاعتزال لكنه حاول فى مسئلة الصفات الالهية التوفيق بين المعتزلة وأهل السنة ، بأن يجعل هذه الصفات أحوالاً ، ومعنى ذلك أنها صفات أشد اتصالا بالجوهر من العوارض غير الملازمة ، بحيث يكون لها سبق فى القضاء والقدر . وقد أراد أبو هاشم بهذا أن يؤلف بين التوحيد الالهى والصفات ، زاعماً أن الكيفيات ليست جواهر بل أنواع من المظاهر . وقد ردوا عليه فى رأيه هذا ورأوه متناقضاً . ومات أبو هاشم عام ٣٢١ .

وأما الأشعرى — وهو على بن اسماعيل ، بن اسحق ، بن سالم ، بن اسماعيل ، بن

عبدالله ، بن موسى ، بن بلال ، بن أبى بردة الأشعرى ، المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ المتوفى ببغداد سنة ٣٢٤ - فقد بقى الى الأربعين من عمره ملازماً للجبائى ، آخذاً برأيه ، الا أنه لحظ فى آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لاتلتئم مع روح الشرع ، ففارقهم وأخذ يرد عليهم ، وكتب كتباً كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف ، وعد منها ابن عساكر ٩٠ تأليفاً ، وذكر كثيراً منها بروكلمان Brokelmann الألمانى فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » . وسنة ١٣٢١ هجرية طبع فى حيدر آباد من مؤلفات الأشعرى « الابانة عن أصول الديانة » وسنة ١٣٢٣ طبع منها رسالة فى استحسان الخوض فى الكلام .

ورد فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، أنه يعود للأشعرى الفضل باستعمال المنطق والجدل فى العقيدة ، خلافاً لعلماء الاسلام الأولين ، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الاسلامية أى علم الكلام . قال: « ولما كان الأشعرى شافعياً لم ينتشر مذهبه عند قوم انتشاره عند الشافعية » قلنا : يقول عبد الوهاب السبكى فى طبقات الشافعية ان المالكية بأجعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة . أما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدى ، وهو يتفق فى الأساس مع الأشعرى ، ويباينه فى نقاط ثانوية . وأماالحنابلة ، فيردون كلام الأشعرى ويأخذون العقيدة بمثل ماأخذها السلف أى بدون فلسفة وقديفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتجسيم . وممن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهرى . ومما لامشاحة فيه أن أعظم متكلمى الاسلام وسيوف السنة ، هم من الأشاعرة وذلك مثل الباقلانى ، والقشيرى ، والاسفرائينى وامام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، ولو لم يكن منهم الاحجة الاسلام الغزالى لكفى .

فرق الخوارج

الأمير شكيب

عند ماطال النزاع بين أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، واشتدت الحرب واتسع الخرق ، مل كثير من المسلمين القتال ، وتذاكروا فيما بينهم فى طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء . فكانت هذه الطريقة هى التحكيم الذى كثير من عقلاء الأورببين يجاهدون اليوم فى جعله هو الواسطة لفض المنازعات الدولية ، وان كانوا الى هذه الساعة لم يوفقوا الى جعله المرجع الأول فيما شجر بين الدول ، بل كان لايزال أمره ضئيلا وأكثر مايرجعون اليه فى المشكلات الخفيفة .

فهذه الفئة التى سئمت الحرب ، حلت علياً رضى الله عنه على قبول التحكيم بينه و بين معاوية ، وأشارت باقامة أبى موسى الأشعرى حكماً عنه فى خبر طويل ليس هنا تفصيله ، مع أن عمراً بن العاص داهية زمانه أقيم حكماً عن معاوية ، فخدع عمرو أباموسى بأن اتفق معه على أن يخلعا علياً ومعاوية جميعاً ، و يريحا المسلمين من هذه الحرب الطاحنة وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه . ولما كان أبو موسى أكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له فى الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما . وجاء الدور الى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع علياً دون معاوية . وكانت لهذه الخدعة رنة فى الاسلام لاتزال الناس تتذاكرها الى اليوم . و بطل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين ، فخرجت تلك الفئة من طاعة على ومعاوية معاً ، وانفردت برأى غير رأى الجماعة ، وهو أنه لاحكم الا الله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسماهم الناس من أجل ذلك خوارج[1] . ثم ذهبوا الى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على مايروى أربعة آلاف مقاتل ، فصمد اليهم على وما زال يقاتلهم و يستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الأمة ، الى أن أفناهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قيل ذهب منهم اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، و واحد الى اليمن . هذا أصل الخوارج ،

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

ويقال لهم أيضا الشراة لقولهم اننا شرينا أنفسنا فى طاعة الله أى بعناها بالجنة حين خرجنا على الأئمة الجائرة .

وعمود مذهبهم انكار الخلافة وأن الحكم يستمد من القرآن رأسا فلا حاجة الى الخليفة . وأنهم يمنعون التأويل فيه . وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هى قصة من القصص . وبعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالاصرار على الصغائر ، ومنهم من يصوب فعلة عبدالرحمن بن ملجم ذلك الشقى الذى قتل عليا ، وفعل قطام فى اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة ، عبداً ، وقينة ، وقتل على . ومنهم من يجوز نصب الامام ولكن لايشترطون فيه النسب القرشى (وقد ذهب الى مثل ذلك غيرهم ومنهم من كبار علماء السنة مثل أبى بكر الباقلانى) . وهم فرق متعددة منها :

المحكمة ، وهم الذين يمنعون التحكيم .

ثم الازارقة ، وهم اتباع نافع بن الازرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان ايام ابن الزبير ، وقاتلهم المهلب بن أبى صفرة ، وهم يكفرون عليا مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الامام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزانى المحصن وحد القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون ان التقية غير جائزة .

ثم النجدات ، وهم أصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصغائر دون فعل الكبائر ، من غير اصرار ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .

ثم البيهسية ، وهم أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر يرون أنه لاحرام الا ما وقع عليه النص بقوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى الىّ محرما » الآية ، ويكفرون الرعية بكفر الامام .

ثم العجاردة ، وهم الذين ينفون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون انما هى قصة من القصص .

ثم الميمونية ، وهم الذين يقولون ان الله مريد الخير دون الشر . ويقال انهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الاخوة والاخوات . ورد ذلك فى بعض

الكتب ومن جملتها « صبح الاعشى» . ولكن عهدنا « صبح الاعشى » ينقل روايات عن كتب زعم أصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض فرق مخالفة لأهل السنة ، وليس فى تلك الروايات شئ من الصحة ، بحيث قد ضعفت الثقة فيما ترويه تلك الكتب عن فرق أخرى . والذى يظهر أن اختلاف العقيدة يورث من التباغض والتنافر ما ينتهى بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وبترويجها بين الناس حتى تكاد تصير قضية مسلمة . ولهذا شواهد ، كثيرة ليس هنا موضع ذكرها .

ثم الاباضية ، يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالفيهم من الاسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغى . وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون انهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ، ويقال انهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة . وهم لا يذكرون بعد الرسول ﷺ من الخلفاء الا أبا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلى فلا يعجبانهم اذ قد خالفا نهج الرسول والصاحبين بزعمهم . ويقولون بوجوب نصب الامام بين المسلمين اذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وان القرشية ليست بشرط فى الخلافة ؛ بل يكفى أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته . فان انحرف عنهما وجب خلعه . ويقولون ان القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى وهو كقول المأمون العباسى . وانه تعالى لا يرى بالابصار فى الجنة ، وان الثواب والعقاب أبديان ولافناء للنعيم ولا للجحيم .وان الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر الا بالتوبة . وهم يرجعون الى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالاجماع والقياس ، بل عندهم محلهما الرأى . وهم يقولون : ان كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وان على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الدينى خسر حقه فى حنو اخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو الى أن يتوب وينيب . هذا ولما كان أكثر فرق الخوارج انتشاراً هم هؤلاء الأباضية ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الاسلام الكبرى ، فسنعود فى آخر هذا الفصل الى تاريخهم السياسى .

ثم الثعالبة ، وهم يرون الولاية على الصغير الى أن يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه .

ثم الصفرية ، ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أمّا ما كان من الكبائر فيه حد كالزنا ، فيكفى فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .

هذه أشهر فرق الخوارج ، ومن شاء التوسع فى هذا الموضوع فعليه « بالملل والنحل » للشهرستانى ، وكتاب « الفهرست » وكتاب « كشف الغمة فى أخبار الامة » ، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى ، وكتاب « الملل والنحل » لابن حزم وغيرها .

ونعود الى الاباضية فنقول : هؤلاء ينتسبون الى عبد الله بن اباض ، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الاباضية فى زمان مروان الثانى الأموى ، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيى وأبو حمزة (١٢٩ هجرية) وزحف عبد الله من حضرموت الى صنعا فاستولى عليها ، وسير أبا حمزة بجيش الى مكة ثم المدينة فاستولى عليهما ، فأرسل مروان جيشاعقد لواءه لعبد الملك بن عطية ، فقاتل أباحمزة وهزمه فى وادى القرى ، فالتجأ الى مكة ، فجدّ فى أثره وما زال يقاتله حتى قبض عليه وقتله . وكذلك انتهى أمر عبد الله ابن يحيى بصنعاء اليمن . وسنة ١٣٤ للهجرة ، ثار الاباضية فى عمان ، فسار اليهم خازم بن خزيمة من قبل بنى العباس ، فنكل بهم ، ولكن المذهب الاباضىّ وجد فى بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزارها ، وحيلولة الفلوات من جهة ، والبحار من أخرى ، بينها و بين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، و بسط جناحيه بدون زعج فى قاصيتها ، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب فى بلاد عمان ومنها امتد الى زنجبار . أما فى شمالى افريقية فان مذهب الأباضية ظهر فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، هو ومذهب الصفرية ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيراً بين البربر الذين خرجوا مراراً على الدول العربية . وكان أول دعاتهم فى شمالى افريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الحميرى اليمانى ، خرج فى جبل نفوسة ، وهو أول امام للاباضية فى تلك الأقطار . و يقولون انه أحد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الاباضية « حملة العلم » ، وكانت مبايعة الاباضية له فى جبل نفوسة ونواحى طرابلس سنة ١٤٠ هجرية . وزحفوا بعدها الى مدينة طرابلس ،

واضطروا العامل الذى كان فيها من قبل بنى العباس على الفرار بنفسه . ثم سار منهم ستة آلاف تحت قيادة أبى الخطاب هذا ، وافتتحوا قابس ، ثم ساروا الى القيروان فحاصروها وفى صفر سنة ١٤١ فتحوها وذبحوا أهلها . وعاد أبو الخطاب الى طرابلس بعد أن أبقى على القيروان من قبله عبد الرحمن بن رستم . وفى ذى الحجة من سنة ١٤١ ولى الخليفة أبو جعفر المنصور العباسى محمداً بن الاشعث الخزاعى على مصر ، فأرسل هذا جيشا تحت قيادة العوام بن عبد العزيز البجلى الى افريقية لدوخ الخوارج ، فزحف أبو الخطاب بنفسه للقاء جيش الخليفة ، وأرسل من قبله جريدة تسبقه مع مالك بن سهران الحوارى فانكسر جيش الخليفة أول مرة فى سرت ، فأرسل ابن الأشعث جيشاً آخر بقيادة أبى الأحوز عمر بن الأحوز العجلى ، فانكسر أيضا ، فزحف ابن الاشعث بنفسه بأمر من الخليفة ، فالتقاه أبو الخطاب بجيش البربر فى « تاورغا » فى صفر سنة ١٤٤ ودارت معركة تشيب لها الأطفال وانتهت بهلاك أبى الخطاب و ١٢ الفا ويقال ١٤ الفا من أشياعه ، وفى جمادى دخلت عساكر الخليفة القيروان .

ولكن لم تلبث فتنة الخوارج فى تلك الأقطار أن تجددت ، اذ فى نحو عام ١٥٦ ظهر أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزى ، وقيل ان أباه كان اسمه لبيد بن مدين من قبيلة هوارة العظيمة ، لجمع أبو حاتم هذا جموعا من الأباضية والصفرية وأصناف البرابر ، وجاء يحاصر عامل افريقية عمر بن هزار مرد فى بلدة تبنة ، فبعد وقائع شديدة تمكن عمر من الخروج من تبنة واللحاق بالقيروان عاصمة افريقية فى ذلك العصر ، ورد جميع مهاجمات البربر ، وصبر على الجوع ونفاد الأقوات ، وبينما هو يدافع عن البلدة اذ بلغه كون الخليفة سرح جيشا تحت قيادة يزيد بن حاتم ، الذى ولاه على افريقية محل عمر ، فبلغ من عمر اليأس مبلغه وخرج فقاتل حتى قتل فى ذى الحجة سنة ١٥٤ ، فاستولى البربر على البلدة وجمعوا جيوشهم لملاقاة جيش الخليفة . وكان فى هذا عساكر من خراسان ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، ومن بقايا الأجناد التى كانت بافريقية ، ومن الهوارة أنفسهم . فالتقى الجمعان فى جندوبة ، وانتهت المعركة بانتصار جيش الخلافة ، وهلك أبو حاتم ومعه ٣٠ الف مقاتل من أتباعه ، وذلك فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٥٥ (٧ مارس سنة ٧٧٢) ويقال ان هذه الواقعة الكبرى كانت خاتمة ٣٧٥ واقعة نشبت بين الخوارج وجند الخلافة .

ولقد تأسست دولة أباضية فى تاهرت استمرت ١٣٠ سنة ، الى أن أزالتها الدولة الفاطمية على يد أبى عبد الله الشيعى (٢٩٦ للهجرة) ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة فى الغرب ، وانما منهم أعداد وافرة فى وارغلة ، وميزاب ، وجبل نفوسة ، وزوارة ، وجزيرة جربة . وهم مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطا شديداً ، ولهم علاقات مع أباضية عمان ، وزنجبار وتجدهم يتدارسون تاريخهم وفقههم وأدبهم بكل اعتناء . ومن أعيان الأباضيين فى زماننا هذا الشيخ سليمان البارونى الذى جاهد فى حرب طرابلس الغرب جهاداً عظيما على رأس اباضية الجبل الغربى ، وكان مبعوثا فى مجلس الأمة بالاستانة ، ثم جعلته الدولة العثمانية عضواً فى مجلس الاعيان مكافأة له على جهاده .

ثم نعود الى أباضية عمان فنقول : ان الخروج على الدولة شنشنة قديمة لذلك القطر ، فقد عصى أهالى عمان لعهد بنى أمية ، فسير عليهم الحجاج بن يوسف الثقفى جيشا فهزموه ، وكان عليهم يومئذ سليمان وسعيد من أولاد الجلندى الذى كان يلى عمان عند ظهور الاسلام . فأرسل عليهم الحجاج جيشاً آخر فهزمهم ونكل بهم ، وفر الأخوان سليمان وسعيد الى بلاد الزنج (زنجبار) ، فكانت الى هذا اليوم منتدحا لأهل عمان ولكن تنحى بلاد عمان عن الأمصار الكبرى كما تقدم الكلام عليه ، هيأ فيها سهولة الانتقاض ، فان العمانيين لم يلبثوا أن ثاروا وبايعوا بالامامة الجلندى بن مسعود . فأرسل أبو العباس السفاح جيشا لقتال الجلندى هذا ، فانهزم العمانيون وهلك امامهم ، ولكن لم تعد عساكر الخليفة الى أوطانها حتى صارت أمور عمان فوضى ، واضطر الأهالى الى عقد اجتماع وانتخاب امام على حسب أصول المذهب الخارجى المنتسب الى عبد الله بن أباض التميمى . فوقع الانتخاب على رجل يقال له محمد بن عفان ، فباشر الامامة نحو سنتين ، فلم يحسن العمل فخلعوه ، وأقاموا مكانه الوارث بن كعب . وفى زمان هذا أرسل هارون الرشيد تجريدة على عمان فلم تصنع شيئا . ومات الوارث بن كعب فى حادثة غريبة ، وهى أنه كان فى إحدى الوقائع ثقف عدداً من الأسرى ، وصادف أن جرى سيل فى المكان الذى كان الاسرى فيه موثقين ، فذهب بنفسه يجتهد فى تخليصهم فأخذه السيل وذهب شهيد مروءته ووجدت جثته ثانى يوم بعدأن انكشفت الأرض متعلقة بشجرة . وخلفه غسان بن عبد الله ، وقد ظهر تلك البلاد من معرة لصوص البحر ، وتأثرهم على طول الساحل من بلاد العرب

الى بلاد العجم الى الهند ومات سنة ٢٠٧ .

فوقع الاختيار على عبد الملك بن حميد ، فلما بلغ من الكبر عتيا أهتر وأصبح لا يعقل من الكبر ، فلم يريدوا خلعه ولكنهم وضعوا له مدبراً اسمه الشيخ موسى . ولما مات عبد الملك سنة ٢٦٢ أقاموا مكانه المهنا بن جعفر ، وبعدة هذا استضافت عمان بلاد المهرة ، وكانت من قبل تؤدى اتاوة سنوية . ومات المهنا هذا فى سنة ٢٣٧ وخلفه الصلت ابن مالك ، ومات سنة ٢٧٣ فخلفه رشيد بن النضر ، فاختلت الأمور وانتثر النظام فى أيام هذين حتى اضطر الأهالى لمراجعة الخليفة المعتضد العباسى ، وكان رجل اسمه عزان الخاروصى حاول أن يحكم بالقهر والعسف فلم يتسق له الأمر وصارت الناس فوضى . فذهب اثنان من الأهالى الى البحرين يتكلمان مع محمد بن نور عامل الخليفة على البحرين فى الاستيلاء على عمان وازالة الفوضى التى فيها ، وقد قصد أحدهما بغداد لمخاطبة الديوان فى هذا الأمر ، فتقرر الزحف الى عمان ، وسار محمد بن نور بجموع وافرة من نزار وطىء ، ففتح نزوة عاصمة عمان ، وقتل عزان ، وفر كثير من الأهالى الى البصرة والى شيراز والى مدينة هرمز ثم ثار بمحمد بن نور بعض القبائل وتكاثروا عليه ، فترك مقره ولحق بالساحل ، الى أن أدركته نجدة عظيمة من مرتدفة مضر ، فتمكن من قمع الثورة وأرهف الحد فى الأهالى ، وقطع الأيدى وصلم الآذان ، وعطل قنى المياه التى يشرب منها الخلق ، وأحرق الكتب ، وعمل بالأهالى العملين ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً ، اذ ما كاد يرجع الى البحرين محل عمالته ، حتى ثار الأهالى ثانية وقتلوا العامل الذى استخلفه على عمان ، وذهب دم هذا هدرا ، لأن الخلافة عدلت عن ولاية عمان وناهت عن ايدائها . فعاد الأهالى الى انتخاب أئمتهم ، وتوالت عدة أئمة ، مثل محمد بن الحسن الخاروصى ، وعزان بن الحزر ، وعبد الله ابن محمد الهدانى ، والصلت بن قاسم ، وحسن بن سعيد الحوارى بن مطرف . ولم تطل مدة هؤلاء ، بل استمرت الفتن فى البلاد الى أن ظهر القرامطة ، فافتتحوا عمان مدة من الزمن ثم أخرجوهم منها ، واختير للامامة محمد بن يزيد الكندى . وفى مدته سرحت الخلافة جيشا لاسترداد عمان ففر الكندى من وجهه ، فانتخب العمانيون سعيد بن عبد الله ، فمات فى سنة ٣٢٨ فانتدبوا رشيداً بن الوليد وأطاعه الجميع . الا أنه فى آخر الأمر اضطرب حبله ، ومال جماعة الى حكم الخليفة ، فانهزم الامام وفارقه أصحابه ، وبقيت عمان تحت

حكم الخلافة الى سنة ٤٠٠ اذ ضعفت الدولة فى بغداد عن ادارة هاتيك البلاد . فتوالت الأئمة نوبة ثانية كالخليل بن شدهان ، ورشيد بن سعيد الذى كانت وفاته سنة ٤٤٥ وابنه حفص ثم رشيد بن على ، ثم أبى جابر موسى المتوفى سنة ٥٤٩ ثم استولى على القطر بنو نبهان ، وتلقبوا بالملوك واستمر ملكهم مائتين وستين سنة . وفى أيامهم حاول الايرانيون أن يستولوا على عمان ، وجاء فخر الدين أحمد بن الداية بجيش من شيراز ، فاجتاح سواحل عمان ، ثم ان أمير هورمز محمود بن أحمد الكوسى ، وكان عربى المحتد قد اجتاح بلاد عمان أيضا بمساعدة المغول الذين كان انضم اليهم ، ووصل بجيشه الى ظفار ، الا أنه نشب مع عساكره فى رمال تلك الصحراء فهاجه العرب ، وقتلوا من كان باقيا من عساكره ، ولا تزال قبورهم ظاهرة الى هذا اليوم يقال لها قبور الترك ، مما يدل على أنه كان فى جيشه مرتزقة من الأتراك . وفى أيام بنى نبهان ، دخل فى عمان غراس شجرة « المانغا » يقال ان الذى أدخلها هو الفلاح بن محسن الذى كانت عاصمته مدينة مقنيات التى خربها الوهابيون سنة ١٨٠٠

ثم أخذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون ، فلم يطق الأهالى حكمهم ، وانتخبوا إماماً من قبيلة الازد ، وانتهى ملك بنى نبهان فى نحو ٨٣٩ للهجرة . وكان بنو نبهان قد ضبطوا أملاكاً كثيرة فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شدهان بن الصلت ، وما لم يوجد له أصحاب كأن يكون هؤلاء انقرضوا أو غابوا غيبة منقطعة رده الى بيت المال .

ولم يتأثل الملك وترسخ قواعده الا فى أيام ناصر بن مرشد بن سلطان سنة ١٠٣٤ هجرية وفق (١٦٢٤ م) وهو من نبعة عربية صريحة ومن أقدم الارومات الاباضية .

ولما تسلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة فى الداخل بايدى زعماء يلقبون أنفسهم ملوكاً ، وكانت مدن أخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها . ولم يكن بقى من الثغور البحرية بأيدى الأهالى سوى فرضة « لاوة » والباقى كان دخل فى حكم أمير هرمز (يقول ياقوت الحموى ان هرمز بضم الهاء وسكون الراء وضم الميم وبعدها زاى مدينة فى أقصى مكران قريبة من ساحل بحر الهند . ولكن المعروف أن هرمز هى جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس ، ورد فى قاموس موريس قال ان دورها لايتجاوز عشرين كيلو متراً ، وهى صخرة جرداء . قال : وكان فيها أمراء مسلمون قد حصنوها فى سنة ١٥١١ هاجمها

البرتغاليون بقيادة البوقرق Albuguerke واستولوا عليها ، وصارت من محاطهم المشهورة الى سنة ١٦٢٢ إذ استرجعها الشاه عباس وهدمها ولم يبق فيها الا قرية حقيرة) .

وكان فى ذلك الوقت قد استأسد البرتغال ، وظهروا على بلاد الشرق وصارت لأساطيلهم الكلمة العليا ، كما هى كلمة الانكليز اليوم . واشتهر منهم قائد اسمه الفونس البوقرق ، ولد فى الهندرة بقرب اشبونة ، وتربى فى بلاط الملك الفونس الخامس ، وسنة ١٥٠٣ كانت أولى غزواته الى الهند بثلاث بوارج حربية ، وما زال يغزو ويفتح حتى لقب بحاكم الهند واستولى على « غوا » واجتاح ساحل المليبار ، واحتل مدينة « ملقا » مفتاح الهند الصينية وهو الذى منع الترك العثمانيين من الدخول فى الهند ، ودمر عدن مرتين بالمدافع ، واستولى على جزيرة هرمز ، و بنى فى جزيرة سقطرى حصناً ليحافظ على أهلها الذين كانوا نصارى نساطرة ، وعقد محالفة مع ملك الحبشة ، وحدثته نفسه بالاتفاق معه بتحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الأحمر ليتمكن من تدمير القطر المصرى . وبالجملة فكان فى وقته الآفة العظمى على الاسلام ،ومن جملة مغازيه سواحل عمان ، التى كان البرتغاليون فتحوا قسماً من مراسيها ، وتركوا القسم الآخر بأيدى الأهالى مكتفين منهم باتاوة يؤدونها اليهم سنوياً أما المدن البحرية التى كان فيها حاميات برتغالية عظيمة ، فكانت مسقط، وصحار ، والمطرح ، وقريات . فسار ناشد بن مرشد أولاً الى لاوة ، فاستعان أهلها بالبرتغال ، فأمدوهم بالمال والسلاح ، ولكن ناصراً تغلب عليهم وفتح البلدة ، ثم هاجم أنفس البرتغال فى المدن التى كانوا فيها ، فانتزعها من أيديهم ، و بقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ، ليس لها أيد تمتد الى البلاد ، ثم طرد البرتغاليين من رأس الخيمة . وكان البرتغاليون قد اضطروا أخيراً لأجل الاستقرار فى قلعة مسقط ، أن يؤدوا للامام ناصر جزية ، فبعد أن أدوها مدة امتنعوا من أدائها ، فزحف اليهم ودارت رحى الحرب ، فانتهت بصالح ثقيل الشروط على البرتغاليين ، إذ انتزع من أيديهم عدة حصون ، فى المطرح والقلاع الخارجية فى مسقط ، وأجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى أداء الجزية . ثم افتتح ناصر مدينتى صور وقريات ، وطرد الأجانب منها . وبالاختصار فانه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير بلاده من المعرة الأجنبية ، وفهم فى ذلك الوقت مالم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام ، من كون الأجنبى الأوروبى اذا أنشب برائنه فى محل لم يفته منه الا باستخلاص

جميع البـلاد ، واستعباد من فيها من العباد ، وأن الأولى بالعاقل توقى هذا المرض قبل أن ينشب ، والمبادرة الى اقتلاعه بكل الوسائل قبل أن يستفحل .

وجرت ثورات فى زمان ناصر ، فاطفأ ثائرتها بحزمه وحكمته ، ومات سنة ١٠٥٩ وفق ١٦٤٩ وقد أكمل عملاً عظيماً . و بنى مملكة عمان على بوانيها ، وحررها من السلطة الأجنبية ، الا بقايا بقلعتى مسقط والمطرح وحصن صحار . واستمر ملكه ٢٦ سنةوكان حازما جاداً ، شائحاً فى الأمور ، فاضلاً تقياً ، أحبه الأهالى لمناقبه هـذه ، وان كانوا قد عابوا شحه وكزازة يده .

وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف ، فنسج على طرازه فى الاشتغال باجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال فى سواحل عمان . وكانت له عيون على هؤلاء ، يفضون اليه بعوراتهم فأرسل اليه سراً رجل هندى كان وكيلاً لأمورهم ، وموضع ثقتهم ، أنهم فى غفلة لاهون اذا طرقهم العدو أخذهم من حيث لايشعرون . فكبسهم وهم على تلك الحالة واستخلص منهم الحصنين الخارجين ، فبرز أحد البرتغاليين المدعو « كابريتا » ومعه شرذمة من أصحابه وحاول استرداد المدينة فاستؤصلوا جميعاً . وكانت بارجتان للبرتغال فى البحر تمدان الحامية فقصدهما العرب بالقوارب وذبحوا من فيهما . ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال فى بلاده حتى قصدهم الى بلاد الهند فأرسل بوارج حربيـة تغزوهم فى ساحل كوجرات فى الهند ، فاجتاحت عساكره « ديو » و « دامان » ، وقفلت بغنائم وافرة ، وآنية كثيرة ، مما كان فى الكنائس . ووجه سلطان بن سيف معظم همته الى ترويج التجارة ، وعمارة أسواق الأخذ والعطاء ، واستجلاب الأسلحة والخيول لتقوية جيشه ، وأنفق فى هذا السبيل أموالاً طائلة وجدد قلعة نزوة ، وترك آثاراً صالحة ، وتوفى فى سنة ١٠٧٩ هجرية الموافقة سنة ١٦٦٨ وكان من أفراد الملوك فى حسن سيرته فى الرعية ، وسداد آرائه ، وصواب أنحائه ، وتوافت الناس بداراً الى مراضيه ، وتسارعت الى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكل ذلك بسائق المحبة والأمانة ، وجاذب الاخلاص والمناصحة ، إذ كان يخرج كسائر الناس ، و يغشى المجامع ، ويختلط بالعامة ، وهو بدون خفير ولا قرين ، بل خفارته من ثقته بمحبة قومه وصحابته من معرفتهم لفضله واجلالهم لقدره . وخلفه ابنه « بلعرب » وكان هذا محباً للعلم والعلماء . بنى مدرسة فى يبرين ، وجعل اقامته بها . وثار على بلعرب أخوه سيف ، وعضد هؤلاء الفقهاء ،

فانقسمت الرعية الى قسمين متساويين أولاً ، ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب وكان هذا سخياً جواداً مواسياً للفقراء ، فلقبوه « أبا العرب » لكرمه فلما طالت الفتنة بينه و بين أخيه واضطرب حبله صاروا يلقبونه « بلا العرب » .

والناس من يلق خيراً قائلون له مايشتهى ولأم المخطئ الهبل

وأخيراً استصفى سيف أكثر البلاد ، ولم يبق لبلعرب الا يبرين . و بينما أخوه يحاصره إذ قبض ، فاستراح واستراح بموته أخوه ، وصفا الوقت لسيف ، وتوفرت همته كأسلافه على مكافحة البرتغاليين ، فأجلاهم عن مومبازه Mombasa (ثغر من ثغور شرق افريقية واقع فى جزيرة من سواحل زنجبار تملكها البرتغال ، ثم سلطان مسقط ، ثم سلطان زنجبار ، ثم سنة ١٨٩٠ استولى عليها الانكليز الذين هدموا بنيان هذه المملكة وورثوا أنقاضها وصارت مومبازه عاصمة لمستعمرة شرق افريقية الانكليزية وفيها ٣٠ ألفاً من السكان) وعن جزيرة بمبا (هذه أيضاً جزيرة من سواحل زنجبار سكانها ٤٠ ألفاً صارت أيضاً تحت الحماية الانكليزية مثل زنزيبار) وغيرهما من الجزر والسواحل التى كان العمانيون قد أحرزوها فى شرق أفريقية ، فجاء البرتغاليون وأخذوها من أيديهم فى نحو سنة ١٥٠٣ فكان استردادها على يد سيف بن سلطان فى سنة ١٦٩٤ .

واجتاح أسطول سيف جزيرة سلزيت ، بقرب بمباى الهند ، وكذلك مدينتى بارسالور ، ومانغالور ، ولم يقدر راجا كارناتيك أن يذب عنهما .

وكان سيف حكيماً ، مدبراً ، محباً للعمران ، بصيراً بالاصلاح ، فانتظم بادارته جمهور المرافق والمصالح ، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناجح ، وهو الذى شرع فى بلاده بحفر فنى المياه تحت الأرض لأجل الرى (نظير القنى التى بغوطة الشام منها فى قصبة دومة ومنها مابين الاشرفية وصحنايا ، ويوجد قناة من هذا القبيل طولها أكثر من ساعتين تفيض على جيرود فى القلمون الأدنى وغير ذلك) ويسمون ذلك فى بلاد عمان فلجاً . (الفلج بضم الفاء واللام فى اللغة الساقية التى تجرى الى البستان ، والفلج بفتحتين النهر الصغير) ففاضت الخيرات بهذه القنى ، وترقت الزراعة ترقياً بالغاً ، واعتنى سيف أشد الاعتناء بغراس النخيل ، واستجلب أصنافه ، و بلغ فى ذلك غاية الاعتزام وأمد الالتزام ، وصار ذا ثروة طائلة ، ونعمة لاتحصى ، قيل انه كان يملك ثلث نخيل عمان ، وكانت حاضرة سيف مدينة

رستاق ، وتوفى بها فى ٣ رمضان سنة ١١٢٣ (١٧١١) وخلفه ابنه سلطان بن سيف وهو المعروف بسلطان الثانى .

فنقل هذا كرسى المملكة الى مدينة الحزم ، وانتزع البحرين من أيدى العجم الذين كانوا استولوا عليها سنة ١٦٢٢ منذ طرد الشاه عباس البرتغاليين من هرمز . ومات سلطان تاركا ولدين : أحدهما اسمه سيف ، وكان يافعاً ، والآخر مهنا وكان بالغاً رشيداً . فانقسم الناس فى أمر الخلف ، اذ بعضهم أرادوا انتخاب سيف اماماً ، والآخرون اعترضوا من جهة حداثة سنه وأرادوا مهناً ، وكان هوى العامة مع سيف ، وهوى الخاصة والعلماء مع مهنا . وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة ، نافذ القول ، اسمه الشيخ عدى بن سليمان ، تدخل فى الأمر اتقاء الفتنة ، فنادى بسيف اماماً ، ولكنه كان يلفظ ذلك بفتح الهمزة فيقول « أمام » بدلا من « إمام » وسكن بذلك العامة ريثما انقضت تلك الهيعة ، فأدخلوا مهنا الى القلعة سراً ، وجعلوه إماما (١١٣١ - ١٧١٨) وكان مهنا على جانب عظيم من الحذق والمهارة ، وطول الباع فى الادارة ، فانه بدأ بجعل مسقط مرفأ حراً ، بأن أسقط فيها المكوس وسائر مايؤخذ على البضائع ، مما زاد حركة الأخذ والعطاء ، و بشر بمستقبل عظيم الا أنه افتلت بأمر لم يكن يفطن له ، وهو أن أهالى رستاق ونفس عشيرته قاموا يطلبون الامامة ليعروب بن بلعرب ، ورفعوا لواء العصيان ، وزحفوا إلى مسقط ودخلوها ، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا ، فاعتصم بقلعة رستاق ، ثم داخلوه فى الأمان ، فأمن للثائرين وسلمهم القلعة ، فلما حصل فى أيديهم باقوه وقتلوه (١١٣٣) وتولى الأمر يعروب فى البداية باسم سيف الصغير ، ثم جعل نفسه اماما أصيلا ، وأخذ حكما شرعيا من قاضى ذلك الوقت ، بأنه أحرز الامامة بحق ، وانه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب حتى ان الأموال التى اغتصبها هى حل له بحجة أن التوبة تكفر عن الذنب .

ولكن كان لسيف أشياع وأنصار لم يخضعوا لهذه الثورة ، فقام بلعرب بن ناصر بأمر سيف الصغير و زحف الى رستاق ، ففر يعروب الى تروة ، وقتل القاضى عدى بن سليمان وطيف بجثته فى الأسواق . وتفاقت الفتنة ، فتوسط أناس فى الأمر ، فتحول يعروب الى يبرين وأقام بقلعتها . وأقيم سيف بن سلطان إماما بكفالة عمه بلعرب ، وقيل انه لما جاءت وفود القبائل تهنىء الامام الجديد بالملك ، أساء بلعرب هذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بنى غافر

وقيل انه توعده ، فانصرف محمد هذا مغاضبا ، وداخل يعروب فى الاتفاق على سيف وعمه بلعرب . ثم انتقض محمدبن ناصر على الامام ظاهراً ، واستولى على رستاق ، ثم أسر الامام واستبقاه رهنا فى قبضته . ومازال أمره يقوى حتى دخلت جميع عمان فى حوزته ، ماعدا مسقط وقلعة برقة . ومات فى أثناء ذلك يعروب الذى كان محمد بن ناصر يقاتل باسمه ، فلم يبق رئيس فى وجه محمد بن ناصر سوى خلف بن مبارك المسمى « بالقصير » بالتشديد . فوقعت الحرب بينهما والتجأ القصير الى حصن برقة ، فحاصره ابن ناصر فلم يقدر على أخذه ولست بقين من محرم سنة ١١٣٧ أو ٢ اكتوبر سنة ١٧٢٤ نودى بمحمد بن ناصر إماما فى نزوة . ولكن خلفا بن مبارك بقى يجاذبه الحبل . وزحف الى رستاق ، والنخل ، وصحار ، واستولى عليها ، فصمد اليه محمد بن ناصر برجاله ، واشتعلت الحرب ، فوقع خلف قتيلا فى حصار صحار . و بينما محمد بن ناصر قد ظن أن الأمر قد اتسق له ، وانه تخلص من عدوه ، اذ أصابته رصاصة من جهة القلعة أودت بحياته . فرجع الناس الى سيف بن سلطان و بايعوه فى أول رمضان سنة ١١٤٠ أو ٢ ابريل سنة ١٧٢٨ وكان سيف بلغ سن الرشد وحكم القاضى بصحة إمامته شرعا .

وما مضى على ذلك مدة حتى قام اهالى الزاهرة وبايعوا ابن عمه بلعرب بن حمير ، فاشتعلت الحرب بينهما فلم يقدر سيف ان ينال من ابن عمه وطرا ، فالتجا الى نادرشاه صاحب فارس . وكان سيف بن سلطان محتاجا الى مشير يعتمد على رأيه فاشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاستقامة اسمه احمد بن سعيد من عترة يقال لها البوسعيد . فتولى هذا مدينة صحار واحسن ادارتها وحمد الناس طريقته ، فحسده سيف على المنزلة التى نالها فى قلوب الاهالى ، و اراد ان يقبض عليه الا ان الناس أصلحوا بينهما . ولكن سيفا بقى يخشى ابن عمه بلعرب بن حمير ، فاستمد العجم كما تقدم فانجدوه بجيش تقدم الى الزاهرة ومعهم سيف بجماعته فتغلبوا على بلعرب واثخنوا فى القتل والنكاية ، حتى رجع سيف الى نفسه ، ورأى عداوة ابن عمه اهون من صداقة العجم ، فانحاش الى مسقط . ولبث العجم يجتاحون البلاد و يوقعون بالاهالى ، حتى قام بنو غافر على بلعرب واجبروه على التخلى عن دعواه فى الامارة ، ومبايعة سيف بدون منازعة . فلما اتفقت كلمة العمانيين ثقلت الحملة على الاعاجم ، فجلوا عن البلاد ، الا الجيش الذى كان امام صحار ،

فانه بقي يحاصرها . وفي هاتيك الاثناء قام رجل في مدينة النخل اسمه سلطان ابن مرشد من بني يعروبة ، فادعى الامامة (١١٥٠ – ١٧٣٨) وانتزع اكثر البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جملتها مسقط . فاستغاث سيف بالعجم ثاني مرة ووعدهم بالتخلي لهم عن صحار ان ضمنوا له الاستقلال بالامامة ، فسرح العجم جيشا الى مسقط استولى على البلد والحصون ، ولكنهم لم يسلموها الى سيف فذهب هذا الى بلدة الحزم ، ومات بعد ذلك بقليل . اما سلطان بن مرشد فمات على اثر جراحة اصابته في قتال العجم على صحار فلم يبق من الزعماء الا أحمد بن سعيد الذي كان له الفضل الاكبر في امتناع صحار ، واجلاء الايرانيين عنها . ثم ان احمد هذا لم يكتف بتخلص صحار حتى استولى على برقة وحاصر مسقط ، فارسل الايرانيون ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف الى الشاه يلتمسون منه الامر بتسليم حصون مسقط الى ماجد ، فاصدر الشاه الامر اللازم الى الحامية الفارسية بتسليم الحصون اليه ، فوقع الأمر باتفاق غريب في يد احمد بن سعيد فابلغه الى الحامية وخرج هؤلاء على انهم سلموا الحصون الى احمد بن سعيد باسم ماجد ، والحقيقة ان احمد تسلمها بالخديعة . و بعد ذلك صنع وليمة عظيمة للايرانيين في برقة ، كانت نهايتها أن الاهالي هجموا عليهم و ذبحوهم ، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل فارس ، ولما كان ملاحة السفن هم من العرب ، احرقوا السفن لاهلاك الايرانيين الذين كانوا منهزمين بها الى بلادهم ، وقذفوا هم أنفسهم في اليم ، ونجوا سباحة الى الشاطئ ومهارة العمانيين في السباحة واقتحام البحر معلومة . وهكذا انتهت غزاة الفرس ببلاد عمان .

ولما تم استخلاص بلاد عمان على يد أحمد بن سعيد ، اجتمع الرؤساء والاعيان ببلدة رستاق ونصبوه اماماً (١١٥٤ – ١٧٤١) فاحسن التدبير ، وسن للمملكة قوانين مالية ، وتجارية واستبقى لنفسه امارة الجيش البري ، وعهد الى رجل من خواصه بنظر الاسطول ، ونظم جيشا دائما . و بينما هو دائب في تدبير الامور اذ برز بلعرب بن حمير ودعا لنفسه ، واعصوصب حوله كثير من الناس ، فاراد أحمد بن سعيد ان يمتحن قومه و يعلم هل يثبتون معه الى الآخر ام لا ، فتخبأ في كسر بيت عند احدى العجائز ، وشاع خبر موته فاشتد عزم بلعرب ، وذهب بعشرين الف مقاتل يحاصر نزوة ، فبرز أحمد بن سعيد من مخبأه فوجد قومه على ولائهم له ، فزحف الى بلعرب بجيش كثيف وتغلب عليه وسقط بلعرب قتيلاً في

المعركة . وسنة ١١٧٠ وفق ١٧٥٦ استولى العجم على البصرة ، فذهب أحمد بعشر سفائن حربية تجر عـددا كبيراً من القوارب حمل عليها ١٠ آلاف مقاتل ، وهزم الايرانيين ، ونصر الدولة العثمانية نصر مؤزرا ، فسرت الدولة منه واجرت عليه راتباً سنوياً كان لا يزال جارياً على ائمة مسقط الى أواخر القرن التاسع عشر .

وكان من جملة اسطوله طراد اسمه « الرحمانى » هو الذى كسر سلسلة الحديد التى وضعها الايرانيون فى شط العرب ، لمنع اسطول عمان من الدخول الى البصرة ، فارسله أحمد ابن سعيد الى مانغالور فى جنوبى الهند سائلا عن السبب فى حجز مؤونة الارز التى كانت ترد عمان كل سنة ، فاستقبل تيبو صاحب عامل السلطان اعلم فى مملكة غرناتيك ، مندوب امام عمان بكل حفاوة ، واخبره ان السبب فى ذلك هو من متلصصة البحر الذين بساحل المالابار ، فقصدهم الطراد الى ديارهم وقتل زعيمهم .

وكانت بلاد الزاهرة بمكانها من داخلية البلاد لم تخضع تماماً لأحمد بن سعيد . وكان علو الكلمة فيها لبنى غافر ، فثار فيها أحدهم ناصر بن محمد واشتعلت الحرب بينه و بين أحمد ، فساق عليه هذا عساكره من العمانيين ومن المرتزقة من البلوجيين والمكرانيين . فانكسروا وأخيراً تصالح الفريقان على أن تبقى بلاد الزاهرة فى يد بنى غافر ، ويعترفوا بسيادة اسمية للامام أحمد بن سعيد . وكانت قلعتا النخل والحزم لاتزالان فى أيدى بنى يعروبة ، فحاول انتزاعهما من أيديهم بدون جدوى . ولم يكف كون بنى غافر مستقلين بالزاهرة و بنى يعروبة مالكين بعض الحصون حتى ثار على أحمد ولداه سيف وسلطان ، واعتصما بقلعة برقة ، ثم تماديا فى الجرأة حتى أخذا الحصون التى بظاهر مسقط ، ولكن أحمد أخذ هذه المسئلة بالتؤدة وانتهت بينه و بين بنيه بسلام . ومات هو فى ذى القعدة سنة ١١٨٨ أو يناير سنة ١٧٧٥ وقد ملك مدة ٣٤ سنة كريتا . وكان خلاص عمان من غارة العجم على يده . وكانت الامامة فى عمان من صدر الاسلام تقع دائماً بالانتخاب على حسب مذهب الخوارج . والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة والجماعة أيضاً ، ولكن تحول الأمر بعد أن صار ملكا عضوضاً الى مبايعة الوارث الذى يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك فى عمان أيضا ، فبعد أحمد بن سعيد تولى ابنه سعيد . وكان بعض الأهالى فضلوا ابنه هلالاً لفضل ذكائه وحذقه ، الا انه كان كفيفاً ، فأقرت أكثر البلاد بامامة سعيد ، ثم

غاظ الأهالى من سعيد كثرة ماقارف من الاحتكارات ، وأحدث من البدع ، فأرادوا خلعه ونصب أخيه قيس الذى كان فى صحار ، فلم يتسق لهم ذلك . الا ان حامداً بن سعيد استولى على مسقط وعجز أبوه عنه ، و بقى إماماً بالاسم فقط فجعل حامد مسقط هى العاصمة بدلاً عن رستاق ، وعظمت مسقط فى أيامه ، وتولى الأمر عشر سنوات ومات فى ١٨ رجب سنة ١٢٠٦ وكان وقع خلاف بينه و بين عمه سيف ، وفصل سيف هذا الى مستعمرات عمان فى شرقى افريقية ، فتتبعه حامد الى هناك ثم مات سيف وعقب ذلك موت حامد وكان سعيد الامام الأصلى لايزال حياً ، فاسترجع الأمر الى يده بوفاة ابنه المتغلب عليه . ولكن لم يطل الزمن حتى وقعت الفتنة بين اخوته وأولاده ، وصار بعضهم يقاتل بعضاً . وانتزع سلطان أخوه مدينة برقة من يد على بن هلال . ، ثم أخذ مسقط واستبد بالأمور . وسنة ١٧٩٨ فى ١٢ أغسطس انعقدت معاهدة بين شركة الهند الانكليزية و بين سلطان على بعض مسائل تجارية ، وتبعها معاهدة أخرى بينه و بين الانكليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ بموجبها يحق لانكلترة اقامة معتمد بمسقط .

وأخذ سلطان يمد سلطته فى البلاد ، فانتزع من يد أخيه سعيد ثغرى السويق والمصنع وافتتح جزائر قشم ، وهورمز ، والبحرين فى الخليج الفارسى ، وجعل ابنه سالماً أميراً عليها . الا ان قبيلة العتوب التى كانت تلى أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها وطردت ابنه منها ، وفى هاتيك الايام غزا الوهابيون عمان ، واجتبوا الزكاة من الزاهرة ومن الجهات الشمالية ، ووقع الخوف من تقدمهم الى الجنوب ، وكان سلطان قد حج تلك السنة فلما عاد من الحج وجد البلاد فى المقيم المقعد ، فعقد مجمعاً قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين ، فلما بلغ ذلك قائد الحملة الوهابية عجل بالانصراف ، وظهر ان الأمر استوسق لسلطان . الا انه بقضاء الله وقدره هلك بعد ذلك بقليل فى قصة عجيبة ، وهى انه زار البصرة و بينما هو قافل منها ، نزل من سفينته فى مرسى لنجة وركب قارباً قاصداً بندر عباس ، وكان الوقت ليلا ، فالتقاه ثلاثة قوارب عليها رجال من بنى الشويحى سكان رأس موسى نديم ، فأرادوا أن يقبضوا عليه ، فتقاتلوا ثم أرجأوا البراز الى الصباح ، فبينما كان سلطان بشدة بأسه وابسال نفسه على وشك الظفر بهم ، إذ فاته أحدهم بضربة كانت القاضية ، وذلك فى ١٣ شعبان سنة ١٢١٩ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ .

وكان سعيد لايزال فى رستاق على امامته الاسمية ، وكانت البلاد أشبه بالفوضى ، والامراء كانوا متعددين ، عدا كون الوهابيين لهم جند فى «البريمى» . وكان سالم وسعيد ولدا سلطان يجتهدان فى لم الشعث ، وجمع الكلمة ، فأجمعا أخيراً على استصراخ فتح على شاه صاحب فارس ، وتعهدا له بتقديم المؤونة اللازمة للتجريدة التى يريدانها ، فأمدهما بثلاثة آلاف فارس ، ركبت البحر من بندر عباس الى برقة ، وهناك وقع القتال بينها و بين الوهابيين فلم يفز أحد بالآخر .

وكان قرصان رأس الخيمة الذين يقال لهم القواسم ، قد تمادوا فى العيث ، وطالما اكتسحوا سواحل الهند ، فأرسلت شركة الهند الانجليزية أسطولاً دمر وكرهم فى ١٢ نوفبر سنة ١٨٠٩ وساقت رئيسهم حسناً بن رحمة أسيراً . و بعد ذلك استعان السيد سعيد بالانكليز على أخذ قلعة شيناس التى كانت تصدر منها الغارات على بلاد صحار ، فتمكن سعيد من القلعة فى ١ يناير ١٨١١ وقفل الانكليز الى الهند بعد أن نصحوا سعيداً بالقفول الى بلاده ، فلم يتقبل النصيحة فوافاه مطلق المطيرى قائد الوهابيين ، فهزمه وألزمه دفع الزكاة السنوية لابن سعود .

ولما خضد ابراهيم باشا ابن محمد على صاحب مصر شوكة الوهابية ، وأخذ الدرعية سنة ١٨١٨ تخلص سيد عمان من حكم هؤلاء ، وغزا جزيرة البحرين فصده العتوب أصحابها عنها وقتلوا أخاه وجمعاً من أصحابه . وكان قرصان رأس الخيمة عادوا الى عيثهم ، فغزاهم الجنرال كير Keir الانكليزى من بمباى بقوة ، وظاهره عليهم السيد سعيد ، فانتهى الأمر بعقد معاهدة بين الانكليز وحليفهم سيد عمان من جهة و بين زعماء رأس الخيمة وجوارها من جهة أخرى . وسار السيد وحلفاؤه الانكليز لقتال عرب جعلان الذين كانوا نبذوا مذهب الاباضية وتوهبوا ، وكان مع السيد ثمانية مدافع والفا بدوى ، فكسرهم الجعلانيون وجرح السيد سعيد فى يده (٩ نوفبر ١٨٢٠) .

وفى ذلك الوقت توفى الامام سعيد بن أحمد بن سعيد الذى هو آخر من لقب من رؤساء عمان بالامام ، وهو عم سعيد الذى اصطلحوا على تلقيبه بالسيد وأخيه السيد سلطان الذى كان عضداً لأخيه السيد سعيد . ولم يحدث موت الامام سعيد فراغاً كبيراً لأن أمر عمان كان بيد سعيد منذ مدة طويلة . وتوفرت همته على توسيع مستعمرات عمان فى

سواحل افريقية الشرقية فذهب الى جزيرة زنزيبار ، وغزا جزيرة مومباسه بقوة عظيمة ، وما زال يشدد عليها القتال حتى افتتحها ، وعالج فتوح بلاد أخرى فاغتنم فرصة غيابه الطويل بعض أعدائه مثل القواسم ، فرفعوا رؤوسهم واستولوا على بعض المراسى ، وأخذ حمود بن عزان صحار وهلال بن محمد بلدة السويق . واضطر السيد سعيد الى استمداد حلفائه الانكليز فأرسلوا أسطولاً الى سواحل عمان لتمكين نفوذ حليفهم ، ووقع القتال بين السيد سعيد وابن عزان على صحار ، واستعان سعيد على هذا بالوهابيين ، وبعد وقائع يطول شرحها دخل الانكليز بينهما ، وأخذوا من ابن عزان عهداً بأنه لا يأتى بحركة . ولكن لم تمض مدة حتى أراد هذا أن يوسع اطماعه فنصحه الانكليز بالسكون . وكان ابن عزان قد اعتزل الامر وترك صحار فى يد ابنه سيف ، فامتنع هذا من ايتائه جانباً من الخراج لمعيشته واشتد الجفاء بينهما الى أن ائتمر ابن عزان وبعض خواصه بابنه سيف وقتلوه ، فأرسل السيد سعيد الى ابنه توينى بان يقبض على حمود بن عزان ويطلس به فى السجن ، فقبض عليه واعتقله فى قلعة حيث مات . وخلف حمود على صحار أخوه قيس ، وأراد أن يرفع رأسه فزحفت اليه جموع سعيد ، واضطرته الى الطاعة ، وانما عوضه السيد سعيد من صحار بولاية رستاق على أن ينصح فى الخدمة ويقلع عن الجبر والخنزوانة وكان ذلك سنة ١٨٥٢ .

وعام ١٨٥٤ احتل العجم بندر عباس ومواقع أخر من ساحل كرمان ، واجلوا العمانيين عنها بعد أن شغلها هؤلاء نحو مائة سنة بحجة انهم مستأجرون أرضها ، واحيانا بقولهم انهم ينوبون فيها عن شاه العجم . فشق ذلك على السيد سعيد وأرسل قوة تحت قيادة ابنه توينى استردت بندر عباس وغيرها ، فارسل ناصر الدين شاه قوة كثيفة من الداخل ومنع الانكليز السيد سعيداً من امرار جنود فى البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم بحجة انهم لا يسمحون بحركات حربية فى ذلك البحر . فسقط فى يد السيد سعيد واضطر الى مصالحة العجم فى شعبان سنة ١٢٧٢ أو ابريل سنة ١٨٥٦ وترك لهم جزيرتى هورمز وقشم وغيرهما . ومات سعيد بعد ذلك على ظهر بارجة كانت ذاهبة به الى زنزيبار (١٩ اكتوبر ١٨٥٦) وقد خلف ١٥ ولداً ، فدعا ماجد الرابع من أولاده لنفسه ، وكان توينى بكر أولاده والى عمان فى حياة أبيه ، فوقع الخلاف بينهما وانتهى أول مرة بان يبقى

ماجد سلطاناً على زنجبار ويؤدي اتاوة سنوية الى أخيه توينى فى مسقط . ثم قطع ماجد دفع الاتاوة فجهز توينى اسطولاً عظيماً لغزو زنجبار ، و بلغ الخبر الحكومة الانجليزية فتوسطت فى الأمر وحكمت اللورد كانينغ Canning والى الهند الاعظم فيما شجر بين الاخوين ، فتقرر انه لما كان الانتخاب هو أساس السلطة عند الاباضية فان أهالى زنجبار قد اختاروا ماجداً اماماً لهم ، كما ان اهالى عمان قد اختاروا توينى ، فيكون كل منهما سلطاناً فى محله . ويؤدى ماجد اتاوة سنوية الى أخيه بدلاً من حقوق عمان على زنجبار وافريقية الشرقية (سنة ١٨٦٢) وهكذا انحسمت هذه الفتنة . ولكن جدّت فتنة ثانية ، وثالثة ، وصار توينى على حد قول القائل : كلما داويت جرحاً سال جرح . فان تركى ولد سعيد الثالث كان والياً فى صحار ، فثار باخيه توينى وألجىء هذا الى استصراخ الوهابيين لقمع ثورته . وسنة ١٨٦٤ تنزى عزان بن قيس على توينى واعلن الطاعة لابن سعود ، ولما كان الانكليز يعلمون ان الوهابية دعوة وان الدعوات الدينية لا سيما الى مبادىء السلف من الاسلام يخشى منها ، اهتموا بصدهم عن بلاد عمان ، وامدّوا توينى بالمدافع والاعتاد ، وأشاروا الى رؤساء البلاد بان ينضووا تحت لواء السيد توينى ، على شريطة ان لا يسيروا برجالهم بحراً ــ قد سبق لانكلترة هذا المنع فى النزاع الذى وقع بين ناصر الدين شاه والسيد سعيد ، فكأن انكلترة لا تطيق ان ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلاً واحداً ان لم يكن تحت رايتها ــ

ثم ان توينى بن سعيد وجد مقتولاً ، قيل اغتاله بعضهم وهو نائم بمؤامرة ابنه سالم وجلس سالم مكان أبيه وتودد الى الانكليز ، واعترف هؤلاء به أميراً بحجة انه لم تثبت عليه تهمة قتل أبيه ، و بأن أهالى البلاد قد بايعوه ، فليس للغريب أن يدخل فيما لايعنيه . أما تركى أخو توينى فانه أخذ بمناوأة ابن أخيه ، واستولى على صحار والمطرح ، وكاد يدخل مسقط لولا كون الانكليز أرسلوا بارجة حربية وقفته عند حده ، ثم أخذوه الى الهند حيث أجرى عليه ابن أخيه رزقاً يقوم بأوده . ثم ثار السيد حامد بن سالم من أبناء عمومتهم ، و بعد وقائع بينه و بين سالم جرى الصلح بينهما . ثم انتقض عزان بن قيس ودخل مسقط ، ففرسالم منها والتمس من المعتمد البريطانى فى خليج العجم امداده ليعود الى كرسى حكمه ، فأبى المعتمد المشار اليه اجابة طلبه ، فحاول استرداد مركزه بقوته الخاصة ، فلم يفلح وظهر

أن الانكليز قد خذلوه ورجحوا عليه تركى أخا توينى ، الذى كان مقيما بالهند كما سبق ، فجاء من بمباى الى مسقط وتسلم زمام الامارة ، وطرد عزان بن قيس ، وكان الوهابيون ردءا له فى حركته هذه واستوسقت له الأمور منذ سنة ١٨٧٤ وحصلت وقائع بينه و بين أهالى بلاده فتغلب على الثائرين بعضد انكلترة التى صارت هى ذات الحول والطول فى القطر العمانى . وسنة ١٨٨٨ خلفه ولده السيد فيصل بن تركى ، وذلك بموافقة انكلترة التى أصبح أمير مسقط لايصدر الا عن رأيها ، وهى منذ سنة ١٨٧٣ أخذت على نفسها دفع الاتاوة السنوية المفروضة على زنجبار لمسقط ، وصارت بمثابة الولى على هذه البلاد .

ولما كانت انكلترة منذ وضعت يدها على مصر طمعت فى الاستيلاء على جزيرة العرب بأسرها ، وعملت لذلك برنامجاً خفياً منذ مدة مديدة ، تحقق منه قسم والقسم الثانى هى شارعة فى تمهيد عقباته ، وكانت ترى أن أعظم عامل فى استيلائها على مصر وعجز أهالى هذا القطر عن دفعها عنه بوجه من الوجوه ، هو فقدهم للسلاح المادى الذى هو واسطة الدفاع الوحيدة ، فقد باشرت مشروع تقليم أظفار العرب ، وحظرت على تجارها بيع الأسلحة من أهالى اليمن ، مع كونهم يومئذ تابعين للدولة العثمانية ، و بديهى أن ذلك ليس لأجل تسهيل ادارة اليمن على الدولة العثمانية ، بل لأجل تسهيل استيلاء انكلترة على اليمن فى أول فرصة تقع ، وحرمان قبائل اليمن من أسباب الدفاع عن حوضهم ، عند ماتريد العساكر الانكليزية أن توغل من عدن ولحج الى داخل اليمن . وقد أرادت أن تجرد من السلاح أيضا قبائل العراق التى كانت اطماعها تحوم حوله من قبل الحرب العامة بزمن طويل ، فكانت ترسل من قبلها من يبتاع البنادق من عرب العراق ، و يؤدى الى البدوى عن البندقية الواحدة ضعف ثمنها ، والبدو لايعلمون ماوراء الاكمة ، ولا يشعرون بما هو مخبأ لهم وراء هذه المكايد الخفية من الائتمار بكيانهم ، والعمل لنزع كل وسيلة لحفظ استقلالهم . وقد نبهنا الأمة العربية مراراً فى مقالاتنا العديدة منذ بضع عشرة سنة الى السر الحقيق فى منع بيع السلاح من أهل اليمن ، وفى انتزاع البنادق الحديثة الطراز من أيدى عرب العراق بصورة الشراء . وكان يحول دون سماع النصيحة الجهل الفاشى ، والغفلة المطبقة من جهة ، وسعى اجراء الأجانب فى البلاد العربية ، والضاربين على أوتار الانكليز ممن يدعون أنهم من مفكرى العرب فى ترويج السياسة الأجنبية الاستعمارية من جهة

أخرى . ولقد كشفت نتيجة الحرب العامة حقائق تلك الدعاوى والحمد لله ، وفضحت أسرار تلك السياسة الخفية ، وعرف كل من عنده حصاة من عقل مرمى الدول المستعمرة من تجريد العرب من السلاح ، وكونها انما تريد منذ زمن طويل أن تطبق فى جزيرة العرب سياستها فى مصر ، وان لم يتسق لها أن تؤسس لخفر السواحل العربية ادارة كادارة خفر السواحل المصرية ، وتفحش فى مجازاة من توجد عنده بندقية ممنوعة ، وتجزل مكافأة كل من يخبر بوجود بندقية ممنوعة عند جاره ، فانها كانت ولاتزال تنوى الوصول الى هذه الغاية من سبيل أخرى ، الى أن يتيسر لها فيما بعد تطويق جزيرة العرب كلها بادارة خفر فعلية ، تمنع وصول أى سلاح الى العرب ولو من طريق الجو . ولقد كان من جملة مواد معاهدات الحلفاء فيما بينهم بعد الحرب العامة ، منع تسريب السلاح ، وحظر بيع السلاح الى كل :لمكة من ممالك الأعداء بتاتاً ، ولما رأوا أنه قد يعترض عليهم بأن مملكة الحجاز مثلا هى من جملة ممالك الحلفاء ، وان مملكة العجم ، ومملكة عمان ، ومملكة أفغانستان مثلاً ، وان لم تكن من ممالك الحلفاء فليست من ممالك الأعداء ، والحال أن الدول الاستعمارية تعد جميع البلاد الاسلامية بدون استثناء ممالك أعداء ثم انه يجوز أن هذه الممالك تسعى فى شراء أسلحة من أوروبا فيصعب فيما بعد ابتلاعها أوكسرها ، فقد احتاط الحلفاء لذلك بوضع مادة فى تلك المعاهدة قيل فيها « ويمنع بيع الأسلحة أيضاً من الممالك التى مدنيتها من الدرجة الثانية » فدخلت فى حكم هذا المنع جميع الممالك الاسلامية الباقية على الاستقلال تماما أو نوعا . والمقصود من ذلك غير خاف ولا على الطفل الصغير وهو ان البلاد الاسلامية صديقة للحلفاء أوعدوة لهم محكوم عليها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلايجوز لها أن تتسلح . وأما مملكة عمان فقبل الحرب العامة بسنتين حاولت انكلترة تجريد أهلها من سلاحهم حتى تريح بالها من جهتهم ، وتأمن كل انتقاض فيما لو زادت بسط سلطتها عليهم ، فأوعزت الى تيمور أمير مسقط بجمع الأسلحة من أيدى الأهالى ، وأصرت عليه بذلك . فلما حاول هذا الأمر انتقض عليه الأهلون ، وبايعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب ، وزحف الثوار الى مسقط وحصروا الأمير ، وكادوا يوقعون به لولا أن وردته نجدة انكليزية حفظت له حياته ، وصدت الأهالى عن مسقط ، ولم تنته هذه الفتنة التى استمرت نحو سنتين الا باقلاع الأمير عن فكرة جمع السلاح ، واقتناع انكلترة بان

سهمها فى هـذه القضية طائش عن المرمى ، وانها لاتقدر الا على منع دخـول السلاح من طريق البحر ، فأما أخـذ الأسلحة من أيدى العرب فى أرضهم فليس من الأمانى الانـكليزية التى يمكن تحقيقها .

هـذه مملـكة عمان التى كانت أقوى دولة بحرية فى آسية ، لافى بلاد العرب وحـدها والتى قرأت فى بعض المؤلفات الأوربية انها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ بارجة حربية ، قد آل أمرها بتلاعب انكلترة بأمورها الى أن سقطت عن عزها وعاد بدرها عرجوناً وصارت امارة صغيرة لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، ولا يقدر أميرها أن يأتى بأمر مهما كان تافهاً الا اذا أشار به المعتمد البريطانى . فنزف هذه الحقيقة الى أولئك البله الذين من أبناء جلدتنا لا يزالون يحلمون بأن انكلترة لابد أن تؤسس لهم دولة عربية . . . .

وأما زنجبار والمستعمرات التى كانت لعمان فى شرق أفريقية ، فقد تقاسمتها انكلترة مع ألمانيا وايطالية ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنزيبار سوى اسم السلطنة فقط . وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلو متراً مربعاً معدودة من أخصب البقاع ، وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ، ومعاصر الزيت ، وأهلها ٢٠٠ ألف نسمة منهم عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ، ومن الواحاديمو أى أهـل الجزيرة الأصليين ، ومن البانيان أى الهنود الشماليين . وكانت زنزيبار مع جزائر بمبا Pemba ومافيه Mafia ولامو Lamou والسواحل الافريقية المقابلة لها مملـكة عربية ، أسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط ، بعـد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون ، فوضعت أيديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على أن يكون لانـكلترة سلطنة زنزيبار التى هى عبارة عن جزيرتى زنزيبار و بمبا وما يقابلهما من الساحل من « اوانغا » Auanga الى كيسمايو Kismayou .

وأن يكون لألمانيـة جزيرة « مافيه » والساحل الذى بين اومبه Oumba ورافومه Ravouma وأن يكون لايطالية بعض ثغور فى السواحل .

وأهم هـذه النقاط هى زنزيبار ، وفى الجزيرة مدينة باسم زنزيبار أيضاً أهلها ١٠٠ ألف نسمة وهى مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادرها و واردها بنحو ٦٠ مليون فرنك وقد كان سلاطين عمان أسسوا فيها عمراناً وأثلوا مدينـة وشادوا مدارس . وقرأت بعض

أسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية فى زنزيبار .

وخاتمة سلاطين زنجبار اسماً وفعلاً ، كان السيد برغش بن سعيد بن سلطان ، تولى الأمر فى ٧ اكتوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة أخيه ماجد ، وبقى فى الملك الى أن توفى فى ٧ مارس سنة ١٨٨٨ ، وكان برغش قد نازع أخاه ماجداً الملك وأخذه الانكليز الى بمباى حيث أقام سنتين ثم تصالح مع أخيه وعاد الى زنزيبار . ولما مات ماجد خلفه على كرسى الامارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانية العظمى أى مآربها الاستعمارية . وفى ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٥ أجبرته انكلترة على امضاء معاهدة الغاء الرقيق فى بلاده ، فأمضاها ثم دعاه الانكليز الى زيارة انكلترة فزارها ، وزار فرنسا والبرتغال . وفى سنة ١٨٨٥ ألقت ألمانية دلوها فى الدلاء ، وأرادت تأسيس مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التى كانت تخص السلطان برغش بن سعيد ، ووضعت يدها على جانب عظيم منها ، واستبقى برغش لنفسه السلطنة الاسمية . وقبل وفاته بقليل اختلف مع البرتغال على الحدود بين أراضيه ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف الى مابعد وفاته حتى جرى التحديد بين الالمان من جهة والبرتغال من جهة أخرى . وفى آخر حياته ذهب الى وطنه الأصلى عمان لتبديل الهواء ثم عاد الى زنزيبار ومات وخلفه أخوه خليفة .

وكان برغش متوقد الذهن ، عالى الهمة ، صعب المقادة ، أبىّ النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للاوربيين الذين كانت لاتخفى عليه مقاصدهم ، وكان واسع العلم بأطوارهم وأحوالهم . ومن بعده لم يبق للعرب من سلطنة فى تلك الجزائر الخصيبة ، والسواحل الطويلة العريضة الا بالاسم ، لأن الاوروبيين لاسيما الانكليز التزموا هدم أركان القوة العربية فى تلك الديار ، حتى لايبقى لهم معارض ولا منازع فى استعمارها ، وكما انهم أوهنوا الأصل الذى هو عمان ، فقد أسقطوا الفرع الذى هو زنجبار ، لأن كل دولة عربية عزيزة على جوانب الاوقيانوس الهندى هى قذىً فى أعينهم ، وخطر على الهند فى نظرهم ، ويجدون انهم لايقدرون أن يعلوا فى تلك الديار الا بسقوط العرب على حد قول القائل : —

وكم قائل مالى رأيتك راجلاً فقلت له من أجل أنك فارس

وسيأتى ذكر سواحل زنجبار ومستعمرة الشرق الافريقية التى كانت لالمانية ثم انتقلت الى يد انكلترة وجزائر القومور مما كان الحكم فيه كله للعرب فابتزته منهم الدول المستعمرة الأوربية .

البكطاشية

للأمير شكيب

البكداشية أو البكطاشية[١]، طريقة من الطرق الاسلامية ، تنسب الى أحد الأولياء المسمى « الحاج بكطاش ولى » ، الذى يقولون انه ولد « بنيسابور » وجاء الى الاناضول ، وهدى الانكشارية الى الاسلام ، فى زمان السلطان « أرخان » ، وكانت له كرامات وخوارق عظيمة ، وهو الذى أسس الطريقة المعروفة به . ولكن كثيراً من المحققين يرتابون بوجود الحاج بكطاش هذا ، ويقولون ان المؤسس الحقيق لهذه الطرية ، هو « باليم بابا » المتوفى سنة ٩٢٢ هجرية ، والذى يلقبه الدراويش البكطاشية بالقطب الثانى . ولقد ثبت وجود هذه الطريقة منذ أوائل القرن السادس عشر للمسيح فى الاناضول ، ثم انتشرت فى الروملى وأكثر من مال اليها أمة الأرناؤوط ، حتى يقال ان أكثر هذه الأمة بكطاشيون . وان الفرقة المعروفة بالاناضول ، وببلاد الأكراد بقزل باش أو على الهى ، هى على عقائد تشابه مذهب البكطاشية وان كان هؤلاء جميعاً يدعون كونهم من أهل السنة والجماعة ، فالحقيقة ليست كذلك ، وهى انهم من غلاة الشيعة ، يعتقدون بامامة الاثنى عشر من آل البيت ، ويعظمون كثيراً جعفر الصادق ، ويقولون بالأربعة عشر ولداً معصوماً ، الذين أكثرهم ماتوا شهداء من أولاد على . ويزورون قبور الأولياء ، ويصلون ويدعون عندها. ويزعم مؤرخو الافرنج انه لابد أن يكون البكطاشيون فى الأصل نصارى ، بحجة ان عندهم التثليث ، وذلك بقولهم : « الله : محمد . على . » وان عندهم نوعاً من الاعتراف بالذنوب يذهبون الى مشايخهم ويسردون لديهم ذنوبهم ، والشيخ يحل من الذنب نظير القسيس عند النصارى. وهم يبيحون الخمر ، والنساء لايسدلن النقاب ، وكثير من البكطاشية يتبتلون ويعيشون مجردين من الأزواج ، مما جميعه يدل على كون أصل هذه الطريقة غير اسلامى وأكثر المتبتلين منهم كانوا ينقطعون فى تكية « قيزل دلى سلطان » بقرب « ديموطوقة »

---

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

من ولاية أدرنه . ويعتقد البكطاشية بالعدد لاسيما عدد أربعة ، ويقرأون كتاب فضل الحروف المسمى « بالجاويدان » ويقولون بالتناسخ ، والشائع عنهم انهم لايقومون بفرائض الدين الاسلامى ، فلا صلاة . ولا زكاة ، ولا صوم ، ولا حج ، وانهم وقد رفعوا هذه التكاليف ، بحجة انها تجب على المبتدئ لا المنتهى ، وانه بعد الوصول يصبح الانسان فى حل منها .

والشيخ الأكبر للطريقة يقيم بتكية « بيرأوى » أى بيت القطب ، فى المحل الذى يقال له « حاجى بكطاش » بين « قيرشهر » و « قيصرية » . وليست هذه الرئاسة ارثية فى الأصل ، وانما هى منذ ١٥٠ سنة فى بيت واحد تنتقل من الأب الى الابن ، وللبكطاشية المتبتلين شيخ كبير أيضا ، مركزه التكية المسماة « مجرد باباسى » أى « أبو المتبتلين » . ويسمى شيخ كل تكية « بابا » ، والدرويش المقيم بالتكية « مريداً » والعامى الذى له تعلق بالطريقة « منتسباً » .

وكان للبكطاشية شأن كبير ، وكانوا على رباعهم فى أيام « وجاق الانكشارية » الذين كان البكطاشية لهم شيوخاً ومرشدين ، حتى أصبح اسم « بكطاشية » يطلق على الانكشارية كلهم . وكان فى تكنة الأورطة الرابعة والتسعين ، وكيل مقيم للطريقةمعروف رسمياً ، لذلك كان كلما ثار الانكشارية يشترك مريدو الطريقة البكطاشية معهم فى الثورة الى سنة ١٨٢٦ ، إذ استأصل السلطان محمود شأفة الانكشارية ، فانقضت صواعق نقمته على جماعة الحاج بكطاش ، فتهدم قسم كبير من تكاياهم ، لاسيما ماجاور منها الاستانةوقتل بعض رؤسائهم ومريديهم ومنهم شيخ تكية « مردفان كوى » .

ثم استأنفت الطريقة البكطاشية بعض ماكان لها من الشأن والحول ، ولها من التكايا فى الاناضول غير مركز القطب الأكبر ، وغير تكية المتبتلين تكية « عثمانجق » فى الشمال . وتكية بقرب ضريح الشيخ بطال ، من جوار اسكيشهر ، ويقال ان لها تكية بجبل المقطم بمصر .

البابية

لأمير شكيب

البابية ، نسبة الى « الباب »[1] ، طريقة شهيرة ، ظهرت فى بلاد العجم ، بل هى من أشهر الفرق الاسلامية التى ظهرت فى العصر الأخير ، وتميزت بكون أتباعها لم ينحصروا فى الشرق والعالم الاسلامى ، بل وجد منهم فى أوربا وأميركا أيضا . ولفظة الباب متداولة كثيراً عند الصوفية ، وعند بعض الفرق الباطنية ، يطلقونها على بعض أركان دعوتهم ، بمعنى أنهم هم واسطة الدخول ، وسبب الوصول ، من قبيل قوله ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلى بابها . » والباب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يوجد فى داخل البناء من البدائع والنفائس وحزرات الأنفس ، مما كان يبقى مجهولا عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب فالباب عند المتصوفة وعند هذه النحل ، هو رمز الدخول ، والابتداء ، والواسطة والملح ، والمعرفة ، وجميع أنواع المقاصد العالية ، وقد شاع استعمال لفظة الباب فى هذه المقامات كلها عند جميع الأقوام الذين يعتمدون على اللغة العربية ، وامتد الى غيرهم . « فالباب العالى » هو مكان الوزارة ، لأنها هى الواسطة بين الراعى والرعية . والكتاب المؤلف يقسمونه الى أبواب ، فيقولون الباب الأول ، والباب الثانى ، والباب العاشر ، والباب العشرون ، اذ بهذه الابواب يطلع القارئ على ما يتضمنه الكتاب . ويقولون أبواب الرزق ، بمعنى وسائله ، وأبواب الخير بمعنى الطرق المؤدية اليه ، وقولهم : « يامفتح الابواب » يعنون به ياميسر الاسباب . والفقراء يقفون عند أبواب الكبار وأبواب الملوك ، والسائل الذى يستجدى ويتكدى يقال انه « على باب الله » وقد أخذ الطليان هذه الجملة من العربية فى لغتهم « Ala Baballa » بمعنى السائل . والحاصل ان الباب من أكثر الالفاظ العربية تداولا ، وقد كنى بها الكثيرون عن الوسيلة والواسطة ، ولكن لم يشهرها أحد بمثل ما شهرها به السيد على محمد الشيرازى ، الذى سمى نفسه « الباب » ، بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية ، وتبعه اناس تلقبوا من أجله بالبابية .

---

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

ولد السيد المشار اليه فى غرة محرم الحرام سنة ١٢٣٦ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ وتوفى والده وهو صغير ، فكفله خاله ورباه الى أن بلغ الرشد ، فشرع يشتغل بتجارة والده ، ولكنه منذ نعومة أظفاره كان مغرما بالبحث فى الامور الاعتقادية ، نازعا الى النسك ، حتى قيل انه حمل نفسه على التقشف والتعبد الشاق ، بحيث كان يقعد الساعات الطوال فى عين الشمس حاسراً عن رأسه . ثم زار كربلاء ، ولقى هناك بعض رجال الطريقة الشيخية ، فتلقى عنهم ، وسمعت انه أخذ عن رجل يقال له الشيخ البحرينى . ولما عاد الى شيراز شرع يقرأ فى المساجد ، ويحمل فى الجدال على رجال الدين ، فمال كثيرون الى مذهبه ، وحطبوا فى حبله ، ثم ذهب الى الحج من طريق أبو شير ، فسقط فالبحر الاحمر . وأثناء رحلته الى الحج الف بعض رسائل يقال ان اتباعه يعتقدون ما فيها وحياً أو الهاماً . ومن جملة ما نسب اليه انه قال ان عليا هو قبل نبيل . ونبيل هو عندهم اسم محمد ﷺ وقد أطلعنى بعض أدباء العجم على مؤلف بالعربية لا أعلم درجة مطابقته لتعاليم البابية ، لاننا تعودنا من أهل الفرق الكبرى شرقا أو غرباً وفى الاسلام أو فى النصرانية ، انه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيهة . يقول فى ذلك المؤلف ان الانبياء أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم ، وبعد آدم نوح ، وبعد نوح ابراهيم ، وبعد ابراهيم موسى ، وبعد موسى عيسى ، وبعد عيسى محمد (صلوات الله عليه وعليهم جميعاً) وبعد محمد الباب مؤسس هذه النحلة المسماة بالبابية . فما انتشرت تعاليم الباب حتى ثار الناس وكثرت القالة ، وكرث الامر الحكومة الفارسية ، فأرسلت رجلا يقال له يحيى الدارابى للتحقيق عن هذه العقيدة الجديدة ، فذكروا أنه هو نفسه اعتقد بها وتحول بابيا ، ثم ظهر وباء الريح الاصفر فى شيراز فبرح أكثر الاهالى المدينة ، وتحول الباب الى اصفهان ، وكان حاكمها رجلا يقال له « معتمد الدولة » فألقى الله فى قلبه الرحمة على الباب فدفع عنه الاذى بقدر استطاعته ، الا أنه توفى بعد ذلك بقليل ، فصدر الامر لخلفه بالقبض على الباب واعتقاله ، فأرسلوه الى قلعة « ما كو » باذربيجان .

وكان رجل يسمى حسين البشروى ، قد تبع مذهب الباب ، وأخذ يبث له الدعوة ؛ فكان ممن قبلوا هذه الدعوة فى طهران الاخوان « ميرزا يحيى نورى » الملقب بعد ذلك

« بصبح أزل » و « ميرزا حسين على نورى » الملقب فيما بعد ببهاء الله ، وهما فرعان من دوحة كريمة وكذلك خاتون اسمها « زرين تاج » ولقبها « قرة العين » كريمة الملا صالح البارا كانى من قزوين كانت بارعة فى الجمال متناهية فى الذكاء ، اتبعت المذهب البابى على أثر مراسلات سبقت لها مع الباب . وأخذ يستفحل شأن الباب شيئا فشيئا حتى أجمع اتباعه على عقد اجتماع للتشاور فى بدخت من خراسان ، وعقب هذا الاجتماع أجمعت الحكومة الفارسية على استئصال شأفتهم ، فاجتمعوا وقرروا المدافعة عن أنفسهم بالسلاح ، واعتصم الملا حسين البشروى فى مقام الشيخ الطبرزى فحاصره جند الحكومة، وهلك فى اثناء الحصار واشتد الضيق بالبابية المحصورين ، وعضهم الجوع بنابه ، فطلبوا الامان ، ولكن لم يكادوا ينتهون من الاتفاق على التسليم ، حتى غدر بهم الجند فذبحوهم على بكرة أبيهم (١٢٦٥ هجرية). وثاروا فى بلدة يقال لها زنجان، واستولوا على قلعة على مردن خان، وجعلوا لانفسهم متاريس ، و لكنهم اخيراً استسلموا الى جند الدولة . وذهب يحى الدارابى الى ناريز ، وكان ، اهلها ناقين على الدولة أموراً فانضموا اليه واعتصموا بالقلعة . ووصل بعض البابيين الى شاه العجم قاصدا قتله ، وكأن الله اراد موته على يد واحد منهم لكن فى اجل آخر اما فى المرة الاولى فانه أصيب بجرح ، وحماه اجله من الموت ، وعند ذلك صحت عزيمته على النقمة ، واشتغر الامر ، وكان ذلك فى ٢٨ شوال سنة١٢٦٨ الموافق ١٦أغسطس ١٨٥٢ ، فتعقبوا البابيين فى كل سهل وجبل وجدوا فى أثرهم الى كل وبر ومدر ، واخرجوا صبح ازل واخاه بهاء الله الى بغداد ، ثم ارسلا الى ادرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ثم وقع الخلف بين الاخوين ، فارسلت الدولة بهاء الله الى قلعة عكا ، وصبح ازل الى جزيرة قبرص . وقيل بل قبض على بهاء الله ثم أطلق سبيله فاستأذن فى الذهاب الى كربلاء واقام اولا ببغداد . وقبضت الحكومة الفارسية على الملا كاظم بتهمة انه من البابية وقتل فى اصفهان ، وقتل ايضا ميرزا أشرف الآبادى ، وذلك فى عهد متأخر (سنة ١٨٨٨) وقتل عدد كبير سوى هؤلاء ، وانهزم كثيرون من البابيين الى عشق آباد فى الاراضى الروسية ، وبنوا هناك جامعاً خاصاً بهم واما قرة العين فانهم اخرجوها لعهد الباب نفسه الى بغداد ، و انزلوها فى بيت الآلوسى مفتى بغداد ، فاقامت مدة طويلة عنده ، و كان من يطعنون فى البابية يشنعونها ، ويقولون فيها ، الاقاويل ، كما هى العادة فى حق من فارق الجماعة ، الا أن الآلوسى قال فيما بلغنى :

«ماعهدت عليها من سوء » وكانت تناظره وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، حتى قال لى المرحوم عباس افندى الملقب بعبد البهاء ، ابن بهاء الله امام البابية ، وابن امامها ، ان قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتى الآلوسى على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله . وانشدنى الامير فرمان فرما عبد الحسين ابن عم شاه مظفر الدين وصهره والذى تولى الصدارة فى فارس ، ابياتاً بديعة من نظم قرة العين على اسلوب غريب ومأخذ طريف ، البيت منها ما سداه فارسى ولحمته عربية ، وهى ابيات فى مناجاة الحضرة الالهية مطلعها عربى كله ثم تشفعه بابيات محبوكة من اللغتين ، اما المطلع فهو : —

لمحات وجهك اشرقت وجمال طلعتك اعتلى

وكان الامير فرمان فرما يحفظ شعر قرة العين ولده الامير فيروز خان ، (الذى صار ناظراً للخارجية بعد الحرب العامة) ويستنشده اياه وهو بعد فى عهد الطلب عند ما قدم فرمان فرما الى سورية واصطاف بجبل لبنان منذ نحو خمس وعشرين سنة ، واتيح لنا يومئذ حظ معرفته وصحبته .

أما الباب فانه لما تعاظمت فتنة البابية وسالت فيها الدماء جئ به من قلعة ماكو الى تبريز وقررت الحكومة قتله مع صاحبه محمد على اليزدى ، فرفعوه واوثقوه بحبل ثم رموه بالرصاص ، فاصابت الرصاصة نفس الحبل فانقطع ، وسقط الباب حياً ، فعد ذلك اتباعه من كراماته ، ثم علق ثانية ونفذ فيه أمر الله ، وطرحت تجاليده فى حفرة ، فجاء اتباعه واخذوا جسده الى طهران ، حيث أبقى مخبأ على ما يقال تسعاً وعشرين سنة ، وبعد ذلك دفن بفارس ، ، وقيل ان بهاء الله بعث فأتوه بالجثة الى عكا ، حيث دفنها هناك وكان قتل الباب فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٦٦ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠

أما من جهة تعاليم البابية فقد اختلفت الاقوال كثيراً ، وطعن فيها اناس كثيرون ، من جلتهم السيد جمال الدين الافغانى . ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل شريعة جديدة ، حال كون الشرائع كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية . فاما اذا تلقاها الانسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن فى الطرق الصوفية المتعددة ، فانه يجد فيها كثيراً من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة . وعلى كل حال فاننا لا نتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل ، اذ كان ما قرأناه فى باب البابية نقلا عما حرره فى هذا الباب بعض المؤرخين تأثره

كما وجدناه ، تاركين عهدته على رواته . قال المسيو هوارت Huart المستشرق الفرنساوى المشهور ، فى فصل له على البابية ، فى الانسيكلو بيدية الاسلامية الفرنسوية ما يأتى : « ان الباب تحت اسم اصلاح فى الاسلام وضع ديانة جديدة ذات عقائد ومبادئ ، ورشحها لهيئة اجتماعية جديدة . فالله واحد ، وعلى محمد الباب هو المرآة التى ينعكس بها النور الالهى ، ويمكن كلاً ان يشاهده بها . قال الباب : «ينبغى ان تجعلوا من انفسكم ومن اعمالكم مرائى حتى لا تروا فى هذه المرائى سوى الشمس التى تحبونها » هكذ ورد فى كتابه « البيان العربى » . ثم ان الله خلق العالم بسبع صفات تسمى « احرف الحق » وهى القدر والقضاء ، والارادة ، والمشيئة ، والاذن ، والاجل ، والكتاب . ولحساب الجمل دور عظيم ، وعدد ١٩ هو عدد مقدس ، اذ تجده حاصلاً من كلمة « واحد » وكلمة « وجود » . وبحسب ما ورد فى بيان الباب تنقسم السنة الى ١٩ شهراً كل شهر منها ١٩ يوماً . ويجب أن تكون ادارة امور الفرقة بيد جمعية مؤلفة من ١٩ شخصاً ، والى هذه الجمعية تدفع سنوياً ضريبة مقدارها خمس الاموال ، هذا اذا لم يطرأ على رأس المال نقص تلك السنة . وواجب على المؤمن ان يؤدى هذه الضريبة ، الا انه لايحق للسلطة الدينية ولا للسلطة الدنيوية ان تجبره على دفعها بالقوة . وجميع اصناف العقوبات ممنوعة الا الغرامة والحيلولة بين الرجل والمرأة فترةً من الزمن . والتجارة حرة ، والعقود فى التجارة مرعية ، ودفع فائدة على البضائع التى تباع الى اجل معين مباح . ثم ان الزواج من بعد سن الحادية عشرة أمر مفروض (كان يمكن الظن أن الناقل ذكر سن الحادية عشر سهواً لأنه باكر جداً ولكنه ذكر ذلك بالحروف لا بالارقام واشار الى وروده فى الصفحة ١٨٧ من بيان « الباب » والله أعلم) والطلاق مكروه (وهذا من السنة : ما من حلال أشد كرهاً عند الله من الطلاق) ويعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا . والزوجان اللذان تفارقا يمكنهما أن يستأنفا زوجيتهما بعد شهر من الطلاق وذلك الى حد ١٩ مرة . والارامل من الرجال والنساء عليهم ان يتزوجوا بعد الترمل بمدة مضروبة للرجال ٩٠ يوماً وللنساء ٩٥ يوماً والا فالغرامة . ولا يجوز ضرب الصبي فى الكتاب قبل سن الخامسة ، واما من بعد هذه السن فيجوز ضربه على شرط أن لا يتجاوز ذلك خمس ضربات ، وان يوضع غطاء على محل الضرب . والادب من الوصايا الملتزمة عند البابية . ويسوغ لبس الحلى والجواهر ولو تجاوز

ذلك ما حدده الشرع . ويجب كل سنة صيام شهر واحد ١٩ يوماً من مشرق الشمس الى مغربها . والتكليف يقع من سن ١١ الى سن ٤٢ سنة . والوضوء مستحب وليس بفرض . ولا بد من وجود حمام للاغتسال فى كل حارة . ويجوز رؤية جميع النساء بدون نقاب ، والكلام معهن بدون حرج ، الا انه لا بد من الحشمة والاقتصاد فى الكلام معهن ، ويستحب أن لا يزيد كلام الرجل مع المرأة الغريبة على ٢٨ كلمة . ويجب أن يزار البيت الذى ولد فيه الباب ويبنى هناك مسجد ، وكذلك البيت الذى اعتقل فيه وبيوت الكبار من اصحابه . ولا يستحب السفر الا فى تجارة ، ولا ركوب البحر الا فى حج أو اتجار ، ولا تلزم صلاة الجماعة الا على الجنائز ، ولكن الوعظ فى الجوامع مندوب . ولا يوجد رجس بعد الايمان بل كل من اتبع هذا المذهب فقد تطهر بمجرد اتباعه اياه ، وكل ما تحوزه يده صار طاهراً واما الماء فهو طاهر ومطهر . ثم يجب على البابى ان يقرأ كل يوم ١٩ آية من بيان « الباب » ، ويذكر اسم الله ٣٦١ مرة . ويدفن الاموات فى قبور من البلور أو من حجارة منحوتة ومصقولة . ويوضع فى يد الميت اليمنى خاتم منقوش عليه « لكيلا يستوحش الموتى فى قبورهم » ولا يجوز لاحد ان يعتدى على احد ولا ان يكسر خاطر احد . واذا خاطبك احد أو كاتبك فلا بد لك من أن تجاوبه . واذا استودعك احد كتاباً لترسله أو توصله فعليك بتأدية هذه الامانة . وان الاشربة المتخمرة والمسكرات غير جائزة . وكلما مضت ١٩ يوما فلا بد للمؤمن من دعوة ١٩ رجلاً الى طعام أو شراب ، ولو لم يكن سوى الماء القراح . ولا يجوز الاستعطاء ولا اعطاء السائل ، بل التصدق على السائل اثم . اما تقسيم تركة الميت فيؤخذ منها من رأس العرمة نفقات الجنازة ، ثم يأخذ الاولاد تسعة انصبة و المرأة ثمانية والاب ٧ والام ٦ والاخ ٥ والاخت ٤ والمعلم ٣ ولا يرث وارث غير هؤلاء .

ولعلى محمد الباب عدة كتب منها « البيان » هذا بالعربى والفارسى ، وكتاب « بين الحرمين » و « تفسير سورة يوسف » انتهى .

هذا تعريب كلام المسيو هوارت الذى يقول انه اخذه من بيان الباب مشيراً فى كل وصية من هذه الوصايا الى الصفحة التى قرأها فيها .

ثم ترجم المسيو هوارت نفسه بهاء الله ميرزا حسين على نورى فى حرف ب ه من

دائرة المعارف المذكورة فقال : ـ

« انه ولد فى نور من بلاد المازندران فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان أخوه لأمه ميرزا يحيى الملقب بصبح ازل قد أخذ بهذه العقيدة من قبل . ولم يشاهد بهاء الله الباب بذاته لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مريديه بل سبق الجميع فى هذه العقيدة ، وشحط الاولين والآخرين فى هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلى بعد الامام فى المحراب . وفى سنة ١٨٥٢ أبعدته الحكومة الفارسية الى بغداد على أثر محاولة أحد البابيين قتل الشاه وتعاظم الفتنة ، فأقام بنواحى السليمانية معتزلاً معتكفاً مشيراً الى أنه هو الرجل الذى بشر بمجيئه الباب فى قوله « من يظهره الله » ووضع هناك قواعد الدعوة التى قصد جعلها ديانة عامة . ثم نقل الى أدرنة سنة ١٨٦٤ ، ثم الى قلعة عكا فى شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ حيث أدركته المنية فى ٢٩ مايو (ايار) سنة ١٨٩٢ ، تاركا خلافته الروحية الى ولده الاكبر عباس افندى الملقب عبد البهاء .

« وأما عقيدته فقائمة بأن لا يؤذى الانسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضا ، ويتحملوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يشتغلوا الا بالخير ، وأن يوطئوا اكنافهم ويعنوا بأمر المرضى . هذه هى مبادئ البهاء وهى كما ترى صدى النصرانية . والغاية من هذه الحياة هى السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التى يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن تؤسس لها معهداً للاجتماع تجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة أعضاء يقال لها « بيت العدل » ويكون دخل هذا البيت من التركات التى لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ فى المائة على رأس المال ، يؤدى مرة واحدة لا غير . وممنوع فى مذهبه التقشف والتبتل ، لان الله خلق الانسان وأحل له الطيبات من الرزق . وللبهاء تآليف أهمها « الكتاب الاقدس » (طبع فى بمباى وبطرسبرغ) وكتاب « الايقان » (ترجمه دريفوس وحبيب الله الشيرازى فى باريز سنة ١٩٠٤) ، وطرازات كلمات فردوسية واشراقات وتجليات (ترجمت فى كتاب قواعد البهائية سنة ١٩٠٦) « وكلمات مكنون » (مطبوع بباريز سنة ١٩٠٥) و « دروس عكا » التى جمعتها مادام كليفورد بارناى Mm.Cliford Barney و « النور الابهى » (مطبوع

بلندرة سنة ١٩٠٨) ترجه عن الاصل الفارسي المسيو دريفوس

وأما كلمات البهاء الأخيرة فقدنشرها تومانسكي في بطرسبرج سنة ١٨٩٢ . وللدريفوس المذكور كتاب على البهائية وتاريخها وأثرها الاجتماعي وقد ذكرها براون Eda.G.Brawne في كتابه : « سنة بين العجم » . انتهى

هذا ما نقله المستشرق هوارت عن البابيــة والبهائية أثرناه كما هو وعربناه بدون زيادة ولا نقصان ، والعهدة في كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم .

ومما لا جدال فيــه أن البهاء وأولاده بمقامهم هــذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا بأشخاصهم معروفين لدى أهالي بلادنا المعرفــة التامة . بحيث صفا جوهرهم عن أن تعتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد الالسنة . فاما البهاء فقد أجمع أهل عكا على أنه كان يقضي وقته معتزلا معتكفا ، وانه ما اطلع له أحــد على سوء ، ولا مظنة نقد ، ولا مدعاة شبهة في أحواله الشخصية كلها . وقيل انه عرضت خصومة بين ولده عباس أفندي و بعض المتمولين على حدود أرض فوصلت الى المرافعة فكتب البهاء الى ولده : « ياعباس أتتنازعون وتترافعون على حفنة تراب ؟ » فترك عباس الدعوى من فوره .

وأما أولاده فكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد علي ، وضياء ، وبديع الله ، وقــد اعتبط منهــم ضــياء شابا وفي عام ١٩٢٢ انتقل الى الدار الآخرة عبــد البهاء عباس ، وقــد ذرّف على الثمانين . وكان آية من آيات الله بما جمع الله فيــه معاني النبالة ، ومنازع الاصالة والمناقب العديدة ، التي قــل أن ينال منها أحد مناله ، أو يبلغ فيها كماله ، من كرم عريض وخلق سجيح ، وشغف بالخير ، و ولوع باسداء المعروف ، واغاثة الملهوف ، وتعاهد المساكين بالرفد بدون ملل ، وقضاء حاجات القاصدين بدون برم ، هــذا مع علو النفس ، وشغوف الطبع ، ومضاء الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وسرعة الخاطر وسداد المنطق ، وسعة العلم ووفور الحكمة ، و بلاغة العبارة ، حتى كأن فصاحته صوب الصــواب ، وأقواله فصــل الخطاب ، وكتاباته الديباج المحبر ، وفصوله الوشي المنمنم ، يفيض بيانه جوامع كلم ، وتسيل عارضته سيل عارض منسجم ، ويود اللبيب لو أقام العمر بمجلسه يجني من زهر أدبه البارع ويرد من منهل حكمته الطيبة المشارع استولى من المعقول على الامد الاقصى ، وأصبح في

الالهيات المثل الأعلى ، و بلغ من قوة الحجة ، واصالة الرأى ، و بعد النظر ، الغاية التى تفنى دونها المنى حتى لو قال الانسان انه كان أعجو بة عصره ، ونادرة دهره ، لما كان مبالغا ولو حكم بأنه من الافذاذ الذين قلما يلدهم الدهر الا فى الحقب الطوال ، لكان قوله سائغا ولقد كان يمكن أن يكون محيط فضله أوسع ، وأفق علمه أناى ، لو عاش فى احدى العواصم الكبر التى يتسع فيها المجال لمثله ، ويكون فيها المحيط على نسبة نباهة قدره ، وسراوة نبله ولكن ضاق الميدان على الفارس ، وصغر الكرسى عن الجالس ، واعتاض من سعة المحيط وعظمة المقر ، بحسن أخلاق أهالى عكا وكرم طبائعهم وكونهم قدروه وأهله قدرهم ، وعرفوا نبلهم وأحلوهم المحل اللائق بهم ، فرفه بذلك عيشهم ، ووفرت حرمتهم وذهبت حرشة غربتهم ، ولانت خشونة نبوتهم ، ورافقهم الى منفاهم هذا نحو مائة وخمسين شخصا من اتباع طريقتهم من الايرانيين ، ليس فيهم الا صاحب صنعة أو عمل ، وهم جميعاً قائمون على خدمة هذا البيت الكريم ، قد هجروا أوطانهم حباً بجواره . وكان عباس افندى يكنفهم بظله و يتعاهد جيعهم بفضله ، وكان أحسن الله منقلبه مستوفيا شروط الرئاسة ، ذا وقار فى رسوخ الجبال ومهابة يقف عندها الرئبال ، وحشمة لا ترى الا فى الملوك أوفى صناديد الرجال ، ومع هذا كله فكانت مجالس حكمته مطرزة باللطائف ، ومحاضر جده مهلهلةً بالرقائق ، وكانت رسائله على كثرتها تتلى وتؤثر ، وتحفظ حفظ النفائس فى الخزائن وتدخر ، وانى لا حفظ له كلمات من كتاب مداعبة بعث به الى أحد أصحابه من شعراء بيروت وهى « من صيدك فى صيدا ، وحيفك فى حيفا ، ونفخك فى الصور ، ونقرك فى الناقور » تعلم من هذه الكلمات المعدودة ملكته الأدبية ، وقدرته على التصرف بزمام العربية ، مع انها ليست لغته الأصلية . ولووسع المكان لاوردنا له كثيراً من بدائع الترسل الدالة على تمام ملكته ، وسمو طبقته . وكانت له مع هذا العاجز مراسلات متصلة باتصال حبل المودة ، وعمران جانب الصداقة ، ومراراً قصدت عكا ولا غرض لى فيها سوى الاستمتاع بأدبه الغض والاغتراف من علمه الجم ، وداورته مرة على الكلام فى موضوع العقيدة البابية بدون أن أسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت أجئ اليه من باب المعاريض استطراقا ، وأحاول أن أحله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عما اذا كان من الممكن تمثيل الصفات الهية فى أحد البشر اشارة بدون تصريح ، الى ما يقال من كون الباب أو

البهاء هو مجلى الصفات الربانية على الأرض ، فأجابنى بأن الصفات معان ، والمعانى لاتتجسم ولا تتشخص ، وان المجردات لا تتجسد ، وأفاض فى هذا الموضوع بالنفى وتبيين وجوه الاستحالة . فأجبته : « فلماذا يقال اذاً ان بعض البشر يمثلون الصفات الالهية على الأرض أو انهم مظهر الالوهية فى الخلق ؟ » فقال لى : « ليس الأمر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداده . » وكررها : « بقدر استعداده ، بقدر استعداده » ففهمت من هذا أن مقصودهم هو كون بعض النفوس هى مستعدة للكمال أكثر من سواها ، فهى تقتبس من النور القدسى بقدر صفائها . وان هذا مبلغ عقيدتهم فى الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس افندى نفسه ، الذى كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من البابيين . وانى أتذكر أنه كان يشرح مرةً عقيدة القضاء والقدر فقلت له . « الا أن هناك من يقول فى التعريف ماهو كذا وكذا » فقال « هؤلاء هم العوام » . قلت له : « كلا بل من العلماء من يقول هذا » . فقال : و « العلماء فيهم عوام أيضاً » .

ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فنهم من يقول انهم زهاء مائة ألف نسمة فى العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ ألفاً . ويقال ان منهم بالهند ، وبمصر ، بين الايرانيين المقيمين بهذه الحاضرة . ومنذ نحو ٢٠ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمريكا وأنها قد ترجمت عقيدته الى الانكليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون . وان من جملة دعاة هذا المذهب رجلاً مسيحياً من أدباء لبنان من قرية بحمدون . وقيل ان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة البابية بأمريكا كانوا يراسلون دائماً عبد البهاء عباس افندى ، ويستفتونه فى المسائل ، ويستوضحون رأيه فى المشكلات الدينيه ، ومنهم من جاء من أميركا حاجاً اليه ليفوز برؤيته . ومما نعلمه أن عباس افندى بعد إعلان الدستور العثمانى وانطلاق حريته أن يذهب أين شاء ، سافر الى أميركا ، وتعاهد المريدين الذين له هناك . وبعد أن أقام بها مدة يخطب ويعظ ويبث الدعوة ، جاء الى أوربا وطاف على المريدين الذين فيها ، ثم قفل الى عكا ، وبقى فيها الى أن لبى دعوة باريه فى حيفا سنة ١٩٢٢ .

ولسنا نعلم عدد البابيين الذين بأميركا ، فيقال انهم صاروا بضعة عشر ألف نسمة . أما فى أوربا فانى كنت سنة ١٩١٩ بمدينة برن كرسى حكومة سويسرة ، وأثناء ذلك انعقدت فى هذه المدينة مؤتمرات اشتراكية وشعوبية ، على أثر الحرب ، ومن جلتها مجمع اسمه المؤتمر السلمى الشعوبى ، كنت ممن شهده وخطب فيه مرتين ، وقد حضره أناس من

أمم مختلفة ، ومن جملتهم رجل المانى اسمه البروفسور يك ، كان يتردد كثيرا الى الاستانة أيام الحرب ، وكان يلزق بامبراطور المانيـة ، وهو الذى أسس فى الاستانة ناديا سموه «نادى الولاء التركى الالمانى» ، فالاستاذ «يك» هذا قدم لى رجلاً ليست بطاقة اسمه بين يدى هذه الساعة ، وانما أتذكر أنه قنصل حكومة نورويج فى شتوتغارت عاصمة ورتمبرغ كما أن «يك» هو نفسه من هـذه المدينة ، فعرفت من القنصل المذكور أنه رئيس الجماعة البابية فى شتوتغارت ، وكلفنى فيما لو كتبت الى عبد البهاء أن أكتب اليه سلامه ، واستعلمت منه عن عدد الفرقة فى بلدهم ، فزعم أنهم يناهزون أربعـة آلاف نسمة ، وأن محل اجتماعهم هو فى بيته وأن ميعاد اجتماعهم نهار الأحد كل أسبوع . وسألتـه عما اذا كان يوجد منهم فى غير شتوتغارت من ألمانية ، فقال لى ربما وجـد فى غيرها شذاذ ، ولـكن معظم الفرقة هو فى شتوتغرت ، وعلمت منه أن عبد البهاء عباساً زارهم على أثر رجوعه من أميركا .

بقى ثمة شئ لو أهملناه لـكان خللا بواجب المؤرخ ، وجديراً بأن ينسب الى الضلع ، وهو أنه بعد انتقال بهاء الله الى الدار الباقية ، وقع الخلف بين أولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد على افندى ، وضياء افندى ، وبديع الله افندى ، من جهة ثانية . وهؤلاء الثلاثة هم أشقاء ، فاشتدت الشحناء وعجز الأحباء عن اصلاح ذات البين ، واتخذها من لايخلو منهم مكان من عقارب الشر ، ليحطبوا فيما بينهم بالفساد ، وكانت دعوى عبد البهاء أن اخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى اخوته أنه خالف وصايا والدهم فى كثير من الأمور . ولم يكن يخلو عباس افندى لعظم أنفته ، وشفوف حسه ، من حفيظة طبع ، وسرعة انفعال ، تذهبان به الى حد الحدة ، وتنبوان به عن درجة الحلم ، كأنما جاء ذلك عوذةً لمحاسنه ، وتميمة لتمام نبـله ، فأبى فى آخر الأمر قبول اخوته ، وتمكنت النفرة من قلبه ، لما كان صدر منهم بحقه ، وأصر على الجفاء ، حتى بعـد أن سلموا له ، وما زال على الصرم والهجران الى أن توفاه باريه فى السنة المـاضية ولم يعقب ولداً ذكراً ، فيقال انه لم يستخلف أحداً من أخويه الباقيين ، وانه أشف عليهما حفيده من أولاد بنته فوقع الخلاف أيضاً بعـد موته ، وانقسمت الفرقـة البهائيـة الى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البهاء ، ومنهم من لايرى له حقاً فى ذلك ، و يوجب انتقال الزعامة الى أخيه السيد محمد على افندى ، الذى هو من الرشد . والعقل . والعلم . والفضل . وسعة الصدر . وطهارة الأخلاق . وجميع أدوات الرئاسة . بالمقام الذى يقر به كل من عرفه . والذى لايدانيـه فيه أحـد من البهائية فيما نعلم .

المبادىء الاشتراكية فى الاسلام

للأمير شكيب

فى الشريعة الاسلامية مبادىء اشتراكية ، عظيمة[(١)]، متينة ، تفترق عن المبادىء الاشتراكية المعروفة فى أوربا . بكون المبادىء الاشتراكية الاسلامية أوثق ، وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون ، لانها فى أوربا أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم . حال كونها فى الاسلام أوامر إلهية لامحيد للمسلم عن انفاذها اذا أراد أن يبقى مسلماً . فان الزكاة الشرعية هى من أركان الاسلام . وهى أخت الصلاة . وقد ورد ذكر الزكاة مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة فى القرآن الكريم كما لايخفى . فلو قام المسلمون بايتاء الزكاة على الوجه الشرعى . وأدوا واحداً من عشرة من غلات أراضيهم . واثنين ونصفاً فى المائة من نقودهم وواحداً من أربعين من حيواناتهم . أو كما هو مبسوط فى كتب الفقه . لم يبق على وجه الأرض مسلم واحد يصح أن يسمى فقيراً . وكان الأولى بمن يدعون المسلمين الى الاشتراكية ويبثون هذه الروح فيما بينهم لتكون سبباً للبغض والشحناء واثارة حرب الطبقات . الثائر عجاجها فى أوربا واميركا . أن يدعوهم الى إقامة هذا الركن العظيم من أركان دينهم الذى هو الزكاة . بشرط أن ينظموا جمعها وكيفية انفاقها . وتجعل لها الحكومات الاسلامية نظارة خاصة بهـا . وتحمل الأمة كافة عليها . فكان ينتفى بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين . ويقل تفاوت الطبقات فى درجات الرفاهية . وتتوفر وسائل التمريض . والمؤاساة والتعليم . وتشمل نعماؤها الجميع بدون منة غنى على فقير . ولا اعتداد كبير على صغير . لأنه كما لايجوز لمسلم أن يمن ويعتد بكونه يصلى . لايقدر أن يمن ويستطيل بكونه يزكى . ولكن نقول مع الأسف الشديد . ان المسلمين . الا النادر . أهملوا الزكاة . وتهاونوا بفرائض الدين ولذلك هم مهددون اليوم بخطر الاشتراكية . والشيوعية التى لابد من أن تنفذ مبادئها

(١) راجع صفحة ٢٦٢ من هذا الجزء

اليهم مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها الى الشرق . واننا لانرى مجناً تتقى به هيئة الاسلام الاجتماعية هذه الفتنة القادمة عليها لاريب فيها سوى القيام بفرض الزكاة على الوجه الشرعى . على شريطة أن يكون لها وزارة أو ادارة فى كل حكومة اسلامية . تنظم أمر استيفائها . وطريقة انفاقها . تنظيما بحيث اذا دخلت الاشتراكية على بلادالاسلام . دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق. بل كانت سبباً لاحياء فرض من أقدس فروض الدين الا وهو الزكاة . ومما لاينبغى أن ننساه ان الاشتراكية تتفق مع الاسلام فى نفى الجنسية والقومية . إذ كما ان المسلم لابد أن يعترف باخاء المسلم أياً كان أصله وفصله . فالاشتراكى لابد أن يتضامن مع الاشتراكى فى أى وطن كان . ومن أى أمة كان . وان فضل الوطنية على الاشتراكية . كان شأنه شأن المسلم الذى يفضل القومية على الاسلام .

الشهيد أنور باشا ورفقاؤه

الأمير شكيب

انه لما أخلى الجيش البلغارى جبهة الحرب أواخر صيف عام ١٩١٨ ، طلب البلغار الصلح من الحلفاء ، وتقدمت جيوش هؤلاء نحو البلقان بالغة خمسمائة ألف مقاتل ، سقط فى يد دولة اوستريا - هنكاريا فأسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركيا ، فخافت أن يتحول جانب من تلك الجيوش على الاستانة . فأخذ أنور باشا[1] ناظر الحربية يحشد من بقى من العساكر للدفاع عن العاصمة ، واسترجع اليها أكثر العسكر الذى كان أرسله الى القوقاس ، وفتح به باكو وبلاد اذربيجان وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب المانية الى أن يتيسر صلح خفيف الوطأة على الأقل . ولكن انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسوية ، واستيلاء الوهل على القلوب واعتقاد معظم الاتراك بل معظم الناس يومئذ ان الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون ، فتبقى كل أمة مالكة للبلاد التى أكثر سكانها هم منها ، كل ذلك أحبط مساعى أنور باشا فى الاستمرار على المقاومة ، ومال الرأى العام حتى من الاتحاديين أنفسهم الى طلب الهدنة . فاستعفت وزارة طلعت باشا ، وحلت محلها وزارة المشير احمد عزت باشا الارناؤطى ومعه رؤوف بك ناظراً للبحرية ، وفتحى بك ناظراً للداخلية ، والتمس الباب العالى الهدنة ، وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبل كارهاً للحرب راغباً فى عقد الصلح ، فحمل حكومته على اتمام ذلك بأسرع ما يمكن . فأنفذت الوزارة الجديدة وفداً فيه رؤوف بك الى جزيرة مودوروس أمام الدردنيل ، لعقد المتاركة مع الانكليز وانعقدت حينئذ على شرائط ظهرت ثقيلة جداً فى أول الأمر ، لكنها صارت خفيفة جداً فيما بعد . عند مادخل الحلفاء الاستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو أقامت الحلفاء على شروط مودوروس بعينها . وظهر لها ان الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به فى أثناء الحرب وما تعهدوا به فى نص المتاركة ، وان برنامج ويلسون صار نسياً منسياً وكان من جملة ماقرره الاتحاديون فى أثناء الهدنة برأى رئيسهم طلعت باشا ، الغاء

(١) راجع صفحة ٢٦٦ من هذا الجزء

فرقة الاتحاد والترقى وتأليف حزب جديد اسمه « تجدد » ، وكان ذلك من جملة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسى ، بدون ابقاء الاسم الذى كان من شأنه تنفير الدول الغالبة ، وتجفل الرأى العام فى ذلك الوقت . وكان مرادهم اعتزال الحكومة موقتاً ، الى ان تكون انتهت تلك الأزمة ، وانعقد الصلح على وجه من الوجوه . ولكن لما قارب أجل دخول الحلفاء الى البوسفور واستيلاؤهم على الطرق براً وبحراً ، جاء من أنبأهم بأن السلطان وحيد الدين الذى كان من الأصل ناقماً عليهم يتربص بهم الدوائر قد يتفق مع الانكليز ، فيلقى القبض عليهم ، وقد يحاكمون ، ويصلبون ، بحجة قتل الأرمن وما أشبه ذلك . فعقدوا اجتماعاً فى بيت أنور حضره أركان جمعية الاتحاد والترقى ، والذين كان بأيديهم الزمام عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرات الطويلة ، عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة وهم الذين كان عليهم أكثر سخط الحلفاء : طلعت. وأنور . وجمال . وعزمى والى بيروت الأسبق ، وبدرى مدير البوليس الأسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكرى ناموس جمعية الاتحاد والترقى ، وكان هذا صديقاً حميماً لطلعت ألصق الناس به ، فلحظ طلعت منه انه فى نفسه لايميل الى السفر وانما أراد أن يرافقه حبا ووفاء فقال له : « ان كنت لاترغب فى الباطن فى هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من أجلى » . فبقى مدحت شكرى بك فى الاستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافة المانية ، جاعلين وجهتهم القريم . ووقع ذلك فى أوائل نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٨ ، وبلغنى من أحدهم انهم فى الطريق تذاكروا فيما يجب أن يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التى حاقت بهم ، وبالأمة العثمانية بسببهم ، إذ كانوا لايشكون فى الأهوال التى ستبطش بالاتراك وسائر المسلمين على أثر هذه الدائرة العظمى التى دارت على ألمانيــة وحلفائها . فذهب أنور الى أنه يجب أن ينضموا الى البلاشفة ، ويثيروا تركستان . والقوقاس . ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتى الله بالفرج أو يموتوا . فخالفه طلعت فى هذا الرأى وقال : « نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققنا غضب الأمة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . فأقصد الطرق أمامنا هو أن نذهب الى أوربا . ونقبع فى زوايا العزلة . ولا نأتى بأدنى حركة ولا نطمع فى شئ . بل ننظر الى ما يأتى به الدهر . فان لاحت لنا فرصة بعد مرور الأيام وكر العشى . اهتبلناها . ولكننا فى الوقت الحاضر لايليق بنا الا الانزواء والاعتزال . وترك النضال والنزال . فقد

أردنا أن تنقذ أمتنا ونرقى وطننا . فلم يسعفنا القدر . فلنترك هـذا الأمر لغيرنا . ويظهر ان الباقين أجمعوا على رأى طلعت وما زالوا يدوكون فى ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القريم . وكانت الجنود الالمانية محتلة تلك البلاد فهيأوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين المانيـة فوصلوا الى محطة كان لابد لهم أن يبيتوا فيها . فلما أصبحوا لم يجدوا أنور بينهم . وعلموا أنه استقل قطاراً يأخذه الى الشرق . مصمماً على ما كان اعتزمه من الاستمرار على المقاومة وكانت وجهة أنور القوقاس . حيث كان أخوه نورى ومعه طائفة صالحة من الجند . وكان يؤمل اثارة المسلمين الذين فى اذربيجان وفى الطاغستان . وقـد قال لى عزمى بك والى بيروت : « لو كاشفنى أنور بمـا فى نفسه من الانفصال عنا ذاهباً الى القوقاس لرافقته . ولـكننا أصبحنا فوجـدناه قد مضى » فأما الستة الباقون فجاءوا الى ألمانية كما سيأتى خبر ذلك فى محله .

وأما أنور فبعد أن سار مسافة فى البر ، وصـل الى مرسى من مراسى القريم ، ولما لم تـكن هناك بواخر ولا سفن شراعية كبيرة ، استقل قارباً بقلع صغير ، وسار به قاصداً القوقاس ومعه خدمه :ـــ ففى أثناء الطريق ، ثار البحر وكاد يقلد عليهم ، بحيث اضطروا لصغر الفلك أن يقذفوا فى اليم جميع الحقائب التى كانت معهم ، ورجعوا أدراجهم الى ساحل القريم . فنزل أنور ملتاث المزاج ممـا أصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقى متخبئا فى تلك البلاد الى أن أبل من ذات الرئة التى حصلت له ، فجاء أولا الى المـانية لم يعلم به أحد الا اثنان أو ثلاثة ، بل همس خبره حـتى عن رفاقة طلعت وجمال وعزمى الخ . وكان أنور كتامة لا يوجد أقدر منه على اخفاء مافى نفسه ، وكتم حركته ، وذلك بخـلاف طلعت ، الذى وان كان أدهى من أنور ، وأعلى كعباً منه فى السياسة ، فقد كان فاووهة يبيح بكل مافى نفسه . وبقى أنور متخبئاً تارةً ببرلين ، وطوراً باحدى المزارع فى أرباضها ، طلع سنة ، والناس لايعلمون من أمره شيئا وثيقا ، والجرائد الانـكليزية تـكتب أنه ظهر فى القوقاس ، وأحيانا أنه فى التركستان ، وآونة أنه فى كردستان ، وغير ذلك وهو فى الحقيقة فى ألمانية لم يبرحها بعد ، الى أن جاء «رادك» الزعيم البولشفيكى المشهور الى برلين ، فعرف به أنور وطلعت وتلاقيا معه ، وأجمعا على الحركة مع البولشفيكى . ولما كانت الطرق يومئذ بين ألمانية والروسية مسدودة ، استصحب أنور الدكتور بهاءالدين شاكراً ، واستقلا طيارة قاصدين

الروسية ، فقبل أن وصل بهما ربان الطيارة الى الروسية ضل الحدود ونزل بهما الى الأرض ، ظناً بأنه نازل بأرض روسية ، فاذا بهم نزلوا بأرض « لتونيا » وكان الحلفاء وقتئذ مسيطرين على كل تلك الديار ، فقبضت الحكومة المحلية عليهم ، ووقفتهم ، فادعى بهاء الدين شاكر أنه طبيب ذاهب الى الروسية من قبل الهلال الأحمر العثمانى لمعالجة أسرى الأتراك ، وقال أنور انه ممرض من مستخدمي الهلال الأحمر ، فعرّف أولو الأمر فى لتونيا عنهما المؤتمر الذى كان منعقداً بباريز ، فورد الجواب من المسيو كلمنصو رئيس المؤتمر . بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ويرسلوا ذلك الى باريز ، فأخذوا الصور والأجوبة التى جاوباها واعتقلوهما منتظرين ورود الجواب من كليمنصو . وفى أثناء ذلك كان أنور بعث الى الألمان يخبرهم بما وقع معه ، وكان قسم من العساكر الألمانية لايزال محتلاً بلاد البلطيك فأجابوه بأنهم يرسلون اليه طيارة يمكنه أن يفر بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان وكان أنور وبهاء شاكر يخرجان كل يوم للنزهة بعد الظهر بخفارة شرطى مسلح . فلما كان اليوم المعين خرجا على عادتهما للنزهة ، وتوجها الى المكان الذى ستأتى اليه الطيارة بحسب تعريف الألمان لهما سراً ، فأبطأت الطيارة فى الوصول حتى كادا يقطعان الأمل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان . واذا بها قدظهرت فى الجو ثم اسفت ولمست الأرض فأقبلا عليها هما والشرطى الذى معهما كأنهما ينظران ماخطبها ، ولما قربا منها وجدا فيها جندياً معه بندقية ، ثم أخذا يتأملان فى أدواتها ويتخللان داخلها والشرطى لايشك فى كونهما محبين للاستطلاع ، الى أن استقلا مقعدها وبدأت تنقاد ، فعرف الشرطى أنهما قد فرا وأن الأمر مدبر ، فى الحال صوب نحوه أنور البندقية منذراً اياه بالرمى ان أتى بحركة ، فأبلس الشرطى أولا ، ثم أطلق عليهم فيما بعد بندقيته ، ولكن الطيارة كانت قد علت فى الهواء أمداً بعيداً . وبهذه الكيفية نجا أنور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطيارة الى المانية ، ولما وصل خبر فرارهما الى المؤتمر بباريز ، وكانوا قد عرفوا من صورهما انهما أنور والبهاء شاكر ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد حتى لايتهم الحلفاء بالتفريط ويهزأ بهم ، مع أن الجرائد كلها كانت قدنشرت الخبر قبل أن تحقق منهما . ثم ركب أنور طيارة ثانية قاصداً موسكو ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عرض فى الجو ، وكادا يهلكان فأسفا الى الأرض . ثم استقل طيارة ثالثة وذهب بها الى موسكو حيث وصل سالماً . وأنزله

البولشفيك فى قصر قبالة « الكرملين » لا أظن يوجد مثله فى أوربا فخامة وأبهة . واتفق معهم على العمل يداً واحدة لمقاومة الحلفاء ، لاسيما انكلترة ، ثم جاء الى موسكو جمال وبدرى فدخلا فيما اتفق عليه أنور مع البولشفيك من الألف (التدبير على العدو من حيث لا يعلم) على انكلترة . وفى هاتيك الأيام جاءت عائلة أنور الى برلين من الاستانة ، فجاء هو من موسكو الى برلين وشاهد حليلته التى هى ابنة أخى السلطان ، ولم يلبث أن عاد الى موسكو ، ولكنه هذه المرة ذهب فى البر من طريق Réval عاصمة استونيه . وكان معه رجل روسى شيوعى فقبض عليهما فى ريفال وطلس بهما فى السجن ، تحت شبهة أنهما من دعاة البولشفيك . وادعى أنور أنه من مأمورى الهلال الأحمر التركى فلم يثقوا فى قوله وأخذوا رفيقه المسكوبى يضربونه ضرباً أليما حتى يقر من هو هذا التركى الذى معه فتجلد على كل ذلك الجلد والضرب ولم يقر بشىء ، ولكن كانت نظارة الشرطة ترى من سيماء انور وشمائله وحسن صورته ، شيئا ينبئها انه ليس بمأمور بسيط الحال كما يقول . ولذلك كانت تلح عليه فى الابانة عن حقيقة امره ، وكان هو مصرا على الكتمان ، الى ان خطر لهم أن يضربوه يوما كما ضربوا الروسى رفيقه و بينما هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الانكليزية التى كانت هناك تفرس فيه النجابة والكرامة فقال لهم « مثل هذا لا يجوز ضربه » فخلوا بعد ذلك سبيله . وكانت مدة اقامته بسجن ريفال نحو شهرين ، وجعلوه مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس . وجاء الى موسكو فاقام بها مدة ثم عاد الى برلين لصلة الرحم . وتلاقيت به هذه المرة بعد مكاتبة سبقت بينى وبينه حينما كنت فى سويسرة . ثم ذهب ايضا الى موسكو ومعه بضعة نفر من الاتراك ، وكانت سفرته هذه فى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢٠ ثم عاد الى برلين اول مرة ثم ذهب وعاد ثانى مرة وذلك فى اواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩٢١ وهذا آخر عهده رحمه الله بأسرته . وولد له مولود ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة اشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهده . وذلك انه اختلف فى آخر الامر مع البولشفيك واثار التركستان عليهم ، واستشهد فى هذه الحرب فى اوائل اغسطس سنة ١٩٢٢ . وتحرير الخبر انه كان بين انور ومصطفى كمال وحشة من قبل ، فلما اسس مصطفى كمال حكومة انقرة ، كان انور بدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس وحاول ان يجعل لها فروعا فى الاناضول ، فعارض مصطفى كمال فى انتشار هذه الفروع بحجة انها قد تؤدى الى الخلاف والشقاق

حال كون الدفاع الوطني يقضى بتوحيد الكلمة . فنقم انور عليه هذه المعارضة وعدها
استبداداً ونقاسة ، وازداد الجو بينهما سفوراً بحيث انه لما جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق
سابقا الى طرابزون ، بادر مصطفى كمال باخراجه منها ، وكذلك عند ماورد عزمى بك والى
بيروت الاسبق مدينة ارضروم ، ارسل اليه بأن يبرحها حالا ، ثم يقال ان مصطفى كمال اقصى
من الجيش القواد المعروفين بالاخلاص لانور ، فكان انور يحتقد عليه هذه الامور كلها
وكنا ننصحه ان لا يوسع هذا الخلاف ولا يدع للقالة سبيلاً واحدى المرار كنا عنده
مجتمعين بمنزله فى غرونفالد بظاهر برلين فبينت له وجوب الوئام مع مصطفى كمال مادامت
هذه الحرب بين الاتراك والحلفاء قائمة وكون خبر هذه المنافسة يسوء وقعه فى العالم الاسلامى
جميعاً ، وأيد كلامى هذا الدكتور ناظم ، فلم يجاوب انور لاسلباً ولا ايجابا ، وكان من اقدر
خلق الله على كتمان ذات صدره كما سبق ، ولم يكن انور ممن يستطيره الغضب ، ولا ممن ينطلق
لسانه بطعن ولا لعن ، ولا قذيعة ، لم يعهد احد ان رآه غضبان ولا ان سمعه شاتما ، وكان
عجيباً فى هذا الامر لا يباريه احد فيه ، واذا اراد أن يشكى لاذ بالمعاريض وعمد الى
الاشارات ، بدون سلاطة لسان ، فكان قصارى قوله فى مصطفى كمال ان الادارة فى الاناضول
غير سائرة على مبدأ العدل ولا المساواة وان الامة لم تتحمل استبداد السلطان عبدالحميد وهو
ابن عثمان حتى تتحمل استبداد غيره . وكان بعض اخصائه يكتبون اليه من هذا القبيل مايثير
حفيظته ، فكنت ابين له دائما مايلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الاحدوثة ، ولو كان على
حق فى بعض مايشكو منه . ولما فارقته فى موسكو فى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ لم انس وانا
على ثنية الوداع الاخير ، ان احذره من التهور فى الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وايقاد فتنة فى
ذلك الوقت الذى يتحتم فيه الاتحاد التام بين الاتراك ، و يظهر ان مصطفى كمال نفسه ارسل الى
حكومة موسكو يشكو من حركات انور ، ويلتمس منها ان لاتمد انور بشئ مما كانت وعدته
به من مال وسلاح . فامسك السوفييت بعد ذلك عن اجابة طلبه من هذه الجهة ، وجعلوا ذلك
عذراً لهم بعدم الامداد ، وانا ما صدقت اصلاً منذ البداية ان البولشفيك كانوا يريدون
الجنب بضبع أنور فعلاً وتمكينه من القتال والنضال ، وانما كانوا يأخذونه بالرويغة و يمنونه
الامانى ليبقى فى يدهم ، وليهددوا به انكلترة ، و ينالوا منها وطرهم على ظهر اسمه مع
التيقظ التام لحركته وحركة اعوانه ، والحذر من سريانها الى مسلمى الروسية الكثيرى

العدد . لا سيما ان انور اعلن الحكومة الحمراء مراراً انه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وان النقطة الجامعه بينه و بين البولشفيك هى مقاومة الحلفاء لا غير . والحال ان البولشفيكيين لا يركنون الا الى من كان شيوعيا مثلهم قولا وفعلاً . وكنت نبهته مراراً الى خطر اقامته بموسكو قائلا له . « ان الحمر لا يجهلون انك اكبر دعاة الجامعة الاسلامية اليوم وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الانكليز لها أو اكثر ، لأن فى الروسية لا أقل من ٣٥ مليون مسلم جميعهم متصلة بلادهم بعضها ببعض و بسائر بلاد الاسلام ، وهم يذكرون ماضى ملكهم وسابق عزهم ، فلا شك ان الروس يحسبون الف حساب للحركة الاسلامية بين هؤلاء ، ويحذرون منها ومنك بنوع اخص . وهم اذا كانوا يعلنون للعالم الاسيوى استعدادهم لمناصرته ، وتحفزهم لمعاضدته ، فى موقف تحريره هذا ، فلا يعملون ذلك الا على شرط البلشفة ، ولا ينصرون الاسلام وهو على قواعده الحاضرة ، اذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسى ما يرى الانكليز على الهند ، فكان انور يجاوبنى اننى انا تعهدت لهم بأن لا آتى بحركة اسلامية فى ارضهم واقنعتهم بأن عندنا شغلا آخر مع غيرهم ،وحسبنا ان نخلص انفسنا من سيطرة الانكليز ولقد علموا أنه لما ثار بهم أخى نورى فى القوقاس وقاتلهم وقاتلوه نهيته عن قتالهم ، واعلنت عدم رضاى عن عمله ، حتى اجهضته عن تلك الثورة . فكنت اقول له « الا أن ذلك لا يمنع حذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأى عندى ان تبرح موسكو الى بلاد أخرى قبل أن يقع الخلاف بينك و بينهم ، فاما أن تقيم هذه المدة بالمانية ، وأما أن تذهب الى بلد مثل افغانستان حيث يستقبلك أميرها براً وترحيباً » . وكان الامير امان الله خان قد أرسل الى انور باعلى رتبة فى مملكته ، مع نفحة مالية ، وكتاب اطلعنى هو عليه قد أوسعه به لطفا وتشريفا . فلم أقدر على اقناعه بترك موسكو ووقع الذى حذرناه . اذ لما يئس انور من حمل الروس على امداده بالمال والسلاح ، ورأى ان كل ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقا خلباً ، وكانت غايتهم منه ان يهددوا به الانكليز و يجعلوه رقيبا لمصطفى كمال حتى اذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور ، بدأ انور يضمر العداوة للحمر ، وفتح اذنه لاقوال المسلمين التتر الذين كانوا يطالعونه بما فى انفسهم من السخط من جراء نهب البولشفيك لاملاكهم واموالهم وسعيهم فى بلشفة المسلمين واهدارهم دماء الألوف ، وعشرات الالوف منهم ، فى اذربيجان ، وقازان ،

وتركستان وطاغستان ، ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التى بذلوها باعطاء هذه البلاد الاسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة الروسية القومية ، و بطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين ، الى غير ذلك مما وقر فى نفس أنور ، وحداه على تغيير سياسته ، والرجوع الى سياسة أخيه نورى ، الذى كان يعذله على ممالأته للبولشفيك . فصار أنور يترقب فرصة للتملص من موسكو ، و ينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذى أنزلوه به حبسا . الى أن زحف اليونانيون نحو أنقرة وصار الأتراك يتقهقرون الى الوراء ، وخيف من دخول اليونان أنقرة ، فاستأذن أنور البولشفيك بالسفر الى القوقاس قائلا : « اذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل ، أو سقطت انقرة ، فلا يسعنى الا تجنيد من يمكننى تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاس ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين » . فساعده البولشفيك بالسفر وانخدعوا بكلامه ، فهبط مدينة باطوم ، وأقام بها مترقبا الاخبار عن الأناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك فى معركة سقاريا ، وارتداد اليونان الى الوراء علم أن لم يبق محل لدخوله الأناضول ، فولى وجهه شطر تركستان ، وذهب الى هناك وهو يعلم انه سينهض بيزلاء ، و يعالج مرتقى عقبة كأداء . اذ لما فصل من باطوم كتب الى جمال عزمى بك والى طرابزون الاسبق [1] يوصيه بتعهد أمور عائلته ببرلين و يقول له انه لا يعلم هل يتيح له القدر الاياب الى أهله أم لا وهذا دليل على انه كان موطنا نفسه على الموت . وكان ذهابه من باطوم فى أواخر أغسطس سنة ١٩٢١ متنكراً ومعه رفيق واحد يدرعان الظلماء و يتلحفان السماء . وأما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه الا بعد أيام ، وكان هو أجمع فى نفسه على الانفصال عنهم ، و برئت قائبةٌ من قوب . ولست أعلم ماذا جرى معه فى تركستان تفصيلا ، ولا أى طريق سلك الى هناك وقصارى ما علمت من خبره بعد بلوغه تلك الديار ، انه دخل بخارى وعضد فيها الحزب الاميرى ، و بطش بدعاة البلشفة وأولئك الذين يقال لهم « مجددى » أى الحزب الجديد الذين يمشون بين أيدى الحمر ، وانها استجمعت له هناك جميع الأمور وأخذ الأمر كله بيده ، وانضم اليه السواد الأعظم من الأمة ، وأرسل فى تلك الاثناء صورته بالزى البخارى الى أهله وشاهدتها عندهم ببرلين ، وكان فى نيته أن يستقدم السلطانة امرأته عن طريق الهند وافغانستان .

---

(١) هو الذى اغتاله الارمن مع بهاء الدين شاكر شتاء سنة ١٩٢٢ فى برلين

ولكن لم يكن زال الخوف من كرة البولشفيك ، بل بعد ان استوسقت له أمور مملكة بخارى ، وأزال البولشفيك وأشياعهم منها ، مد الصارخة الى خيوه والى فرغانة التى كانت فتنتها لم تخمد من أول انحلال القيصرية ، فعمت الثورة أكثر التركستان ، وهاجم أنور عساكر البلاشفة فى مواطن عديدة ، وظفر بهم ، وغنم منهم مدافع واعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الأوربية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها أولياؤه وأحبابه ، لا بل المسلمون جميعا ، وظن كثيرون ان قد استتب له الفتح ، ولكننى كنت متوجسا عليه خيفة هذه المطوحة ، معتقداً صعوبة موقفه وقلق وضبنه . وفى هاتيك الايام شاع أن البولشفيك دعوه الى الصلح ، فقيل انه أبى ، وقيل بل اختلف معهم على الشروط . وعلى كل حال كنت أرى الصلح أولى اعامى بما ينقصه من السلاح والعتاد ، ولذلك عندما كنا فى جنوى لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٢٢ الماضية ، قابلت تشيتشرين الذى كان رئيس الوفد الروسى فى المؤتمر وكنت عرفته بموسكو وتحادثت معه مراراً ، وبعد أن أبدينا وأعدنا فى القضية العربية ، سألته عن خطب أنور ، ولم أكتم عنه انه لم يكن من الحكمة أن يفلتوا مثل أنور من أيديهم ، وانه كان من الممكن ارضاؤه بشىء من الأشياء . فأخذ يشرح لى عما فعله أنور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة أنقرة ، وما أقامه وأقعده من أحوال تركستان ، وكيف القى الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سببا فى هذه المصائب التى سالت فيها الدماء الخ فتكلمت معه فيما لو كان ممكنا تأليف ذات البين ، فأجابنى انهم هم أحب شىء اليهم الصلح . فقلت له : «ولكن مثل أنور لايرضى بصلح يكون شرطكم فيه عليه ترك البلاد ومجرد الانصراف » . قال : « وماذا يريده أنور » . قلت : « والله لا أعلم ماذا يريده ، وليس بينى وبينه مراسلة ، ولا أعلم شيئا من أحواله الراهنة اليوم ، وانما أقرأ أخباره فى الجرائد . فكلامى هو رأى من عندى أقدمه لكم حباً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم وبينه لا غير ، وهو : انكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلا وخارجا ، فتتركون أنور يصلح أمور بخارى ، لأنه رجل عظيم من جهة الادارة والترتيب . ويتم الاتفاق بينكم وبينه على أن لا يتعرض للتركستان الروسى ، وتؤخذ عليه بذلك المواثيق . قال تشيتشرين « وماذا يكون منصبه فى بخارى أأميراً أم وزيراً ؟ » قلت له : « هذا عائد لرأى أهالى بخارى ، فان لم يكن أميراً ، يكون رئيسا للوزارة وقائدا

عاما . أو يصطلح أهل بخارى على جمهورية ويكون هو رئيس الجمهورية » . قال : « لالا هذا خطر عظيم » . ولم يزد على ذلك . فلم أراجعه من بعدها فى هذه القضية . ولكننى سمعت من أحد أصحابى الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك انهم كانوا يسعون فى دعوة أنور الى الصلح . ويقال ان بعض الذين توسطوا فى هذا الامر كانوا يقولون للحمر فى موسكو : « مهما بذلتم فى مرضاة أنور فلا يكون كثيراً لأنه هو روح هذه الحركة ان شاء سكنها ، وان شاء هيجها ، وهى قائمة به وحده » . وكلام كهذا كان من باب الخرق والحماقة ، لأنه جعل البولشفيك يعتقدون أن الاهالى كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من السوء وان حركتهم انما جاءت من قبل شخصية أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم للقبض على ذلك الشخص الذى تسبب لهم بمجرد ارادته ، بكل هاتيك الخسائر وأخرج أكثر تلك الأقاليم من طاعتهم . ولست على ثقة من خبر القوة التى ساقوها على أنور ، ولكن الناس الذين جاءوا من هنالك بعد الوقائع يبالغون فى الكلام على الجحافل الجرارة التى بثها الروس فى التركستان لاخماد نار الثورة ، وخضد شوكة أنور . وما مضت مدة حتى روت الجرائد أن أنور تقهقر الى الوراء أمام القوة الجسيمة التى لم يكن له قبل بها . ولما علم أمير الافغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة الى أنور أسرع بدعوته اليه و بعث يقول له : « أنا محتاج الى مثلك لأجل رئاسة جيشى . فأقدم علىّ فلن تجد عندى أعز ولا أغلى منك » . ولكن أنور كان مغرما بالحرب ، وكما قال على فؤاد بك رئيس أركان الحرب فى سورية ، فى أثناء الحرب العامة ، وذلك فى كتاب له على حملة ترعة السويس عربه الكاتب الأديب نجيب افندى الارمنازى : « ان حال السلم عند أنور عدد منفى وقصارى حياة المرء عند أنور أن يقوم فى ميدان الحرب بحملات باهرة برؤوس الحراب . ويموت فيها شريفا » ولقد أصاب على فؤاد فى قوله هذا كما أصاب فى أكثر ما أورده بكتابه . فان أنور كان حلس قتال لا يمله ، ولكنه كان من أقدر الناس على الادارة والتنظيم ، وكل من شهد ترتيبه فى الجبل الاخضر بطرابلس حيث كان مطلق اليد فى العمل ، يعلم أنه يندر من يبلغ شأوه ، أو يدرك تبوعه ، فى التدبير ، والترتيب وأساليب العمارة ، فكان فى هذه الساحة فذاً . الا أنه لم يكن سياسياً كبيرا مع فرط ذكائه وأتذكر أنه رغب الى أن أذهب الى ألمانية لمعرفة حقيقة الحالة سنة ١٩١٧ فلما ودعته قال

لى : « لايكفينى أن تخبرنى بما هو كائن هناك بل أعطنى على ماتشاهده رأيك الخاص » . فكان هو نفسه لا يركن الى نفسه فى السياسة . وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فانه لايوجد آفة على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفى أوائل أغسطس من عام ١٩٢٢ ، كان أنور ، كما سبق القول ، فى بلدة يقال لها بالجوان شرق بخارى ، وكان أكثر جنده تفرقوا عنه بسبب العيد الكبير ، وبقى فى شرذمة من أعوانه ، فهاجمته خيالة الروس فى عسكر مجر ، فخرج بنفسه ، وما زال يقاتل حتى قتل رحمه الله . وكان لم يتجاوز الأربعين من العمر ومن رآه يظن أنه فى نحو الثلاثين لوضاءة جماله ، ورونق شبابه . وانتشر الخبر فى الدنيا كلها ، ولولوع الشرقيين بأنور ، وحرصهم على حياته ، لم يريدوا أن يصدقوا الخبر ، ومالوا الى تكذيبه ، لاسيما أنه ورد من القوقاس برقية بأن ذلك الخبر كان من أراجيف الروس . وبلغنا ذلك اذ كنا عام أول فى رومة ، فقلت لأول وهلة : هذا الذى كنت أستوقعه له ، وعزمى بك والى بيروت كان قال لى : أنور هذه المرة اما أن يعلو كثيراً أو يموت . على أن موته شهيداً فى سبيل تحرير قومه هو أشرف ميتة ، وأنوه منية . ثم لما ورد نبأ التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً . ولكننى كنت غير مطمئن البال . فلما عدت الى برلين سألت أخاه كامل بك وأهله ، فوجدتهم مطمئنين ينتظرون البريد الافغانى ، وهم لايشكون انه آت بمكتوب منه . فسألتهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً انه بنى على كتاب جاء من نفس أنور بعد تلك الاشاعة ، فعلمت أنه لم يرد منه بعد الاشاعة شئ . فعند ذلك هجس فى فكرى انه لو كان حياً لأسرع بالكتابة الى أهله تكذيباً للاشاعة ، اذ لابد من أن يكون بلغه ماقيل . ثم كلفونى أن استقصى لهم الخبر من سفير أفغانستان الذى كانوا سألوه فلم يخبرهم بسوء ، فأحفونى على سؤاله من قبلى أنا فلما سألته بصورة خاصة ، قال لى ان الخبر صحيح ولكنه لايريد أن يصرح لهم به ، ويكون ناعياً لأنور . وهوالذى أخبرنى عما أصاب الأمير أمان الله خان ملك الأفغان من الحزن لفقد أنور ، لاسيما انه كان بعث اليه يستقدمه بالحاح الى كابول فأبى . فلما عادوا يسألوننى عما سمعت من سفير الافغان ، أجبتهم ان السفير لايقول شيئاً ولكننى أنا شخصياً فى قلق من سكوته المطلق ، وأرى انه مادام الباشا لايكتب كالعادة بخطه الى السلطانة فيخشى من أن يكون هناك قضاء واقع . وما زالوا يعللون

أنفسهم بالآمال ويسمعون لأقوال من يروى لهم عن الجريدة الفلانية ان أنور حى ، وعن القادم الفلانى من تلك الديار بأنه وقع تشابه بينه وبين قتيل آخر ، وان الذى وجدت جثته وكان ظن أولا انه أنور ظهر بالتالى انه غير أنور الى غير ذلك من الأخبار المبنية على « بشروا ولا تنفروا » ، الى أن قدم ضابط من القوقاس لقينى فى لوزان فى هذا الشتاء ، وأخبرنى بالقصة التى كنت عرفتها من سفارة الأفغان ببرلين قبل مجىء هذا الضابط بأشهر . ومع هذا فغرام الشرقيين بأنور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً . وما زالوا يلهجون بذلك حتى أعلن أمير الالاى على رضا بك نائب أنور بياناً فى الجرائد الهندية يقول فيه : « مضى زمن على شهادة الغازى أنور باشا الذى كان يجاهد لتحرير تركستان فهو اليوم ليس فى أفغانستان ولا فى ايران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل الى جوار ربه الذى جاهد لمرضاته بماله ، ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى أنقرة ، فرجاؤنا من مسلمى الهند أن لا يجددوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » .

هكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذى مهما قيل عن هناته وأغلاطه ، فلم تخرجه عن كونه عظيما . وان فيما ختمه الله له من الشهادة فى سبيل أمته ، ما يكفر عن سيئاته ان كانت هناك سيئات تذكر . لاسيما انه قد دعاه أمير الأفغان لأعظم منصب فى دولته ، فأبى وآثر الجهاد ، وهو يعلم مقدار قوة الدولة الروسية التى وقف فى وجهها . وقد اتفق الناس ، من قصرى وعمى ، على كون أنور بطلا من الأبطال ، ليس فى هذا العصر بين المسلمين ، من يدانيه فى علو الهمة ، وبعد مرتمى العزم ، واتقاد الحمية ، وكان يعجب جميع من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمشمية ، من جهة ، والحياء والرقة والتواضع من جهة أخرى ، جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثل الانسان فيه وداعة الحمام ، فى شكاسة الأسد . وقلما عرف أحد أنور حتى من أشد الناس عداوة لمشربه الا أحبه وهفا قلبه عليه ، وكثيراً ما صرح لنا أناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشنآناً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار فى صدورهم برداً وسلاماً ، وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو وكان يقول لى : أكره الكلام الكبير . وأكثر ما نقم الناس على أنور كونه من أعظم أسباب دخول الدولة العثمانية فى الحرب العامة . وكان أنور يرى أن الحلفاء تقاسموا

بلاد الدولة فيما بينهم شق الأبلمة ، قبل الحرب العامة . ففرنسة وانكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، كما اعترف بذلك المسيو بوانكاره فى مجلس الشيوخ الفرنساوى جواباً على المسيو برار فى العام الماضى . وكذلك لم يكن بعيداً عن العقل ، أنه لو خرجت الروسية من الحرب العامة غالبة لكانت السلطنة العثمانية أثراً بعد عين . لأنه مما لاينكر ان الاستيلاء على الاستانة كان أول أهداف الروسية فى دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الأناضول . ولقد اعترف الحلفاء أنه لو لم تدخل تركية الحرب وبقى الدردنيل مفتوحاً بين الروسية وحلفائها لما انهارت الروسية . وكذلك ثبت أن بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على ألمانية تقسيم السلطنة العثمانية ، وأن تكون حصة هذه الأناضول فهذه الأسباب كلها ، مع غيرها مما ليس هنا محل شرحه ، جعلت أنور وطلعت أمام هذه القضية يقولان : ان تأبينا الانضمام الى ألمانية نخشى اما أن تنتهى الحرب بالاتفاق علينا ، وألمانية من الجملة بما نكون قد تركناها . واما أن يتم النصر للحلفاء وحينئذ فيقع تقسيمنا بين هؤلاء فيما بينهم فعلى الحالين نكون من الغابرين . أما اذا انضممنا الى الالمان فنحن بين أمرين : اما أن تفوز ألمانية فنخاص نحن من الخطر الذى يتهددنا من جهة الحلفاء . واما أن تنكسر ألمانية فلا يصيبنا شىء أكثر مما سيصيبنا لو أهملنا الانضمام اليها . هذا مع كونهما لم يتوقعا لألمانية الدائرة التى دارت عليها . إذ لم يكن متوقعاً دخول أميركا فى الحرب وربما قيل ان الحلفاء عرضوا على تركية شروطاً مفيدة تؤمن لها استقبالها فيما لو لزمت الحياد . والجواب أن تلك الشروط التى عرضها الحلفاء لم يكن فيها شىء من الاهمية ولا تعهدت روسيا بعدم مهاجمة تركية فوق ثلاثين سنة . ولعمرى لو عقد الحلفاء مائة عهد لتركية ثم خرجوا من الحرب ظافرين فمن الذى كان فى استطاعته اقامتهم على عهودهم ؟ أفلم يعاهدوا الشريف حسيناً على استقلال جميع بلاد العرب ؟ فماذا جرى ؟

كانت معرفتى بأنور يوم التقينا فى ظاهر درنة فى حرب طرابلس . ويظهر اننى لما فصلت من مصر قاصداً طرابلس ، أبرق أناس الى أنور — ولا يوجد أكثر من السعاة والمفسدين ويالالأسف — يحذرونه منى ، ولا أعلم الى الآن ماذا زينوا له بل علمت فيما بعد أنه بناء على هذه البرقيات المتواردة عليه أصدر أمره الى أدهم باشا الحلبى قائد معسكر طبرق ، بأن يردنى من طبرق الى السلوم . ولما كان أدهم باشا رجلا منجداً قديماً ، أجابه

بأنه لايعتقد أنني مظنة سوء . وان رده اياى بعد أن وصلت الى المعسكر والتف حولى العرب قد يؤثر فى هؤلاء تأثيراً سيئاً ، فالأحسن ان أمكن من الوصول الى معسكر أنور بعين منصور فأكون هناك تحت مراقبة القائد العام نفسه ، فان رأى هو مايريبه منى كانت معه سعة من الوقت لاخراجى من هناك . فاقتنع أنور بهذا الجواب وتركنى أكمل السير الى عين منصور وأنا لاعلم لى بشئ مما وقع . و بعد أيام من وصولى وملاقاتى به مراراً . وأخذنا بأطراف الأحاديث من كل موضوع ، علم أن الأخبار التى وردته هى دسائس محضة ، أو ناشئة عن خدعة وحيلة ، من أناس قصدوا أن يدسوها لأغراض لهم ، ومن ذلك الوقت انعقدت بيننا صحبة أكيدة ، واستمرت الى أن صار ناظراً للحربية ، فكان كلما علا رتبة ازداد تواضعاً بعكس ماعليه كثيرون من قومه . وفى تضاعيف الحرب رغب الى أن أذهب الى ألمانية أول مرة لمراقبة الأحوال ، وما مضت مدة وجيزة حتى قال أنور لأحمد نسيمى بك ناظر الخارجية « كم أنفذنا الى ألمانيـة رجالا من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الأحوال وأقاموا أشهراً فلم يقم أحد منهم ، ولا جميعهم ، بما قام به فلان (يشير الىّ) فى ١٥ يوماً » ثم لما رأى مارأى من الحفاوة التى أظهرها الألمان بى عند مازرت ألمانية سنة ١٩١٧ اعتقد اننى أقدر من غيرى على حل المشكلات المتعلقة بينهم و بين الأتراك ، فلما وقع الخلاف بين الفريقين من أجل باكو والقوقاس والأسطول الروسى فى البحر الأسود قال لى : « ان هؤلاء القوم يجلونك كثيراً و يعتقدون ميلك الخاص اليهم ، فأرجو منك أن تذهب الى برلين ، وتسعى فى نظارة الخارجية فيها فى اعتراف ألمانية باستقلال أذربيجان والطاغستان ، كما اعترفت باستقلال كرجستان . وأسر الىّ غير ذلك من الأمور . فقلت له : « كنت على أوفاز الى سورية ، ولكن لأجل خاطرك هذا أذهب ألمانية أولاً » . فقال لى : « يكفيك فى برلين لهذه المهمة شهر أو عشرون يوماً ثم تعود الى هنا وتسافر الى سورية » ففصلت من الاستانة فى أوائل يونيو وأنا عازم على أن لاأمكث فى برلين فوق ٣٠ يوماً . وها أناذا فى أوربا منذ ذلك الوقت ، وهى مدة تزيد على الخمس سنوات ، لم يتيسر لى فيها أن أضع رجلى فى الشرق ، ومجنون من يظن أن المرء فى حياته مخير لامسير . أما قضية الخلاف بين ألمانية والأتراك ، فكنا على وشك انهائها لابل قرر الألمان إجابة الترك الى طلبهم من جهة الاعتراف باستقلال أذربيجان . وألححت عليهم انا بناء على طلب الوفد الطاغستانى

الذى كان اعتمد على فى قضية بلاده ، أن يسوّوا فى هـذا الاعتراف بين كرجستان ، والطاغستان ، وأذربيجان بل يعترفوا أيضاً باستقلال جهورية أريفان الأرمنية و بينما نحن فى هـذا الصدد إذ دهمنا خبر طلب البلغار المتاركة ، وارسالهم وفداً الى معسكر الحلفاء بسلانيك وكان ذلك مبدأ انهيار الجبهات الحربية الألمانية ، والنمسوية ، والعثمانية ، فطلبت كل من أوستريا ـ هنكاريا ، وتركية ، الهدنة وتبدلت الوزارة بالاستانة .

وقبل تبديل الوزارة بقليل جاءنى الى برلين برقية رقية من أنور ، بواسطة السفارة العثمانية ، يستحث بها رجوعى الى الاستانة ، فلم أبادر الى السفر مترقباً سير الحوادث الهائل يومئذ ، إذ فى تلك الأيام كان من تتابع النوازل أعظم مشهد تاريخى يتهيأ للانسان . وكان يتم فى الجمع مالا يتم فى الحقب ، ولا فى القرون . ففى نحو خمسة عشر يوماً رأيت سلطنة أوستريا والمجر التى كانت ٥٥ مليون نسمة ، قد تساقطت حتاتاً ، وتفرقت أشتاتاً ، و بعد مضىّ عشرين يوماً على برقية أنور قصدت الاستانة من طريق رومانيا وركبت الباخرة من برايلا فلما وصلت بنا الباخرة الى كوستنجه ، وردها الأمر بأن لاتكمل سيرها الى الاستانة ، وأن تنقلب على عقبيها قاصـدة أودسا : فشق ذلك علىّ ، ولكن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فان عدم تمكنى وقتئذ من دخول الاستانة ، أنقذنى مما وقع فيه أكثر زملائى الذين نفوا وغربوا وشربوا مياه مالطة . فلما وصلنا الى أودوسا سألنا عن باخرة تذهب الى الاستانة فقيل لنا ان باخرة ألمانيـة اشتراها الأتراك ، أتت من الاستانة بعساكر ألمانية ، كانت بدأت تعود الى بلادها بحسب شروط الهدنة التى انعقدت فى مودوروس فهذه الباخرة ستذهب لانزال العساكر المذكورة فى نيقولايف ، وتعود الى دار السعادة . فتحوّلنا الى تلك الباخرة ، وذهبنا بها الى مرسى نيقولايف فنزل العسكر الألمانى الذى فيها الى البر ، و بتنا هناك على أن نقلع ثانى يوم الى الاستانة . ففى اليوم التالى ، بينما الباخرة على وشك السفر إذ وقع منى نظرة على رصيف الميناء فبصرت بعمائم بيض فأسرعت أرى من هناك ، فاذا بالمرحوم الأستاذ الشيخ صالح الشريف التونسى ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسى وعبد الحميد بك سعيد المصرى والدكتور أحمد فؤاد المصرى ، وابراهيم بك راتب ، و يوسف بك مصطفى ، وغيرهم من مصريين وتوانسة جملتهم ستة عشر شخصاً ، يقصدون ألمانية وسويسرة منهم من توارى

من وجه الحلفاء الذين كان يمكن أن يقبضوا عليه ، ومنهم من كان يعلل نفسه بعقد صلح على مبادئ ويلسون ، إذ لم تكن ظهرت ماهية ذلك الرجل وقتئذ . وقد علمت من بعضهم أن الحكومة الجديدة فى الاستانة كانت تعلم سفرهم ، وترى ذلك أحزم وأحوط ، إذ لو تعرض لهم الحلفاء بحجة أن هذا مصرى وذاك تونسى ، ما كان يمكن الحكومة العثمانية فى هاتيك الأيام الصعبة أن تحميهم كما أن واحداً منهم أسرّ الىّ بأشارة من رأس الحكومة الجديدة بأن أبقى فى أوربا تلك المدة ، وأجاهد فى القضية العربية على موجب برنامج ويلسون فأطلعت هذا الواحد على برقية أنور الواردة الىّ . فقال لى : وأين أنور ؟ قد انسلوا من الاستانة خيفةً : أنور وطلعت وجمال الخ .

فبعد هذا الحديث قررت السفر آيبا الى المانية ، ومنها الى سويسرة ، وجئنا جميعا من طريق الروسية الى برلين . ومن برلين قصدنا سويسرة ، فبقيت فيها من أواخر ١٩١٨ الى أوائل سنة ١٩٢٠ . وعدت الى منيخ فبرلين ، وهناك تلاقيت بأنور عائداً من موسكو . وكان يلح علىّ دائما فى الذهاب معه الى موسكو وأنا اعتذر له عن مشقة ذلك علىّ الى أن رضيت اخيراً بان أذهب على شرط أن لا أقيم فوق جمعتين وكان مرادى مشاهدة حالة الحمر بنفسى والفحص عما اذا كان يصح الاعتماد عليهم فى المسائل التى نحن فيها أم لا ؟ وعما اذا كان هناك من أمل بأن تستفيد منهم البلاد الشرقية والأمم المستضعفة أم لا ؟ فأقمت بموسكو شهراً أجريت فيها بنفسى التحقيقات التى أردتها . وفى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ فارقتها وودعت أنور وهذا آخر عهدى به ،

يودع بعضنا بعضا ويمشى   أواخرنا على هام الاوالى

أما خبر طلعت فانه وصل الى برلين ، وتوارى فى مصحة (ساناتوريوم) بظاهر تلك العاصمة وكان عقب فرارهم من الاستانة حصل هيجان بين الطلبة الاتراك فى برلين ، والتمس هؤلاء من الحكومة الالمانية تسليمهم الى الحكومة العثمانية . وأخذ هذا الهياج بين الطلبة يتزايد الى أن صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم أو يهينوهم . فاما أنور فلم يكن هناك ، وأما طلعت فأرسل الى الطلبة انه حاضر لمقابلتهم ، وجاء فيما بلغنى منهم جماعة ليوبخوه على سوء ادارته وأسباب سقوط الدولة على يده وأيدى رفاقه ، وكانوا يحرقون عليه الارم ، فلما شاهدوه وسمعوا الدفاع الذى دافعه عن نفسه والاسباب التى بسطها لهم سكتوا ، وكان

سريع الدمعة لا سيما اذا تكلم فى المسائل الوطنية غلب عليه البكاء فلما أجهش امامهم زال ماكان من حدتهم وانصرفوا عنه . وأما الحكومة الالمانية فانها كانت تعلم أن الحلفاء لا بدّ أن يطالبوها بتسليم هؤلاء ، فأعلنتهم جيعا وجوب مفارقة المانية ، ولم تستثن الا طلعت وأنور . وكنت لقيت تصادفاً كلا من عزمى وبدرى فى منيخ ، فعلمت منهما أن الحكومة فى برلين انذرتهم بأنهم ان لم يبرحوا أرضها سلمتهم الى الحلفاء . وسألت عن انور وطلعت فأجابنى عزمى : « بونلر مستثنى : أى انهما مستثنيان » ويظهر أن الحكومة الالمانية أبلغت جالاً وعزمى وبدرى والدكتور ناظما والدكتور بهاء الدين شاكر أسباب سخطها عليهم ،وعينت لكل واحد ذنو به فجمال باشا وعزمى بك غضبت عليهما لاجل المسئلة العربية ، لأن عزمى استشهد بى وقال لى : انت كنت فى سورية فهل علمتنى مسؤولا بشئ فيما أجراه جمال ؟ قلت لا . ولكننى عاتبته على أمور أخرى ليست من هذا الباب وكان مرادهم استعمال وسائل يتمكنون بها من دخول سويسره ويظهر ان جمالا دخل سويسرة متنكراً ولم نشعر بذلك وقتئذ ، بل علمناه من خاطراته التى انتشرت مؤخرا . ثم انه رجع الى المانية بعد أن سكنت الزعازع واقام بمنيخ حيث كان بعض قواد الالمان الذين كانوا بمعيته فى سورية هم من ذوى الأمر والنهى بمنيخ .

وبقى طلعت متواريا عن الانظار مدة ثم بدأ يخرج وذهب الى هولانده ومعه نسيم مازلياح من الاتحاديين اليهود ، الذى كان مبعوثاً عن ازمير وكان يلازم طلعت فى غربته ثم تلاقى طلعت مع هويمانس الاشتراكى البلجيكى وحصل بينهما حديث طويل ، فسأله عن قضية الارمن ، فأجابه طلعت بالواقع ولم يجتهد أن يتنصل مما فعل . فقال له هويمانس Huymans : « كان يجب أن تكتب هذه القصة كلها وتنشرها لتنير الرأى العام الاوربى عليها لأنه لا يعرفها كما تقول » فوقع فى نفس طلعت أن يحرر خاطراته فحررها من الاول الى الآخر بالتركية ولم يغبب فى الامور التى قصها ، ولا ستر حتى على اخوانه . ونال فيها من أنور ومن جمال فى بعض الموضوعات . ثم طبع الكتاب وقبل أن وزّعه كان أنور قدم الى برلين فبلغه الأمر ، فأخذ عليه ما كتب . فأجابه طلعت انه هو لم يكتب هاتيك العبارات التى فيها نيل من أنور ، وانما أضافها أحد أصحابه ، وطبع الكتاب بدون أن يقف هو عليه ، ومع هذا فانه سيجمع نسخ الكتاب ويحرقها . وجمعها طلعت يومئذ

ولم يوزعها . ولكن أنور لم يقبل منه ذلك التعليل ووقعت الوحشة بينهما باطنا ، وأسرّ الىّ أنور بعض أمور عن طلعت علمت منها غيظه منـه ، وكنت أهوّن الأمر عليـه ، ولكن لم تنقطع بينهما الزيارات ، وبقي طلعت يجالس أنور ويحالسه . وكان طلعت يراسل مصطفى كمالا ويؤازر سياسته من بعيـد ، بخلاف أنور . وورده من مصطفى كمال كتاب قبل قتله بقليل يفوض اليه أمر السياسة في أوربا ويؤكد له ثقته فيـه . ولم يقعد طلعت بدون حركة في برلين ، فأقام في شارع هاردنبرغ نمرة ٤ و ٥ تحت اسم « ساعى بك » وكان يختلف اليه كثير من أصحابه الألمان ومن رجال السياسة من غيرهم . وكان يأتي أحياناً الى سويسرة والى رومة ، ويقابل فيهما من بينه وبينهم موعد . وأسس محلا خاصاً أشبه بدار قراءة كان يختلف اليه هو وأصحابه الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر والدكتور رسوحي وغيرهم للمذاكرة والمطالعة ، وكنا نذهب الى هناك أنا والأستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش ، والمرحوم محمد الباشهانبه التونسي ، الذي فقـدناه أحوج ما كنا اليه ، اذ كان من أفراد شبان العالم الاسلامي علما وذكاء ، وعلوهمة ، وطهارة أخلاق ، وكنا قبل ذلك بسنة فقدنا أخاه على الباشهانبه ، الذي كان رئيس دائرة التشكيلات في نظارة الحربية ، وكان على طراز أخيه في كل مزية . فـكان هذان الصنوان من مفاخر تونس ، وماتا في الغربة ، وهما يندبان وطنهما كما أن وطنهما يندبهما .

وكان طلعت قد مال بادئ ذي بدء الى البولشفيك ، وحصلت له صلة مع « رادك » أحد زعمائهم وتفاءل خيـراً بالعمل معهم حتى حدثته نفسه أن يذهب الى موسكو . ولـكن قبل قتله بقليل رأيته زاهداً في مودتهم وصرح لي قائلا : « إن هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسلمين من الاستقلال والحرية ، واستأنفوا سياسة بلادهم القومية ، أفلا ترى كيف فعلوا باذربيجان وضموها ثانية الى الروسية ، بعـد أن كانوا اعترفوا باستقلالها . وبناء على اقتراح طلعت تأسس في برلين النادي الشرقي ليـكون مجمعاً للشرقيين قاطبةً ، بدون تفريق بين الأجناس والأديان ، وعقد طلعت مجلس مؤسسين في البداية واقترح أن يكون هذا العاجز رئيس المؤسسين ، ووافقه الجميع .

ثم لما انتظم عقد النادي والتأمت الجمعية العمومية لانتخاب مجلس الادارة بالاقتراع السري ، انتخبت رئيساً باتفاق الآراء ، وكان طلعت ممن سعى في ذلك . ثم اجتمعنا في

النادى للمذاكرة فى أمر بناء المقبرة الاسلامية ببرلين ، فانتخب الجمهور لجنة وأول من اقترح أن أكون أنا رئيسها كما حصل هو طلعت . وكان لايصدر عن رأى الا شاورنى فيه أثناء مقامنا فى عاصمة الألمان . وكان يختلف الى صاحب بولونى كان أبوه ياوراً لساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان ، وأتاح له الزمن المجىء الى سورية ولبنان وتعرف بآل أرسلان منذ أكثر من ٤٥ سنة . فلما شاهدنى ببرلين وهو مهاجر اليها من الروسية ، وأنا مهاجر اليها من الشرق ، صار يتردد على هو وابنه ، ثم توفى الوالد و بقى الولد على العهد ، وكان بين هذا و بين بعض رجال البعثة البريطانية ببرلين صحبة وصلة ، فشرع يرغبنى فى الملاقاة مع بعضهم و يبين لى مافى ذلك من الفوائد لمصلحة بلادى . فكنت أجاو به : « لاأرى فى ذلك مصلحة ولا أعتقد أنهم يريدون من مواجهتى سوى الاطلاع على الأخبار ، و بقيت متأبيا الاجتماع معهم مدة ، والبولونى يغادينى و يراوحنى ، الى أن شاورت طلعت فأشار علىّ بأن أقبل الملاقاة معهم لنرى ماذا يريدون ، ولعل هناك خيراً . فلما عاد البولونى إلىّ أجبته الى الملاقاة ، وذلك فى الفندق « كونتيننتال » الذى يسكنه البولونى نفسه ، وحصلت المواجهة وطالت نحو ساعتين . وقد جرى البحث فى المسئلتين العربية والتركية ، فأبديت أفكارى فى كل منهما ، وصرحت بما يخالج ضميرى من التعجب لسياسة بريطانيا العظمى الموصوفة عند الخلق بسداد الآراء ، كيف لم ترنا شيئاً بعد الحرب العامة من هذا السداد ، وكيف انها تخدم بعكس ماتنوى السياسة البولشيفيكية فى الشرق . وليس هنا محل سرد مادار بيننا و بينهم من المناقشات ، اذ ذلك يطول ولكن هناك نقطة لابد من تعيينها : كان الانكليز يريدون أن لايرجعوا الى الوراء فى مسئلة معاهدة سيفر التى كانت بنت فكر لويد جورج رئيس الوزارة ، ولكنهم كانوا بدأوا يدركون صعوبة تنفيذها ، فكانوا يحاولون اقناع الترك بقبول المعاهدة مبدأ ثم تعديل مايلزم تعديله منها فيما بعد ، لكن على شكل يقال له تعديل فى كيفية التطبيق . فأخذوا يبينون لى استحالة النكول عن معاهدة سيفر ، واصرار انكلترة عليها مع قبول تعديلات كثيرة فيما لو سلمت تركية مبدأ بها . فأجبتهم اننى لاأرى امكاناً لارضاء الترك هذه المعاهدة ، اذلم تبق لهم من أدوات الاستقلال شيئاً وكان يمكن الدول أن تقول للأتراك : ان كنتم لاتمتثلون لهذه المعاهدة فاننا نسلب من يدكم البقية الباقية فعليكم أن تختاروا أهون الشرين . هذا فيما لو كان ثمة بقية باقية ، وكانوا يخافون

بعد هذه المعاهدة على شيء تسلبونهم اياه . فأما وقد جردتهم هـذه المعاهدة من كل أسباب الملك فلاتقدرون بعد الآن أن تهددوهم ولاأن تنذروهم بخطر أعظم . اذ يكون جوابهم : لن نفقد بالمقاومة شيئا زيادة على ماسنفقده بقبول هذه المعاهدة ، لكن بالمقاومة نحفظ على الأقل شرفنا . فكان جواب الانكليز لى « كيف يقال هذا وقد تركنا لهم الاستانة . وكان ممكناً اخراجهم منها » فقلت : « بموجب هـذه المعاهدة لايبقى للأتراك حكم حقيقي لافى الاستانة ولافى غيرها » . ثم قلت لهم : « انكم تناقشوننى فى أمر معاهدة سيفر فأنا أقول لكم بصراحـة تامة انه لما دار البحث على المسئلة العربية ، جاوبتكم جواب رجـل ذى علاقة وصلاحية لأننى عربى وكثير من العرب يوافقون على ماأقول ، وقد كنت من نواب الأمة العربية فى الندوة العثمانية . فأما الجواب على المسئلة التركية فمهما كان من ارتباطى مع هؤلاء الجماعـة سواء برابطة الاسـلام ، أو بالرابطة الشرقية ، فأقول لكم ليس لى أن أبدى فيها رأياً . والرأى فيها انما هو للاتراك أنفسهم » . قالوا : « وهل يوجد من نقدر أن نتذاكر معه من الاتراك ذوى الصلاحيـة للكلام » . قلت : « وهـل تريدون ذا صلاحية أكثر من طلعت » ؟ وقد كانوا هم يعرفون أنه فى برلين ، ويعلمون عـلاقة أحـدنا بالآخر . ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك تجاهل العارف « فقالوا : وهل يمكنك أن تجعـل بيننا وبينه ملاقاة ؟ » قلت : « ينبغى أن أسأله أولاً ثم أجاوبكم » . وبعـد أيام دعوتهم ودعوت طلعت الى الغـداء عندى ، ودار بحث طويل وسألوا طلعت فى نهاية الحـديث هل اذا أعيد الى الصدارة العظمى يقـدر أن ينفذ معاهـدة سيفر ؟ فأجاب : « ان بقى الكلام على معاهدة سيفر هذه فلا أنا ولا غيرى يقـدر على انفاذها . وان كان يمكن تغييرها فلا تبقى حاجـة الى عودتى الى الصدارة لأجل تقرير الصلح » نعم وعـدهم طلعت أنه اذا رضيت انكلترة بتغيير المعاهـدة يذهب هو الى أنقرة ويجتهد فى اقناع الكماليين بالصلح . وأتذكر أنه شاورنى بعد انصراف الجماعة قائلا : « هل تذهب معى الى انقرة فيما لورضى الانكليز بتغيير المعاهدة ، وتساعدنى فى اقناع الحكومة الملية بالصلح ؟ » . قلت له : « أذهب معك بشرط أن يعطينا الانكليز ورقة رسمية بأنهم أصبحوا راضين بتبديل معاهدة سيفر ، وانهم يدعون تركيـة الملية الى الصلح ، والا لا يجوز أن نذهب بناء على مجرد القول ، لأننا نعلم أن رجال الدولة يفاوضون ويفوضون ثم لاقـل سبب

يتنصلون مما فوضوا به ، وينكرون ما فعلوه . فليكن بيدنا وثيقة نتوكأ عليها فى أنقرة فقال « هذا لا ريب فيه » . ويظهر أن الانكليز وقتئذ لم يكونوا قطعوا أملهم من تنفيذ معاهدة سيفر ، وكانوا يظنون أن اليونانيين غالبون للترك لا محالة ، فلويد جورج الذى كان يرى النكوص عن معاهدة سيفر مسقطة له ، كان لا يزال منتظرا نتيجة الحرب الاناضولية فلذلك كتب الانكليز الذين واجهونا كل مادار بيننا وبينهم الى لندن التى كان منها صدور الأمر بمقابلتنا ، ولكن لم يردهم جواب صريح بقبول التعديل لمعاهدة سيفر وأما نحن فأرسلنا الى مصطفى كمال نخبره بما وقع معنا من المفاوضة . وبقى المأمور الانكليزى يجتهد بابقاء الحبل معنا موصولا ، فتوالت الولائم وتبودلت الزيارات ، وارتاح طلعت كثيرا الى هذه العلاقة ، واغتبط بهذه المعارفة ، وصادف أثناء ذلك احدى جيئات أنور الى برلين ، فلم يسعنى ولم يسع طلعت الا وقوفه على ما جرى بيننا وبين البعثة البريطانية . فلم يتلق أنور ذلك بالارتياح وقال : « كل هذه المفاوضات خداع فى خداع » . وأظهر اصراره على العمل بالاتفاق مع الروس . ولما رجع الى موسكو قال للبلشفيك ان طلعت اتصل بالانكليز وعول على صحبتهم . وفعلا كنت أرى طلعت فى تلك المدة مقلعا تماما على فكرة البلشفة ، يراها مضرة بالترك والاسلام ، كضرر الاستعمار لا سيما بعد أن ثبت له أن الحمر عادوا فاستردوا الحرية التى كانوا أعطوها للأمم التى أعلنت استقلالها عن الروسية . ولم يقنعوا بسلب الحرية السياسية حتى نهبوا معها الاموال وقتلوا الرجال وأهلكوا الحرث والنسل . وكان لطلعت معرفة بمجلس نواب انكلترة محب لتركية منذ القديم يناضل عنها كلما لاحت له فرصة . فلما فر طلعت الى ألمانية بعد الكسرة ، أرسل الى هذا الصاحب يلتمس ملاقاته فى ألمانية أو هولاندة ، أملا بحمله على السعى فى مصلحة تركية ، فأجابه الانكليزى « ان النيران الآن على تركية شديد ، فلا أقدر أن أصنع لكم شيئا ، ولكن بمجرد ما أحس استعداد القوم لقبول الكلام ، لا أتأخر عن الدفاع عنكم » فلما رأى طلعت انه قد حصلت بينه وبين الانكليز هذه الصلة ، كلف المأمور الانكليزى الذى كان يختلف الينا أن يسبر له غور هذه المسئلة ويعرف له ، هل يمكنه أن يتلاقى بذلك « السير الأنكليزى » صاحبه وكان هذا الكلام امامى ، لأنه من الأول الى الآخر ما جرى منهم اليه ولا منه اليهم حديث الا كنت حاضره ، والقسيم المشارك لطلعت فى الرأى فيه . فأبرق

الانكليزى الى نظارة الخارجية بما وقع فاستدعوا ذلك المبعوث وأوعزوا اليه بأن يجيز المانش ويقابل طلعت فى جهات الرين ، وضربوا موعداً للمقابلة . وأبرقوا بالجواب الى الرجل الذى كان الكلام معه فى برلين فجاء هذا الى وطلب منى ابلاغ مآل البرقية الى طلعت باشا حالا ، اذا كان لا يريد أن يخلف الميعاد . وكان طلعت ذهب الى منيخ لتبديل الهواء وأبقى عندى عنوانه موصيا اذا جد نبأ مهم ان ابرق اليه بالأوبة . فأبرقت اليه بأن صاحبه الانكليزى الذى يبغى هو لقاءه جاء الى مدينة «هام» فى الرين ينتظر مجيئه . فخف طلعت الى برلين وجاء رأساً الىّ وذهبنا الى الانكليزى الذى كان هو الوسيط فكرر له مآل البرقية التى وردته وذهب طلعت الى هام ، وتلاقى مع صاحبه المبعوث وعقدا جلستين طويلتين وتفارقا ، وعاد طلعت الى برلين فأعاد علىّ كل ماجرى بينهما من المذاكرات . وكان من جملة كلام المبعوث الانكليزى قوله هذا : انى أنا أشهد ان حكومتى تابعت نحو تركية سياسة خطأ قبل الحرب ، وأثناء الحرب ، وبعد الحرب ، وان سياسة انكلترة العوجاء نحو تركية فى السنين الأخيرة هى التى ساقت الاتراك رغما الى محالفة الألمان . ولقد بينت لقومى مراراً خطل هذه السياسة فلم يسمع وياللاسف لقولى ، لأن الأكثرية هى ضد تركية . والآن لست آتيا من قبل حكومتى ، ولا أنا منها ، ولكننى أقدر أن أبلغها مطالبكم ، وأن اعضدها بقدر استطاعتى . ولا لزوم لايراد ماقاله اليه طلعت لأنه معروف انه كان يطلب الغاء معاهدة سيفر ، واعادة استقلال تركية مع تراقية وازمير ، وكل بلاد أكثرية أهلها ترك ، ويتنزل عن كل حق للدولة العثمانية فى مصر وبلاد العرب ، وبعد ذلك تمشى تركية مع انكلترة بحسب مبادئ الصداقة القديمة ، وان لزم عقد محالفة فتركية متهيئة لذلك . ووقعت هذه المقابلة فى أواخر فبراير (شباط) سنة ١٩٢١ . وفى ٩ مارس عقد الطلبة المصريون احتفالا كبيراً بتذكار الثورة المصرية ، وكان طلعت فيه ، وخطبت أنا خطبة هنأنى عليها ولم أشاهده بعدها .

اذ فى ١٥ مارس (آذار) نحو الظهيرة تلفن الى أحد أصحابى من رؤساء الدوائر بنظارة الخارجية فى برلين قائلا « ان رجلا ارمنيا قتل الصدر الأعظم الأسبق نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار . ومامضى دقيقة حتى دخل علىّ الشيخ عبد الرحمن سيف الايرانى صاحب مجلة « آزادى شرق » ومعه اثنان افغانيان ، ليخبرانى بالحادثة ، ثم وصل

الشيخ عبد العزيز جاويش ، وذهبنا الى محل الفقيد معا . وكان لا يبعد عن منزلى أكثر من عشر دقائق ، كما أن القتل وقع فى نفس الشارع الذى كان يسكن فيه طلعت غير بعيد عن بيته ، اذ كان هو يسكن فى نمرة ٤ الى ٥ والقتل حصل امام نمرة ١٧ . وكان لذلك وقع عظيم ببرلين ، فبعض الجرائد المنسوبة للحزب الامبراطورى ندبت طلعت ، وتأسفت عليه وذكرت مزاياه ، وانه كان مع أنور السبب فى محالفة تركية الألمانية . وأما الجرائد الديموقراطية واليهودية فغمزته . وعرضت بمسئلة الارمن ونسيت صداقته لالمانية . وأقيم له مأتم حافل حضره كثير من الألمان مع الجالية الشرقية ، وأودعت جثته محلا فى مقبرة ألمانية الى أن أكملنا المسجد والابنية التى أنشأناها فى الجبانة الاسلامية ، تحت نظارة هذا العاجز وبمساعى امام السفارة العثمانية حافظ شكرى افندى . فنقلت التجاليد الى مستودع الاجساد الذى بنيناه فيها لأجل ايداع الاجساد التى يراد نقلها الى وطنها الأصلى . فهى هناك مع تجاليد جمال عزمى بك والدكتور بهاء الدين شاكر بك ، اللذين اغتالهما الأرمن بعد واقعة طلعت بعدة أشهر عفا الله عنهم جميعاً . أما قتل هؤلاء كلهم فكان كله غيلةً وخلسة من الوراء بحيث لم يكونوا يشعرون الا وهم صرعى . وقدكان طلعت فى البدء بلغه ترصد الأرمن له ، فكان يدارى ويرامق ولا يخرج وحده ، ولكن ما مضت أشهر حتى استرسل واستهتر وأخذ يخرج وحده فى النهار الواحد مرتين وثلاثاً . فلما بلغ الأرمن ذلك أرسلوا اليه شاباً مصاباً بالسل موتوراً فيما يقال بقتل أهله اسمه تاليريان ، فقالوا له أنت لا تعيش أكثر من سنة ، فاذا كان لا بد من أن تفارق الحياة قريبا فالأحسن أن لاتفارقها قبل أن تقتل طلعت هذا الذى قتل أمة بأسرها من الارمن . وقيل انهم تعهدوا له اذا قتل طلعت بتخليصه من القتل بل من الحبس ، وذلك بواسطة احدى الدول الكبرى ذات الكلمة العليا . ومن المحقق انهم سعوا فى ذلك لدى تلك الدولة العظمى ، كما انه يقال كثيرا ان سفير هاتيك الدولة سعى بمزيد نفوذه فى برلين بتخلية سبيل القاتل المذكور ، وأخلى سبيله لشهرين من حبسه . فنقم الترك ذلك على الالمان الى هذا اليوم ، وعندما طلب الخلفاء فى مؤتمر لوزان بهذه الايام تصفية أملاك الالمان التى فى تركية لحساب الخلفاء أجابوهم حالا الى طلبهم . ولما عوتبوا على ذلك من جهة الألمان أجابوا : « اننا لم ننس اطلاق سبيل تاليريان قاتل طلعت لشهرين من حبسه . ويكون من باب الفضول أن نقول ان طلعت كان عصاميا

فكل أحد يعلم انه رق فى مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سلانيك ، بمعاش الف وخمسمائة قرش فى الشهر ، الى الصدارة العظمى . ولا جرم أن سرعة هذا الترق كانت بسبب الانقلاب واعلان الدستور ، ونفوذ جمعية الاتحاد والترقى التى كانت هى سبب الانقلاب ، وكان طلعت من أعضائها . ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلا خارق العادة فى ذكائه ، ومضائه ، وحزمه ، وعزمه ، لما أصبح هو رئيس جمعية الاتحاد والترقى بلا منازع ، فقد تصرفت هذه الجمعية بزمام السلطنة العثمانية عشر سنوات تامة ، وتصرف طلعت بزمام هذه الجمعية جميع هذه المدة . وكان هو دائما روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلى ، ولو لم يكن كل الاحيان رئيسها الرسمى . وكان هو المرجع الاول والاخير للدولة من قبل أن يتولى الصدارة ، بل لحظت أن الصدارة لم تزده نفوذاً ، بل بالعكس أظهرت شيئامن ضعفه ، وخطأت فى نفسى رأيه بقبولها . وأظن أن الذين حفزوه الى ذلك هم رفاقه مدحت شكرى ، والدكتور ناظم ، والبهاء شاكر ، وضيا كوك الب ، والدكتور رسوحى هؤلاء الذين كانوا أثناء الحرب عماد المركز العمومى للجمعية . وبالجلة فلو كان فى جميع أعضاء هذه الجمعية من يضارع طلعت أو يقادره ، مع كثرة عددهم وطموح الكثيرين منهم الى المعالى ، لما انفرد هو بالرئاسة على جميعهم ، وقد قلت لما مات ان هذه الجمعية ماتت بموته ، والحق انهم لم يجدوا من بعده رئيساً يتفقون عليه ويضم شملهم . ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم فى المكاتب العالية ، بل كان جميع عرفانه شدواً من هنا ومن هناك ، والتقاطاً من عشرائه الذين كان منهم عدة نفر من أتم الناس تحصيلا ، ولكن كان طلعت يجبر ما نقصه من العلم المسموع بالعلم المطبوع ، ويسد جورة جهله ، بغزارة فهمه ، وسرعة لحظه . وهناك مزية أخرى ضمنت له حفظ تلك الرئاسة على أقرانه وهى معرفته أن يعصم نفسه من المطامع الدنيئة ، والمطاعم الوبيئة ، وعدم استخدامه شيئا من نفوذه الطائل ، فى افادة مال ، أو جمع ثروة ، بحيث سطع له من حالة فقره برهان دائم على نزاهته ، ومكن له ذلك دعائم رئاسته ، بينما كثيرون من زملائه قد غمسوا أصابعهم فى أدهان المنافع ، منهم من اشتط ومنهم من اقتصر . وكان يقول : «أفلا يكفى كون هذه الأمة تحملتنى على جهلى ، أفاحملها أيضاً على سرقتى واغلالى؟» نعم تولى طلعت أمور الدولة العثمانية عشر سنوات ، لم تشبه فيها شائبة اغلال ولا اسلال ،

وستر كثيراً من عيوبه وكفر عن كثير من أغلاطه ، بعفة نفسه ، ونزاهة طبعه . ولما وصل الى ألمانية سنة ١٩١٨ كان فى جيبه ٥٠ الف مارك فلما نفدت أرسل اليه أحد أصحابه ممن أثرى بسبب انتسابه الى طلعت مبلغ ٢٠٠ الف مارك ، كان ينفق منها ، فلما مات كان باقياً منها شىء يسير . ووجدت عنده بعض علب ذهبية وقطع نفيسة ، منها ما أنعم عليه به السلطان ، ومنها تذكارات من بعض اخوانه ، كان قد ادخرها للبيع فيما لو انبتت به أسباب المعيشة . أما خاطرات طلعت فقد كانت احدى شركات الطبع بألمانية تقدمت لشرائها بعد موته ، حتى تنشرها بالتركية ، وتنقلها الى سائر اللغات ، ولكن أرملة طلعت لم تبت الى اليوم فى أمر هذه الخاطرات شيئاً .

أما جمال فقد تقدم شىء من ذكره وكيف كانت حركته بعد الحرب العامة ، وكيف ذهب الى افغانستان وحظى عند ملك الافغان بمنزلة سامية ، وذلك انه تولى تنظيم الجيش الافغانى ، واستجاد لذلك ضباطاً من الجيش العثمانى ، وأفلح فى ترتيب الجيش وتدريبه ووزعه على الانماط العصرية الحديثة ، بحيث كان عند ظن الملك فيه . وبعد أن أقام بكابول نحو سنة جاء الى اوربا لمشاهدة عائلته التى كان تركها فى مونيخ وقضاء بعض المهام المتعلقة بدولة افغانستان ، وكان قد انتدب ما يسنر باشا الالمانى ، رئيس مهندسى السكة الحجازية سابقاً للذهاب الى افغانستان ، ومعه رهط من المهندسين والاختصاصيين ، لفحص البلاد فحصا مدققاً وعمل برامج للطرق الحديدية ، والاعمال الكهربائية ، والمشروعات الزراعية ، وعمليات استخراج المعادن وغير ذلك وقد لبى مايسنر باشا الطلب ، وانتدب لكل فن من أربابه من يوثق بعلمه وعمله . وليس أسهل من وجود هذه الطبقات فى المانية ، لاسيما بعد الحرب العامة التى قلت فيها الاعمال وتوفر العمال . ولكن ابت الحكومة الالمانية ان تنفق على هذه البعثة من مالها أو ترسلها من قبلها ـ ربما كان ذلك خوفاً من انكلترة ، التى تحذر جداً من تثقيف افغانستان على الطرق العصرية ـ فذهب جمال الى مونيخ واتخذ واسطة للدخول الى فرنسا ، وسمحوا له بالذهاب الى باريز ، وقيل انه قابل المسيو بوانكاره وعرض المشروع المذكور على الحكومة الفرنسوية ، بشرط أن ترضى هى بالانفاق على البعثة الفنية من مالها ويكون للفرنسيس فيما بعد حق الرجحان على غيرهم فى العمل . فرضيت الحكومة الفرنسوية باقتراح جمال كما اخبرنى هو نفسه حيث لقيته ببرلين بعد ايابه من فرنسا ، وان

كنت لم اسمع الى هذا اليوم بأن بعثة فرنسية ذهبت الى كابولى لهذا الغرض ، بل سمعت بذهاب بعثة فنية ايطالية . ثم ان جمال عاد قاصداً افغانستان من طريق موسكو ، وكان ذلك بعد أن تولى انور كبر الثورة فى تركستان على الروس ، فلم يتوقف جمال عن المرور من الروسية اتكالا على كونه من رجال الحكومة الافغانية ، لايقدر الروس أن يمسوه بسوء ولكن السوفييت وضعوه تحت المراقبة كما كانوا وضعوا الدكتور ناظما وخليلا عم انور . فتمكن جمال بذكائه أن يقنعهم باستيائه من حركة انور ، وأعلن ذلك فى الجرائد وطعن فى سياسة انور ثم اتفق معهم على أن يذهب هو الى انقرة ، ويتكلم مع الحكومة المليةفى عمل قرار يمنع انور من الاستمرار على عداء الروسية . فذهب جمال قاصداً الاناضول ، وهبط أولا تفليس عاصمة كرجستان وأخذ يجول فى الشوارع مطمئناً ظاناً انه باستصحابه مرافقين يأمن شر الغيلة فكان الارمن هيأوا له من يغتاله هو وصاحبيه . وجاء خبر قتله الى اوربا فى نحو ٢٥ يوليو (تموز) عام ١٩٢٢ على أن قتله وقع فى ١٨ أو ١٩ من ذلك الشهر واتذكر اننا كنا يومئذ فى لندن ، نحتج على القرار الذى اصدره مجلس عصبة الأمم بتأييد منطوق المعاهدة السرية التى بين انكلترا وفرنسا ، بشأن سورية وفلسطين تلك المعاهدة التى اعطوها اسم «انتداب» فدخل جنرال انكليزى علينا ونحن فى فندق سسيل وهو فرح مستبشر قائلا « قد قتل جمال باشا ، وعسى أن يلحق به انور» فلم أرد أن أعرفه بنفسى لا علم ماذا يقول ، وانما علمت منه ومن غيره من الانكليز ، ومن لهجة الجرائد انه مع كل بغضاء الانكليز للروس ، وعلى الخصوص للبولشفيك ، كانوا فى المصارعة التى وقعت بين أنور وموسكو ، يفضلون انتصار البولشفيك على انتصار أنو ر . هذه هى الحقيقة . و بعبارة أخرى يرون فى انكلترة الخطر الاسلامى أعظم من الخطر البلشفى ، فيجب على المسلمين والشرقيين أن لا يتجاهلوا هذه الحقيقة ، لأن لها معنى كبيراً . فيكون بين موت جمال وموت أنور ، نحو جمعتين فقط ، و بينهما و بين طلعت نحو سنة وأر بعة أشهر الى سنة وخمسة أشهر . وهكذا هؤلاء الثلاثة الذين تصرفوا بازمة الدولة العثمانية طوال الحرب العامة ، وكان لهم دور فى التاريخ العام كله ، اصبحوا فى مدة سنة واشهر كهشيم المحتظر . والبقاءلله وحده . واختلفت الروايات فى كيفية غيلة جمال ، فقيل ان البلاشفة وان كانوا اذنوا له بالذهاب الى الاناضول فقد كانوا غير واثقين به ، و يخافون أن ينقلب عليهم كما انقلب أنور

أو أن يقاوم سياستهم فى افغانستان بعد رجوعه اليها فاذنوا له بالمسير الى أنقرة من جهة، ودبروا له مكيدة القتل من جهة أخرى بواسطة الارمن الذين لهم علاقة بهم ، وهكذا استراحوا من غوائله . وقيل بل جمعيات الارمن التى قتلت طلعت وجمال عزمى والبهاء شاكرا والامير سعيد حليما الصدر الاعظم الاسبق ، هى التى قتلته . وترى البلاشفة يتنصلون كثيراً من تهمة قتله قائلين . « لماذا نسعى فى قتل رجل كان يسعى فى مصالحنا؟ » وقد قبضوا على اناس كثيرين من المتهمين بقتل جمال، ولكننى ما سمعت أنه قتل منهم أحد الى اليوم . وكان جمال ذكى الفؤاد ، متوقد الذهن ، سريع الفهم ، ماضى العزم كالسيف الصارم مهاب الطلعة ، لائقاً بأن يكون قائداً عسكرياً كبيراً لمضائه ، وسداد تدابيره . ولكنه كان سريع الانفعال جداً ، متكهرب الاعصاب ، شديد الخنزوانه، مغرما بالمجد ، مولعا باكتساب دوى الذكر ، متنفجاً ، متغطرساً ، جباراً ، مفتوناً بأن يوصف بالجبروت ، محباً للانتقام والبطش ، جنت الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بأن سلمته زمام سورية مدة الحرب تسليما مطلقاً ، مع ما فى نحيزته من الاستعداد للاستبداد ، والنشوة بخمرة النهى والأمر ، فمضى فى شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر الى شئ من العواقب . وكان بعض المتملقين له و بعض المتهورين فى السياسة التركية الطورانية يزينون له أعماله ، ويثيرون من نخوته ، بقولهم له ان الآمال انما هى منعقدة به لا بغيره . فكانت تزيده هذه الأماديح طغياناً وجبروتاً ، ولم يكن يشك مع هذا فى كون الحرب ستنتهى ان لم يكن بظفر المانية وتركية ، فبصلح يضمن لكل فريق مكانه ولم يكن من غروره يعتقد أصلا بأن بلاد العرب يمكن أن تخرج من يد تركية . فكان ذلك من الاسباب التى حملته على الجور ، والعسف ، وارهاف الحد ، وارهاق الخلق ، ولما خرج الشريف حسين على الدولة بقى مدة أيام وهو لا يصدق الخبر ويظن أن أولاده انما خرجوا من المدينة وشنوا الغارة على سكة الحديد ، بدون علمه ، وانه متى بلغ الشريف الخبر يردهم الى الطاعة . وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجسر على هذا الأمر وأن رهبة الشريف من جمال تمنعه منه ، والحاصل أنه كان مغروراً بنفسه ، وقد زاده تمام حريته فى العمل وانطلاق يده بما شاء غروراً وسكراً ، أيام كان فى سورية . فخرج عن دائرة المعقول فى كثير من الامور . ووصل الى أن صار يجمع أعيان بلدة بلدة ، ويحصى عددهم ، وينفى منهم ١٠ فى المائة

آخذاً اياهم بالقرعة ، أو ترتفع الاوراق الى قيمة الذهب . أما كون سياسته هذه هى التى أحدثت المسئلة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن ثار الشريف على الدولة ، ولا انشق العرب على الترك ، فليس بصحيح . اذ علاقة الشريف بالانكليز وتحفزه للقيام على الدولة فى أول فرصة تلوح يرجعان الى أيام السلطان عبد الحميد نفسه ، الذى كان يعلم ذلك . ولما أخذ الاتحاديون على يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف على قال لهم : « اننى ابرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لاننى أعرف حقيقته » . وقد كانت مداخلات الشريف لانكلترة فى أمر الثورة من قبل الحرب العامة وسنة ١٩١٢ توجه أحد الأمراء المصريين الى لندرة مفوضاً اليه أن يسعى فى اتفاق بين الانكليز والعرب على أن انكلترة تقدم للعرب السلاح وهم ينتقضون على الدولة ، ويكونون حلفاء لانكلترة فى المستقبل . ولما عرض ذلك الامير المصرى — وهو حى يرزق الآن — هذا الاقتراح على الانكليز تلكأت نظارة الخارجية بلندرة عن قبوله ، ولم تكتم السبب فى رفضها هذا المشروع وهو : « ان انكلترة تريد هى الاستيلاء على بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطى جزيرة العرب سلاحاً . وبالفعل كان الانكليز منذ سنين قد بدأوا يمنعون تجارهم من مبيع السلاح الى عرب اليمن . وعرب عمان ، وعرب العراق ، بل كانوا شرعوا يبثون اناساً يشترون البنادق التى فى أيديهم بزيادة على ما تساوى ، وكل هذا حتى اذا أرادت انكلترة احتلال تلك الاقطار ، وجدت أهلها عزلا مقلمى الاظفار . ثم ان الشريف راجع انكلترة فى مشروع التحالف العربى الانكليزى لاول الحرب ، فلم يجيبوا نداءه أملا باستغنائهم عنه فلما تمطت الحرب عليهم بصلبها ، وناءت بكلكلها ، شعر الانكليز بالاحتياج الى العرب ، فعادوا الى قبول اقتراح الشريف وعلى كل حال فليست قسوة جمال فى سورية وقتله من قتل هما سبب ثورة الشريف . وعلى فرض أن جمالا لم يفعل ما فعله ، فكانت الثورة واقعة ، وكان ما ظهر من نفور الاهالى من الترك ، وشماتة كثير من العرب بالترك يوم دارت الدائرة على المانية وتركية ، لا بل فرح كثيرين من العرب ، لا سيما فريق الشبان منهم ، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية ، النصارى الكاثوليك بانتصار فرنسا ، والنصارى الارثوذكس بانتصار انكلترة والمسلمين أيضاً من ذلك الحزب الممالئ للشريف بظفر الحلف العربى الانكليزى . كل هذا

كان وقع كما وقع سواء قتل جمال من قتلهم أو لم يقتلهم ، ينبغي لنا أن نعترف بذلك ان كنا نتوخى حقيقة وتاريخاً ، ولكن خطأ جمال في رأيه وجنايته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية : ـ

أولا ـ ان فريقا من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية .

ثانيا ـ إن فريقا آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ، ولا قرائن قطعية تذهب في جزائهم الى درجة القتل . وقد برر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بأنه من باب « القتل السياسي » مع أنه كان الأولى بهؤلاء أن يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً ـ على فرض غير الواقع ، وهو أن هؤلاء مجرمون أعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأي ، فتح هذه المسألة أثناء الحرب ومجازاة أناس قد عفا عنهم ونكء القروح التي كانت قد سكنت نوعاً ، واثارت عواطف العرب وحفائظهم واظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحت لهم للبطش ، وتعزيز النزعة الأجنبية بهذه السياسة .

رابعاً ـ ان الألوف الذين نفاهم الى الأناضول مع عيالهم وخرب بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم في الغربة لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلا عن أن يكونوا قائمين للدولة فكان تغريبهم عن أوطانهم مجرد عذاب وقهر بدون أدنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ ليرة شهرياً فكان خطأ جمال أنه سلح أعداء السلطنة العثمانية ، وأنصار الشقاق بين العرب والترك ، ورواد السياسة الأجنبية الكثيرين في الشرق ، بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمال جمال ومو بقاته فكان الذين يتذكرون فضل الدولة العثمانية اليوم « وبضدها تتبين الأشياء » لا يجدون الأجوبة التي يجاوبها الآن سعاة السيطرة الأجنبية ، المدينون بهذه الأسلحة المعنوية لأحد جمال وحده . فجمال خدم الحلفاء في بلاد العرب أثناء الحرب كما أن الحلفاء خدموا الأتراك في بلاد العرب بعد الحرب . . . .

هذا هو أهم خطأ جمال وجنايته على هاتين الامتين . ولقد خصصنا لهذه المسألة كتابا عن الحرب العامة نشرنا منه بعض مذكرات مؤخراً تناقلتها الجرائد ، فلا نجد لزوما أن نزيد هنا من هـذا الموضوع على ما ذكرناه . وقد نشر جمال أثناء وجوده بسورية كتابا بالتركى والعربى شرح فيه الأسباب التى دعته الى محاكمة الذين قبض عليهم وقتل من قتل منهم ، ونفى من نفى واستظهر على حقية ذلك بالوسائل والشهادات مما رآه كافيا للقصاص وان كان من يقرأ الكتاب لايرى كل تلك البراهين نواصع ، ولا جميع أولئك الشهود مقانع . كما أنه قبل موته بقليل كان نشر خاطراته ، وتكلم فيها على الحرب العامة وعلى ثورة ملك الحجاز ومقدماتها ومصايرها وعلى مسألة سورية ، والأسباب التى حملته على القتل ، والصلب والنفى من الأرض ، ومآلها خيانة هؤلاء للجامعة الاسلامية وتألبهم مع الأجانب أعداء ملتهم على ملتهم ، وتمهيدهم للأجانب الاستيلاء على أوطانهم ، وربما كان بعض ما قاله صحيحا ان لم يكن كله ، وكان هناك من العرب من لم يكن يبالى بجامعة اسلامية ولا شرقية ومن يعتقد أن انتصار انكلترا هو انتصار العرب ولكن ليس للطورانيين الذين هم أنفسهم قد نبذوا هذه الجامعة ظهريا وقالوا بالقومية التركية البحتة أن يعاقبوا بالقتل من العرب من نبذ الجامعة الاسلامية وقال بالقومية العربية البحتة أفتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم

هذا ما اخترنا ذكره من خبر هؤلاء القوم مما عرفناه بالذات ، وشاهدناه بالعين ، وسمعناه بالأذن ، فيكون ذا قيمة عند الخلف الذين يهمهم أن يعرفوا حقائق ما جرى فى الحرب العامة وفيما بعدها لأنه بيان عن عيان . وقد علمت الخلق التجارب ، انه كلما تطاولت الأيام وتراخت الآماد على الحوادث ، زيد فى الأخبار ، ونقص منها ، وما زالت تعتورها التصورات بالقلب والابدال الى أن تصبح الأخبار فى واد والحوادث الحقيقية فى واد ، ويعود التاريخ قصصاً موضوعاً ، فالخبر أمانة فى ذمة المعاصر للحادث ، ولا سيما المطلع والمشاهد ، ينبغى أن تؤدى تلك الأمانة على أصلها ، نصحاً بالرواية وحرصاً على التحقيق ، والله تعالى وحده من وراء العلم .

* * *

بعد تحرير ما حررناه من خبر المرحوم أنور بنحو شهرين أو أكثر ، قدم الى الاستانة الملازم محيي الدين بك أحد مصاحبى (ياورية) أنور باشا ، ومعه ضابط آخر اسمه محيي الدين من فرغانة ، فأما الأول فقد عرفته جيداً فى موسكو ، عند ما ذهبت اليها بناء

على رجاء أنور كما تقدم عن ذلك الخبر فى محله .

وقد أفضى الضابطان المذكوران الى جريدة (توحيد أفكار) عددها المؤرخ فى ١٢ تشرين الثانى سنة ١٩٢٣ بالمعلومات الآتية ننشرها تتمة لترجمة ذلك البطل وتصديقا بين يدى ما قدمناه . قالا : ـ

«ان أنور باشا رحمه الله بعد انتهاء الحرب العامة اتفق مع الروس البولشفيين ، بناء على مواعيدهم له بانقاذ العالم الاسلامى ، ولكنه ما عتم أن لحظ بعد عودته الأخيرة من ألمانية (وهى التى ألح علينا فيها أن نأتى معه الى موسكو) أن الروس كانوا يخدعونه وانهم بدلاً من أن ينقذوا المسلمين ، كانوا يلحقون بهم فنون الأذى ، وأنواع العذاب ، فلحق بتركستان ، وأثار عليهم الأهالى هناك ، وما استقرت قدمه فى تلك البلاد ، حتى نظم فيها قوة عصرية الشكل واشتغل بترقية أحوال الاهلين العامية ، والصحية ، والأدبية والمادية ، فانضم اليه الأهالى من كل جانب ، وانسلوا من كل حدب لا سيما مهما كانوا يعانون من قسوة الروس ، والتحقت بجيشه خمسة آلاف فارس من فرسان تلك الأقطار ، وأسس معملا لصنع القرطاس النارى (الخرطوش) ، فأزاح بذلك علة عظيمة ، ومع نقصان الأعتاد والأسلحة بدأ الحرب ، وهزم الروس فى وقائع عديدة ، وغنم منهم واحتلت جنوده خمس ولايات من أصل الولايات التسع التى تتركب منها بلاد تركستان فعند ذلك ارتاعت الحكومة البولشفية ، وساقت عليه ٨٠ ألف مقاتل تحت قيادة قامانيف .

قالا : ولم يكن بامكان الروس مع ذلك أن يتغلبوا على أنور باشا . لو توفرت عنده عدة القرطاس ، فلما نفذت العدة من بين يديه اضطر أن يتقهقر الى الوراء ، فبلغ بلد « بالجوان » وهناك وقع فى مأزق آخر ، وهو أن جيشه لقلة الضباط أصبح لا يقدر على ادارة جناحيه فتمكن العدو من خرق ميمنة أنور ، فجاء المرحوم بنفسه وتولى قيادتها ، وكان ممتطيا جواده وهو يباشر الحرب والقيادة بنفسه . وكان الروس قد خبأوا رشاشات لم يعلم بها ، ووقعت الواقعة أمام ثكنة (آب دره) فى بالجوان فأصابه رصاص من تلك الرشاشات أرداه شهيداً ، وذلك فى الساعة التاسعة والدقيقة ٣٠ صباحا من أول يوم من أيام عيد الأضحى سنة ١٣٣٨ و بذلك انهزمت القوة التى كانت معه، مع أنه الى تلك الدقيقة التى سقط بها كان النصر مرافقا له ، وكان تابور كامل من الروس قد استسلم له و بعد الواقعة بأربع

وعشرين ساعة اجتمع نحو ٣٠ ألف من الأهالى وعملوا له مأتماً حافلا جداً ، جرت به العبرات سيولا ، وحملوا نعشه على الأكتاف ، ووراوه التراب فى مكان يقال له « جكن » و بنوا عليه قبة وجعلوا يزورونه أفواجا والآن يقرأ القرآن عند قبره ١٢ حافظا بالتناوب بصورة دائمة وكان برنامجه الحربى لولم يقع شهيدا التراجع بانتظام الى (بامير) والاعتصام بجبل قلعة خوم حيث كان يترقب فرصة الكرة على العدو . ولم يكن معه عدد عديد من ضباط الترك بل كان معه ملازمان نافع وخليل خلصا من تلك الواقعة وقريباً يحضران الى تركيا . وقد استمرت حرب أنور للروس ١١ شهراً وأحبه أهالى تلك البلاد حباً جما ، لما رأوه من تواضعه ودماثة أخلاقه وتوطئة كنفه لخاصتهم وعامتهم ، وقد أحدثت ثورته هذه انتباهاً لا يوصف فى تلك البلاد ولا تزال الثورة مشتعلة ، ولا يشك أحد من سكان تلك الأقطار بأنهم لا بد من أن ينالوا استقلالهم » انتهى كلامهما

وقالت جريدة توحيد افكار التى يرأس تحريرها وليد بك أبو الضيا من كبار مفكرى الأتراك : ان المرحوم أنور باشا لم يحسن الادارة فى تركيا ، وألحق بوطنه أضراراً لا تنكر ، ولكن له فى جانب تلك المضار منافع عظيمة ، فقد خدم خدمة فائقة فى حرب البلقان وفى حرب طرابلس الغرب ، ثم فى تنسيق الجيش وكان شجاعاً ، ديّناً ، عفيف المئزر ، حر السجية ، ثم استمطر عليه الوليد رحمة ربه ورضوانه .

ومما ذكروا عنه أنه وجد فى جيبه ساعة شهادته كتابان من زوجته الأميرة ناجية ابنة الأمير سليمان أخى السلاطين عبد الحميد ، ومحمد الخامس ، ومحمد السادس . ووجد مصحف صغير كان مربوطاً بذراعه تحت القميص ، وكان لا يفارقه . رحمه الله وأكرم مثواه .

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين

سيدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه

لالأمير شكيب

— ١ —

بعد أن أرسلت الى المطبعة تكملة سيرة السيد احمد الشريف (١) رضى الله عنه بما تجدّد من أخباره منذ الطبعة الأولى من هذا الكتاب الى حين فراقه هذه الدنيا اتفق لى أن اجتمعت بجعفر باشا العسكرى سفير العراق فى لندن وهو الذى كان بطل المعارك التى وقعت بين السنوسية والانكليز فى جهات مرسى مطروح فى أثناء الحرب العامة فسألته أن يروى لى من فمه تلك الوقائع ولو على وجه الاجمال لأن روايتى الأولى كانت عما سمعته من فم السيد السنوسى وقد تكون ثمة أمور فاتت السيد ولم تفت القائد العسكرى . فأخبرنى جعفر باشا بكل ما وقع وهو لا يختلف عما قاله لى السيد الا فى بعض تفاصيل حربية

فالقوة التى كانت تحت امرة السيد فى جوار السلوم هى ١٢ ألف مقاتل وكان عدد المقاتلة التى زحفت الى أرض مصر خمسة آلاف مقاتل وكانوا شطرين شطراً مع السيد نزلوا عند البئر المسماة ببير تونس وشطراً وصلوا الى مرسى مطروح تحت قيادة جعفر العسكرى ونورى أخى أنور . فجاء الانكليز أولاً وقاتلوا الفئة التى كانت عند مرسى مطروح وكانوا خمسة آلاف جندى بين مشاة وخيالة ومدفعية وأحاطوا منها بشرذمة لا تزيد على ٨٠٠ رجل اعتصمت بأكام منيعة عند الوادى المسمى وادى ماجد فدافعت عن نفسها دفاع المستميت ولم يقدر الانكليز عليها لوعورة الارض . و بقى القتال نحواً من ١٠ ساعات وخسر الانكليز أكثر من أربعمائة رجل بين قتلى وجرحى ونكصوا الى الوراء . و بينماهم مشغولون بقتلاهم وجرحاهم تمكن العرب الذين كانوا مع جعفر ونورى من الانسحاب الى الوراء بعد أن

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى وصفحات ٣٧٤ — ٣٧٦ من الجزء الثالث

دفنوا قتلاهم وحملوا جرحاهم وكان قتلى العرب ذلك اليوم ١٥٠ مجاهداً والجرحى مائتين

أما الفرقة التى كانت مع السيد عند بير تونس فهاجتها قوة نظير القوة التى جاءت الى مرسى مطروح ودارت رحى الحرب واستشهد من العرب ٧٠ مجاهداً وجرح ضعف هذا العدد ولكن خسائر الانكليز كانت أعظم فشغلوا بقتلاهم وجرحاهم وجاءتهم نجدات كان يمكنهم بها ان يحيطوا بالعرب لا سيما ان المكان حول بير تونس بسيط مستو ليس فيه شيء من وعورة ووادى ماجد . الا ان الله رحم العرب بمزنة سخية أوحلت بها الارض وعاقت سير الدبابات والاثقال الانكليزية فتمكن العرب من الانسحاب الى جهات سيدى برّانى وتلاقوا من فلّ مرسى مطروح فزحف اليهم الانكليز بجميع قواتهم وكانت بارجة حربية تمطر العرب قنابرها من البحر وهناك تغلبوا على العرب بكثرة العدد والعدد فنهم من انهزم الى السلوم وعبر الحدود قافلاً ومنهم من استشهد ومنهم من جرح ومنهم من استسلم و بقى جعفر باشا يقاتل ومعه جماعة الى أن جرحوا بالسيوف وسقطوا فتقفهم الانكليز اسرى واتوا بجعفر الى الاسكندرية

وأما المرحوم السيد فانه انصرف بعد واقعة بير تونس الى واحة سيوه و بعد هذه الواقعة جرت معه الحوادث التى ذكرناها فى ترجمة حاله

— ٢ —

منذ انطوى استاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله لم يشعر الخوف قلبى فيما عدا المصائب التى رزئت بها فى أفراد عائلتى ماأشعره النبأ الصادع والخبر الفاجع الذى نقل الى الآفاق نعى الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين ومثال الغزاة المرابطين السيف الباتر السائر على هدى الصحابة الكرام فى العصر الحاضر محيى مآثر الأوائل فى أيام الأواخر سيدى أحمد الشريف ابن سيدى الشريف ابن سيدى محمد بن على السنوسى رضى الله عنه وعن سلفه وأرضاهم وجعل فى جوار قدسه مأواهم (١)

إن فجيعة العالم الاسلامى بهذا الرجل الكبير من رجاله بل بهذا الجبل الراسى من جباله هى من الحوادث التى تشغل مكاناً خاصاً فى تاريخ مصائب الاسلام الذى أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب ، وان هذا الفقيد العظيم لو عاش فى زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية

(١) كتب عطوفة الأمير هذه المقالة والتى تليها فى جريدة الجهاد الغراء بمناسبة نعى الفقيد رحمه الله

والفتوحات العمرية لما كان مكانه فى ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الاسلام فى الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون الى جدار الصين . فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله ووقف مدة عشرين سنة فى وجه دولة من الدول العظام فى عصر دثرت فيه معالم الجهاد وانطفأت جذوة الاسلام حتى لم يبق منها الا الرماد واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوربية ضرباً من ضروب الحماقة وعم ذلك جوعهم الحاضر منهم والباد. وانتشر فى الربى والوهاد . ومع هذا فان سيدى أحمد الشريف السنوسى قد أتى ببرهان ساطع ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين فى قطر لايتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الارادة وثبات العزم ومضاء الصريمة وإباء الضيم وترجيح المعنى على المادة وإيثار الشرف على الترف وامتلاء القلوب بالايمان ووقف النفوس على اعتزام عزائم الاسلام ان تثبت مدة ٢٤٠ شهراً بازاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليوناً مجهزة بجميع ماهى مجهزة به عظميات دول العالم المتمدن لها من فيالق البر وأساطيل البحر وسيارات الكهرباء والمحلقات فى الفضاء مالا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة فى الصف الأول فى ممالك الأرض .

وقد يقول المتعنتون الذين فى قلوبهم مرض والذين لايروقهم إلا أن يروا الاسلام ذليلاً مهيناً : وماذا أفادنا قيام السيد السنوسى فى وجه ايطاليا وهل كان ذلك إلا سبباً فى زيادة قهر المسلمين وإرهاقهم بأفانين الظلم وأساليب الاستئصال فى طرابلس الغرب ؟ فلو كان هؤلاء الأهالى قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التى قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتها عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذى هم فيه والخطوب التى أبادت خضراءهم وما أشبه ذلك من الأعاليل التى تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنبى أياً كان .

وجوابنا على ذلك بسيط وهو : إننا مارأينا أمة أوربية مهما قل عددها وانقطع مددها قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوربية عظيمة مهما علا سلطانها وغلظت ملكتها فى الأرض بل القاعدة عند الاوربيين — الذين هم قدوة الشرقيين الآن فى جميع المآخذ والمتارك — هى أن الأمة المستقلة لابد لها من أن تذود عن حوضها وتدافع عن شرفها الى النسمة الأخيرة من حياتها . وان الذى يموت بغير دفاع فالموت أولى به من الحياة بلا نزاع . وان

بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاماً وأرجى حياة من الكثرة المستنيمة الى الذل ولو كانت كالجراد المنتشر . وقد حققت الحوادث وأيدت التجاريب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء وأن قول الشاعر :

قاتل عدوك بالمسا ن وان قدرت فبالسنان

إن العداوة ليس يصـ لحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث كما دانت بها دول العالم القديم . ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لايطاليا لما كان لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم ، وامتداد أيدي الأوربيين بدون أدنى تردد الى كل قطر من الاقطار الاسلامية قياسا على قضية طرابلس واعتقادا بأن هذه الأمة قد فقدت حسيس الحياة فهي لا تبدي ولا تعيد ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام لأنه ما لجرح بميت ايلام

قد استشهدنا على صحة مبدإ المقاومة ولو كان المعتدي قويا والمعتدى عليه ضعيفا بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حربا وسلما وعملا وعلما ولم نتعرض الى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاهم كتابهم عن الخضوع للاجنبيين عنهم ويقول لهم « إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ولم يكن تقديمنا الحجة الاولى لكوننا أشد بها اقتناعا من الحجة الثانية ولكن لمعرفتنا أن مثل هؤلاء المصابين بمرض الافتتان بالسلطة الاوربية ليسوا ممن يقبلون الجدال على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية وإنك ان لم تستظهر عليهم بكتاب أوربي أو سنة غربية لم يفدك الاخذ والرد معهم شيئاً

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الاسلام الى هذا الوقت قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة والامير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا ١٧ سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد بن عبد الكريم الخطابي الريفي الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة تواقف فيها مع دولتي فرنسا وأسبانيا

معا وجها لوجه وزلزلنا فى حربه زلزالا شديداً ولولا السيد أحمد الشريف رحمه الله لكانت ايطاليا استصفت قطرى طرابلس وبرقة من الشهر الاول من غارتها الغادرة عليهما واننا لا نزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الاوربية عن الحملة الايطالية يوم جردتها على ذينك القطرين اذ قال بعضهم ان ايطاليا ستقبض على ناصية الامر وتستكمل هذا الفتح فى مدة ١٥ يوما وقال أشدهم تشاؤما وأقلهم تخيلا وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور ان هذا الفتح الذى يستسهله الناس على ايطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالاقل . . . . فليتأمل أولو الالباب كيف ان هذه الثلاثة الاشهر امتدت عشرين عاما ورزأت الدولة الايطالية بمائة وخمسين الف عسكرى قتلى عدا الجرحى وبثلثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح . هذا كان مجموع خسائر ايطاليا منذ ستين بحسب الاحصاءات الرسمية . وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند

نعم لم تأكل ايطاليا فى اعتدائها الفظيع هذا مريئا ولم تشرب هنيئا وعلق فى حلقها من سمك الاسلام حسك لا يزول فى الاحقاب ولا فى القرون وكل ذلك بما أراده الله على يد رجل قد كان يفهم الاسلام حق الفهم ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة ولم يكن فى قلبه شئ من الدنيا بجانب الآخرة وكانت جميع حطام هذا العالم الفانى لاتوازى عنده جناح بعوضة فى جانب الواجب الاسلامى وهذا الرجل هو السيد السنوسى الكبير الذى لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئا ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً . وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار الا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف وقائداً من قواده

قلت ان السيد السنوسى لو كان فى عصر السلف لكان يلزّ فى صف أعاظم أبطال المسلمين فكيف وهو فى عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب . وان هذه المقابلة تذكرنى بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما قام أحد بأمر الاسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المدينى المحدث الشهير : ولا أبو بكر الصديق ؟ فأجاب ولا أبو بكر الصديق . وذلك لان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان له رجال وأعوان وان أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان وانما كان يناضل بقوة نفسه وحدها

ونحن نقول لو كانت الدولة العثمانية قاومت ايطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من ايطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحياناً بموالاة الهزائم عليه لما كان فى ذلك مايقضى بالعجب . ولكن الذى قام هـذا المقام الشريف و وقف هذا الموقف التاريخى النادر النظير هو رجل لايملك سوى قوة إرادته ومتانة إيمانه و إيمان رجاله وعزة أنفسهم بالاسلام وصبرهم فى البأساء وحين البأس . و بينهم و بين عـدوهم فى الأعتدة والأسلحة والمال والعدد من الفروق الهائلة مالا يحتمل التنظير فى قليل ولا كثير . ففضله إذن أعظم جـداً من فضل الدولة العثمانية فى جهادها وان كان فضلها عظيماً . وهو وحده كان مصدر هـذه الارادة التى أنشأت باذن الله هـذا الجهاد الطويل العريض وحفظت شرف الاسلام المعتدى عليه فى طرابلس وغـير طرابلس لانه مما يجب أن لا نتمارى فيـه أن أوربا لاتعرف فى ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً أن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة ، وأن سيرة السيد أحمد الشريف هى بذاتها تاريخ . وإن كل من عرف عن كثب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمـه وعلمه وزهـده فى الدنيا وحبـه لمعالى الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومؤاساته للفقراء وحنـانه على الضعفاء وشـدته مع ذلك فى الدين وانحصار كل همومـه فى استتباب أمر المسلمين ومحافظته على الفـرائض والسـنن وغـير ذلك من الأخـلاق العاليـة والهمم الشماء والمنازع القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام ولا أقول هذا فى مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة وأن يحملهم الموت على طى الهنات وتناسى السيئات بل أقول انه كان هذا لسان جميع من خالطوه والفقيد رحمه الله ملآن حياة وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها و يعرف أكثر منها . وطالما كان يقول الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم : ان الأمة الاسلامية والدولة العثمانية لم تقدرا هذا الرجل حق قدره .

ولقد ترجمت السيد احمد الشريف فى حياته فى الجزء الأول من حاضر العالم الاسلامى فى ثمانى عشرة صفحة مطبوعة بالحرف الرفيع أوردت فيها خلاصة مواقف المرحوم فى الحرب الطرابلسية من بدايتها الى أن قضت عليه الأحوال بمغادرة طرابلس فى غواصة ألمانية الى الاستانة الى آخر مدة إقامته بتركيا ، ولما عزمنا مؤخراً على طبع هـذا الكتاب استئنافاً وأضفنا اليه هذه المرة ضعف الحواشى التى علقناها فى المرة الفائتة ألحقنا بهـذه الترجمة عدة

صفحات عن بقية تاريخ المرحوم بعد مفارقتي إياه في مرسين وكيفية رحيله الى الشام فالحجاز حيث ألقى عصا التسيار ولم يزل يتردد في تلك البقاع المباركة الى أن لقي ربه

فهذا التاريخ الزاهر قد كتبناه في حياته ولا نخشى فيه لومة لائم ولا قولة قائل إننا أعطينا السيد أكثر من حقه . ولست مقتنعاً بما حررته في «حاضر العالم الاسلامي» من سيرة هذا المجاهد العظيم الذي لا ينجب مثله الدهر في مئات من السنين في علو الهمة مع التواضع وشدة الأنفة مع الخشوع والتناهي في التقوى مع مزيد الكياسة والاسراف في الخير واكرام الضيف مع الاقتصاد على النفس والجمع بين الاضداد التي كانت تجتمع بمقاييس ولا شك أوسع في جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . أقول جده علي بن أبي طالب لأنه ثابت بقدر ما يمكن ثبوت الانساب أن السادة السنوسية أبناء هذا البيت الكريم هم خطابيون أدارسة من ذرية إدريس صاحب المغرب حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام . فلا بد لي إن شاء الله من أن أجمع مناقب الفقيد في كتاب خاص أنشره في العالم الاسلامي شرقا وغربا وأسميه « التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف » وأفصل فيه ما أجملته في الترجمة السابقة وذلك لأن الجميع لايتسنى لهم أن يقتنوا «حاضر العالم الاسلامي» أربعة مجلدات وأرى من مصلحة هذه الأمة أن تقرأ سير مثل هؤلاء الرجال حتى تقتدى بهديهم وترى ما كانوا عليه من احتقار هذه الدنيا في سبيل الواجب المقدس . إذ ليس هذا الخلق بكثير مع الأسف في هذا العصر الذي تكالب الناس فيه على المادة وعبدها الكثيرون من دون الله وكذلك أرى من الواجب على نشر هذه السيرة الشريفة لأنني أوسع الناس اطلاعا على أحوال هذا الامام الذي كنت له خليلا وكان بحق إمام السيف والقلم ولأن سيرته هي جزء من التاريخ العام الذي لا يمكن أن يكتب بانصاف إن لم تتسع منه صفحات حافلة بأعمال السيد أحمد الشريف السنوسي قدس الله روحه

ولذلك تراني في هذه المقالة مقتصراً على هذه اللمحة الدالة تاركا التفصيل لما بعد .

وانما أحب أن أذكر من مناقبه بعض الشيء الذي اطلعت عليه تمام الاطلاع أيام إقامتي بمدينة مرسين ملازما له . فاني بعد استقلال تركيا كنت عزمت على السكنى في الاستانة فرحاً بجلاء الأجانب عنها وانكشاف تلك الغمة ولله الحمد وكان السيد يومئذ ساكناً في مرسين . فعند ما علم بورودي الاستانة أسرع بالكتابة الى يلتمس مني أن أسكن بقربه في

مرسين لأنى كنت من قبل فى مراسلة متصلة معه من أيام ذهابى الى الجهاد فى برقة ، وكان بعد التجربة الطويلة لا يثق بأحد ثقته بى وكان يفضى الى بكل ما فى نفسه وكنت أنا أقوم بتبليغ الدولة أكثر ما يهمه من مهامه وكنت وسيطه الدائم لدى صديق أنور رحمه الله وهذا كله قبل أن تعارفنا بالوجوه . فلما حصلت أنا فى الاستانة سنة ١٩٢٣ لم يكن أسرع منه إلى دعوتى الى السكنى بجواره فى مرسين لتتم بيننا المعارفة . وكانت الحكومة التركية قد أنزلته فى دار فسيحة ذات حديقة غناء فى ظاهر مرسين وجئت أنا فاكتريت داراً فى البلدة وكنت أختلف الى السيد كل يومين مرة أجلس فيها و إياه ساعات طوالا فى ذلك القصر المشرف على الرياض والبساتين فكان كل منا يأنس بالآخر مالا يأنسه بأحد لما بيننا من ارتباط القلوب من قبل ومن بعد . وما من أحد تعمق فى معرفة حقيقة هذا الرجل الا ازداد له حرمة وتوقيراً . فكانت معارفة الوجوه بيننا سببا لزيادة الحرمة وتضاعف الاغتباط بالصحبة وما أمتن الوداد اذا كنت تحترم من تحبه وتحب من تحترمه

وإنى لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان فى مرسين وذلك سنة ١٣٤٢ فكنت أفطر فى منزلى بالبلدة ثم أذهب الى خرستيان كوى حيث يقيم السيد ونصلى وراءه العشاء والتراويح . وكان يجتمع المغاربة الذين فى مرسين نحواً من أربعين شخصاً ويصلون وراءه أيضاً . فكان يختم القرآن الكريم فى كل خمس ليال مرة أى كان يقرأ خمس القرآن فى كل صلاة وكنت صليت وراءه التراويح مرة أو مرتين فرأيته يبقى فيها زيادة على ساعتين ، فعجزت عن ذلك وصرت أقتصر على صلاة العشاء وكانوا هم يصلون التراويح وبعد الصلاة نجلس إلى السحور ، وكان فى القراءة يتدفق كالسيل ولا يتوقف ولا يتردد ولا يتلعثم وكنت أقضى من ذلك العجب العجاب وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الخمسين والستين من العمر وتحمل من الهموم والأثقال ماتنوء به الجبال وهو لايزال يتذكر كتاب الله كله ويقرأه عن ظهر قلبه كقراءته للفاتحة . لم أتذكر أنه مدة الشهر من أوله الى آخره وفى الختمات الست التى ختمها لكتاب الله توقف فى القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات كان يقف قليلا ليتذكر الآية وكان وراءه شاب تونسى حافظ فيسرع بالقائه إياها له فيمضى فى القراءة مضاء السهم وهذا غريب فيمن بلغ تلك السن وانطوى على ذلك الهم العظيم من فراق الأوطان وتنوع الأشجان وجور الحدثان .

ولم يكن للسيد غرام فى الدنيا الا بأمر هذه الأمة ولما سألته عند اجتماعنا فى مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالا أجابنى : قد صاروا الآن رجالا وما أنا بمفكر فى أمرهم . وانما يهمنى أمر هذه الأمة المعذبة فى طرابلس . وكان فى قلبه من أمر طرابلس مالا يعلمه إلا الله ولكنه كان من إيمانه فى ثبات الجبال وكان يرى فى هذه المصائب مقدمات يقظة الاسلام .

وقد أنشر فى الكتاب الذى أخصصه به صور مكتوباته الى هذا الفقير الى ربه فانه لايزال محفوظاً عندى لاأقل من عشرين كتاباً وان كان فقدمنها الكثير بتوالى الأسفار .

وكم من مرة تزلفت اليه ايطاليا بأصناف المواعيد والتعهدات على أن تبقيه على رياسته الدينية والنظارة العامة على جميع الزوايا السنوسية وأوقافها فى جميع البر الطرابلسى وأن تكون كلمته هى العليا الخ . . وكانت أجوبته كلها واحدة وفى احدى المرار حررت الجواب أنا بقلمى وهو طلب الاستقلال التام فى الداخل وعقد اتفاق مع ايطاليا لايمس الاستقلال فى شئ . وغاية ما كان يتساهل به هو توكيل ايطاليا فى العلاقات الخارجية . وأما سبب خروجه من تركيا فقد كنت أريد أن لاأتعرض لبيانه الآن حتى لاأشوب جلالة هذا التأبين بنشر أحدوثة مستهجنة ان كانت قد رضيت بها حكومة أنقرة لنفسها فلا شك أن الأمة التركية الكريمة لن ترضى بها ولا بد أن يأتى يوم يناقش فيه الأتراك الكرام جماعة أنقرة الحساب على معاملتهم لرجل كانوا لجأوا اليه قبل أن اتسق أمرهم واستنجدوه فى أحرج الأوقات ودعوه وهو فى بروسه أن ينضم اليهم واستفادوا من نفوذه فى فتنة قونية وفى فتنة الأكراد الأولى حتى عرضوا عليه الخلافة الاسلامية بالحاح مكان السلطان وحيد الدين وامتنع عن قبولها ولم تزل أنقرة تبره وتكرمه وتتودد اليه الى أن أمنت على نفسها بعد معاهدة لوزان فقلبت له ظهر المجن واتخذت لاخراجه من تركيا وسيلة واهية وهى أن شيخا تركيا من مريدى الطريقة السنوسية ألح على الاستاذ المرحوم فى اعطائه توصية الى الأمير سليم ابن السلطان عبد الحميد ليذهب الى بيروت ويتعرف الى الأمير بهذه الوصاة . فدافعه السيد كثيراً وقال له إنه ليس بينى و بين الأمير سليم مكاتبة . ولكن هذا الشيخ كان ساذجا لايفهم تلك القصص ولما كان السيد بسائق فطرته من كرم الأخلاق والحلم بحيث لايكسر خواطر المنكسرين وكنت أنا غائبا حينئذ فى جنيف فكتب له سطرين الى الأمير سليم وختمهما بالآية الكريمة (والله مع الصابرين) فقبضت الشرطة

على حدود سوريا على هذا الرجل ووجدت معه هذا المكتوب فبعثت به الى أنقرة وهناك كانوا ينتظرون سبباً . ليتخلصوا من السنوسى بعد أن انقضت حاجتهم اليه ومن أحبك لحاجة أبغضك عند انقضائها فصدر الأمر فى الحال الى والى مرسين باخراجه من تركيا ونسيت أنقرة جميع ماسبق من جليل خدماته للدولة والملة ولتركيا الانقرية نفسها وكافأته بهذه النهاية التى تبقى سبة على الدهر فى حقها . لا بل نشروا فى جرائدهم انه قد خان حكومة تركيا ! !
وأما هو فلما حصل فى الشام ثم فى الحجاز لم يكن يقول فيهم إلا الخير وكان يذكر حسن صنيعهم ويدعو لهم بالهداية والتوفيق ولم يكن يمن عليهم بخدماته ولا يعتد بشىء من أعماله وكان أكمل من أن يذكر شيئا من ذلك . وقال لأخى حسن يوم خروجه من مرسين : لو كان أخوك هنا ماهفونا هذه الهفوة

ذكر الأخ السيد محمد على الطاهر صاحب الشورى قصة المكتوب الذى كنت أرسلته فى الأيام الأخيرة جوابا للفقيد على كتاب جاءنى منه منذ أشهر وكلفت الأخ أبا الحسن بارساله الى السيد بواسطة ذكرتها له . وفى الحقيقة لست أعلم ان كانت هذه الرسالة بلغته قبل وفاته أم بقيت فى الطريق وسأعلم ذلك . وسواء بلغته أم لم تبلغه فقد كنت معه وكان معى وكان يهمنى من أمره مايهمنى من أمر نفسى وكان بين نفوسنا بريد دائم والأرواح جنود مجندة كما ورد فى الحديث الشريف

اللهم انه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق وانه كان القدوة المثلى بين خلائقك والحجة الوثقى بحقائقك والرجل الذى أدى الى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب عليه لدينه ولقومه ولناسه وللانسانية التى كان لها مثالا ، فأعل درجته يارب فى جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوئه فى عقباه المقام الكريم الذى يليق بكرمك العميم وبثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم واستحقوا النعيم المقيم انك أنت الرحمن الرحيم آمين

— ٣ —

فى الطبعة الجـديدة من حاضر العالم الاسـلامى التى تتم من الآن الى شهرين يجـد القارئ ترجمة لمرحوم سيدى أحمد الشريف أوفى معلومات من الترجمة التى فى الطبعة الاولى

ومن جملة ذلك الكتب التى وردت على السيد من اللورد كيتشنر والجنرال ماكسويل وغيرهما من رجال الانـكليز ومنها تتجلى المساعى التى سعتها انكلترة لاستجلاب مودة السيد والمحافظة على رضاه وهى مكتوبات لم تنشر فى محـل ولن يجدها أحد إلا فى «حاضر العالم الاسلامى» الطبعة الجديدة

وبرغم جميع ما بذلته انـكلترة للسيد من وسائل الاستعطاف فلما بلغ السيد أن بعض الناس يتهمونه بموالاة الانـكليز وبالتلكؤ عن الزحف الى مصر زحف الى مصر مجتازا السلوم بالقوة التى معه وهو واثق بأنه لا بعددها ولا بعددها تقدر أن تقاوم القوة الانـكليزية التى كانت مرصدة لها

ولولا شجاعـة العرب خارقة العادة لوقع الخمسة آلاف مقاتل الذين كانوا مع السيد فى الأسر بأجمعهم ووقع السيد نفسه أسيراً كما أن البطل جعفر باشا العسكرى ـ سفير العراق اليوم بلندن ـ جرح وأسر ذلك اليوم وما أمكن العرب أن يخلصوا من خطر إحاطة القوة الانـكليزية بهم إذ كانت هـذه القوة ثلاثين ألف مقاتل إلا بمعجزات من البسالة واشتغال الجيش البريطانى بدفن الالوف من قتلاه وحمل الالوف من جرحاه . وهكذا تمكن السيد ومن معه من العرب أن يخلصوا من الوقوع فى يد العدو ويقطعوا السلوم راجعين وأفلت نورى أخو أنور بأعجوبة .

وبعد هذه الحملة قلب الانكليز للسيد ظهر المجن وزحفوا لقتاله فاضطر أن يتقهقر الى سيوه فقصـدوه الى سيوه بقوة عظيمة فـدافع السيد تلك القوة دفاع المستميت ودحرها وخرب كثيراً من دبابات الانـكليز المصفحة وانتهز فرصة ارتداد الانـكليز الى الوراء ففارق سيوه الى جغبوب الى آخر القصة مما ذكرناه فى تلك الترجمة وانتهى الأمر بذهاب السيد فى غواصة من ساحل العقيلة الى الأستانة .

وقد كان من نتائج عمل السيد هذا أن ضبطت السلطة الانـكليزية أملاكه فى سيوه وفى الواحات الدواخل وأن باعتها جزاء له على مهاجمة مصر .

ولما جرى الصلح فى لوزان سنة ١٩٢٣ بين تركيا ودول الحلفاء وأعاد الانكليز جميع ما ضبطوه للاتراك فى أيام الحرب كان من الواجب على تركيا أن تسترجع أيضا أملاك السيد أحمد الشريف السنوسى التى لم تضبطها انكلترة إلا بسبب حرب أصلاها إياها السيد بينما الانكليز يتزلفون اليه . وذلك قد كان من السيد لاجل خاطر تركيا وكان مصطفى كمال باشا وعد السيد عند انعقاد مؤتمر لوزان بأن الاتراك سيجعلون من شروط المعاهدة اعادة أملاك السيد بمصر

فلما انعقدت المعاهدة لم يجد عصمة باشا ومن معه حاجة للاهتمام بالكلام فى قضية أملاك السيد مع كونهم استرجعوا جميع ما كان الانكليز ضبطوه من أملاك التركة ، ولم تكن هذه المسألة عبئا ثقيلا عليهم لانها طلب حق لا يقدر الانكليز أن يقولوا فيه شيئاً .

ولما تم امضاء معاهدة لوزان ذهب السيد الى أنقرة مهنئا وقابل الغازى ومن جملة الكلام سأله عما فعلوه من جهة أملاكه حسبما كان الغازى وعده به . فوجد السيد أنهم أهملوا هذه القضية لان الغازى ارتبك فى الجواب وأحاله على عصمة باشا . ولما تكلم السيد مع هذا فى القضية لحظ أنهم لم يفتحوا هذا البحث فى لوزان . وأخذ عصمة يقول له انهم يقدرون أن يراجعوا الانكليز ولو بعد عقد المعاهدة .

أخبرنى المرحوم السيد بهذا فى مرسين . فقلت له : أفسألتهم مرة ثانية هل راجعوا الانكليز فى هذا الأمر ؟ فان هذا حق لك ومن الواجب على تركيا أن تسترد لك أملاكا ذهبت عليك بسببها .

فقال لى السيد : كلا ما راجعتهم ولن أراجعهم ولن أتلفظ بعد كلمة فى هذا الموضوع . نعم يمكننى أن أسعى لدى الحكومة المصرية فى رد هذه الاملاك لى فان ردوها لى فذاك والا فلست معاودا الكلام لاجلها مع أنقرة وكان من الأنفة بحيث لم يكن يريد أن يحمل نفسه على مراجعة أنقرة فى قضية كانوا وعدوه بها وأهملوها .

وهذه الاملاك تساوى مائة الف جنيه بالاقل . وقد بلغنى فيما بعد أن الحصة التى للمرحوم فى سيوه استردها له الامير ادريس ابن عمه . ولا أعلم ماذا جرى بالاملاك التى فى

الواحات الدواخل . فعسى أن تكون الحكومة المصرية أعادتها للسيد أيضا .

وخلاصة القول أن حكومة أنقرة كافأت السيد أحمد الشريف على مواقفه العظام فى جانب تركيا عموما وجانب أنقرة هى نفسها بجائزتين :

احداهما اهمال قضية أملاكه فى مؤتمر لوزان مع معرفتها أنه انما خسرها بسبب تركيا ومع استردادها أملاك جميع الاتراك الذين كان الانكليز ضبطوا أملاكهم فى أيام الحرب .

الثانية الأمر له بالخروج من تركيا بسبب مكتوب للأمير سليم العثمانى كتبه بناء على الحاح أحد مريدى طريقته من الأتراك . وكان ساعة كتابته هذا المكتوب كارها ولم يقل فى هذا المكتوب شيئاً يمس تركيا سوى أن هذا الرجل طلب منى هذه الوصاة ولم أجد بداً من اجابة طلبه . وختم المكتوب بآية « والله مع الصابرين »

ولما كان الواجب التعريف بهذه الحقائق ألحقت هذا الخبر بالترجمة السابقة

الاسيف

جنيف ٣ ذى الحجة « شكيب أرسلان »

حياة الشرق

دوله وشعوبه وماضيه وحاضره

بقلم الكاتب الكبير

محمد لطفي جمعة المحامي وعضو المجمع العلمي العربي

كتاب متمم لحاضر العالم الاسلامي وفي نفس الموضوع وقد احتاج المؤلف لمراجعة ٥٠ كتاب بعدة لغات ليصل الى الحقائق التي دونها والاستاذ لطفي جمعه غني عن التعريف لكثرة مؤلفاته وكتاباته المتوالية في امهات الصحف العربية

الجامع اللطيف

في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف

تأليف مولانا المرحوم جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي المخزومي

كتاب عنوانه يدل على بعض محتوياته وهو جامع لتاريخ مكة المكرمة التي بها البيت المعظم فتاريخها أهم شيء ينظر اليه المعتنون بالدين * وهذا الكتاب لأهميته طبعت في أوربا الكراسات القليلة التي وجدت منه ولما وجد المرحوم والدنا أثناء حجه المقبول هذه النسخة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل التحية أحضرها معه وخدمناها خدمة لامثيل لها بعمل فهارس لأسماء الرجال والنساء والأماكن هذا بخلاف فهرست الكتاب العمومي وقد جاءت هذه الطبعة كافية مستوفية وهو مطبوع في حجم الربع وعدد صفحاته يزيد عن الأربعمائة صفحة ولا يستغني عنه كل من يهمه أمر مكة المكرمة وتاريخها

نظرات الشوري

للاستاذ الكبير السيد محمد على الطاهر

صاحب جريدة الشورى الغراء

هي خواطر ونظرات فى الشؤون الشرقية فاض بها قلب كاتبها الغيور لما تعطلت جريدته فمن شعر بفقد حملات جريدة الشورى الغراء فى حملتها على الاستعمار وخدمتها للعالم الاسلامى والعرب والشرق واشتاق الى ابا الحسن صاحب الشورى وتحفه ونقداته للاستعمار وروحه الخفيفة الجذابة التى تسيطر على كتاباته أن يطلب نسخة من نظرات الشورى فيجدها تحفه تهدى وخير ما يقرأ

بهجة الحاوى

لعلامة زمانه . وفريد عصره وأوانه زين الدين

أبى حفص عمر بن الوردى . قدس الله

روحه ونوّر ضريحه

وبهامشه كتابان

التيسير نظم متن التحرير ، والتدريب نظم غاية التقريب

وكلاهما للعمريطى

ثلاثة متون فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه جامعة لأصول المذهب مختصرة مفيدة سهلة الحفظ وقد وضعنا للكتاب فهرسا مطولا ليسهل المراجعة فيه وطبعناه على ورق ناعم بحروف كبيرة مشكولة شكلا كاملا ليتجنب الطالب التحريف ويحفظ على صحة كما جعلنا ثمنه زهيدا حبا فى نشر مذهب امامنا الشافعى رضى الله عنه

قاموس الاعلام

للاستاذ العالم المحقق خير الدين الزركلى

هو معجم تراجم لنحو ٨ آلاف شخص بين رجال ونساء من العرب والمستعربين من العصر الجاهلى الى سنة ١٣٥٠ ﻫ و ١٩٣١ ومن مزايا هذا القاموس المبتكر فى بابه باللغة العربية أنه وضع على الطريقة الجديدة اختصار وايجاز وتحقيق ومما يزيده أهمية أنه لايترجم الاحياء وهو يقع فى ٣ مجلدات ضخمه

مسئلة ترجمة القرآن

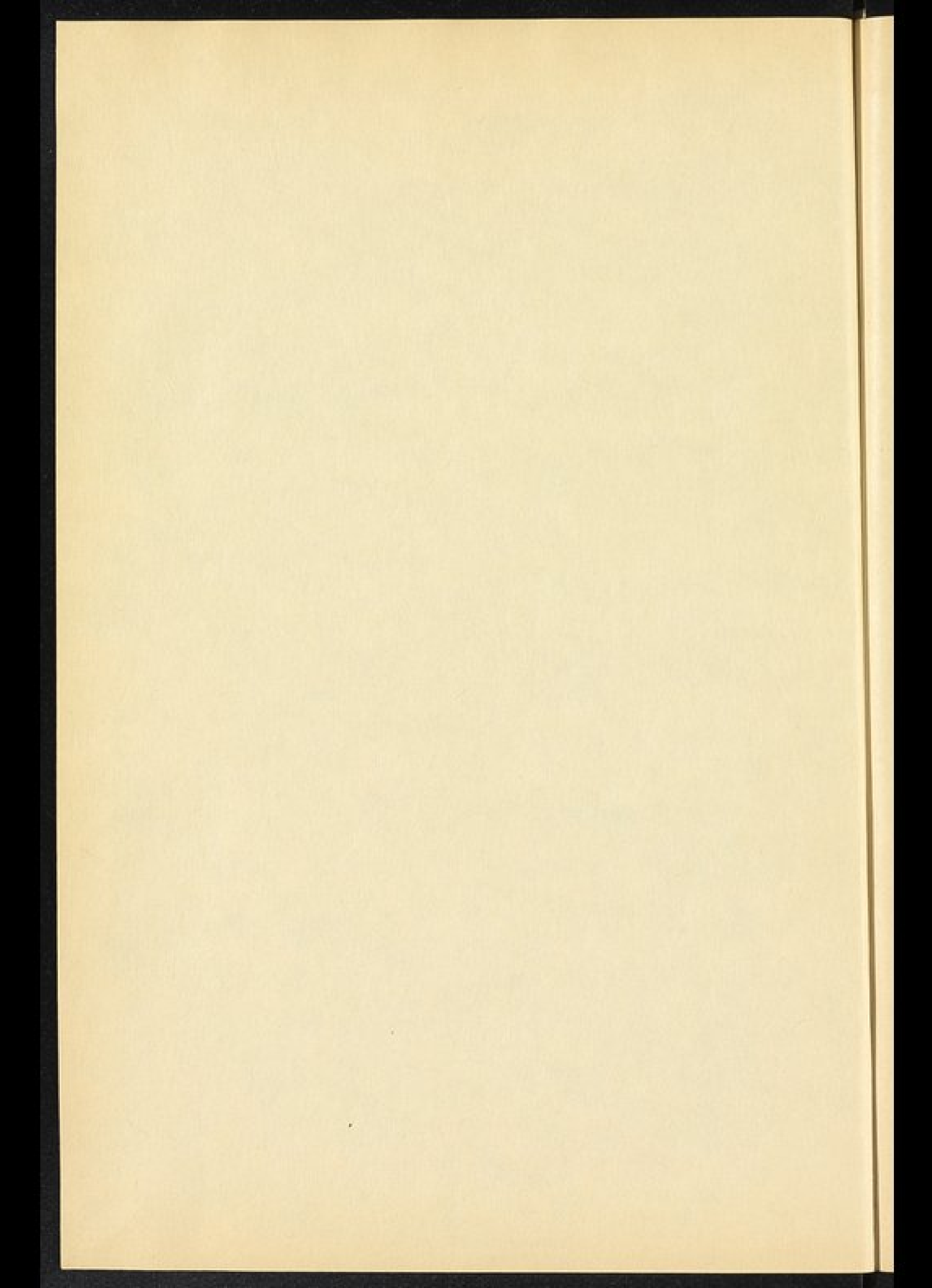
تأليف سماحة الشيخ مصطفى صبرى افندى شيخ الاسلام سابقا فى الدولة العثمانية

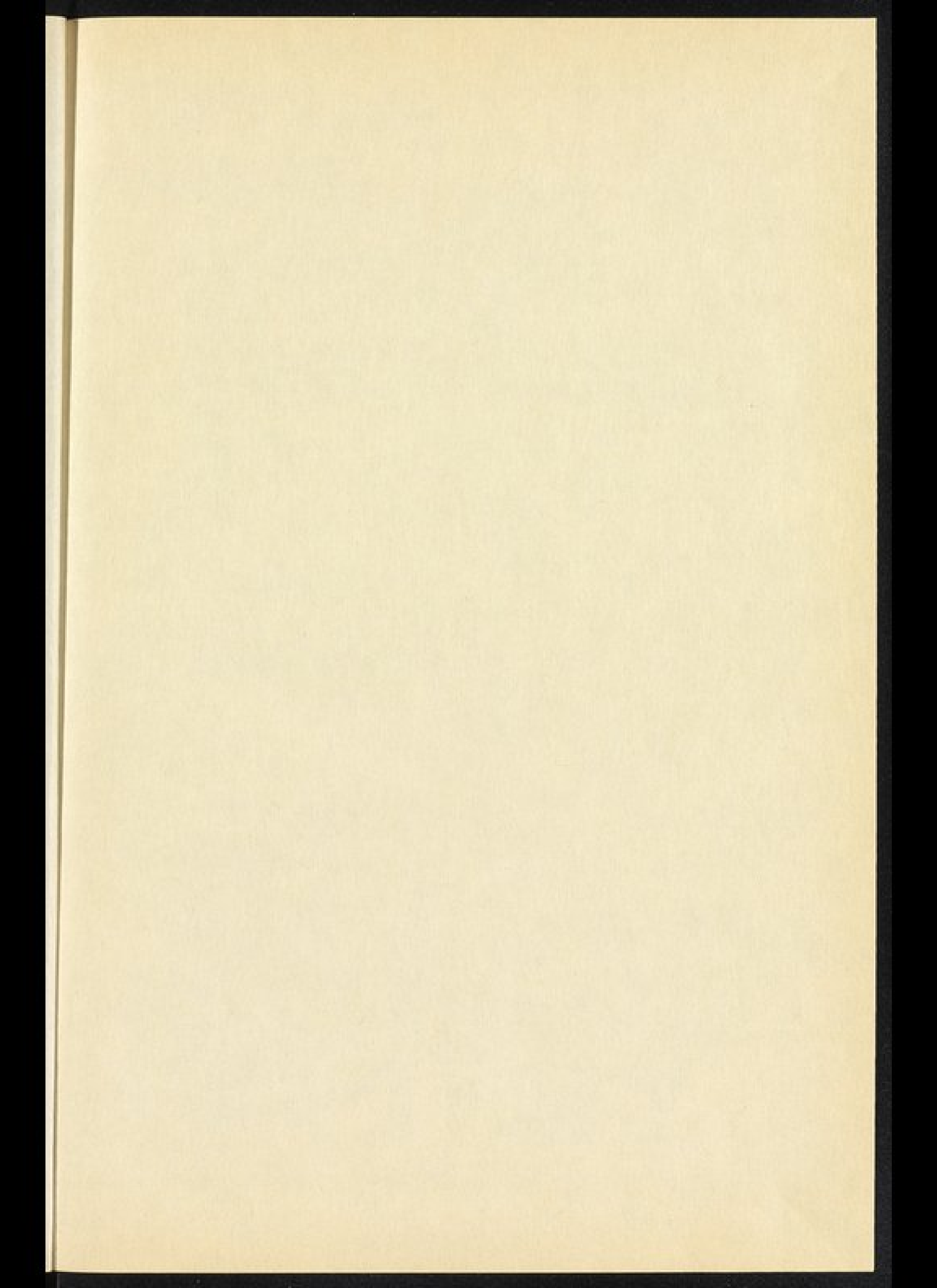
وهو يبرهن على أنه لايصح ـ بناء ماحدث فى تركيا الجديدة ـ الصلاة بالترجمة على أى مذهب اسلامى وقدادحض شبه الكاتبين فى جوازها ونقض مسانيدهم الفقهية والاجتماعية فى ١٤٦ صفحة كبيرة وقد شهدت له مجلات مصر الدينية المحترمة بالمنزلة الفريدة الممتازة

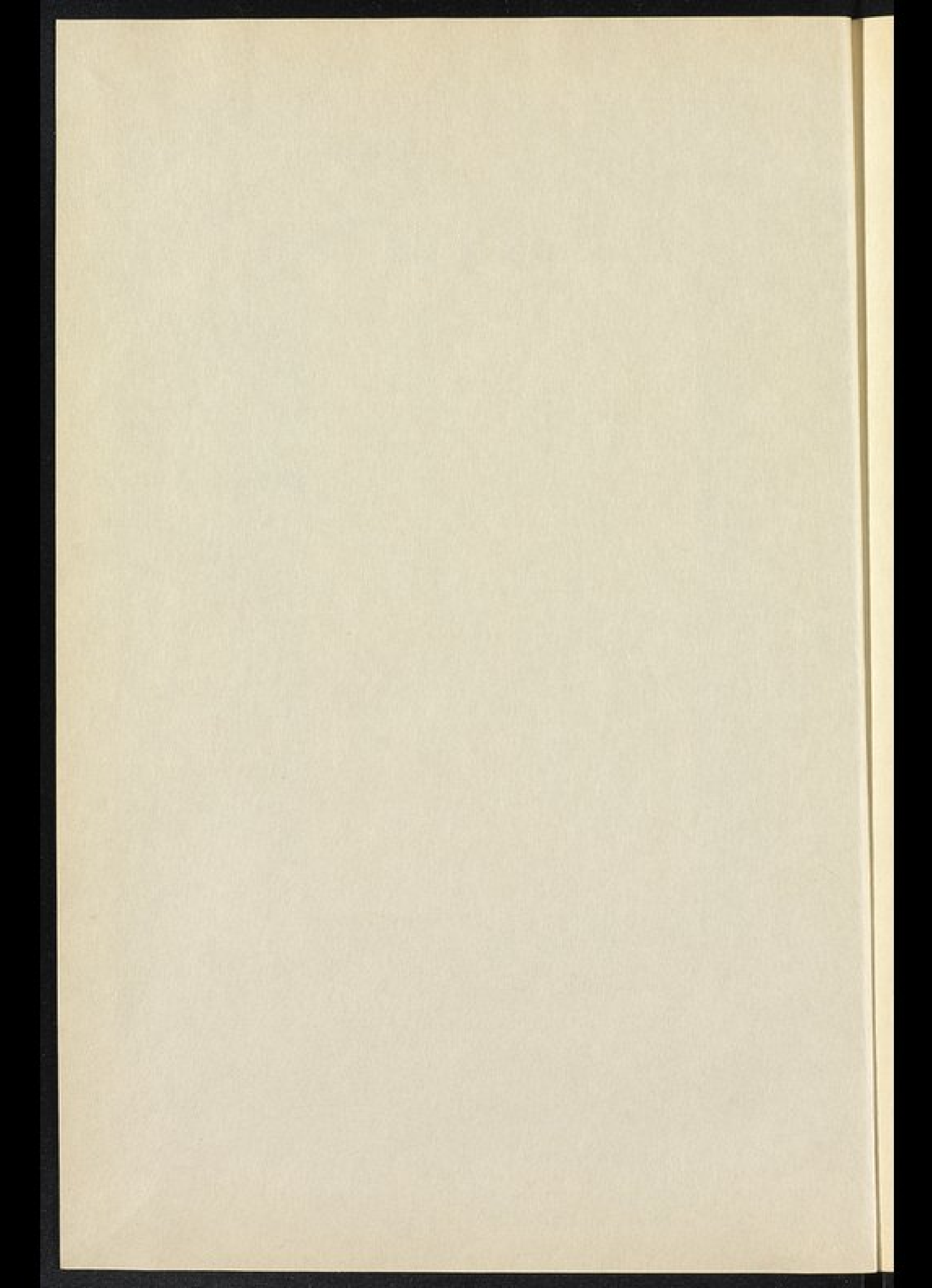
تفسير الجلالين مشكول الآيات

للامامين جلال الدين محمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى جزآن وبهامشه أربعة كتب حلينا بها هذه الطبعة الصحيحة

(الأول) فى أسباب النزول للسيوطى (والثانى) فى معرفة الناسخ والمنسوخ لأبى عبد الله محمد بن حزم (والثالث) رسالة جليلة تتضمن ما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل للامام أبى القاسم بن سلام (والرابع) ألفية الامام أبى زرعة فى غريب القرآن وقد رتبت أحسن ترتيب








COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0023570768

